شرح نهج البلاغة

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الثالث

دار الرسول الأكرم (ص)
دار المحجة البيضاء

شرح
نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح نهج البلاغة

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الثالث

دار الرسول الأكرم (ص)

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

دار الرسول الأكرم
طباعة - نشر - توزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك شارع القسيس خلف البلدية - ص ب ١١ / ٨٦٠١
هاتف ٨١٤٢٩٤ / ٠٣ - فاكس ٨٢٢٥١٩ / ٠١ - ٠١٦٠١٠١٩

١٥٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم

فَمَنِ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ(١) نَفْسَهُ عَلَى اللهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ عَلَى سَبِيلِ(٢) الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ(٣) شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ(٤) مَرِيرَةٍ.

وَأَمَّا فُلاَنَةُ فَأَدْرَكَهَا(٥) رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ(٦) غَلاَ فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ(٧) القَيْنِ(٨)، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا(٩) الأُولَى، وَالحِسَابُ عَلَى اللهِ تَعَالَى.

وصف الإيمان

منه: سَبِيلٌ أَبْلَجُ(١٠) المِنْهَاجِ(١١)، أَنْوَرُ السِّرَاجِ. فَبِالإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الإِيمَانِ، وَبِالإِيمَانِ يُعْمَرُ العِلْمُ، وَبِالعِلْمِ يُرْهَبُ المَوْتُ، وَبِالمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ(١٢) الآخِرَةُ، وَبِالقِيَامَةِ تُزْلَفُ(١٣) الجَنَّةُ، «وَتُبَرَّزُ(١٤) الجَحِيمُ(١٥) لِلْغَاوِينَ(١٦)». وَإِنَّ الخَلْقَ(١٧) لاَ مَقْصَرَ(١٨) لَهُمْ عَنِ القِيَامَةِ، مُرْقِلِينَ(١٩) فِي مِضْمَارِهَا(٢٠) إِلَى الغَايَةِ القُصْوَى.

حال أهل القبور في القيامة

منه: قَدْ شَخَصُوا(٢١) مِنْ مُسْتَقَرِّ الأَجْدَاثِ(٢٢)، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ(٢٣) الغَايَاتِ(٢٤). لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا لاَ يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلاَ يُنْقَلُونَ عَنْهَا.

وَإِنَّ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ[٢٥] اللهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّهُمَا لاَ يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ[٢٦]، وَلاَ يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ. وَعَلَيْكُم بِكِتَابِ اللهِ، «فَإِنَّهُ الحَبْلُ المَتِينُ، وَالنُّورُ المُبِينُ»، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ[٢٧]، وَالعِصْمَةُ[٢٨] لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لاَ يَعْوَجُّ[٢٩] فَيُقَامَ، وَلاَ يَزِيغُ[٣٠] فَيُسْتَعْتَبَ[٣١]، «وَلاَ تُخْلِقُهُ[٣٢] كَثْرَةُ الرَّدِّ[٣٣]»، وَوُلُوجُ[٣٤] السَّمْعِ. «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول لله صلى الله عليه وآله ـ عنها؟ فقال عليه السلام؟.

إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلَهُ: ﴿**الٓمٓ. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ**[٣٥]﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الفِتْنَةَ لاَ تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بَيْنَ أَظْهُرِنَا[٣٦]. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا هذِهِ الفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ[٣٧] حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ[٣٨] عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ[٣٩] ذلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذلِكَ لَكَذلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيْسَ هذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ البُشْرَى وَالشُّكْرِ. وَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ القَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ[٤٠]، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ[٤١] بِالشُّبُهَاتِ الكَاذِبَةِ، وَالأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ[٤٢] بِالهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالبَيْعِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَبِأَيِّ المَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ[٤٣]، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ».

اللغة

١ ـ يعتقل	:	نفسه يحبسها.
٢ ـ سبيل	:	الجنة طريقها.
٣ ـ المشقة	:	الصعوبة العسيرة.
٤ ـ المذاقة	:	الطعم.
٥ ـ أدركها	:	وصل إليها وبلغها.
٦ ـ الضغن	:	الحقد.
٧ ـ المرجل	:	بكسر الميم قدر كبير.
٨ ـ القين	:	بالفتح الحدّاد.
٩ ـ الحرمة	:	ما لا يحل انتهاكه.
١٠ ـ أبلج	:	واضح.
١١ ـ المنهاج	:	الطريق.
١٢ ـ أحرز	:	الآخرة. أدركها.
١٣ ـ تزلف	:	تقرّب وتقدّم.
١٤ ـ تبرز	:	تخرج وتظهر.
١٥ ـ الجحيم	:	جهنم.
١٦ ـ الغاوين	:	الضالين.
١٧ ـ الخلق	:	الناس.
١٨ ـ المقصر	:	المقعد والمجلس.
١٩ ـ مرقلين	:	مسرعين.
٢٠ ـ المضمار	:	مكان استباق الخيل.
٢١ ـ شخصوا	:	خرجوا.
٢٢ ـ الأجداث	:	القبور.
٢٣ ـ المصائر	:	جمع مصير ما يصير إنيه الإنسان من جنة أو نار.
٢٤ ـ الغايات	:	جمع غاية وهي ما يُنتهى إليه.
٢٥ ـ الخُلُق	:	السجية والطبع.
٢٦ ـ الأجل	:	وقت الموت، الغاية.
٢٧ ـ الري الناقع	:	المزيل للعطش.
٢٨ ـ العصمة	:	المنع، ملكة اجتناب المعاصي والخطأ.
٢٩ ـ يعوّج	:	ينحني ضد الاعتدال والاستقامة.

٣٠ ـ يزيغ	:	يميل.
٣١ ـ يستعتب	:	طلب منه العتبى أي استرضاه.
٣٢ ـ تخلقه	:	تبليه.
٣٣ ـ الرد	:	الترديد، التكرار مرة بعد أخرى.
٣٤ ـ الولوج	:	الدخول.
٣٥ ـ لا يفتنون	:	لا يبتلون أو يمتحنون.
٣٦ ـ بين أظهرنا	:	موجود بيننا.
٣٧ ـ أُحُد	:	موقع قرب المدينة المنورة وفيه جبل أحد وأيضاً فيه كانت الموقعة المعروفة.
٣٨ ـ حيزت	:	انقبضت عني وباعدت.
٣٩ ـ شقّ	:	صعب.
٤٠ ـ السطوة	:	الغلبة والقهر.
٤١ ـ استحل الحرام	:	إتخذه حلالاً جائزاً.
٤٢ ـ السحت	:	الحرام.
٤٣ ـ الردة	:	الرجوع عن الدين والكفر به.

الشرح

(فمن استطاع عند ذلك أن يعتقل نفسه على الله عز وجل فليفعل. فإن أطعتموني فإني حاملكم إن شاء الله على سبيل الجنة وإن كان ذا مشقة شديدة ومذاقة مريرة) قالوا: هذا الكلام منه يقتضي أن يكون قد تقدم ذكر ما يقع بين المسلمين من الفتنة ومن هنا يوصي الحاضرين بأن من استطاع منهم في ذلك الوقت أن يعتزل الفتنة ولا يقع فيها بل يحبس نفسه على طاعة الله ويلتزم بها فليفعل ذلك.

ثم أراد أن يأخذ بأيديهم إلى الجنة ويضعهم في الطريق المؤدي إليها وهذا الطريق وإن كان شديداً صعباً لأنه يحمل التكليف والعمل والكف عما تشتهيه النفس وترغب فيه بينما طريق النار من أسهل ما يكون فإنه بدون تكليف ويكون الإنسان مع شهواته وما يحب ويرغب، ولكن الإمام اشترط عليهم الطاعة له والانقياد لأوامره حتى يوصلهم إلى الجنة وهذا من أهم ما يجب لدخول الجنة فإن الطاعة لأمر الطبيب والالتزام بما يقول هو الموصل إلى الشفاء...

(وأما فلانة فأدركها رأي النساء وضغن غلا في صدرها كمرجل القين ولو دعيت

لتنال من غيري ما أتت إليّ لم تفعل ولها بعد حرمتها الأولى والحساب على الله تعالى) أشار بفلانة إلى عائشة أم المؤمنين وما وقع منها نحو شخصه الكريم وقد بيّن سبب ذلك بضعف النساء الذي يأخذهن ويجرهن إلى ذلك والمرأة بطبعها ضعيفة عاطفية صاحبة هوى إذا أحبت أصيبت بالجنون وإذا أبغضت كفرت وكفّرت وأم المؤمنين لم تخرج عن هذه القاعدة. . .

وبيّن أيضاً سبباً آخر وهو أنها كانت تحمل حقداً على الإمام ولكنه حقد رهيب عظيم لا يدعها تستقر أو ترتاح وشبهه الإمام بقدر الحداد الذي يغلي وقد ذكروا لحقدها أسباباً كثيرة:

منها: ما أشار به الإمام على النبي عندما استشاره في قصة الإفك فقال له: إن النساء كثير، أو قال: ما هي إلا شسع نعلك. . .

ومنها: كون فاطمة الزهراء وأحب الناس إلى النبي هي حليلة الإمام فسرت العداوة من الزوج إلى الزوج.

ومنها: إن علياً كان المنافس الوحيد الذي تخافه على من تحب له الإمارة والخلافة. . .

ومنها: إن النبي سد أبواب الصحابة كلها ما عدا باب الإمام.

ومنها: إن النبي كان قد دفع لأبي بكر براءة ليبلغها ثم انتزعها منه وأعطاها للإمام.

وهناك وقائع كثيرة لم تقدر أن تتحمل وقعها على قلبها فحقدت وازدادت حقداً.

وأقول: هذه هي مصيبة الكمال والضريبة التي تقع عليه باستمرار ولا جريمة لعلي إلا أنه أخلص لله وكان في خط الله وأخلص عباده إليه. . . وما كان الإمام ليصاب بما أصيب به لو كان من عرض الناس. . . إنه الكمال يواجهه النقص بكل ما يملك من ضعف وعجز ومكر واحتيال.

ثم إن الإمام أراد أن يجرّد أم المؤمنين من أهدافها الإسلامية في حربه وما كان منها إنما كان لدوافع شخصية خاصة تحملها في نفسها نحو الإمام ولذا قال: لو أنها دُعيت إلى الخروج ضد غيري مثل عمر لم تخرج عليه كما خرجت عليّ ولم تحاربه كما حاربتني فعدم خروجها على غيري الذي لو حل محلي وخروجها عليّ دليل على أن خروجها لقتالي وحربي لم يكن لله ولم يكن طلباً لمرضاته وإنما كان لحقد يعيش في قلبها. . .

ثم إنه عليه السلام بما يتمتع به من كمال عظيم يقصر عنه كل كمال قال: إن لها حرمتها الأولى من كونها من أمهات المؤمنين ففي الدنيا لها هذا الحق وأما في الآخرة فالحساب عند الله والوقوف بين يديه وهي قد أقدمت على حرب ذهب ضحيتها الكثيرون وفتحت باب القتال بين المسلمين وجرأت معاوية للوقوف في وجه الحق وأدت حربها يوم الجمل إلى انحراف فظيع في الأمة والله يحاسبها به ويسألها عنه. . .

كنت أقرأ هذه العبارة فيشدني الفكر قهراً عني إلى تصور لهذا الإنسان العظيم فلا أجد أكبر منه إلا رسول الله صلى الله عليه وآله. . . أتصور الأخلاقية الإسلامية التي يتمتع بها الإمام فأركع أمام هذا الإنسان الفريد في التاريخ وأصلي في محرابه مستلهماً منه كل أخلاقيات المسلم وآدابه. . .

(سبيل أبلج المنهاج أنور السراج فبالإيمان يستدل على الصالحات وبالصالحات يستدل على الإيمان وبالإيمان يعمر العلم وبالعلم يرهب الموت وبالموت تختم الدنيا وبالدنيا تحرز الآخرة وبالقيامة تزلف الجنة وتبرز الجحيم للغاوين وأن الخلق لا مقصر لهم عن القيامة مرقلين في مضمارها إلى الغاية القصوى) الحديث يتمحور حول الإيمان الذي هو عقيدة قلبية يقينية بالله ورسوله وبما جاء به النبي وهذا الإيمان واضح الطريق إلى الجنة أو أنه واضح الأصول فطري في النفس وهو مضيء نير لكل قاصد وطالب. . . وبالإيمان يستدل على الصالحات: من كان مؤمناً وصح إطلاق الإسم عليه استطعنا أن نعرف أنه يعمل الصالحات وهي كل الأفعال الطيبة المحبوبة المرغوبة لله لأن من مقتضى الإيمان عمل الصالحات كما أن من وجدناه يواظب على الأعمال الطيبة الصالحة استكشفنا من ذلك أنه مؤمن طيب فمن المعلول نستكشف العلة ومن العلة نستدل على المعلول. . .

ثم إنه عليه السلام يرتب على الإيمان ثمرة مهمة وهي أنه بالإيمان يعمر العلم فمن كان مؤمناً كان مندفعاً نحو العلم الذي يخدم الإنسان ويرفع من شأنه ويهيء له سبل السعادة وما فيه خير الإنسانية وسعادتها، ومن كان مؤمناً يجب عليه أن يتعلم ما يحتاجه في الحياة سواء كان على مستوى العبادات أم المعاملات من أمور المعاش أو أمور المعاد. . . ثم رتب على العلم أثره وهو أن به يرهب الموت لأن من تعلم حقيقة عرف حقيقة الموت فخاف منه وأعد له عدته واستعد له.

وبعد مجيء الموت تنتهي حياة الإنسان من الدنيا ويقفل ملفه منها ويهيء للآخرة وما فيها من حساب.

ثم قال عليه السلام: وبالدنيا تحرز الآخرة لأن الدنيا هي دار العمل وفيها يتم البيع والشراء فمن أحسن وأجاد فإلى الجنة ومن أساء وعصى فإلى النار. . .

ثم بعد أن يموت الإنسان ويأتي يوم الحساب تقرّب الجنة من المتقين وتبرز الجحيم إلى الغاوين الذين ضلوا السبيل وهذا مأخوذ من قوله تعالى: **﴿وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين﴾**(١).

ثم ذكر أنه لا بد من القيامة ولا بد للإنسان من ورودها والوقوف للحساب فيها. إنهم يسرعون نحوها في مدة حياتهم في الدنيا قاصدين إلى الآخرة التي هي أقصى غاية الإنسان ونهاية شوطه. . .

(قد شخصوا من مستقر الأجداث وصاروا إلى مصائر الغايات لكل دار أهلها لا يستبدلون بها ولا ينقلون عنها) الحديث عن أهل القبور فيصوّر حالهم يوم القيامة وأنهم قد خرجوا من قبورهم التي كانوا مستقرين بها وارتحلوا إلى البيوت الأبدية التي صاروا إليها بأعمالهم واختاروها بأيديهم فأهل الطاعة إلى الجنة وأهل المعصية إلى النار ولكل دار أهل لا يستبدلونها بغيرها أخف منها أو أحسن ولا ينقلون عنها إلى غيرها مما يرغبون ويطلبون بل هي لازمة لهم لا تنفك عنهم ولا تتخلى عن وجودهم. . .

(وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلقان من خلق الله سبحانه وأنهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق) وهذه جملة من وصاياه يوصي بها المسلمين وابتدأ بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأوصى بإقامتها وقد رغب فيها بجعلها من صفات الله بل من أخلاق الله باعتبار أنه سبحانه أمر بالمعروف عندما شرّع العبادات وأعمال الخير وما ينفع الإنسان وطلب من الناس أن يقوموا بها فإنه سبحانه ما أمر إلا بمعروف وكذلك ما نهى إلا عن منكر فقد نهى عن الزنا والسرقة والقتل وغيرها من المنكرات ورفع عن طريق الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عقبتين يمكن أن تكونا أهم العقبات المانعة وذلك أن هذا الواجب ربما ظُن أن القيام به يؤدي إلى الموت أو إلى نقصان الرزق فيكفّ المسلم عن وعظ الظالمين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فردّ الإمام على فساد هذا الظن أو الوهم بأنه لن يقدم الموت المؤخر ولن ينقص الرزق الذي قُدّر.

(وعليكم بكتاب الله «فإنه الحبل المتين والنور المبين» والشفاء النافع والري الناقع

---

(١) سورة الشعراء، آية/ ٩١.

والعصمة للمتمسك والنجاة للمتعلق لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستعتب ولا تخلقه كثرة الرد وولوج السمع «من قال به صدق ومن عمل به سبق» وصّى باتباع القرآن الكريم منبهاً لبعض أوصافه الموجبة للزومه وهي عدة:

١ ـ فإنه الحبل المتين: استعار له لفظ الحبل لأن من تمسك به نجا من عذاب الله وعقابه.

٢ ـ إنه النور المبين: فهو في نفسه نور وفي الوقت نفسه منور للقلوب من حيث يرفع عنها الغشاوة والجهل قال تعالى: **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾**.

٣ ـ إنه الشفاء النافع: إنه الوصفة النافعة لكل مرض نفسي أو روحي أو اجتماعي وفي كل مجالات الحياة.

٤ ـ إنه الريّ الناقع: فمن كان متعطشاً للعلم والمعرفة ففي القرآن ما يروي غليله ويحقق أمنيته.

٥ ـ العصمة للمتمسك والنجاة للمتعلق فمن التجأ إليه وتعلق بما فيه بأن عمل بجميع أوامره وترك نواهيه فلا شك أنه استمسك بالعصمة الوثقى ونجى من عذاب الله الجبار...

٦ ـ لا يعوج فيقام: ليس فيه خطأ في فكرة أو نقص في حكم فيحتاج إلى من يعدّله ويصححه لأنه من عند اللطيف الخبير قال تعالى: **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾**(١).

٧ ـ ولا يزيغ فيستعتب: لا ينحرف فيما شرّع أو رأى حتى يرد إلى الصواب ويطلب منه الرجوع إلى الحق.

٨ ـ لا تخلقه كثرة الرد وولوج السمع: لا تمله كثرة ترديده واستماعه وتجعله قديماً يسأمه الإنسان وهذه خاصية في القرآن تجد أن الآية تقرأها عدة مرات وتكرر قراءتها وقدْ تكون قد سمعتها عشرات المرات ومع ذلك تجد في كل مرة ما يشدك إليها ويربطك بها وكأنك لم تسمعها إلا في هذه المرة التي تسمعها فيها الآن.

٩ ـ من قال به صدق: إذ أنه الصادق فما احتج به إنسان إلا صدق وما استشهد به على رأي إلا أصاب.

---

(١) سورة الكهف، آية/ ١.

١٠ ـ ومن عمل به سبق: من عمل بالقرآن وأحكامه وما فيه من حلال وحرام سبق غيره إلى الجنة وفاز بقصبة السبق. . .

(إنه لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهو لا يفتنون﴾ علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بين أظهرنا فقلت: يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله تعالى بها؟ فقال: «يا علي إن أمتي ستفتن من بعدي» فقلت: يا رسول الله، أوليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عني الشهادة فشق ذلك عليّ فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك؟ فقال لي: «إن ذلك لكذلك فكيف صبرك إذن؟» فقلت: يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشرى والشكر) هذه المحاورة اللطيفة جرت بين محبين، بين استاذ وتلميذ بين أب وابن بين خليل وخليل يسمع الإمام قول الله: **﴿الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. . .﴾** فيقف على معناها ويعرف أن الفتنة التي هي الاختبار الصعب والامتحان العسير من هجر الأوطان وأنواع المصائب والعجائب لا بد منها للمسلم الذي يدعي الإيمان، لأن الامتحان يكشف حقيقة الإنسان ويظهر الأصيل من الدخيل والمستقر من المستعار. لا بد من الامتحان لتظهر حقائق الإيمان ولكن الإمام عرف أيضاً أن هذه الفتنة لن تكون ورسول الله حي يعيش بين المسلمين لأن وجوده ضمان أكيد لعدم الوقوع في هذه الفتنة، إنه آخذ بأيدي المسلمين ومانعهم من الوقوع فيها ومن هنا أراد الإمام أن يعرف ما هذه الفتنة التي ستقع بعده وما أبعادها وما خطرها وبأي شيء ستكون فلذا توجه إلى الرسول يسأله: يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله تعالى بها؟.

فأجابه النبي: يا علي إن أمتي سيفتنون من بعدي؟ ولما كانت هذه الفتنة عظيمة ولا يتمنى أن يكون الإمام حاضراً لها وخصوصاً إذا استشرت وتسربت إلى الأمة جميعها فإنه أراد أن يستعلم من النبي هل يكون حاضراً يومها؟ وهل يرى هذه الفتنة بأم العين. . . إنه يتمنى الشهادة التي وعده بها النبي ولذا يسأله عن هذا الاستبطاء بها قائلاً للنبي.

فقلت: يا رسول الله أوليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عني الشهادة أي منعت ولم تأت فشق ذلك علي فقلت لي: أبشر فإن الجنة من ورائك أي أنها آتية لا محالة.

فقال لي: إن ذلك لكذلك فكيف صبرك إذن؟ أي أن الشهادة واقعة قطعاً كما أخبرتك فكيف صبرك عليها.

فأجابه الإمام بجواب العارف بالله المطمئن لحكمه الذي يعيش معه وينتظر فضله.

فأجابه الإمام ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشرى والشكر فإن الصبر إنما يكون على المكروه وعلى ما ليس بمحبوب أما الإمام العارف بالله الملتزم باحكامه المنتظر لنعيمه وهذا يتحقق بالشهادة والانتقال بالله فهذا مواطن السرور والبشرى وهذا أمر يستحق الشكر لأنه نعمة. . .

ثم بيّن الإمام الفتنة ومواردها في ضمن أمور فقال:

(وقال: يا علي إن القوم سيفتنون بأموالهم ويمنون بدينهم على ربهم ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع قلت: يا رسول الله فبأي المنازل أنزلهم عند ذلك؟ أبمنزلة ردة أم بمنزلة فتنة؟) أخبر الإمام عن النبي بموارد الفتنة وأهم ما تقع فيه الأمة من الانحراف.

١ ـ سيفتنون بأموالهم أي الأموال ستكون هي محط الفتنة وبها تختبر الرجال هل سيحصلون عليها من حلها وهل ستصرف في محلها؟ وهل سيؤدى منها الحق أو يمنع أهله وإلى غير ذلك من موارد الخطر فيها.

٢ ـ يمنون بدينهم على ربهم: يرون في تدينهم منة وفضلاً على الله فيريدون منه لإيمانهم كل شيء وكأن هذا الإيمان يعود بالفائدة على الله وليس عليهم وهذا كأعراب الجاهلية الذين أسلموا وأرادوا أن يمنوا على النبي بإسلامهم فحكي الله قصتهم في قوله: **﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان﴾**.

٣ ـ يتمنون رحمته: وهذا من عيوب العاطلين الكسالى أنهم يعيشون الأماني ولا يتحركون فيما يطلبون ويتمنون. . إن الفتنة تكون في طلب أمر والتمني له دون السعي لتحصيله والعمل للوصول إليه فهؤلاء القوم يتمنون رحمة الله بالعفو عنهم والصفح وبالجنة ونعيمها ولكنهم لا يعملون من أجل ذلك أي عمل. . .

٤ ـ يأمنون سطوته: إنهم يعيشون الأمان من غضب الله وعذابه وكأنهم أخذوا عهداً أنه لن يعذبهم فلذا يعملون السيئات والمعاصي ويقولون: إن الله غفور رحيم ضاربين عرض الجدار قوله تعالى: **﴿إن الله شديد العقاب﴾**.

٥ ـ يستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية: إنهم يحللون الحرام

ويستحلونه بأمور واهية لا أساس لها ولا صحة بل يحتالون على النص ويطوعونه بحيث يخدم مصالحهم ويحلل لهم ما يشتهون فما يرغبون فيه يخلق لهم وعاظ السلاطين ومشايخ السوء ما يخدم أغراضهم ويحللون لهم ما يريدون وقد وقع في زماننا هذا ما يشيب منه الوليد فقد صدرت فتوى من شيخ الأزهر يبيح فيها الصلح مع إسرائيل التي اغتصبت أرض المسلمين وشردت أهل فلسطين وقتلت ملايين المجاهدين ومع هذا قام هذا الشيخ ليقول للناس في مقام تبرير ما يذهب إليه الحاكم الظالم من الصلح بقوله تعالى: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها**...﴾ نسي اغتصاب الأرض، ونسي تشريد أهلها؟ ونسي القبلة الأولى للمسلمين، ونسي أن فلسطين أرض إسلامية لا يمكن التنازل عنها لغاصب أو قاهر أو مستعمر...

وقد ذكر الإمام صغريات لتلك الكبرى فهم يستحلون الخمر بالنبيذ: فالخمر المحرم في كتاب الله وسنة نبيه يحللونه بشربهم للنبيذ لأن النبيذ يشترك مع الخمر في الإسكار فيشربونه بحجة أنه ليس بخمر فاختلاف الاسم جعلوه مبرراً لشرب النبيذ المحرم الذي يشارك الخمر في الحرمة وفي الإسكار...

كما أنهم يستحلون السحت بالهدية فالرشوة محرمة في دين الله ولا تحل ولكنهم يحتالون على حليتها بتغيير اسمها فيسمونها هدية، فهذا القاضي يدفع إليه أحد الخصمين مالاً ليحكم له بحجة أنه هدية فكأن تغيير الاسم يغيّر الحقيقة والنية والقصد وكذلك يستحلون الربا بالبيع فهم يبيعون أحد المتجانسين بمثله وزيادة مما نص الشارع على دخول الربا فيه ولكنهم يتصورون أن هذا البيع يحلل الزيادة ويخرج المعاملة عن الربا فيستحلون الربا بمعاملة ظاهرها البيع أو بما يجيزون أخذه بالبيع وإن كان حراماً...

وأراد الإمام في نهاية الحديث أن يعلم الأمة وعلماءها بأن هذا النوع من الفتنة بأي منزلة ينزل مرتكبها هل يمنزلة الردة التي هي الخروج عن الإسلام والالتحاق بالكفار أم بمنزلة الفسق الذي لا يخرج به الإنسان عن الإسلام وإن خرج من الإيمان، فأجابه النبي: إنهم ينزلون منزلة الفتنة التي هي معصية يبقى الإنسان بها مسلماً ظاهراً تجري عليه أحكام المسلمين ويعامل معه معاملتهم...

١٥٧ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يحث الناس على التقوى

الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلاً عَلَى آلاَئِهِ(١) وَعَظَمَتِهِ.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الدَّهْرَ(٢) يَجْرِي بِالبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالمَاضِينَ، لاَ يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى(٣) مِنْهُ، وَلاَ يَبْقَى سَرْمَداً(٤) مَا فِيهِ. آخِرُ فَعَالِهِ كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ(٥) أَعْلاَمُهُ(٦). فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ(٧) تَحْدُوكُمْ(٨) حَدْوَ الزَّاجِرِ(٩) بِشَوْلِهِ(١٠): فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ(١١) فِي الهَلَكَاتِ(١٢)، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ(١٣) لَهُ سَيِّءَ أَعْمَالِهِ. فَالجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ المُفَرِّطِينَ(١٤).

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالفُجُورَ(١٥) دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لاَ يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلاَ يُحْرِزُ(١٦) مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلاَ وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ(١٧) الخَطَايَا(١٨)، وَباليَقِينِ تُدْرَكُ الغَايَةُ القُصْوَى.

عِبَادَ اللهِ، اللهَ اللهَ فِي أَعَزِّ الأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ. فَشِقْوَةٌ(١٩) لاَزِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ! فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الفَنَاءِ لأَيَّامِ البَقَاءِ. قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ(٢٠)، وَحُثِثْتُمْ(٢١) عَلَى المَسِيرِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ، لاَ يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ. أَلاَ فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ

يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ(٢٢) وَحِسَابُهُ!.

عِبَادَ اللهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللهُ مِنَ الخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلاَ فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ.

عِبَادَ اللهِ، احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ(٢٣) فِيهِ الأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَتَشِيبُ فِيهِ الأَطْفَالُ.

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً(٢٤) مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لاَ تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ(٢٥)، وَلاَ يُكِنُّكُمْ(٢٦) مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ(٢٧)، وَإِنَّ غَداً مِنَ اليَوْمِ قَرِيبٌ.

يَذْهَبُ اليَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ الغَدُ لاَحِقاً بِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ(٢٨) حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ! وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ(٢٩) قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ(٣٠)، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ القَضَاءِ، قَدْ زَاحَتْ(٣١) عَنْكُمُ الأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ(٣٢) عَنْكُمُ العِلَلُ(٣٣)، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمُ الحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ الأُمُورُ مَصَادِرَهَا، فَاتَّعِظُوا بِالعِبَرِ، وَاعْتَبِرُوا(٣٤) بِالغِيَرِ(٣٥)، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

اللغة

١ ـ الآلائه : نعمه.

٢ ـ الدهر : الزمان.

٣ ـ ولى : مضى وانقضى.

٤ ـ السرمد : الدائم.

٥ ـ متظاهرة : متعاونة.

٦ ـ الأعلام : الرايات.
٧ ـ الساعة : القيامة.
٨ ـ الحدو : والحداء الغناء للإبل كي تسرع في المشي.
٩ ـ الزاجر : السائق الذي يزجر الإبل ويسوقها.
١٠ ـ الشول : جمع شائلة وهي الناقة التي جف لبنها.
١١ ـ ارتبك : في الهلكات وقع فيها والارتباك الاختلاط وارتبك الرجل في الأمر إذا نشب فيه ولم يكد يتخلص منه.
١٢ ـ الهلكات : من الهلاك وهو الموت.
١٣ ـ التزيّن : التحسين.
١٤ ـ المفرط : المقصر.
١٥ ـ الفجور : الانحراف والفحش في الفعل.
١٦ ـ لا يحرز : لا يحفظ.
١٧ ـ الحمة : للعقرب إبرتها التي تلسع بها.
١٨ ـ الخطايا : المعاصي.
١٩ ـ الشقوة : الشقاء والتعاسة.
٢٠ ـ الظعن : المسير والرحيل.
٢١ ـ حثثتم : من حثه على الفعل إذا حضه عليه ونشّطه على فعله.
٢٢ ـ التبعة : الآثار.
٢٣ ـ فحص عنه : بحث عنه والفحص الامتحان.
٢٤ ـ الرصد : الرقيب.
٢٥ ـ الداج : المظلم.
٢٦ ـ يكنكم : يستركم ويحفظكم.
٢٧ ـ الرتاج : الغلق ورتج الباب إذا أغلقه.
٢٨ ـ المخط : حدود القبر.
٢٩ ـ الصيحة : نفخة الصور.
٣٠ ـ غشيتكم : أتتكم وغشاه غطاه.
٣١ ـ زاحت : بعدت وانكشفت.
٣٢ ـ إضمحلت : تلاشت وذهبت.
٣٣ ـ العلل : جمع علة ما يتوقف عليه الشيء، السبب.
٣٤ ـ العبر : العظات.
٣٥ ـ الغير : بكسر ففتح يقال غير الدهر أي أحداثه.

الشرح

(الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره وسبباً للمزيد من فضله ودليلاً على آلائه وعظمته) ابتدأ عليه السلام بحمد الله الذي جعل الحمد ابتداء في كثير من سوره المباركة وجعله سبباً للمزيد من فضله فقد قال تعالى: ﴿**ولئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ وأما كون الحمد دليلاً على آلائه ـ وهي نعمه ـ وعلى عظمته وهي قدرته فلأنه إذا كان سبباً للمزيد فقد دل ذلك على عظمة الصانع وآلائه أما دلالته على عظمته فلأن قدرته لا تتناهى أبداً بل كلما ازداد الشكر ازدادت النعمة وأما دلالته على آلائه فلأنه لا جود أعظم من جود من يعطي من يحمده لا حمداً متطوعاً بل حمداً واجباً عليه.

(عباد الله إن الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين لا يعود ما قد ولى منه ولا يبقى سرمداً ما فيه آخر فعاله كأوله متشابهة أموره متظاهرة أعلامه) ابتدأ عليه السلام بالموعظة وتوجيه النصحية إلى الناس مذكراً لهم بأمور يراها الجميع فهذا الدهر حكمه بالحاضرين من الناس كما كان حكمه في الماضين، يحملهم على قاعدة واحدة وحكمه فيهم مشترك فكل يوم مرّ على الأجداد يمر مثله على الأبناء والأحفاد وأعمارهم المحدودة هي نفسها أعمار الحاضرين المحدودة تحددها السنون والأيام. لا يعود ما مضى من الأيام وكل يوم مضى لا يعوّض كما أن ما فيه لا يبقى مدى الدهر بل يفنى وينصرم باستمرار وإذا كان الماضي لا يعود والباقي لا يدوم فعلى العاقل أن يعمل لكل وقت وظيفته وواجبه ويلبس لكل وقت لبوسه...

ثم أشار إلى أن آخر فعاله كأوله فكما يفعل اليوم كان فعله من أول أمره، فالآن موت وفقر وظلم وحياة وغنى وعدل وهكذا دواليك... وهكذا كان يفعل في عهد آدم وفي العهود المتقاربة له وبعده وسيبقى في هذه الدائرة يتحرك وعلى هذا القطب يدور... متشابهة أفعاله لا تفترق إلا بتغير الأوقات وتبديل الأشخاص...

وأشار إلى أن أعلامه متظاهرة أي ما فيه من أحداث وأمور يعاضد بعضها بعضاً ويقويها فهي على نسق واحد وطبيعة واحدة لا تختلف ولا تتخلف...

(فكأنكم بالساعة تحدوكم حدو الزاجر بشوله: فمن شغل نفسه بغير نفسه تحيّر في الظلمات وارتبك في الهلكات ومدت به شياطينه في طغيانه وزيّنت له سيء أعماله فالجنة غاية السابقين والنار غاية المفرطين) نبه عليه السلام بقرب يوم القيامة وشبه سوقها للناس بسائق الشول وهي الناقة التي لا فصيل لها ولا لبن فيها فيكون سوقها أسرع وهي مأمونة

العثار وكذلك القيامة فإنها تسرع بنا للوصول إليها بسرعة وإذا كانت تطلبنا بهذه السرعة وتدفع بنا إلى ساحتها أردف ذلك بأن على الإنسان أن يشتغل بنفسه فقال: إن من شغل نفسه بغير نفسه بأن نظر إلى عيوب الناس وما عندهم من مشاكل ثم لم ينظر إلى نفسه وعيوبها فيصلحها فهذا قد تحير في الظلمات فلا يستطيع الخروج منها لأنها حجبته عن الطاعات فراح في ظلمات معاصي الناس وإحصاء عثراتهم يتخبط ويتحير. . .

ثم لتعاسته وعدم التفاته إلى نفسه أحاطت به شياطينه وأخذت تزوده بفنون الانحراف والخطيئة وتزين له سوء أعماله كما قال عز وجل: ﴿**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً. . .**﴾.

ثم ذكر غاية وجود الإنسان ومصيره وأنه في النهاية بين أمرين إما إلى الجنة وإما إلى النار فالجنة نهاية وغاية السابقين إلى طاعة الله وتنفيذ أمره وأما النار فهي غاية المفرطين المضيعين لأمره والمرتكبين لمعاصيه وما نهى عنه. . .

(اعلموا عباد الله أن التقوى دار حصن عزيز والفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه ألا وبالتقوى تقطع حمة الخطايا وباليقين تدرك الغاية القصوى) ذكر فضيلة التقوى ونبه على قبح الفجور وقد شبه التقوى بدار حصينة عزيزة أما في الدنيا فإن للأتقياء في نفوس الناس مهابة واحتراماً جعلها الله لهم لهذه الصفة وهم في مأمن من التهم الزائفة والرذائل وأما في الآخرة فهي تقيه ذل النار وعذابها وغضب الله الجبار.

وأما الفجور فشبهه بدار قديمة قد أكلها البلى فلا تمنع أهلها من أذى أو شر قصدهم به غيرهم أما في الدنيا فأصحاب الفجور ينظر إليهم نظر استخفاف واحتقار بل ليس هناك أخسّ من أصحاب الفجور وأما في الآخرة فإن هذا الفجور عاقبته النار لا يمتنع به عن العذاب ولا يدفع به غضب الله سبحانه وتعالى ثم بيّن أن بالتقوى تقطع أصول الرذائل والنقائص وكل عيوب هذا الإنسان كما تقطع سموم العقرب وأذيته بقطع إبرته التي يلسع بها.

وبيّن أيضاً أن باليقين وهو القوة النظرية والفكرة التي يحملها الإنسان ويكون معتقداً بها وواصلاً إلى درجة اليقين منها فإنه يسعى وراء ما يعتقد ويتيقن ومن هنا كان أصحاب الرسالات من أقوى الناس تحملاً للمشاق والأذية في سبيل دعوتهم. . .

(عباد الله، الله الله في أعز الأنفس عليكم وأحبهاإليكم فإن الله قد أوضح لكم سبيل الحق وأنار طرقه فشقوة لازمة أو سعادة دائمة فتزودوا في أيام الفناء لأيام البقاء قد دللتم على الزاد وأمرتم بالظعن وحثثتم على المسير فإنما أنتم كركب وقوف لا يدرون متى يؤمرون بالسير، ألا فما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة وما يصنع بالمال من عما قليل يسلبه

وتبقى عليه تبعته وحسابه) هذا عود إلى تحذير الناس وتنبيههم إلى الغاية القصوى التي يجب أن يسعوا من أجلها فناداهم بلفظ العبودية التي هي أشرف لقب لهذا الإنسان قائلا: الله الله راقبوه واتقوه في أعز الأنفس عليكم وهي أنفسكم التي هي أغلى من كل نفس أخرى للناس وأحبها إليهم فإن الإنسان يحب نفسه أولاً ويحب لها الخير وكل ما يسعدها وبعد ذلك ينتقل إلى الآخرين. . .

ثم أراد أن ينبههم إلى أن الله قد قطع حجة من يحتج عليه بعدم البيان بأنه سبحانه قد أوضح طرق الحق وكل ما يوصل إلى الحق وجعل طرقه واضحة عليها نور يهتدي إليه من أحب الهداية وأراد الخروج من الظلمات وبعد بيان طريق الحق وإيضاحه للناس فالناس عندها بين أمرين إما إلى شقاء لازم لهذا الإنسان لا يفارقه ولا ينفك عنه لأنه لم يمش على الصراط المستقيم ولم يهتد إلى نور الإيمان وإما إلى سعادة دائمة لا يتحول عنها ولا ينتقل منها وذلك لاهتدائه إلى الحق واقتفائه أثره والعمل بما أحب الله وأراد. . .

وبعد هذا أمرهم أن يتزودوا من دار الدنيا الفانية يتزودوا التقوى والعمل الصالح والقيام بالواجبات واجتناب المحرمات إلى الدار الباقية التي هي الآخرة والتي يكون فيها الاستقرار والدوام والبقاء. . .

ثم أراد أن يخفف عنهم قليلاً فبين لهم أن زاد الآخرة قد بينه الله على ألسنة رسله ومن بعثهم من أنبياء ومبشرين ومنذرين وقال للناس: ﴿**سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض. . .**﴾ ومع الدلالة على الزاد أمرنا بالرحيل عن الدنيا ودفعنا للخروج منها والسير عنها حتى لا نظن البقاء فيها أو الاستقرار في رحابها ثم شبه الناس وإقامتهم في الدنيا بقوم في سفر قد أناخوا بركبهم قليلاً ولا يدري متى يؤمرون بالرحيل فعلى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها أن يكونوا على استعداد دائم ويتزودوا للرحيل فلا يدرون متى يؤمرون بالرحيل عن الدنيا والخروج منها إلى الآخرة.

ثم نفّر عن الدنيا بالاستفهام الإنكاري على طلابها والراغبين فيها بأنه ماذا يصنع بالدنيا الفانية الزائلة من خلق للآخرة فعلى الإنسان أن يسعى لما خلق من أجله وقد خلقنا من أجل الآخرة فعلينا الزهد في الدنيا والترك لها والنظر إلى الآخرة والسعي لها.

وبعد أن نفر من الدنيا بصورة عامة خصص المال ونفر منه لتعلق الناس به وطلبهم له وبيّن لهم أن المال مهما سعى الإنسان من أجله فإنه سيتخلى عنه وسيتركه خلفه في الدنيا ويتوجه إلى الآخرة بدونه ولكن آثاره وحسابه ستبقى عليه فإنه سيقف أمام الله ليسأله عنه من أين جناه هل من حل أم من حرام وأين كان يضعه هل في حلال أم حرام. . .

(عباد الله إنه ليس لما وعد الله من الخير مترك ولا فيما نهى عنه من الشر مرغب) رغّب في الخير ونفّر عن الشر بنسبة الخير إلى الله وأنه ليس للإنسان أن يترك ما وعده الله من الخير إلى غيره من الشر كما أنه لا بد له من الهروب من الشر وليس له مجال أن يرتكبه. . .

(عباد الله احذروا يوماً تفحص فيه الأعمال ويكثر فيه الزلزال وتشيب فيه الأطفال) حذّرهم يوم القيامة وذكر بعض أوصافه المخوفة.

١ ـ إنه يوم تفحص فيه الأعمال **﴿ولتسئلن عما كنتم تعملون﴾** ويومها تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

٢ ـ إنه يوم يكثر فيه الزلزال فتضطرب الدنيا وتتزلزل أركانها كما قال تعالى: **﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها. . .﴾** وقوله: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. . .﴾**.

٣ ـ إنه يوم تشيب فيه الأطفال: لهول ما يقع فيه وشدة ما يحدث من عظائم الأمور تشيب فيه الأطفال الذين ليس من عادتهم ذلك ولم يجر ذلك بحقهم بحسب طبيعتهم كما قال تعالى: **﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾**.

(اعلموا عباد الله أن عليكم رصداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم وحفاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم لا تستركم منهم ظلمة ليل داج ولا يكنكم منهم باب ذو رتاج وإن غداً من اليوم قريب) وهنا أيضاً أراد تحذيرهم من المعاصي وأن على الإنسان رقيب من نفسه ينظر إلى كل عمل يقوم فيه فيسجله عليه كما أن عليه رقابة من جوارحه هي التي تشهد عليه بكل معصية وكل انحراف كما قال تعالى: **﴿يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. . .﴾**.

وعليه حفاظ صدق لا يكذبون فيما يشهدون ولا يقولون إلا الحق. . . إنهم يسجلون أعمال ابن آدم ويحصون عليه أنفاسه بحيث لا يغيب عنهم شيء قال تعالى: **﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾** فهما يحفظان عليه أعماله ولا يغيب عنهما شيء منها فمهما كانت الرؤية سيئة ومهما كانت الظلمة كثيفة فإنهما يكشفان أسرار هذا الإنسان ويقفان على أعماله ومهما غلّق الأبواب فلن يحتجب عن عيونهم ولن يغيب عن أبصارهم. . .

وحذرهم من قرب الموت إنه في يوم غد وما أقرب الغد من اليوم وإذا كان الغد قريب وجب على المرء أن يسعى له ويهيىء العدة التي بها ينجو من مخاوفه وعذابه وما فيه من وحشة ووحدة. . .

(يذهب اليوم بما فيه ويجيء الغد لاحقاً به فكأن كل امرىء منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدته ومخط حفرته فيا له من بيت وحدة ومنزل وحشة ومفرد غربة) يذهب اليوم بما فيه من خير وشر ولن يرجع إلينا فيجب أن يستفيد الإنسان منه للغد ويتزود للأيام الصعبة وبعد اليوم يجيء الغد لاحقاً باليوم فكذلك يجب أن نكون على أهبة الإستعداد له. . .

وفي يوم غد وهو وقت الموت ينزل الإنسان عن عرشه إلى القبر. . . إنه منزل الوحدة فليس معه أحد. . . وإنه حفرة يختطها ويحفرها الحافر للقبور. . . ثم عظّم هذا البيت الذي ينفرد فيه الإنسان. . . يا له من بيت رهيب مخوف حيث يتخلى الأحباب فيه عن أحبتهم ويتركونهم وحدهم. . . إنه منزل وحشة وأي وحشة أعظم من إنسان يسكن تحت أطباق الثرى لا أنيس ولا جليس ولا حركة، إنه مفرد غربة ينفرد الإنسان فيه في غربة حقيقية. . .

(وكأن الصيحة قد أتتكم والساعة قد غشيتكم وبرزتم لفصل القضاء قد زاحت عنكم الأباطيل واضمحلت عنكم العلل واستحقت بكم الحقائق وصدرت بكم الأمور مصادرها فاتعظوا بالعبر واعتبروا بالغير وانتفعوا بالنذر) حذّر الناس من يوم القيامة ومقدماته من الصيحة ونفخ الصور فذكر الصيحة وقربها وكأنها قد أوشكت أن تقع وكذلك الساعة وهي يوم القيامة وقد حلّت بساحتكم وعندها يخرج الناس للحساب فتنتصب الموازين وتعقد المحكمة العادلة التي يفصل فيها الخصومات فيقتص من الظالم للمظلوم وعندها تدحض الحجج المزيفة وتبطل الأدلة الفاسدة وتتلاشى كل المعاذير التي على أساسها سلبتم أموال الناس وكرامتهم وعزتهم.

وفي يوم القيامة ستقع الحقائق على أصولها. . . سترونها حقيقة حقيقة. . . كل قضية تأتي كفلق الصبح بشهودها وبيناتها لا تخفى ولا تستتر. . . كما أن الأمور ستأخذكم إلى مجاريها الطبيعية وستأخذون ثمرة أعمالكم ونتيجة جهودكم وأتعابكم.

وفي النهاية أمرهم أن يأخذوا العظة وما فيه مزدجر لهم بما جرى على غيرهم ويعتبروا بتقلبات الزمان ومتغيراته وينتفعوا بما جاء على ألسنة الأنبياء فيبتعدوا عن المعصية ويقتربوا من الطاعة. . .

١٥٨ ـ ومن خطبة له عليه السلام

ينبه فيها على فضل الرسول الأعظم، وفضل القرآن، ثم حال دولة بني أمية

النبي والقرآن

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ(١) مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ(٢) مِنَ الأُمَمِ، وَانْتِقَاضٍ(٣) مِنَ المُبْرَمِ(٤)، فَجاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ المُقْتَدَى بِهِ. ذلِكَ القُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ: أَلاَ إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالحَدِيثَ عَنِ المَاضِي، وَدَوَاءَ(٥) دَائِكُمْ، وَنَظْمَ(٦) مَا بَيْنَكُمْ.

دولة بين أمية

ومنها: فَعِنْدَ ذلِكَ لاَ يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ(٧) وَلاَ وَبَرٍ(٨) إِلاَّ وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً(٩)، وَأَوْلَجُوا(١٠) فِيهِ نِقْمَةً(١١). فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلاَ فِي الأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ(١٢) بِالأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ(١٣) غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلاً بِمَأْكَلٍ، وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ العَلْقَمِ(١٤)، وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ(١٥) وَالمَقِرِ(١٦)، وَلِبَاسِ شِعَارِ(١٧) الخَوْفِ، وَدِثَارِ(١٨) السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا(١٩) الخَطِيئَاتِ(٢٠) وَزَوَامِلُ(٢١) الآثَامِ(٢٢). فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا(٢٣) أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ(٢٤) النُّخَامَةُ(٢٥)، ثُمَّ لاَ تَذُوقُهَا وَلاَ تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَا كَرَّ الجَدِيدَانِ(٢٦)!.

اللغة

١ ـ **الفترة** : ما بين الرسولين.
٢ ـ **الهجعة** : النومة الخفيفة وقد تستعمل في النوم المستغرق.
٣ ـ **النقض** : الهدم أو حل الشيء.
٤ ـ **المبرم** : المحكم، الحبل المفتول بإحكام.
٥ ـ **الداء** : المرض.
٦ ـ **نظم** : الأمر استقامته واعتداله.
٧ ـ **المدر** : الطين ويكنى به عن أهل الحضر.
٨ ـ **الوبر** : للإبل كالصوف للغنم ويكنى به عن البدو.
٩ ـ **الترحة** : الحزن.
١٠ ـ **أولجوا** : أدخلوا.
١١ ـ **النقمة** : العقوبة.
١٢ ـ **أصفيتم** : الشيء آثرتموه به واختصصتموه به وأصفيت فلاناً بكذا خصصته به
١٣ ـ **أورده** : الماء صار به إليه وورد الماء خلاف صدر عنه.
١٤ ـ **العلقم** : الحنظل، كل شيء مر.
١٥ ـ **الصبر** : ككتف عصارة شجر مر.
١٦ ـ **المقر** : المرّ وقيل السم.
١٧ ـ **الشعار** : ما يلي الجسد من الثياب.
١٨ ـ **الدثار** : من الثياب ما كان فوق الملابس كالعباءة.
١٩ ـ **المطايا** : جمع مطية الدابة.
٢٠ ـ **الخطيئات** : جمع خطيئة الذنب وقيل المتعمد منه.
٢١ ـ **الزوامل** : جمع زاملة وهي ما يحمل عليها الطعام من الإبل ونحوها.
٢٢ ـ **الآثام** : جمع إثم وهي الخطيئة، فعل ما لا يحل.
٢٣ ـ **نخم** : أخرج النخامة.
٢٤ ـ **تلفظ** : تُرْمى من لفظ الشيء من فمه إذا رمى به وطرحه.
٢٥ ـ **النخامة** : بضم النون ما يدفعه الصدر أو الرأس من المواد المخاطية.
٢٦ ـ **الجديدان** : الليل والنهار.

الشرح

(أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الأمم وانتقاض من المبرم فجاءهم بتصديق الذي بين يديه والنور المقتدى به) أرسل الله نبيه محمداً بعد فترة من الزمن انقطع فيها الوحي فمن أيام عيسى إلى محمد مدة طويلة ليس فيها داعية إلى الله من قبل الله ولذا غفلت الأمم خلال هذه المدة عن تكاليفها وضيعت الكثير من أساسيات الشريعة وأركانها ولم يبق منها إلا رموز وإشارات فقد تحللت أحكام الدين التي كانت في نفوس الناس قوية محكمة.

وأرسل الله محمداً إلى الناس فجاء مصدقاً لما تقدم مما جاء به الأنبياء من توراة وإنجيل أو جاء بكتاب وهو القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل كما قال تعالى: **﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾**.

كما أنه جاء بالقرآن الذي عبر عنه بالنور لأنه يضيء الدرب للسالكين والمهتدين ويكشف ظلمات الجهل والجاهلية وهو المقتدى به الذي يطمئن الإنسان إلى صحة أقواله وما جاء فيه ومن اقتدى فيه أفلح ونجح وعلا وارتقى.

(ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن أخبركم عنه: ألا إن فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم ما بينكم) بعد أن وصف القرآن بأنه نور به تكشف ظلمات الجهل أمرهم أن يستنطقوه أي يطلبوا منه أن ينطق ويتكلم ثم قال: لن ينطق فإنه لا لسان له ولكن ينطق عنه مَن خوطب به ووعاه وفهم أحكامه ثم أشار إلى مضمون القرآن وما فيه بأخصر عبارة وأوضحها.

١ ـ ألا إن فيه علم ما يأتي من قيام الساعة والحساب والعذاب والجنة والنار وكل أحوال النشأة الأخرى وما يجري فيها.

٢ ـ وفيه الحديث عن الماضي بكل شؤونه وشجونه الحديث عن الأمم السابقة كالفراعنة والقياصرة والأمم البائدة فيه قصص الأنبياء مع الطغاة وأخبار العباد وحركة الحياة.

٣ ـ فيه دواء دائكم ففي القرآن وصفات طبية لكل الأمراض النفسية لهذا الإنسان فهو دواء للجهل والكفر والفسق والتمرد على الله، هذا القرآن فيه يستشفى من كل داء عياء عجز عنه الأطباء.

٤ ـ وفيه نظم ما بينكم أي أنه ينظّم العلاقة بين الناس فإن أحكام الشريعة وقوانينها

تضبط قضايا الإنسان وتحكمها وتجعل لكل فرد حقه بالعدل والإنصاف فلا يظلم أحد أحداً ولا يعتدي أحد على أحد وبهذه الأحكام تحفظ حقوق الناس ويؤمن الاعتداء والظلم. . .

(فعند ذلك لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا وأدخله الظلمة ترحة وأولجوا فيه نقمة فيومئذ لا يبقى لهم في السماء عاذر ولا في الأرض ناصر) هذا إخبار منه عن دولة بني أمية وما يكون فيها من الظلم والجور بحيث تطال الناس كلهم أهل المدر وهم سكان المدن وأهل الوبر وهم سكان البادية الذين يتنقلون وراء رزقهم في الصحراء. . . إنها فتنة تطال الجميع المقيم والظاعن ولا يبقى بيت إلا وأدخل عليه الأمويون الحزن والأسى ونالوا أصحابه بالعذاب والعقاب وإذا وصلت الأمور إلى هذا المستوى فيومئذ يرفع الله رحمته عنهم ولا يبقى لهم في السماء عاذر ولا في الأرض ناصر وعندها تحل النقمة بهم وينزل العذاب عليهم وتتهاوى دولتهم وتتساقط عروشهم. . .

(أصفيتم بالأمر غير أهله وأوردتموه غير مورده وسينتقم الله ممن ظلم مأكلاً بمأكل ومشرباً بمشرب من مطاعم العلقم ومشارب الصبر والمقر ولباس شعار الخوف ودثار السيف) توجه إلى المخاطبين قائلاً لقد خصصتم بالخلافة من لم يكن من أهلها وأعطيتموها إلى غير مستحقيها فأهلها وهم أهل البيت قد أزحتموها عنهم ودفعتم بها نحو من لم يستحقها من يومها الأول وإلى الآن فيشمل من رضي بمن مضى ومن يرضى بمن هو قائم الآن ينازع الحق أهله بل يشمل من تقاعس وقعد عن مساندة أهل الحق واعتزل القتال. . .

وأشار عليه السلام إلى أن الله سينتقم ممن ظلم أهل البيت وأزاح الخلافة عنهم ويبدلهم المأكل الطيب والمشرب الهني بغيره مما لا تتقبله النفوس ولا تستسيغه فبدل المطعم الطيب مطاعم العلقم وبدل المشارب الطيبة المشارب المريرة التي لا يكاد يتجرعها الإنسان ويستبدل أمنهم بالخوف الملازم لهم الذي يطاردهم أينما كانوا كما أن السيف يلاحقهم حيث حلوا فالمطاردة نفسياً وعسكرياً.

(وإنما هم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام فأقسم ثم أقسم لتنخمنها أمية من بعدي كما تلفظ النخامة ثم لا تذوقها ولا تطعم بطعمها أبداً ما كرّ الجديدان) أشار إلى بني أمية ومدى انحرافهم ومعاصيهم فشبههم بالدواب والنياق التي شغلها أن تحمل الخطايا والمعاصي لأن كل حركاتهم على خلاف الشرع والحق.

ثم أقسم وأكد القسم بأن الخلافة ستخرج عن الأمويين قهراً عنهم وبالقوة كما تخرج النخامة من الإنسان ثم لا تعود إليهم أبداً ولا يتذوقون طعمها أبد الدهر.

١٥٩ - ومن خطبة له عليه السلام

يبين فيها حسن معاملته لرعيته

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ(١)، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي(٢) مِنْ وَرَائِكُمْ وَأَعْتَقْتُكُمْ(٣) مِنْ رِبَقِ(٤) الذُّلِّ، وَحَلَقِ(٥) الضَّيْمِ(٦)، شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ(٧) القَلِيلِ، وَإِطْرَاقاً(٨) عَمَّا أَدْرَكَهُ البَصَرُ، وَشَهِدَهُ البَدَنُ، مِنَ المُنْكَرِ الكَثِيرِ.

اللغة

١ - **الجوار** : المجاورة.

٢ - **الجهد** : بالضم الطاقة.

٣ - **أعتق** : العبد إذا حرره.

٤ - **الربق** : جمع ربقة حبل في عرى تربط به الدواب.

٥ - **الحلق** : كل شيء استدار فهو حلقة.

٦ - **الضيم** : الظلم.

٧ - **البر** : الإحسان.

٨ - **الإطراق** : السكوت وعدم الكلام وأطرق رأسه أي خفضه وأرخى عينيه ينظر إلى الأرض.

الشرح

(ولقد أحسنت جواركم وأحطت بجهدي من ورائكم وأعتقتكم من ربق الذل وحلق الضيم شكراً مني للبر القليل وإطراقاً عما أدركه البصر وشهده البدن من المنكر الكثير) في هذه الخطبة تذكير لأهل الكوفة بأياديه الكريمة عليهم وإحسانه إليهم فذكر حسن جواره لهم وأنه أدى حق الجار كما أمر الله وأحب وأحاطهم بجهده فدافع عنهم وحفظهم

وحماهم من الأعداء فلم تصل إليهم يد معاوية المجرمة كما أنه حررهم من أسر أعدائهم وما كان ينالهم منهم من العسف والظلم فقد كانت الولاة تحكم الكوفة بأقسى وأمرّ ما يكون في زمن عثمان وقد مارسوا على شعبها الاضطهاد والتنكيل والتهجير فجاء حكم الإمام فذاق الناس حلاوة العدل وحسن المعاملة وطيب العشرة فرد إليهم اعتبارهم وكرامتهم ورفع عنهم الضيم والظلم.

ثم بين لهم شكره لإحسانهم القليل بما أعطاهم من خير كثير فإنهم على كثرة منكراتهم التي ترى وتشاهد وتلمس فإنه غض النظر عنها ونظر إلى قليل إحسانهم فجازاهم به وهكذا الكرام ينظرون إلى الحسنات ويعطون على قليل الطاعات كثير الخيرات.

١٦٠ ـ ومن خطبة له عليه السلام

عظمة الله

أَمْرُهُ قَضَاءٌ(١) وَحِكْمَةٌ(٢)، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ.

حمد الله

ٱللَّهُمَّ لَكَ ٱلحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي(٣) وَتَبْتَلِي(٤)؛ حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ ٱلحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ ٱلحَمْدِ عِنْدَكَ.

حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ(٥) مَا أَرَدْتَ. حَمْداً لاَ يُحْجَبُ عَنْكَ، وَلاَ يُقْصَرُ دُونَكَ.

حَمْداً لاَ يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلاَ يَفْنَى مَدَدُهُ(٦). فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ(٧) عَظَمَتِكَ، إِلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ «حَيٌّ قَيُّومٌ(٨)، لاَ تَأْخُذُكَ سِنَةٌ(٩) وَلاَ نَوْمٌ». لَمْ يَنْتَهِ(١٠) إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ. أَدْرَكْتَ الأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ(١١) الأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ «بِالنَّوَاصِي(١٢) وَالأَقْدَامِ». وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ(١٣) أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَٱنْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ(١٤) سُتُورُ(١٥) الغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ(١٦) خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي ٱلهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى

مَوْرِ[١٧] ٱلمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً[١٨]، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً[١٩]، وَسَمْعُهُ وَالِهاً[٢٠]، وَفِكْرُهُ حَائِراً.

كيف يكون الرجاء

منها: يَدَّعِي بِزَعْمِهِ[٢١] أَنَّهُ يَرْجُو اللهَ، كَذَبَ وَٱلعَظِيمِ! مَا بَالُهُ[٢٢] لَا يَتَبَيَّنُ[٢٣] رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ. وَكُلُّ رَجَاءٍ ـ إِلَّا رَجَاءَ اللهِ تَعَالَى ـ فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ[٢٤] وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ[٢٥]، إِلَّا خَوْفَ اللهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ[٢٦]. يَرْجُو اللهَ فِي ٱلكَبِيرِ، وَيَرْجُو ٱلعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي ٱلعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي ٱلرَّبَّ! فَمَا بَالُ ٱللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً؟ أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً؟ وَكَذلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ ٱلعِبَادِ نَقْداً[٢٧]، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً[٢٨] وَوَعْداً. وَكَذلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا[٢٩] عَلَى ٱللهِ تَعَالَى، فَانْقَطَعَ[٣٠] إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا.

رسول الله

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ ـ كَافٍ لَكَ فِي ٱلأُسْوَةِ[٣١]، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا[٣٢] وَمَسَاوِيهَا[٣٣]، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ[٣٤] لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا[٣٥]، وَفُطِمَ[٣٦] عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِيَ[٣٧] عَنْ زَخَارِفِهَا[٣٨].

موسى

وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حَيْثُ يَقُولُ: «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ». وَٱللهِ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزاً يَأْكُلُهُ، لأَنَّهُ

كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ(٣٩) ٱلأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ ٱلبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ(٤٠) صِفَاقِ(٤١) بَطْنِهِ، لِهُزَالِهِ(٤٢) وَتَشَذُّبِ(٤٣) لَحْمِهِ.

داوود

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُودَ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ صَاحِبِ المَزَامِيرِ، وَقَارِىءِ أَهْلِ ٱلجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ(٤٤) ٱلخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا.

عيسى

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ(٤٥) ٱلحَجَرَ، وَيَلْبَسُ ٱلخَشِنَ، وَيَأْكُلُ ٱلجَشِبَ(٤٦)، وَكَانَ إِدَامُهُ(٤٧) ٱلجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ ٱلقَمَرَ، وَظِلاَلُهُ(٤٨) فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ ٱلأَرْضِ وَمَغَارِبهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ ٱلأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلاَ وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلاَ مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلاَ طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلاَهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ!.

الرسول الأعظم

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ ٱلأَطْيَبِ ٱلأَطْهَرِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى(٤٩)، وَعَزَاءً(٥٠) لِمَنْ تَعَزَّى. وَأَحَبُّ ٱلعِبَادِ إِلَى ٱللهِ ٱلمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَٱلمُقْتَصُّ لأَثَرِهِ(٥١). قَضَمَ(٥٢) الدُّنْيَا قَضْماً، وَلَمْ يُعِرْهَا(٥٣) طَرْفاً. أَهْضَمُ(٥٤) أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً(٥٥)، وَأَخْمَصُهُمْ(٥٦) مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى(٥٧) أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلاَّ حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً(٥٨) للهِ، وَمُحَادَّةً(٥٩) عَنْ أَمْرِ ٱللهِ. وَلَقَدْ كَانَ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ يَأْكُلُ عَلَى

ٱلأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ ٱلعَبْدِ، وَيَخْصِفُ[٦٠] بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ[٦١] بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ ٱلحِمَارَ ٱلعَارِيَ[٦٢]، وَيُرْدِفُ[٦٣] خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّتْرُ[٦٤] عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فتكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فيقُولُ: «يَا فُلاَنَةُ ـ لإِحْدَى أَزْوَاجِهِ ـ غَيِّبِيهِ[٦٥] عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا». فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً[٦٦]، وَلاَ يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلاَ يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا[٦٧] عَنِ ٱلقَلْبِ، وَغَيَّبَهَا عَنِ ٱلبَصَرِ. وَكَذلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ.

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِىءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ[٦٨]، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ[٦٩]. فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ ٱللهُ مُحَمَّداً بِذلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ ـ وَٱللهِ ٱلعَظِيمِ ـ بِٱلإِفْكِ[٧٠] ٱلعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ[٧١] الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ. فتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَٱقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ[٧٢] مَوْلِجَهُ، وَإِلاَّ فَلا يَأْمَنَ ٱلهَلَكَةَ[٧٣]، فَإِنَّ ٱللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ عَلَماً[٧٤] لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّراً بِٱلجَنَّةِ، وَمُنْذِراً بِٱلعُقُوبَةِ، خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً[٧٥]، وَوَرَدَ ٱلآخِرَةَ سَلِيماً. لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ[٧٦] ٱللهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً[٧٧] نَتَّبِعُهُ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ[٧٨]! وَٱللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي[٧٩]، هذِهِ حَتَّى ٱسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلاَ تَنْبِذُهَا[٨٠] عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: ٱغْرُبْ عَنِّي[٨١]، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ ٱلقَوْمُ السُّرَى[٨٢].

اللغة

١ ـ القضاء : الحكم، الإلزام، الإيجاب.
٢ ـ الحكمة : وضع الشيء موضعه.
٣ ـ تعافى : تعطي العافية وهي الصحة، وعدم المرض.
٤ ـ تبتلي : تختبر وتمتحن، والبلوى المصيبة.
٥ ـ يبلغ : يدرك، ينتهي، يصل.
٦ ـ المدد : العون والغوث.
٧ ـ كنه : الشيء حقيقته.
٨ ـ القيوم : القائم بذاته.
٩ ـ السنة : أوائل النوم.
١٠ ـ انته : إلى الشيء بلغه وأدركه وانتهى إليه الخبر بلغه.
١١ ـ أحصيت : الأعمال حسبتها وضبطتها.
١٢ ـ النواصي : جمع الناصية مقدم الرأس أو شعر مقدم الرأس.
١٣ ـ قصرت : عن الشيء لم تبلغه وتدركه.
١٤ ـ حالت : حجزت واعترضت.
١٥ ـ الستور : الأغطية.
١٦ ـ ذرأ : خلق.
١٧ ـ المور : بالفتح الموج.
١٨ ـ الحسير : الكليل المتعب.
١٩ ـ المبهور : المغلوب.
٢٠ ـ الوله : ذهاب الشعور.
٢١ ـ الزعم : الظن، الاعتقاد الفاسد، القول الباطل.
٢٢ ـ ما باله : ما شأنه.
٢٣ ـ يتبين : يظهر.
٢٤ ـ مدخول : مغشوش معيوب.
٢٥ ـ المحقق : الثابت.
٢٦ ـ معلول : غير سليم ولا خالص.
٢٧ ـ نقداً : معجلاً، يقال الثمن نقداً أي معجلاً وليس مؤجلاً.
٢٨ ـ الضمار : الذي لا يرجى من الوعود.
٢٩ ـ آثرها : اختارها واختص نفسه بها.

٣٠ ـ انقطع : إلى فلان انفرد بصحبته خاصة.
٣١ ـ الأسوة : القدوة.
٣٢ ـ المخازي : جمع مخزاة ما يستحى من ذكره لقبحه.
٣٣ ـ المساوي : العيوب.
٣٤ ـ وطئت : ذللت وسهّلت.
٣٥ ـ الأكناف : الجوانب.
٣٦ ـ فطم : الولد فصله عن الرضاع.
٣٧ ـ زوي : قبض.
٣٨ ـ الزخارف : جمع زخرف الذهب، الزينة.
٣٩ ـ البقل : النبات الذي ينبت من بذور لا في جذور.
٤٠ ـ شف الثوب : إذا رقّ فحكى ما تحته.
٤١ ـ الصفاق : الجلد الباطن الذي فوق الجلد الظاهر من البطن.
٤٢ ـ هزل : ضعف ونحل.
٤٣ ـ تشذب : اللحم تفرّقه.
٤٤ ـ السفائف : جمع سفيفة من سف الخوص إذا نسجه.
٤٥ ـ توسد : الحجر جعله وسادة والوسادة هي المخدة.
٤٦ ـ الجشب : الغليظ.
٤٧ ـ الأدام : ما يؤكل مع الخبز.
٤٨ ـ ظلاله : جمع ظل وهو المأوى والملجأ.
٤٩ ـ تأس : اقتد والأسوة القدوة.
٥٠ ـ العزاء : الصبر.
٥١ ـ اقتص أثره : اتبع أثره.
٥٢ ـ القضم : الأكل بأطراف الأسنان.
٥٣ ـ لم يعرها : من العارية ما تعطيه لغيرك شرط أن يعيده إليك.
٥٤ ـ أهضم : من الهضم وهو خلو البطن وانطباقها من الجوع.
٥٥ ـ الكشح : الخاصرة.
٥٦ ـ أخمصهم : أكثرهم ضموراً.
٥٧ ـ أبى : رفض.
٥٨ ـ الشقاق : الخلاف.
٥٩ ـ المحاداة : المعاداة.
٦٠ ـ خصف النعل : خرزها، أصلحها.

٦١ ـ رقع : الثوب ألحم خرقه وأصلحه بالرقاع والرقعة قطعة النسيج التي يرقع بها الثوب.
٦٢ ـ الحمار العاري : ما ليس عليه بردعة ولا إكاف.
٦٣ ـ أردف خلفه : أركبه معه على دابة واحدة خلفه.
٦٤ ـ الستر : الغطاء.
٦٥ ـ غيّبيه : أبعديه عني.
٦٦ ـ الرياش : الزينة، اللباس الفاخر.
٦٧ ـ أشخصها : أبعدها.
٦٨ ـ خاصة : الرجل المقربون منه أهله وأولاده.
٦٩ ـ الزلفة : القربة.
٧٠ ـ الإفك : الكذب.
٧١ ـ البسط : التوسع، وبسط له في دنياه إذا أغدق عليه ووسع.
٧٢ ـ ولج : دخل.
٧٣ ـ الهلكة : جمعها هلكات وهو الهلاك الموت.
٧٤ ـ العلم : بالتحريك العلامة.
٧٥ ـ الخميص : خالي البطن.
٧٦ ـ المنة : جمعها منن الإحسان.
٧٧ ـ السلف : المتقدم، الآباء والأجداد.
٧٨ ـ العقب : بفتح فكسر مؤخر القدم ووطؤ العقب مبالغة في الاتباع والسلوك.
٧٩ ـ المدرعة : ثوب من صوف.
٨٠ ـ تنبذها : ترميها.
٨١ ـ اغرب عني : تباعد عني.
٨٢ ـ السُّرى : السير ليلاً.

الشرح

(أمره قضاء وحكمة ورضاه أمان ورحمة يقضي بعلم ويعفو بحلم) أمر الله هو تكليفه العباد وهو حكم لازم منبعث عن حكمة لأنه سبحانه لا يأمر إلا لمصلحة ولا ينهى إلا عن مفسدة والحكيم هو الذي يضع الأمور موضعها.

أو أن يراد بأمره هو إرادته التكوينية وهذه واقعة لا محالة ولا تكون إلا لمصلحة

وحكمة في الوقوع كما قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. . .﴾.

وإذا رضي عن إنسان لطاعته له كان رضاه أماناً للعبد من العذاب ورحمة يدخله بها جنته.

كما أنه يقضي بعلم أي يحكم بما يعلم وهو العالم المحيط علمه بكل الأمور فليس على حد قضاء البشر الذين يقضون بالظنون والإيمان والبينات وهذه كلها في معرض الخطأ. . .

ويعفو بحلم: يعني مع القدرة على الانتقام والاقتصاص من المذنب الجاني يعفو ويصفح تكرماً وعلواً. . .

(اللهم لك الحمد على ما تأخذ وتعطي وعلى ما تعافي وتبتلي حمداً يكون أرضى الحمد لك وأحب الحمد إليك وأفضل الحمد عندك، حمداً يملأ ما خلقت ويبلغ ما أردت حمداً لا يحجب عنك ولا يقصر دونك حمداً لا ينقطع عدده ولا يفنى مدده) توجه إلى الله معترفاً بنعمه حامداً له على كل نعمة على ما أخذ منا من مال أو ولد أو صحة وعلى ما أعطى لنا من مال أو ولد وصحة وعلى الابتلاء وعلى العافية في السراء والضراء وحمد الله واجب على الخلق باعتبار أن كل ما يفعله الله في هذا الإنسان فإنه لمصلحة تعود إلى الإنسان نفسه والله الغني المتعال. . .

ثم فخم الحمد وعدد كيفياته ودرجاته وما يجب أن يكون عليه وما يليق بجلال الله.

١ ـ حمداً يكون أرضى الحمد لك: أي يكون رضاه به أوفى من كل أمر يرضى عنه.

٢ ـ أحب الحمد إليك: يكون أحب حمد إليك يحمدك به عبادك.

٣ ـ أفضل الحمد عندك: أفضل ما يحمدك به عبادك.

٤ ـ حمداً يملأ ما خلقت: هذا باعتبار الكمية فإنه حمد يستوعب ملىء ما خلق الله من سماوات وأرضين وغيرهما.

٥ ـ ويبلغ ما أردت: يصير مقداره ما تريد من الكثرة والزيادة إلى ما شئت.

٦ ـ حمداً لا يحجب عنك ولا يقصر دونك: حمداً يصل إليك فلا يحجب عنك لمعصية أو أمر لا تحبه وكذلك لا يحبس دونك لمانع من الموانع كالرياء وغيره. . .

٧ ـ حمداً لا ينقطع عدده ولا يفنى مدده: بل يبقى يتجدد باستمرار وينمو دائماً بحيث لا ينقطع ولا تجف مادته عن العطاء والاستمرار. . .

(فلسنا نعلم كنه عظمتك إلا أنا نعلم أنك ﴿حي قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم﴾ لم ينته إليك نظر ولم يدركك بصر أدركت الأبصار وأحصيت الأعمال وأخذت بالنواصي والأقدام) هذا إقرار بالعجز عن معرفة كنه عظمة الله واعتراف بأن العقل لن يقدر إلى الوصول إلى ذلك فلسنا نعلم حقيقة عظمتك وجبروتك وإنما كل ما نعلمه أنك حي قيوم، حي لا تموت قائم على الخلق تدير شؤونهم.

كما أنك سبحانك لا يجري عليك ما يجري على المخلوقين من كونهم محكومين لقانون النوم العام ولما يتقدمه من سنة بحيث يخفق الإنسان برأسه خفقة فهذه يتنزه الله عنها لأنه الغني بذاته وليس بحاجة إليها. . .

ثم نفى أن يصل إليه الفكر لأن ما يصوغه الفكر إنما هو نتاج محدود وصورة لما يتحمله العقل من إدراك وتصور والله منزه عن ذلك.

كما أنه منزه عن أن يدرك بالبصر لأن البصر يجب أن يكون إلى جهة معينة ويكون الشيء فيها والله منزه عن الجسمية وعن الجهة.

وإذا كان العبد قاصراً فالله قادر على أن يدرك أبصار الخلق وكيف تتحرك وفي أي اتجاه وهل في الحلال أم الحرام قال سبحانه وتعالى: **﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾** كما أنه سبحانه هو الذي يحصي أعمال هذا الإنسان ويعدّها ولا يفوته شيء منها قال تعالى: **﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾** وهو سبحانه المالك لهذا الإنسان القادر عليه يتصرف فيه كيف يشاء ولا يمنعه من ذلك شيء فهو القادر على أخذه بناصيته وبالأقدام أي من رأسه إلى قدميه بدون استثناء.

(وما الذي نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك وما تغيب عنا منه وقصرت أبصارنا عنه وانتهت عقولنا دونه وحالت ستور الغيوب بيننا وبينه أعظم) استفهم على سبيل الاحتقار لهذه الأمور التي نراها ونعجب منها ونصفها لأن ما غاب عنا من خلقه أعظم من كل ذلك.

وما الذي نرى من خلقك سماوات وأرضين وما نعجب له من قدرتك التي تحمل السماوات أن تقع على الأرض وما نصفه من عظيم سلطانك وقيمومتك على الأمور كل

هذه لا تعادل ما تغيّب عنا منه ولم تستطع أبصارنا رؤيته ولم تنته عقولنا إليه، فإن حجب الغيب حالت بيننا وبين معرفة ما حجب عنا فإن عقولنا محدودة وأبصارنا محدودة وطاقتنا محدودة وهذه المحدودية لا تطيق رؤية كل قدرة الله وسلطانه وصنعه. . .

(فمن فرّغ قلبه وأعمل فكره ليعلم كيف أقمت عرشك وكيف ذرأت خلقك وكيف علقت في الهواء سماواتك وكيف مددت على مور الماء أرضك رجع طرفه حسيراً وعقله مبهوراً وسمعه والهاً وفكره حائراً) إعلان العجز من هذا الإنسان وأنه مهما صفّى نفسه ودقق وحقق في بعض جزئيات خلق الله سوف يعجز ويرجع مبهوراً وقد ذكر مفردات إذا أراد الإنسان أن يفكر كيف أقام الله عرشه وكيف خلق الخلق وكيف هذه السماوات نراها معلقة بما فيها من نجوم وكيف كانت الأرض على موج الماء لو فكر الإنسان بهذه القضايا المعدودة الجزئية رجع بصره كليلاً عاجزاً وعقله مغلوباً لم يجد حلاً وسمعه متحيراً وفكره حائراً لم يهتد سبيلاً. . . وهذه عظمة الله وهذا عجز الإنسان. . .

(يدعي بزعمه أنه يرجو الله كذب والعظيم ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله؟ فكل من رجا عرف رجاؤه في عمله، وكل رجاء إلا رجاء الله تعالى فإنه مدخول وكل خوف محقق إلا خوف الله فإنه معلول) هذا ذم لمن يدعي أنه يرجو الله في ثوابه وأجره وجنته ثم لا يعمل بمقتضى هذا الرجاء فإن الإمام يكذّب هذا المدعي ويقول لو كان في رجائه صادقاً لظهر ذلك في سلوكه وعمله وحركة حياته فإن من يرجو عبداً من عبيد الدنيا تراه يواظب على خدمته ويسعى في كل ما يحبه ليظفر بمراده منه بينما هذا الإنسان يرجو الله وهو يمارس المعاصي ويعمل الخطيئات قال تعالى: **﴿من كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً. . .﴾** فالعمل هو الذي يثبت صحة الرجاء وبهذا يتوافق مع تفسير الإمام جعفر الصادق عليه السلام وقد سأله أحدهم عن قوم يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجو فقال الصادق: كذبوا إن من رجا أمراً طلبه ومن خاف من أمر هرب منه.

ثم استنكر على أصحاب الرجاء بأن كل من يرجو أمراً يأتي بما يحققه ويوفره إلا رجاء الله فإنه لا يأتي بما يحققه كاملاً فهو مدخول معيب لم يكن تاماً ومحصلاً للغرض كما أن كل ما يخاف من أحد يسد كل أبواب الخوف ويسعى إلى الأمن والطمأنينة إلا الخائف من الله فإنه يبقى على معصية الله والتمرد عليه. . . أو تفسر العبارة بمعنى آخر وهو أن كل خوف لا يعد شيئاً مذكوراً ويجب أن لا يهتم به والذي يجب أن يهتم به هو الخوف من الله لأنه الخوف الأسمى والأكبر والذي لا يقوى عليه الإنسان كما أن كل رجاء يجب أن لا يعتد به لأنه رجاء لأمر صغير حقير من أمور الدنيا والرجاء الذي يجب

أن يعمل له الإنسان هو الرجاء بالله لأنه المطلوب والأعظم لأن فيه سعادة الإنسان الدائمة. . .

(يرجو الله في الكبير ويرجو العباد في الصغير فيعطي العبد ما لا يعطي الرب فما بال الله جل ثناؤه يقصّر به عما يصنع به لعباده؟.

أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً؟ أو تكون لا تراه للرجاء موضعاً؟) هذا بيان لمدخولية الرجاء بالله وهو أن هذا العبد بدل أن يرجو الله في الصغير والكبير في أمور الدين والدنيا ويعمل بحقيقتين رجائه بالله وثقته به فإنه بدل ذلك يذهب هذا العبد إلى توزيع رجائه ففي الأمور الكبيرة التي هي الجنة والنار يرجو الله بينما في الأمور الصغيرة كالمكاسب والأرباح والأموال يرجو العباد أمثاله والإمام يذم هذا الذي يعطي العباد من الرجاء والعمل لأجل تحقيق ما يرجوه منهم فيعمل كل الوسائل ويسلك كل الطرق أما الله فإنه يرجوه في الكبير مع ذلك لا يعمل ما يجب أن يعمله لتحقيق رجائه من العبادات والأعمال الصالحة وغير ذلك. . .

ثم قال له: إن عدم عملك بمقتضى رجائك ناشيء من أحد أمرين إما ترجوه وأنت كاذب في رجائك فلذا لا تعمل بمقتضاه وهذا يرجع إلى استصغار نفسه أمام رجاء الله وهذا خطأ جسيم فإن الله كما يقبل رجاء الكبير يقبل رجاء الصغير وإما أن يكون عدم عمله بمقتضى رجائه من جهة أنه لا يرى الله أهلاً للرجاء وحاشا لمسلم أن يعتقد مثل ذلك لأنه كفر وخروج عن الدين. . .

(وكذلك إن هو خاف عبداً من عبيده أعطاه من خوفه ما لا يعطي ربه فجعل خوفه من العباد نقداً وخوفه من خالقه ضماراً ووعداً) وهذا تشنيع وتحقير للذي يخاف من إنسان مثله أكثر مما يخاف من الله، يخاف من إنسان مثله وترى أثر خوفه في سلوكه وتصرفه، يعمل لدفعه بكل ما يملك ويتحرك فعلاً في هذا السبيل بينما يجعل خوفه من الله أمراً ثانوياً يسوف في تنفيذه ويؤخر العمل بمقتضاه.

(وكذلك من عظمت الدنيا في عينه وكبر موقعها من قلبه آثرها على الله تعالى فانقطع إليها وصار عبداً لها) إشارة إلى علة إيثار الناس للدنيا على ما عند الله وما وعد وذلك أنهم رأوا الدنيا عظيمة ورأوا موقعها كبيراً، إنها احتلت قلوبهم وملكت عليهم عيونهم فانقطعوا إليها وهجروا غيرها وتحولوا إلى عبيد لها يخدمونها ويسعون من أجلها.

(ولقد كان في رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ كاف لك في الأسوة ودليل لك على

ذم الدنيا وعيبها وكثرة مخازيها ومساويها إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها وفطم عن رضاعها وزوي عن زخارفها) هذا بيان لذم الدنيا وأن الرسول الأكرم قد تخلى عنها وهو القدوة الصالحة لكل عمل طيب وفعل خيّر وفيه دليل على ذمها وعيبها وكثرة مساويها تعليل ذلك إنها قد امتنعت عنه بينا تبذلت لغيره وصعبت عليه بينما سهلت على غيره ولم يأخذ منها شيئاً أو يستفد منها بأمر كما أنه امتنع عن زينتها ومباهجها وذلك لأنها لا خير في متاعها لزواله وانقضائه وعدم بقائه والعقلاء وعلى رأسهم عقل العقلاء سيدهم محمد يريدون أفضل ما عند الله ويطلبون أحسن ما عنده. . .

(وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث يقول: ﴿رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ والله ما سأله إلا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله وتشذب لحمه) وهذا موسى كليم الله الأسوة الثانية بعد رسول الله إنه لم يرزق من الدنيا شيئاً ولم يأخذ منها حبة بل إن قوله عليه السلام في الآية: **﴿رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾** دليل على مدى نفض يديه منها ومدى بعده عنها ومدى هروبه منها. . . موسى النبي العظيم يسأل الله كسرة خبز على حد ما يسأله الفقراء والضعفاء. . . كسرة تقيم أوده. . .

والإمام يقسم أنه ما سأل الله إلا خبزاً يأكله لأنه قد أكل نبات الأرض حتى بانت خضرة النبات من خلال جلده لهزاله وضعفه. . .

(وإن شئت ثلثت بداوود ـ صلى الله عليه وسلم ـ صاحب المزامير وقارىء أهل الجنة فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها ويأكل قرص الشعير من ثمنها) وهذا نبي ثالث من أنبياء الله الكرام الذين هم أسوة الناس وقدوتهم إنه داوود النبي صاحب المزامير الذي كان إذا رتل ما يقرأ من الزبور اجتمعت عليه الوحوش والطيور وجميع الحيوانات بل حتى الجبال والحجارة كانت تسبح معه وتذكر الله.

وهو أيضاً قارىء أهل الجنة لطيب نغمه ورقة صوته فلقد كان يعمل بيده ويأكل من كد يمينه ولم يعش عالة على الناس يتكفف وجوههم ويمد يده لأحد منهم، إنه مع كونه قد ملك الأرض وتحت يده خزائن المال لم يكن ليأخذ منها درهماً يتقوت به بل كان يعمل بيده من نسائج خوص النخيل ما يحتاجه السوق ثم يقول لأحد جلسائه: أن يتولى عنه بيعها ثم يأكل قرص الشعير الذي يشتريه من ثمنها. . .، وهذا نبي من أنبياء الله والمثل الأعلى للإنسانية يضربه الله مثلاً لنا لنقتدي به ونسير سيرته ونعمل بعمله. . .

(وإن شئت قلت في عيسى بن مريم عليه السلام فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجشب وكان إدامه الجوع وسراجه بالليل القمر وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته ولا طمع يذله، دابته رجلاه وخادمه يداه) وهذا عيسى بن مريم نبي الله وحاله مع الدنيا. . . إنها حالة الزاهدين فيها البعيدين عنها وهل هناك وصف يحيط بهذا النبي الكريم أوفى مما وصفه به الإمام. . . إنه كان يجعل الحجر وسادته يضعه تحت رأسه فلا ريش نعام ولا قطن ملكي ولا صوف بلدي وأما لباسه فكان يلبس الخشن من الثياب فلا حرير ناعم وأما أكله فكان الجشب من الطعام أي القاسي طعام الفقراء والمساكين وليس طعام الطغاة والمترفين. . .

وكان إدامه الجوع إما أن يفسر بأنه لم يكن ليشبع إذا أكل فجعل الجوع مخلوطاً بالخبز كالإدام وإما لأن الأكل مع الجوع يلتذ به فيكون كأنه إدام. . . وعلى كل حال فلا إدام من لحم أو سمن أو عسل. . .

وأما سراجه بالليل فلا كهرباء ولا شموع ولا إنارة حديثة بل ولا إنارة قديمة كما كان يومئذ يتعارفها الناس، إنه لم يشغل نفسه بالسراج بل كان سراجه الذي يضيء له ويرى من خلاله ما يريد هو القمر في الليل.

وأما في الشتاء فكان يستتر حيث تشرق الشمس وتغيب فلا مكان له.

وأما فاكهته فلا تفاح ولا عنب ولا تين ولا برتقال وريحانه ليس الورد ولا النعناع وغيره بل كانت فاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم.

ثم نفى أن يكون له زوجة تضله وتصرفه عن طاعة الله كما هي نساء هذا العصر كما أنه لا ولد له إن مات يحزنه وإن عاش يعقه كما أنه ليس عنده مال يصرفه عن طاعة الله فلا صفقات تجارية تلهيه عن ذكر الله، ولم يطمع بشيء من أموال الدنيا يذله ويخضع لمن هو في يديه رجاء التصدق عليه.

دابته التي يتحرك عليها رجلاه فلا سيارات فخمة ولا مرافقة بالعشرات ولا طائرات خاصة كما هي حال المسؤولين اليوم يسلبون القرش من يد الفقير واللقمة من فمه ليقدموها إلى زبانيتهم ومن حولهم ممن يؤمن لهم الحماية أو الخدمة. . .

وأما خادمه الذي يتولى شؤونه فهما يداه فليس هناك من يساعده على قضاء حاجته فلا طباخين ولا طهاة للطعام إنه يتولى شؤونه بيديه. . .

(فتأس بنبيك الأطيب الأطهر ـ صلى الله عليه وآله ـ فإن فيه أسوة لمن تأسى وعزاء لمن تعزى وأحب العباد إلى الله المتأسي بنبيه والمقتص لأثره) اجعل نبيك الأطيب الأطهر قدوة لك وأسوة فإنه القدوة لمن أراده القدوة الصالحة وهو المثل الأعلى لمن أراد أن ينظر إلى إكمل الناس.

ثم ذكر أن أحب العباد إلى الله المقتدي بنبيه لأن من اقتدى به وسار على أثره وخطى خطاه كان من عباد الله الصالحين الذين يسيرون نحو الكمال ونحو العزة والعلو. . .

وإن كل أمة لا بد لها من قدوة عظمى تنظر إليها على أنها مثلها الأعلى فتعمل وهي تنظر إليها لتصل إلى علاها، وإذا فقدت الأمة المثل الأعلى سارت بغير توازن ولا يمكنها أن ترتقي أو ترتفع لعدم وجود الهدف في مسيرتها. . .

(قضم الدنيا قضماً ولم يعرها طرفاً أهضم أهل الدنيا كشحاً وأخمصهم من الدنيا بطناً عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها وعلم أن الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه وحقّر شيئاً فحقره وصغر شيئاً فصغره ولو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله لكفى بنا شقاقاً لله ومحادة عن أمر الله) هذا سلوك رسول الله مع الدنيا وعلى المتأسي به أن ينظر إلى فعله. . إنه لم يتناول من الدنيا إلا شيئاً قليلاً وكنى بذلك عن القضم الذي هو الأكل بأطراف الأسنان ولم يعط الدنيا طرفاً أي لم ينظر إليها فضلاً عن أن يمكّن نظره منها وقد كان أشد الناس جوعاً فيها بحيث إنه لم يشبع وأهل بيته من الطعام وتحت يده كل خيرات الجزيرة العربية ويستطيع أن يدرك ما يريد.

ومن شدة زهده في الدنيا أنها عرضت نفسها عليه فرفضها وأبى أن يقبلها ففي سيرته الطاهرة أنه قال: «قد أوتيت مفاتيح خزائن الأرض والخلد بها ثم الجنة وخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربي فاخترت لقاء ربي» وهكذا كانت سيرة رسول الله فكل أمر أبغضه الله وحقره وصغرّه كان النبي يبغضه في قلبه ويحقره ويصغره في لسانه وقلبه. . .

ثم إنه عليه السلام ذكر عيوبنا وأنه لو لم يكن فينا منها إلا حبنا ما أبغض الله ورسوله وتعظيمنا ما صغر الله ورسوله لكفى ذلك معصية ومخالفة وعناداً لله وخروجاً عن أمره فلو كنا في كل أمورنا الأخرى مع الله ورسوله ولكن كنا في هذا الأمر مخالفين له لكان ذلك معصية كبرى لا تجبرها أعمالنا الصالحة ولا تنفع معها التزاماتنا الأخرى. . .

(ولقد كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد ويخصف بيده نعله ويرقع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري ويردف خلفه) هذا من تواضع

رسول الله وقد ذكر له بعض هذه الموارد.

منهـا: إنه كان يأكل على الأرض وهذا درس في التواضع لأصحاب العروش ومن يقلدهم من عامة الناس فقد ابتدعت غرف خاصة تسمى غرف الطعام فيها طاولة وحواليها الكراسي فعل الجبابرة والطغاة.

ومنها: إنه كان يجلس جلسة العبد أي على الأرض بدون تكبر أو يجلس من غير تربع كما هو جلوس الملوك أو يجلس دون مجلسه تعليماً لنا فالمجلس يكبر بأهله ولا يكبر أهله به.

ومنها: إنه كان يخصف نعله بيده أي يصلحها بيده وهل هناك في العالم شخصية عظيمة مثل محمد؟ وهل هناك تواضعاً لابن انثى مثل هذا التواضع؟ إنه صنيعة الله...

ومنها: إنه يرّقع بيده ثوبه: يصلح ثوبه المفتوق أو المشقوق بيده تواضعاً منه مع أنه كان باستطاعته استبداله بخير منه أو كان بمقدوره أن يعطيه لأحدى نسائه أو لأحد المسلمين ليصلحه وكل واحد يتمنى أن يخدم رسول الله ويؤدي له أي مهمة يطلبها منه ولكنه صلوات الله عليه أراده درساً لنا...

ومنها: يركب الحمار العاري وهذا آية التواضع يركب الحمار الذي لا يركبه إلا ضعاف الناس ومساكينهم وفضلاً عن ذلك يكون الحمار عارياً زيادة في التواضع.

ومنها: إنه كان يردف خلفه: أي يركب خلفه على نفس الحمار بعض الناس وهذا عمل لا يقوم به إلا النبي المسدد الذي يريد أن يعلّم الأمة كيف يكون التواضع وكيف يجب أن يعيش القائد الرسالي مع الناس، فهو واحد منهم، يحدب عليهم ويعطف على مساكينهم ولا يخرج عن التواضع في كل المواضع...

(ويكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول «يا فلانة ـ لإحدى أزواجه ـ غيّبيه عني، فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفها» فأعرض عن الدنيا بقلبه وأمات ذكرها من نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتخذ منها رياشاً ولا يعتقدها قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب وغيبها عن البصر وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه وأن يذكر عنده) وهذا أمر مبغوض للنبي لأنه من الدنيا وزينتها يريد أن يغيبه عن عينه فقد ذكر الإمام هذا الأمر حكاية عنه ليدلل على مدى بغضه للدنيا، فالستر يكون على باب البيت فتكون فيه التصاوير من أشجار وجماد فيقول لإحدى زوجاته يا فلانة ـ يا عائشة ـ غيبّيه عن عيني وذلك من أجل أن يرتفع من أمامه كل

ما يمكن أن يذكر بالدنيا وزينتها فصلوات الله عليه أعرض عنها بقلبه وهذا هو الزهد الحقيقي والبعد عنها حقيقة وأمات ذكرها من نفسه فهي لا تخطر له على بال ولا يفكر فيها لحظة أو في مقام وتبعاً لذلك أحب أن تغيب عن عينيه زينتها فلا يتخذ منها زينة أو فراشاً وثياباً فاخرة ولا يذهب إلى أنها دار قرار أو مكان إقامة دائمة ولذا أخرجها من النفس فليس لها محل وأبعدها عن قلبه الشريف وعن بصره وهذه حالة من أبغض شيئاً أبغض النظر إليه كما أبغض ذكره عنده وهذه حالة نفسية أو عقيدية يعيشها المسلم تبعاً لنبيه فإنه إذا كره شيئاً كره النظر إليه أو الحديث عنه. . . وبعبارة موجزة أن النبي صلى الله عليه وآله لم يرد الدنيا وزينتها فكل ما يدعو إليها أراد البعد عنه وطلب تغيبه عن عينه والامتناع عن الحديث فيه. . .

(ولقد كان في رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ما يدلك على مساوىء الدنيا وعيوبها إذ جاع فيها مع خاصته وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته) لقد كان فيما جرى على رسول الله صلى الله عليه وآله مع الدنيا ما يدلك على مساويها وعيوبها فلقد جاع فيها مع أهل بيته وانقبضت عنه بزينتها وما فيها من مباهج مع أنه أقرب الناس من الله وأحبهم إليه وإذا كان أقرب الخلق إلى الله تتعامل معه الدنيا بهذه الطريقة فيكفي بذلك عيوباً لها ومساوي فيها.

وهذه مقدمة أراد من خلالها أن يدخل إلى نتيجة ذكرها بقوله:

(فلينظر ناظر بعقله: أكرم الله محمداً بذلك أم أهانه فإن قال: أهانه فقد كذب ـ والله العظيم ـ بالإفك العظيم وإن قال: أكرمه فليعلم أن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس منه) أمر عليه السلام أن يفكر صاحب العقل بفكره ويحد النظر جيداً هل أن الله عندما زوى الدنيا عن نبيه وخاصته هل زواها إهانة له أم إكراماً منه له ولا يخلو الأمر من أحدهما فإن قال: إنما زواها إهانة له فقد كذب من ادعى ذلك وجاء بالكذب العظيم والافتراء المبين لأن من كان من خواصّ الله وأقرب الناس إليه وأشدهم طاعة له والتزاماً بأمره لم يكن ذلك ليقابل بالإهانة والجفاء. . .

وإن قال: إنما زواها عنه إكراماً له لأنها حقيرة وهو أجل منها وأعظم فلا تليق بشأنه وجلاله فليعلم أنه عندما يبسطها لغيره ويعطيها لسواه إنما ذلك إهانة له واحتقاراً منه له فيكون بسط الدنيا للناس إهانة وزويها عن نبيه إكراماً. . .

(فتأسى متأس بنبيه واقتص أثره وولج مولجه وإلا فلا يأمن الهلكة) إخبار يراد به الأمر أن يتأسى الإنسان بنبيه الذي أكرمه الله حيث زوى الدنيا عنه وأن يقتص أثره أي

يمشي ممشاه ويدخل مداخله التي هي في طاعة الله والبعد عن الدنيا وإلا فإذا لم يتخذ النبي إسوة له ويمشي على خطه ويسلك دربه فإنه لا يأمن الهلكة والعذاب والنار.

(فإن الله جعل محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ علماً للساعة ومبشراً بالجنة ومنذراً بالعقوبة) إن الله جعل محمداً صلى الله عليه وآله دليلاً على قرب يوم القيامة حيث إنه لا نبي بعده أو أن يراد أنه أرسله ليبلغ الناس بيوم القيامة وأنها لا بد من وقوعها والوصول إليها وجعله مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ومنذراً بالنار لمن عصى الله. . .

(خرج من الدنيا خميصاً وورد الآخرة سليماً لم يضع حجراً على حجر حتى مضى لسبيله وأجاب داعي ربه، فما أعظم منة الله عندنا حين أنعم علينا به سلفاً نتبعه وقائداً نطأ عقبه) تنفير من الدنيا وتبغيض بها وأن لا يركن المسلم إليها بل يتأسى بنبيه الذي كانت حالته معها بهذا المستوى.

فقد خرج من الدنيا جائعاً حقيقة أو كناية عن عدم التمتع بملذاتها ونعيمها وورد الآخرة سليماً من شر الدنيا وما فيها من مبعدات عن الله.

ومن زهده أنه لم يضع حجراً على حجر أي لم يبن بيتاً يسكن فيه كما يبني الناس زهداً في الدنيا ومعرفة منه بحقيقتها وأنه لن يبقى عليها ولن تدوم له وأن كل ما يبني سيتحول عنه إلى الوارث وسيعبث به الزمان فيذره أثراً بعد عين وطللاً دارساً.

إنه صلوات الله عليه أجاب داعي ربه الذي دعاه إلى الآخرة ولقاء الله.

وبعد هذا أراد أن يعترف بعظيم نعم الله عليه وعلينا حينما أنعم بنبيه علينا سلفاً نتبع أثره وقائداً نمشي على خطاه، وهل هناك أعظم من إنسان رسول يتقدمنا ونحن نسير خلفه؟ فإن المسيرة هادفة وصحيحة والخطوات ثابتة ورزينة. . .

(والله لقد رقّعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت: أغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السُّرى) ذكر عليه السلام حاله وتأسيه بالنبي وأنه قد رقّع مدرعته حتى استحى من نفسه لكثرة رُقعها فقال له هذا القائل: ألا ترميها عنك وكأنه أراد منه أن يستبدل بها غيرها أحسن منها.

فأجاب الإمام بأن يُبعد عنه ولا يتكلم بهذا ثم قال له: «عند الصباح يحمد القوم السُّرى» وهو مثل يضرب لمن يحتمل المشقة عاجلاً ليصل إلى الراحة آجلاً فهو عليه السلام يتحمل المدرعة المرقعة التي لا تليق بشأنه ليصل إلى الآخرة سالماً من عيوب الدنيا وما فيها. . .

وقد روى أحمد بن حنبل بسنده: قيل لعلي عليه السلام: يا أمير المؤمنين لم ترقّع قميصك؟ قال: ليخشع القلب ويقتدي بي المؤمنون. . .

وأما المثل فأصله: إن المسافر إذا هجر النوم وسار أول الليل وتحمل مشقة السفر فإنه يبلغ منزله أول الصباح فيُحمد على ذلك بخلاف من نام فإنه لن يدرك ما أدركه من سار أول الليل. . .

١٦١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في صفة النبي وأهل بيته وأتباع دينه، وفيها يعظ بالتقوى

الرسول وأهله وأتباع دينه

ٱبْتَعَثَهُ[١] بِالنُّورِ ٱلمُضِيءِ، وَٱلبُرْهَانِ ٱلجَلِيِّ[٢]، وَٱلمِنْهَاجِ ٱلبَادِي[٣]، وَٱلكِتَابِ ٱلهَادِي. أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ[٤]، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ، أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ[٥]. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ[٦]. عَلاَ[٧] بِهَا ذِكْرُهُ وَٱمْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ. أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلافِيَةٍ[٨]. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ ٱلمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ[٩] بِهِ ٱلبِدَعَ[١٠] ٱلمَدْخُولَةَ[١١]، وَبَيَّنَ[١٢] بِهِ ٱلأَحْكَامَ ٱلمَفْصُولَةَ[١٣]. فَمَنْ يَبْتَغِ[١٤] غَيْرَ ٱلإِسْلاَمِ دِيناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ[١٥]، وَتَنْفَصِمْ[١٦] عُرْوَتُهُ[١٧]، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ[١٨]، وَيَكُنْ مَآبُهُ[١٩] إِلَى ٱلحُزْنِ ٱلطَّوِيلِ وَٱلعَذَابِ ٱلوَبِيلِ[٢٠].

وَأَتَوَكَّلُ عَلَى ٱللهِ تَوَكُّلَ ٱلإِنَابَةِ[٢١] إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ[٢٢] ٱلمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، ٱلقَاصِدَةَ[٢٣] إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

النصح بالتقوى

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ ٱللهِ، بِتَقْوَى ٱللهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ[٢٤] غَداً، وَٱلمَنْجَاةُ[٢٥] أَبَداً. رَهَّبَ[٢٦] فَأَبْلَغَ[٢٧]، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ[٢٨]، وَوَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا وَٱنْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَٱنْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا[٢٩] عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ ٱللهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ ٱللهِ!

فَغُضُّوا(٣٠) عَنْكُمْ ـ عِبَادَ ٱللهِ ـ غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا قَدْ أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ(٣١) حَالاَتِهَا. فَٱحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ(٣٢) النَّاصِحِ(٣٣)، وَٱلْمُجِدِّ ٱلْكَادِحِ(٣٤). وَٱعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ ٱلْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ(٣٥) أَوْصَالُهُمْ(٣٦)، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَٱنْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ ٱلأَوْلاَدِ فَقْدَهَا(٣٧)، وَبِصُحْبَةِ ٱلأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا. لاَ يَتَفَاخَرُونَ، وَلاَ يَتَنَاسَلُونَ، وَلاَ يَتَزَاوَرُونَ، وَلاَ يَتَحَاوَرُونَ(٣٨). فَٱحْذَرُوا، عِبَادَ ٱللهِ، حَذَرَ ٱلْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، ٱلْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ، فَإِنَّ ٱلأَمْرَ وَاضِحٌ وَٱلْعَلَمَ(٣٩) قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ(٤٠) وَٱلسَّبِيلَ قَصْدٌ(٤١).

اللغة

١ ـ ابتعثه : بعثه أرسله.
٢ ـ الجلي : الواضح، الظاهر على حقيقته.
٣ ـ البادي : الظاهر.
٤ ـ أسرة : الرجل أهله الأدنون.
٥ ـ متهدلة : متدلية مسترخية.
٦ ـ طيبة : اسم للمدينة المنورة سماها بها رسول الله وكان اسمها يثرب.
٧ ـ علا : الصوت ارتفع.
٨ ـ متلافية : من تلافى الشيء إذا تداركه.
٩ ـ القمع : القهر والغلبة.
١٠ ـ البدع : جمع بدعة الأمر المستحدث من أمور الضلال.
١١ ـ المدخول : المغشوش، المعيوب.
١٢ ـ بيّن : أوضح وأظهر.
١٣ ـ المفصولة : الواضحة التي فصلها الله أي قضى بها على عباده.
١٤ ـ ابتغى : طلب.
١٥ ـ الشقوة : الشقاء ضد السعادة التعاسة.

١٦ ـ تنفصم	: تنقطع.
١٧ ـ العروة	: من الإبريق مقبضه أي أذنه، ما يوثق به، ما يعوّل عليه.
١٨ ـ الكبوة	: العثرة، السقطة.
١٩ ـ المآب	: المرجع.
٢٠ ـ العذاب الوبيل	: ذو الوبال وهو الهلاك.
٢١ ـ الإنابة	: الرجوع.
٢٢ ـ السبيل	: الطريق.
٢٣ ـ القاصدة	: المعتدلة المستقيمة غير الجائرة.
٢٤ ـ النجاة	: الفوز وأصلها الناقة ينجى عليها.
٢٥ ـ المنجاة	: مصدر نجا ينجو نجاة.
٢٦ ـ الترهيب	: التخويف.
٢٧ ـ أبلغ	: بلغ الغاية.
٢٨ ـ أسبغ	: أتم وأحاط.
٢٩ ـ أعرض	: عن الشيء صدّ عنه وأشاح.
٣٠ ـ غض	: بصره كفّه.
٣١ ـ تصرّف	: الحالات تقلبها وتغيّرها.
٣٢ ـ الشفيق	: الخائف.
٣٣ ـ الناصح	: الخالص.
٣٤ ـ الكادح	: الساعي.
٣٥ ـ تزايلت	: تفرّقت.
٣٦ ـ الأوصال	: الأعضاء، المفاصل.
٣٧ ـ فقد	: الولد، غاب عنه ومات.
٣٨ ـ المحاورة	: المخاطبة والمناجاة.
٣٩ ـ العلم	: ما يستدل به في المفاوز على الطريق.
٤٠ ـ الجدد	: بالتحريك من الطريق المستوي المسلوك الواضح.
٤١ ـ القصد	: المستقيم.

الشرح

(ابتعثه بالنور المضيء والبرهان الجلي والمنهاج البادي والكتاب الهادي أسرته خير أسرة وشجرته خير شجرة أغصانها معتدلة وثمارها متهدلة مولده بمكة وهجرته بطيبة علا بها ذكره وامتد منها صوته) تتضمن هذه الخطبة صفات النبي ومناقبه كما أنها تتضمن

الموعظة الحسنة في التنفير من الدنيا. . .

ابتدأ بذكر النبي فذكر أن الله بعثه بالنور المضيء وهو نور النبوة فإن نورها يمحي الخرافات والجهل ويقضي على الظلم والجور.

(والبرهان الجلي) وهي المعجزات التي جاء بها وتثبت نبوته بأجلى ما يكون وأهم تلك المعجزات كتاب الله الكريم الذي احتوى ما يعجز عن الاتيان به أحد من الخلق.

(والمنهاج البادي) هو الدين بما فيه من أحكام وتشريعات واضحة جلية.

(والكتاب الهادي) هو القرآن الكريم قال تعالى: **﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾**.

ثم تعرض لأسرة النبي فمدحهم بما يستحقون وبما هو فيهم.

(أسرته خير أسرة) وهم أهله وأولاده ومن حوله فهم خير أسرة وأسرة النبي لها خصائص ومميزات أفردتهم عن غيرهم كالعلم والكرم والقيادة والحلم والزهد وغيرها من الصفات.

(وشجرته خير شجرة) وشجرة النبي هي أصله وهي قريش ولا شك أن قريشاً كانت المقدمة في كل المجالات على كل العرب وكان بنو هاشم نخبة قريش وسادتهم وكان بيت النبي صفوة هاشم وأفضل بيوتاتهم. . .

(أغصانها معتدلة وثمارها متهدلة) والمراد بأغصان هذه الشجرة القرشية هم علي وأولاده وإن كانت العبارة تشمل غيرهم ولكن الوصف لا ينطبق إلا عليهم فإنهم المتقاربون في الشرف الذين يتفقون في الأمور الدينية ولم يقع بينهم خلاف فقولهم واحد من مصدر واحد بدون اختلاف. . .

وأراد بقوله: «وثمارها متهدلة» أي ظاهرة كثيرة سهلة الانتفاع بها فإن علوم أهل البيت ظاهرة سهلة كثيرة الانتفاع من أرادها وطلبها أدركها بأيسر ما يكون. . .

ثم ذكر مكان مولد النبي وهجرته فقد ولد في مكة أعزها الله وزادها شرفاً وهاجر إلى طيبة سماها النبي بذلك بينما سماها يزيد بن معاوية «خبيثة» قال ابن أبي الحديد: ومما أكفر الناس به يزيد بن معاوية أنه سماها «خبيثة» مراغمة لرسول الله صلى الله عليه وآله.

ذكر المدينة المنورة ـ وكان أصلها يثرب وسماها النبي طيبة ـ ذكرها بأن منها

انطلق صوت الدعوة المحمدية وسار بأهلها لإعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله ومنها انتشرت دعوته وبلغت أنحاء العالم. . .

(أرسله بحجة كافية وموعظة شافية ودعوة متلافية) أرسل الله النبي محمداً ومعه الأدلة والبراهين الكافية على صحة ما يدعيه من النبوة فكانت المعجزات التي تولى إظهارها للناس في زمانه أقوى الحجج على صحة ما يقوله وكان القرآن لزمانه ولكل زمان حجة وبرهاناً على صحة وأحقية ما يذهب إليه ويدعيه.

وأرسله الله بالموعظة الشافية وهو القرآن الكريم الذي يشفي الإنسان من أمراض الجهل والتخلف والبعد عن الله والتمرد على حكم العقل.

كما أن دعوته ورسالته كانت من أجل أن تتلافى مفاسد الجاهلية وتتدارك ما وقع فيها من بعد عن الله ومظالم للعباد والبلاد، جاءت رسالة الإسلام لترفع الحيف والظلم والانحراف وتضع محلها العدل والحق والإيمان والرجوع إلى الله الواحد الأحد. . .

(أظهر به الشرائع المجهولة وقمع به البدع المدخولة وبين به الأحكام المفصولة) أظهر الله بنبيه الشرائع المجهولة التي كانت في الأديان المتقدمة ولكن يد التحريف والتغيير أتت عليها فطمست معالمها وأماتت وجودها فجاء النبي فأظهر تلك الشرائع وقد يراد بالشرائع المجهولة التي لم يهتد إليها الناس بعقولهم فجاء النبي فأظهرها لهم وبينها لعيونهم.

وقمع بالنبي البدع المدخولة وهي ما كانت الجاهلية قد اخترعتها لنفسها من أصنام وأوثان أو ما كان عند الأديان الأخرى كالرهبانية التي ابتدعوها.

ثم بيّن الله بالنبي ما فصّل من الأحكام والتشريعات وما بيّن الدين من قوانين الشريعة وتفصيلاتها. . .

(فمن يبتغ غير الإسلام ديناً تتحقق شقوته وتنفصم عروته وتعظم كبوته ويكن مآبه إلى الحزن الطويل والعذاب الوبيل) فإذا كان النبي قد جاء بالإسلام الذي فيه الحجة الكافية والموعظة الشافية والدعوة المتلافية وكان به إظهار الشرائع المجهولة وقمع البدع المدخولة وبيان الأحكام المفصولة فهل إنسان يترك هذا الدين ويتنكر له ولا يؤمن به ويمكن أن يعيش سعيداً. . . كلا. . . بل لا بد لمن ترك الإسلام أن يكون شقياً تعيساً لا يعرف السعادة ولا يشم رائحتها وتتقطع به كل الأسباب التي يظن بها النجاة والفلاح ويكثر عثاره وتزداد كبواته ومصائبه ولن يصل إلى الآخرة سليماً بل يكون مرجعه إلى

جهنم حيث الحزن الطويل على تفريطه والعذاب المهلك على انحرافه... وبعبارة أخرى من تديّن بغير الإسلام عاش في الدنيا في الشقاء والعذاب ولم يكن له في الآخرة شفيع أو نصير بل حزن طويل وعذاب أليم...

(وأتوكل على الله توكل الإنابة إليه واسترشده السبيل المؤدية إلى جنته القاصدة إلى محل رغبته) أتوكل على الله لا على سواه توكل من انقطع إليه واعتمد عليه وأطلب منه أن يهديني ويرشدني إلى الطريق المعتدلة المستقيمة التي توصل إلى جنته وإلى ما يرغب فيه ويحبه من المحل المعد للمتوكلين عليه...

(أوصيكم عباد الله، بتقوى الله وطاعته، فإنها النجاة غداً والمنجاة أبداً رهب فأبلغ ورغّب فأسبغ ووصف لكم الدنيا وانقطاعها وزوالها وانتقالها فأعرضوا عما يعجبكم فيها لقلة ما يصحبكم منها) ابتدأ بالوصية بتقوى الله وطاعته وهي الالتزام بأحكامه وبما جاء به نبيه فهذه التقوى بها تكون النجاة غداً من النار ومن عذاب الملك الجبار وهي المنجاة أبداً أي محل النجاة... وقيل: إن النجاة هي الناقة التي ينجى عليها فاستعارها للطاعة لأنها كالمطية ينجو بها المطيع من العطب...

رهّب فأبلغ أي خوف المذنبين والمنحرفين فبلغ الغاية في التخويف.

ورغّب فأسبغ: رغب المطيعين بالدرجات العالية في الجنة وبالحور والقصور وغيرها فكان أتم ترغيب وأكمله ثم وصف الدنيا بما ينفر منها وأنها إلى انقطاع وزوال وانتقال فلا بقاء لها ولا دوام ثم أمر بالإعراض عنها وتركها وهجر ما فيها قلباً وعملاً وعلل ذلك بقلة ما يأخذه الإنسان منها فإنه لا يأخذ إلا الكفن فحسب وكفى بذلك قلة وحقارة فهو يتعب أيام عمره ويشقى ويكد ويجمع ثم يرحل عن الدنيا بخرقة يُلف فيها ربما كان يترفع عن ارتدائها حال حياته والعاقل من فكّر في سفره واستعد له...

(أقرب دار من سخط الله وأبعدها من رضوان الله فغضّوا عنكم ـ عباد الله ـ غمومها وأشغالها لما قد أيقنتم به من فراقها وتصرف حالاتها فاحذروها حذر الشفيق الناصح والمجد الكادح) دار الدنيا أقرب دار إلى غضب الله لأن فيها الشهوات ولا يعصى الله إلا فيها وأبعد دار عن رضوان الله لأن رضا الله يتحقق بطاعته والتزام أمره وهذا ما لا يحصل إلا ببعض درجاته ومراتبه...

ثم أمرهم أن يكفوا عن أنفسهم الغم لأجلها والاشتغال بها لزوالها وعدم دوامها وإنما يستحق الاهتمام ما كان يدوم ويبقى كالدار الآخرة.

ثم أمرهم بالحذر وأخذ الإهبة والاستعداد لأنفسهم حذر الشفيق الحنون على شفيقه وحبيبه الناصح له والمجد الساعي بجد ونشاط خوف الفشل والسقوط. . .

(واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع القرون قبلكم قد تزايلت أوصالهم وزالت أبصارهم وأسماعهم وذهب شرفهم وعزهم وانقطع سرورهم ونعيمهم فبدلوا بقرب الأولاد فقدها وبصحبة الأزواج مفارقتها لا يتفاخرون ولا يتناسلون ولا يتزاورون ولا يتحاورون) أمرهم أن يأخذوا العبرة بمن مات قبلهم ـ وهذه عبرة لنا ولكل حي ـ أن ينظر في الأمم الماضية كيف عفى عليها الزمن وأتى على مساكنها ولم يبق منها إلا الأطلال الدارسة التي تحكي عنهم وتخبر عن وجودهم. . .

لقد تفرقت أعضاؤهم فلم يبق لهم يد ولا رجل ولا رأس على بدن.

وزالت أبصارهم وأسماعهم فقد فقدوها أكلتها حشرات الأرض وديدانها.

وذهب مقامهم الرفيع ومهابتهم التي كانوا يمارسون بها الظلم على الناس.

لقد كانوا أعزة تحرسهم الجيوش وأصحاب شرف عريض يدافعون عنه ويقاتلون من أجله فذهب كله إلى التراب وأما سرورهم وما كانوا فيه من نعيم، أيام أفراحهم وسرورهم لقد ولت معهم ودفنت إلى جانبهم. . .

لقد تبدلت أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا.

ففي الدنيا كان الأولاد إلى جانبهم ومعهم يأنسون بهم ويفرحون فهذا القرب قد تبدل إلى بعد فلا جامع يجمعهم ولا لقاء بينهم.

وفي الدنيا كان هناك أزواج تصحب أزواجها وتأنس بها فقد فارقتها وابتعدت عنها وهجرت اللقاء بها.

وفي الدنيا كانوا يتفاخرون كل واحد من الأمم الماضية كان يفتخر على قرنه ويرى نفسه أنه أكمل منه وأعظم فقد انقطع هذا التفاخر وأضحى الجميع في المقابر، لقد درستهم الأيام وسوّت فيما بينهم. . .

وفي الدنيا كانوا يتزوجون ويتناسلون فهناك ابناء وأحفاد لقد توقف الإنتاج والتناسل وتعطلت الأرحام التي كانت تدفع بالأولاد إلى الدنيا.

وفي الدنيا كانوا يتزاورون، يزور بعضهم بعضاً فقد انقطعت الزيارات بالموت وتوقفت اللقاءات والاجتماعات. . .

وفي الدنيا كان يجري بين أهلها المحاورة والنقاش والأخذ والرد وبالموت انقطع ذلك وتوقف فلا حديث ولا حوار . . .

(فاحذروا عباد الله حذر الغالب لنفسه المانع لشهوته الناظر بعقله فإن الأمر واضح والعلم قائم والطريق جدد والسبيل قصد) عاد عليه السلام يحذرهم ويخوفهم من أنفسهم حذر القاهر لنفسه المنتصر عليها المسيطر على غرائزه المانع لشهوته أن تجره إلى الانحراف أو الرذيلة أو شيء من معصية الله . . .

حذر من نظر بعقله وفكّر ودقق ومثل هذا في أمان من السقوط والإنهيار، فإن أمر الدنيا والآخرة واضح لا غبار عليه فالدنيا زائلة فانية والآخرة باقية دائمة، وعلم الشريعة والدين قائم يراه كل من يطلبه ويهتدي به كل من قصده والطريق إلى الجنة سهل والسبيل إليها مستقيم وعلى العاقل أن يسلك هذا الطريق ويصل إلى ما يحب ويرضى . . .

١٦٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

لبعض أصحابه وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فقال:

يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ[١] ٱلوَضِينِ[٢]، تُرْسِلُ[٣] فِي غَيْرِ سَدَدٍ[٤]، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ[٥] الصِّهْرِ[٦] وَحَقُّ ٱلمَسْأَلَةِ، وَقَدِ ٱسْتَعْلَمْتَ فَٱعْلَمْ: أَمَّا ٱلاسْتِبْدَادُ[٧] عَلَيْنَا بِهذَا ٱلمَقَامِ وَنَحْنُ ٱلأَعْلَوْنَ نَسَباً، وَٱلأَشَدُّونَ بِرَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ نَوْطاً[٨]، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً[٩] شَحَّتْ[١٠] عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ[١١] عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَٱلحَكَمُ ٱللهُ، وَٱلمَعْوَدُ[١٢] إِلَيْهِ ٱلقِيَامَةُ.

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً[١٣] صِيحَ[١٤] فِي حَجَرَاتِهِ[١٥]
وَلكِنْ حَدِيثاً مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ[١٦]

وَهَلُمَّ[١٧] ٱلخَطْبَ[١٨] فِي ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ، وَلاَ غَرْوَ[١٩] وَٱللهِ، فَيَا لَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ[٢٠] ٱلعَجَبَ، وَيُكْثِرُ ٱلأَوَدَ[٢١]! حَاوَلَ ٱلقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ ٱللهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ[٢٢] مِنْ يَنْبُوعِهِ[٢٣]، وَجَدَحُوا[٢٤] بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً[٢٥] وَبِيئاً[٢٦]، فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ[٢٧] ٱلبَلْوَى، أَحْمِلْهُمْ مِنَ ٱلحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ[٢٨]، وَإِنْ تَكُنِ ٱلأُخْرَى، «فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ[٢٩]، إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

اللغة

١ ـ قلق : كككتف من باب تعب اضطرب.
٢ ـ الوضين : الحزام الذي يجعل تحت بطن الدابة يشد به ما على ظهر الدابة من السرج ونحوه.
٣ ـ ترسل : من الإرسال وهو الإطلاق والإهمال.
٤ ـ السدد : بالتحريك الاستقامة، الصواب.
٥ ـ الذمامة : الحماية والكفاية، الحرمة.
٦ ـ الصهر : القرابة.
٧ ـ الاستبداد : بالأمر الاستقلال به والانفراد دون غيره.
٨ ـ النوط : بالفتح التعلق والالتصاق.
٩ ـ أثرة : الاختصاص بالشيء دون مستحقه، الاستئثار.
١٠ ـ شحّت : بخلت.
١١ ـ سخت : جادت.
١٢ ـ المعود : اسم لمكان العود أو مصدر بمعناه.
١٣ ـ النهب : الغنيمة.
١٤ ـ صيح : من صاح أي صاحوا للغارة.
١٥ ـ حجراته : جمع حجرة بفتح الحاء الناحية.
١٦ ـ الرواحل : الإبل جمع راحلة.
١٧ ـ هلمّ : هات، تعال.
١٨ ـ الخطب : الأمر العظيم، الحادث الجليل.
١٩ ـ لا غرو : لا عجب.
٢٠ ـ يستفرغ : العجب يستنفده ويُفنيه.
٢١ ـ الأود : الاعوجاج.
٢٢ ـ الفوار : والفوارة من الينبوع الثقب الذي يفور منه الماء بشدة.
٢٣ ـ الينبوع : عين الماء وجمعه ينابيع.
٢٤ ـ جدحوا : خلطوا ومزجوا.
٢٥ ـ الشرب : بكسر الشين النصيب من الماء.
٢٦ ـ الوبيء : ذو الوباء والمرض.
٢٧ ـ المحن : ما يمتحن به الإنسان من بلية.
٢٨ ـ المحض : الخالص.
٢٩ ـ الحسرات : التلهف والحزن على أمر قد فات.

الشرح

(يا أخا بني أسد إنك لقلق الوضين ترسل في غير سدد ولك بعد ذمامة الصهر وحق المسألة وقد استعلمت فاعلم) هذا الكلام منه عليه السلام جواب لأحد أصحابه من بني أسد سأله وهو في صفين: كيف دفعكم قومكم عن الخلافة وأنتم أحق بها لقربكم من رسول الله وأنتم أصحاب العلم والحلم وفيكم الوصية ولكم الوراثة.

فأجابه الإمام: يا أخا بني أسد إنك لقلق الوضين كناية عن عدم استقامته في سؤاله في هذا الوقت الصعب أو لأنه سؤال يحتاج إلى وقت أطول وتفصيل أكثر والوقت لا يتسع لذلك كنى بذلك لأن حزام الدابة الذي يشد السرج إذا كان واسعاً لم يستقر السرج ويسقط من كان عليه.

وقوله ترسل في غير سدد أي تلقي الكلام بدون رويّة ولا دراسة لمواقعه وأوقاته ومتى يكون؟ وهذا تأديب له وتنبيه على أن لكل شيء وقته الذي يلائمه ويناسبه وبعد أن أدب السائل أراد أن يجيبه وقد هدف في ذلك إلى تعليمنا وأنه لا بد من الإجابة لأمرين:

الأول: إن لك حق الصهر وحرمته واحترامه وذلك لأن زينب بنت جحش زوج رسول الله كانت أسدية وإن كانت من جهة الأم ابنت عمة رسول الله.

الثاني: إن لكل سائل حق أن يجاب وأنت قد سألت فلك الحق في الجواب وقد طلبت العلم فاعلم الحقيقة وخذها من أهلها.

(أما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً والأشدون برسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ نوطاً فإنها كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين والحكم الله والمعود إليه القيامة.

ودع عنك نهباً صيح في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

وهلم الخطب في ابن أبي سفيان فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه ولا غرو والله، فيا له خطباً يستفرغ العجب ويكثر الأود) أما أخذ الخلافة والاستقلال بها دوننا مع أننا في الذروة العليا في الحسب والنسب والأقرب من جميع الناس برسول الله وأشدهم لحمة به فإنما كان ذلك لأن النفوس مجبولة على طلب ما تحب وهي تطلبه وتريده وتسعى في سبيله والخلافة مما يُحب ويستأثر به ولذا أحبتها نفوس قوم فطلبتها وعقدت سقيفة بني ساعدة من أجلها وبخلت بها أن تعطيها لأهلها وأما أهل البيت فقد سخت نفوسهم بها وأشاحوا عنها بنظرهم فلم يشنوا من أجلها حرباً ولم يفرقوا جماعة، بل كان همهم

الوحدة وشغلهم الحفاظ عليها. . .

وبعبارة موجزة تليق بالمقام الخلافة شيء يطلب وقد طلبها أصحاب السقيفة وبخلوا بها على أهلها ـ وهم أهل البيت ـ وأهل البيت سكتوا عن ذلك حفظاً للوحدة وصيانة لها. . .

ثم قال له: إن الحكم هو الله وهو الذي يفصل بين عباده ويحكم لأصحاب الحقوق بحقوقهم ويعذب الظالمين والمعتدين والمرجع إلى الله يوم القيامة فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فإذا كان هناك يوم يحاسب فيه هذا الإنسان ويكون الحاكم والمحاسب هو الله العدل فتهون القضايا ويصل كل ذي حق إلى حقه.

ثم استشهد بهذا البيت من الشعر لامرىء القيس:

ودع عنك نهباً صيح في حجراته   ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

يعني دع عنك أمر من مضى من الخلفاء الذين سلبوني حقي في الخلافة واستولوا عليها ظلماً ولكن هات هذا الأمر الجليل الذي يدعيه ابن أبي سفيان حيث نازع الحق أهله وخرج على الخلافة الشرعية وقام في الحرب والقتال طالباً الخلافة. . .

لقد أضحكني الدهر بعد إبكائه كان للأوائل حججاً واهية ودعاوى فارغة، ادعوا أنهم أصحاب رسول الله وأنهم شجرته وعشيرته وأنهم. . . وإنهم وبهذا موهوا على الناس البسطاء فشجاني ذلك وأبكاني حقيقة لطمس معالم الحق وكيف أنهم لبّسوا على الناس وأخفوا الحقائق.

ثم قال: لا غرو والله فيما جرى وما حدث فهذا هو الدهر وهذه هي تقلباته.

ثم استعظم الأمر وأشار إلى أنه أمر جليل وحدث عظيم يستفرغ العجب يفنيه حتى يعود ولا عجب في البين لأن أصبح يجل عن التعجب.

ثم وصف الخطب أيضاً بأنه يكثر الاعوجاج والالتواء لأن كل أمر إذا بعد عن الشريعة ازداد اعوجاجاً وإن ابتدأ صغيراً. . .

(حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه وسد فواره من ينبوعه وجدحوا بيني وبينهم شرباً وبيئاً فإن ترتفع عنا وعنهم محن البلوى أحملهم من الحق على محضه وإن تكن الأخرى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون) أشار إلى معاوية وجماعته وما يرمي إليه من وراء الخلاف والشقاق وشق عصا الطاعة إنهم قوم أرادوا

إطفاء نور الله من مصباحه أرادوا القضاء على الإسلام والدين بالقضاء على سدنة الشريعة وحراسها الذين عن أيديهم تؤخذ أحكام الدين إنهم أرادوا سد هذا النبع المتدفق بالقضاء على مصادره وهم أهل البيت . . . فإن الإسلام بعقائده وشرائعه وأحكامه وأخلاقه وآدابه كلها تؤخذ عن أهل بيت رسول الله فأراد معاوية وجماعته أن يمنعوا هذا الخير ويرفعوا هذا العطاء المتدفق فوقفوا في وجه صاحب الحق وأعلنوا الحرب عليه ليقضوا عليه ويتوقف كل خير . . .

ثم قال الإمام: وجدحوا بيني وبينهم شرباً وبيئاً أي خلطوا الماء الذي أشربه معهم بالوباء المعدي المؤذي وكنى بذلك عن الفتنة التي أوقعوها بينهم وبينه بسبب رفضهم بيعته وتمردهم على حكمه وأنها كالوباء من جهة أنها تسبب القتل والدمار . . .

وأخيراً أشار إلى أنه إن ارتفعت هذه الفتنة وعادوا إلى الطاعة ولزموا الجماعة فإنه سيحملهم على الحق الخالص ويعطي لكل ذي حق حقه بدون ظلم ولا حيف وإن كانت الأخرى بأن قتل الإمام وانتصر الباطل فلا يتأسف عليهم أو يحزن لأنهم انتصروا لأن الله عليم بما يصنعون من الظلم والجور؛ له الأمر وهو الحكم العدل يفصل بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون وسيحاسب معاوية وجماعته ومن مهد له وأوصله إلى هذا المقام . . .

١٦٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

الخالق جل وعلا

ٱلحَمْدُ ٱللهِ خَالِقِ ٱلعِبَادِ، وَسَاطِحِ[١] ٱلمِهَادِ[٢]، وَمُسِيلِ[٣] ٱلوِهَادِ[٤]، وَمُخْصِبِ[٥] النِّجَادِ[٦]. لَيْسَ لأَوَّلِيَّتِهِ ٱبْتِداءٌ، وَلاَ لأَزَلِيَّتِهِ ٱنْقِضَاءٌ. هُوَ ٱلأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَٱلبَاقِي بِلاَ أَجَلٍ[٧]. خَرَّتْ[٧] لَهُ ٱلجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ. حَدَّ ٱلأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةً[٩] لَهُ مِنْ شَبَهِهَا. لاَ تُقَدِّرُهُ ٱلأَوْهَامُ بِٱلحُدُودِ وَٱلحَرَكَاتِ، وَلاَ بِٱلجَوَارِحِ[١٠] وَٱلأَدَوَاتِ[١١]. لاَ يُقَالُ لَهُ: «مَتَى؟» وَلاَ يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ[١٢] «بِحَتَّى». الظَّاهِرُ لاَ يُقَالُ: «مِمَّ؟» وَٱلبَاطِنُ لاَ يُقَالُ: «فِيمَ؟» لاَ شَبَحَ[١٣] فَيُتَقَصَّى[١٤]، وَلاَ مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى. لَمْ يَقْرُبْ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ بِٱلْتِصَاقٍ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِٱفْتِرَاقٍ، وَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ[١٥] لَحْظَةٍ، وَلاَ كُرُورُ[١٦] لَفْظَةٍ، وَلاَ ٱزْدِلاَفُ[١٧] رَبْوَةٍ[١٨]، وَلاَ ٱنْبِسَاطُ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ[١٩]، وَلاَ غَسَقٍ[٢٠] سَاجٍ[٢١]، يَتَفَيَّأُ[٢٢] عَلَيْهِ ٱلقَمَرُ ٱلمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ[٢٣] الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي ٱلأُفُولِ[٢٤] وَٱلكُرُورِ[٢٥]، وَتَقَلُّبِ ٱلأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ. قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ[٢٦] ٱلمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ ٱلأَقْدَارِ[٢٧]، وَنِهَايَاتِ ٱلأَقْطَارِ[٢٨]، وَتَأَثُّلِ[٢٩] ٱلمَسَاكِنِ، وَتَمَكُّنِ ٱلأَمَاكِنِ[٣٠]. فَالحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ.

ابتداع المخلوقين

لَمْ يَخْلُقِ ٱلأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ[٣١]، وَلاَ مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيةٍ[٣٢]، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ[٣٣]، وَصَوَّرَ مَا صَوَّر فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ. لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ ٱمْتِنَاعٌ، وَلاَ لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ ٱنْتِفَاعٌ. عِلْمُهُ بِٱلأَمْوَاتِ ٱلمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِٱلأَحْيَاءِ ٱلبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَمَاوَاتِ العُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي ٱلأَرْضِينَ ٱلسُّفْلَى.

منها: أَيُّهَا ٱلمَخْلُوقُ السَّوِيُّ[٣٤]، وَٱلْمُنْشَأُ ٱلْمَرْعِيُّ[٣٦]، فِي ظُلُمَاتِ ٱلأَرْحَامِ[٣٧]، وَمُضَاعَفَاتِ ٱلأَسْتَارِ. بُدِئْتَ «مِنْ سُلاَلَةٍ[٣٨] مِنْ طِينٍ»، وَوُضِعْتَ «فِي قَرَارٍ مَكِينٍ[٣٩]، إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ»، وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ، تَمُورُ[٤٠] فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لاَ تُحِيرُ[٤١] دُعَاءً، وَلاَ تَسْمَعُ نِدَاءً، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا، فَمَنْ هَدَاكَ لاجْتِرَارِ[٤٣] ٱلْغِذَاءِ[٤٤] مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ! هَيْهَاتَ، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي ٱلْهَيْئَةِ وَٱلأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ ٱلْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!.

اللغة

١ ـ **الساطح** : الباسط.

٢ ـ **المهاد** : في الأصل الفراش ويقصد بها هنا الأرض.

٣ ـ **المسيل** : المجرى.

٤ ـ **الوهاد** : جمع وهدة ما انخفض من الأرض.

٥ ـ **المخصب** : جاعلها ذوات خصب، والخصب كثرة الخير والعشب والثمار وغيرها.

٦ ـ **النجاد** : جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض.

٧ ـ **الأجل** : الوقت.

٨ ـ **خرّ** : على الأرض ساجداً إذا انكب عليها ساجداً.

٩ ـ الإبانة : التمييز والفصل.
١٠ ـ الجوارح : الأعضاء.
١١ ـ الأدوات : جمع أداة وهي ما يعتمد به.
١٢ ـ الأمد : الغاية ومنتهى الشيء المدة والوقت.
١٣ ـ الشبح : الشخص.
١٤ ـ يتقصّى : يطلب أقصاه.
١٥ ـ شخوص : لحظة، امتداد بصر بلا حركة من جفن.
١٦ ـ كرور : لفظة كررها.
١٧ ـ الإزدلاف : الاقتراب.
١٨ ـ الربوة : المكان المرتفع، التل من الرمال وغيره.
١٩ ـ داج : مظلم.
٢٠ ـ الغسق : ظلمة أول الليل.
٢١ ـ الساجي : الساكن.
٢٢ ـ الفيء : الظل.
٢٣ ـ تعقبه : تتعقبه أي تجيء بعده.
٢٤ ـ الأفول : المغيب.
٢٥ ـ الكرور : الرجوع بالشروق.
٢٦ ـ ينحله : ينسبه.
٢٧ ـ الأقدار : جمع قَدْر وهو حال الشيء من الطول والعرض والعمق والصغر والكبر.
٢٨ ـ الأقطار : الجوانب.
٢٩ ـ التأثل : التأصل ومجد مؤثل أي أصيل.
٣٠ ـ تمكّن الأماكن : ثبوتها واستقرارها.
٣١ ـ الأزلي : القديم الذي لا نهاية له.
٣٢ ـ الأبدي : الدائم الذي لا نهاية له.
٣٣ ـ أقام حده : ما به يمتاز عن سائر الموجودات.
٣٤ ـ السوي : المستوي الخلقة الذي لا نقص فيه.
٣٥ ـ المنشأ : المبتدع.
٣٦ ـ المرعي : المحفوظ، المعتنى بأمره.
٣٧ ـ الأرحام : جمع رحم موضع تكون الجنين من المرأة.
٣٨ ـ السلالة : من الشيء ما انسل منه.
٣٩ ـ القرار المكين : محل الجنين من الرحم.

٤٠ ـ تمور : تتحرك.
٤١ ـ لا تحير : من أحار يحير، لا يرجع جواباً.
٤٢ ـ السبل : الطرق.
٤٣ ـ الإجترار : امتصاص اللبن من الثدي.
٤٤ ـ الغذاء : الطعام.

الشرح

(الحمد لله خالق العباد وساطح المهاد ومسيل الوهاد ومخصب النجاد) ابتدأ عليه السلام بحمد الله وأثنى عليه بعدة صفات فهو خالق العباد ـ من الإنس والجن والملائكة ـ وقد ذكر العباد تشريفاً لهم.

وساطح المهاد أي باسط الأرض وممهدها لعباده.

وكذلك هو سبحانه بحكمته أجرى المياه في الوديان والمنخفضات وجعل الخصب من أعشاب وكلأ وخيرات في المرتفعات ليكمل بذلك معاش الإنسان والحيوان . . .

(ليس لأوليته ابتداء ولا لأزليته انقضاء هو الأول ولم يزل والباقي بلا أجل خرت له الجباه ووحدته الشفاه) هذه جملة من الصفات السلبية التي يجل عنها الباري.

الأول: ليس لأوليته ابتداء إذ لو كان له ابتداء لكان له حد والمحدود ممكن والله واجب الوجود أو يكون محدثاً والله ينزه عن ذلك.

الثاني: ولا لأزليته انقضاء: أي لا غاية ينتهي عندها ويزول فلو كان كذلك لم يكن واجب الوجود.

ثم أكد ما تقدم بكونه الأول لم يزل بدون حدود والآخر بدون انتهاء وبلا أجل وهذا تأكيد لا نفي بصيغة الإيجاب.

ولعظمة الله وكونه المستحق وحده للتعظيم وقعت الجباه ساجدة لله خاضعة لجلاله والشفاه نطقت بتوحيده وأنه الله الواحد الأحد الذي لا شريك له.

(حد الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها، لا تقدره الأوهام بالحدود والحركات ولا بالجوارح والأدوات لا يقال له متى؟ ولا يضرب له أمد «بحتى» الظاهر لا يقال «مم» والباطن لا يقال «فيم» لا شبح فيتقصى ولا محجوب فيحوى).

الثالث: حد الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها فهو لا يشبهه شيء ولذا جعل لمخلوقاته حدوداً تتصورها الأوهام بحدودها وحركاتها وتضع الجوارح يدها عليها وتدركها الأدوات البشرية والله منزه عن ذلك.

الرابع: لا يقال له متى؟ أي متى وجد وفي أي زمان ولا يضرب له أمد بحتى فيقال له متى ينتهي وينقضي لأنه فوق الزمان وهو مبدع الزمان وخالقه كان ولم يكن ثمّ زمان ولا مكان.

الخامس: إنه الظاهر وظهوره ليس مما يسأل عنه مما يتركب وما مادته وأصله.

السادس: الباطن لا يقال فيم: فهو من خفائه لا يقال فيم اختفى كما هو السؤال عن سائر الأجسام التي إذا اختفت قيل فيم اختفت.

السابع: لا شبح فيتقصى: أي ليس شخصاً فيطلب أقصاه وحدوده والشبح يحده النظر ولو ببعض الاعتبارات ويسأل عن حالاته وتستقصى أطواره والله منزه عن ذلك.

الثامن: لا محجوب فيحويه الحجاب ويستره لأن ما يحجب هو الجسم والله منزه عن ذلك.

(لم يقرب من الأشياء بالتصاق ولم يبعد عنها بافتراق ولا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة ولا كرور لفظة ولا ازدلاف ربوة ولا انبساط خطوة، في ليل داج ولا غسق ساج يتفيأ عليه القمر المنير وتعقبه الشمس ذات النور في الأفول والكرور وتقلب الأزمنة والدهور من إقبال ليل مقبل وإدبار نهار مدبر).

التاسع: كونه قريب من الأشياء لا بالالتصاق بل قريب منها بالتدبير والعلم بما تفعل والالتصاق من صفة الأجسام والله منزه عنها وكذلك بعيد عنها لكن لا بافتراق بل بعيد بالصفات فضلاً عن الذات.

العاشر: إن علمه أحاط بكل المخلوقات وأشار إلى ذلك بأنه لا يخفى عليه من عباده مد بصرهم وهو مفتوح لا يتحرك ولا إعادة ألفاظهم وكلامهم ولا تقدم إنسان إلى تلة أو صعوده إليه كما أنه سبحانه يعلم سعة الخطوة التي يخطوها الإنسان وعددها وإلى أين. . . إنه سبحانه يعلم كل ذلك سواء كان في ليل مظلم شديد الظلمة أو كان في ليل ساكن هادىء.

وهذا الغسق الساكن يتقلب عليه القمر المنير في ذهابه وعودته وهو يتكامل نحو البدر أو يصغر إلى الهلال فالمحاق.

كما أن الشمس تعاقب القمر فتطلع عند أفوله ويطلع عند أفولها وتتكون من دورتهما وتعاقبهما الأزمنة والدهور فتمضي سنون وتأتي آخرى، يقبل ليل ويدبر نهار ويحسب الحاسبون أياماً وسنوات.

(قبل كل غاية ومدة وكل إحصاء وعدة تعالى عما ينحله المحددون من صفات الأقدار ونهايات الأقطار وتأثل المساكن وتمكّن الأماكن فالحد لخلقه مضروب وإلى غيره منسوب) الحادي عشر:

وهذا تنزيه لله عما لا يليق به فهو قبل كل غاية ومدة والغاية حادثة والمدة محدودة ابتداء وزمان ومكاناً والله هو الخالق لكل ذلك وكان ولم يكن شيء من هذا كما أنه سبحانه كان قبل كل إحصاء وحساب للمخلوقات.

ثم أنه عليه السلام نزه الله عما نسبه إليه الضالون الذين حددوا له صفات الممكنات والأشياء التي يرونها من كونه ذي طول وعرض وبداية ونهاية وعمق وارتفاع وثبوت واستقرار على مستوى الأشياء التي لها هذه المواصفات تعالى الله عن ذلك فهو الخالق لهذه والموجد لها وشتان بين وجوب وجوده واستغنائه عن كل شيء بما فيها هذه الأوصاف وبين الممكنات المفتقرة في وجودها إلى هذه الأوصاف.

فالحد والصفة المذكورة لكل مخلوق من مخلوقات الله دونه جل أن يتصف بشيء منها أو ينسب إليه شيء منها، فالحد لغيره لجسميته والصفة تليق به وتنسب إليه دون الله جل وعز...

(لم يخلق الأشياء من أصول أزلية ولا من أوائل أبدية بل خلق ما خلق فأقام حده وصوّر ما صوّر فأحسن صورته ليس لشيء منه امتناع ولا له بطاعة شيء انتفاع علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين، وعلمه بما في السماوات العلى كعلمه بما في الأرضين السفلى) قد يكون هذا رد على من ادعى أن هذه الموجودات ترجع إلى أمر أبدي أزلي هو المادة الأصلية المعبر عنها بالهيولى فنفى عليه السلام أن تكون هذه الموجودات مستندة إلى هذا الأصل بل إنه سبحانه خلقها ولم تكن وجعل لها حدود معينة من طول وعرض وصورها كما أراد فأحسن صورتها...

ولمقدرته النافذة وأنه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض ليس لشيء من هذه الموجودات امتناع عما أراد بل بقوله كن فكان وإذا أراد منه شيئاً حصل كما أنه الغني المطلق الذي لا تنفعه طاعة من أطاعه وإنما تعود منفعة الطاعة لهذا المطيع كي يتكامل ويرتقي...

ثم أشار إلى عموم علمه وأنه لا يحجبه شيء فهو يعلم من مات من الماضين كما يعلم الأحياء من الباقين ويعلم بما في السموات العلى من ملائكة وأرواح كما يعلم بما في الأرضين السفلى من جن وأشياء فهو العالم بكل شيء لا يعذب عن علمه شيء في السماوات والأرض وهذا عكس البشر الذين يعلمون شيئاً وتغيب عنهم أشياء. . .

(أيها المخلوق السَّوي والمنشأ المرعي في ظلمات الأرحام ومضاعفات الأستار بدئت من سلالة من طين ووضعت في قرار مكين إلى قدر معلوم وأجل مقسوم تمور في بطن أمك جنيناً لا تحير دعاء ولا تسمع نداء) هذا خطاب للإنسان بما فيه من عظيم الصنع ليصل منه إلى عظمة الصانع جل اسمه فهذا الإنسان سوي الخلقة أي تام غير ناقص فهو مستقيم القوام جميل الصورة تام معنوياً ومادياً.

وكان إنشاؤه وتكوينه برعاية إلهية دقيقة حفظته وصانته في ظلمات الأرحام كما قال تعالى: **﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾**(١) وفسرت الظلمات الثلاث بظلمة البطن والرحم والمشيمة وهي مضاعفات الأستار فجعل حاجباً بعد حاجب وستاراً بعد ستار وجعلت النطفة في ضمن ذلك كله.

ثم أشار إلى بدء تكوين الإنسان ـ وهو آدم عليه السلام ـ وأن الله خلقه من طين كما قال تعالى: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين(٢)﴾**.

فبعد أن أستله الله من تراب الأرض فكان آدم ثم بعد ذلك ابتدأ النوع البشري بطريق التناسل فكانت النطفة من الرجل في رحم الأم ـ وهو القرار المكين ـ الثابت إلى وقت معلوم وهو وقت الولادة ثم تعيش إلى أجل مقسوم لك محدد بأوقات معينة يعلمها الله فقد يطول عمرك وقد يقصر وبيّن عليه السلام سر العظمة الإلهية في هذا التكوين فهو في بطن أمه يتحرك ويتموج ومع ذلك لا يسمع نداء ولا يرد جواباً ولا يقدر على حوار من يحاوره. . .

(ثم أخرجت من مقرك إلى دار لم تشهدها ولم تعرف سبل منافعها فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك وعرفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك هيهات إن من

---

(١) سورة الزمر، آية/ ٦.
(٢)سورة المؤمنون، آية/ ١٢.

يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه أعجز ومن تناوله بحدود المخلوقين أبعد) بعد أن انتهى عليه السلام من دنيا الرحم وكيف يتكون الجنين في بطن الأم انتقل إلى مرحلة جديدة من الحياة فأخرجه الله من الرحم إلى الدنيا وهي دار لم يشهدها ولم يعرفها من قبل ولم يعرف الطرق التي يهتدي بها إلى منافعها وما يحفظ حياته فيها.

ثم استفهم متعجباً من قدرة الله العظيمة التي هدت هذا الطفل الخارج من الرحم وهو أعمى لا يرى وأبكم لا ينطق وجاهل لا يعرف هداه الله إلى امتصاص اللبن من ثدي أمه وهو سبحانه عرّفه على الأمور التي يطلبها ويحتاجها ويريدها بما ألهمه وأعطاه من قدرة عقلية تنمو باستمرار.

ثم قال عليه السلام: بَعُدَ أن يحيط علماً بالخالق أو يدرك كنهه من عجز عن معرفة المخلوقين أمثاله الذين تحكمهم الهيئات من طول وعرض ومن لهم أجزاء وأطراف... فمن عجز على الوقوف على أسرار تكوينه شخصياً فهو أعجز عن وصف الله الخالق سبحانه وتعالى وأبعد من ذلك مَنْ شبّه الله بخلقه وأعطاه أوصاف عبيده ومخلوقاته...

١٦٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما اجتمع الناس إليه وشكوا ما نقموه على عثمان وسألوه مخاطبته لهم واستعتابه لهم، فدخل عليه فقال:

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدِ ٱسْتَسْفَرُونِي[١] بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَٱللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لاَ تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلاَ خَلَوْنَا[٢] بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ[٣]. وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَمَا صَحِبْنَا. وَمَا ٱبْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلاَ ٱبْنُ ٱلْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ ٱلْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى أَبِي رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وَشِيجَةَ[٤] رَحِمٍ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ[٥] مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالاَ. فَاللهَ ٱللهَ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ ـ وَٱللهِ ـ مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمًى، وَلاَ تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلاَمَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ. فَٱعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ ٱللهِ عِنْدَ ٱللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ، لَهَا أَعْلاَمٌ، وَإِنَّ ٱلْبِدَعَ[٦] لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلاَمٌ. وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ ٱللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِٱلإِمَامِ ٱلْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلاَ عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ ٱلرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ[٧] فِي قَعْرِهَا[٨]». وَإِنِّي أَنْشُدُكَ[٩] ٱللهَ أَلاَّ تَكُونَ إِمَامَ هٰذِهِ ٱلأُمَّةِ ٱلْمَقْتُولَ، فَإِنَّهُ كَانَ

يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هذِهِ ٱلأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا ٱلْقَتْلَ وَٱلْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ، وَيَلْبِسُ(١٠) أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ(١١) ٱلْفِتَنَ فِيهَا، فَلاَ يُبْصِرُونَ ٱلْحَقَّ مِنَ ٱلْبَاطِلِ، يَمُوجُونَ(١٢) فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ(١٣) فِيهَا مَرْجاً. فَلاَ تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً(١٤) يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلاَلِ السِّنِّ وَتَقَضِّي ٱلْعُمُرِ. فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ: «كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ(١٥)» فَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ: مَا كَانَ بِٱلْمَدِينَةِ فَلاَ أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

اللغة

١ ـ استسفروني : جعلوني سفيراً ووسيطاً.

٢ ـ خلونا : انفردنا.

٣ ـ بلّغه : الأمر أوصله إليه.

٤ ـ الوشيجة : عروق الشجرة والواشجة الرحم المشتبكة.

٥ ـ نلت : أصبت وأدركت.

٦ ـ البدع : جمع بدعة ما أحدث على غير مثال، إدخال ما ليس في الدين على أنه منه.

٧ ـ يرتبط : يشدّ.

٨ ـ القعر : من كل شيء عمقه ونهاية أسفله.

٩ ـ أنشدك : الله استحلفك به وأقسم عليك به.

١٠ ـ يلبس : عليه الأمر يخلطه ويجعله خافياً.

١١ ـ يبث : ينشر.

١٢ ـ يموجون : يضطربون، اختلاف الأمور واضطرابها.

١٣ ـ يمرجون : من المرج وهو الخلط والاضطراب.

١٤ ـ السيقة : الدابة تساق.

١٥ ـ المظالم : جمع الظلامة والمظلمة ما احتملته من الظلم، ما أخذ منك ظلماً.

الشرح

(إن الناس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم ووالله ما أدري ما أقول لك! ما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه إنك لتعلم ما نعلم ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه وقد رأيت كما رأينا وسمعت كما سمعنا وصحبت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ كما صحبنا وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بعمل الحق منك وأنت أقرب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وشيجة رحم منهما وقد نلت من صهره ما لم ينالا) اجتمع الناس كلمة واحدة ووقفوا أمام عثمان يطالبونه برفع الظلم عنهم ولم يجدوا غير الإمام يرفع مطالبهم إلى الخليفة فحملها الإمام ودخل على عثمان وكان منه هذا الكلام الشريف وهو يتضمن الاحتجاج عليه وتحذيره من مغبة الإهمال وعدم التنفيذ ابتدأ عليه السلام بقوله: إن الناس جعلوني سفيراً بينك وبينهم أنقل مرادهم إليك واحتجاجهم عليك وابتدأ بالاستعتاب باللين فأقسم أنه لا يدري بأي لسان يتكلم معه ليكون مؤثراً فيه.

ثم قال له: إن هذه الأحداث التي وقعت في أيامك وارتكبها عمالك لا تجهل شيئاً منها بل وصلتك بأجمعها وعلمت بها كلها ولم يبق في البين ما تجهله لأدلك عليه...

إنك لتعلم ما نعلم من هذه الأحداث وقد جرت بمرأى منك ومسمع دون إنكار أو رد ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ونطلعك عليه ولا انفردنا بشيء علمناه دونك حتى نبلغك إياه ونعرفك مضمونه... وقد رأيت كما رأينا وسمعت كما سمعنا... وقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله كما صحبنا فإذا كانت الصحبة واحدة فيقتضي أن تكون مثلنا في الرأي والسلوك والعمل... ثم خرج إلى الشيخين ليذكّره أنهما ليسا أولى منه بالسير وفق الحق والعدل وأن من الحق أن يكون مثلهما إن لم يكن أفضل وقد ذكر لذلك قرابته من رسول الله النسبية وقرابته السببية وهما كافيان ليكون أعمل منهما بالحق...

أما قربه من رسول الله فإن الرسول هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

وأما عثمان فهو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

وأما قرابته السببية من رسول الله فهو صهره على ابنتيه رقية وأم كلثوم.

فعثمان أقرب إلى النبي نسباً وسبباً من أبي بكر وعمر وهذه القرابة داعية ليكون أعمل بالحق منهما...

(فالله الله في نفسك فإنك ـ والله ـ ما تبصّر من عمى ولا تعلّم من جهل وأن الطرق لواضحة وأن أعلام الدين لقائمة فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدي وهدى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة مجهولة وإن السنن لنيرة لها أعلام وأن البدع لظاهرة لها أعلام) حذره الله بأن يلتفت إلى نفسه ويحفظها ثم أقسم بالله على أنه لا يحتاج إلى من يُبيّن له الحقيقة وينير له الدرب إذا لا يجري في حقه ذلك والحال أن البينات ظاهرة والدلائل واضحة لامعة والأسس الشرعية والحقائق الدينية قائمة ظاهرة تراها العيون وتدركها العقول. . .

ثم نبّهه على فضل الإمام العادل وأنه أفضل عباد الله عند الله إمام عادل في الرعية يقسم بالسوية يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ففي نفسه مهدي صالح وفي الوقت نفسه يكون مدرسة لغيره يهديهم ويرشدهم إلى الله وهذا الإمام يقيم سنة معلومة واضحة ثابتة عن رسول الله ويميت بدعة مجهولة لم تكن زمن رسول الله بل ابتدعتها الأهواء واختلقتها المطامع والشهوات. . .

ثم أشار إلى حقيقة إسلامية وهي أن الطرق الشرعية لها أدلة واضحة ظاهرة لا غبار عليها كما أن البدع والأمور المستحدثة التي لا أصل لها في دين الله أيضاً ظاهرة لها دلالات واضحة وأدلة تدل على ابتداعها وأنها مستحدثة لم يأذن الله بها. . .

وبعبارة أخرى الحق واضح والباطل واضح ولكل واحد منهما أدلته وبيناته غير الخافية. . .

(وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به فأمات سنة مأخوذة وأحيا بدعة متروكة وأني سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في نار جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى ثم يرتبط في قعرها) بعد أن ذكر فضيلة الإمام العادل عند الله قابله بأشرية الإمام الجائر عند الله وأن أشر الناس إمام جائر ظالم ضل عن الطريق واتبع غير سبيل المؤمنين وأضل غيره بفعله وسلوكه وتصرفه فأمات سنة نبوية إلهية أخذ بها الناس واتبعوها فجاء ليعطلها ويلغي وجودها بينما عمد إلى بدعة متروكة مهملة فأحياها وعمل بها وأمر الناس أن يعملوا بها. . .

ثم أراد تخويفه لعله يرجع أو يتوب فذكر له ما سمعه من رسول الله في حق الإمام الظالم وكيف يؤتى به يوم القيامة وليس له من ينصره أو يدفع عنه نار جهنم وعذابها ولا عاذر يعذره في ظلمه أو يبرر له ما فعل وعندها يلقى في نار جهنم فيدور فيها كما تدور

الرحى فتطاله بنارها كلها حتى يذوق جزاء عمله ثم يشد في قعرها ولا يخرج منها أجارنا الله من عذابها. . . وبدون شك هناك أئمة عدل وهناك أئمة ضلالة قال تعالى: **﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا﴾** وقال تعالى: **﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار. . .﴾**.

(وإني أنشدك الله ألّا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ويلبس أمورها عليها ويبث الفتن فيها فلا يبصرون الحق من الباطل يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً) ناشده الله وأقسم عليه به أن لا يكون إمام الأمة المقتول وكأن الإمام قد أدرك بحسب الظروف والقرائن وما يتحرك به الناس وما يصدر منهم من أقوال أدرك أن عثمان سيقتل إن بقي على موقفه يمارس الظلم على الأمة ويعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ولذا حذره وناشده أن لا يكون الإمام المقتول ونقل إليه ما كان يقال من أنه سيقتل في هذه الأمة إمام وسيكون قتله مفتاحاً للقتل يكثر بعده كما يفتح القتال بين المسلمين إلى يوم القيامة. . .

ثم أشار إلى أن هذا الإمام يدلس على بعض الضعفاء فيظنون أنه مظلوم بينما هو ظالم وتنتشر الفتن حيث يأخذونه راية يقاتلون الحق من أجله وفي سبيله ولجهلهم تعمى عليهم الأمور ولا يميزون بين الحق والباطل ثم إنهم يتحركون في الفتنة فيفسدون ويضلون ويقتلون وينشرون الرعب والخوف.

(فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضي العمر فقال له عثمان رضي الله عنه: كلم الناس في أن يؤجلوني حتى أخرج إليهم من مظالمهم فقال عليه السلام: ما كان بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك إليه) ولما كان مروان بن الحكم هو وزير عثمان ومستشاره بل كان الخليفة هو مروان ولكن في ثوب عثمان نهاه الإمام أن يكون سيقة أي كالدابة التي تساق كما يريد صاحبها يوجهها في أي اتجاه أراد ومروان كان يأخذ بيد عثمان كما أراد ويغريه بالمعارضة الإسلامية ويشتد عليهم بكلامه ولسانه وسلوكه فالإمام ينهاه أن يكون سيقة بيد مروان يوجهه كيف شاء وخصوصاً بعد التقدم في السن ومضي هذا العمر الطويل وعندما سمع عثمان كلام الإمام وأدرك صدق النصيحة طلب من الإمام أن يتكلم مع المعارضة في تأجيله مدة يستطيع فيها أن يخرج من مظالمه وانحرافاته ويرد لكل ذي حق حقه ويرفع الظلم عن المظلومين فأجابه الإمام بهذا الجواب الفيصل الفصيح الصريح وهو أن من كان بالمدينة فلا تأخير ولا تأجيل بل يمضي عثمان ما أراد وينفذ مباشرة طلبهم.

وأما البعيد عن المدينة فأجله وصول الأمر إليه وعندها ينفذ ما طلب ولا يعود له ما يبرّر التأجيل. . .

١٦٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يذكر فيها عجيب خلقه الطاووس

خلقة الطيور

ٱبْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ(١)، وَسَاكِنٍ وذِي حَرَكَاتٍ، وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ ٱلْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ(٢) صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا ٱنْقَادَتْ(٣) لَهُ ٱلْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ(٤) فِي أَسْمَاعِنَا دَلاَئِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَمَا ذَرَأَ(٥) مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ ٱلأَطْيَارِ ٱلَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ(٦) الأَرْضِ، وَخُرُوقَ(٧) فِجَاجِهَا(٨) وَرَوَاسِي(٩) أَعْلاَمِهَا(١٠)، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرَفْرِفَةٍ(١١) بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ(١٢) ٱلْجَوِّ ٱلْمُنْفَسِحِ، وَٱلْفَضَاءِ ٱلْمُنْفَرِجِ. كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ(١٣) مَفَاصِيلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ(١٤) خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ(١٥) فِي ٱلْهَوَاءِ خُفُوفاً(١٦)، وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً(١٧). وَنَسَقَهَا(١٨) عَلَى ٱخْتِلافِهَا فِي الأَصَابِيغِ(١٩) بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ(٢٠) فِي قَالَبِ(٢١) لَوْنٍ لاَ يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ، وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ(٢٢) بِخِلاَفِ مَا صُبِغَ بِهِ..

الطاووس

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ(٢٣) الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ(٢٤) تَعْدِيلٍ(٢٥)، وَنَضَّدَ(٢٦) أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ(٢٧) قَصَبَهُ(٢٨)، وَذَنَبٍ أَطَالَ

مَسْحَبِهُ(٢٩). إِذَا دَرَجَ(٣٠) إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ(٣١)، وَسَمَا بِهِ(٣٢) مُطِلاًّ(٣٣) عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قِلْعُ(٣٤) دَارِيٍّ(٣٥) عَنَجَهُ(٣٦) نُوتِيُّهُ(٣٧). يَخْتَالُ(٣٨) بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ(٣٩) بِزَيَفَانِهِ(٤٠). يُفْضِي(٤١) كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ(٤٢)، وَيَؤُرُّ(٤٣) بِمَلاَقِحِهِ(٤٤) أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ(٤٥) لِلضِّرَابِ(٤٦). أُحِيلُكَ(٤٧) مِنْ ذلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ(٤٨)، لاَ كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ(٤٩). وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا(٥٠) مَدَامِعُهُ(٥١)، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ(٥٢) جُفُونِهِ، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ(٥٣) ذلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لاَ مِنْ لِقَاحِ(٥٤) فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ(٥٥)، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ! تَخَالُ قَصَبَهُ(٥٦) مَدَارِيَ(٥٧) مِنْ فِضَّةٍ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ(٥٨) وَشُمُوسِهِ خَالِصَ(٥٩) الْعِقْيَانِ(٦٠) وَفِلَذَ(٦١) الزَّبَرْجَدِ(٦٢). فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الأَرْضُ قُلْتَ: جَنًى(٦٣) جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ. وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ(٦٤) بِالْمَلاَبِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ(٦٥) الْحُلَلِ(٦٦) أَوْ كَمُونِقِ(٦٧) عَصْبِ(٦٨) الْيَمَنِ(٦٩). وَإِنْ شَاكَلْتَهُ(٧٠) بِالْحُلِيِّ(٧١) فَهُوَ كَفُصُوصٍ(٧٢) ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ(٧٣) بِاللُّجَيْنِ(٧٤) الْمُكَلَّلِ(٧٥). يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ(٧٦) الْمُخْتَالِ(٧٧)، وَيَتَصَفَّحُ(٧٨) ذَنَبَهُ وَجَنَاحَيْهِ، فَيُقَهْقِهُ(٧٩) ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ(٨٠)، وَأَصَابِيغِ(٨١) وِشَاحِهِ(٨٢)، فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا(٨٣) مُعْوِلاً(٨٤) بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ(٨٥) عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ(٨٦)، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ(٨٧)، لأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ(٨٨) كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلاَسِيَّةِ(٨٩). وَقَدْ تَجَمَتْ(٩٠) مِنْ ظُنْبُوبِ(٩١) سَاقِهِ صِيصِيَةٌ(٩٢) خَفِيَّةٌ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ(٩٣) خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ(٦٢). وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالإِبْرِيقِ، وَمَغْرِزُهَا(٩٥) إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ(٩٦) الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ(٩٧)، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ(٩٨) بِمِعْجَرٍ(٩٩)

أَسْحَمَ(١٠٠)، إلاَّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ(١٠١) لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ(١٠٢)، أَنَّ ٱلْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ وَمَعَ فَتْقِ(١٠٣) سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ(١٠٤) ٱلْقَلَمِ فِي لَوْنِ الأُقْحُوَانِ(١٠٥)، أَبْيَضُ يَقَقٌ(١٠٦)، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ(١٠٧). وَقَلَّ صِبْغٌ إلاَّ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ(١٠٨)، وَعَلاَهُ(١٠٩) بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ، وَبَصِيصِ(١١٠) دِيبَاجِهِ(١١١) وَرَوْنَقِهِ(١١٢)، فَهُوَ كَالأَزَاهِيرِ(١١٣) ٱلْمَبْثُوثَةِ(١١٤)، لَمْ تُرَبِّهَا(١١٥) أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلاَ شُمُوسُ قَيْظٍ(١١٦). وَقَدْ يَنْحَسِرُ(١١٧) مِنْ رِيشِهِ، وَيَعْرَى(١١٨) مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى(١١٩)، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً(١١٠) فَيَنْحَتُّ(١٢١) مِنْ قَصَبِهِ ٱنْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلاَحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لاَ يُخَالِفُ سَالِفَ(١٢٢) أَلْوَانِهِ، وَلاَ يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ! وَإِذَا تَصَفَّحْتَ(١٢٣) شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً(١٢٤)، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً(١٢٥) فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هٰذَا عَمَائِقُ(١٢٦) ٱلْفِطَنِ(١٢٧)، أَوْ تَبْلُغُهُ(١٢٨) قَرَائِحُ(١٢٩) ٱلْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ(١٣٠) وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ!.

وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، والأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ! فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ(١٣١) ٱلْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ(١٣٢) لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً، وأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ(١٣٣) بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ(١٣٤) نَعْتِهِ!.

صفات المخلوقات

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ(١٣٥) قَوَائِمَ الذَّرَّةِ(١٣٦) وَٱلْهَمَجَةِ(١٣٧) إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ ٱلْحِيتَانِ(١٣٧) وَٱلْفِيلَةِ(١٣٩)! وَوَأَى(١٤٠) عَلَى نَفْسِهِ أَلاَّ يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ(١٤١) فِيهِ الرُّوحَ، إلاَّ وَجَعَلَ الْحِمَامَ(١٤٢) مَوْعِدَهُ، وَٱلْفَنَاءَ غَايَتَهُ.

منها في صفة الجنة

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ[١٤٣] نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ[١٤٤] مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا، وزَخَارِفِ[١٤٥] مَنَاظِرِهَا، وَلَذَهِلَتْ[١٤٦] بِالْفِكْرِ فِي ٱصْطِفَاقِ[١٤٧] أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ[١٤٨] الْمِسْكِ[١٤٩] عَلَى سَوَاحِلِ أنْهَارِهَا، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ[١٥٠] اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا[١٥١] وَأَفْنَانِهَا[١٥٢]، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ[١٥٣] أَكْمَامِهَا[١٥٤]، تُجْنَى[١٥٥] مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ[١٥٦] فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ[١٥٧] مُجْتَنِيهَا، ويُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ[١٥٨] قُصُورِهَا بِالأَعْسَالِ[١٥٩] ٱلْمُصَفَّقَةِ[١٦٠]، وَٱلْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ[١٦١]. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ ٱلْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ[١٦٢] حَتَّى حَلُّوا دَارَ ٱلْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ الأَسْفَارِ. فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا ٱلْمُسْتَمِعُ بِٱلْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَنَاظِرِ ٱلْمُونِقَةِ[١٦٣]، لَزَهِقَتْ[١٦٤] نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ ٱسْتِعْجَالاً بِهَا. جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ.

تفسير بعض ما في هذه الخطبة من الغريب.

قال السيد الشريف رضي الله عنه: قَوْلُهُ عَلَيْهِ السّلاَمُ: «يَؤُرُّ بِمَلاقِحِهِ»، ٱلأَرُّ: كِنَايَةٌ عَنِ النِّكَاحِ، يُقَالُ: أَرَّ الرَّجُلُ المَرْأَةَ يَؤُرُّهَا، إِذَا نَكَحَهَا. وقَوْلُهُ عَلَيْهِ السّلاَمُ: «كَأَنَّهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ» ٱلْقَلْعُ: شِرَاعُ السَّفِينَةِ وَدَارِيّ: مَنْسُوبٌ إِلى دَارِينَ، وَهِيَ بَلْدَةٌ عَلى ٱلْبَحْرِ يُجْلَبُ مِنْهَا الطِّيبُ. وَعَنَجَهُ: أَيْ عَطَفَهُ. يُقَالُ: عَنَجْتُ النَّاقَةَ ـ كَنَصَرْتُ ـ أَعْنُجُهَا» عَنجاً إِذَا عَطَفْتُهَا. وَالنُّوتِيُّ: ٱلْمَلاَّحُ. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السّلاَمُ: «ضَفَّتَي جُفُونِهِ أَرَادَ جَانِبَيْ جُفُونِهِ. وَالضَّفَّتَانِ: الجَانِبَانِ. وقَوْلُهُ عَلَيْهِ السّلاَمُ: «وَفِلَذَ الزَّبَرْجَد» الْفِلَذُ: جَمْعُ فِلْذَة، وهي ٱلْقِطْعَةُ. وقَوْلُهُ عَلَيْهِ السّلاَمُ: «كَبَائِسَ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ» ٱلْكِبَاسَة: ٱلْعِذْقُ. وَٱلْعَسَالِيجُ: ٱلْغُصُونُ، وَاحِدُهَا عُسْلُوجٌ.

اللغة

١ ـ الموات	:	ما لا حياة فيه وأرض موات أي قفر.
٢ ـ لطيف	:	صنعته دقتها.
٣ ـ انقاد	:	أطاع وأذعن.
٤ ـ نعق	:	صاح.
٥ ـ ذرأ	:	خلق.
٦ ـ الاخاديد	:	جمع اخدود الشق الطويل في الأرض.
٧ ـ الخروق	:	جمع خرق الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح.
٨ ـ الفجاج	:	جمع فج وهو الطريق بين جبلين.
٩ ـ الرواسي	:	الثوابت.
١٠ ـ الاعلام	:	الجبال.
١١ ـ مرفوفة	:	من رفرف الطائر إذا بسط جناحيه عند السقوط على الشيء.
١٢ ـ المخارق	:	جمع مخرق الفلاة.
١٣ ـ الحقاق	:	ككتاب جمع حق بالضم مجتمع المفصلين.
١٤ ـ العبالة	:	امتلاء الجسد.
١٥ ـ يسمو	:	يرتفع.
١٦ ـ الخفوق	:	سرعة الحركة.
١٧ ـ الدفيف	:	للطائر طيرانه فويق الأرض.
١٨ ـ نسّقها	:	رتّبها ونظمها.
١٩ ـ الاصابيغ	:	جمع أصباغ جمع صبغ بالكسر وهو اللون أو ما يصبغ به.
٢٠ ـ غمس	:	في الشيء دخل فيه وغمس الشيء في الماء غطّه.
٢١ ـ القالب	:	مثال تفرغ فيه الجواهر لتأتي على قدره.
٢٢ ـ طوّقه	:	وضع الطوق في عنقه.
٢٣ ـ الطاووس	:	فاعول كالكابوس طائر معروف بجماله.
٢٤ ـ أحكم	:	أتقن.
٢٥ ـ التعديل	:	جعله مستقيماً موزوناً.
٢٦ ـ التنضيد	:	التنظيم والتنسيق.
٢٧ ـ أشرج	:	جمع ولأم.
٢٨ ـ القصب	:	عروق الجناح.
٢٩ ـ سحبه	:	جرّه.

٣٠ ـ درج إليه : مشى إليه.
٣١ ـ الطي : ضد النشر.
٣٢ ـ سما به : ارتفع به أي رفعه.
٣٣ ـ مطلاً : مشرفاً.
٣٤ ـ القلع : بكسر القاف شراع السفينة.
٣٥ ـ الداري : المنسوب إلى دارين وهي جزيرة من سواحل البحرين والداري جالب العطر من دارين.
٣٦ ـ عنجه : عطفه وجذبه إليه.
٣٧ ـ نوتيه : من النوتي وهو الملاّح.
٣٨ ـ يختال : من الخيلاء وهي العجب.
٣٩ ـ يميس : يتبختر.
٤٠ ـ الزيفان : التبختر.
٤١ ـ يفضي : يسفد.
٤٢ ـ الديكة : جمع ديك وهو ذكر الدجاج.
٤٣ ـ يؤر : يسفد، يجامع.
٤٤ ـ الملاقح : آلات التناسل والقح الفحل الناقة أي أحبلها.
٤٥ ـ الاغتلام : شدة الشبق والشهوة.
٤٦ ـ الضراب : لقاح الفحل لأنثاه، الجماع.
٤٧ ـ أحاله : إلى غيره صرفه إليه.
٤٨ ـ المعاينة : الرؤية بالعين.
٤٩ ـ الإسناد : ما يعتمد عليه وفي الحديث سلسلة الرواة.
٥٠ ـ تسفحها : ترسلها وتصبها.
٥١ ـ المدامع : موضع الدمع ومجراه.
٥٢ ـ ضفتي : جفونه جانبي جفونه.
٥٣ ـ تطعم : تذوقه وترتشفه.
٥٤ ـ لقاح : الفحل ماء التناسل يلقح به الأنثى.
٥٥ ـ المنبجس : المنفجر، النابع.
٥٦ ـ قصبه : عظام أجنحته وقيل عمود الريش.
٥٧ ـ المداري : جمع مدرى بكسر الميم وهي خشبة ذات أطراف كأصابع الكف محددة الرؤوس ينقى بها الطعام.
٥٨ ـ الدارات : هالات القمر، استدارتها وهي الدوائر المستديرة حول ريشه.
٥٩ ـ الخالص : الصافي، النقي.

٦٠ ـ العقيان : الذهب الخالص.
٦١ ـ الفلذ : جمع فلذة وهي القطعة.
٦٢ ـ الزبرجد : حجر كريم.
٦٣ ـ الجنى : المجتنى، الملتقط، المجموع والمقطوف.
٦٤ ـ ضاهيته : شبهته والمضاهاة المشابهة والمشاكلة.
٦٥ ـ الموشى : المنقشّ والملون.
٦٦ ـ الحلل : كصرد جمع حلة بالضم وهي إزار ورداء من برد وغيره فلا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة.
٦٧ ـ المونق : من الإناقة وهي الحسن.
٦٨ ـ العصب : برود يمانية منقوشة.
٦٩ ـ اليمن : هي بلاد ما بين الحجاز وعدن والبحر الأحمر.
٧٠ ـ شاكلته : من الشكل وهو الشبه، المثل، النظير.
٧١ ـ الحلي : جمع حلى ما تتزيّن به المرأة من الذهب والفضة.
٧٢ ـ الفصوص : جمع فص الحجر الكريم وفص الخاتم حصه.
٧٣ ـ نطّقت : من النطاق وهو حزام يشد على الوسط.
٧٤ ـ اللجين : الفضة.
٧٥ ـ المكلل : المزين بالجواهر وكلل فلاناً ألبسه الإكليل وهو التاج شبه عصابة زينت بالجواهر.
٧٦ ـ المرح : ككتف المعجب.
٧٧ ـ المختال : المعجب.
٧٨ ـ يتصفح : يستعرض وينظر.
٧٩ ـ القهقهة : اشتداد الضحك.
٨٠ ـ السربال : اللباس مطلقاً.
٨١ ـ الأصابيغ : الألوان.
٨٢ ـ الوشاح : ضرب من اللباس يوضع على العاتق.
٨٣ ـ زقا : صاح.
٨٤ ـ معولاً : من أعول إذا رفع صوته بالبكاء.
٨٥ ـ يُبين : يظهر ويتضح.
٨٦ ـ الإستغاثة : الاستعانة والغوث هو المعونة.
٨٧ ـ التوجع : المرض والتألم.
٨٨ ـ حمش : جمع أحمش أي دقيق.
٨٩ ـ الديك الخلاسي : بكسر الخاء هو المتولد من الدجاج الهندي والفارسي.

٩٠ ـ نجمت	:	ظهرت.
٩١ ـ الظنبوب	:	حرف الساق.
٩٢ ـ صيصيه	:	شوكة في مؤخر رجل الديك.
٩٣ ـ القنزعة	:	خصلة من الشعر تترك في وسط الرأس.
٩٤ ـ موشاة	:	منقوشة.
٩٥ ـ مغرزها	:	مكان غرزها ونباتها.
٩٦ ـ الوسمة	:	نبت يسمى العظلم يصبغ فيه.
٩٧ ـ الصقال	:	الجلاء وصقل السيف إذا شحذه وصقله.
٩٨ ـ المعجر	:	ضرب من الثياب.
١٠٠ ـ الأسحم	:	الأسود.
١٠١ ـ يخيّل	:	إليه يتوهم أنه كذا وتخيل له أنه كذا تشبه وتوّهم.
١٠٢ ـ البريق	:	اللمعان.
١٠٣ ـ الفتق	:	الشق وفتق سمعه شق أذنه.
١٠٤ ـ المستدق	:	من الدقة وهي نحافة الشيء ورقته.
١٠٥ ـ الأقحوان	:	البابونج الأبيض وجمعه أُقاح.
١٠٦ ـ أبيض يقق	:	شديد البياض.
١٠٧ ـ يأتلق	:	يلمع.
١٠٨ ـ القسط	:	النصيب.
١٠٩ ـ علاه	:	زاد عليه وفاقه.
١١٠ ـ البصيص	:	البريق وبص الشيء إذا لمع.
١١١ ـ الديباج	:	الثوب الذي سداه ولحمته حرير (فارسي).
١١٢ ـ الرونق	:	الحسن.
١١٣ ـ الأزاهير	:	جمع أزهار جمع زهر الورد.
١١٤ ـ المبثوثة	:	المنثورة.
١١٥ ـ تربيها	:	تربها وتجمعها.
١١٦ ـ القيظ	:	الحر.
١١٧ ـ ينحسر	:	ينكشف.
١١٨ ـ يعرى	:	من عري من ثيابه إذا نزعها وخلعها.
١١٩ ـ تترى	:	شيئاً بعد شيء بينهما فترة.
١٢٠ ـ تباعاً	:	متتابعة، متوالية.
١٢١ ـ ينحتّ	:	يتساقط وانحتات الورق تناثرها.
١٢٢ ـ السالف	:	المتقدم السابق.

١٢٣ ـ تصفحت : الشيء تأملته ونظرت فيه ملياً.
١٢٤ ـ الزبرجد : حجر كريم أخضر.
١٢٥ ـ العسجد : الذهب.
١٢٦ ـ عمائق : جمع عميقة، وعمق البحر قعره وأسفله.
١٢٧ ـ الفطن : جمع فطنة بالكسر الحذق والعلم بوجوه الأمور.
١٢٨ ـ تبلغه : تدركه وتصل إليه.
١٢٩ ـ القرائح : جمع قريحة الخاطر والذهن.
١٣٠ ـ تستنظم : من نظم اللؤلؤ إذا ألفه وجمعه في سلك واحد.
١٣١ ـ بهر : العقول قهرها وردها، غلب عليها.
١٣٢ ـ جلّاه : أظهره وكشفه.
١٣٣ ـ قعد : تأخر، وحبس.
١٣٤ ـ التأدية : الإيصال يقال: أدى إليه الأمر أوصله إليه وبلّغه إياه.
١٣٥ ـ أدمجه : أحكمه.
١٣٦ ـ الذرة : النملة الصغيرة.
١٣٧ ـ الهمجة : واحدة الهمج ذباب صغير كالبعوض.
١٣٨ ـ الحيتان : مفرده حوت السمك ولكن غلّب على الكبير منه.
١٣٩ ـ الفيلة : جمع فيل الحيوان المعروف بضخامة الجثة.
١٤٠ ـ وأى : وعد.
١٤١ ـ أولج : فيه الروح أدخلها فيه.
١٤٢ ـ الحمام : الموت.
١٤٣ ـ عزفت : نفسك كرهت وزهدت.
١٤٤ ـ البدائع : الأمور التي لا مثيل لها.
١٤٥ ـ الزخارف : جمع زخرف وهو الذهب وكل مموّه.
١٤٦ ـ ذهلت : نسيت وغبت عن رشدك.
١٤٧ ـ اصطفاق : الأشجار اضطرابها وضرب بعضها ببعض من الصفق وهو الضرب يسمع له صوت.
١٤٨ ـ الكثبان : جمع كثيب وهو التل.
١٤٩ ـ المسك : طيب يقال: إنه من دم الغزال.
١٥٠ ـ كبائس : جمع كباسة وهو العذق التام بشماريخه ورطبه.
١٥١ ـ العساليج : جمع عسلوج الغصون.
١٥٢ ـ الأفنان : جمع فنن بالتحريك وهو الغصن.
١٥٣ ـ غلف : بضمتين جمع غلاف.

١٥٤ ـ الأكمام	:	جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الطلع وغطاء النّوار.
١٥٥ ـ تُجنى	:	تقطف.
١٥٦ ـ التكلف	:	تجشم الشيء وتحمله على مشقة.
١٥٧ـ المُنية	:	البُغية.
١٥٨ ـ الأفنية	:	جمع فناء ما اتسع أمام البيوت.
١٥٩ ـ الأعسال	:	جمع العسل لعاب النحل.
١٦٠ ـ المصفقة	:	المصفاة.
١٦١ ـ المروقة	:	المصفاة.
١٦٢ ـ تمادى في الأمر	:	بلغ فيه المدى أي الغاية وتمادى بنا السفر إذا طال.
١٦٣ ـ المونقة	:	المعجبة.
١٦٤ ـ زهقت	:	نفسك، مت.

الشرح

(ابتدعهم خلقاً عجيباً من حيوان وموات وساكن وذي حركات وأقام من شواهد البينات على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفة به ومسلمة له ونعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته) في هذه الخطبة يتعرض الإمام إلى وصف الطيور بشكل عام وإلى الطاووس بشكل خاص والغرض من ذلك بيان قدرة الله وعظمته وتدليلاً على ربوبيته ومدى علمه وحكمته وبديع صنعه، ثم يختم خطبته بوصف الجنة وما فيها ترغيباً لنا وتشويقاً...

خلق الخلق ابتداء على غير مثال أو من غيرشيء خلقاً عجيباً بديعاً وجعلهم أصنافاً شتى من حيوان متحرك كالإنسان وموات كالجماد وساكن كالأرض والجبال وذي حركات كالكواكب السيارة في السماء وما في الأرض من متحركات وهذا الاختلاف والتنوع دليل الحكمة والقدرة للصانع الحكيم، وجعل سبحانه من دقيق ما صنع ودقة ما خلق وعظيم قدرته التي أوجدت هذه المخلوقات بهذه المواصفات وبهذا التناهي من الدقة جعل سبحانه كل ذلك شواهد واضحة ظاهرة جعلت العقول تذعن معترفة به موقنة بوجوده مستسلمة له ووصلت إلى آذاننا ودخلت أسماعنا ما دل على وحدانيته وتفرده سبحانه وتعالى «وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد».

وبعبارة موجزة: من دقة الصنع وبديع الخلق يعترف الإنسان بالله وأنه الواحد الأحد فهذه المخلوقات شواهد ناطقة بلسان الحال على وحدانية الله...

(وما ذرأ من مختلف صور الأطيار التي أسكنها أخاديد الأرض وخروق فجاجها ورواسي أعلامها من ذات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة مصرّفة في زمام التسخير ومرفرفة بأجنحتها في مخارق الجو المنفسح والفضاء المنفرج) وهذا من شواهد البينات على وحدانيته أنه سبحانه خلق الطيور بصور مختلفة متباينة فهذا أبيض كالحمام وهذا أسود كالغراب وهذا كبير كالنعامة وهذا صغير كالعصفور وهكذا دواليك وقد أسكن بعضها شقوق الأرض كالقطا وفي الوديان وبعضها في رؤوس الجبال العالية كالنسور والعقبان ثم إنه سبحانه جعلها ذات أجنحة مختلفة بعضها بلون واحد وبعضها بعدة ألوان وبعضها كبير والآخر صغير وجعل لكلٍ طبعه بحيث جعل منها الأليف وجعل منها الوحشي النافر. . .

ثم إنه عليه السلام جعلها تحت سلطة الله وردها إلى سلطانه وحكمه فهو الذي سخرها تكويناً لوجهتها التي أرادها لها وجعلها من صنف الطيور التي تملك جوانح تستطيع بها أن تخرق الهواء دون أن تتأذى به وسبحان الله الذي جعل هذا الطير على صغره يخترق الهواء وبسرعة كبيرة دون أن يصاب ولو فعل الإنسان مثل فعله لمات فهذا دليل العظمة الإلهية والحكمة الربانية وأنه سبحانه الذي جعل لكل كائن دوره ووظيفته في الحياة وجعل تكوينه يتلاءم مع بيئته ومحيطه. . .

(كوّنها بعد إذ لم تكن في عجائب صور ظاهرة وركبها في حقاق مفاصل محتجبة ومنع بعضها بعبالة خلقه أن يسمو في الهواء خفوفاً وجعله يدف دفيفاً) لقد ابتدعها ابتداء ولم تكن بل بقوله: «كن فكانت» في صور عجيبة غريبة ظاهرة للعيان وركّبها بشكل مرن قابل للثني والطي في مفاصل تلوى وتطوى وحجبها باللحم. . .

ثم إنه سبحانه منع بعضها لثقل جثته أن يطير في الهواء كما في النعامة بل جعلها تضرب جوانبها بجوانحها وتتحرك بسرعة دون أن تطير. . .

(ونسقها على اختلافها في الأصابيغ بلطيف قدرته ودقيق صنعته فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غمس فيه، ومنها مغموس في لون صبغ قد طوق بخلاف ما صبغ به) وهذا دليل على حكمته فإنه نسّقها ورتبها بحسب الألوان واختلافها بدقة القدرة الإلهية ودقيق الخلق فإنك عندما تقف عند بعض الطيور يشدك ذلك إلى الاعتراف بحكمة الله وقدرته فمنها صاحب اللون الواحد الذي ينفرد به ولا يختلط معه لون آخر كالغراب فكأنه صُبَّ في قالب، وأخرج منه في صورة واحدة ولون واحد، ومنها ما كان مطوقاً بلون يغاير اللون الآخر الذي يلونه وانظر إلى الحجل فإنه أقرب ما يكون إلى هذا الوصف أو إلى الحمامة البيضاء المطوقة فإنك لا تملك إلا أن تعترف بعظمة الخالق وحكمته. . .

(ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل ونضّد ألوانه في أحسن تنضيد بجناح أشرج قصبه وذنب أطال مسحبه إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه وسما به مطلاً على رأسه كأنه قلع داري عنجه نوتيه يختال بألوانه ويميس بزيفانه) دخل عليه السلام في وصف الطاووس وقد رسمه بأروع ريشة بيانية تحكي حقيقته، إنها صورة زيتية لأبدع ما يمكن أن ينقله البيان ويحكيه، فسبحان من أعطى هذا الرجل الريادة والرياسة في كل فن طرقه وفي كل مجال سلكه... ومن أعجب هذه الطيور خلقةً وتكويناً الطاووس الذي خلقه في أحسن ما تكون خِلْقته من حيث الكمال وعدم النقص فيه ونظّم ألوانه ورتبها أحسن ترتيب فجناحه أشرج قصبه أي ركب عروق جناحه وأصولها بعضها في بعض وجعلها متداخلة بحيث يستطيع أن يتصرف فيها كيف يشاء.

ثم وصف ذنبه وأنه طويل يسحبه وراءه وإذا أراد أنثاه للسفاد والجماع تزيّن لها بأحسن ما عنده ولم يدخر عنها الظهور بأحسن مظاهره وأن أحسن ما عنده هو هذا الذنب الطويل فإنه ينشره بعد أن يكون مطوياً ثم يرفعه حتى يعتلي رأسه ويطلّ عليه.

وشبه هذا الذنب بشراع السفينة الذي يكون بيد الملّاح يديره كيف شاء، ويوجهه كيف شاء، وبأي اتجاه شاء، وهذا هو المراد بقوله: «كأنه قلع داري عنجه نوتيه» فهو يحركه في كل اتجاه وعندما يرى ذلك يتعجب بنفسه ويتبختر في مشيه ومن رأى الطاووس في مثل هذه الحالة أدرك حقيقة هذا التشبيه وصحته فإن هذه الكلمات تحكي تلك الصورة بدقة وصدق، فإنه ينشر ذنبه ويرفعه إلى أن يشرف على رأسه ثم يأخذه التيه والعجب فيتنقل بهدوء وتكبر كأعظم ملوك الدنيا...

(يفضي كإفضاء الديكة ويؤر بملاقحه أر الفحول المغتلمة للضراب أحيلك من ذلك على معاينة لا كمن يحيل على ضعيفٍ إسناده) إذا أراد أن يسفد الطاووسة فإنه يسفدها كما يسفد الديك الدجاجة وينال منها بمذاكيره ما تنال الفحول صاحبة الشبق والشهوة بحيث يأتي أنثاه بشوق ورغبة وشهوة شديدة ثم أراد أن يثبت ما يقوله ويؤكد على صحته بأن ما يخبر به إنما هو عن دراية وليس عن رواية... عن رؤية عينية لا يتطرق إليها الشك وليس رواية معنعنة ضعيفة الإسناد من حيث أن المخبرين قد يكونون ضعفاء أو كذبة فلا يصدق الخبر...

(ولو كان كزعم من يزعم أنه يلقح بدمعة تسفحها مدامعه فتقف في ضفتي جفونه وأن أنثاه تطعم ذلك ثم تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنبجس لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب) وهذا رد على من زعم أن الملاقحة في الطاووس إنما هي

بدموع عينيه تخرج الدمعة منه إلى عيونه فتقف بين الجفون فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقح من تلك الدمعة ثم تبيض بدون فحل يمسها سوى هذا الدمع ثم قال: لو كان هذا الزعم صحيحاً وفرضنا صحته فرضاً وتقديراً لما كان بأعجب من زعم وتوهم أن الغراب يلقح من مطاعمه حيث يزعمون أنه لا يسفد بل من مطاعمة الذكر والأنثى وانتقال جزء من الماء الذي في قانصته إليها من منقاره فتأكله فتلقح فإذا كان هذا يجري في الغراب كما يدعون فلا يستغرب إذن تسافد الطاووس بالطريقة التي ذكروها. . .

(تخال قصبه مداري من فضة وما أُنبت عليها من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد فإن شبهته بما أنبتت الأرض قلت: جنى جني من زهرة كل ربيع وأن ضاهيته بالملابس فهو كموشي الحلل أو كمونق عصب اليمن وإن شاكلته بالحُلي فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المكلل) هذا وصف لأجنحة الطاووس وأن عظامه لبياضها الصافي تتخيل أنها كأسنان المشط المصنوع من الفضة ولو نظرت إلى ما أنبت عليها من الريش وما زينت هذه الريش من الألوان حيث الخطوط الصفر المستديرة على رؤوسها فكأنها الذهب في الصفرة الخالصة مع ما يعلوها من البريق وما في وسط تلك الدارات من الدوائر الخضر فكأنها قطع الزبرجد الخضراء لو نظرت إلى كل ذلك لرأيت عظيم صنع الله وجلال قدرته. . .

ثم أراد أن يشبهها بما وقع عليها أنظار مجتمعه ويقرب ذلك إليهم بما يمرّ عليهم أو يعهدونه فقال: إذا أردت أن تشبهه فهو مشبه بأحد أمور ثلاثة ويصح تشبيهه بالجميع.

١ ـ إن أردت تشبيهه بما أنبتت الأرض فلا تستطيع إلا أن تقول: إنه ملتقط من كل زهرات الربيع وأنها قد جمعت كلها في ألوانه.

٢ ـ وإن أردت تشبيهه بالملابس فهو كموشى الحلل أي كالثياب التي نقشت بكل النقوش وزينت بكل الألوان أو هو كبرود اليمن المصبوغ المعروف بحسنه وجماله والرغبة فيه.

٣ ـ وإذا أردت أن تشبهه بالحلي والجواهر فهي كأحجار كريمة ذات ألوان متعددة أحيطت كالإكليل بالفضة فأكسبتها جمالاً ورونقاً. . .

(يمشي مشي المرح المختال ويتصفح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصابيغ وشاحه فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا معولاً بصوت يكاد يُبين عن استغاثته ويشهد بصادق توجعه لأن قوائمه حمش كقوائم الديكة الخلاسية وقد نجمت من ظنبوب ساقيه صيصية خفية) هذا وصف لمشيه وقهقهته وأنه يمشي بزهو وتبختر وينظر إلى ذنبه

وألوانه وكيف ينشره كالتاج فوق رأسه وكذلك إلى جناحيه وما فيهما من جميل الألوان فإنه عندما ينظر إلى ذلك يضحك لجمال ثوبه وألوانه وما يلفه منها ولكن فرحه لا يطول فإنه إذا نظر إلى ساقيه صاح صياحاً حزيناً بصوت يكاد يحكي عن ألمه وتوجعه أو عن موته مستغيثاً بمن يخرجه من هذا القبح وذلك لدقة ساقيه ونتوء عرقوبيه فهو كالدجاج الهجين المتولد من الدجاج الهندي والفارسي تخرج أرجله قبيحة المنظر فعويله وبكاؤه لهذه العاهة فيه وسبحانه المتفرد بالكمال والجمال أبقى في هذا المخلوق ثغرة ليقف على جلال عظمة الله وقدرته ولا يأخذه التيه والعجب أكثر مما أخذه. . .

(وله في موضع العرف قنزعة خضراء موشاة، ومخرج عنقه كالإبريق ومغرزها إلى حيث بطنه كصبغ الوسمة اليمانية أو كحريرة ملبسة مرآة ذات صقال وكأنه متلفع بمعجر أسحم إلا أنه يخيّل لكثرة مائه وشدة بريقه أن الخضرة الناضرة ممتزجة به) وصف للقنزعة ـ وهي عدة ريشات تحتل أعلى رأس الطاووس ـ كالعرف للديك وهي خضراء اللون ملونة بألوان جميلة تلفت النظر وتجذب الناظر إليها كأنها شجرة صنوبر مرتفعة فوق رأسه تزيده جمالاً وجلالاً . . .

أما مخرج عنقه شكلاً وهيئة كمخرج عنق الإبريق.

ومغرز هذا العنق من الصدر إلى البطن وبهذه المساحة شبهها عليه السلام بالثياب اليمانية المصبوغة بالسواد أو كحريرة تلمع كالمرآة المصقولة فكأنه ملتحف بملحفة سوداء إلا أنها لكثرة نضرتها وشدة بريقها يظن أنها خضراء مزجت بالسواد.

(ومع فتق سمعه خط كمستدق القلم في لون الأقحوان أبيض يقق فهو ببياضه في سواد ما هنالك يأتلق وقل صبغ إلا وقد أخذ منه بقسط وعلاه بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ورونقه فهو كالأزاهير المبثوثة لم تربها أمطار ربيع ولا شموس قيظ) هذا وصف للخط الأبيض المحيط بسمع الطاووس إنه خط دقيق شبهه بخط القلم الدقيق ولونه كلون الأقحوان فإذا اجتمع مع سواد هناك إلى جانبه ازداد لمعاناً وبريقاً واكتسب بالتالي جمالاً وبهاءاً. . .

ثم أجمل في تعداد ألوانه وأنه ليس هناك لون إلا وللطاووس منه حظ ونصيب وزاد على ذلك بكثرة بريقه ولمعانه فهو كالأزهار المنتشرة الموزعة في أيام الربيع إلا أن الأزهار تربّيها الأمطار والشموس وهذا ينمو ويكتمل ويأخذ زينته بيد الله العزيز الحكيم الذي صنعه بهذه الحلية وهذه الألوان الجميلة. . .

(وقد ينحسر من ريشه ويعرى من ثيابه فيسقط تترى وينبت تباعاً فينحت من قصبه

انحتات أوراق الأغصان ثم يتلاحق نامياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه وإذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه أرتك حمرة وردية وتارة خضرة زبرجدية وأحياناً صفرة عسجدية) وهذه حالة أخرى من حالات الطاووس التي تستوجب التوقف أمام عظمة الصانع وحكمته. . .

إنه يتعرى من ريشه بسقوطه عنه فهي ثيابه التي ينزعها بقدرة الله فيسقط ذلك الريش ولكن ليس دفعة واحدة بل بالتدريج كما يسقط ورق الشجر في أيام الخريف فترى سقوطها كلما اصفر منها قسم ثم ينبت كله متتابعاً، يتلاحق بالنمو حتى يعود كما كان قبل السقوط ومن حكمته جلت قدرته أن الجديد من الريش لا يخالف القديم في ألوانه بل كل ريشة قديمة بلونها ينبت مكانها ريشة جديدة بنفس اللون لا تخالفها ولا تختلف عنها. . .

ثم أشار إلى أنك لو أخذت ريشة من ريش قصبه ونظرت إليها لدلتك على عظمة الخالق الإلهي فإنك تنظر إليها فتجدها ذات ألوان متعددة وهي واحدة لم تتعدد إنها تريك تارة حمرة كحمرة الورد وأخرى خضرة كخضرة الزبرجد وأحياناً صفرة كصفرة الذهب.

(فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن أو تبلغه قرائح العقول أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه والألسنة أن تصفه) إقرار بالعجز وأنه لا تصل إلى صفة هذا المخلوق الصغير الفطن التي من شأنها أن تدرك دقايق الأشياء أو العقول الصحيحة السليمة التي من شأنها الوصول إلى عمق هذه الأمور كما أن النطق يعجز عن استيعاب وصف هذا المخلوق البسيط بل أقل أجزائه وهي الريشة تعجز المخيلات عن أن تدرك حقيقتها وتعجز الألسنة عن استيعاب وصفها، وإذا كلت الألسنة وعجز الواصفون عن الإحاطة بوصف أقل أجزاء هذا الطائر فهو أعجز عن وصفه كله واستيعاب حقيقته لأن من يعجز عن وصف الجزء يكون أعجز عن وصف الكل. . .

(فسبحان الذي بهر العقول عن وصف خلق جلّاه للعيون فأدركته محدوداً مكوناً ومؤلفاً ملوناً وأعجز الألسن عن تلخيص صفته وقعد بها عن تأدية نعته) تنزيه لله الذي أعجز العقول عن أن تصف مخلوقاً أظهره للعيون بحيث رأته محدوداً في طول وعرض ومساحة ومؤلفاً من لحم ودم وعظم وملوناً بهذا التلوين المتعدد المختلف فهذا المخلوق المنظور عجزت ألسن عن إدراك صفته والإلمام بها ولم يسمح لها أن تؤدي وصفه وتستوعبها فكيف تستوعب صفات الله وتحيط بها. . .

(وسبحان من أدمج قوائم الذرة والهمجة إلى ما فوقهما من خلق الحيتان والفيلة ووأى على نفسه ألا يضطرب شبح مما أولج فيه الروح إلا وجعل الحمام موعده والفناء

غايته) وهذا تنزيه لله باعتبار آخر وهو أنه سبحانه أتقن صنع كل شيء وأحكمه من قوائم النملة الصغيرة الحقيرة التي قد تدوسها برجلك دون أن تحس بها وكذلك الذبابة الصغيرة التي تحط ولا يشعر بسقوطها أحد؛ من هذه الأشياء الصغيرة إلى حيوانات البر والبحر . . . إلى الحوت الكبير في عمق البحر أو الفيل الضخم الجثة في مجاهل الغابات فإنه أتقن صنعها جميعاً.

وقطع على نفسه وعداً وألزمها عهداً أنه ليس هناك شيء دخلته الروح وتحرك في الحياة إلا وكتب عليه الموت وقضى عليه بالفناء وعدم البقاء قال تعالى: ﴿**كل نفس ذائقة الموت. . .**﴾ وقال تعالى: ﴿**كل من عليها فان. . .**﴾.

(فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذاتها وزخارف مناظرها) هذا ختام الخطبة وهو يتعلق بالجنة وصفتها وهي أمنية كل عامل مجاهد ترغيباً بها وتشويقاً لها عسى أن تحرك راغباً فيها أو طالباً لها. . .

فلو فكرت وتأمّلت فيما يوصف لك من الجنة وما فيها لكرهت نفسك وزهدت فيما في الدنيا من بدائع الشهوات واللذات وزينة المناظر والزخارف. . . فإن وصف ما في الجنة يوجب الإعراض عن الدنيا وما فيها من شهوات ولذات لأن في الجنة نعيم يفوق الأحلام ويكبر على الأمنيات.

(ولذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار غيبت عروقها في كثبان المسك على سواحل أنهارها وفي تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها وطلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها تجني من غير تكلف فتأتي على منية مجتنيها ويطاف على نزالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة والخمور المروقة) هذه بعض ما في الجنة فإنها تذهب بالفكر وتحيّره إذ الريح تضرب هذه الأشجار التي غابت عروقها في تلال المسك بدل تلال الرمل على شواطىء أنهار الجنة تتغذى منها وكذلك يأخذك تعليق عناقيدها التي هي كاللؤلؤ الرطب في أغصانها وكذلك خروج تلك الثمار التي تكون أول تكوينها وتخرج مختلفة لتنوع أصنافها من أكمامها. . .

إنها ثمرات تأتي طبقاً لأمنية الإنسان فبمجرد أن يتمنى ثمرة تقترب منه وتسقط عليه بدون مشقة الإتيان إليها ومشقة الالتقاط لها.

إنها صورة جميلة رائعة الجمال تبهر العيون والعقول حيث يطاف على من ينزل ساحاتها وأفنية قصورها بالعسل المصفى والخمور المصفاة التي لا تسلب العقل أو تفقده

وإن أوجبت لذة الخمر ونشوتها. . .

(قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتى حلّوا دار القرار وأمنوا نقلة الأسفار. فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة لزهقت نفسك شوقاً إليها ولتحملت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها. جعلنا الله وإياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته) هذا وصف لأهل الجنة وأنهم قوم كتب لهم التوفيق فازدادوا في الكرامة الإلهية حيث نشرها عليهم ووسعها لهم وبقوا هكذا حتى نزلوا واستقروا في الجنة التي هي دار الاستقرار والدوام وانقطعوا بذلك عن الرحيل والهجرة والأسفار وارتاحوا من وعثاء السفر ومشقات الطريق. . .

ثم التفت إلى من يسمع كلامه بأنه لو يفكر في هذا النعيم وبالوصول إلى ما ينتظره من تلك المناظر الحسنة الجميلة ويمعن النظر في ذلك النعيم لخرجت نفسه من بدنه وحمل من مجلسه إلى مجاورة أهل القبور فأضحى واحداً منهم يتسابق إليها ويسرع نحوها طلباً لها وللحصول عليها. . .

ثم في الختام دعا لنفسه وللحاضرين أن يجعلهم الله ممن يسعون بقلوبهم وأرواحهم وتبعاً لذلك تكون أعمالهم إلى منازل الأبرار الذين أخلصوا لله إنه أرحم الراحمين وبرحمته نصل إلى ذلك. . .

تفسير بعض ما في هذه الخطبة من الغريب.

قال السيد الشريف رضي الله عنه: قوله عليه السلام: «**يؤر بملاقحه**» الآر: كناية عن النكاح يقال: أرّ الرجل المرأة يؤرها إذا نكحها.

وقوله عليه السلام: «كأنه قلع داري عنجه نوتيه» القلع: شراع السفينة وداري: منسوب إلى دارين وهي بلدة على البحر يجلب منها الطيب وعنجه: أي عطفه يقال: عنجت الناقة ـ كنصرت ـ أعنجها عنجاً إذا عطفتها والنوتي الملاّح.

وقوله عليه السلام: «ضفتي جفونه» أراد جانبي جفونه والضفتان: الجانبان.

وقوله عليه السلام: «وفلذ الزبرجد» الفلذ جمع فلذة وهي القطعة.

وقوله عليه السلام: «كبائس اللؤلؤ الرطب» الكباسة: العذق والعساليج: الغصون واحدها عسلوج. . .

١٦٦ ـ ومن خطبة له عليه السلام

الحث على التآلف

لِيَتَأَسَّ[١] صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلْيَرْأَفْ[٢] كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ، وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ[٣] ٱلْجَاهِلِيَّةِ: لَا فِي ٱلدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ[٤]، وَلَا عَنِ ٱللهِ يَعْقِلُونَ[٥]، كَقَيْضِ[٦] بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ[٧] يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً[٨]، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا[٩] شَرًّا.

بنو أمية

ومنها: ٱفْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ[١٠]، وَتَشَتَّتُوا[١١] عَنْ أَصْلِهِمْ. فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ مَالَ مَعَهُ. عَلَى أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ[١٢] ٱلْخَرِيفِ[١٣]! يُؤَلِّفُ[١٤] ٱللهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَاماً كَرُكَامِ[١٥] السَّحَابِ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَاباً. يَسِيلُونَ[١٦] مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ[١٧] كَسَيْلِ ٱلْجَنَّتَيْنِ[١٨]، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ[١٩]، وَلَمْ تَثْبُتْ[٢٠] عَلَيْهِ أَكَمَةٌ[٢١]، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ[٢٢] رَصُّ[٢٣] طَوْدٍ[٢٤]، وَلَا حِدَابُ[٢٥] أَرْضٍ. يُذَعْذِعُهُمُ[٢٦] ٱللهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ[٢٧] يَنَابِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمَكِّنُ[٢٨] لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ. وَٱيْمُ ٱللهِ، لَيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ ٱلْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ، كَمَا تَذُوبُ ٱلأَلْيَةُ[٢٩] عَلَى النَّارِ.

الناس آخر الزمان

أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا[٣٠] عَنْ نَصْرِ ٱلْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا[٣١] عَنْ تَوْهِينِ[٣٢] ٱلْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ.

لكِنَّكُمْ تِهْتُمْ(٣٣) مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ ٱلْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمْ ٱلأَدْنَى، وَوَصَلْتُمُ ٱلأَبْعَدَ. وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ ٱتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مَؤُونَةَ الاعْتِسَافِ(٣٤)، وَنَبَذْتُمْ(٣٥) الثِّقْلَ ٱلْفَادِحَ(٣٦) عَنِ ٱلأَعْنَاقِ.

اللغة

١ ـ التأسي : الاقتداء.
٢ ـ يرأف : يرحم.
٣ ـ الجفاة : جمع الجافي، الغليظ، صعب الخلق، غليظ العشرة.
٤ ـ تفقه : تعلّم، وفهم وتفقه في الدين تعلم أحكامه ووعاها.
٥ ـ يعقل : يعي ويفهم.
٦ ـ قيض : البيض كسره، وقشرها الأعلى وتقيضت البيضة تكسّرت.
٧ ـ الأداحي : جمع أدحية المكان الذي تبيض فيه النعامة.
٨ ـ الوزر : الذنب.
٩ ـ حضانها : ما تحضنه تحت جناحها من بيض.
١٠ ـ ألفتهم : اجتماعهم.
١١ ـ تشتتوا : توزعوا وافترقوا.
١٢ ـ القزع : جمع قزعة بالتحريك القطع المتفرقة من السحاب.
١٣ ـ الخريف : فصل من فصول السنة يقع بين الصيف والشتاء.
١٤ ـ يؤلّف : يجمع.
١٥ ـ الركام : المجتمع بعضه فوق بعض.
١٦ ـ يسيلون : يجرون كالسيل وهو الماء المتدافع.
١٧ ـ المستثار : موضع الثوران وهيجانهم.
١٨ ـ سيل الجنتين : هو الذي سماه الله سيل العرم وعاقب الله به سبأ لما بطروا.
١٩ ـ القارة : الجبل الصغير، المستقر الثابت في الأرض.
٢٠ ـ تثبت : تستقر.
٢١ ـ الأكمة : محركة التل، المرتفع القليل عن الأرض.
٢٢ ـ السنن : الطرق.
٢٣ ـ الرص : الانضمام والتلاصق.

٢٤ ـ الطود	:	الجبل العظيم.
٢٥ ـ الحداب	:	جمع حدب بالتحريك ما ارتفع من الأرض وغلظ، النجاد.
٢٦ ـ يذعذعهم	:	يفرقهم.
٢٧ ـ يسلكهم	:	يدخلهم.
٢٨ ـ يمكّن	:	لكم يملككم ويجعل لكم سلطاناً.
٢٩ ـ الإلية	:	ما ركب العجز من شحم وأكثر ما تطلق على الغنم.
٣٠ ـ التخاذل	:	ترك الإعانة والنصرة.
٣١ ـ تهنوا	:	من وهن أي ضعف.
٣٢ ـ توهين	:	الباطل إضعافه.
٣٣ ـ تهتم	:	حرتم وضللتم الطريق.
٣٤ ـ الاعتساف	:	سلوك غير الطريق.
٣٥ ـ نبذتم	:	رميتم من نبذ الشيء إذا رماه.
٣٦ ـ الفادح	:	الثقيل وفدحه الدين أي أثقله.

الشرح

(ليتأس صغيركم بكبيركم، وليرأف كبيركم بصغيركم ولا تكونوا كجفاة الجاهلية: لا في الدين يتفقهون ولا عن الله يعقلون كقيض بيض في أداحٍ يكون كسرها وزراً ويخرجِ حضانها شراً). أمر للصغار وآخر للكبار أما الأمر للصغار فهو أن يقتدوا بالكبار علماً وعملاً وسلوكاً وفعلاً للخيرات لأن الكبار مظنة الخير.

وأمر للكبار أن يعطفوا على الصغار لضعفهم وقلة حيلتهم فلا يعاملونهم معاملة الكبار ولا يحاسبونهم كما يحاسبوا الكبار بل إذا عثر الصغير في أمر أو أخطأ امتدت إليه أيدي الكبار لتأخذ بيده وتنقذه من كبوته والأحاديث كثيرة في هذا الموضوع.

قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا.

ثم نهاهم أن يكونوا كأهل الجاهلية في الجفاء والغلظة والقساوة وقد نهاهم أن يشبهوهم من جهتين.

١ ـ جهلهم بأحكام الدين وعدم معرفتها والاطلاع عليها.

٢ ـ إنهم لم يفهموا ما ورد عن الله في كلامه الذي يخاطب به عباده.

وقد شبههم والحال هذه ـ إذا لم يتفقهوا في الدين ولم يعقلوا ما ورد عن رب العالمين ـ شبههم ببيض الأفاعي في الأعشاش يظن الظان أنه بيض القطا فلا يحل كسره لمن رآه بينما هو يخرج أفاعي فكذلك هؤلاء إذا أشبهوا جفاة الجاهلية لا يحل لأحد أذاهم وإهانتهم لحرمة ظاهر الإسلام عليهم وإن أهملوا وتركوا على ما هم عليه من الجهل وقلة الأدب خرجوا شياطين يؤذون الحق وأصحابه . . .

(افترقوا بعد إلفتهم وتشتتوا عن أصلهم فمنهم آخذ بغصن أينما مال مال معه). هذا إشارة إلى أصحابه وما يصيبهم من التشتت والتفرق عنه وعن أمثاله من الأئمة وكيف أن بعض الناس ـ وهم الشيعة ـ يتمسكون به ومن بعده بذريته يتحركون بأمرهم ويعملون بقولهم ولا يخرجون عن إرادتهم وقد افترق أصحابه فمنهم الخوارج ومنهم الشيعة بأصنافهم وتعدد عقائدهم . . .

(على أن الله تعالى سيجمعهم لشر يوم لبني أمية كما تجتمع قزع الخريف يؤلف الله بينهم ثم يجمعهم ركاماً كركام السحاب ثم يفتح لهم أبواباً يسيلون من مستثارهم كسيل الجنتين حيث لم تسلم عليه قارة ولم تثبت عليه أكمة ولم يرد سننه رص طود ولا حداب أرض) بعد أن أخبر عليه السلام ما يصيب أصحابه والمسلمين من التشتت والافتراق زفّ البشرى بأن هذا الشتات سيلتقي ويجتمع، ستجمعهم مظالم الأمويين ومآثمهم وما ينالهم منهم من قهر واعتداء إنه يوم من أشر الأيام على بني أمية يجتمع المسلمون فيه ويلتقون كما تجتمع الغيوم المتفرقة الموزعة في أيام الخريف، يؤلف الله بينهم ويجمعهم ويوحد صفوفهم ويوحد كلمتهم ثم يفتح لهم أبواب الثورة التي يندفعون منها في وجه الأمويين وقد شبه ثورة المسلمين ضد الأمويين «كسيل الجنتين» حيث قصّ الله خبر ذلك بقوله: **﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا[1] عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل﴾**.

ثم وصف السيل بأنه لم يقف أمامه شيء: استولى على الجبال والمرتفعات ولم يوقفه مرتفع أو علو أو اتصال جبال وتلاصقها إشارة إلى أن سيل المسلمين وثورتهم لن يقف في وجهها أي قوة أموية بل ستجتث الجذور وتأتي على كل أموي دون رأفة ورحمة وقد كان الأمر كذلك فلم تستطع جيوش الأمويين أن تقف في وجه العباسيين بل طاردوهم حتى قضوا على آخر خلفائهم محمد بن مروان الملقب بالحمار . . .

---

(١) سورة سبأ، آية/ ١٥ ـ ١٦.

(يذعذهم الله في بطون أوديته ثم يسلكهم ينابيع في الأرض يأخذ بهم من قوم حقوق قوم ويمكّن لقوم في ديار قوم. وايم الله ليذوبن ما في أيديهم بعد العلو والتمكين كما تذوب الإلية على النار). لا يزال يصف وضع القوم الذين يطاردون الأمويين ويسلبونهم الملك بأن هؤلاء موزعون في بطون الأودية من مخافتهم من الأمويين ثم إن الله يجمعهم من بين الناس فيخرجون كما تخرج الينابيع فبعد الاختفاء ظهور، يأخذ الله بهم من قوم ظالمين حقوق قوم مظلومين ويتولى الخلافة قوم وهم العباسيون ـ في ديار قوم وهم الأمويين. . .

ثم أقسم أن ما في أيدي بني أمية سيؤخذ منهم شيئاً فشيئاً فبعد الملك والرياسة سيزول ذلك وتنقضي أيامهم كما تذوب الإلية إذا وضعت على النار من حيث الإتيان عليها وعدم بقائها. . .

(أيها الناس لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقو من قوي عليكم لكنكم تهتم متاه بني إسرائيل ولعمري ليضعفّن لكم التيه من بعد أضعافاً بما خلفتم الحق وراء ظهوركم وقطعتم الأدنى ووصلتم الأبعد) ذم لأصحابه وتوبيخ لهم من حيث قعودهم عن تكليفهم المفروض عليهم من حيث نصرة الحق وتوهين الباطل إنهم لم ينصروا علياً ولم يخذلوا معاوية فكانت النتيجة الطبيعية أن يطمع فيهم من ليس مثلهم كمعاوية وأتباعه الذين لا يملكون حقاً قانونياً ولا رصيداً شرعياً لتمردهم وكذلك لم يقو من قوي عليهم ويستفحل أمره كما جرى ذلك لمعاوية حيث أخذ يغزو أطراف البلاد الإسلامية الخاضعة لحكم الإمام ويذيق أهلها القتل والنكال.

ثم بين لهم أنهم قد تاهوا كتيه بني إسرائيل بل أضعاف ذلك التيه من حيث لحوق الذل لهم والإهانة والمسكنة وما مارسه الأمويون عليهم من القهر والظلم وقد تاه بنو إسرائيل أربعين سنة وبقى حكم الأمويين الظالم ثمانين سنة.

وهذا التيه الذي أصاب أصحاب الإمام ومن كان معه نتيجة أنهم قطعوا صلتهم بالإمام الذي هو أقرب الناس برسول الله والله أمرهم أن يوصلوا رحمه حيث قال تعالى: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾** بينما وصلوا الأبعد وهو معاوية الذي أمر الله بقطع العلاقة معه ومنابذته. . .

(واعلموا أنكم إن اتبعتم الداعي لكم سلك بكم منهاج الرسول وكفيتم مؤونة الاعتساف ونبذتم الثقل الفادح عن الأعناق). عاد يدعوهم لما فيه نجاتهم وسعادتهم

فأشار عليهم أنهم إن اتبعوه عليه السلام أخذ بأيديهم إلى طريق النبوة ولا شك أن من اقتدى بعلي فقد اهتدى ومن مشى على خطاه أفلح ونجح لأنه الامتداد لرسول الله ووصيه وخليفته وحافظ سره ومستودع أمانته، من أخذ بقوله وعمل فقد سلك طريق رسول الله وسبيله واستغنى عن الطرق الملتوية والسبل العوجاء وبذلك يرمي عن كاهله الأوزار الثقيلة. . . فيأمن بهذه المتابعة من طرق الضلال والانحراف ويأمن في الآخرة من الآثام والعذاب. . .

١٦٧ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في أوائل خلافته

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ ٱلْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخُذُوا نَهْجَ(١) ٱلْخَيْرِ تَهْتَدُوا، واصْدِفُوا(٢) عَنْ سَمْتِ(٣) الشَّرِّ تَقْصِدُوا(٤).

ٱلْفَرَائِضَ ٱلْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى ٱللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ. إِنَّ ٱللهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلاَلاً غَيْرَ مَدْخُولٍ(٥)، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ(٦) ٱلْمُسْلِمِ عَلَى ٱلْحُرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ(٧) بِالإِخْلاَصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا(٨)، «فَٱلْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلاَّ بِٱلْحَقِّ، وَلاَ يَحِلُّ أَذى الْمُسْلِمِ إِلاَّ بِمَا يَجِبُ.

بَادِرُوا(٩) أَمْرَ ٱلْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ ٱلْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاس أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ(١٠) مِنْ خَلْفِكُمْ. تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.

ٱتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ(١١) وٱلْبَهَائِمِ(١٢). أَطِيعُوا اللهَ وَلاَ تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ ٱلْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

اللغة

١ ـ نهج : الخير طريق الخير.
٢ ـ اصدفوا : اعرضوا.
٣ ـ السمت : الجهة.
٤ ـ تقصدوا : تعدلوا، والقصد هو العدل.
٥ ـ مدخول : معيب؛ غير مدخول غير ناقص ولا معيب.
٦ ـ الحرمة : ما لا يحل انتهاكه.
٧ ـ شد : ربط وأوثق.
٨ ـ المعاقد : جمع معقد وهو العقد المبرم.
٩ ـ بادر : عجل واسرع.
١٠ ـ تحدوكم : تسوقكم من الحداء للإبل وهو الغناء لها لتسرع في المشي.
١١ ـ البقاع : جمع بقعة القطعة من الأرض.
١٢ ـ البهائم : جمع بهيمة كل دابة ذات أربع قوائم من دواب البر والماء عدا السباع والطيور.

الشرح

(إن الله سبحانه انزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا نهج الخير تهتدوا وأصدفوا عن سمت الشر تقصدوا) خطب الإمام بهذه الخطبة في مستهل خلافته وقد افتتحها بذكر كتاب الله كي يشدهم إليه ويدفعهم للعمل به فذكر أن الله أنزل القرآن كتاباً هادياً إلى الخير داعياً إلى الهدى وقد بيّن فيه الخير والشر ليكون سلوك أي منهما حجة على الإنسان أو حجة له ثم أمرهم أن يأخذوا نهج الخير فيهتدوا وأمرهم أن يعرضوا عن طريق الشر وجهته الذي هو فيها فيخرجوا عن الانحراف ويدخلوا في الاعتدال والاستقامة...

(الفرائض الفرائض أدُّوها إلى الله تؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حراماً غير مجهول وأحل حلالاً غير مدخول وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب) دعاهم إلى إقامة الفرائض وحضهم عليها لأنها أقوى طرق الخير ولذا رتب عليها أمراً وهو أنها تؤدي بهم إلى الجنة...

ثم ترغيباً في الواجبات وتنفيراً عن المحرمات بيّن أن الله حرّم الحرام بوضوح وجلاء وليس فيه خفاء، فمحرمات الشريعة ظاهرة واضحة لا غبار عليها كما أن ما أحله من الطيبات وأباحه للناس لا عيب فيه ولا شبهة تعتريه. . .

وذكر المسلم وحرمته وأن عليه حصانة لا يجوز لأحد انتهاكها أو التعدي عليها وجعلها من أفضل الحرم التي يجب رعايتها والمحافظة عليها فطالما أن هذا المسلم لم يهتك ستره ولم يخرج مستهتراً بحرمات الله التي حرمها عليه لا يجوز لأحد ملاحقته أو التجسس عليه وكشف عوراته المستوره ومن هنا حرّم التجسس وإفشاء الأسرار وملاحقة الناس إلى داخل بيوتهم.

وجعل للمسلمين حقوقاً مصدرها الإخلاص لله ووحدانيته فإن كل من وحد الله وأخلص له جعل له على المسلمين حقوقاً متكاتفة متآلفة مترابط بعضها ببعض.

وقال المعتزلي في شرحه: لأن الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم. . .

ثم عرّف المسلم بأخص صفاته وأهمها وهي أن المسلم الصحيح السليم المستقيم من سلم المسلمون من لسانه ويده فلا يذكر عيوب الناس ولا يتتبع عوراتهم ولا يغتابهم ولا ينم عليهم ولا يوشي بينهم وكذلك يسلم المسلمون من يده فلا يعتدي عليهم بضرب أو قتل أو ما اشبه ذلك واستثنى من ذلك ما كان بالحق كأن يكون في معرض الشهادة فيجرح الشاهد أو يشهد عليه بارتكاب جريمة أو يكون له عليه حق القصاص فيعتدي عليه بمثل ما أعتدى عليه فيرد اللطمة بلطمة مثلها ثم ذكر مصداقاً لعله لكثرة تداوله بين الناس وهو إنه لا يجوز أذية المسلم إلا بالحق؛ والأذية قد تكون بالكلام وقد تكون بالإهانة وقد تكون باليد فهذه لا تجوز إلا إذا كانت بحق. . .

(بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت فإن الناس أمامكم وإن الساعة تحدوكم من خلفكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم آخركم) أمرهم أن يسرعوا إلى العمل للموت الذي يشمل جميع المخلوقات ويعمهم فلا يسلم منه أحد وقد خص كل فرد منا به لما لهذا الإنسان من ميزة في الموت من حيث يأتي خلفه الحساب والعقاب والجنة والنار ويحتاج ذلك إلى مسلك صحيح وعمل سليم ثم لفت نظرهم إلى أن الناس الذين ماتوا قد سبقوهم فهم أمامهم ينتظرون الحساب وتسوقكم الساعة وهي يوم القيامة إلى الحساب والجزاء الذي ينتظركم.

وبعد هذا أمرهم أن يخففّوا من ذنوبهم ليلتحقوا بركب الأنبياء والصالحين فإن

المخفف أسرع في المشي وأقوى على ادراك صحبه ومن يحب وأما المثقل الذي حمل حملاً ثقيلاً يكون بطيء الحركة عاجزاً عن ادراك ما يحب من الصحبة والرفاق وإنما أخر المتقدم من الموتى فلم يبعثوا الآن وأمروا بالانتظار من أجل أن يلتحق بهم المتأخر وعندما يجتمع الجميع ويكتمل العدد يبعث الله الجميع للحساب وعندها إما إلى جنة أو إلى نار. . .

(اتقو الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، اطيعوا الله ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فاعرضوا عنه) أمرهم بتقوى الله في عباده بأن لا يؤذوا أحداً أو يعتدوا على أحد ويؤدون لكل ذي حق حقه وكذلك في بلاده فلا يفسدون في الأرض ولا يعلون وبيّن سبب ذلك بأنهم مسؤولون عن البقاع وهي البلاد ولماذا اختاروا هذه الأرض دون غيرهم مع ما فيها من الظلم وارتكاب المحرمات؟ ولماذا تركوا تلك مع فيها من عدل وإقامة للحق، بل حتى البهائم يسأل عنها الإنسان فإن لها من الحقوق ما هو مرسوم من حيث أنه لا يجوز أجاعتها ولا ضرب وجهها وإذا نزل عنها أبتدأ بعلفها وإن لا يحملها ما لا تطيق وهكذا. . .

وفي النهاية أجمل القول بالأمر بإطاعة الله فيما أمر وترك معصيته فيما نهى وهذا عنوان عام تندرج تحته كل الواجبات وكل المحرمات والعاقل هو الذي إذا رأى الخير بادر إليه وعمل به وإذا رأى الشر أعرض عنه ولم يلتفت إليه. . .

١٦٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

بعدما بويع بالخلافة، وقد قال له قوم من الصحابة:

لو عاقبت قوماً ممن أجلب على[١] عثمان؟ فقال عليه السلام:

يَاإِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَٱلْقَوْمُ ٱلْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوكَتِهِمْ[٢]، يَمْلِكُونَنَا وَلاَ نَمْلِكُهُمْ! وَهَا هُمْ هؤُلاَءِ قَدْ ثَارَتْ[٣] مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ[٤]، وَٱلْتَفَّتْ[٥] إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ[٦]، وَهُمْ خِلاَلَكُمْ[٧] يَسُومُونَكُمْ[٨] مَا شَاؤُوا؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ! إِنَّ هَذَا الأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهؤُلاَءِ الْقَوْمِ مَادَّةً[٩]. إِنَّ النَّاسَ مِنْ هذَا الأَمْرِ ـ إِذَا حُرِّكَ ـ عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لاَ تَرَى هذَا وَلاَ ذَاكَ، فَٱصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤْخَذَ ٱلْحُقُوقُ مُسْمَحَةً[١٠]؛ فَٱهْدَؤُوا عَنِّي، وَٱنْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلاَ تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ[١١] قُوَّةً، وَتَسْقِطُ مُنَّةً[١٢]، وَتُورِثُ وَهْناً[١٣] وَذِلَّةً. وَسَأُمْسِكُ الأَمْرَ مَا ٱسْتَمْسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ[١٤].

اللغة

١ ـ أجلب عليه : أعان عليه وأجلبه أعانه.

٢ ـ شوكتهم : قوتهم وبأسهم.

٣ ـ ثارت : تحركت.

٤ ـ العبدان : جمع عبد وهو الرقيق.

٥ ـ التفت : انضمت واختلطت.

٦ ـ اعرابكم : والأعراب تطلق على سكان البادية، كما تطلق على من لم يتفقه في الدين من العرب.

٧ ـ خلالكم : بينكم.

٨ ـ يسومونكم : يكلفونكم.

٩ ـ مادة : عوناً ومدداً.

١٠ ـ مسمحة : سهلة، ميسرة من أسمح أي ذل وانقاد.

١١ ـ تضعضع : تضعف وتهدّ يقال ضعضعت البناء إذا هددته.

١٢ ـ المنَّة : بالضم القدرة، القوة.

١٣ ـ الوهن : الضعف.

١٤ ـ الكي : حرق الجلد بحديد ونحوه.

الشرح

(يا اخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف لي بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والتفت إليهم اعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا وهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه) طلب بعض المسلمين من الإمام أن يقتص من قتلة عثمان فأجابهم عليه السلام.

إنه يعلم كما يعلمون من أن القصاص في القتلى حق وتلك شرعة اسلامية لم يهملها الإسلام أو يتركها بل قال تعالى: **﴿ولكم في القصاص حياة..﴾**.

ولكن لكل شيء ظروفه وأوقاته الملائمة له وظروف القصاص غير مناسبة لأننا لا نملك القوة التي تواجه الثائرين الذين اقدموا على قتل عثمان وهم لا يزالون على قوتهم واستعدادهم فهم الذين بيدهم الأمور وليست بأيدينا وخصوصاً أنه قد انضمت إليهم عبيدكم والتفت معهم اعرابكم الذين قدموا المدينة وهم موزعون بينكم ولكل واحد عشيرة وأنصار وأصحاب فلا قدرة للمواجهة في هذه الظروف ولسنا قادرين على الاقتصاص وبعبارة موجزة: لكي يتم القصاص يجب أن تكون يد الشرع مبسوطة وتكون عنده القوة التي تنفذ الحدود وتقيمها وأما إذا كانت يده مغلولة لوجود قوة أعظم منه فتسقط إقامة الحدود عندها إلى وقت آخر يتناسب مع امكان إقامتها...

(إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن لهؤلاء القوم مادّة. إن الناس من هذا الأمر ـ إذا حرك ـ على أمور: فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك

فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة) أشار عليه السلام إلى أن الذي حدث من خروج عثمان عن العدل وخروج هؤلاء عليه وقتله فعل من أفعال الجاهلية وليس فيه من الإسلام شيء ومضافاً إلى كل ذلك حتى يبيّن للناس عدم القدرة على الثائرين قال إن لهؤلاء القوم مدد وعون من الناس في أقطارهم وبلدانهم فهم إذا تحركوا حركّوا من وراءهم ممن يمثلونهم ومن أهلهم وعشائرهم.

ثم بيّن لهم موقف الناس من القصاص الآن وقسّم الناس إلى ثلاثة فرق فرقة ترى ما ترون من وجوب القصاص والاسراع في تنفيذه وفرقة ثانية ترى ما لا ترون بل يقولون إن عثمان يجب قتله ومن ثم فإن قتلته لهم أجر وثواب لأنهم رفعوا الظلم والفساد عن الأمة وفرقة ثالثه لا ترى رأيكم ولا الرأي الآخر المناقض له تتريث في الأمر وتتوقف فيه حتى تتضح الأمور وتستبين الحقيقة وإذا كان الأمر كذلك فاصبروا أيها الأخوة حتى تهدأ الفتنة وتعود الناس إلى رشدها وصوابها فلا تحركها العصبيات أو الغضب وعندها تؤخذ الحقوق بسهولة ويسر دون ردات فعل مضرة أو سلبيات مؤذية. . .

(فاهدؤوا عني وأنظروا ماذا يأتيكم به أمري ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة وتسقط مُنَّة وتورث وهناً وذلة وسأمسك الأمر ما استمسك وإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكي) أشار عليه السلام عليهم ـ بعد بيانه السابق ـ أن يلزموا الهدوء والسكينة وينتظروا أمره الذي يصدر منه وخوفهم العجلة لأنها قد تضر بالدين وتوجب ضعفه، فإنه عليه السلام كان يخاف إن اقتص من الثائرين مع ما هم عليه من القوة التي ذكرها، خاف أن تقع فتنة أكبر وداهية أشد فيزداد الفساد ويكثر الخراب وتقع الفوضى ثم إنه عليه السلام أشار إلى الناكثين طلحة والزبير وأم المؤمنين الذين خرجوا عليه بحجة أنه لم يقتص من قتلة عثمان وقد البّوا الناس عليه أشار إليهم: بأنه سيمنع نفسه ويمسكها عن مقاتلة الناكثين الذين اتخذوا من هذه الحجة ذريعة للخروج على حكمه وإنه سيحاول جهده في ردهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة فإذا لم يجد بداً من الحرب والقتال فإنه الحل الأخير لحسم الأمور وردها إلى نصابها. . .

١٦٩ ـ ومن خطبة له عليه السلام

عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة

الامور الجامعة للمسلمين

إِنَّ ٱللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ(١)، لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ. وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ(٢) ٱلْمُشَبَّهَاتِ(٣) هُنَّ ٱلْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللهُ مِنْهَا. وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ ٱللهِ عِصْمَةً(٤) لأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ(٥) وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا. وَٱللهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ ٱللهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الإِسْلَامِ، ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً حَتَّى يَأْرِزَ(٦) الأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ.

التنفير من خصومه

إِنَّ هؤُلاءِ قَدْ تَمَالَؤُوا(٧) عَلَى سَخْطَةِ(٨) إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ: فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ(٩) هذَا الرَّأْيِ ٱنْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا(١٠) ٱللهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا. وَلَكُمْ عَلَيْنَا ٱلْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ(١١) لِسُنَّتِهِ.

اللغة

١ ـ أمر قائم : مستقيم غير ذي عوج.
٢ ـ المبتدعات : ما أحدث بعد رسول الله ولم يكن داخلاً تحت عموم أو اطلاق مأذون فيه.

٣ ـ المشبهات : الأمور التي تشبه السنن المشروعة وهي ليست منها.

٤ ـ عصمة : منعة، وقوة.

٥ ـ ملّومة : من لوّمه مبالغة في لامه.

٦ ـ يأرز : ينقبض ويجتمع، يرجع.

٧ ـ تمالؤوا : اجتمعوا وتعاونوا.

٨ ـ السخطة : الكراهة والبغض.

٩ ـ فيالة الرأي : ضعفه.

١٠ ـ أفاءها : عليه ردها وارجعها.

١١ ـ النعش : الرفع.

الشرح

(إن الله بعث رسولاً هادياً بكتاب ناطق وأمر قائم، لا يهلك عنه إلا هالك وإن المبتدعات المشبهات هن المهلكات إلا ما حفظ الله منها) في هذه الخطبة حث على الوحدة والألفة وتنفير من خصومه أصحاب الرأي الخطير والجشع الكبير...

ابتدأ الخطبة بذكر رسول الله وإن الله بعثه إلى الخلق ليهديهم لما فيه منافعهم في آخرتهم ودنياهم، بعثه بكتاب ناطق وهو القرآن الكريم الذي يحكي مرادات الله وأوامره إلى الناس كما أنه سبحانه أنزل شريعة مستقيمة صحيحة معتدلة لا يهلك بعدها إلا هالك أي من كانت جبلته لا تقبل الهداية والرشاد فهو في منتهى الشقاوة وغاية التعاسة.

ثم ذكر الأمور التي ابتدعها الظالمون وهي الأمور التي لم تكن على عهد رسول الله ولم تدخل تحت عموم أو اطلاق مشروع أو منصوص فإنها لشبهها بالحق وبالمشروع من الأحكام كانت هي المهلكات لأن أصحاب الإيمان الرقيق أخذوا بها فضلوا وانحرفوا وهلكوا...

واستثنى من الهلاك من لم يأخذها ممن لله فيه عناية...

(وإن في سلطان الله عصمة لأمركم فاعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكره بها) أشار إلى عزهم وجماع رأيهم وإن ذلك يتحقق في سلطان الله الذي يريد به نفسه الشريفة لأنه الخليفة الشرعي الذي ينفذ أمر الله أو يريد به الإسلام فإن في الالتزام بأمر الخليفة عز ومنعة وقوة فأعطوا طاعتكم للإمام أو الإسلام طاعة لا تتضمن لوماً ولا ذماً بل تكون طاعة مخلصة لا نفاق فيها ولا رياء وليس فيها اكراه بل فيها تسليم ورضا بما يجري وإن

الرعية إذا سلمت الأمر لأولي الأمر وأطاعتهم في أوامرهم نجحت وفازت وانتصرت وحققت لنفسها العز والكرامة، لأنها تندفع عن قناعة بالقيادة وحكمة تصرفاتها وأما إذا كانت غير ذلك فإنها تتردد في مواقفها وتعيش القلق في حياتها ولم يكن لها من الاقدام والجرأة ما لغيرها.

(والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام، ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأرز الأمر إلى غيركم) أقسم عليه السلام أنهم إذا لم يفعلوا ما يقوله لهم من التسليم له والطاعة سوف يحّول الله عنهم الحكم وينقله إلى غيرهم ثم لا يعود إليهم أبداً بل يجتمع لغيرهم ويصبح لهم ولا يقدر أحد أن يعيده إليهم. . .

وقد استشكل بعضهم وقال: فإن قلت: لم قال: لا يرجع إليهم أبداً وقد عاد بالدولة العباسية؟. . .

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة لا تشفي الغليل والذي يرتضيه السياق والاعتبار أن الإمام هو الذي يجسّد الإسلام ويقدمه كأطروحة ناجحة صحيحة وأما غيره ممن تسموا أئمة فلنقصهم وقصورهم لن يقدموا الإسلام كرسالة تحمل الحياة للناس فلذا بعد الإمام علي لم يتول الأمر أحد من أبنائه الأئمة ولذا لا يزال الإسلام يعيش الغربة ولا تزال الناس بعيدة عن بركاته وإن عاشت في أجواء اسلامية عامة وما سمي بسلاطين الإسلام وحكامه فهم لم يرتبطوا بالإسلام الصحيح السليم وإنما ارتبطوا بإسلام المصالح التي تخدمهم وتخدم حكمهم. . .

(إن هؤلاء قد تمالؤوا على سخطة إمارتي وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم فإنهم إن تمموا على فيالة هذا الرأي انقطع نظام المسلمين) أشار إلى الناكثين: طلحة والزبير وأم المؤمنين ومن تابعهم بأنهم قد اجتمعوا واتفقت كلمتهم على كراهة إمارته وخلافته وقال إنه سيصبر عليهم ولا يبدأهم بحرب أو يستعمل معهم السيف ما لم يخف على وحدة المسلمين وجماعتهم وأنهم إن أتموا الأمر على هذا الرأي الضعيف قطعوا نظام المسلمين وفرقوا جماعتهم. . . إنه عليه السلام سيتركهم وشأنهم ما لم يهددوا وحدة المسلمين ولكنه يقرأ في إعلانهم الحرب عليه وخروجهم لقتاله وبهذا الرأي الضعيف، يقرأ تفكيك الوحدة بل تفتيتها وعندها لا بد من المواجهة وقد كانت في الجمل. . .

(وإنما طلبوا هذه الدنيا حسداً لمن أفاءها الله عليه فأرادوا رد الأمور على ادبارها ولكم علينا العمل بكتاب الله تعالى وسيرة رسول الله ﷺ والقيام بحقه والنعش لسنته) بيّن

عليه السلام سبب خروج الناكثين وإنهم لم يخرجوا عليه لأمر شرعي ديني، فلم يخالف الله ولا رسوله ولم يترك واجباً أو يرتكب محرماً، ولم يظلم أحداً أو يأكل مال أحد، إنهم لم ينقموا منه أمراً يبيح لهم الخروج وإنما كان خروجهم عليه وحربهم له طلباً للدنيا وحسداً منهم له حيث أعاد الله عليه الخلافة بعد أن سلبها منه الظالمون فأرادوا الآن أن ترجع الأمور إليهم ويخرجوها عن أهلها ويعيدوها إلى غير مستحقيها.. فكما سلبوها أولاً أرادوا سلبها الآن ورد الأمور كما كانت ظلماً وجوراً...

وأخيراً أخبر الناس بمالهم عليه من الحق، إن لهم عليه العمل بكتاب الله كما أمر فيحلل حلاله ويحرم حرامه ويقيم فرائضه ويجري أحكامه وينفذ حدوده.

وكذلك لكم علينا العمل بسيرة رسول الله فكل فعل أو قول أو تقرير ننفذه ونؤديه كما أحب الله ورسوله ونقوم بحق رسول الله بأحياء سنته والسير على طريقته ومعنى النعش لسنته أي نجعلها متداولة بين الناس يعرفها كل مسلم ويطبقها ويقتدي بها...

١٧٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

في وجوب اتباع الحق عند قيام الحجة

كلّم به بعض العرب وقد أرسله قوم من أهل البصرة لما قرب عليه السلام منها ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم، فبين له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنه على الحق، ثم قال له: بايع، فقال: إني رسول قوم، ولا أحدث حدثاً حتى أرجع إليهم. فقال عليه السلام:

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً[١] تَبْتَغِي[٢] لَهُمْ مَسَاقِطَ[٣] ٱلْغَيْثِ[٤] فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرتَهُمْ عَنِ الْكَلإِ[٥] وَٱلْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلى ٱلْمَعَاطِشِ[٦] وٱلْمَجَادِبِ[٧]، مَا كُنْتَ صَانِعاً؟ قَالَ: كَنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلى ٱلْكَلإِ وَالْمَاءِ. فَقَالَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: فَٱمْدُدْ[٨] إِذاً يَدَكَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَٱللهِ مَا ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلامُ.

وَالرّجلُ يُعْرَفُ بِكُلَيْبِ الجَرْمِيّ.

اللغة

١ ـ الرائد : رسول القوم ينظر لهم مكان الكلأ.

٢ ـ تبتغي : تطلب.

٣ ـ المساقط : مكان السقوط والهبوط.

٤ ـ الغيث : المطر.

٥ ـ الكلأ : العشب وقيل هو النبت إذا طال وأمكن أن يرعى.

٦ ـ المعاطش : مواضع العطش.

٧ ـ المجادب : مواضع المحل القحط.

٨ ـ امدد : ابسط.

الشرح

«أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائداً تبتغي لهم مساقط الغيث فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكلأ والماء فخالفوا إلى المعاطش والمجادب ما كنت صانعاً؟ .

قال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلإ والماء.

فقال عليه السلام: فأمدد إذا يدك.

فقال الرجل: فوالله ما استطعت أن امتنع عند قيام الحجة عليّ فبابعته عليه السلام.

والرجل يعرف بكليب الجرمي».

هذا الكلام منه عليه السلام يتضمن بياناً بوجوب اتباع الحق متى ظهرت معالمه ولا يجوز التسويف فيه أو التأخير إلى وقت آخر أو الرجوع إلى آخرين ولذا يقول الشريف الرضى في أسباب هذا الكلام إنه عليه السلام كلّم به بعض العرب وقد ارسله قوم من أهل البصره لما قرب عليه السلام منها ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم فبين له من أمره معهم ما علم به أنه على الحق.

ثم قال له: بايع.

فقال: إني رسول قوم ولا أحدث حدثاً حتى ارجع إليهم فقال عليه السلام: لو كنت سفيراً من قبل هؤلاء القوم الذين بعثوك لتبحث لهم عن مواطن العشب والماء وبعد تجوالك ودورانك رجعت إليهم وأخبرتهم بوجود مطلبهم في أماكن معينة ولكنهم عصوك وخالفوك ولم يقبلوا منك بل ذهبوا إلى الأماكن الجرداء القاحلة التي لا عشب فيها ولا ماء ماذا كنت تفعل معهم؟ اتتركهم وتذهب حيث رأيت الكلأ والماء أو تذهب معهم مع علمك بخطئهم؟ . . .

فقال الرجل الذي يطلب الحق ويقول الصدق: نعم كنت أتركهم وأذهب إلى حيث الكلأ والماء.

فقال عليه السلام: إذاً لزمتك الحجة وقد رأيت الحق فأمدد يدك إليّ وبايع.

فقال الرجل وهو يقسم بالله: إنه لم يستطع أن يمتنع عن طلب الإمام فبايعه بعد قيام الحجة عليه. . .

وهذا درس لكل من رأى الحق وعرفه أن يستجيب له ويقبل به فهذا الرجل: كليب الجرمي حجة على كل إنسان في زمانه وفي زماننا وفيما يأتي من الأزمنة، حجة على كل من فتح عينه فأبصر النور فارتد بغمضهما بغضاً بالنور. . .

١٧١ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما عزم على لقاء القوم بصفين

الدعاء

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ(١) ٱلْمَرْفُوعِ، وَٱلْجَوِّ(٢) ٱلْمَكْفُوفِ(٣)، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً(٤) لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرًى لِلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفاً(٥) لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ، وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً(٦) مِنْ مَلاَئِكَتِكَ، لاَ يَسْأَمُونَ(٧) مِنْ عِبَادَتِكَ، وَرَبَّ هذِهِ الأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً(٨) لِلأَنَامِ، وَمَدْرَجاً(٩) لِلْهَوَامِّ(١٠) وَالأَنْعَامِ(١١)، وَمَا لاَ يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي(١٢) الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلأَرْضِ أَوْتَاداً(١٣)، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً(١٤)، إِنْ أَظْهَرْتَنَا(١٥) عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ(١٦) وَسَدِّدْنَا(١٧) لِلْحَقِّ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَٱعْصِمْنَا(١٨) مِنَ ٱلْفِتْنَةِ(١٩).

الدعوة للقتال

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ(٢٠)، وَٱلْغَائِرُ(٢١) عِنْدَ نُزُولِ ٱلْحَقَائِقِ(٢٢) مِنْ أَهْلِ ٱلْحِفَاظِ(٢٣)! ٱلْعَارُ(٢٤) وَرَاءَكُمْ وَٱلْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!.

اللغة

١ ـ **السقف المرفوع** : السماء.

٢ ـ **الجو** : الفضاء.

٣ ـ **المكفوف** : من كفه إذا جمعه وضم بعضه إلى بعض.

٤ ـ مغيضاً : من غاض الماء إذا نقص والغيضة في الأصل الأجمة يجتمع فيها الماء.

٥ ـ مختلفاً : إلى المكان تردد أي جاء المرة بعد الأخرى.

٦ ـ السبط : بالكسر القبيلة.

٧ ـ لا يسأمون : لا يملّون.

٨ ـ القرار : الاستقرار والسكون.

٩ ـ مدرجاً : موضع درجهم أي سيرهم وحركتهم.

١٠ ـ الهوام : الحشرات والأفاعي.

١١ ـ الانعام : الإبل وتطلق على البقر والغنم.

١٢ ـ الرواسي : الجبال الثوابت الرواسخ.

١٣ ـ الأوتاد : جمع وتد مارزّ في الحائط أو الأرض من خشب ونحوه وأوتاد الأرض الجبال وأوتاد البلاد رؤساؤها.

١٤ ـ اعتماداً : معتمداً أو ملجأ يعتصم به.

١٥ ـ اظهرتنا عليهم : جعلتنا نغلبهم أظهره الله على عدوه جعله يغلبه.

١٦ ـ البغي : الظلم.

١٧ ـ سددنا : أجعلنا على صواب من السداد وهو الصواب والاستقامة.

١٨ ـ اعصمنا : امنعنا واكفنا.

١٩ ـ الفتنة : الابتلاء والاختبار وما يذهب بالمال أو العقل وفتن في دينه ضل وكفر.

٢٠ ـ الذمار : ما يحامي عنه من الأهل والمال والولد.

٢١ ـ الغائر : من غار على نسائه إذا كان له نخوة عليهم بحيث يحفظهن مما لا يليق بالشرف.

٢٢ ـ الحقائق : الأمور الشديدة الصعبة.

٢٣ ـ الحفاظ : الوفاء ورعاية الذمم.

٢٤ ـ العار : العيب، كل ما يعير به الإنسان من قول أو فعل ويكون في الأمور الدنيئة.

الشرح

(اللهم رب السقف المرفوع والجو المكفوف الذي جعلته مغيضاً لليل والنهار ومجرى للشمس والقمر ومختلفاً للنجوم السيارة وجعلت سكانه سبطاً من ملائكتك لا

يسأمون من عبادتك ورب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام ومدرجاً للهوام والأنعام وما لا يحصى مما يرى ومما لا يرى ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً) هذا الكلام منه عليه السلام يتضمن الدعاء إلى الله والانقطاع إليه وما أروع تلك الكلمات العلوية التي ينساب منها الخضوع لله والرجوع إليه والتي تحتوي كل انقياد وعبودية له وهذا الدعاء عينه يتوجه به إلى الله.. يتوجه إليه بما خلق فيدعوه بقدرته على تلك الأمور وهي قدرة لا يحدّها شيء.. يدعوه ليعلمنا أنه سبحانه هو الملجأ في الضراء كما هو ملجأ في السراء وفي النعمة كما هو في البلاء...

ابتدأ بذكر السماء وقدرته العظمى التي خلقها بها اللهم يا رب السقف المرفوع وهي السماء والجو المكفوف اعادة للمعنى الأول أو أنه الفضاء الذي يقع فيه العالم المنظور من أرض وقمر وكواكب وكونه مكفوفاً أي مضموم الجوانب فلا تتساقط كواكبه وما فيه لقدرة الله التي جعلها في نظامه العام من جاذبية تمسك ذلك وتمنعه من السقوط...

وقد جعلته يا رب مغيضاً لليل والنهار أي منقصاً لكل منهما عند تزايد في الآخر فحين يزيد النهار يقصر الليل وعندما يزيد الليل يقصر النهار لأن حصول الليل والنهار إنما يكون بحركة الأرض فما قابل الشمس منها يكون نهاراً وما غاب عنها سمي ليلاً.

وكذلك جعل الله هذا الفضاء الجو المكفوف محلاً لجريان الشمس والقمر ومحلاً لتردد النجوم السيارة المتحركة من مكان إلى آخر...

ثم ذكر عظمة الله وقدرته وأنه سبحانه خلق في ذلك الفضاء جماعة من الملائكة الذين لا يملون من عبادته بشتى أصنافها ومختلف اشكالها وقد وصفهم الإمام في بعض خطبه بأوصاف عظيمة إن كان من جهة اشكالهم أم من جهة أعمالهم...

وكذلك توَّجه إلى الله بربوبيته التي خلق بها الأرض وجعلها مستقراً ومقاماً للناس ومحلاً يتحرك فيه الحشرات بأنواعها والأنعام من بقر وغنم وما لا يحصى من خلقك الصامت والناطق وما يرى بالعيون ويقع تحت النظر وما لا تطاله العيون لصغره ولطافته... دعاه لكل هذه الأمور وأيضاً دعاه لكونه رب الجبال الثابته المستقرة التي جعلها أوتاداً للأرض يثبتها فلا تميد ولا تحيد وكذلك جعلها معتمداً للخلق من حيث المعادن فيها والمنافع من ماء ومحل للسكن وغير ذلك...

(إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي وسددنا للحق وإن اظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة) بعد أن توجه إلى الله بكل ما مضى وسأله بما خلق وبقدرته

على كل ذلك رتب على ذلك الأمر أمراً آخر وهو أنه إن نصره على عدوه معاوية ومن معه أن يجنبه الظلم والعدوان ويجعله في طريق الحق والصواب فلا ينتقم لشخصه كما يفعل المحاربون وأبناء الدنيا وهذا دعاء من نظر إلى الله في كل أموره وجعله هدفه الذي يتحرك نحوه. . .

كما أنه سأل الله إنْ نصر عدوه عليه أن يرزقه الشهادة والموت في سبيل الله فإنها إحدى الحسنيين وأنْ يمنعه من الفتنة من الردة أو المعصية لله باعتقاد ما ليس بحق كأن يسخط على فعل الله ويتعتب للهزيمة التي حلت به. . .

(أين المانع للذمار والغائر عند نزول الحقائق من أهل الحفاظ، العار وراءكم والجنة أمامكم) هذا حث لأصحابه وتحريض لهم على القتال، يريد أن يبعث فيهم النخوة فاستفهم ليدفعهم. . أين ذلك الرجل الذي يمنع ما عزّ عليه وما يحق له أن يدافع عنه؟ . . أين صاحب الغيرة والمحافظة والحمية الذي لا يرضى أن يضام ويصمد أمام الشدائد والصعوبات. . .

ثم أشار إليهم أن العار في الفرار وأن الجنة في الجهاد هناك في ساحات القتال وأي مسلم يرتضي أن يكون سمة عار ومذلة لأبنائه وأحفاده ومن يأتي بعده. . .

١٧٢ ـ ومن خطبة له عليه السلام

حمد الله

ٱلْحَمْدُ للهِ الَّذي لاَ تُوَارِي[١] عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلاَ أَرْضٌ أَرْضاً.

يوم الشورى

منها: وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هذَا الأَمْرِ يَا بْنَ أَبي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ[٢]، فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَٱللهِ لأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ[٣] بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ. فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ[٤] بِٱلْحُجَّةِ[٥] فِي الْمَلإِ[٦] ٱلْحَاضِرِينَ هَبَّ[٧] كَأَنَّهُ بُهِتَ[٨] لاَ يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!.

الاستنصار على قريش

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ[٩] عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا[١٠] عَلَى مُنَازَعَتِي[١١] أَمْراً هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلاَ إِنَّ فِي ٱلْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

ومنها في ذكر أصحاب الجمل

فَخَرجُوا يَجُرُّونَ[١٢] حُرْمَةَ[١٣] رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَمَا تُجَرُّ الأَمَةُ[١٤] عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ[١٥] رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِٱلْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ

مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ[١٦] بَيْتِ مَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً[١٧]، وطَائِفَةً غَدْراً. فَوَٱللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ[١٨] لِقَتْلِهِ، بِلاَ جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ[١٩] لِي قَتْلُ ذلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلاَ بِيَدٍ. دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ مِثْلَ ٱلْعِدَّةِ الَّتي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!.

اللغة

١ ـ لا توارى : لا تحجب.

٢ ـ الحريص : من حرص على الشيء إذا اشتد شرهه إليه وعظم تمسكه به.

٣ ـ حال : بينه وبين الشيء، حجزه عنه واعترضه.

٤ ـ قرعته : بالحق رميته به.

٥ ـ الحجة : البرهان.

٦ ـ الملأ : اشراف الناس ووجوههم وأهل الرأي فيهم.

٧ ـ هبّ : من النوم إذا استيقظ وتنبه منه وهبت الريح إذا ثارت وهاجت.

٨ ـ بهت : دهش، سكت متحيراً.

٩ ـ استعديك : استعين بك واستنصرك.

١٠ ـ اجمعوا : اتفقوا.

١١ ـ المنازعة : الخصومة.

١٢ ـ يجرّون : يسحبون وجرّه جذبه.

١٣ ـ حرمة : الرجل زوجته.

١٤ ـ الأمة : العبدة.

١٥ ـ حبيس : رسول الله أي زوجته وسميت بذلك لأنها حبست عن الزواج بغير النبي.

١٦ ـ خزّان : جمع خازن.

١٧ ـ القتل صبراً : القتل بعد الأسر، وقيل أن تحبس الشخص ثم ترميه حتى يموت.

١٨ ـ معتمدين : لقتله، قاصدين لذلك.

١٩ ـ لحلّ : لجاز والحلال ما يجوز فعله.

٢٠ ـ العدّة : بالكسر العدد والجماعة وبالضم الاستعداد.

الشرح

(الحمد لله الذي لا تواري عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً) حمد الله باعتبار علمه بكل الأمور وإنه لا يخفى عليه شيء ولا يحجب عنه شيء فلا سماء قريبة منه تمنعه عن رؤية البعيدة ولا أرض قريبة تمنع البعيدة فإن البشر لقصورهم وحدود رؤيتهم ما كان قريباً منهم يمنع البعيد بينما الله يتساوى عنده البعيد والقريب ولا يحجب شيء عنه شيئاً. . .

(وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يا ابن أبي طالب لحريص فقلت: بل أنتم والله لأحرص وأبعد وأنا أخص وأقرب وإنما طلبت حقاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي دونه فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هبَّ كأنه بهت لا يدري ما يجيبني به) هذا حكاية عن بعض ما جرى معه يوم السقيفة فقد رأى أبو عبيدة بن الجراح تمسك الإمام بحقه في الخلافة ومطالبته بها فقال: إنك على أمر الخلافة والطلب بها لحريص يا ابن أبي طالب فقد رماه بالحرص عليها وشدة طلبه بها والإمام لم ينكر ذلك الطلب بها والحرص عليها ولكن قال لهم: أنتم أحرص عليها مني مع بعدكم عن النبي وعن المواصفات اللازمة لهذا الأمر بينما أنا أخص برسول الله وأقرب منكم نسباً وصفاتاً. . .

ثم أشار إلى وجه الحرص عليها والطلب بها بأنها حق له وصاحب الحق لا يلام على طلب حقه والحرص عليه وبذل ما في وسعه من أجل تحصيله والوصول إليه. . .

وبين أن هذا الحق يقفون دونه ويمنعونه من الوصول إليه وهذه شكاية من سوء تصرف القوم وبيان لكيفية منع الحق عن أهله وقد بين الإمام هذه الحجة لأبي عبيدة بن الجراح أمام الناس فانتبه إلى خطئه وتحيّر في الجواب فلم يدر بماذا يجيب وهكذا صاحب الحق سلطان وحجته نافذة ورأيه صائب لا يصاب بهزيمة ولا يبتلى بنكسة. . .

(اللهم إني استعديك على قريش ومن أعانهم فإنهم قطعوا رحمي وصغروا عظيم منزلتي وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي ثم قالوا: ألا إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تتركه) عند الأزمات وفي مواجهة الصدمات يتوجه الإنسان إلى الله يستنصره ويستنجد به ويطلب منه المدد. . في الأوقات الصعبة التي لم يقدر الإنسان فيها على ادراك ما يريد ولا يقدر على شفاء قلبه ممن أخذ حقه. . في تلك الظروف يتوجه الإنسان إلى الله. . والإمام يقف أمام قريش وأنصارها فيشكو فعلها إلى الله. . . يرفع ظلامته إليه ويطلب منه أن ينصره عليها «اللهم إني استعديك على قريش ومن أعانهم» شكاية مرة في أمر عظيم يطلب الإمام من الله أن ينصره على قريش وأعوانها.

ثم يبين سبب ذلك في ضمن أمور:

١ ـ فإنهم قطعوا رحمي: حيث قطعوا الصلة بيني وبين رسول الله ولم يحفظوا هذه القرابة أو يرعوها وتعاملوا معي كغريب عنه أو كواحد من عرض الناس البعيدين عنه.

٢ ـ صغروا عظيم منزلتي: أنزلوني منزلة غيري ممن ليس له قدم سابقة في الإسلام ولا جهاد ولا نضال... وتركوا أقوال رسول الله التي ترفع منزلتي كما في قوله ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» وقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها..» أو قوله: «اقضاكم علي..» أو قوله: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه..» إلى غيرها من الأحاديث التي تشيد به وبمنزلته فقد انزلوه عنها وسووا به غيره من عامة الناس...

٣ ـ أجمعوا على منازعتي أمراً هو لي: وهذا عيب من عيوب قريش إنها اجتمعت كلمتها واتفق رأيها على انتزاع الخلافة من صاحبها وأخذها منه بالقهر والغلبة ومن يدرس السقيفة بشيء من الحياد والموضوعية يدرك كيف تم رأي قريش واتفقت على منازعة الإمام وسلبه هذا الحق دون مبرر مشروع أو حجة مقبولة.

٤ ـ ثم قالوا: ألا أن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تتركه: وهذا أصعب على النفس من غيره فلو أخذوا حقي وسكتوا لهانت القضية وكان لها ما يعزيها ويسليها ولكن قالوا ليس لك الحق في الخلافة ويجب أن تترك المنازعة فيها وتسلمها لغيرك وهذه هي المصيبة وفيها يكمن الخطر.. فهم يبررون سلب الحق ويشرّعون لأنفسهم حق الأخذ والترك...

(فخرجوا يجرون حرمة رسول الله ﷺ ـ كما تجر الأمة عنه شرائها متوجهين بها إلى البصرة فحبسا نساءهما في بيوتهما وأبرزا حبيس رسول الله ﷺ لهما ولغيرهما في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره فقدموا على عاملي بها وخزان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها فقتلوا طائفة صبراً وطائفة غدراً) وهذه حكاية طلحة والزبير وكيفية خروجهما بزوجة رسول الله عائشة إلى البصرة... ومن أمعن النظر فيما قاله الإمام هنا ودقق البحث رأى عجباً... زوجة رسول الله يخرجها الرجال وينتقلون بها من بلد إلى بلد يستثيرون الناس ويدفعونهم للخروج معهم لقتال الخليفة الشرعي... من مكة إلى البصرة مسافة كبيرة.. فيها معصية لله ورسوله وليس فيها لأحد رضا... قال الله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ فهتكت ستر رسول الله وخرجت تقطع البراري والقفار في جيش خليط هجين لا يعرف الله ولا يعرف حق رسوله

تريد أن تحارب علياً وصي رسول الله وصهره على ابنته وأحب الخلق إليه. . . .

أخرجها طلحة والزبير كي يندفع الناس وراءها حمية وغيرة وقد كان ما كان حتى قال لها بعضهم والله إن قتل عثمان أهون علينا من خروجك من بيتك. . .

بيّن الإمام كيف أخرجها طلحة والزبير وكيف يجرّانها كما تجر الأمة استخفافاً بها وبحقها وتضييعاً لحرمتها، ولو انصفاها لأخرج كل منهما زوجته معها تواسيها وتتحمل معها أعباء المسير ومشقة السفر والجهاد ولكنهما صانا حلائلهما وأبرزا حليلة رسول الله ولعمري تلك قسمة ضيزى. . .

ثم بين أن كل من في جيش الناكثين قد أعطى علياً الولاء وبايعه بيعة شرعية طائعاً غير مكره وبعد هذا خرجوا جميعهم حتى قدموا البصرة فقتلوا بعض المسلمين صبراً، حيث حبسوهم ثم ضربوا أعناقهم وقتلوا بعضاً آخر غدراً وغيلة فلم يرعوا حرمة المسلم ولم يحفظوا دماء الأمة ولم يتورعوا عن سفك الدم الحرام وقد كانت أم المؤمنين تصدر الأوامر بالقتل قال ابن أبي الحديد:

«فلما استوثق لطلحة والزبير أمرهما. ـ في البصرة ـ خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ومعهما أصحابهما قد ألبسوهم الدروع وظاهروا فوقها بالثياب فانتهوا إلى المسجد وقت صلاة الفجر وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه ـ وهو عامل علي على البصرة ـ واقيمت الصلاة فتقدم عثمان ليصلي بهم فأخره أصحاب طلحة والزبير وقدموا الزبير، فجاءت السبابجة وهم الشرط حرس بيت المال فأخرجوا الزبير[1] وقدموا عثمان، فغلبهم أصحاب الزبير فقدموا الزبير وأخروا عثمان، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلع وصاح بهم أهل المسجد: ألا تتقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس! فغلب الزبير فصلى بالناس فلما انصرف من صلاته صاح بأصحابه المستسلمين: أن خذوا عثمان بن حنيف فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفهما فلما اسر ضُرِب ضرب الموت ونتف حاجباه وأشفار عينيه وكل شعره في رأسه ووجهه وأخذوا السبابجة وهم سبعون رجلاً فانطلقوا بهم وبعثمان بن حنيف إلى عائشة فقالت لأبان بن عثمان: أخرج إليه فاضرب عنقه فإن الأنصار قد قتلت أباك وأعانت على قتله فنادى عثمان: يا عائشة ويا طلحة ويا زبير: إن أخي سهل بن حنيف خليفة علي بن أبي طالب على المدينة وأقسم بالله إن قتلتوني ليضعن السيف في بني أبيكم وأهليكم

(١) ابن أبي الحديد ج ٩ ص ٣٢٠.

ورهطكم فلا يبقي أحداً منكم فكفوا عنه وخافوا أن يقع سهل بن حنيف بعيالاتهم وأهلهم في المدينة فتركوه.

وأرسلت عائشة إلى الزبير أن أقتل السبابجة فإنه قد بلغني الذي صنعوا بك.

قال: فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم ولي ذلك منهم عبد الله ابنه وهم سبعون رجلاً وبقيت منهم طائفة مستمسكين ببيت المال: قالوا: لا ندفعه إليكم حتى يقدم أمير المؤمنين، فسار إليهم الزبير في جيش ليلاً فأوقع بهم وأخذ منهم خمسين اسيراً فقتلهم صبراً...

هكذا وردت الرواية وقد كان كل ذلك بعد أن قدم الناكثون البصرة وكتبوا بينهم وبين عثمان بن حنيف عامل الإمام أن لا يدخلوا في حرب حتى يأتي الإمام أو يأتي أمره منه وهكذا فعلوا غدراً وغيلة بابن حنيف وبالمسلمين وهذا ما أشار إليه الإمام في حديثه هنا من أنهم قتلوا طائفة من أنصاره صبراً وطائفة غدراً...

(فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلاً واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جره لحل لي قتل ذلك الجيش كله إذ حضروه فلم ينكروا ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد. دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم) يقسم الإمام أن الناكثين لو لم يكن لهم جريمة إلا قتلهم أحد المسلمين متعمدين لقتله ظلماً وعدواناً لحل له قتل ذلك الجيش بأجمعه وقد علل ذلك بأنهم قد رأوا المنكر وهو القتل أمامهم ثم لم يردعوا فاعله أو يردوه عن فعله مع قدرتهم على ذلك إما بألسنتهم أو بأيديهم فكيف وقد قتلوا عدداً يوازي عدد الناكثين، قتلوهم ظلماً وعدواناً...

وقد قالوا في بيان وجه الجواز لقتل الجيش كله بالقتيل الواحد.

١ - أنه يجوز قتلهم لاعتقادهم جواز ما حرمه الله فجرى ذلك مجرى اعتقادهم لإباحة الزنا وشرب الخمر أي انكروا ما علم من الدين ضرورة وهو كفر.

٢ - وقالوا: لأنهم يدخلون تحت عنوان المحاربين لله ورسوله وفي عموم قوله تعالى: **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا...﴾**.

٣ - أنه يجوز ذلك لأن تارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا علم من أمره أنه لا يفيده الوعظ والارشاد والضرب وغيره من الوسائل لحمله على أن يقوم بهذا الواجب يُقتل عندها.

ولكن يبدو في النظر أن الخروج على الإمام الشرعي مع ارتكاب القتل يباح للإمام قتل ذلك الجيش الخارج كما هو الحال مع الناكثين، ويمكن أن يدخل ذلك في عموم قوله: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله أن يقتلوا**..﴾ وإن كان الأول أرجح .. ويمكن أن يقال أن الإمام استعمل سلطته التأديبية التي تؤدب غيرهم وتكفهم عن الخروج على الخليفة وخصوصاً إذا كان يرى معاوية يتربص الفرص ويتحينها للانقضاض على الخليفة وطعنه بالعصيان والتمرد وتقسيمه أوصال الدولة وتوزيع اشلائها وزرع الفتن فيها وإن كان هذا لا ينسجم مع العلة التي ذكرها الإمام...

١٧٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في رسول الله، صلى الله عليه وسلم،
ومن هو جدير بأن يكون للخلافة وفي هوان الدنيا

رسول الله

أَمِينُ وَحْيِهِ، وَخَاتَمُ[١] رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ[٢].

الجدير بالخلافة

أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهذا ٱلأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ. فَإِنْ شَغَبَ[٣] شَاغِبٌ ٱسْتُعْتِبَ[٤]، فَإِنْ أَبَى[٥] قُوتِلَ. وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ ٱلإِمَامَةُ لاَ تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذلِكَ سَبِيلٌ[٦]، وَلكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ[٧] عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ[٨] أَنْ يَرْجِعَ، وَلاَ لِلغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. أَلاَ وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ٱدَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى ٱللهِ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَى[٩] ٱلْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرُ عَوَاقِبِ[١٠] ٱلأُمُورِ عِنْدَ ٱللهِ. وَقَدْ فُتِحَ بَابُ ٱلْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلْقِبْلَةِ[١١]، وَلاَ يَحْمِلُ هذَا ٱلْعَلَمَ[١٢] إلاَّ أَهْلُ ٱلْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَٱلْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ ٱلْحَقِّ، فَٱمْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ، وَلاَ تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا[١٣]، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً[١٤].

هوان الدنيا

أَلاَ وَإِنَّ هذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلاَ مَنْزِلِكُمُ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلاَ الَّذِي دُعِيتُمْ إلَيْهِ. أَلاَ وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلاَ تَبْقَونَ عَلَيْهَا، وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ(١٥) مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا، وَسَابِقُوا فيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَٱنْصَرِفُوا(١٦) بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا، وَلاَ يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ(١٧) ٱلأَمَةِ عَلَى مَا زُوِيَ(١٨) عَنْهِ مِنْهَا، وَٱسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ ٱللهِ وَٱلْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ. . ألاَ وَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلاَ وَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ. أَخَذَ ٱللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى ٱلْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ ٱلصَّبْرَ!.

اللغة

١ ـ خاتم : بكسر التاء اسم فاعل بمعنى الآخر وبالفتح الزينة مأخوذ من الخاتم الذي هو زينة.

٢ ـ النقمة : العقوبة.

٣ ـ الشغب : كثرة الجلبة واللغط المؤدي إلى الشر.

٤ ـ استعتب : طلب منه الرضى بالحق.

٥ ـ أبى : رفض وامتنع.

٦ ـ سبيل : طريق.

٧ ـ يحكمون : يقضون وينفذون.

٨ ـ الشاهد : الحاضر.

٩ ـ تواصى : العباد به أوصى بعضهم بعضاً.

١٠ ـ العواقب : أواخر الشيء، الجزاء بالخير.

١١ ـ القبلة : الجهة وقبلة المصلي للجهة التي يصلي نحوها وأهل القبلة هم المسلمون.

١٢ ـ العلم : الراية.

١٣ ـ تتبينوا : تتوضح لكم الأمور وتظهر.

١٤ ـ غيراً : بكسر ففتح اسم للتغيير أو التغيّر.

١٥ ـ غره : خدعه وأطمعه بالباطل.

١٦ ـ انصرفوا : تحولوا.

١٧ ـ الخنين : ضرب من البكاء مع خنة، أو البكاء من الأنف.

١٨ ـ زوي : قبض.

الشرح

(أمين وحيه وخاتم رسله وبشير رحمته ونذير نقمته) ابتدأ عليه السلام بذكر ممادح الرسول فذكر أنه أمين على ما أوحى الله فأدى هذه الأمانة كما هي وبلغها إلى الناس كما يجب وهو أيضاً آخر رسل الله فلا نبي بعد محمد ومن أدعى ذلك فهو كاذب ومرتد، ويجب قتله قال تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾.

بشر بالرحمة وأنذر بالعقاب فلمن أطاع الجنة ولمن عصى النار والإنسان له حرية الاختيار قال تعالى: ﴿**إنا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيراً**..﴾.

(أيها الناس: إن أحق الناس بهذ الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه فإن شغب شاغب استعتب فإن أبَى قوتل) كلام الإمام جواب لسؤال مفاده من هو أحق بالخلافة من غيره؟.

فأجابه الإمام: يشترط فيمن يتولى الخلافة ويكون أولى من جميع الناس أن يكون:

١ ـ أقوى الناس في تدبير شؤونهم وترتيب أمورهم والقيام بمصالحهم ودفع المفاسد عنهم والمحافظة على دينهم ودنياهم وبعبارة موجزة أن يكون رجل السياسة القادر على نظم الأمر وحملهم على ما ينفعهم.

٢ ـ أعلم الأمة بأمر الله وهذا يستدعي أن يكون أعلمها في كل الأمور وأشدهم استيعاباً ليكون قدوة يرشد الضال ويهدي التائه ويرد الحيران ويأخذ بيد المتردد ويرشد الناس نحو الوجه الصحيح...

أن يكون أعلم الأمة بالحلال والحرام وفي صلاح المجتمع وسعادة الناس وقد

اتفقت الأحاديث على أن الإمام هو أعلم الأمة فقد قال النبي ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها. . » وقال صلوات الله عليه وآله: «علي اقضاكم. . » وقال صلوت الله عليه «علي مع الحق والحق مع علي اللهم أدر الحق معه حيث دار. . . ».

ثم أشار عليه السلام إنه إذا انعقدت البيعة لمثل هذا الرجل الذي اجتمعت فيه هذه الصفات لا يجوز لأحد أن يخرج عليه وينزع يده من الجماعة ويسيء إلى وحدة الصف. . . لا يجوز له أن يعكر صفو الأمن ويحدث الفوضى والاضطراب فإن حدث من ذلك شيء يراجع بالحسنى لعله يفيء إلى الحق فإن رفض الرجوع إلى الجماعة ولم يقبل أن يعود إلى الصف قوتل بشتى السبل حتى يعود فإن الإمام من أهم أدواره أن يكون بالمرصاد لكل من أراد أن يقسم البلاد والعباد ويخلق التعددية في الأوطان والجغرافيا وقد كانت بلاد الإسلام كلها بلدة واحدة يتنقل فيها المسلم بدون جوازات سفر ولا تأشيرات دخول وليس هناك أرض يمنع على المسلم دخولها ولا بلاد يمنع السكن فيها وما يحدث الآن ويجري في بلاد المسلمين من تقسيم جغرافي وحدود مصطنعة ومنع من الدخول خلاف الرأي الإسلامي الذي يوحد الناس كما يوحد الأرض. . يوحد الناس عقيدة وفكراً وسلوكاً ويوحدهم أرضاً ووطناً. . .

(ولعمري لئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى يحضرها عامة الناس فما إلى ذلك سبيل ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها ثم ليس للشاهد أن يرجع ولا للغائب أن يختار ألا وأني أقاتل رجلين: رجلاً ادعى ما ليس له وآخر منع الذي عليه) هذا رد من الإمام على معاوية وجماعته من أهل الشام الذين قالوا: إن علياً قد بايعه الناس ولم نكن فليس له بيعة في أعناقنا فبين عليه السلام ـ حسب مدرستهم ـ أن الإجماع على شخص للخلافة لا يعتبر فيه دخول جميع الناس حتى العوام ومن لا يفقهون من الأمور شيئاً فإن ذلك متعذر وليس له من سبيل لتوزع المسلمين في أطراف الأرض وإنما المعتبر اتفاق أهل الحل والعقد فإذا اتفقوا على شخص تعيّن وكان هو ولي أمر المسلمين ويكون اجماعهم هذا نافذ المفعول في حقهم وفي حق جميع الناس حتى من غاب عن الحضور والاجتماع وعندها ليس لمن حضر منهم أن يرجع عما اتفقوا عليه ويُبطل الاجتماع بالفرقة كما أنه ليس للغائب البعيد في أطراف الأرض أن يختار غير هذا المجمع عليه والمتفق على امامته.

فاجماع أهل الحل والعقد يكون حاكماً عليهم وعلى غيرهم وليس لأحد أبطاله أو الاختيار لغيره بعد وقوعه. . وعلى هذا ليس لطلحة والزبير ومن تابعهما أن يرجعا عن بيعة الإمام بعد أن اعطياها له كما أنه ليس لمعاوية أن يردها لأنها انعقدت باتفاق واجماع

من ينفذ حكمه عليه وعلى غيره ممن كان بعيداً في البلاد. . .

وهذا من الإمام مجاراة لسيرة الناس التي درجوا عليها عهد الخلفاء الذين تقدموه وإلا فإن النص وارد في حقه مثبت لإمامته ولم يحتج به خوفاً من رده كما ردوه يوم السقيفة.

ثم بين عليه السلام أنه يقاتل رجلين رجل إدعى ما ليس له كما حدث مع معاوية حيث إدعى أنه ولي دم عثمان وكذلك يقاتل من منع الحق الواجب عليه كما وقع لأصحاب الجمل الذين رفضوا ما وجب عليهم بالبيعة له من الطاعة والالتزام بالجماعة فكلا الفريقين يستحق القتال فحسب. . .

(اوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنها خير ما تواصى العباد به وخير عواقب الأمور عند الله وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة ولا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والصبر والعلم بمواضع الحق فامضوا لما تؤمرون به وقفوا عندما تنهون عنه ولا تعجلوا في أمر حتى تتبينوا فإن لنا مع كل أمرٍ تنكرونه غيراً) أوصاهم بتقوى الله فإنها خير ما وصّى بها أحد أحداً وفيه تعليم لنا أن يوصي كل منا الآخر بتقوى الله وأشار إلى أنها خير الوصايا لأنها تأتي على كل وصية لجمعها لجميع الوصايا فإنها تجمع الوصية بالصلاة والصيام وكل الواجبات وكذلك الوصية بكل منهي على الاطلاق فإن كل ذلك يدخل تحت الوصية بالتقوى. . .

وأشار أيضاً إلى أنها خير عواقب الأمور أي عاقبتها خير عاقبة. . .

ثم أشار إلى حرب البغاة وإن هذا الباب لم يكن مفتوحاً زمن الخلفاء ولم تقع حرب بين فئتين من أهل الملة الواحدة ولكن الآن قد فتحه الناكثون طلحة والزبير وأم المؤمنين وقد كانت معركة ضل فيها بعض البسطاء وغُرّر بآخرين واستغلت فيها الصحبة والزوجة فراح بعضهم يقاتل تحت هذا الاسم فحسب دون أن يعرف مع من يكون الحق وعلى من يكون ولذا قال الإمام لا يحمل هذا العلم بقتال الناكثين للبيعة والقاسطين من الدين والخارجين عنه إلا أهل البصر بأمور الدين والعارفين بمواضع الحق واليقين وأهل الصبر على الشدائد والعلم بمواضع الحق ومواطنه الذين سمعوا قول النبي للإمام عندما قال له: «يا علي ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين. . » وأشار عليهم أن يكونوا من أهل الطاعة له فإذا أمرهم بالقتال فليمضوا له ويقاتلوا بشجاعة وبسالة وإن نهوا عن أمر فليتوقفوا ولا يعجلوا في أمر يرونه أو رأي ارتأوه حتى يستفهموا من الإمام ويعرفوا وجه الحق فيه وفي كل أمر ينكرونه ولا يرون صحته فله معهم موقف يقنعهم به ويردهم إلى الحق والصواب. . .

(ألا وإنّ هذه الدنيا التي اصبحتم تتمنونها وترغبون فيها وأصبحت تغضبكم وترضيكم ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له ولا الذي دعيتم إليه) كأنه عليه السلام يقرأ بما في ضمير الناس ويفتح قلوبهم ليحكي ما يتحرك فيها ومحوره الدنيا فيقول: ألا وإن هذه الدنيا التي اصبحتم تتمنونها وترغبون فيها فكل واحد يتمنى شيئاً منها فهذا يتمنى الزعامة ويرغب فيها ويعمل لها. . وذاك يتمنى المال ويرغب فيه ويسعى وراء كسبه والثالث يتمنى النساء ويرغب فيها ويسعى في سبيلها وهكذا دواليك.

وكذلك أشار إلى أنها هي الدنيا تغضبكم وترضيكم فإذا أعطوا منها وحصلوا عليها رضوا وفرحوا وإذا منعوا عنها ولم يقدروا عليها غضوا وحزنوا فلم يكن الرضا والغضب لله ومن أجله. . .

يقول: إن هذه الدنيا التي تتأثرون بها هذا التأثر ليست بداركم الحقيقية التي تليق بكم وسوف تستقرون بها ولا منزلكم الذي خلقتم له ولا الذي دعيتم له إنكم خلقتم للآخرة ودعيتم إليها فاعملوا لها. . .

(ألا إنها ليست بباقية لكم ولا تبقون عليها وهي وإن غرتكم منها فقد حذرتكم شرها فدعوا غرورها لتحذيرها وأطماعها لتخويفها) هذه هي نهاية الدنيا التي نتقاتل من أجلها ويضرب بعضنا وجوه بعض من أجل الحصول عليها. . مهما جمعت وملكت فلن يبقى لك ولن تبقى له، سترحل عنه وتتخلى للوارث وهو أيضاً سيتركه لغيره من الحوادث والوارث. . إنها لن تبقى لنا ولن نبقى لها كلمة لها معنى ومدلول. . ما أروعه لو فكر فيه الإنسان وعاش بضع لحظات في مدلوله. . تهون الدنيا وتصغر وتضمحل حتى تذوب. . .

وبينّ أنها إذا غرت هذا الإنسان بما فيها من متع وملذات ومناظر جميلة وبعض حياة ناعمة فقد حذرتنا من شرها وبينت لنا عواقبها ومنتهى الإنسان فيها. . . بيّنت أنها إلى زوال وفناء وإنها لا تبقى ولا تدوم، . . والعاقل من يترك ما يغره فيها إلى ما يحذره منها ويترك ما يطمع فيه منها إلى ما يخاف منها. . فإن دفع المضرة أولى من جلب المنفعة وخصوصاً إذا كانت المنفعة سريعة الانقضاء والزوال. . . .

(وسابقوا فيها إلى الدار التي دعيتم إليها وانصرفوا بقلوبكم عنها ولا يخنن أحدكم خنين الأمة على ما زوي عنه منها واستتموا نعمة الله عليكم بالصبر على طاعة الله والمحافظة على ما استحفظكم من كتابه) اسرعوا إلى اعمال الخير في هذه الدنيا وبادروا إليها وأنتم فيها إلى الدار الآخرة التي دعيتم إليها ويكون مستقركم فيها، وانصرفوا

بقلوبكم عنها أي لتزهد فيها قلوبكم ولا ترغب في شيء منها على وجه الحقيقة وبهذا الزهد القلبي تنقطع علاقة الإنسان بها ويتوجه عندها إلى الآخرة ثم نهاهم أن يبكوا على شيء منها بكاء الذلة والضعة كما تبكي الأمة بصوت مختنق إذا نالها أذى أو ضر فإن هذه الدنيا إذا فات منها شيء يجب أن يبقى الإنسان على تجمله وثقته بالله ويتذكر أنها لن تبقى له ولا يبقى لها أما أن ينزوي على شيء فاته منها ويأخذه التوجع والتألم فهذا ما يتنافى والتوجه إلى الله والثقة به ثم بعد أن نهاهم عن البكاء على الدنيا أمرهم بالصبر على طاعة الله المتمثلة بأوامره ونواهيه فيقوم بالأولى ويترك الثانية وبهذا يتم الله نعمته عليهم في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فالعز والسعادة وأما في الأخرى فالجنة ونعيمها.

وكذلك أمرهم بالمحافظة على ما ورد في الكتاب الكريم من الأمر بالمحافظة عليه فإن ذلك موجب لأتمام النعمة واسباغها وكمالها على الإنسان.

(ألا وإنه لا يضركم تضييع شيء من دنياكم بعد حفظكم قائمة دينكم. ألا وإنه لا ينفعكم بعد تضييع دينكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر) أمر بالمحافظة على الدين وإنه الأساس الذي يجب على الإنسان حفظه والدفاع عنه وعدم التفريط فيه. .إنه محور الحركة وأساس الربح والخسارة، فلو ربح الإنسان الدنيا لا تنفعه إذا خسر دينه كما إنه إذا ربح دينه فهو أعظم الناس وأكثرهم ربحاً وإن خسر الدنيا، وهذا تحديد للربح الحقيقي والخسارة الحقيقية وميزان صادق توزن به الارباح والخسائر وعليه يجب على كل منا أن يفكر فيه وأن يسعى في سبيل اعزاز الدين وتقويته وأن يكون هو الحاكم في الحياة وفي كل مجالاتها وتعدد سبلها. . . يجب أن يفتش الإنسان في كل زاوية من زوايا المجتمع فيحكّم الدين فيها ولا يجوز بحال أن يعزل هذا الدين على الحكم والإدارة وتدبير شؤون الناس. . .

إنها وصية بهذا الدين الذي ضحى من أجله النبي وعترته والأئمة الهداة من أهل بيته وبذلوا انفسهم في سبيله وتركوا الحياة الدنيا وما فيها من أجله، هذا الدين يجب أن يكون هو المحور الذي يسعى الإنسان حوله ويعمل له ويبحث عما يعزه ويقوّيه. . .

وختم خطبته أخيراً بالدعاء أن يأخذ الله بقلوبنا جميعاً إلى الحق فيهدينا إليه لنعمل به وأن يلهمنا جميعاً الصبر فنصبر على طاعته كما نصبر عن معصيته. . .

١٧٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

في معنى طلحة بن عبيد الله

وقد قاله حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة لقتاله

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ(١) بِٱلْحَرْبِ، وَلاَ أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ(٢)، وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ. وَٱللهِ مَا ٱسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً(٣) لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلاَّ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ(٤)، وَلَمْ يَكُنْ فِي ٱلْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ(٥) بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ(٦) لِيَلْتَبِسَ(٧) ٱلأَمْرُ وَيَقَعَ الشَّكُّ. وَوَٱللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاثٍ: لَئِنْ كَانَ ٱبْنُ عَفَّانَ ظَالِماً ـ كَمَا كَانَ يَزْعُمُ ـ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ(٨) قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ(٩) نَاصِرِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُنَهْنِهِينَ(١٠) عَنْهُ، وَٱلْمُعَذِّرِينَ(١١) فِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ ٱلْخَصْلَتَيْنِ(١٢)، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ(١٣) جَانِباً، وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلاَثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ(١٤).

اللغة

١ ـ هدده : خوّفه وتوعده بالعقوبة.

٢ ـ الضرب : الطعن بالسيف أو الرمي بالرمح.

٣ ـ متجرداً : يقال تجرد للأمر أي تفرّغ له وجدّ فيه.

٤ ـ المظنة : موضع الظن.

٥ ـ يغالط : يوقع في الغلط أي يوقع في عدم معرفة الصواب.

٦ ـ أجلب	:	ألّب واجلبوا عليه إذا تجمعوا وتألّبوا.
٧ ـ يلتبس	:	يشتبه.
٨ ـ يوازر	:	ينصر ويعين.
٩ ـ المنابذة	:	المراماة والمدافعة.
١٠ ـ المنهنهين	:	من نهنهه عن الأمر كفه وزجره عنه.
١١ ـ المعذرين	:	فيه المعتذرين عنه فيما نقم منه.
١٢ ـ الخصلة	:	الخلة.
١٣ ـ يركد	:	يسكن ولا يتحرك.
١٤ ـ المعاذير	:	جمع معذار الحجة التي يعتذر بها...

الشرح

(قد كنت وما أهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب وأنا على ما قد وعدني ربي من النصر) هدد طلحة بن عبيد الله الإمام بالحرب وأن يصمد لها ويبرز للطعان فرد عليه بهذا الجواب وأنه منذ وجد لم يهدده أحد بالحرب أو يخوفه بها أو بضرب السيوف وطعن الرماح فإنه ابنها البكر وفارس ساحتها ونظرة واحدة إلى معارك الإسلام تكشف صدق مقالة الإمام...

وأكد ما قاله وإنه مستريح له إنه على يقين مما وعده ربه على لسان رسوله من النصر.. وقد أخبره النبي أنه سيقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين.

(والله ما استعجل متجرداً للطلب بدم عثمان إلا خوفاً من أن يطالب بدمه لأنه مظنته ولم يكن في القوم أحرص عليه منه فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلتبس الأمر ويقع الشك) أقسم عليه السلام ـ وهو الصادق الأمين ـ أن طلحة ما استعجل في الطلب بدم عثمان وما تفرغ له وجد فيه إلا خوفاً من أن يطالب به فدفعاً لذلك ولكي يرفع عن نفسه التهمة سارع إلى ذلك وقد عرف الناس أنه أشد الناس عداوة لعثمان وأنه قد دفع بالثوار إلى تسّور البيوت المجاورة لبيت عثمان حتى قتلوه ثم منع جنازته من دفنها في مقبرة المسلمين حتى قبر في مقبرة اليهود.. أقول: كل ذلك يعرفه الناس فأراد أن يدفع عن نفسه اشتراكه في القتل فبادر إلى شن الحرب على الإمام ولبس على الناس الرؤية حتى يقع الشك في غيره ويدفعه عن نفسه.

(والله ما صنع في أمر عثمان واحده من ثلاث: لئن كان ابن عفان ظالماً ـ كما كان

يزعم ـ لقد كان ينبغي له أن يوازر قاتليه وأن ينابذ ناصريه، ولئن كان مظلوماً لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهنهين عنه والمعذرين فيه ولئن كان في شك من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركد جانباً ويدع الناس معه فما فعل واحده من الثلاث وجاء بأمر لم يعرف بابه ولم تسلم معاذيره) أقسم عليه السلام أن طلحة لم يفعل في أمر عثمان قضيـة واحدة من ثلاث يجب العمل بها، فهو قد عصى في تركه لجميعها ولو فعل واحدة منها لكان معذوراً شرعاً وعرفاً والثلاث هي لا يخلو عثمان إما أن يكون ظالماً أو مظلوماً أو أن طلحة في شك من واحدة منهما فلا يدري وأمام هذه الصور يجب أن يحدد الإنسان موقفه حتى يعذر من قبل الله وفي نظر الناس أما إذا كان عثمان ظالماً وهذا ما يزعمه طلحة وقد كانت أفعاله معه تحكي ذلك كان عليه أن يعاون قاتليه لأنه ظالم منحرف وفي الوقت نفسه يعادي ناصرية ويحاربهم. . .

وأما أن يكون مظلوماً وعلى طلحة أن يدفع عنه ويكف الناس عن داره ولا يتركهم يقتلونه ليعذر بأنه قد دافع عنه فلم يقدر فيكون قد قام بواجبه والمطلوب منه.

وأما أن يكون في شك من أمره ـ فلا يدري هل عثمان كان ظالماً أم مظلوماً ـ وهنا يجب عليه أن يتوقف ويعتزل الأحداث والناس ويتخذ مكاناً هادئاً بعيداً عن الساحة حتى يتبين له الأمر وما تنتهي إليه الأمور. . . وطلحة لم يفعل واحدة من الثلاث الواجبة عليه.

ثم أكثر من ذلك إنه أتى بأمر لم يعرف بابه وهو أنه نكث البيعة ـ بعد اعطائها طائعاً مختاراً ـ ودون مبرر لها أو حدث يوجب ذلك ثم جاء بمعاذير واهية لم يقبلها عاقل ولا يرضى بها منصف.

١٧٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في الموعظة وبيان قرباه من رسول الله

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ ٱلْمَغْفُولِ[١] عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ ٱلْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ. مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ ٱللهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ[٢] أَرَاحَ[٣] بِهَا سَائِمٌ[٤] إِلَى مَرْعًى وَبِيٍّ[٥]، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ[٦]، وَإِنَّمَا هِيَ كَٱلْمَعْلُوفَةِ[٧] لِلْمُدَى[٨] لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشِبَعَهَا[٩] أَمْرَهَا. وَٱللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ[١٠] وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

أَلَا وَإِنِّي مُفْضِيهِ[١١] إِلَى ٱلْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِٱلْحَقِّ، وَٱصْطَفَاهُ عَلَى ٱلْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقاً، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَآلِ[١٢] هذَا ٱلأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَٱللهِ، مَا أَحُثُّكُمْ[١٣] عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

اللغة

١ ـ **الغافل** : الساهي غير الملتفت.

٢ ـ **النعم** : محركة الإبل وتطلق على البقر والغنم وهو جمع لا واحد له.

٣ ـ **اراح لها** : ذهب بها ورحل.

٤ ـ السائم : الراعي.

٥ ـ الوبي : محل الوباء وهو المرض.

٦ ـ الدوي : محل الداء وأصله من الدوا بالقصر أي المرض.

٧ ـ المعلوفة : من علف الدابة إذا اطعمها والعلف هو طعام الدواب.

٨ ـ المدى : جمع مدية السكين.

٩ ـ الشبع : ضد الجوع.

١٠ ـ المولج : المدخل.

١١ ـ مفضيه : أصله من افضى إليه أي خلا به، وافضى به أخبر به ونشره.

١٢ ـ المآل : المصير.

١٣ ـ حثه : على الأمر حضّه عليه ونشّطه على فعله.

الشرح

(أيها الغافلون غير المغفول عنهم والتاركون المأخوذ منهم ما لي أراكم عن الله ذاهبين وإلى غيره راغبين) هذه الخطبة موعظة للناس وتنبيه للغافلين فخاطبهم بما هم عليه وما هم فيه أيها الغافلون عما يراد بهم.. الغافلون عن ذكر الله.. الغافلون عما تعملون من المعاصي والآثام... الغافلون عن الحق... ولكن مقابل غفلتكم عن كل ذلك لم يغفل عنكم ربكم... بل أحصى عليكم أفعالكم وأعمالكم... احصى عليكم ما جرحتم بالليل والنهار... أحصى عليكم انفاسكم... أنه قد أحصى كل شيء عليكم
إنه
وعده عدا...

أيها التاركون ما تجمعون من مال وعقار ومن حطام الدنيا.. أيها التاركون لأمر الله... أيها التاركون لما يحيكم.. فإن الله آخذ منكم ما جمعتم وتعبتم من أجله في الدنيا من دور وقصور وأولاد وأموال...

ثم أشار إلى عيوبهم وإلى ما رأى منهم... مالي أراكم عن الله ذاهبين... عن دينه وعن رضاه... وعما يريد منكم وفي المقابل إلى غيره راغبين... راغبين في الرؤساء والعشائر... في الزعماء والأمراء... في كل أمر لا يحبه الله أنتم راغبون...

(كأنكم نعم اراح بها سائم إلى مرعى وبي ومشرب دوي وإنما هي كالمعلوفة للمدى لا تعرف ماذا يراد بها إذا أحسن إليها تحسب يومها دهرها وشبعها أمرها) شبههم بالإبل أو الغنم الذي ذهب بها صاحبها وراعيها إلى مرعى كثير الوباء ومكان شرب كثير

المرض وهذه النفوس التي يملكونها فإنهم يحملونها على ارتكاب الحرام والمعاصي وهي امراض لهذه النفوس تفسدها وتحجب عنها رؤية الحق. . .

أو أنهم كالنعم التي يعتني بها اصحابها فتسمّن من أجل الذبح، فهم يتلذذون ويتنعمون ويبحثون عن الأمور التي تحقق ملذاتهم غافلين عما وراءها من الموت والحساب والعقاب كالنعم التي تأكل لاهية عما يراد بها.

ثم أن النعم إذا أحسن إليها صاحبها يوماً تحسب يومها دهرها وشبعها أمرها أي تظن أن ذلك العلف والاطعام في يومها هذا سيجري في جميع الايام الآتية وإذا اشبعها فكأنه اشبعها حباً بذلك فحسب دون غاية أخرى يريدها من وراء الاشباع.

وكذلك هؤلاء يظنون أن الله حينما بسط لهم بعض الخيرات اليوم كأنه سيبسطها لهم دائماً أو أنه سبحانه لم يوفرها لهم بدون غاية بل وفرها ليسألهم عنها وعن شكرها وأداء حقها.

(والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت ولكن أخاف أن تكفروا فيَّ برسول الله ﷺ) أقسم أنه لو شاء لأخبر لكل واحد بمخرجه ومدخله وبجميع أموره الشخصية والاجتماعية وما يفعل ويترك ولكن امتنع عن ذلك مخافة أن يضلوا بكفرهم برسول الله لأنهم عندما يرون هذه الأخبار منه بأحوالهم لا تطيق عقولهم ذلك فيكفروا برسول الله إما برفع علي إلى منزلة الألوهية أو بنسبة رسول الله إلى التقصير في حق الإمام وإنه لم يبيّن لهم فضله ومنزلته. . .

(ألا وإني مفضيه إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه والذي بعثه بالحق واصطفاه عل الخلق ما انطق إلا صادقاً وقد عهد إليّ بذلك كله ويمهلك من يهلك ومنجى من ينجو ومآل هذا الأمر وما أبقى شيئاً يمر على رأسي إلا أفرغه في أذني وأفضى به إليّ) بعد أن خاف إن أخبر كل واحد بما يعمل وما يترك وبأموره كلها بعد أن خاف ذلك لئلا يكفروا برسول الله قال: إن بعض الاصحاب يتحملون هذه الأخبار فلا يشكون أو يكفرون وأنا سأدفع بذلك إليهم وسأنقل إليهم ما عندي لأنه يؤمن ضلالهم ثم أقسم بالله الذي بعث محمداً بالدين الحق واصطفاه من بين الخلق إنه لم ينطق إلا بالحق وقد عهد إليه رسول الله بكل ذلك وأخبره بمن يموت على ضلال ومن ينجو من الهلاك والضلال وأخبره بمصير الخلافة وكيف يتولاها من تولاها وبأسمائهم وأدوارهم ولم يبق شيء إلا أخبره به وأعطاه إياه إما على وجه العموم وإما على وجه الخصوص. . .

(أيها الناس إني والله ما احثكم على طاعة إلا واسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية

إلا واتناهى قبلكم عنها) وهكذا يكون شأن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إنه قبل أن يدفع الناس نحو المعروف ويأمرهم به يقوم بنفسه بتطبيق ذلك والعمل به وكذلك قبل أن يرد غيره عن المنكر ويردعهم عنه يقوم بالكف عنه والامتناع عن تناوله فيكون لكلامه موقعه وأثره وفعاليته والإمام قد كان القدوة في هذا بل لو لم يكن كذلك لم يكن علياً الذي يعيش في وجدان الأمة وضميرها إلى الآن وسيبقى إلى قيام الساعة كذلك. . .

١٧٦ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يعظ ويبين فضل القرآن وينهى عن البدعة

عظة الناس

ٱنْتَفِعُوا بِبَيَانِ ٱللهِ، وَٱتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ ٱللهِ وَٱقْبَلُوا نَصِيحَةَ ٱللهِ، فَإِنَّ ٱللهَ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ[١] بِٱلْجَلِيَّةِ[٢]، وَٱتَّخَذَ عَلَيْكُمُ ٱلْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ ٱلأَعْمَالِ، وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا[٣] هذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ ٱلْجَنَّةَ حُفَّتْ بِٱلْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ ٱللهِ شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتِي فِي كُرْهٍ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةِ ٱللهِ شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتِي فِي شِهْوَةٍ. فَرَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَأً نَزَعَ[٤] عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ[٥] هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً[٦]، وَإِنَّهَا لاَ تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوىً.

وَٱعْلَمُوا ـ عِبَادَ ٱللهِ ـ أَنَّ ٱلْمُؤْمِنَ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاَّ وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ[٧] عِنْدَهُ، فَلاَ يَزَالُ زَارِياً[٨] عَلَيْهَا وَمُسْتَزِيداً لَهَا. فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَٱلْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ. قَوَّضُوا[٩] مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ[١٠] الرَّاحِلِ، وَطَوَوْهَا طَيَّ ٱلْمَنَازِلِ.

فضل القرآن

وَٱعْلَمُوا أَنَّ هذَا ٱلْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لاَ يَغُشُّ، وَٱلْهَادِي الَّذِي لاَ

يُضِلُّ، وَٱلْمُحْدِّثُ الَّذِي لاَ يَكْذِب. وَمَا جَالَسَ هذَا ٱلْقُرْآنَ أحدٌ إلاَّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى. وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ ٱلْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ(١١)، وَلاَ لأَحَدٍ قَبْلَ ٱلْقُرْآنِ مِنْ غِنًى، فَٱسْتَشْفُوهُ(١٢) مِنْ أَدْوَائِكُمْ(١٣)، وَٱسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لأْوَائِكُمْ(١٤)، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ(١٥): وَهُوَ ٱلْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَٱلْغَيُّ(١٦) والضَّلاَلُ، فَٱسْأَلُوا ٱللهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلاَ تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ ٱلْعِبَادُ إِلى ٱللهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ. وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ ٱلْقُرْآنُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ(١٧) بِهِ ٱلْقُرْآنُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلاَ إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ(١٨) مُبْتَلًى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ ٱلْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَٱسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَٱسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَٱتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَٱسْتَغِشُّوا(١٩) فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ.

الحث على العمل

الْعَمَلَ ٱلْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ، وَٱلاسْتِقَامَةَ ٱلاسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَٱلْوَرَعَ ٱلْوَرَعَ! «إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَٱنْتَهُوا إلى نِهَايَتِكُمْ»، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَٱهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ(٢٠)، وَإِنَّ لِلإِسْلاَمِ غَايَةً فَٱنْتَهُوا إلى غَايَتِهِ. وَٱخْرُجُوا إِلَى ٱللهِ بِمَا ٱفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ(٢١) يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَنْكُمْ.

نصائح للناس

أَلاَ وَإِنَّ ٱلْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَٱلْقَضَاءَ ٱلْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ(٢٢) وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ(٢٣) ٱللهِ وَحُجَّتِهِ، قَالَ ٱللهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ**

ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ أَنْ لاَ تَخَافُوا، وَلاَ تَحْزَنُوا، وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وَقَدْ قُلْتُمْ: «رَبُّنَا ٱللهُ» فَٱسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ(٢٤) أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ، ثُمَّ لاَ تَمْرُقُوا(٢٥) مِنْهَا، وَلاَ تَبْتَدِعُوا(٢٦) فِيهَا، وَلاَ تُخَالِفُوا(٢٧) عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ ٱلْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ(٢٨) بِهِمْ عِنْدَ ٱللهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ. ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ(٢٩) ٱلأَخْلاَقِ وَتَصْرِيفَهَا(٣٠)، وَٱجْعَلُوا ٱللِّسَانَ وَاحِداً، وَلْيَخْزُنِ(٣١) الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَ هذَا ٱللِّسَانَ جَمُوحٌ(٣٢) بِصَاحِبِهِ. وَٱللهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ. وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ ٱلْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لأَنَّ ٱلْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلاَمٍ تَدَبَّرَهُ(٣٣) فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ(٣٤)، وَإِنْ كَانَ شَراً وَارَاهُ(٣٥). وَإِنَّ ٱلْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لاَ يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ: «لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». فَمَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى ٱللهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ(٣٦) مِنْ دِمَاءِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ ٱللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ(٣٧)، فَلْيَفْعَلْ.

تحريم البدع

وَٱعْلَمُوا عِبَادَ ٱللهِ أَنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ(٣٨) ٱلْعَامَ مَا ٱسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ، وَيُحَرِّمُ ٱلْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ، وَأَنَّ مَا أَحْدَثَ(٣٩) النَّاسُ لاَ يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلكِنَّ ٱلْحَلاَلَ مَا أَحَلَّ ٱللهُ، وَٱلْحَرَامَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ. فَقَدْ جَرَّبْتُمُ ٱلأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا(٤٠)، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتِ ٱلأَمْثَالُ لَكُمْ، وَدُعِيتُمْ إِلَى ٱلأَمْرِ ٱلْوَاضِحِ، فَلاَ يَصَمُّ عَنْ ذلِكَ إِلاَّ أَصَمُّ(٤١)، وَلاَ يَعْمَى عَنْ ذلِكَ إِلاَّ أَعْمَى. وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ ٱللهُ بِٱلْبَلاَءِ(٤٢) وَالتَّجَارِبِ(٤٣) لَمْ يَنْتَفِعْ

بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْعِظَةِ(٤٤)، وَأَتَاهُ ٱلتَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ. وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً(٤٥)، وَمُبْتَدِعٌ(٤٦) بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ(٤٧) سُنَّةٍ، وَلَا ضِيَاءُ حُجَّةٍ.

القرآن

وَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هَـذا ٱلْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ «حَبْلُ ٱللهِ ٱلْمَتِينُ(٤٨)»، وَسَبَبُهُ(٤٩) ٱلأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ ٱلْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ(٥٠) غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ ٱلْمُتَذَكِّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوِ ٱلْمُتَنَاسُونَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَراً فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ كَانَ يَقُولُ: «يَابْنَ آدَمَ، ٱعْمَلِ ٱلْخَيْرَ وَدَعِ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ(٥١) قَاصِدٌ(٥٢)».

أنواع الظلم

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِٱللهِ، قَالَ ٱللهُ تَعَالَى: «إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ». وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ ٱلْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ ٱلْهَنَاتِ(٥٣). وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ ٱلْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. ٱلْقِصَاصُ(٥٤) هُنَاكَ شَدِيدٌ، لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِٱلْمُدَى(٥٥) وَلَا ضَرْباً بِالسِّيَاطِ(٥٦)، وَلٰكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذٰلِكَ مَعَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ(٥٧) فِي دِينِ ٱللهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ ٱلْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ(٥٨) فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ. وَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضَى، وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ.

لزوم الطاعة

يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى(٥٩)

لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَٱشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ» فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!.

اللغة

١ ـ اعذر إليكم	:	أوضح عذره لكم في عقابكم، أو لم يبق لكم من عذر.
٢ ـ الجلية	:	الواضحة.
٣ ـ لتبتغوا	:	لتطلبوا.
٤ ـ نزع	:	أقلع وكفّ.
٥ ـ قمع	:	قهر وذلّل.
٦ ـ منزعاً	:	رجوعاً.
٧ ـ ظنون	:	وزان صبور أما مبالغة من الظنة بالكسر بمعنى التهمة أو بمعنى الضعيف وقليل الحيلة وتطلق على البئر لا يعلم فيها ماء أم لا.
٨ ـ الزاري	:	العائب.
٩ ـ قوض	:	الخيام نزع اطنابها واعمدتها وطواها.
١٠ ـ الفاقة	:	الفقر والحاجة.
١١ ـ استشفوه	:	اطلبوا منه الشفاء والعافية.
١٢ ـ ادوائكم	:	الادواء جمع الداء المرض.
١٣ ـ اللأواء	:	الشدة.
١٤ ـ الداء	:	المرض.
١٥ ـ الغي	:	الضلال.
١٦ ـ محل به	:	إلى السلطان قال عنه ما يضره.
١٧ ـ الحارث	:	المكتسب.
١٨ ـ الحرث	:	الكسب.
١٩ ـ استغشوا	:	اهواءكم قولوا أن فيها الغش.
٢٠ ـ العلم	:	بفتح اللام ما يهتدى به.
٢١ ـ الحجيج	:	المدافع.
٢٢ ـ تورد	:	ورد شيئاً بعد شيء.
٢٣ ـ عدة الله	:	وعده.
٢٤ ـ المنهاج	:	الطريق الواضح.
٢٥ ـ المروق	:	من مرق السهم إذا خرج من الرمية مروقاً.

٢٦ ـ لاتبتدعوا : لا تحدثوا ما لم يأذن به الله.
٢٧ ـ لا تخالفوا عنها : يقال خالفت عن الطريق أي عدلت عنها.
٢٨ ـ المنقطع به : الذي لم يجد بلاغاً ووصولاً إلى المقصد.
٢٩ ـ التهزيع : التكسير.
٣٠ ـ التصريف : التقليب.
٣١ ـ ليخزن : ليحبس، ويحفظ.
٣٢ ـ الجموح : من جمح الفرس إذا غلب فارسه فيوشك أن يطرح به في مهلكة فيرديه.
٣٣ ـ تدبر : الأمر فكر فيه ونظر في عواقبه.
٣٤ ـ ابداه : أظهره وبيّنه.
٣٥ ـ واراه : اخفاه ودفنه.
٣٦ ـ الراحة : الكفّ.
٣٧ ـ الاعراض : جمع عرض بكسر العين وهو ما يصونه الإنسان من نفسه وأهله.
٣٨ ـ يستّحل : الشيء يراه حلالاً.
٣٩ ـ أحدث : الشيء أوجده حديثاً أي جديداً.
٤٠ ـ ضرستموها : بالتشديد أي أحكمتموها تجربة وممارسة وضرسته الحرب أي جربّته واحكمته.
٤١ ـ الأصم : الأطرش، داء يصيب الأذن يمنعها من السمع.
٤٢ ـ البلاء : الإمتحان، التجربة.
٤٣ ـ التجارب : الاختبار والامتحان.
٤٤ ـ العظة : النصح، كلام يذكره بالله يحمله على التوبة.
٤٥ ـ الشرعة : المنهاج.
٤٦ ـ مبتدع : مخترع من البدعة وهي أحداث أمر لم يكن.
٤٧ ـ البرهان : الحجة.
٤٨ ـ المتين : القوي ومتُن الشيء بالضم أي صلب وقوي.
٤٩ ـ السبب : الحبل، ما يتوصل به إلى الشيء.
٥٠ ـ الجلاء : بالكسر مصدر جلوت السيف إذا صقلته.
٥١ ـ الجواد : الفرس.
٥٢ ـ القاصد : المعتدل، المستقيم.
٥٣ ـ الهنات : بفتح الهاء ـ جمع هنة محركة الشيء اليسير والعمل الحقير والمراد به صغائر الذنوب.
٥٤ ـ القصاص : بكسر القاف الجزاء على الذنب بالمثل.

٥٥ ـ المدى : بالضم جمع مدية وهي السكين.
٥٦ ـ السياط : جمع سوط.
٥٧ ـ التلّون : عدم الثبات على خلق واحد
٥٨ ـ الفرقة : بضم الفاء التفرق والشقاق.
٥٩ ـ طوبى : من طاب وطوبى لك أي لك الحظ والعيش الطيب.

الشرح

(انتفعوا ببيان الله واتعظوا بمواعظ الله واقبلوا نصيحة الله فإن الله قد أعذر إليكم بالجلية واتخذ عليكم الحجة وبين لكم محابه من الأعمال ومكارهه منها لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه فإن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن الجنة حُفّت بالمكاره وإن النار حفّت بالشهوات) هذه الخطبة الشريفة تتضمن موعظة بليغة وأمر بالتمسك بالقرآن كما تتناول تحريم البدع والظلم بأقسامه.

ابتدأ عليه السلام بالأمر للناس أن ينتفعوا ببيان الله الذي جاء عن طريق الوحي وكلام الرسول ومراده بالانتفاع هو العمل وفق الأمر الإلهي فكل ما جاء من أمر أمتثله وكل ما جاء من نهي انزجر عنه...

واتعظوا بمواعظ الله: أي اعتبروا بما أخبركم الله عنه من الأمور التي فيها عبرة وموعظة لكم والله قد ضرب مثلاً للذين آمنوا وآخر للذين كفروا وبيّن كيف أخذ الكافرين وكيف املى للمغترين؟... الموعظة بالأمم السالفة التي عصت فأخذها الله أخذ عزيز مقتدر.. الموعظة من الاغنياء الذين بطروا كقارون فخسف الله به وبداره الأرض... الموعظة من الذين ابتلوا فصبروا ففرّج الله عنهم كأيوب ويونس ويوسف... وما أكثر المواعظ الإلهية التي من فكر فيها ارتدع عن كل ممنوع وأقام كل معروف...

وأقبلوا نصيحة الله فإنه سبحانه أمرنا بالقيام بالطاعات ونهانا عن ممارسة السيئات، ومن قبل نصيحة الله فاز لأنها تُوصل الإنسان إلى الجنة...

ثم أشار إلى وجوب امتثال ما تقدم بأنه سبحانه قد أوضح الأمور بإرسال الرسل وإنزال البينات وقطع أعذار المعتذرين الذين يمكن أن يحتجوا بعدم البيان أو بعدم وصوله إليهم، فإنه قد أوصله عن طريق الرسل وقد بلغوه للناس كما يحب فلو عاقبهم بعد ذلك لتقصيرهم لكان له الحجة عليهم وليس لهم عليه حجة أو سؤال... إنه سبحانه أوضح الأمور فكانت حجة واضحة علينا وكانت أقوال النبي ملزمة لنا نحاسب إن قصرنا في

تنفيذها كما أنه سبحانه أوضح لنا ما يحبه من الأعمال من صلاة وصيام وحج وزكاة وإعانة للفقير وسد عوزه وخلته كما أنه سبحانه بيّن لنا ما يكرهه من كذب وغيبة ونميمة وفساد وضلال ودعانا إلى الأولى وأمرنا بها ونهانا عن الثانية وزجرنا عنها. . .

ثم بين أن في التكليف شدة على النفس فنقل الحديث عن رسول الله وإن الجنة حفت بالمكارة لأن الجنة تتطلب الأعمال والقيام بالتكاليف المفروضة وهي أمور ثقيلة على النفس مكروهة لها تمنعها عن كثير من مشتهياتها ومحّابها بينما النار حفت بالشهوات لأن عدم التكليف خفيف على النفس، ولا يكون هناك التزام أو تكليف وعدم التكليف خفيف وخصوصاً أن النفس ترغب في الأمور الباطلة فتندفع وراءها وهي تورد اصحابها النار. . .

(واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة فرحم الله امرأ نزع عن شهوته وقمع هوى نفسه فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً وإنها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى) بين عليه السلام أن الطاعات تأتي عن كره بينما المعاصي تأتي عن شهوة وذلك لأن الطاعة عمل والعمل فيه كلفة ومشقة فالنفس تجد ثقلاً من القيام به كالصلاة والصيام والحج والطاعات الأخرى بينما المعاصي توافق الشهوات وفيها عدم العمل والفعل فالزنا يوافق شهوة الجنس وهي قوية ترغب في اللذة وترك الصلاة ترك لها وهي سهلة الموؤنة لا تكّلف من العمل شيئاً وعلله بعضهم بقوله: لأن الإنسان ما لم يكن متردد الدواعي لا يصح التكليف وإنما تتردد الدواعي إذا أمر بما فيه مشقة أو نهي عما فيه لذة ومنفعة.

ثم دعى بالرحمة لمن كفّ عن شهوته وتخلى عنها ولمن قهر هوى نفسه وتغلب عليه.

وأشار إلى أن هذه النفس أبعد شيء مذهباً عن الحق والهدى وقيل كفاً وانتهاء عن شهوة ومعصية.

وعلى الأول يكون قوله «فإنها لا تزال تنزع في معصية تعليل له فإن النفس تميل وترغب إلى المعصية لانسجامها مع هوى النفس ورغبتها. . .

(واعلموا ـ عباد الله ـ أن المؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا ونفسه ظنون عنده فلا يزال زارياً عليها ومستزيداً لها فكونوا كالسابقين قبلكم والماضين أمامكم قوضوا من الدنيا تقويض الراحل وطووها طي المنازل) وهكذا يجب أن يكون المؤمن مع نفسه في كل أوقاته أن يكون متهماً لها بالتقصير والعجز عن القيام بالواجب وإنها لا تقدر على أمر إلا

بإعطاء الله لها القدرة فهو باستمرار معيباً لها ولأفعالها القبيحة طالباً لها الزيادة في الخير وأعمال البر وهذا كله ليدفعها نحو الفضيلة والعمل الصالح فإن من أتهم نفسه بالتقصير حاول أن يرفع ذلك بالعمل الصالح ثم دعاهم ليكونوا كالسابقين قبلهم من الصحابة الطاهرين ومن الذين مضوا أمامهم إلى الجنة حيث قطعوا علائقهم بالدنيا ورحلوا منها قبل أن يرحلوا. . فإن السابقين نقضوا ما بنوه وأخذوا ما عملوا كما يقوض الراحل خيامه ويأخذها معه أو كما يطوي المسافر منازل السفر ومحطاته يمر عليها دون استقرار وكذلك أنتم كونوا متزودين بالأعمال الصالحة عابرين إلى الآخرة وهي غايتكم ووجهة نظركم. . .

(واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل والمحدث الذي لا يكذب) ذكر عليه السلام بعض صفات القرآن وخصائصه كي يرّغب الناس فيه ويدفعهم إل العمل بمضمونه.

فهو الناصح الذي لا يغش والغش ضعف والقرآن كامل متكامل لا ضعف فيه لأنه كلام الله الصادق.

والهادي إلى طريق الجنة الذي لا يضل من سار خلفه واقتدى به.

وهو المحدث الذي يخبر عن الأمم والشعوب وما جرى لها وعليها فلا يكذب بزيادة أو نقيصة.

(وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان زيادة في هدى أو نقصان من عمى) ومجالسة القرآن عبارة عن قراءته والعيش معه في تلاوته وبطبيعة الحال من كان عاقلاً واعياً إذا استمع إلى آيات الله لا بد وأن يقوم بعد استماعها أما بزيادة في خير أو نقصان من شر، زيادة في هدى أو نقصان من عمى أما زيادة في أعمال البر بأن يزداد خيراً وتقى وعملاً صالحاً وأما ترتفع عنه بعض الغشاوات من الجهل وعدم المعرفة. . .

(واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى) من أخذ القرآن وعمل بمضمونه فإنه يسعد في النشأتين في الدنيا والآخرة ولا يفتقر إلى شيء بعده أبداً لأن فيه السعادة كلها ولذا نجد الأمة عندما عملت به اغتنت وعزت وفازت.

كما أنه لا غنى بدون القرآن مهما أوتي الإنسان من عقل ووعي وذكاء لأن هذا الإنسان إذا انقطع عن كلام الله وخطابه فلن يصل إلى مراتب الكمال والسمو لقصوره وإمكانه وعجزه. . .

(فاستشفوه من ادوائكم واستعينوا به على لأوائكم فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال فاسألوا الله به وتوجهوا إليه بحبه ولا تسألوا به خلقه إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله) كل داء فيكم فاطلبوا شفاءه من القرآن... بكم كفر ونفاق فعودوا إلى رحاب القرآن واقرؤوا عن الكفار ومسيرتهم وما كانت عاقبتهم ونتيجة أعمالهم وهذا وحده يكفي ليدفعهم نحو الإيمان... وكذلك إذا بكم نفاق فعودوا إلى آيات المنافقين ومسيرتهم وكيف كانت عاقبة السوء عليهم...

وإذا كان بكم بخل أو شح أو غش أو أي مرض آخر فعودوا إلى القرآن وألتمسوا منه وصفة لدائكم تشفون منه وتعودون أصحاء سالمين...

وإذا اصابتكم شدة أو أزمة ففي آيات القرآن تجدون الفرج والظفر واقرؤا الآيات النازلة في يونس وأيوب ويوسف تعود المحنة منحة والداء دواء...

في القرآن شفاء من أكبر الداء ـ أكبر أمراض الحياة ـ الكفر والنفاق فإنه ليس بعد الكفر ذنب وليس هناك معصية أعظم منه ولا أخطر منه ومن النفاق لأنهما يقطعان الصلة بالله ويبتران العلاقة بينهما وبينه وهذا منتهى الشقاء والتعاسة...

ودعاهم إلى أن يسألوا الله به أي يكملوا أنفسهم ويهذبوها ويتوجهوا إليه بالعمل به وإطاعة أمره ونهاهم أن يجعلوه مصدراً لكسبهم وأداة لمعاشهم وارتزاقهم.. وأخيراً نفى أن يتوجه أحد من العباد بمثل القرآن لأنه خطاب الله فتوجه به إلى الله وليس هناك أشرف منه تتوجه به إلى الله...

(واعلموا أنه شافع مشفع وقائل مصدق وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه) القرآن شافع لمن عمل به مقبول الشفاعة ونزله منزلة الشفيع لأنه يمحو السيئات كما يشفع الشفيع بمحو سيئات المشفع فيه ويوم القيامة يشفع القرآن بالعاملين به بلسان الحال فيكونوا من أهل الجنة كما أن القرآن يشهد على من لم يعمل به وينقل إلى الله تمرد الذين تمردوا عليه وعصوا أوامره وهو مصدق فيما قال وعلى منْ قال.. فيدخلون النار...

(فإنه ينادي منادٍ يوم القيامة «ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن» فكونوا من حرثته واتباعه واستدلوه على ربكم واستنصحوه على انفسكم واتهموا عليه آراءكم واستغشوا فيه أهْواءَكُمْ) هذا ترغيب للعمل بالقرآن والتفكر فيه بأن يوم القيامة يوم الحساب ينادي منادٍ كل عامل يسأل عن عمله وهل كان لله أم للشيطان؟.. وهل كان للدنيا أم للآخرة فيقف ليُسأل عن عمله واثره وما تركه خلفه من

منافع أو مضار إلا من اشتغل بالقرآن تعلماً وتعليماً وتلاوة وذكراً فإنهم قوم لا يسألون عن شيء لأن الاشتغال به يرضي الله ويكون من أحب الأعمال إليه لأنه طاعة مقربة منه وبعد هذا دعاهم ليكونوا من العاملين به المتفقهين فيه المتبعين له. . .

وأمرهم أن يستدلوا به على ربهم ويتخذوه دليلاً للوصول إليه وإلى مرضاته ومراده. . .

كما أمرهم أن يطلبوا منه النصيحة فيما يصلح نفوسهم ويرشدهم نحو الخير.

وأمرهم أن يتهموا أراءهم إن عارضته في حكم أو أشكل عليها الأمر في موقف فإن الرأي مهما كان جيداً يبقى يحمل القصور البشري والامكان الانساني بينما القران حديث الله خالق الفكر والرأي الواجب الوجود الحكيم العليم. . .

ثم أمرهم أن يستغشوا فيه أهواءهم أي إذا كانت اهواءهم خلاف القرآن فتكون هي الغاشة لهم المدلسة عليهم ويكون القرآن هو الصادق معهم الصريح فيما يقول. . .

(العمل العمل ثم النهاية النهاية والاستقامة الاستقامة ثم الصبر الصبر والورع الورع «إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم» وإن لكم علماً فاهتدوا بعلمكم وإن للإسلام غاية فانتهوا إلى غايته) حضّهم على هذه الأمور:

العمل العمل الزموه وقوموا به لأنه الترجمة الفعلية عما يعتقده الإنسان ويؤمن به.

النهاية النهاية أي انظروا إلى خاتمة حياتكم ونهايتها واعملوا في سبيل أن تكون طيبة وعلى ما أحب الله ورسوله، وأن تكون سعيدة ومن أهل الجنة.

الاستقامة الاستقامة أي كونوا دائماً في استقامة على الطريق السليم الصحيح فلا تنحرفوا ذات اليمين أو ذات الشمال أو تميلوا مع الأهواء والشهوات.

الصبر الصبر كونوا صابرين دائماً صابرين على الطاعات والواجبات وصابرين عن المعاصي والآثام.

الورع الورع أمرهم بملازمة الورع وهو الكف عما يشتبه بحرمته فلا يقترفه ويكون باستمرار مراعياً للأقرب إلى رضى الله.

ثم أشار إلى أن لهم نهاية وهي الجنة وأمرهم بالسعي إليها بأن يعملوا بكل ما يوصلهم إلى تلك النهاية من أعمال مطلوبة وأخرى مندوبة وأفعال الخير من أعانة الفقراء وسد عوزهم ورفع الحاجة عنهم. . .

وهذه النهاية لها علم وراية يهتدي بها طالب هذه النهاية ومن أراد الوصول إليها والمراد بالعلم هم النبي والأوصياء من بعده وفي زمان الإمام كان هو بنفسه الشريفة علماً يهتدي به من أراد الوصول إلى الجنة. . .

وأشار إلى أن الإسلام له غاية وهي كمال هذا الإنسان عن طريق القيام بالواجبات فانتهوا إليها واعملوا لها. . .

(واخرجوا إلى الله بما افترض عليكم من حقه وبين لكم من وظائفه. أنا شاهد لكم وحجيج يوم القيامة عنكم) كشف عليه السلام عن الغاية التي أرادها الإسلام منا وهي أن نؤدي ما افترض علينا من حقه فكل واجب نقوم به ولا نقصر فيه. . نؤديه بإخلاص كاملاً وبالتمام.

ثم رغبهم في طاعته بأنه يشهد لهم بالطاعة وإداء الحق ويدافع عنهم يوم القيامة حتى يدخلوا الجنة وهذا موافق لقوله تعالى: **﴿يوم ندعو[1] كل اناس بإمامهم﴾**. . .

(ألا وإن القدر السابق قد وقع والقضاء الماضي قد تورّد وإني متكلم بعدة الله وحجته قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ وقد قلتم: «ربنا الله» فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقه الصالحة من عبادته ثم لا تمرقوا منها ولا تبتدعوا فيها ولا تخالفوا عنها فإن أهل المروق منقطع بهم عند الله يوم القيامة) بين عليه السلام أن ما قدره الله في علمه السابق قد وقع وقضاه حتماً قد نفذ وتحقق شيئاً فشيئاً إشارة منه عليه السلام إلى أن ما قدره الله سابقاً من أنه سيتولى الخلافة قد حصل الان وما قضاه الله وامضاه من الفتن لا بد وإنها ستظهر شيئاً فشيئاً وهذه طلائعها قد بدت وظهرت للعيان وقد أشار شراح النهج إلى أن هذه الخطبة كانت في أوائل خلافته. . .

ثم أشار إلى أنه سيتكلم بما وعد الله واحتج به على عباده من الحجج والبينات فذكر قوله تعالى في الآية الكريمة: **﴿الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾** وبين لهم أنهم قد قالوا: «ربنا الله» إيماناً قلبياً وعقيدة راسخة قوية ولكن هذه العقيدة تستتبع الاستقامة بالعمل بالكتاب الكريم وما جاء فيه فيحلل حلاله ويحرم حرامه ويكون الإنسان باستمرار على طريق الله الذي رسمه له وعلى الطريقة الصالحة التي شرعها الله في عبادته وهي

---

(١) سورة الإسراء، آية/ ٧١.

المتلقاة عن رسول الله بالوسائط الصادقة العادلة مع الإخلاص فيها وإتمام شرائطها ودفع موانعها. . .

وهذه الشرعة الصالحة لا يجوز للإنسان أن يخرج عنها ويتركها ولا يجوز أن يبتدع فيها بأن يزيد أو ينقص وخصوصاً في الأمور التوقيفية كالصلاة والصيام والحج فإنه لا يجوز أن يشرع صلاة الصبح ثلاث ركعات أو ينقص منها شرطاً أو جزءاً كما لا يجوز أن يخالف هذه الشرعة الصالحة إلى غيرها من السنن المتبدعة أو الأمور الباطلة.

وأشار إلى عاقبة المروق منها بتركها أو الابتداع فيها أو مخالفتها إلى غيرها بأنهم قوم انقطعت به وسائل الوصول إلى الله، إنهم لا يقدرون على الوصول إليه لعدم عملهم الصالحات. . الوصول إليه لا يكون لا بالعمل بالواجبات وترك المحرمات، إنها وحدها الموصلة إلى رحمته ودخول جنته. . .

(ثم إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها واجعلوا اللسان واحداً وليخزن الرجل لسانه فإن هذا اللسان جموح بصاحبه والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه وإن لسان المؤمن من وراء قلبه وإن قلب المنافق من وراء لسانه لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه فإن كان خيراً ابداه وإن كان شراً واراه وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه ولقد قال رسول الله ﷺ «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» فمن استطاع منكم أن يلقى الله تعالى وهو نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم سليم اللسان من اعراضهم فليفعل) شرع عليه السلام في النهي عن النفاق وذلك في ضمن أمور:

١ ـ إياكم وتهزيع الاخلاق وتصريفها: تحذير من هدم الاخلاق وتغيرها عما هي عليه من آداب الشرع والسنن الصحيحة ومن يفعل ذلك فهو منافق لأنه يتقلب حسب الأجواء فهو تارة يكون وفياً وأخرى غادراً وتارة صادقاً وأخرى كاذباً وهكذا دواليك يلبس عدة أقنعة لكل ظرف قناعه الملائم له تاركاً وراءه الاخلاق الإسلامية وآداب الإسلام. . .

٢ ـ واجعلوا اللسان واحداً: أجعلوه في الخير دائماً واحداً ولا تجعلوه متعدداً كما هي حال المنافق الذي يمدح أخاه في حضرته ويأكله غائباً. . يظهر النصح في المشهد ويغشه في المغيب. . .

ففي الحديث عن أبي جعفر قال: بئس العبد عبداً يكون ذا وجهين وذا لسانين يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً.

٣ ـ وليخزن الرجل لسانه: أي يحفظه عن التعدي به على الغير ويحفظه عن الثرثرة

والبذاءه وكل ما يؤذي وعلل هذا النهي بأن اللسان إذا ترك وشأنه ولم يروضه على الخير ولم يمنعه عن الطعن فإنه سيجر صاحبه إلى الهلاك ويقضي عليه وقد شبهه بالفارس الذي لم يملك زمام فرسه فإنها تهلكه وترديه وكذلك اللسان. . .

٤ ـ أقسم أنه لا ينتفع متقي بتقواه إلا بحفظ لسانه لأن التقوى التامة الكاملة هي التي يحفظ فيها المرء لسانه عن كل ما يشين أو يحط من شأنه.

٥ ـ رغب في التروي في الكلام والتفكر فيه وقرن ذلك بالإيمان كما نفر عن التسرع في الكلام وعدم التفكر فيه وقرن ذلك بالنفاق وقد جعل لسان المؤمن وراء قلبه بينما المنافق قلبه وراء لسانه وعلل ذلك بأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام فكر فيه أولاً ونظر في عواقبه وآثاره ونتائجه فإن كان ذلك في الخير تكلم به وأظهره ونطق به وإن رأى أن كلامه يؤدي إلى شر أو إلى معصية أو إثم اخفاه ولم يظهره أو يتكلم به. . .

وهذا عكس المنافق فإنه يرمي الكلام دون أن يتدبره ولا يدري هل هو لصالحه أو لغير صالحه؟ وهل هو له أو عليه؟ فيه إثم أم فيه طاعة. . . فيه منفعة أم فيه ضرر. . فهو في غفلة عن كل ذلك. . .

واستشهد أخيراً بالحديث الوارد عن النبي ﷺ بأن استقامة الإيمان من استقامة القلب ولا يستقيم القلب حتى يستقيم اللسان فالنتيجة أن سلامة الإيمان مرهونة بسلامة اللسان ولا اشكال أن من لوازم الإيمان هو سلامة اللسان فإذا لم يكن سالماً فلا إيمان كامل.

ثم حثهم على أن يلاقوا الله وهم طاهرون انقياء الجيوب فمن استطاع منكم أن يلقى الله تعالى ولم يلطخ يديه بدماء المسلمين فليفعل. . . وكذلك من قدر على أن لا يظلم الناس في اموالها فليفعل. . . وكذلك من قدر على أن يلقى الله سليم اللسان من أعراض المسلمين فلا يتكلم عليهم ولا يشتمهم ولا يسبهم ولا يسيء إليهم فليفعل. . .

(واعلموا عباد الله أن المؤمن يستحل العام ما استحل عاماً أول ويحّرم العام ما حرم عاماً أول وأن ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئاً مما حرّم عليكم ولكن الحلال ما أحل الله والحرام ما حرّم الله) بيّن عليه السلام بطلان ما أحدث من آراء ونظريات كالإستحسان والقياس والمصالح المرسلة وغيرها قائلاً أن ما ثبت حليته في أول الأمر يثبت حليته الآن وتستمر هذه الحلية، وما ثبتت حرمته في أول الأمر تثبت حرمته الآن ولا يزال حراماً وما أحدث من نظريات وقواعد قياسية لا يجوز التعويل عليها ولا تستطيع أن تلغي حراماً أو

تحرّم حلالاً لأنها ساقطة عن الاعتبار غير معتد بها ويبقى الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله. . .

(فقد جربتم الأمور وضرستموها ووعظتم بمن كان قبلكم وضربت الأمثال لكم ودعيتم إلى الأمر الواضح فلا يصم عن ذلك إلا أصم ولا يعمى عن ذلك إلا أعمى) بعد أن بيّن أن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله قال لهم إنكم اختبرتم الأمور واحكمتم معرفتها جيداً وعرفتم موارد الحلال والحرام وما يجوز وما لا يجوز ووعظتم بمن كان قبلكم من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا وانحرفوا بالنص حسب مصالحهم وما يخدم اغراضهم وكيف أن الله أخذ المبتدعين الضالين وقد ضرب الله لكم الأمثال من أخذه لهم وأنتم الان دعيتم إلى الأمر الواضح وهي الأحكام الشرعية المنصوصة التي لا غبار عليها بدون قياس ولا رأى ولا استحسان وبعد هذا كله فلا يعمى إلا أعمى على الحقيقة ولا يصم إلا الأصم على الحقيقة فالجاهل المطلق الذي يستحق هذا الإسم هو الذي لا ينظر إلى هذه الأمور ولا يستمع الحقائق. . .

(ومن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب لم ينتفع بشيء من العظة وأتاه التقصير من أمامه حتى يعرف ما انكر وينكر ما عرف وإنما الناس رجلان متبع شرعة ومبتدع بدعة ليس معه من الله سبحانه برهان سنة ولا ضياء حجة) من لم ينتفع بما يمر عليه من المصائب والأحداث وما يعيشه من القضايا والأمور ويجربه من الأشياء لم ينتفع بالموعظة القولية التي تُروى له وتنقل إليه لأن الأولى أشد تأثيراً من الثانية لكونها تمسه بالذات وتمر عليه مباشرة.

ومثل هذا الإنسان الذي لم يستفد من تجربته الشخصية يأتيه التقصير من بين يديه من الأمور التي يعرفها فكيف بالأمور التي لم يعرفها ولم يجربها وعندها تتبدل قضاياه وتختلط الأمور في نظره فيتخيل أن ما انكره قد عرفه وما عرفه قد انكره وهذا إشاره إلى غاية النقصان فإنه يكون قد حكم على غير بصيرة فيتخيل أن ما أنكره وجهله أنه عارف بحقيقته وتارة ينكر ما كان يعرفه ويحكم بصحته. . .

ثم قسم الناس وحصرهم في رجلين.

١ ـ رجل متبع شرعة أي يسير خلف الشرع والدين فما جاء عن الله وعن رسوله يأخذ به ويتبعه دون أن يزيد فيه أو ينقص منه.

٢ ـ ورجل مبتدع بدعة: قد أحدث في الدين ما ليس فيه وأدخل فيه ما هو خارج منه بدون حجة ولا دليل بل اختلقه من عنده واستحسنه من ذاته كأصحاب القياس

والاستحسان والرأي فإنهم اعتمدوا في ذلك على آرائهم الشخصية دون آية صريحة تدل على ذلك ولا حجة يعتمدون عليها . . .

(وإن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن فإنه حبل الله المتين وسببه الأمين وفيه ربيع القلوب وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره، مع أنه قد ذهب المتذكرون وبقي الناسون أو المتناسون) عاد عليه السلام يرغب في القرآن بذكر بعض خصائصه ومنافعه.

١ ـ إنّ الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن: فإنه أبلغ موعظة تقرب هذا الإنسان من ربه وتشده إلى رحابه وهذه هي الغاية من الموعظة وهي موجودة فيه على الوجه الأكمل ثم يأتي بعده غيره . . .

٢ ـ إنه حبل الله المتين: فمن تمسك به نجا من الضلال والانحراف وأمن الفتنة والعذاب ووصفه بالمتانة من حيث أنه قوي لا ينقطع بمن تمسك به . . .

٣ ـ أنه سببه الأمين: أنه السبب الموصل لهذا الإنسان إلى الجنة فلا يخونه أو يغدر به فيتركه دون بلوغ الغاية . . .

٤ ـ فيه ربيع القلوب: فإن القلوب تحيا به وتنتعش عندما تقرأه وتتحرك في أجوائه كما تحيا الأنعام برعي الربيع . . .

٥ ـ وفيه ينابيع العلم: فهو مصدر العلوم النافعة المفيدة ففيه القواعد العامة لكل ما ينفع هذا الإنسان ويشده إلى الله . . .

٦ ـ ليس للقلب جلاء غيره: فهو الذي يجلي القلب على الوجه الأكمل ويطهر النفس من ادران الحياة وما علق بها . . إنه يرفع عن صفحة القلب كل ريب وشك ونفاق . . . إنه يجلي القلب من كل ما يتأثر به . . .

ثم أخيراً ذمهم لنسيانهم هذه الخصائص القرآنية المتقدمة أو لتناسيهم لها ولفت نظرهم إلى المتذكرين وأنهم قد قضوا وذهبت أيامهم على عهد رسول الله . . .

(فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه وإذا رأيتم شراً فاذهبوا عنه فإن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا ابن آدم اعمل الخير ودع الشر فإذا أنت جواد قاصد) دعاهم إلى إعانة فاعل الخير في الخير إذا رأوا ذلك وأما إذا رأوا شراً فليبعدوا عنه ويتركوه ثم استشهد بحديث النبي الآمر بعمل الخير الناهي عن فعل الشر ورتب على ذلك أن القائم بهذا يكون أسرع إلى الله لأن طريقه مستقيم لا أعوجاج فيه ولا انحراف . . .

(ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب. فأما

الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً) قسم الظلم إلى ثلاثة أصناف:

١ ـ فظلم لا يغفر هو الشرك بالله واستدل عليه بقوله تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾** وأما كون الشرك ظلم فقد قال تعالى حكاية عن لقمان وهو يعظ ابنه: **﴿لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾** فمن تاب عن الشرك وآمن غفر الله له ومن أصر على الشرك وبقي عليه كان في النار.

٢ ـ وظلم يغفر وهو ما يرتكبه العبد في حق نفسه من الصغائر كحلقه لحيته في بعض الأوقات أو تقتيره على نفسه مع يساره أو كلمة مؤذية وهكذا.. ومراده بالهنات الأمور القبيحة ولعل ترك الكبائر مع القيام بالواجبات يكون مكفراً للصغائر كما قال تعالى: **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم﴾**.

٣ ـ وظلم لا يترك ظلم العباد بعضهم بعضاً فللغير حق ولم يصل حقه إليه وبهذا وردت الأخبار...

(القصاص هناك شديد ليس هو جرحاً بالمدى ولا ضرباً بالسياط ولكنه ما يستصغر ذلك معه فإياكم والتلون في دين الله فإن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل. وإن الله سبحانه لم يعط أحداً بفرقة خيراً ممن مضى ولا ممن بقي) فإذا كان هناك ظلم عليه عقوبة ويطالب به الإنسان فليس القصاص عليه جرحاً بالسكاكين ولا ضرباً بالعصي فإن هذه تستصغر عند عذاب الآخرة. إنه عذاب النار الذي يستصغر عنده كل عذابات الدنيا...

ثم نهى عن التلون في دين الله أي النفاق فيه فقد روي أنه بلغه أن بعضهم توقف في بيعته وبعضهم يهم بنكثها فأمرهم أن يلزموا طريقة واحدة في الدين ولا يعيشون النفاق المؤدي إلى الفرقة ولذا قال أن الاجتماع على الحق المكروه إليكم كالحرب مثلاً خير لكم من الافتراق في الباطل المحبوب عندكم كمتاع الدنيا.

ثم تمم النهي عن الفرقة بأن الله لم يعط أحداً من السلف ولا من الخلف خيراً إذا افترقوا وبعبارة أخرى إن الله لم يعط أحداً خيراً مع الفرقة...

(يا أيها الناس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعة ربه وبكى على خطيئته فكان من نفسه في شغل والناس منه في راحة)

عاد عليه السلام إلى ذكر نصائحه الثمينة وقد ذكر.

١ ـ طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس: فالخير كله لمن ترك عيوب الناس ولم يخض فيها واشتغل بعيوب نفسه بأن نظر إليها وأخذ في اصلاحها وعلاجها...

٢ ـ طوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعة ربه والخير أيضاً لمن لم يقدر على معاشرة الناس بالحسنى فاعتزلهم في بيته وكف شره عنهم وأكل قوته الحلال وليس اعراض الناس واشتغل بطاعة ربه في عزلته ولم يشتغل في غيبة الناس وأكل لحومهم وإذا كان مخطئاً ندم على الخطأ وبكى خوفاً من عقاب الله وعذابه على هذه المعصية.

وبهذه الأعمال كان الناس منه في راحة فلا قال ولا قيل ولا عتاب ولا حساب وكان له مع نفسه شغل حيث يصلحها ويعدل مزاجها الأخلاقي والتربوي...

١٧٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

في معنى الحكمين

فَأَجْمَعَ(١) رَأْيَ مَلَئِكُمْ(٢) عَلَى أَنِ ٱخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا(٣) عِنْدَ ٱلْقُرْآنِ، وَلاَ يُجَاوِزَاهُ(٤)، وَتكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ(٥)، فَتَاهَا(٦) عَنْهُ، وَتَرَكَا ٱلْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ ٱلْجَوْرُ(٧) هَوَاهُمَا، وَٱلِاعْوِجَاجُ(٨) رَأْيَهُمَا. وَقَدْ سَبَقَ ٱسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْحُكْمِ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْعَمَلِ بِٱلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا. وَالثِّقَةُ فِي أَيْدِينَا لأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ ٱلْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لاَ يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ(٩) ٱلْحُكْمِ.

اللغة

١ ـ أجمع : القوم اتفقوا.
٢ ـ الملأ : اشراف الناس ورؤساؤهم، الجماعة.
٣ ـ جعجع : البعير إذا برك ويجعجعا عند القرآن يقيمان عنده ويحبسان انفسهما عليه.
٤ ـ جاوزه : تعداه وتخطاه.
٥ ـ التبع : التابع، المنقاد للشي، والتابع السائر في أثره، اللاحق له.
٦ ـ تاها : عنه عدلا عنه، ضلا.
٧ ـ الجور : الظلم.
٨ ـ الاعوجاج : الالتواء وعدم الاستقامة.
٩ ـ المعكوس : المقلوب وعكس الكلام قلبه والشيء رد آخره على أوله.

الشرح

(فأجمع رأي ملئكم على أن اختاروا رجلين، فأخذنا عليهما أن يجعجعا عند القرآن ولا يجاوزاه وتكون السنتهما معه وقلوبهما تبعه فتاها عنه وتركا الحق وهما يبصرانه وكان

الجور هواهما والاعوجاج رأيهما. وقد سبق استثناؤنا عليهما في الحكم بالعدل والعمل بالحق سوء رأيهما وجور حكمهما والثقة في أيدينا لأنفسنا حين خالفا سبيل الحق وأتيا بما لا يعرف من معكوس الحكم) هذا الكلام منه عليه السلام موّجه إلى الناس مبيناً فيه دور الحكمين وما أخذ عليهما في التحكيم وقد كان المُحكّمة قد اتفق رأيهم على أن يقبلوا بالتحكيم وقالوا للإمام إما أن تقبل أو نقتلك كما قتلنا عثمان فقام الإمام بتوضيح الأمر لهم وبيان غدر معاوية وخدعه فلم يتنبهوا له ولم يستجيبوا لصوته الداعي إلى إكمال المعركة حتى نهايتها وفي النهاية اجبروه على التحكيم وليتهم إذا خدعوا في أصل التحكيم أن يتركوا له حرية اختيار الحكم الذي يفاوض من جانبه فقد اختار ابن عباس فرفض جماعتهم ذلك وقالوا: لا نبالي كنت أنت أم ابن عباس؟.. فأشار عليهم بالأشتر فرفضوا وقالوا: وهل سعّر علينا الأرض إلا الأشتر؟ فألزموه بأبي موسى الأشعري الذي خذل الناس عنه في الكوفة عندما بعث الإمام إلى أهلها يدعوهم إلى ملاقاته لحرب أصحاب الجمل.. وقال الإمام كلمته: «لقد جاؤني بأبي موسى مبرنساً» فقد فرضوه وهو ليس عنده برضى.

ولما رأى الإمام أن القوم اجمعت كلمتهم على أن يختاروا الحكمين عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري أخذ عليهما أمراً واشترط عليهما شرطاً وهو أن يقفا عند القرآن ويحبسا انفسهما عليه ولا يتعدياه فتكون السنتهما معه وقلوبهما تابعة له.. يحلّلان ما أحلّ ويحرمان ما حرم وقد كانت مهزلة تاريخية تحولت إلى سُبّة عليهما فقد اتفقا على خلع الإمام ومعاوية وقد كان عمرو يخّبىء في نفسه أمراً حتى قدّم أبا موسى فخلعهما معاً وقام عمرو فخلع علياً وأثبت معاوية ودارت الشتائم فرمى أبو موسى عمروا بأن مثله مثل الكلب وقام عمرو فرمى أبا موسى «بأن مثله مثل الحمار» وبين الكلب والحمار ضاعت الأمة وتشتت أمرها وتفرق جمعها...

والإمام بعد أن يشترط عليهما العمل بالكتاب والسنة وأن لا يتعديا عنهما وكان من أمرهما ما كان قال للناس: أنهما قد ضلا وتركا الحق وهما على علم به فإن من حقهما أن يدعوا معاوية إلى الطاعة والالتزام بالجماعة وأن يبايع للخليفة الشرعي الذي انعقدت له الولاية باتفاق أهل الحل والعقد الذين بايعوا من تقدمه من الخلفاء... ولكنهما عدلا عن الحق وظلما وعلى كل حال لقد سبق شرطنا الذي شرطناه حكمهما الذي حكما به فقد اشترط عليهما الحكم بالعدل والعمل بالحق ولكنهما لم يعملا فسقط حكمهما لأنه كان مشروطاً بما اخذنا عليهما من الشرط.. ومن هنا بأيدينا وثيقة واضحة تدعمنا وتقوّي موقفنا في رد ما حكما وخالفا فيه الحق وما أتيا من حكم معكوس جائر لا يتفق وما اشترطنا عليهما...

١٧٨ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في الشهادة والتقوى. وقيل: إنه خطبها بعد مقتل عثمان في أول خلافته

الله ورسوله

لاَ يَشْغَلُهُ شَأْنٌ(١)، وَلاَ يُغَيِّرُهُ(٢) زَمَانٌ، وَلاَ يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلاَ يَصِفُهُ لِسَانٌ، وَلاَ يَعْزُبُ(٣) عَنْهُ عَدَدَ قَطْرِ ٱلْمَاءِ وَلاَ نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلاَ سَوَافِي(٤) الرِّيحِ فِي ٱلْهَوَاءِ، وَلاَ دَبِيبُ(٥) النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا(٦)، وَلاَ مَقِيلُ(٧) ٱلذَّرِّ(٨) فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ(٩). يَعْلَمُ مَسَاقِطَ(١٠) ٱلأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ(١١) ٱلأَحْدَاقِ(١٢). وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ(١٣)، وَلاَ مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلاَ مَكْفُورٍ(١٤) دِينُهُ، وَلاَ مَجْحُودٍ(١٥) تَكْوِينُهُ(١٦)، شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَصَفَتْ(١٧) دِخْلَتُهُ(١٨) وَخَلَصَ(١٩) يَقِينُهُ، وَثَقُلَتْ(٢٠) مَوَازِينُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ٱلْمُجْتَبَى(٢١) مِنْ خَلاَئِقِهِ(٢٢)، وَٱلْمُعْتَامُ(٢٣) لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَٱلْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ(٢٤) كَرَامَاتِهِ، وَٱلْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالاَتِهِ، وَٱلْمُوَضَّحَةُ(٢٥) بِهِ أَشْرَاطُ(٢٦) ٱلْهُدَى، وَٱلْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ(٢٧) ٱلْعَمَى.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ ٱلْمُؤَمِّلَ لَهَا وَٱلْمُخْلِدَ إِلَيْهَا(٢٨)، وَلاَ تَنْفَسُ(٢٩) بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا. وَٱيْمُ ٱللهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ(٣٠) نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلاَّ بِذُنُوبٍ ٱجْتَرَحُوهَا(٣١)، لأَنَّ ٱللهَ لَيْسَ «بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ». وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ(٣٢)، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا(٣٣) إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَهٍ(٣٤) مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ

عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ[٣٥]، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ. وَإِنِّي لأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ[٣٦]. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ[٣٧] فِيهَا مَيْلَةً، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ وَمَا عَلَيَّ إِلاَّ الْجُهْدُ[٣٨]، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ!.

اللغة

١ ـ شأن : حال، أمر.
٢ ـ غيّره : حوّله وبدله.
٣ ـ لا يعزب : لا يخفى ولا يغيب.
٤ ـ السوافي : التي تسفي التراب أي تذريه وسفت الريح التراب ذرته.
٥ ـ دبيب : النمل حركته التي هي في غاية الخفاء، المشي البطيء.
٦ ـ الصفا : الحجر الأملس.
٧ ـ المقيل : الاستراحة.
٨ ـ الذر : صغار النمل.
٩ ـ ليلة ظلماء : شديدة الظلام.
١٠ ـ مساقط : محلات السقوط والهبوط.
١١ ـ الطرف : بسكون الراء الحركة وطرف العين تحريك جفنها.
١٢ ـ الاحداق : العيون.
١٣ ـ عدل بالله : جعل له مثلاً وعديلاً وغير معدول به غير مسّوى بينه وبين أحد.
١٤ ـ المكفور : المستور.
١٥ ـ مجحود : من الجحد وهو الانكار، الكفر.
١٦ ـ تكوينه : خلقه.
١٧ ـ صفت : نقت وطهرت.
١٨ ـ الدخلة : بكسر الدال باطن الأمر ويجوز بالضم.
١٩ ـ خلص : يقينه صفى ولم يبق فيه شك.
٢٠ ـ ثقلت : ضد خفّت.
٢١ ـ المجتبى : المصطفى.
٢٢ ـ الخلائق : الناس، ما خلقه الله.
٢٣ ـ المعتام : المختار.

٢٤ ـ العقائل	:	الكرائم ونفايس الشيء.
٢٥ ـ الموضحّة	:	المبينة.
٢٦ ـ اشراط	:	الهدى علاماته ودلائله.
٢٧ ـ الغربيب	:	الأسود الشديد السواد.
٢٨ ـ المخلد	:	الراكن المائل.
٢٩ ـ لا تنفس	:	لا تبخل ولا تضن.
٣٠ ـ الغض	:	الناضر، الطري.
٣١ ـ اجترحها	:	اكتسبها واجترح الذنب إذا ارتكبه وفعله.
٣٢ ـ النقم	:	العقوبات.
٣٣ ـ فزع إليه	:	لجأ إليه واستغاثه.
٣٤ ـ الوله	:	كالتحيّر يحدث عند الخوف أو الوجد.
٣٥ ـ الشارد	:	الذاهب.
٣٦ ـ الفترة	:	كناية عن جهالة الغرور.
٣٧ ـ ملتم	:	عن الطريق حدتم عنه وتركتموه ومال الحائط زال عن استوائه.
٣٨ ـ الجهد	:	بالضم الطاقة.

الشرح

(لا يشغله شأن ولا يغّيره زمان ولا يحويه مكان ولا يصفه لسان ولا يعزب عنه عدد قطر الماء ولا نجوم السماء ولا سوافي الريح في الهواء، ولا دبيب النمل على الصفا ولا مقيل الذر في الليلة الظلماء، يعلم مساقط الأوراق وخفي طرف الأحداق) ابتدأ عليه السلام بتنزيه الله وتعظيمه وذكر بعض أوصافه وهي.

١ ـ لا يشغله شأن: لا يشغله أمر عن أمر وذلك لأن الشغل عن الشيء وليد أحد امرين أما لقصور القدرة أو لقصور العلم والله سبحانه كله علم وقدرة وعلمه وقدرته محيطان بكل شيء «ربنا وسعت[1] كل شيء رحمة وعلماً».

٢ ـ ولا يغيره زمان: وكيف يغيره الزمان أو يبدّله وهو خالق الزمان فإنه واجب الوجود ومن صفاته عدم التغيير.

٣ ـ ولا يحويه مكان: لأنه لو كان في مكان لكان جسماً والله منزه عن الجسمية

---

(١) سورة غافر، آية/ ٧.

لأنها من صفات الممكن وخواصه.

٤ ـ ولا يصفه لسان: لا يقدر لسان على وصف كنهه لأن اللسان يصف ما يتصور الإنسان وتصورات الإنسان مأخوذة من المشاهدات والله منزه عن كل ذلك لأنه ليس كمثله شيء فكل صورة تخيلتها مغايرة للحقيقة...

٥ ـ لا يعزب عنه عدد قطر الماء ولا نجوم السماء ولا سوافي الريح في الهواء ولا دبيب النمل على الصفا ولا مقيل الذر في الليلة الظلماء يعلم مساقط الأوراق وخفي طرف الأحداق: هذا اشارة إلى عموم علمه المحيط بكل هذه الجزئيات الدقيقة فهو يعلم:

أ ـ يعلم عدد قطر الماء النازل من السماء والموجود في البحار وفي كل مكان..

ب ـ يعلم نجوم السماء السيارة منها والمستقرة الظاهرة والخافية..

ج ـ يعلم سوافي الريح في الهواء أي الرياح التي تسفي الهواء وتحركه..

د ـ يعلم تحركات النمل على الحجارة الملساء يعلم آثارها التي تتركها ولا ترى.

هـ ـ يعلم مساكن ومستقر النمل الصغير في الليلة الحالكة السواد حيث لا يعلم بذلك إلا هو.

و ـ يعلم مكان سقوط الأوراق ومحلها وزمانها وبأي سبب يكون قال تعالى: **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾**..

ز ـ يعلم خفي طرف الأحداق: أي حركات العيون في انطباقها وهل هي في حلال أم حرام قال تعالى: **﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾**...

(واشهد أن لا إله إلا الله غير معدول به ولا مشكوك فيه ولا مكفور دينه ولا مجحود تكوينه شهادة من صدقت نيته وصفت دخلته وخلص يقينه وثقلت موازينه) هذه الشهادة بكلمة التوحيد واتبعها بوحدانية الله في أمور.

١ ـ أشهد أن لا إله إلا الله غير معدول به: لا شبيه له ولا نظير ولا عديل أو مثيل.

٢ ـ ولا مشكوك فيه فإن الشك كفر وهو ينافي التوحيد.

٣ ـ ولا مجحود تكوينه: فإن من ينكر صنع الله ينسب النقص إليه وهو منزه عن ذلك فإنها كلها تنطق بصنعه وخلقه.

٤ ـ شهادة من صدقت نيته أي معتقداً بما أشهد اعتقاداً يقيناً جزماً وصفت دخيلته أي كانت شهادة صادقة لا رياء فيها ولا نفاق وكذلك تكون شهادة كاملة تامة تثقل بها الموازين يوم العرض والحساب. . .

(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المجتبى من خلائقه والمعتام لشرح حقائقه والمختص بعقائل كراماته والمصطفى لكرائم رسالاته والموضحة به اشراط الهدى والمجلوبه غربيب العمى) بعد أن ذكر شهادة التوحيد اتبعها بأختها الشهادة لمحمد بالرسالة وقد وصف النبي بأوصاف.

١ ـ عبده ورسوله المجتبى من خلائقه فهو عبد الله والعبودية لله اسمى مرتبة ولذا قال سبحانه ﴿**سبحان الذي اسرى بعبده. .**﴾ وقال: ﴿**واذكر عبدنا داود. . واذكر عبدنا أيوب. .**﴾.

وأيضاً فهو رسول من قبل الله لهذا الإنسان يحمل إليه خطاب الله وكلامه وهو الرسول الذي اصطفاه الله واختاره من بين خلقه لحمل كلامه وإداء رسالته.

٢ ـ إنه المعتام لشرح حقائقه: اختاره الله من أجل أن يشرح حقائق العقائد وأصول الشرائع وهذه صفة النبي.

٣ ـ اختصه الله بعقائل كراماته: خصه الله بنفائس الأخلاق والآداب حتى خاطبه ربه ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾.

٤ ـ المصطفى لكرائم رسالاته: فالله قد اختاره واصطفاه لحمل أعظم رسالات السماء لأنها الرسالة الخاتمة التي لا رسالة بعدها.

٥ ـ الموضحة به اشراط الهدى: برسول الله ظهرت علامات الهدى، بقوله وفعله وتقريره تبينت المناهج المستقيمة للهدى.

٦ ـ والمجلوبه غربيب العمى: تنكشف برسول الله ظلمات الجهل والضلال وقد استعار لفظة الغربيب لشدة سواد الجهل، فأنوار النبوة كشفت تلك الظلمات. . .

(أيها الناس: إن الدنيا تغّر المؤمل لها والمخلد إليها ولا تنفس بمن نافس فيها وتغلب من غلب عليها) تنبيه للناس وتحذير لهم من الدنيا وقد ذكر لها بعض أوصافها المبعدة عنها فإنها تغر المؤمل لها والمخلد إليها فمن أمل أمراً سعى إليه وقد لا يدركه طول عمره وقد يفتح لأدراكه الأبواب المقفلة أو غير الجائزة فهي تغره بهذا الأمل وتدفعه لتحقيقه. . .

إنها الدنيا لا تضن أو تبخل بمن نافس فيها وقاتل عليها ونازع في تحصيلها بل ترميه بسهام غدرها وتقضي عليه دون أن تحفظه من نوائبها فهو يبخل بها ويقاتل من أجلها وهي ترميه بمصائبها.

ومن غلب الرجال على الدنيا وقهرهم واستولى على دولهم فإنها ستقهره وتنتصر عليه وتذيقه الموت. . .

(وأيم الله ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلا بذنوب اجترحوها لأن الله ليس بظلام للعبيد) أقسم عليه السلام أنه لم يكن قوم قط فيما مضى والآن وما سيأتي في نعمة ناعمة وعيش رغيد فزال عنهم ذلك إلا بذنوب فعلوها وارتكبوها فإن الذنوب تزيل النعم والله ليس بظلام للعبيد فهو لا يزيل نعمة عن قوم استحقوها وكانوا أهلاً لها لأن ذلك يعد ظلماً منه وحاشاه من الظلم إذن فهم بأيديهم أوجبوا زوالها لارتكابهم الذنوب وهذا قانون طبيعي وسنن كونية جعلها الله في الكون. . وهذا يدل على وجوب شكر النعم بوضعها في موضعها وعدم ارتكاب الحرام حتى لا يعرضها للزوال.

(ولو أن الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم ووله من قلوبهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد) بعد أن بين أن النعم تزول بالذنوب علّمهم كيف تعود إليهم وعودها يكون بالعودة إلى الله فحين تنزل العقوبات والقصاص وتزول النعم يفروا إلى الله وينقطعوا إليه بقلوب صافية طاهرة ونوايا كريمة نقية فإنه يرد عليهم ما ذهب من النعم ويصلح لهم ما فسد من أمورهم وما وقعوا فيه من فوضى واضطراب وسوء حال. . فإن عادوا إليه بصدق نية عاد عليهم بالعطاء والكرم. . .

(وإني لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة وقد كانت أمور مضت ملتم فيها ميلة كنتم فيها عندي غير محمودين ولئن رد عليكم أمركم إنكم لسعداء وما علي إلا الجهد ولو أشاء أن أقول لقلت: عفا الله عما سلف) هذا تعريض بالمخاطبين لعلهم يلتفتوا إلى انفسهم فيصلحوها اخشى عليكم وأخاف إن تكونوا في زمن جاهلية وأيام ضلال بحسب ما تتعصبون إليه وما تمشون خلفه من أهواء. . .

ثم نبههم إلى بعض أخطائهم ولفت انظارهم إلى أنه كانت هناك أمور مضت انحرفتم فيها انحرافة لم تكونوا محمودين عندي وقال ابن أبي الحديد أن الأمور التي مالوا فيها عليه اختيارهم عثمان وعدولهم عنه يوم الشورى. . أقول ولكن الكلام مطلق فيشمل يوم السقيفة بدون شك ثم اغمض النظر عن ذلك ولئن رد عليكم أمركم ورجعتم

كما كنتم على عهد رسول الله من الخير والصلاح لفزتم وسعدتم. . .

ثم بيّن أنه لو أراد أن يشرح المظالم والمفاسد التي حصلت نتيجة هذا الانحراف السابق لفعل وذلك يطول ويغري القلوب ولكن سيغضي عنها وحساب الظالمين على الله وما الله بغافل عما يعمل الظالمون. . .

١٧٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

وقد سأله ذعلب اليماني فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟

فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟ فقال:

لَا تُدْرِكُهُ ٱلْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ(١) ٱلْعِيَانِ(٢)، وَلكِنْ تُدْرِكُهُ ٱلْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ ٱلإِيمَانِ. قَرِيبٌ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ(٣)، مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ(٤)، مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ(٥)، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ(٦). لَطِيفٌ(٧) لَا يُوصَفُ بِٱلْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِٱلْجَفَاءِ(٨)، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِٱلْحَاسَّةِ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ. تَعْنُو(٩) ٱلْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ ٱلْقُلُوبُ(١٠) مِنْ مَخَافَتِهِ.

اللغة

١ ـ المشاهدة : الرؤية.
٢ ـ العيان : المشاهدة بالعين.
٣ ـ المباين : المفارق والمباعد.
٤ ـ الرؤية : التفكر.
٥ ـ الهمة : الاهتمام بالأمر بحيث لو لم يفعل لجر نقصاً وأوجب هماً.
٦ ـ الجارحة : العضو.
٧ ـ اللطيف : غير المحسوس.
٨ ـ الجفاء : الغلظة والخشونة.
٩ ـ تعنو : تخضع، وتذل.
١٠ ـ تجُب : تضطرب وترجف.

الشرح

(لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من

الاشياء غير ملابس بعيد منها غير مباين متكلم لا بروية مريد لا بهمة صانع لا بجارحة لطيف لا يوصف بالخفاء كبير لا يوصف بالجفاء بصير لا يوصف بالحاسة رحيم لا يوصف بالرقة، تعنو الوجوه لعظمته وتجب القلوب من مخافته) هذا الكلام يتضمن تنزيه الله عن الرؤية البصرية وهو جواب عن سؤال هذا الرجل الذي سأله: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟.

فقال: وكيف تراه؟.

فقال عليه السلام لا تدركه العيون بمشاهدة العيان إنه ينَّزه عن أن تدركه العيون بالمشاهدة والرؤية لأنها بما تحمل من قصور لا ترى إلا ما كان جسماً تشاهده ويكون جرماً يقع عليه النظر والله سبحانه ليس بجسم ولا مادة ولا يقع تحت النظر . . .

وبعد أن نفى رؤيته البصرية أثبت له الرؤية عن طريق الإيمان به بالبراهين التي قامت على وجوده ودلت عليه فإن الآثار شاهدة بوجود مؤثر وخالق وهو الله وقد استدل البدوي ببساطته وعفويته على الله بما عنده عندما قال: البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير أسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا يدلان على اللطيف الخبير . . .

ثم وصفه بأوصاف عدة:

١ ـ فهو سبحانه قريب من الأشياء غير ملابس قريب من الأشياء قرباً معنوياً مسلطاً عليها سلطة قهر واستعلاء وقدرة وقريب منها باعتباره يعلم بها وبما يجري عليها وهي تحت قدرته يصرفها كيف يشاء . . .

٢ ـ بعيد منها غير مباين فهو غيرها في الذات وبعيد منها وفي نفس الوقت ليس مغاير لها من جهة إنها تحت سلطانه وقدرته . . .

٣ ـ متكلم لا برويّة: تنزيه له عما هو عند الخلق فإن من أراد أن يتكلم في أمر لا بد وأن يتدبر ويفكر فيه ويمعن النظر في آثاره والله سبحانه لا يقع تحت هذه الاعتبارات لأنها وليدة الإمكان والعجز والله غني واجب الوجود يخلق الكلام بدون هذه المقدمات . . .

٤ ـ مريد لا بهمة: إذا أراد أمراً قال له كن فيكون ولا يحتاج إلى اهتمام ونظر في الأمور وتدبر عواقبها حتى يريد . . .

٥ ـ صانع لا بجارحة: نفى عما عليه الناس فإن من أراد نقل متاع احتاج إلى جوارحه كي يرفعه وينقله . . ومن أراد صنع كوز احتاج إلى يديه والوسائل التي تساعده

على ذلك والله منزه عن ذلك بل بكلمة «كن» فيكون. . .

٦ ـ لطيف لا يوصف بالخفاء: لا يقع تحت النظر وذاته لا تقبل الرؤية ومع ذلك لا يصح أن يوصف بأنه خفي لأنه في كل شيء ظاهر ومع كل شيء بيّن وهو دليل على كل أمر. . .

٧ ـ كبير لا يوصف بالجفاء: فهو كبير جلالاً وعظمة ومنزلة ولكن ليس على حد سلاطين الدنيا وعظمائها الذين يملكون طبيعة خشنة قاسية فظة غليظة. . .

٨ ـ بصير لا يوصف بالحاسة: فهو يرى الأمور كما هي قبل أن توجد وبعد أن توجد ولكن ليس بحاسة بصرية كما هي عند الإنسان بل بصير بها باعتبار علمه بها واحاطته بشوؤنها. . .

٩ ـ رحيم لا يوصف بالرقة: فهو رحيم يدل الإنسان على ما ينفعه ويرشده إلى ما يصلحه ويأخذ بيده إلى الصراط المستقيم وإلى جنة النعيم ولكن ليس بما هو معهود من الرحمة عند الناس التي تعني رقة القلب والعاطفة وانكسارهما بل رحمته أن يفعل كل ما يقرب هذا الإنسان من الله. . .

١٠ ـ تعنو الوجوه لعظمته وتجب القلوب من مخافته: تخضع الوجوه بالسجود لعظمته وجلاله وكبريائه إذ هو الله واجب الوجود ﴿**وعنت الوجوه للحي القيوم**. .﴾ ومنه ترتجف القلوب وتضطرب فإنها عندما تستحضر عظمته وقدرته تخاف منه وتفزع من غضبه وسلطانه. . .

١٨٠ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في ذم العاصين من أصحابه

أَحْمَدُ ٱللهَ عَلَى مَا قَضَى[١] مِنْ أمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ٱبْتِلاَئِي[٢] بِكُمْ أَيَّتُهَا ٱلْفِرقَةُ[٣] الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنْ أُمْهِلْتُمْ[٤] خُضْتُمْ[٥]، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ[٦]. وَإِنِ ٱجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ[٧]، وَإِنْ أُجِئْتُمْ[٨] إِلَى مُشَاقَّةٍ[٩] نَكَصْتُمْ[١٠]. لاَ أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَٱلْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ ٱلْمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ؟ فَوَٱللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي ـ وَلَيَأْتِيَنِّي ـ لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ[١١] وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ. للهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ! وَلاَ حَمِيَّةٌ[١٢] تَشْحَذُكُمْ[١٣]! أَوَلَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو ٱلْجُفَاةَ[١٤] الطَّغَامَ[١٥] فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ[١٦] وَلاَ عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ ـ وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ[١٧] ٱلإِسْلاَمِ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ ـ إِلَى ٱلْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْعَطَاءِ[١٨]، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ[١٩]؟ إِنَّهُ لاَ يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضىً فَتَرْضَوْنَهُ، وَلاَ سُخْطٌ[٢٠] فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لاَقٍ إِلَيَّ ٱلْمَوْتُ! قَدْ دَارَسْتُكُمُ[٢١] ٱلْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ[٢٢] ٱلْحِجَاجَ[٢٣]، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ[٢٤] مَا مَجَجْتُمْ[٢٥]، لَوْ كَانَ ٱلأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ[٢٦] مِنَ ٱلْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدِّبُهُمُ ٱبْنُ النَّابِغَةِ[٢٧]!.

اللغة

١ ـ قضى	:	قدر، وقضى الشيء صنعه بإحكام وقدره.
٢ ـ ابتلائي	:	امتحاني واختباري.
٣ ـ الفرقة	:	الطائفة.
٤ ـ امهلتم	:	أخرتم واهملتم خليتم وتركتم.
٥ ـ خضتم	:	دخلتم في الباطل.
٦ ـ خرتم	:	ضعفتم وجبنتم.
٧ ـ طعنتم	:	عبتم وقدحتم فيه وطعن في أعراض الناس إذا شتمهم.
٨ ـ أجئتم	:	الجئتم.
٩ ـ المشاقة	:	المقاطعة والمصارمة.
١٠ ـ نكصتم	:	احجمتم ورجعتم القهقرى.
١١ ـ القالي	:	المبغض الكاره.
١٢ ـ الحمية	:	الانفة.
١٣ ـ شحذت النصل	:	أحددته وشحذ السكين حددها.
١٤ ـ الجفاة	:	جمع جافٍ أي غليظ.
١٥ ـ الطغام	:	بالفتح اراذل الناس.
١٦ ـ المعونة	:	يسير من المال يرسم لترميم الاسلحة واصلاح الدواب وهو غير العطاء.
١٧ ـ التريكة	:	بيضة النعام تتركها بعد أن يخرج منها الفرخ.
١٨ ـ العطاء	:	هو الراتب الشهري ويكون مقدراً يصرف في مؤنة العيال وقضاء الدين وثمن الأقوات.
١٩ ـ تختلفون علي	:	لا تتوافقون عليّ ولا تجتمعون.
٢٠ ـ السخط	:	الغضب.
٢١ ـ دارستكم	:	قرأت عليكم.
٢٢ ـ فاتحتكم	:	حاكمتكم وقاضيتكم.
٢٣ ـ الحجاج	:	المجادلة.
٢٤ ـ سوغتكم	:	جعلتكم تستسيغونه أي جعلته لكم سائغاً مقبولاً سهلاً.
٢٥ ـ مججتم	:	من مجّ الشيء من فمه إذا رمى به والقاه.
٢٦ ـ أقرب بهم	:	ما أقربهم.
٢٧ ـ ابن النابغة	:	عمرو بن العاص وأمه إسمها النابغة وكانت بغية من بغايا الجاهلية.

الشرح

(أحمد الله على ما قضى من أمر وقدر من فعل وعلى ابتلائي بكم أيتها الفرقة التي إذا أمرتُ لم تطع وإذا دعوت لم تجب إن امهلتم خضتم وإن حوربتم خرتم وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم وإن أجئتم إلى مشاقة نكصتم) هذه الخطبة يذم بها أصحابه لعدم طاعتهم له ويذكر بعض مواقفهم السيئة وما هم فيه من العادات القبيحة. . .

ابتدأ بحمد الله على ما شَرع من أمر وعلى ما أمضى من فعل، فله الحمد على أوامره وعلى أفعاله، تشريعاً وتكويناً.

وحمده أيضاً على امتحانه بأصحابه لأن في هذا الامتحان علو منزلة له نتيجة صبره، وشرح ابتلاءه بهم فإنهم إذا أمرهم بفعل لم يطيعوا الأمر وإذا دعاهم إلى جهاد أو مكرمة لم يجيبوا أو يلبوا النداء. . .

وبيّن بعض صفاتهم وإنهم إن أمهلوا وتركوا وشأنهم خاضوا في الضلال والباطل بدل أن يفكروا فيما امهلوا من أجله.

وإن حوربتم فشّن أعداؤكم عليكم الحرب ضعفتم وجبنتم عن مواجهتهم وقد كان معاوية يرسل الكتائب إلى أطراف البلاد التي تحت حكم الإمام فلم يكن يتحرك أحد منهم أو تأخذهم غيرة أو حمية للدفاع عن كرامتهم ووجودهم. . .

وكذلك من صفاتهم أن الناس إذا اجتمعوا على إمام والتفوا عليه ليجاهد بهم ويرفع الذل عنهم طعنوا في الإمام وفي الاجتماع وأخذوا في تخذيل الناس عنه وتفريقهم عن الاجتماع حوله. . .

وكذلك إذا الجئتم وقهرتم على مقاطعة عدو لكم لم تفعلوا بل رجعتم إليه بالإتصال وبقيت العلاقة بينكم وبينه قائمة والمحبة دائمة. . .

(لا أباً لغيركم ما تنتظرون بنصركم والجهاد على حقكم؟ الموت أو الذل لكم؟ فوالله لئن جاء يومي - وليأتيني - ليفرّقن بيني وبينكم وأنا لصحبتكم قالٍ وبكم غير كثير) لا أباً لغيركم تلطفاً منه وجّه الدعاء عنهم إلى غيرهم وإن قصدهم بأنفسهم ثم استفهم على نحو التوبيخ والتقريع لهم بأنهم لماذا يتأخرون عن الانتصار لانفسهم والجهاد في سبيل حقهم المهدور إن انتظارهم لا بد وأن يؤدي بهم إلى أحد أمرين كل منهما قبيح.إما الموت على الفراش أو الوقوع بيد الأعداء أذلاء والثاني أشد وأصعب، من الموت عند الكرام. . .

ثم أقسم بالله قسماً صادقاً إن جاء يومه يوم وفاته الذي قدره الله على عباده وهو قادم لا محالة سوف يفرق الموت بيني وبينكم ولن نجتمع أبداً في الآخرة لأن أهدافنا متباينة وغاياتنا متفرقة فكيف يجتمع من أراد الله مع من أراد الشيطان وإذا جاء الموت جاء وأنا مبغض لصحبتكم كاره لها لأنها صحبة فيها ذل وعار وبكم غير كثير لأنهم ضعفاء أذلاء أصحاب أفعال قبيحة لا يقوون ضعيفاً ولا يشدون أزر محتاج فهم بعددهم الكثير في حكم العدم واللاشيء لعدم الأثر بوجودهم. . .

(لله أنتم أما دين يجمعكم ولا حمية تشحذكم أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء وأنا أدعوكم وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتتفرقون عني وتختلفون عليّ إنه لا يخرج إليكم من أمري رضى فترضونه ولا سخط فتجتمعون عليه) لله أنتم كلمة تقال للتعجب والمدح ولكنها هنا للذم والإهانة بقرينة ما بعدها وهو الاستفهام الانكاري التوبيخي. . .

(أما دين يجمعكم ولا حمية تشحذكم) والإنسان يدفعه الدين للوقوف في وجه العدو أو الكرامة والعزة وهو عليه السلام يستنكر عليهم قعودهم وتكاسلهم قائلاً لهم: أما لكم دين يجمعكم ويوحّد صفوفكم ويدفعكم لقتال عدوكم ولا حمية وغيرة على كرامتكم تجعلكم أقوياء وتشدّ هممكم لقتال معاوية. . .

ثم استنكر التفاوت الذي يقع بينه وبين معاوية وبين جماعته وجماعة معاوية استنكر توبيخاً لهم لما يقدمه لهم وما يخدمهم به وهم لا يقابلون ذلك إلا بالإبتعاد عنه والتمرد على أمره على عكس معاوية ومسيرته في اتباعه. . .

أوليس عجباً بل اعجب العجب أن معاوية يدعو أعراب أهل الشام وسفلتهم للالتحاق به وقتال عدوه فيتبعونه استجابة لأمره وتحقيقاً لطلبه دون معونة منه لهم أو عطاء وذلك لأن معاوية لم يعط إلا الرؤساء والوجهاء والزعماء فكان هؤلاء يحركون من قبلهم ويأتمرون بأمرهم.

بينما أنا أدعوكم وقد تركّكم الإسلام للحفاظ عليه والدفاع عنه والجهاد من أجله وأنتم بقية أولئك الصحابة النجباء الذين فدوا الدين بنفوسهم فيجب أن تندفعوا في الحفاظ عليه. . فأنا أدعوكم وأقدم لكم المعونة للسلاح والدواب وأعطيكم طائفة من العطاء لكل واحد حقه حتى يتقوت به ويسد حاجته ومع ذلك تتفرقون عني وتختلفون عليّ بالمنكر والايذاء والعصيان. . .

وأي عجب أعجب من جماعة معاوية يسيرون خلفه دون معونة أو عطاء إلا ما

يصل إلى الرؤساء بينما أنا أعطيكم جميعاً وتتفرقون عني ولا تسمعون كلامي . . .

ثم أشار إلى أنهم لا يرضون منه بحال ولا يجمعهم أمر قط فإذا صدر منه أمر من حقه أن يجتمع عليه الناس لم يجتمعوا عليه كالعطاء فإن الزعماء والوجهاء كانوا يتمردون ويتذمرون ويشعرون بالغبن لمساواته لهم مع بقية الناس.

وكذلك إذا صدرمنه أمر يسخطون منه فإنهم أيضاً لا يجتمعون كلهم على سخطهم له كما لو أمرهم بالحرب فلا يجمعهم رضا ولا يجمعهم سخط . . .

(وإن أحب ما أنا لاقٍ إليّ الموت) هذه هي نهاية الأحرار يتمنون أن يتجرعوا كأس المنية ولا يرون هذه الحثالات البشرية تتمرد عليهم أو لا تستجيب لهم فيما يحيهم ويعزّهم ويكرمهم . . إنه الموت أطيب وأحلى من العيش بين قوم لا يعرفون مصالحهم ولا يسعون وراءها ولا يستجيبون للرواد منهم الذين ادركوا الأمور على حقائقها وعلى وجهها الصحيح . . .

(قد دارستكم الكتاب وفاتحتكم الحجاج وعرفتكم ما أنكرتم وسوغتكم ما مججتم لو كان الأعمى يلحظ أو النائم يستيقظ) هذا توبيخ لأصحابه وبيان أنه لم يقصر في حقهم فقد ابتدأ بكتاب الله فعلمهم إياه وأوضحه أمامهم وبينّ احكامه ومفاهيمه وما فيه من نور وهدى وكنوز، وقد فتح امامهم باب الحوار وألزمهم بالحجج التي لم يستطيعوا أن يردوا عليها أو يجيبوا على واحدة منها، وكل ما انكروه عليه قد أوضحه لهم وبين وجهه وصحته وصحة ما يذهب إليه، وكذلك كل الأمور التي كنتم لا تقبلون بها وترفضونها وتردون عليها قد بينها لكم حتى ظهر وجه الحق فيها ووجه الصواب في السير خلفها ولو كنتم عقلاء اصحاء لقبلتم ما أقول لكم . . ولكن أنّى للأعمى أن يبصر النور وأنّى للنائم أن يعرف ما يدور حوله . . . إنكم لا تنتفعون بكل المواعظ والارشادات ولن تفيدكم كل الوسائل والطرق لأنكم تسيرون وراء أهوائكم وخلف شهواتكم . . .

(وأقرب بقوم من الجهل بالله قائدهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة) هذا ذم لأهل الشام وقيادتهم الفاسدة الضالة وإن من كان معاوية قائدهم ومسّير أمورهم وموّجه سياستهم ومن كان ابن النابغة مؤدبهم فليس هناك أشد منهم قرباً من الجهل بالله والبعد عن ساحته والتنكر لأحكام دينه وعدوله عليه السلام عن ذكر إسم عمرو بن العاص صريحاً إلى ذكر أمه وتسميته «ابن النابغة» كما هو المشهور إنما كان تحقيراً له وتذكيراً بخسته ودناءته لأن أم عمرو بن العاص معروفة إنها من البغايا ونسبه مطعون فيه كما يذكر ذلك أصحاب التواريخ وعلماء الأنساب . . .

١٨١ ـ ومن كلام له عليه السلام

وقد أرسل رجلاً من أصحابه، يعلم له علم أحوال قوم من جند الكوفة، قد هموا باللحاق بالخوارج، وكانوا على خوف منه عليه السلام، فلما عاد إليه الرجل قال له: «آأَمِنُوا(١) فَقَطَنُوا(٢)، أم جبنوا فَظَعَنُوا(٣)؟» فقال الرجل: بل ظَعَنُوا يا أمير المؤمنين. فقال عليه السلام:

«بُعْداً(٤) لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ(٥)»! أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ(٦) ٱلأَسِنَّةُ(٧) إِلَيْهِمْ، وَصُبَّتِ(٨) ٱلسُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ(٩)، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ ٱلْيَوْمَ قَدِ ٱسْتَفَلَّهُمْ(١٠)، وَهُوَ غَداً مُتَبَرِّىءٌ مِنْهُمْ، وَمُتَخَلٍّ(١١) عَنْهُمْ. فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ ٱلْهُدَى، وَٱرْتِكَاسِهِمْ(١٢) فِي الضَّلَالِ وَٱلْعَمَى، وَصَدِّهِمْ(١٣) عَنِ ٱلْحَقِّ، وَجِمَاحِهِمْ(١٤) فِي التِّيهِ(١٥).

اللغة

١ ـ أمنوا	:	اطمأنوا.
٢ ـ قطنوا	:	أقاموا.
٣ ـ ظعنوا	:	رحلوا.
٤ ـ بعد	:	بكسر العين معناه الهلاك وبالضم ضد قرب.
٥ ـ ثمود	:	قوم صالح عليه السلام سموا بإسم أبيهم ثمود.
٦ ـ اشرعت	:	الرمح إلى زيد إذا سددته وصوبته نحوه.
٧ ـ الأسنة	:	جمع سنان نصل الرمح.
٨ ـ صبت	:	من صبّ الماء إذا سكبه.
٩ ـ الهامات	:	جمع هامة رأس كل شيء وهامات الرجال رؤوسهم.
١٠ ـ استفلهم	:	دعاهم للتفل وهو الانهزام عن الجماعة والتفرق عنها.
١١ ـ تخلى	:	عنهم تركهم.
١٢ ـ الارتكاس	:	رد الشيء مقلوباً وأركسته رددته على رأسه.

١٣ ـ صدهم : اعراضهم والصد هو المنع.
١٤ ـ الجماح : الجموح وهو أن يغلب الفرس راكبه.
١٥ ـ التيه : الضلال.

الشرح

(بُعداً لهم كما بعدت ثمود أما لو أشرعت الأسنة إليهم وصبّت السيوف على هاماتهم لقد ندموا على ما كان منهم: إن الشيطان اليوم قد استفلهم وهو غداً متبرىء منهم ومتخل عنهم فحسبهم بخروجهم من الهدى وارتكاسهم في الضلال والعمى وصدهم عن الحق وجماحهم في التيه).

علي يفتح الحوار فيوصده اعداؤه.

كان الخريت بن راشد من بني ناجية قد شهد مع الإمام في صفين وبعد انقضاء التحكيم جاءه في ثلاثين من أصحابه حتى وقف عنده وقال له: لا والله لا أطيع أمرك ولا أصلي خلفك وإني غداً لمفارقك.

فقال له الإمام: ثكلتك أمك إذاً تنقض عهدك وتعصي ربك ولا تضر إلا نفسك أخبرني لم تفعل ذلك؟ قال: لأنك حكّمت في الكتاب وضعفت عن الحق إذ جد الجد وركبت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم فأنا عليك راد وعليهم ناقم ولكم جميعاً مباين.

فقال له الإمام: هلم إليّ أدارسك وأناظرك في السنن وأمّا تحك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك فلعلك تتعرف ما أنت الآن له منكر وتنصر ما أنت الآن عنه غافل وبه جاهل؟.

فقال الخريت: فأنا غاد عليك غداً.

وخرج الخريت على أمل العودة في الغد ولكنه شد الرحال وعزم على مفارقة الإمام فخرج من الديار معلناً الحرب والمنابذة.

ولما كان الغد ولم يأت الخريت في الساعة المتفق عليها أرسل الإمام رجلاً من أصحابه يعلم به علم أحوالهم فلما عاد إليه قال له الإمام.

«أمنوا فقطنوا» أي اطمأنوا أنهم في أمان ولا يؤخذوا بشيء فاستقروا في أوطانهم «أم جبنوا فظعنوا»؟ أي خافوا وفزعوا فرحلوا وفارقوا الأوطان.

فقال الرجل: بل ظعنوا يا أمير المؤمنين أي خرجوا من الديار ورحلوا عنها.. فعندها دعا عليهم الإمام وقال لهم هذه الكلمات...

(**بعداً لهم كما بعدت ثمود**) وهذا دعاء بالهلاك كما هلكت ثمود وهي القبيلة التي قصَّ الله قصتها في القرآن وكانوا من قوم صالح.

ثم أخبر عن مستقبل حالهم وإنه عندما تسدّد النصال نحوهم لتأخذهم وتنزل السيوف على رؤوسهم كما ينزل الماء إشارة لكثرتها ووقوعها عليهم حينئذٍ عندها يندمون على خروجهم وما كان منهم من مفارقة الحق والعدول عنه إلى الباطل وقد وقعت السيوف بعد ذلك واجتثت أصولهم وقتلت الخريت ومن معه إلا من فرّ وهرب وانهزم...

ثم نبه على أن ما كان منهم من مفارقة الجماعة إنما كان من الشيطان الذي أخرجهم عن الجماعة وغداً يتبرأ منهم ومن تصرفهم ثم يتنكر لفعلهم وعملهم فالشيطان أغراهم بالمنكر ثم تبرأ منهم وتخلى عنهم.

وبعد ذلك بين أنهم يكفيهم ضلالاً وانحرافاً ورذيلة خروجهم من الهدى الذي كانوا عليه معنا وعودتهم إلى الضلال والانحراف وارتمائهم في الباطل والفساد فقد خرجوا من نور اليقين إلى ظلمات الشك والتردد...

كما يكفيهم ما صدوا به عن الحق حيث أنهم بخروجهم سيخرج المغفلون تبعاً لهم فيكونون من الصّادين عن الحق.. مع استرسالهم في الضلال واقتحامهم له دون حاجز من دين أو رادع من ضمير...

١٨٢ ـ ومن خطبة له عليه السلام

روي عن نوف البكالي قال: خطبنا بهذه الخطبة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بالكوفة وهو قائم على حجارة، نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي، وعليه مِدْرَعةٌ من صُوف وحمائل سيفه لِيفٌ، وفي رجليه نعلان من ليفٍ، وكأنّ جبينه ثَفِنَةُ بعير فقال عليه السلام:

حمد الله واستعانته

ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ(١) ٱلْخَلْقِ(٢)، وَعَوَاقِبُ(٣) ٱلأَمْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَنَيِّرِ(٤) بُرْهَانِهِ(٥)، وَنَوَامِي(٦) فَضْلِهِ وَٱمْتِنَانِهِ(٧)، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرِّباً، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً. وَنَسْتَعِينُ بِهِ ٱسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ(٨)، مُذْعِنٍ(٩) لَهُ بِٱلْعَمَلِ وَٱلْقَوْلِ. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً، وَأَنَابَ إِلَيْهِ(١٠) مُؤْمِناً، وَخَنَعَ(١١) لَهُ مُذْعِناً، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، وَلاَذَ بِهِ(١٢) رَاغِباً مُجْتَهِداً..

الله الواحد

لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي ٱلْعِزِّ مُشَارَكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً. وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلاَ زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ(١٣) زِيَادَةٌ وَلاَ نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلاَمَاتِ التَّدْبِيرِ ٱلْمُتْقَنِ(١٤)، وَٱلْقَضَاءِ ٱلْمُبْرَمِ(١٥). فَمِنْ شَوَاهِدِ(١٦) خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ(١٧) بِلاَ عَمَدٍ(١٨)، قَائِمَاتٍ بِلاَ سَنَدٍ(١٩). دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ(٢٠) وَلاَ

مُبْطِئَاتٍ، وَلَوْلاَ إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِذْعانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ(٢١)، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً(٢٢) لِعَرْشِهِ، وَلاَ مَسْكَناً لِمَلاَئِكَتِهِ، وَلاَ مَصْعَداً(٢٣) لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَٱلْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ. جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلاَماً(٢٤) يَسْتَدِلُّ بِهَا ٱلْحَيْرَانُ(٢٥) فِي مُخْتَلِفِ(٢٦) فِجَاجِ(٢٧) ٱلأَقْطَارِ(٢٨). لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ٱدْلِهْمَامُ(٢٩) سُجُفِ(٣٠) اللَّيْلِ ٱلْمُظْلِمِ، وَلاَ ٱسْتَطَاعَتْ جَلاَبِيبُ(٣١) سَوَادِ ٱلْحَنَادِسِ(٣٢) أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ(٣٣) فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلأْلُؤِ نُورِ ٱلْقَمَرِ. فَسُبْحَانَ مَنْ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ(٣٤) دَاجٍ(٣٥)، وَلاَ لَيْلٍ سَاجٍ(٣٦)، فِي بِقَاعِ الأَرَضِينَ ٱلْمُتَطَأْطِئَاتِ(٣٧)، وَلاَ فِي يَفَاعِ(٣٨) السُّفْعِ(٣٩) ٱلْمُتَجَاوِرَاتِ، وَمَا يَتَجَلْجَلُ(٤٠) بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلاَشَتْ(٤١) عَنْهُ بُرُوقُ ٱلْغَمَامِ(٤٢)، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ(٤٣) ٱلأَنْوَاءِ(٤٤) وَٱنْهِطَالُ(٤٥) السَّمَاءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ ٱلْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبَ(٤٦) الذَّرَّةِ وَمَجَرَّهَا(٤٧)، وَمَا يَكْفِي ٱلْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ ٱلأُنْثَى فِي بَطْنِهَا.

عود إلى الحمد

وَٱلْحَمْدُ للهِ ٱلْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوْ عَرْشٌ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ(٤٨) أَوْ إِنْسٌ. لاَ يُدْرَكُ بِوَهْمٍ(٤٩)، وَلاَ يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ، وَلاَ يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلاَ يَنْقُصُهُ نَائِلٌ(٥٠)، وَلاَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ، وَلاَ يُحَدُّ بِأَيْنٍ(٥١)، وَلاَ يُوصَفُ بِٱلأَزْوَاجِ(٥٢)، وَلاَ يُخْلَقُ بِعِلاَجٍ، وَلاَ يُدْرَكُ بِٱلْحَوَاسِّ، وَلاَ يُقَاسُ بِالنَّاسِ. الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً، بِلاَ جَوَارِحَ(٥٣) وَلاَ أَدَوَاتٍ، وَلاَ نُطْقٍ وَلاَ لَهَوَاتٍ(٥٤) بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا ٱلْمُتَكَلِّفُ(٥٥) لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ ٱلْمَلاَئِكَةِ ٱلْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجُرَاتِ(٥٦) ٱلْقُدُسِ مُرْجَحِنِّينَ(٥٧)، مُتَوَلِّهَةً(٥٨) عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ. فَإِنَّمَا يُدْرَكُ

بالصِّفَاتِ ذَوُو ٱلْهَيْئَاتِ وَٱلأدوَاتِ، وَمَنْ يَنقَضِي إذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِٱلْفَنَاءِ. فَلاَ إلهِ إلاَّ هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلاَمٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ.

الوصية بالتقوى

أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوى ٱللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ(٥٩)، وَأَسْبَغَ(٦٠) عَلَيْكُمُ ٱلْمَعَاشَ(٦١)، فَلَوْ أَنَّ أَحداً يَجِدُ إلَى ٱلْبَقَاءِ سُلَّماً(٦٢)، أَوْ لِدَفْعِ ٱلْمَوْتِ سَبِيلاً، لَكَانَ ذلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ ٱلْجِنِّ وَٱلإنْسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ(٦٣)، فَلَمَّا ٱسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ(٦٤)، وَٱسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ(٦٥) ٱلْفَنَاءِ بِنِبَالِ(٦٦) ٱلْمَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَٱلْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَإنَّ لَكُمْ فِي ٱلْقُرُونِ السَّالِفَةِ(٦٧) لَعِبْرَةً!.

أَيْنَ ٱلْعَمَالِقَةُ(٦٨) وَأَبْنَاءُ ٱلْعَمَالِقَةِ! أَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ ٱلْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ(٦٩) الَّذِين قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَؤُوا سُنَنَ ٱلْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوا سُنَنَ ٱلْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِٱلْجُيُوشِ، وَهَزَمُوا بِٱلأُلُوفِ، وَعَسْكَرُوا ٱلْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا(٧٠) ٱلْمَدَائِنَ!.

ومنها: قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا(٧١)، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ ٱلإقْبَالِ عَلَيْهَا، وَٱلْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرّغِ لَهَا، فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ(٧٢) الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إذَا ٱغْتَرَبَ ٱلإسْلاَمُ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ(٧٣) ذَنَبِهِ، وَأَلْصَقَ ٱلأَرْضَ بِجِرانِهِ(٧٤) بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلاَئِفِ أَنْبِيَائِهِ.

ثم قال عليه السلام:

أيُّهَا النَّاسُ، إنِّي قَدْ بَثَثْتُ(٧٥) لَكُمُ ٱلْمَوَاعِظِ الَّتِي وَعَظَ ٱلأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أدَّتِ(٧٦) ٱلأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ(٧٧) بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا(٧٨) . للهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ(٧٩) بِكُمُ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ؟ .

ألاَ إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً، وَأَزْمَعَ(٨٠) التَّرْحَالَ(٨١) عِبَادُ اللهِ ٱلأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لاَ يَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلآخِرَةِ لاَ يَفْنَى. مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ ـ وَهُمْ بِصِفِّينَ ـ أَلاَّ يَكُونُوا ٱلْيَوْمَ أَحْيَاءً؟ يُسِيغُونَ(٨٢) ٱلْغُصَصَ(٨٣) وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ(٨٤)! قَدْ ـ وَٱللهِ ـ لَقُوا ٱللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ ٱلأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ.

أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِين رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى ٱلْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ(٨٥)؟ وَأَيْنَ ٱبْنُ التَّيِّهَانِ(٨٦)؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ(٨٧)؟ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ(٨٨) مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا(٨٩) عَلَى ٱلْمَنِيَّةِ(٩٠)، وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ(٩١) إِلَى ٱلْفَجَرَةِ(٩٢)! .

قال: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة، فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام:

أَوِّهِ(٩٣) عَلَى إِخْوَانِي الَّذِين تَلَوُا(٩٤) ٱلْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ(٩٥)، وَتَدَبَّرُوا(٩٦) ٱلْفَرْضَ(٩٧) فَأَقَامُوهُ، أَحْيُوا السُّنَّةَ(٩٨) وَأَمَاتُوا ٱلْبِدْعَةَ(٩٩). دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِٱلْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ.

ثم نادى بأعلى صوته:

ٱلْجِهَادَ ٱلْجِهَادَ عِبَادَ ٱللهِ! إلاَ وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمي هذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى ٱللهِ فَلْيَخْرُجْ!.

قال نوْف: وعقد للحسين ـ عليه السلام ـ في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد ـ رحمه الله ـ في عشرة آلافٍ، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلافٍ، ولغيرهم على أعدادٍ أخر، وهو يريد الرجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله، فتراجعت العساكر، فكنا كأغنام فقدت راعيها، تختطفها الذئاب من كل مكان!.

اللغة

١ ـ المصائر : جمع مصير وهو المرجع.
٢ ـ الخلق : الناس.
٣ ـ العواقب : جمع العاقبة وهي آخر الشيء.
٤ ـ نيّر : منير، مضيء.
٥ ـ البرهان : الحجة.
٦ ـ النوامي : جمع نام بمعنى الزائد.
٧ ـ الامتنان : الانعام.
٨ ـ الطَّول : الفضل.
٩ ـ الاذعان : الانقياد والطاعة.
١٠ ـ أناب إليه : أقبل وعاد وتاب.
١١ ـ خنع : خضع وذلّ.
١٢ ـ لاذ به : لجأ إليه.
١٣ ـ تعاوره : اختلف عليه وتداوله.
١٤ ـ المتقن : المحكم يقال: اتقن الأمر إذا أحكمه.
١٥ ـ المبرم : المحكم وأصله جعل الحبل على طاقين وفتله.
١٦ ـ الشواهد : جمع شاهد وهو الذي يخبر بما شهده ورآه.
١٧ ـ موطدات : ممهدات مثبتات.
١٨ ـ العمد : ما يقوم عليه البناء وغيره.
١٩ ـ السند : ما يستند إليه ويعتمد عليه.

٢٠ ـ المتلكىء : المتوقف.
٢١ ـ الطواعية : الطاعة.
٢٢ ـ الموضع : المكان.
٢٣ ـ مصعداً : موضع الصعود.
٢٤ ـ الاعلام : جمع علم ما يوضع من الاشارات ليستدل به على الهدف.
٢٥ ـ الحيران : المتردد.
٢٦ ـ المختلف : الاختلاف والتردد أو موضعه أو من المخالفة.
٢٧ ـ الفجاج : جمع فج الطريق الواسع بين الجبلين.
٢٨ ـ الاقطار : جمع قطر الجانب والناحية.
٢٩ ـ الادلهمام : الظلمة الشديدة.
٣٠ ـ السجف : جمع سجف وهو الستر.
٣١ ـ الجلابيب : جمع جلباب ثوب واسع يلبس فوق الثياب.
٣٢ ـ الحنادس : جمع حندس بكسر الحاء الليل المظلم.
٣٣ ـ شاع : تفرق.
٣٤ ـ الغسق : أول الظلمة.
٣٥ ـ الداجي : المظلم.
٣٦ ـ الساجي : الساكن.
٣٧ ـ المتطأطئات : المنخفضات.
٣٨ ـ اليفاع : التل أو المرتفع من الأرض.
٣٩ ـ السفع : الجبال واصله سواد مشرب بحمرة.
٤٠ ـ الجلجلة : صوت الرعد.
٤١ ـ تلاشت : اضمحلت.
٤٢ ـ الغمام : السحاب.
٤٣ ـ العواصف : الرياح الشديدة.
٤٤ ـ الأنواء : جمع نوء منازل القمر.
٤٥ ـ الانهطال : الانصباب.
٤٦ ـ المسحب : موضع السحب.
٤٧ ـ والمجر : موضع جرها.
٤٨ ـ الجان : جمع جنان إسم جمع للجن.
٤٩ ـ الوهم : الفكرة والتوهم.
٥٠ ـ النائل : العطاء.
٥١ ـ الاين : المكان.

٥٢ ـ **الأزواج** : القرناء والأمثال.
٥٣ ـ **الجوارح** : الاعضاء.
٥٤ ـ **اللهوات** : جمع لهاة اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم.
٥٥ ـ **المتكلف** : المتعرض للأمور التي لا تعنيه.
٥٦ ـ **الحجرات** : جمع حجرة بالضم الغرفة.
٥٧ ـ **المرجحن** : كالمقشعر المائل لثقله والمتحرك يميناً وشمالاً.
٥٨ ـ **متولهة** : أي خائفة.
٥٩ ـ **الرياش** : اللباس الفاخر.
٦٠ ـ **أسبغ** : أوسع.
٦١ ـ **المعاش** : مكتسب الإنسان الذي يعيش به.
٦٢ ـ **السلم** : ما يرتقى عليه شبه الدرج.
٦٣ ـ **الزلفة** : القرب.
٦٤ ـ **الطعمة** : بالضم المأكلة أي ما يؤكل والمراد الرزق المقسوم.
٦٥ ـ **القسي** : جمع قوس آلة على شكل نصف دائرة ترمى بها النبال.
٦٦ ـ **النبال** : السهام العربية.
٦٧ ـ **السالفة** : المتقدمة.
٦٨ ـ **العمالقة** : أولاد عاد وثمود.
٦٩ ـ **مدائن الرس** : الرس إسم بئر وقيل إسم مدينة باليمامة...
٧٠ ـ **مدّن** : المداين مصرها وأنشاها.
٧١ ـ **الجنة** : بالضم الوقاية، ما يستتر به كالدرع.
٧٢ ـ **الضالة** : جمعها ضوال الشيء المفقود الذي تسعى وراءه.
٧٣ ـ **العسيب** : عظم الذنب.
٧٤ ـ **الجران** : للبعير صدره أو مقدم عنقه.
٧٥ ـ **بثت** : فرقتّ ونشرت.
٧٦ ـ **أديت** : أوصلت وأدى الخبر أوصله.
٧٧ ـ **حدوتكم** : سقتكم.
٧٨ ـ **استوثقت** : الإبل اجتمعت وأنضم بعضها إلى بعض.
٧٩ ـ **يطأ** : يدوس.
٨٠ ـ **أزمع** : صممّ وعزم.
٨١ ـ **الترحال** : الرحيل وهو الانتقال عن المكان.
٨٢ ـ **ساغ** : الشراب إذا سُهل وطاب.
٨٣ ـ **الغصص** : جمع الغصة ما يعترض في الحلق.

٨٤ ـ الرنق : بكسر النون وفتحها وسكونها الكدر.
٨٥ ـ عمار : هو ابن ياسر من السابقين الأولين.
٨٦ ـ ابن التيهان : هو مالك بن التيهان من أكابر الصحابة.
٨٧ ـ ذو الشهادتين : خزيمة بن ثابت الأنصاري.
٨٨ ـ النظراء : الاشباه والأمثال.
٨٩ ـ تعاقدوا : تعاهدوا.
٩٠ ـ المنية : الموت.
٩١ ـ أبرد برؤوسهم : أي أرسلت الرؤوس مع البريد.
٩٢ ـ الفجرة : مفرده فاجر وهو المنقاد للمعاصي...
٩٣ ـ أوّه : بفتح الهمزة وكسر الواو وتشديدها وكسر الهاء ـ كلمة توجع.
٩٤ ـ تلوا : قرؤا وتلا الكتاب قرأه.
٩٥ ـ أحكموه : اتقنوه.
٩٦ ـ تدبروا : الأمر نظروا في أدباره أي عواقبه وتفكّروا فيه.
٩٧ ـ الفرض : الواجب.
٩٨ ـ السنة : جمع سُنن المستحبات والمندوبات.
٩٩ ـ البدعة : ما استحدث على غير مثال سابق، ادخال ما ليس في الدين فيه.

الشرح

(الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق وعواقب الأمر. نحمده على عظيم إحسانه ونيّر برهانه ونوامي فضله وامتنانه، حمداً يكون لحقه قضاءً ولشكره أداء وإلى ثوابه مقرباً ولحسن مزيده موجباً) هذه خطبة خطبها الإمام في الكوفة يروي نوف البكالي صاحب أمير المؤمنين قال: خطبنا بهذه الخطبة أمير المؤمنين علي عليه السلام بالكوفة وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي وعليه مدرعة من صوف وحمائل سيفه ليف وفي رجليه نعلان من ليف وكأن جبينه ثفنة بعير...

وقد حمد الله سبحانه باعتبارات متعددة حمده باعتبار أن مرجع العباد إليه فمهما طالت أيامهم في دار الدنيا ومهما تقلبوا فيها وجمعوا وبنوا فإنهم سيعودون إلى الله بالموت وسينقلون، إليه قهراً عنهم وهو الذي يتولى حسابهم في نهاية المطاف ويعطي كل ذي حق حقه إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً قال تعالى: **﴿إن إلينا أيابهم ثم إن علينا حسابهم..﴾**.

وحمده باعتبار عظيم إحسانه: وأعظم إحسانه سبحانه على عبده أن هداه للإيمان به ودلّه على الطريق إلى معرفته وقيل إن عظيم إحسانه هي أصول نعمه كالحياة والقدرة والشهوة. . .

وحمده على نيّر برهانه: فإنه سبحانه يستحق الحمد لما نصبه من الأدلة الواضحة التي تدل على ذاته وصفاته وما أكثرها وأجلاها في الأنفس وفي الآفاق. . .

وحمده باعتبار نوامي فضله وامتنانه: باعتبار أن عطاء الله في زيادة مستمرة فيولد المولود ويزيد الله في عمره إلى ما شاء الله ثم أنه يعطيه من رزقه باستمرار ويزيده من فضله وهذا كله أمر يستحق عليه الحمد. . .

ثم أراد المبالغة في حمد الله فوصفه بهذه الأوصاف. . .

حمداً يكون لحقه قضاء ولشكره أداء: وهذا من باب المبالغة بالحمد والشكر لأن العبد وإن بلغ بهما أقصى قدرته لن يصل إلى أن يكون قاضياً لحق الله تعالى أو مؤدياً لشكره.

حمداً يكون إلى ثوابه مقرباً: حمداً يكون موجباً للثواب ويكون أيضاً موجباً لزيادته فإنه سبحانه أوجب على نفسه ثواب من يشكره بقوله: ﴿**فاشكروني أشكركم**﴾ أي اثيبكم كما أوجب الزيادة لمن شكره بقوله: ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾. . .

(ونستعين به استعانة راج لفضله مؤمل لنفعه واثق بدفعه معترف له بالطول مذعن له بالعمل والقول) بعد أن انتهى من حمد الله بالإعتبارات السابقة شرع في الاستعانة به وقد ذكر هذه الاستعانة على أنحاء عدة:

فهي استعانة راج لفضله: يرجو فضله ويضع عنده ثقله. . يرجو فضله في الآخرة بجنة عرضها كعرض السماوات والأرض. . .

واستعانة مؤمل لنفعه: فهو يأمل كل ما ينفع ويفيد في الدنيا والآخرة.

واستعانة واثق بدفعه: فهو يستعين به ومطمئن إلى أنه القادر على دفع المضار عنه.

استعانة معترف له بالطول: استعانة من اعترف لله بالفضل والإحسان استعانة من أيقن وانقاد لله بالفعل والقول فهو مسرع إلى الاعتقاد به وبما جاء من جناب قدسه كما أنه عامل بكل ما أمر وطلب. . .

وإن من استعان بالله هذه الاستعانة الخالصة المستجمعة لهذه الأوصاف كان الله في عونه لا محالة لا يخذله ولا يهمله. . .

(ونؤمن به إيمان من رجاه موقناً وأناب إليه مؤمناً وخنع له مذعناً وأخلص له موحداً وعظمه ممجداً ولاذ به راغباً مجتهداً) هذا هو الإقرار بالإيمان الكامل وهو إيمان رفيع عظيم يحمل أوصافاً كريمة. . .

إيمان من رجاه موقناً: فهو لأيمانه يرجوه فيما أراد وأحب وهو مطمئن بتحقيق ما رجاه له. . .

وإيمان من أناب إليه موقناً: إيمان من عاد إليه من ذنوبه مصدقاً بأنه يغفرها ويمحوها بل يبدلها حسنات. . .

إيمان من خنع له مذعناً: أي إيمان من ذل له وخضع معترفاً باستحقاقه لكل تعظيم وتبجيل. . .

إيمان من أخلص له موحداً: إيمان من لم يشرك به أحداً مخلصاً له في عمله لم يعمله إلا لوجهه الكريم.

إيمان من عظمه ممجداً: أي عظّمه بصفات العز والجلال حال تمجيده له بأوصاف القدرة والكمال.

إيمان من لاذ راغباً مجتهداً: إيمان من استجار به ولجأ إليه راغباً فيما عنده مجتهداً بإداء حقه وما هو مطلوب منه. . .

(لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركاً، ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً) نزّه الله عن صفات المخلوقين فنفى عنه التولد فهو لم يولد من أب فيكون مشاركاً في العز لأنه غالب أبناء الملوك يتولدون من ملوك فيشاركون الآباء في العز.

كما نفى عنه الولد فليس له ولد ولو كان له ذلك فلا بد أن يموت ويرثه الولد لأن طبيعة الأمور الجارية أن يموت الآباء فيرثهم الابناء. . .

(ولم يتقدمه وقت ولا زمان) نفى أن يكون قد سبقه الزمان وكيف يسبقه وهو القديم والزمان حادث والحادث متأخر عن القديم، ثم أن الزمان هو نتيجة دورة الفلك والله خالق الفلك وما فيه والخالق مقدم على المخلوق إن جازت المقارنة بين الله وبين الأشياء. . .

(ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان) ولو طرأ عليه نقصان أو زيادة لكان محلاً للحوادث والله منزه عن ذلك لأن ذلك من صفات الممكن والله واجب الوجود الذي لا يطرأ عليه ما يطرأ على الممكنات. . .

(بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم) لم تره العيون بل رأته القلوب. . رآه الفكر وأدرك وجوده. . . بهذا النظام الكوني البديع الذي وضع كل شيء موضعه ترى الله في إبداعه وخلقه. . ولينظر الإنسان إلى نفسه وإلى هذه الدقة المتناهية في أصغر أجزاء بدنه فإنه يرى النظام والتدبير ويرى الحكمة في أبدع صورها وأروع ما تكون. . .

(فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطدات بلا عمد قائمات بلا سند دعاهن فاجبن طائعات مذعنات غير متلكئات ولا مبطئات ولولا اقرارهن له بالربوبية واذعانهن بالطواعية لما جعلهن موضعاً لعرشه ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه) بعد أن ذكر إجمالاً ظهور الله في مخلوقاته أشار إلى واحدة منها تفصيلاً فذكر السماوات كشاهد على وجوده وعظمته وهذه السماوات خلقها الله محكمات ممهدات مثبتات في محلها على وفق النظام العام قال تعالى: ﴿**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. .**﴾.

ثم ذكر خلق هذه السماوات وإنها رُفعت بغير عمد ترونها ولا سند يسندها عن الوقوع والسقوط قال تعالى: ﴿**خلق السماوات بغير عمد ترونها. .**﴾.

ثم ذكر أنه سبحانه بعد أن خلق السماوات دعاهن لطاعته وتلبية أمره فأجبن أمره بلسان الحال أي كن تحت أمره وتصرفه ووفق نظامه الذي أراده لم تخرج أحداهن عن مشيئته. . . استجابت له من غير تلكؤ ولا بطيء كما قال تعالى: ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها**[1] **وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا اتينا طائعين. . .**﴾.

ثم ذكر أنه لولا أنهن أقررن بربوبية الله وخضوعهن له بالطاعة لما جعلهن موضعاً لهذه الأمور الكريمة. . .

لما جعلهن موضعاً لعرشه بحيث منهن تنزل الأوامر الإلهية وينزل قضاء الله وقدره.

وكذلك لم يجعلن ـ لولا ذلك ـ محلاً لسكنى ملائكته ولا جعلهن محلاً لصعود

---

(١) سورة الدخان، آية/ ١١.

الكلم الطيب الذي هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أو كل كلام خيرٍ وكلام فيه نفع وأجر وكذلك لولا ذلك لما جعلن موضعاً للعمل الصالح من خلقه يرفعه اليهن. . .

فإنه سبحانه لولا قدرته عليهن وطاعتهن له وكونهن تحت إرادته لما جعل هذه الأمور كلها فيهن لأن من عجز عن امضاء أمره فيه عجز عن التصرف فيه بجعل هذه الأمور فيه. . .

(**جعل نجومها أعلاماً يستدل بها الحيران في مختلف فجاج الأقطار**) فالناس المتحيرون في أقطار الأرض الذين لا يعرفون وجهة مسيرهم عندما ينظرون إلى النجوم يهتدون إلى الجهة التي إليها يتوجهون كما قال تعالى: ﴿**وبالنجم هم[1] يهتدون**﴾.

(**لم يمنع ضوء نورها ادلهمام سجف الليل المظلم ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن ترد ما شاع في السماوات من تلألؤ نور القمر**) وهذه من دلائل قدرته وحكمته أن سواد الليل وظلمته بل شدة ظلمته لم تمنع الكواكب من الإضاءة وكذلك هذه الظلمة لم تمنع القمر من تلألؤ نوره وإنما خص القمر بالذكر وإن كان داخلاً تحت السابق من الكواكب لشرفه لما يظهر منه من النور وما يستدل به على الأيام والشهور. . .

(**فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج ولا ليل ساج في بقاع الأرضين المتطاطئات ولا في يفاع السفع المتجاورات**) سبح الله ونزهه عن النقص باعتبار علمه بما يخفى في هذه الأشياء التي لا يكشفها الناس ولا يراها البشر، سبحان من لا يخفى عليه سواد شديد وليل هادي لا حركة فيه في أقطار الأرض ومنخفضاتها وفي أعالي الجبال المتجاورة والمتقاربة.

(**وما يتجلجل به الرعد في أفق السماء وما تلاشت عنه بروق الغمام وما تسقط من ورقة تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء وانهطال السماء ويعلم مسقط القطرة ومقرها ومسحب الذرة ومجّرها وما يكفي البعوضة من قوتها وما تحمل الأنثى في بطنها**) وكذلك سبح الله باعتبار علمه بهذه المفردات التي تدخل تحت علمه العام بكل الأشياء وخصوصياتها فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض وهذه المفردات التي ذكرها الإمام هي:

إنه لا يخفى عليه ما يتحرك به الرعد من صوت وحركة مفيدة أوضارة.

---

(١) سورة النحل، آية/ ١٦.

ولا يخفى عليه سبحانه ما تلاشت عنه بروق الغمام أي ما اختلفت عنه أضواء البروق ولمعانها وهي أعجب من غيرها لخفائها وعدم رؤية ما يقع تحتها. . .

ولا يخفى عليه سبحانه ما تسقط من ورقة تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء: فالأنواء وهي تغيرات الطقس إذا أزالت ورقة عن محل سقوطها يعلمها الله ويعلم متى يكون ذلك زماناً ومكاناً. . .

ولا يخفى عليه انهطال السماء: أي ما ينزل منها من مطر فإنه يعلم عدد القطر ومكان نزوله ومستقر كل قطرة.

ولا يخفى عليه أيضاً مكان سحب النمل الصغير وجرها وما يكفي البعوضة الصغيرة من قوت على قلته وحقارته كما أنه سبحانه يعلم ما تحمل كل انثى من ذكر أو انثى وهل يصبح سعيداً أم شقياً ناجحاً أم فاشلاً. . .

(والحمد لله الكائن قبل أن يكون كرسي أو عرش أو سماء أو أرض أو جان أو انس) وحمد الله الموجود قبل كل شيء فهو من الأزل كان ولم يكن معه كرسي أي علم أو عرش قوة أو سماء أو أرض أو جان وهو الجن أو أبو الجن أو إنس أي بشر فإن هذه وأمثالها وكل مخلوق إنما كان يفيض كرمه وجوده كانت بعد أن لم تكن فبقدرته أوجدها. . .

(لا يدرك بوهم ولا يقّدر بفهم ولا يشغله سلئل ولا ينقصه نائل ولا ينظر بعين ولا يحدّ بأين ولا يوصف بالأزواج ولا يخلق بعلاج ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس) نزّه الله عن هذه الإعتبارات التي يمكن أن تقع تحت مقدور الإنسان والتي هي من خصوصيات المخلوقات وذلك في ضمن أمور:

- لا يدرك بوهم: لأن قوة الوهم هي القوة التي يتخيلها الإنسان وهي منتزعة من أمور خارجية واقعة تحت الحس والله منزه عن كل ما يتوهم الإنسان ويتصور ولذا قال الإمام الباقر عليه السلام: كلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مثلكم مردود إليكم. . .

- لا يقدر بفهم: لا تستطيع العقول أن تحد الله وتعرفه أو تضع له المواصفات التي تقدره وتحده. . .

- لا يشغله سائل: فإننا بسؤال أحد قد نعجز عن آخر لمحدودية قدرتنا وعجزنا أمّا الله فإنه في نفس الوقت الذي يسمع من هذا يسمع من غيره حتى إنه يسمع مخلوقاته

كلها بدون أن يشغله أحد في سؤاله عن أحد. . .

ـ ولا ينقصه نائل: لا ينقص العطاء من ملكه ذرة بل هو فيض العطاء كلما أعطى كلما إزدادت خزائنه، ليس كأبناء الدنيا وأثريائها إذا أعطوا شيئاً نقص رأس مالهم وخفت ثروتهم وقلّت. . .

ـ لا ينظر بعين: فإنه منزه عن الحواس التي هي عند البشر لأن الناس محتاجة إليها فقيرة إلى ذلك وأما الله فإنه يعلم بكل شيء ويرى كل شيء بدون حاسة نظر.

ـ ولا يحّد باين: فلا يقال: أين مكان الله لأنه سبحانه خالق المكان وصانعه، ولأنه لو أشير إليه بالمكان لكان جسماً والأجسام محتاجة وفقيرة وممكنة غير واجبة الوجود والله منزه عن ذلك. . .

ـ لا يوصف بالأزواج: أي ليس له ثاني فيوصف بأن معه زوج فلا يدخل في العدّ. . وقيل لا يوصف بالأمثال والأضداد أو بصفات الأزواج أوليس فيه تركيب وازدواج أمرين أو بأن له صاحبة. . .

ـ لا يخلق بعلاج: لا يحتاج في خلقه الخلق إلى آلات ومعدات ووسائط حتى يتم فعله وإنما بقوله كن فيكون يتم الخلق ويتحقق الإيجاد. . .

ـ لا يدرك بالحواس: لأن الحواس للمخلوقات وليس للخالق وللأجسام وليس لفاعل الأجسام.

ولا يقاس بالناس: لا يشبههم بشي من تركيبهم وتكوينهم وحالاتهم وما هم عليه وفيه. . .

(الذي كلّم موسى تكليماً وأراه من آياته عظيماً بلا جوارح ولا أدوات ولا نطق ولا لهوات) فالله الذي كلّم موسى على وجه الحقيقة وأراه من آياته الكبرى عظيماً حيث أراه الشجرة الخضراء تشتعل فيها النار فلا تحترق ورأى كلام الله من جوانبه السّت فإن كلام الله كان يصدر بدون وسائط الكلام المتعارفة عند الناس فإن الناس لا تستطيع أن تنطق إلا بجارحة كاللسان ومعاونيه من وجود اللهاة في منتهى الحلق وأن تكون أدوات البلعوم متكاملة تامة والله سبحانه كلم موسى بدون هذه الوسيلة وأدواتها بل خلق النطق في الشجرة وهي التي أخذت تخاطب موسى وهذه الصفات الربانية يعجز عن ادراكها الناس. . .

(بل أن كنت صادقاً أيها المتكلف لوصف ربك فصف جبريل وميكائيل وجنود

الملائكة المقربين في حجرات القدس مرجحنين متولهة عقولهم أن يحدوا أحسن الخالقين. .) وهذا رد يراد به تعجيز من أراد أن يصف ربه وأن هذا المتكلف والمتعسف وصف الله بدل ذلك فليصف مخلوقاً من مخلوقات الله فإنه يعجز عن وصف مخلوق مثله فكيف يصف الخالق وإذا كان قادراً على وصف الله فليصف جبريل كبير الملائكة أو ميكائيل أو جنود الملائكة المقربين الذين يسكنون بيوت الطهارة والتقوى خاضعين لهيبة الله وجلاله متحيرة عقولهم متشتته أفكارهم لا تستطيع أن تدرك الله رب العالمين وأحسن الخالقين. . .

(فإنما يدرك بالصفات ذوو الهيئات والأدوات ومن ينقضي إذا بلغ أمد حده بالفناء فلا إله إلا هو أضاء بنوره كل ظلام وأظلم بظلمته كل نور) الذي يدرك بالصفات وتستطيع أن تنعته بالطول والعرض والأين والمتى والزمان والمكان وغيرها إنما هو ذو الهيئات والأدوات أي ذو الصفات والآلات وكذلك يصح أن يقع تحت الوصف من له أمد ينتهي إليه ويفنى عنده فإنه إذا تحلل عندها تفحص اجزاءه وتعرف تركيبه فتقدر على وصفه.

ثم رتب على ذلك أنه وحدّ الله فلا إله إلا هو ورتب على ذلك أن بشرائعه وأحكامه تضيء الدنيا وتختفي ظلماتها وإذا أراد اظلامها قطع عنها الرسل ورفع عنها النبوات فعادت إلى الجاهليه والعمى هذا إذا أراد بكلامه الأمور المعنوية وقد يريد الأمور المحسوسة وذلك ظاهر بحيث إذا أراد الإنارة رفع بها كل ظلام كما يقع في النهار وقد يظلم بأمره كما في الخسوف والكسوف كل نور. . .

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ألبسكم الرياش وأسبغ عليكم المعاش) بعد أن انتهى من حمد الله وذكر صفاته ودلائل عظمته أوصى بهده الوصية التي لا يأنف منها أحد الوصية بتقوى الله وذكرهم بنعمتين هما مدار الحياة الدنيا الرياش والمعاش الكسوة والمؤونة والله سبحانه قد ألبسنا الملابس الفاخرة الجميلة التي تقينا الحر والبرد وهي جمال لنا وستر وأوسع علينا المعاش فأحّل لنا الطيبات كلها وحرّم علينا الخبائث. . .

(فلو أن أحداً يجد إلى البقاء سلماً أو لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام الذي سُخر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة فلما استوفى طعمته واستكمل مدته رمته قسي الفناء بنبال الموت وأصبحت الديار منه خالية والمساكن معطلة وورثها قوم آخرون وإن لكم في القرون السالفة لعبرة) لما كان حب الدنيا رأس كل خطيئة أراد أن يزهد فيها أهلها ويرغبهم بالآخرة فضرب لهم مثلاً فقال لو أن أحداً من البشر يجد إلى الخلود في الدنيا والبقاء فيها طريقاً أو لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك سليمان بن داود الذي سخر له الجن والإنس فلم يملك قبله ولا بعده ملك ما ملكه هذا النبي مع ذلك

أعطاه الله النبوة وعظيم القرب منه فلا الدنيا دفعت عنه الموت بكل ما تحويه ولا قربه من الله بالنبوة دفع عنه الموت فإنه بعد أن أكل لقمته التي كتبت له وأمضى عمره المقدر له جاءه الموت بسهامه فرماه فخر صريعاً ميتاً وأصبحت الديار منه خاليه قد فقدته والمساكن معطلة فارغة فلا زوار ولا رواد، ماتت الحركة فيها بموته وانتقلت هذه الدار إلى ورثته والعاقل من يعتبر به ويأخذ العبرة من الأمم المتقدمة التي هلكت ولم يبق منها أحد. . .

(أين العمالقة وأبناء العمالقة، أين الفراعنه وأبناء الفراعنه أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين وأطفؤوا سننن المرسلين وأحيوا سنن الجبارين، أين الذين ساروا بالجيوش وهزموا بالألوف وعسكروا العساكر ومدنوا المدائن) استفهم عليه السلام تقريراً وحثاً لهم على التفكر والحذر. . .

«أين العمالقة وابناء العمالقة. . » إنهم انقرضوا وماتوا ولم يبق منهم أحد لقد طغوا وبغوا فقضى الله عليهم وأفناهم. . وكانت مواقعهم في اليمن والحجاز وبهم يضرب المثل. . .

«أين الفراعنة وابناء الفراعنة» وهم حكام القبط في مصر وهم الذين كانوا في زمن موسى وقد قصّ الله خبر فرعون موسى وما كان منه وما أدعاه لنفسه وكيف كانت سيرته حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر. . إنه لم يبق منهم أحد. . لم تبق إلا جثثهم عبرة للمعتبر. . .

«أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبين واطفؤوا سنن المرسلين وأحيوا سنن الجبارين».

وهؤلاء - أصحاب الرس - قد قصّ الله خبرهم فقال: **«كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس»** وقد قيل أن نبيهم إسمه حنظلة وقد كانوا يعبدون بئراً لهم فقتلوا نبيهم ورموه فيه فغارت البئر وأخذهم الله بصيحة واحدة اهلكتهم.

«أين الذين ساروا بالجيوش وهزموا بالألوف وعسكروا العساكر ومدنوا المدائن. . ».

وهؤلاء أيضاً اختفوا من الوجود ولم يبق منهم نافخ نار أين كسرى فارس وقيصر الروم أين التبابعة. . لقد كان لهؤلاء عز ودولة كانت لهم جيوش جرارة هزموا بها آلاف الجيوش. . كانت لهم معسكرات يجتمعون بها ويتدربون فيها. . لقد بنوا المدن ومصروها ثم بعد ذلك قضى عليهم الزمن وأفناهم الله. . .

(قد لبس للحكمة جنتها وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها والمعرفة بها والتفرغ لها فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها وحاجته التي يسأل عنها، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام وضرب بعسيب ذنبه وألصق الأرض بجرانه بقية من بقايا حجته خليفة من خلائف ابنائه) اختلف شراح النهج في المراد من قوله «قد لبس» ولمن يرجع الضمير في الفعل وذلك إن الشريف قطع كلام الإمام ولم يذكر قبل هذا الكلام ما يرجع إليه هذا.

وقد قالوا: إنه ولي الله في الأرض وهو مذهب الصوفيين.

وقالوا: إنهم العلماء...

وقال الفلاسفة: يريد بكلامه عليه السلام «العارف بالله» وقد قال الشيعة ووافقهم عليه في الجملة ابن أبي الحديد إنه يريد به الإمام المهدي المنتظر قال ما نصه: وليس يبعد عندي أن يريد به القائم من آل محمد ﷺ في آخر الوقت.... وقد وقع اتفاق الفرق من المسلمين أجمعين على أن الدنيا والتكليف لا ينقضي إلا عليه.. ومفاد كلامه عليه السلام: أن هذا الحكيم ـ الإمام ـ قد اتصف بمخافة الله سبحانه وتعالى التي هي بمنزلة الجنة للحكمة تحفظها وتدفع عنها ما يشينها وقد أخذ هذه الحكمة بجميع شوؤنها وشجونها من الاقبال عليها بالإهتمام بها والمعرفة بها والتفرغ لتحصيلها فهي بالنسبة له كالضالة التي عادت لصاحبها يأنس لها ويرتاح ويفرح وهي حاجته التي يسأل أين هي ليحصل عليها فهو يفتش عنها ويطلبها ويسعى من أجلها.

ومن خصوصيات هذا الإمام إنه يختفي ويغيب إذا اختفت أحكام الإسلام وتعطل العمل بها فهو يحمل هموم الدين ويزعجه أن يرى أحكامه معطلة وحدوده لا يعمل بها ووصف الإسلام يومها بأنه كالجمل البارك يضرب الأرض بذنبه ويلصق مقدم عنقه بالأرض فيمتنع عن التصرف والنهوض وهذا أخبار بما يلحق الإسلام من الضغط والقهر وما يمارسه الحكام الظلمة من تعطيل حدوده ورفع بنوده...

ثم عاد إلى صفة الإمام ووصفه بأنه «بقية من بقايا حجته خليفة من خلائف انبيائه» إنه حجة يحتج به الله على عباده وخليفة من خلفاء الله الذين يحملون رسالة الله ويؤدونها إلى عباده...

(أيها الناس إني قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بها أممهم وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا لله أنتم أتتوقعون إماماً غيري يطأ بكم الطريق ويرشدكم السبيل) أخذ عليه السلام في موعظتهم وتذكيرهم بالله ووبخهم لعدم طاعتهم لله من خلال عدم إطاعة أوامره...

إني قد وعظتكم بما وعظ الأنبياء به أممهم فكل ما يقربهم من الله قد بينه لهم وكل ما يبعدهم عنه قد نهاهم عنه وضرب لهم الأمثال وقص عليهم قصص الأمم السالفة وبيّن لهم وجه الحق وأوصل إليهم كل أسرار الشريعة وأحكامها التي من عادة الأوصياء أن يوصلوها إلى من بعدهم من الناس وباعتباره وصي رسول الله وحامل سره ومستودع أمره لم يبخل على أصحابه وجميع المسلمين بل أوصل إليهم كلما أراد النبي وأحب إبلاغهم إياه. . .

ثم إنه مارس معهم القوة فنثر سوطه وأدبهم به فلم يستقيموا على نهج الحق ولم يتركوا الباطل ووجّه إليهم كل ما يزجر الإنسان ويكّفه عن الانحراف فلم يقبلوا منه ولم يجتمعوا على ما أمر وما أحب. . .

ثم استفهم مستنكراً عليهم عدم قبول قوله قائلاً لهم أتريدون إماماً غيري تتوقعونه ليأخذ بأيديكم إلى منهاج الحق والعدل ويحملكم على الطريق المستقيم للشريعة والدين وهل هناك أهدى من الإمام وأعلم منه في إيصال الخلق إلى الله ولكنها القلوب التي طُبع عليها فلم تسمع صوت الهداية ولم تر النور. . .

(ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً وأقبل منها ما كان مدبراً) نعى الهدى والخير الذي كان مقبلاً زمن رسول الله وأنذر بالشر والويل ما كان مدبراً زمن رسول الله. . .

(وأزمع الترحال عباد الله الأخيار وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى) هذا بيان للقرار الذي يتخذه عباد الله الأخيار باستمرار، إنه قرار السفر إلى الله والهجرة إليه، فإن قلوبهم تبقى تتطلع إليه شوقاً وحباً فهم دائماً على سفر قد باعوا قليلاً من الدنيا وهو هذا العمر القصير وما في الدنيا من متاع حقير بالآخرة الكثيرة في خيرها والتي لا تفنى أو تزول فهم عقلاء بل عقول العقلاء حيث نظروا إلى الأبقى والأنفع والأثمن فطلوبها وتركوا القليل الفاني الذي لا يبقى. . .

(ماضر أخواننا الذين سفكت دماؤهم ـ وهم بصفين ـ ألا يكونوا اليوم أحياءً؟ يسيغون الغصص ويشربون الرنق قد ـ والله ـ لقوا الله فوفاهم أجورهم وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم) استشهد لهؤلاء الأخيار الذين ازمعوا الترحال بحال إخوانه الذين استشهدوا في صفين وإنه لم يضرهم الموت إنه لم يضرهم سفك دماؤهم فلو عاشوا إلى اليوم لرأوا المنكر ونظروا إلى تشتت الاراء واختلافها وعدم طاعتهم لولي الأمر. . لو بقوا لتجرعوا الغصص التي اتجرعها وشربوا كأس الصبر والمحن التي اشربها ولكنهم قدموا على الله شهداء صدقٍ فوفاهم الله أجرهم الجنة بأحسن ما كانوا يعملون وأحلهم دار الأمن والدعة في الجنة بعد خوفهم منه في دار الدنيا ومن خاف الله في الدنيا أمنه يوم القيامة. . .

(أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار وأين ابن التيهان، وأين ذو الشهادتين وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية وأبرد بروؤسهم إلى الفجرة) وهذا نداء علي يرتفع متسائلاً عن إخوانه الذين ركبوا طريق الحق والعدل ومضوا على هدي الإسلام وتعاليمه. . يسأل عنهم توبيخاً للحاضرين وإنه لا يملك منهم إخواناً. . أين عمار؟. . . عمار بن ياسر. . المعذب في سبيل الله. . المؤمن الطيب ابن الطيب. . أين عمار شهيد صفين في جبهة الحق ضد الباطل. . وأين ابن التيهان أبو الهيثم نقيب الأنصار في ليلة العقبة عندما بايعوا رسول الله على نصرته وحمايته والذب عنه.

وأين ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت الأنصاري وأين نظراؤهم من المخلصين والطيبين الذين اتفقوا على القتال حتى الموت وأرسلت رؤوسهم بالبريد إلى الفجرة من ملوك الشام. . .

يقول الراوي: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء ثم قال:

(أوه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة وأماتوا البدعة، دعوا للجهاد فأجابوا ووثقوا بالقائد فاتبعوه) تحسر لفقدان إخوانه وتوجع عليهم أين هم هؤلاء الإخوان الذين صفاتهم هي:

١ ـ تلوا القرآن فأحكموه، قرؤا القرآن فأقاموا أحكامه حللّوا حلاله وحرموا حرامه والتزموا حدوده. . .

٢ ـ تدبروا الفرض فأقاموه: نظروا إلى الواجب عليهم فأقاموه كما هو بحدوده وشرائطه وأجزائه ولا حظوا أهدافه وخلفياته وما وراءه فعملوا من أجل تحقيقها.

٣ ـ احيوا السنة: فكل ما ورد عن النبي طبقوه ونفذوه وقاموا به فعاشت سنة رسول الله بينهم. . .

٤ ـ أماتوا البدعة: حاربوا البدع المستحدثة التي لم يشرعها الله ولا رسوله ولم يأذن بشيء منها كما وقع ذلك من بعض الخلفاء مما هو مذكور في محله. . .

٥ ـ دعوا للجهاد فأجابوا: وهذه من صفات إخوان الإمام فعمار قد جاوز التسعين من العمر يشد حاجبيه ليرفعهما عن عينيه ثم ينفر للقتال مع الإمام في صفين ويستشهد في سبيل الله ضد الباطل الأموي. . .

٦ ـ ووثقوا بالقائد فاتبعوه؛ اطمأنوا إلى القيادة إخلاصاً وحكمة وعلماً وعملاً فاتبعوا أوامرها ونفذوا ما أرادت وطلبت ويريد بذلك نفسه الشريفة. . .

ثم نادى بأعلى صوته:

(الجهاد الجهاد عباد الله) هيا إلى الجهاد وانفروا إليه يا عباد الله.

(ألا وإني معسكر في يومي هذا فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج) بين لهم أنه خارج لتعبئة العسكر فمن أراد الجهاد والرواح إلى الجنة فليخرج إلى المعسكر لقتال الأعداء. . .

قال نوف: وعقد للحسين ـ عليه السلام ـ في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد ـ رحمه الله ـ في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف ولغيرهم على اعدادٍ أخر وهو يريد الرجعة إلى صفين فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنة الله فتراجعت العساكر فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان. . .

عمار بن ياسر وأمه اسمها سمية أسلمت هذه الأسرة قديماً وقد لاقت من المشركين أشد العذاب حتى ماتت أمه ومات أبوه تحت التعذيب في قصة يرويها أصحاب السير فكانا أول شهيدين في الإسلام وقد بشرهم رسول الله بالجنة فكان عندما يمر عليهم وهم يعذبون يقول لهم: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت**».

نزل في عمار قوله تعالى: ﴿**ألا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ وذلك أنه أعطى المشركين بلسانه ما أرادوا مكرهاً فقال قوم يا رسول الله: إن عماراً كفر فقال رسول الله (ص): «**كلا إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه**» وجاء عمار إلى رسول الله يبكي فقال النبي: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير فجعل رسول الله يمسح عينيه ويقول: «**إن عادوا لك فعد لهم بما قلت**»، أثنى النبي عليه فقال: ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، واستأذنًا يوماً على رسول الله فسمع النبي صوته فقال: مرحباً بالطيب ابن الطيب إئذنوا له وقال رسول الله: «**عمار جلدة بين عيني**» وقال (ص): «**لقد ملىء عمار إيماناً إلى مشاشه**» وقال (ص): «**إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان**».

شهد عمار جميع مشاهد رسول الله وقد أبلى بلاء حسناً وهاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين وشهد بدراً وأحداً وبيعة الرضوان ووقف إلى جانب أمير المؤمنين يوم السقيفة وهكذا يوم الشورى العمرية وعندما شهد بظلم والي مصر عبد الله بن أبي سرح وهو أخو عثمان في الرضاعة قام غلمان عثمان إليه فضربوه حتى أغمي عليه وأحدثوا له فتقاً.

ثم وقف إلى جانب الإمام عندما تولى الخلافة وقاتل معه وقتل في صفين قتله أبو الغادية الفزاري ورجل آخر واختصما يريد كل منهما الجائزة فسمع عمرو بن العاص فقال: والله إن يختصمان إلا في النار فسمعها معاوية فقال لعمرو: ما رأيت مثلما صنعت قوم بذلوا أنفسهم دوننا تقول لهما إنكما تختصمان في النار فقال عمرو: هو والله ذاك وإنك لتعلمه ولوددت إني مت قبل هذا بعشرين سنة روى ابن جرير الطبري في تاريخه عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: فلما كان الليل قلت: لأدخلن إليهم حتى أعلم هل بلغ منهم قتل عمار ما بلغ منا فركبت فرسي ـ وقد هدأت الرجل ـ ثم دخلت وإذا أنا بأربعة يتسايرون معاوية وأبو الأعور السلمي وعمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو بن العاص وهو خير الأربعة فأدخلت فرسي بينهم مخافة أن يفوتني ما يقول أحد الشقين فقال عبد الله لأبيه: يا أبت قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا وقد قال فيه رسول الله (ص) ما قال:

قال: وما قال: قال: ألم تكن معنا ونحن نبني المسجد والناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة وعمار ينقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين فغشي عليه فأتاه رسول الله فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: ويحك ابن سمية الناس ينقلون حجراً حجراً ولبنة لبنة وأنت تنقل حجرين حجرين ولبنتين لبنتين رغبة منك في الأجر وأنت ويحك مع ذلك تقتلك الفئة الباغية فدفع عمرو صدر فرسه ثم جذب معاوية إليه.

فقال: يا معاوية أما تسمع ما يقول عبد الله؟.

قال: وما يقول: فأخبره الخبر.

فقال معاوية: إنك شيخ أخرق ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض في بولك أو نحن قتلنا عماراً إنما قتل عماراً من جاء به فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم يقولون: إنما قتل عماراً من جاء به فلا أدري من كان أعجب هو أو هم فلما بلغ أمير المؤمنين قولهم قال: يكون النبي (ص) قاتل حمزة لأنه جاء به ولما قتل عمار قال أمير المؤمنين أن أمرء من المسلمين لم يعظم عليه قتل عمار بن ياسر ويدخل عليه المصيبة لغير رشيد رحم الله عماراً يوم أسلم ورحم الله عماراً يوم قتل ورحم الله عماراً يوم يبعث حياً.

قتله معاوية في موقعة صفين وكان عمره أربعة وتسعين سنة.

ترجمة أبو الهيثم بن التيهان.

مالك بن مالك بن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصاري هكذا نسبه ابن أبي

الحديد أما صاحب الإصابة في تمييز الصحابة فقد قال:

«أبو الهيثم بن التيهان بفتح المثناة الفوقانية مع كسرها ابن مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زعور الأنصاري الأوسي، مشهور بكنيته وقال جزم غير واحد أن إسمه مالك. . .

كان أحد النقباء ليلة العقبة وقد كان أول من بايع الرسول وشهد بدراً. . .

آخى النبي ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون وشهد المشاهد كلها.

بقي حياً إلى زمن الإمام وقاتل معه في صفين وقتل في موقعتها . . وقد ذهب ابن سعد إلى أنه توفي في خلافة عمر سنة ٢٠ للهجرة. . .

ترجمة ذي الشهادتين خزيمة بن ثابت.

خزيمة بن ثابت بن الفاكة بن ثعلبة الخطمي الأنصاري من الأوس ويكنى أبا عمارة جعل النبي شهادته بشهادتين وذلك لأن النبي اشترى من اعرابي فرساً ثم أنكر الأعرابي البيع فدارت مشاجرة بينهما وإذا بخزيمة يدخل ويشهد للنبي وعندما سأله النبي هل شهد البيع قال له: صدقتك بما جئت به وعلمت إنك لا تقول إلا حقاً وفي رواية الكافي قال له النبي ﷺ: أشهدتنا؟.

قال له: لا يا رسول الله ولكني علمت إنك قد اشتريت أفأصدقك بما جئت به من عند الله ولا أصدقك على هذا الأعرابي الخبيث.

فقال رسول الله عندئذ: يا خزيمة شهادتك شهادة رجلين. . .

شهد خزيمة بدراً وقاتل مع علي في صفين حتى قتل وهو القائل:

إذا نحن بايعنا علياً فحسبنا: أبو حسن مما نخاف من الفتن.

وفيه الذي فيهم من الخير كله: وما فيهم بعض الذي فيه من الحسن.

وفي طبقات ابن سعد: وكانت راية بني خطمة مع خزيمة بن ثابت في غزوة الفتح وشهد خزيمة بن ثابت صفين مع علي بن أبي طالب عليه السلام وقتل يومئذٍ سنة سبع وثلاثين وله عقب وكان يكنى أبا عمارة.

١٨٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في قدرة الله وفي فضل القرآن وفي الوصية بالتقوى

الله تعالى

ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَٱلْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ[١]. خلقَ ٱلْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَٱسْتَعْبَدَ[٢] ٱلأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ[٣] ٱلْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ[٤]؛ وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا[٥]، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ[٦] عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا[٧] عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ[٨] مِنْ تَصَرُّفِ[٩] مَصَاحِّهَا[١٠] وَأَسْقَامِهَا[١١]، وَحَلاَلِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ[١٢] ٱللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَٱلْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ[١٣]. أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا ٱسْتَحْمَدَ[١٤] إِلَى خَلْقِهِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلاً، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً.

فضل القرآن

منها: فَٱلْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ[١٥]، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّةُ ٱللهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ[١٦]، وَٱرْتَهَنَ عَلَيْهِمْ[١٧] أَنْفُسَهُمْ. أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وَقَدْ فَرَغَ إِلَى ٱلْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ ٱلْهُدَى بِهِ. فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلاَّ وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً[١٨]، وَآيَةً مُحْكَمَةً،

تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ[١٩] فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ. وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ، وَتتكلَّمُونَ بِرَجْعِ[٢٠] قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ. قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ[٢١] دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ[٢٢] عَلَى الشُّكْرِ، وَٱفْتَرَضَ[٢٣] مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ.

الوصية بالتقوى

وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ[٢٤]، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ[٢٥]، وَنَوَاصِيكُمْ[٢٦] بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ[٢٧] فِي قَبْضَتِهِ. إِنْ أَسْرَرْتُمْ[٢٨] عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً، لَا يُسْقِطُونَ حَقًّا، وَلَا يُثْبِتُونَ[٢٩] بَاطِلاً. وَٱعْلَمُوا «أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ ٱللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» مِنَ ٱلْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا ٱشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ ٱلْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارِ ٱصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ[٣٠]، وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ؛ فَبَادِرُوا[٣١] ٱلْمَعَادَ، وَسَابِقُوا ٱلآجَالَ[٣٢]، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ ٱلأَمَلُ، وَيَرْهَقَهُمُ ٱلأَجَلُ[٣٣]، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ[٣٤] مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ[٣٥]، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ[٣٦] مِنْهَا بِالارْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ. وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهذَا ٱلْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَٱرْحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ ٱلدُّنْيَا.

أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ[٣٧] أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ[٣٨] تُصِيبُهُ، وَٱلْعَثْرَةِ[٣٩] تُدْمِيهِ[٤٠]، وَالرَّمْضَاءِ[٤١] تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ،

ضَجِيعَ(٤٢) حَجَرٍ، وَقَرِينَ(٤٣) شَيْطَانٍ! أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً(٤٤) إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ(٤٥) بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ(٤٦) بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ!.

أَيُّهَا ٱلْيَفَنُ(٤٧) ٱلْكَبِيرُ، ٱلَّذِي قَدْ لَهَزَهُ(٤٨) ٱلْقَتِيرُ(٤٩)، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا ٱلْتَحَمَتْ(٥٠) أَطْوَاقُ(٥١) النَّارِ بِعِظَامِ ٱلأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتِ(٥٢) ٱلْجَوَامِعُ(٥٣) حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ(٥٤). فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ ٱلْعِبَادِ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ(٥٥)، وَفِي ٱلْفُسْحَةِ(٥٦) قَبْلَ الضِّيقِ. فَٱسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ(٥٧) مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا(٥٨). أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ(٥٩)، وَٱسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: **﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾** وَقَالَ تَعَالَى: **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾**. فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ(٦٠)، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ(٦١)؛ ٱسْتَنْصَرَكُمْ **﴿وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾**. وَٱسْتَقْرَضَكُمْ **﴿وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ، وَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾**. وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ **﴿يَبْلُوَكُمْ(٦٢) أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾**. فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ. رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وَأَزَارَهُمْ(٦٣) مَلاَئِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ(٦٤) نَارٍ أَبَداً، وَصَانَ(٦٥) أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً(٦٦) وَنَصَباً(٦٧): **﴿ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾**.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ!.

اللغة

١ ـ المنصبة	:	من النصب وهو الإعياء والتعب .
٢ ـ استعبدت	:	فلاناً اتخذته عبداً .
٣ ـ ساد	:	شرُف ومجُد وساد قومه صار سيدهم ومتسلطاً عليهم .
٤ ـ الجود	:	الكرم .
٥ ـ الضراء	:	الشدة .
٦ ـ بصّره	:	الأمر عرّفه إياه .
٧ ـ هجم	:	عليه دخل غفلة .
٨ ـ المعتبر	:	مصدر ميمي وهو الاعتبار والاتعاظ .
٩ ـ التصرف	:	التبدل والتغير .
١٠ ـ المصاح	:	جمع مصحة بمعنى الصحة والعافية .
١١ ـ الأسقام	:	العلل والأمراض .
١٢ ـ أعدّ	:	هيّأ .
١٣ ـ الهوان	:	الذل .
١٤ ـ استحمد	:	أي طلب من خلقه أن يحمدوه .
١٥ ـ زاجر	:	من زجره إذا نهاه ومنعه عن الشيء .
١٦ ـ الميثاق	:	العهد .
١٧ ـ العلم	:	ما يوضع من العلامات على الطريق ليهتدى بها .
١٨ ـ البادي	:	الظاهر .
١٩ ـ السخط	:	الغضب وعدم الرضا .
٢٠ ـ الرجع	:	النفع .
٢١ ـ المؤونة	:	القوت .
٢٢ ـ حثكم	:	حضّكم ونشطكم على الفعل .
٢٣ ـ افترض	:	الأحكام سنّها وأوجبها .
٢٤ ـ منتهى رضاه	:	غاية رضاه .
٢٥ ـ فلان بعين الله	:	تحت علم الله لا يخفى عليه منه شيء .
٢٦ ـ النواصي	:	مقدم شعر الرأس .
٢٧ ـ تقلبكم	:	تصرفكم وحركاتكم .
٢٨ ـ أسررتم	:	من السر وهو ما يكتمه الإنسان في نفسه .
٢٩ ـ يثبتون	:	يكتبون وثبت الأمر تحقق وتأكد وثبّت الحق أكده بالبينات .
٣٠ ـ البهجة	:	حسن الخلقة .

٣١ ـ بادروا : أسرعوا.
٣٢ ـ الآجال : أوقات الموت.
٣٣ ـ يرهقهم الأجل : يغشاهم بالمنية ورهقه الأمر إذا فاجأه.
٣٤ ـ الرجعة : الرجوع والعودة.
٣٥ ـ بنو سبيل : أبناء الطريق المسافرون الذين لم يملكوا نفقة العودة.
٣٦ ـ أوذنتم : أعلمتم.
٣٧ ـ الجزع : عدم الصبر على الأمر المكروه فيظهر الحزن والكدر.
٣٨ ـ الشوكة : ما يخرج من النبات شبيهاً بالأبر.
٣٩ ـ العثرة : السقطة وزلة القدم.
٤٠ ـ تدميه : تخرج دمه.
٤١ ـ الرمضاء : الأرض الشديدة الحرارة والرمض بالتحريك شدة وقع الشمس على الرمل وغيره.
٤٢ ـ الضجيع : الملازم للشيء يقال: ضاجعه الهم أي لازمه.
٤٣ ـ قرين : جمعه قرناء، الصاحب والعشير.
٤٤ ـ مالك : الملك الموكل بالنار.
٤٥ ـ حطم : بعضه بعضاً كسره أو أكله والحُطمة من أسماء النار.
٤٦ ـ توثبت : من وثب إذا نهض وقام، قفز وطفر.
٤٧ ـ اليفن : الشيخ الكبير.
٤٨ ـ لهزه : خالطه.
٤٩ ـ القتير : الشيب.
٥٠ ـ التحمت : التفت والتصقت.
٥١ ـ أطواق : جمع طوق حَليّ للعنق يحيط به، كل ما استدار بشيء.
٥٢ ـ نشبت : علقت.
٥٣ ـ الجوامع : جمع جامعة وهي الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق.
٥٤ ـ السواعد : جمع ساعد وهو الذراع.
٥٥ ـ السقم : المرض.
٥٦ ـ الفسحة : السعة.
٥٧ ـ فكاك الرقاب : عتقها وتحريرها.
٥٨ ـ غلق الرهن : عجز الراهن عن فكه في الوقت المضروب.
٥٩ ـ أضمروا بطونكم : اجعلوها ضامرة، والضمور هزل ودق وقل لحمه.
٦٠ ـ الذُل : الذلة.
٦١ ـ القُلّ : القلة.

٦٢ ـ يبلوكم : يختبركم.
٦٣ ـ أزارهم : جعلهم يزورونهم يقصدونهم للالتقاء بهم.
٦٤ ـ حسيس النار : صوت النار.
٦٥ ـ صان : حفظ ووقى.
٦٦ ـ اللغوب : أشد التعب.
٦٧ ـ النصب : التعب.

الشرح

(الحمد لله المعروف من غير رؤية والخالق من غير منصبة) افتتح هذه الخطبة بحمد الله الذي اهتدت إليه العقول وأدركته بآثار الصنع والخلق دون أن تراه العيون ليكون مشاهداً محسوساً فيكون ممكناً فقيراً محتاجاً فتنتفي ربوبيته الواجبة الوجود...

وهو سبحانه الخالق بدون تعب ولا نصب بل بكلمة «كن» وإرادة ما يريد يتحقق المراد فهو ليس على حد البشر الذين إذا فعلوا أمراً أو قاموا بعمل تعبوا وأرهقوا...

(خلق الخلائق بقدرته واستعبد الأرباب بعزته وساد العظماء بجوده) بقدرته التي لا تحد كان خلقه للخلائق وإخراجه لهم من زاوية العدم إلى الوجود.

وبقهره وغلبته جعل الأرباب عبيداً له فكل من ادعى الربوبية كان عبداً ذليلاً أمام الله.

وهو الذي تقدم على كل العظماء بعطائه وكرمه لأنهم كلهم مفتقرون إلى فيض جوده وعطائه.

(وهو الذي أسكن الدنيا خلقه وبعث إلى الجن والإنس رسله) قال تعالى. **﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾** فأسكن أبانا آدم هذه الأرض ثم توالت أبناؤه من بعده.

وقال تعالى: **﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي...﴾** فهو سبحانه دل على كمال لطفه بعباده ليقربهم من الطاعة ويبعدهم عن المعصية.

(ليكشفوا لهم عن غطائها وليحذروهم من ضرائها وليضربوا لهم أمثالها وليبصروهم عيوبها وليهجموا عليهم بمعتبر من تصرف مصاحها وأسقامها وحلالها وحرامها وما أعد الله للمطيعين منهم والعصاة من جنة ونار وكرامة وهوان) وهذه بعض

علل بعث الرسل أن يعرفوا الناس الدنيا وما فيها من عيوب وقد ذكر عليه السلام شيئاً من ذلك.

١ ـ أرسلهم الله ليكشفوا لهم عن غطائها ـ غطاء الدنيا ـ: أي يرفعوا عن الدنيا غطائها لتظهر على حقيقتها بعوراتها وعيوبها وما فيها من قبائح ومفاسد.

٢ ـ وليحذرهم من ضرائها: أي يخوفهم من مضرتها وغرورها المفضي إلى عذاب الأبد.

٣ ـ وليضربوا لهم أمثالها: يضربوا للدنيا أمثالها التي لا تبقى ولا تدوم فيزهدوهم فيها ويبعدوهم عنها كما قال تعالى: ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض**﴾.

٤ ـ وليبصروهم عيوبها: يوقفونهم على عيوب الدنيا ومخازيها وما فعلته بالماضين وما تنصبه من شر للحاضرين... وإنها لا تدوم لأحد تقياً كان أم شقياً فقيراً أم غنياً...

٥ ـ وليهجموا عليهم بمعتبر من تصرف مصاحها وأسقامها: فإن رسل الله دخلوا على الناس بحالات الدنيا المتقلبة المتغيرة من أجل موعظتهم وإرشادهم نحو الخير فإنهم ذكروهم بتغيّرات الدنيا وتقلّب أحوالها من حالات صحيحة سليمة إلى حالات مريضة عليلة ذكروهم بالحلال والحرام وما يجب فعله وما يجب تركه كما جاؤوهم بأخبار المطيعين وعظيم ثوابهم على طاعتهم وبأخبار العصاة وما أعد الله لهم من العذاب فالجنة للمطيعين والنار للعاصين والكرامة للملتزمين والإهانة والذل للمتمردين...

(أحمده إلى نفسه كما أستحمد إلى خلقه وجعل لكل شيء قدراً ولكل قدرٍ أجلاً ولكل أجل كتاب) أحمد الله حمداً يوافق ما طلبه من حمد خلقه له بأن يكون حمداً خالصاً له جامعاً لشرائط القبول والرضى...

والله جعل لكل شيء قدراً: كما قال تعالى: ﴿**قد جعل الله لكل شيء قدراً**﴾ أي مقداراً معيناً من الكمية والكيفية ينتهي إليها...

ولكل قدر أجلا: وقّت لكل واحد من هذا المقدر وقتاً ينتهي عنده عندما يستوفي حقه ويقوم بدوره.

ولكل أجل كتاباً: لكل أجل وقتاً معلوماً مكتوباً ينتهي عنده العمر...

(فالقرآن آمر زاجر وصامت ناطق حجة الله على خلقه أخذ عليه ميثاقهم وارتهن

عليهم أنفسهم. أتم نوره وأكمل به دينه وقبض نبيه ـ صلى الله عليه وآله ـ وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به) أخذ في وصف القرآن ليرغبهم بالعمل به وقد وصفه: الآمر الزاجر: لأنه يحكي عن الله أمره ونهيه فهو يأمر بالمعروف ويزجر عن المنكر. . .

وهو صامت ناطق: صامت من حيث أنه حروف وكلمات لا تتكلم على حد ما يتكلم به البشر وهو ناطق من حيث يفهمه العقلاء وأهل الفكر والدراية وفيه الأخبار والنهي والأمر وغيرها وهذا يقع تحت نظر أرباب الفكر ويعقلونه جيداً. . .

حجة الله على خلقه: به يحتج الله على خلقه ويلزمهم بما جاء به ففيه الحلال والحرام والتشريع والأحكام وفيه ما يقرّب من الله ويبعّد عن النار وبه يحتج على العاصين والمتمردين وهو قبل ذلك معجزة النبوة وخلاصة ما جاء به الأنبياء فلا عذر لمن جحده أو أنكره أو لم يعمل بمضمونه. . .

أخذ عليه ميثاقهم: أي أخذ العهد على المكلفين أن يعملوا به وبأحكامه وهو يشهد عليهم بما فعلوا وقال بعضهم أراد بذلك قصة الذرية قبل خلق آدم عليه السلام. . .

ارتهن عليهم أنفسهم: أي جعل أنفسهم رهينة بالعمل بهذا القرآن فمن أراد أن يفكها من عقاله ويخرج من عذاب الله فعليه العمل بما فيه وإلا هلك هلاك الأبد. . .

أتم نوره: بواسطة القرآن توضحت الأمور وتبينت معالم الحلال والحرام والحق والباطل وانتشر الإسلام وعلت كلمة لا إله إلا الله في كل مكان فهو نور يهدي إلى الله وهو تام لأنه الأقوى في إيصال الخلق إلى الحقچچ.

أكمل به دينه وقبض نبيه ـ صلى الله عليه وآله ـ وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى به: بهذا القرآن أكمل الدين قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً. . .﴾**.

وقد قبض الله نبيه ـ صلى الله عليه وآله ـ بعد أن بيّن أحكام هذا الدين وحدوده وبيّن حلاله وحرامه ومن جميع جوانبه العقيدية والفكرية والتشريعية. . .

(فعظّموا منه سبحانه ما عظم من نفسه فإنه لم يخف عنكم شيئاً من دينه ولم يترك شيئاً رضيه أو كرهه إلا وجعل له علماً بادياً وآية محكمة تزجر عنه أو تدعو إليه فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد) هذا أمر بتعظيم الله سبحانه كما عظّم هو نفسه بأنه يصف الله بكل وصف جليل جميل كبير فهو سبحانه وصف نفسه بقوله: **﴿هو السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر لا إله إلا هو. .﴾** وهكذا كل وصف ينبي عن عظمته وجلالته وكبريائه.

ثم علل هذا التعظيم والأمر به بأنه لم يخف عن العباد شيئاً من دينه بل أوضح الدين وبينه وأوصله إليهم عن طريق الرسل.

وفي هذا البيان للدين نعمة عظمى لما فيه من مصالح للعباد مقربة من الله ومبعدة من الشيطان وفي هذا أعظم إحسان وللمحسن الحق في التعظيم والشكر . . .

ثم إنه سبحانه لم يترك شيئاً رضيه لكم من الحق والعدل والفرائض والسنن أو أمراً يكرهه لكم كالظلم والفساد والاعتداء إلا وجعل له ما يدل عليه من الأدلة الظاهرة كأحكام العقل أو النقل أو آية محكمة لا شبهة فيها تدل على المطلوب ثم بعد ذلك زجر عما كرهه ودعى لما أراده وأحبه . . .

ثم بين أن رضاه فيما بقي وسخطه فيما بقي واحد أي رضاه بالأحكام فيما بقي من الزمان كرضاه فيما مضى وسخطه من الأحكام فيما بقي من الزمان كسخطه فيما مضى وبعبارة أخرى أن رضاه في حكم وسخطه في آخر يبقى كما هو لا يتبدل ولا يتغيّر باجتهاد المجتهدين وتبدل آرائهم وتغير نظرياتهم . . .

(واعلموا أنه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم وإنما تسيرون في أثر بيّن وتتكلمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم) بيّن عليه السلام أن حكم الله يجري على الحاضرين من الناس كما كان يجري على الماضين وأن ما كان يسخطه من الماضين أو يرضيه يسخطه من الحاضرين ويرضيه فكما سخط على الظالمين وغضب عليهم لظلمهم وتجاوزهم وهتكهم للنواميس والأعراض والمقدسات كذلك يسخط عليكم لو فعلتم فعلهم ومشيتم على دربهم وهو سبحانه الذي رضي عن الماضين لإطاعتهم الله وعملهم بأمرهم يرضى عنكم إذا أطعتم أمره وعملتم بحكمه . . .

ثم بيّن أنهم يسيرون على سنة واضحة من رسول الله (ص) وأهل بيته وهي سنة ظاهرة قد وردت عن الطرق الصحيحة السليمة التي لا كذب فيها ولا افتراء.

وأشار أيضاً إلى أن الرجال قبلكم قد أوضحوا لكم المقولة الصحيحة السليمة وبينوا لكم الأدلة المستقيمة ونطقوا بصواب القول وسلامته وأنتم يجب عليكم أن ترددوا ما قالوا وتفعلوا ما فعلوا لأن الحكم واحد فيكم جميعاً . . .

(قد كفاكم مؤونة دنياكم وحثكم على الشكر وافترض من ألسنتكم الذكر) قد تكفّل الله برزق هذا الإنسان ولن تموت نفس حتى تستكمل قوتها قال تعالى: **﴿وما من دابة إلا**

على الله رزقها﴾ فهو الذي رزق الجنين وهو في رحم الأم يرزق الكبير وهو يتحرك في الأرض. . .

كما أنه حثنا على الشكر حتى يزيد عطاؤه وأفضاله قال تعالى: **﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم. .﴾** والشكر أن يضع المكلف النعمة في موضعها دون انحراف بها أو تجاوز لها عن مكانها. . .

وافترض من ألسنتكم الذكر فالألسنة تعبّر عن القلب وتحكي عما في داخله من التعظيم والإجلال لله. . .

(وأوصاكم بالتقوى وجعلها منتهى رضاه وحاجته من خلقه) أوصانا بالتقوى فقال تعالى: **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقوني يا أولي الألباب﴾** وجعلها منتهى رضاه لأنها تمثل أعلى درجات الطاعة والالتزام قال تعالى: **﴿إن الله يحب المتقين﴾** ومن أحبه الله كان ممن رضي عنهم وأرضاهم.

وجعلها حاجته من خلقه استعار لها لفظ الحاجة ليؤكد الطلب به وطلبه لها من أجل كمال الإنسان وسعادته دون أن يكون سبحانه بحاجة إلى الناس لأنه الغني المطلق عنهم وعن عبادتهم وتقواهم. . .

(فاتقوا الله الذي أنتم بعينه ونواصيكم بيده وتقلبكم في قبضته) اتقوا الله الذي يراكم ويعلم حركاتكم وتصرفاتكم وهو قادر عليكم قاهر لكم متمكن من التصرف فيكم كيف يشاء يقدر على منعكم ولو شاء لفعل فأنتم في قبضته يتصرف فيكم كيف أراد. . .

(إن أسررتم علمه وإن أعلنتم كتبه قد وكلّ بذلك حفظة كراماً لا يسقطون حقاً ولا يثبتون باطلاً) فالله يعلم أسرار الناس وما تخفى صدورهم قال تعالى: **﴿يعلم ما يسرون﴾** وقال تعالى: **﴿إنه يعلم السر وأخفى﴾**.

وإذا أعلن الإنسان أمراً وأذاعه كتبه الله عليه أوله ومن هنا يمكن أن يقال أنه لا يكتب ما يُخفي الإنسان ولم يجهر به فمن نوى نية سيئة لا تكتب له سيئة نعم إذا أبداها بلسانه كتبتها الملائكة ثم أشار إلى الكتبة وصفاتهم أنهم أمناء يحفظون ما يكتبون كراماً على ربهم ينقلون القضايا والأحداث كما هي فلا يسقطون من الكتابة حقاً وجب على الجاني ولا يثبتون عليه أمراً باطلاً لم يقم به أو يرتكبه وحاشاهم فهم بأمره يعملون وبطاعته ملتزمون. . .

(واعلموا أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم ويخلده فيما

اشتهت نفسه وينزله منزل الكرامة عنده في دار اصطنعها لنفسه ظلها عرشه ونورها بهجته وزوارها ملائكته ورفقاؤها رسله) هذا ترغيب في التقوى وأن من اتقى الله يجعل له مخرجاً من الفتن بحيث يرى الفتنة على حقيقتها فيجتنبها ولا يتورط فيها وذلك تسديد إلهي لأهل التقوى لأنهم يحذرون الوقوع في الحرام ويتجنبون كل إثم فلذا يبحثون عن الحقيقة ويوفقهم الله إليها قال تعالى: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. . .﴾**.

ومن اتقى يجعل الله له نوراً يهتدي به من الظلم فترتفع غشاوة الجهل عن القلوب فيرى الحقيقة كما هي هذا في الدنيا وأما في الآخرة فإنه يعيش حياة أبدية فيما اشتهت نفسه ورغبت فيه كما في قوله تعالى: **﴿وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾**.

والله سبحانه ينزله منزل الكرامة وهي الجنة وأضافها لنفسه تشريفاً لها وترغيباً فيها.

ومن يصنع لنفسه شيئاً لا بد من أن يتقنه فيكون كأحسن ما يكون هذه الجنة تحت ظل العرش أي عزيزة كريمة لا يضام سكانها ولا تنزل بهم نقم أو ألم. . .

وفي هذه الجنة جمال وحسن ومسرة لا يعدلها مسرات الدنيا وما فيها لأن الله أعد هذه المسرات للمؤمن المتقي وكذلك من كرامة الله للمتقين أن جعل زوارهم الملائكة ورفقاؤهم الأنبياء قال تعالى: **﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾**.

(فبادروا المعاد وسابقوا الآجال فإن الناس يوشك أن ينقطع بهم الأمل ويرهقهم الأجل ويسد عنهم باب التوبة) أسرعوا إلى العمل ليوم الحساب فإنه يوم رهيب يقدم الإنسان فيه ما كان يعمل في دار الدنيا وسابقوا الآجال أي انتصروا على آجالكم واغلبوها بأعمالكم قبل حلولها فإن الإنسان يتسابق مع نهاية عمره وهو لا يعلم متى ينتهي فيموت فيجب أن يسرع لإتمام ما يريد وإنجاز ما يعمل من الخير والاستكثار من الخيرات قبل حلوله. . .

ثم قال: إن الناس يقترب منهم انقطاع أملهم إذا كبروا وعجزوا وتقدمت بهم السن ويفجأهم الموت المحتم على الإنسان وتقفل أبواب التوبة في وجوههم لعدم إمكانها في حقهم كمن يموت فجأة أو لعدم تحصيل شرائطها المفيدة لغفران الذنوب. . .

(فقد أصبحتم في مثل ما سأل إليه الرجعة من كان قبلكم) أي يصبح حالكم حال

من تقدمكم من الأمم والناس الذين طلبوا الرجعة إلى الدنيا كي يصلحوا أعمالهم ويبنوا من جديد فرد عليهم الله بكلمة «كلا» لا رجعة قال تعالى حكاية عن هؤلاء القوم الأوائل قال: ﴿**ربي أرجعوني لعلي أعمل صالحاً فيما تركت**﴾ فيجيبهم الله: ﴿**كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون**﴾.

(**وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم وقد أوذنتم منها بالارتحال وأمرتم فيها بالزاد**) أنتم في الدنيا مسافرون لا استقرار لكم حالكم حال الغرباء الذين مروا بمكان يجتازونه إلى غيره وحالكم في الدنيا هكذا تمرون عليها بدون استقرار وهي ليست بداركم التي تبنون ولها تعملون وقد أعلمكم الله عن طريق رسله وأنبيائه بأنكم سترحلون عنها وتتركونها وقد أمرتم وأنتم فيها أن تتزودوا لغيرها، للدار الآخرة وفي الدنيا يعمل الإنسان ليكسب الآخرة...

(**واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار فارحموا نفوسكم فإنكم قد جربتموها في مصائب الدنيا**) هذا الجلد الرقيق لا يقوى على جمرة صغيرة أو عود ثقاب فكيف يصبر ويتحمل ألم النار وعذابها وهي نار سجرها جبارها لغضبه... فارحموا نفوسكم بترك المعاصي وهجر السيئات وأدوا الفرائض والواجبات فقد جربتم مصائب الدنيا فلم تصمدوا لها بل انهارت قواكم وجزعتم لها ولم تقدروا على تحملها...

(**أفرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه والعثرة تدميه والرمضاء تحرقه فكيف إذا كان بين طابقين من نار ضجيع حجر وقرين شيطان**) وهذه جزئيات صغيرة من مصائب الدنيا يذكرها الإمام ويذكّر الإنسان بها وأنها لا يقوى عليها ولا يستطيع التغلب على ألمها... إنه يجزع ويضج من الشوكة على صغرها وحقارتها تصيبه فإنه يسهر ليله ويشكو ألمه لمن رآه وقد يخرج صائحاً مستنجداً بالأطباء وتعثر قدمه فيجرح ويخرج دمه فيضج ويتألم وإذا وقف في حر الشمس يصيح أنه قد احترق فإذا كانت هذه حالات الدنيا بمصائبها الصغيرة الحقيرة فكيف إذا وضع بين طابقين من نار طبق فوقه وآخر تحته وهو بينهما يشوى ويتقلب في النار صاحبه حجر وقرينه شيطان أغواه وأضله فعذاب بدني وآخر نفسي قال تعالى: ﴿**واتقوا ناراً وقودها الناس والحجارة...**﴾ وقال تعالى: ﴿**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين...**﴾.

(**أعلمتم أن مالكاً إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته**) وهذا تعظيم للنار وتخويف منها حتى يبقى المؤمن في خط الله واعلم أن مالكاً خازن النار والموكل بها إذا غضب على النار ولم تجد من تأكله أو تحطمه تحطم بعضها بعضاً وتأكل بعضها بعضاً وإذا زجرها وردها توثبت بين أبوابها

وربضت هناك فزعاً وخوفاً من ردعه لها وزجره. . .

(أيها اليفن الكبير الذي قد لهزه القتير كيف أنت إذا التحمت أطواق النار بعظام الأعناق ونشبت الجوامع حتى أكلت لحوم السواعد فالله الله معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم وفي الفسحة قبل الضيق) توجّه عليه السلام إلى كبير السن من الناس باعتباره قد ذهبت لذاته وعاد إلى رشده واقترب من الآخرة وصار أسمع للنصيحة وأشد قبولاً لها من غيره مخاطباً له قائلاً أيها الشيخ الكبير الطاعن في السن الذي قد لوّن المشيب شعره وغيّر سواده حتى خالطه المشيب ما حيلتك وأين قدرتك وكيف تستطيع خلاص حالك من النار ودركاتها إذا التفت حولك والتصقت بعظام عنقك كما قال تعالى: **﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الجحيم ثم في النار يسجرون﴾**.

وكيف بك إذا نشبت الجوامع وهي السلاسل الحديدية التي يقيّد بها المجرمون يقيدون بأيديهم إلى أعناقهم ويؤخذوا بالنواصي والأقدام.

ثم ناشدهم الله وأكد ذلك وحذرهم الغفلة ودعاهم إلى الانتباه والعمل في حال الصحة قبل المرض وفي حال السعة وامتداد العمر قبل ضيقه وقلته ونصيحة خبير مجرّب أدعو كل مؤمن ومسلم إلى أن يغتنم صحته فيقدم لنفسه ما ينجيها ويعمل في أول عمره كأنه يموت من ساعته فإنني وقد يشاركني هذا الشعور أغلب الناس إن لم يكن كلهم عندما أمرض أو أفتقر أو يمر عليّ يوم أقول يا ليتني قد عملت الخيرات قبل مرضي وفقري وليتني قدمت في اليوم الماضي ما أعجز عن القيام به اليوم. . .

(فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل أن تُغلق رهائنها اسهروا عيونكم وأضمروا بطونكم واستعملوا أقدامكم وأنفقوا أموالكم وخذوا من أجسادكم فجودوا بها على أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها فقد قال الله سبحانه: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ وقال تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم﴾ فلم يستنصركم من ذل ولم يستقرضكم من قل؛ استنصركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً) دعوة إنسان ناصح شفيق لهذا الإنسان المغرور بالحياة وما فيها. . . دعوة إلى تحرير الأنفس من النار وعتقها من ذلها وعذابها. . . اسعوا واعملوا وجدوا واجتهدوا في عتق رقابكم وتحريرها من النار قبل أن تعجزوا عن فكها فإنكم إذا متم فاتكم الأمر وعجزتم عن فك هذه الرقبة المرتهنة بأعمالها والتي لم تعملوا لها. . .

ثم ذكر بعض جزئيات ما فيه فكاك الرقاب من النار فقال:

أسهروا عيونكم: أي اسهروا في الليل في التجهد والعبادة والقيام لصلاة الليل وذكر الله والدعاء وطلب المغفرة...

أضمروا بطونكم: اجعلوها هزيلة نحيفة ضامرة بالصيام والجوع...

واستعملوا أقدامكم: استعملوا أقدامكم في خدمة الله وطاعته وفي سبيله ومن أجل مرضاته...

وأنفقوا أموالكم: أموالكم التي جمعتموها من حلال أنفقوها في سبيل الله وعلى عباد الله ومن أجل إعلاء كلمة الله ولا تنفقوها في معصية الله وما يغضب الله فتكون عليكم وليس لكم...

وخذوا من أجسادكم فجودوا بها على أنفسكم: أي أتعبوا أجسادكم في الصلوات والعبادات والجهاد وتكرموا بذلك على أنفسكم لتحيوها وتنقذوها من النار أو ترفعوا مقامها في الجنة ودار القرار ولا تبخلوا على أنفسكم بشيء وإن كان على حساب أجسادكم...

ثم استشهد بالآيتين: **﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾** وقوله تعالى: **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم...﴾** فمن ينصر الله الذي هو نصر دينه وشريعته والانتصار على النفس الأمارة بالسوء وقرض العبد لله يتمثل بالإنفاق الواجب والمستحب على عباد الله... ثم قد يتخيل كما هو الأمر في عقيدة اليهود أن الله يستنصرنا ويطلب منا نصره لأنه مغلوب مقهور أو أنه يستقرضنا لحاجته وفاقته جلت قدرته وعظم نواله، لم يكن استنصاره ولا استقراضه لشيء مما ذكر وكيف يستنصرنا من له جنود السماوات والأرض وله القوة المطلقة والقدرة التامة وكيف يستقرضنا من له خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد فالعالم وما فيه مملوك لله وتحت سلطانه.

نعم إنما أراد باستنصاره واستقراضه اختبارنا وامتحاننا أيّنا أحسن عملاً من يطيع منا ومن يعصي؟ من يستجيب له ومن يتمرد على أمره؟ مَنْ يقوم بالواجب ومن يرفض الواجب؟ من يمتثل ومن لا يمتثل....

(فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره رافق بهم رسله وأزارهم ملائكته وأكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبداً وصان أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً: ﴿ذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾) أمرهم أن يسرعوا بأعمالهم الطيبة الصالحة آجالهم التي تنتظرهم وقد تأتي إليهم فجأة وبتلك الأعمال الصالحة والمبادرة إليها يتحولون إلى منازل جيران الله في جنته تكريماً لهم وتشريفاً قد جعلهم من رفقاء المقربين من الله من الأنبياء والشهداء والصالحين وتفضلاً منه وتكريماً لهم يأمر ملائكته أن تزورهم ومن كرمه وفضله نزه أسماعهم أن تسمع صوت جهنم أو أي نار غيرها وحفظ أجسادهم أن تتعب أو تشقى كما قال تعالى حكاية عنهم: **﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾** وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. . .

(أقول ما تسمعون، والله المستعان على نفسي وأنفسكم وهو حسبنا ونعم الوكيل)

أقول ما تسمعون من صميم القلب وبكل إخلاص لعله ينفع أو يفيد والله المستعان على نفسي وأنفسكم أن تعملوا ونعمل بما نقول وهو حسبنا من كل شر ونعم الوكيل في كل أمر وفعل. . .

١٨٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله للبرج بن مسهر الطائي، وقد قال له بحيث يسمعه:
«لا حكم إلا لله»، وكان من الخوارج

ٱسْكُتْ قَبَحَكَ ٱللهُ[١] يَا أَثْرَمُ[٢]، فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ ٱلْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً[٣] شَخْصُكَ، خَفِياً صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ[٤] ٱلْبَاطِلُ نَجَمْتَ[٥] نُجُومَ قَرْنِ[٦] ٱلْمَاعِزِ.

اللغة

١ ـ قبحك الله : كسرك يقال قبحت الجوزة كسرتها وقيل معناه نحاك الله عن الخير.
٢ ـ الأثرم : ساقط الثنية من الأسنان.
٣ ـ الضئيل : الدقيق، النحيف، الصغير.
٤ ـ نعر : صاح.
٥ ـ نجم : طلع وظهر...
٦ ـ القرن : عظم ناتىء نابت في رأس الماعز وغيرها.

الشرح

(اسكّت قبحك الله يا أثرم، فوالله لقد ظهر الحق فكنت فيه ضئيلاً شخصك خفياً صوتك حتى إذا نعر الباطل نجمت نجوم قرن الماعز).

وفقد الحوار.

كان ابتلاء الإمام بالخوارج أشد وأقسى من ابتلائه بمعاوية وجماعته لأنهم أولاً في صفوفه ومن بين جنده واتباعه ومن أشد الناس حماسة وعقيدة ثم أنهم أغبياء فقراء

العقول ينشدون الحقيقة فلا يعرفون أين هي قوم بسطاء تنطلي عليهم الشبهات وتسيرهم بيسر وسهولة وليتهم إذ ساروا في هذا الإتجاه كانوا قد تورعوا عن قتل الناس وإزهاق نفوسهم وقد كان الإمام يسمع منهم باستمرار ما يؤذيه وكان أشد ما يؤذيه أن يسمع الشعار الذي هو يؤمن به وكلمة الحق التي يجاهد من أجلها يريد الخوراج منها الباطل والفساد. . «شعار لا حكم إلا لله» الذي يريده الإمام ويقاتل أهل الأرض من أجله يرفعه الخوارج ويريدون به إفساد الأمة وضربها وتفتيت وحدتها. . .

وهذا الرجل «البرج بن مسهر الطائي» شاعر من شعراء الخوارج رفع شعارهم ونادى به وجهر في وجه أمير المؤمنين . . . قائلاً له: «لا حكم إلا لله» ويسمع الإمام الشعار فلا يحاوره لأنه لا يقبل الحوار ولا يسمع الكلام فعدل الإمام عن ذلك إلى إهانته وتبكيته لأن الحوار فقد مفعوله وتعطل دوره فكان لا بدّ من المواجهة القاسية التي ترد هذا الضال وتسقطه وتحط من شأنه فقال له الإمام داعياً عليه مستصغراً شأنه. . .

«اسكت» كلمة استصغار لأن كلامه يغضب الرحمن. . اسكت فالكلام عليك حرام وأنت تعصي الله في حديثك. . .

«قبحك الله يا أثرم» نحاك الله عن الخير دعـاء عليه بالكسر والبعد عن الخير ووصفه بالأثرم لأنها عاهة فيه وأصحاب العاهات يعيرّون بما فيهم إذا صدر منهم القبيح ثم أقسم إنه قد ظهر الحق فكان له رجال وأبطال وقادة ولم يكن هذا الرجل إلا صغيراً حقيراً فيه لم يعدّه أحد من رجال الحق ورواده ولم يسمع أحد صوته يرتفع في نصرته والدفاع عنه.

نعم عند ما ظهرت الفتنة وارتفع صوت الباطل ظهرت إلى الوجود فجأة ظهور قرن الماعز شبّه ظهوره في الفتنة بقرن الماعز توهيناً له وتحقيراً لحقارة قرن الماعز. . .

البرج بن مسهر الطائي.

قال ابن أبي الحديد ما لفظه:

البرج بن مسهر ـ بضم الميم وكسر الهاء ـ بن الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد بن طريق بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طي بن داود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأبن يشجب بن يعرب بن قحطان.

شاعر مشهور من شعراء الخوارج، نادى بشعارهم. .

١٨٥ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يحمد الله فيها ويثني على رسوله ويصف خلقاً من الحيوان

حمد الله تعالى

ٱلْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ(١)، وَلاَ تَحْوِيهِ ٱلْمَشَاهِدُ(٢)، وَلاَ تَرَاهُ النَّوَاظِرُ(٣)، وَلاَ تَحْجُبُهُ ٱلسَّوَاتِرُ(٤)، الدَّالِّ(٥) عَلَى قِدَمِهِ(٦) بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ، وَبِٱشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لاَ شَبَهَ لَهُ، الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ(٧)، وَٱرْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِٱلْقِسْطِ(٨) فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ. مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ ٱلأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا(٩) بِهِ مِنَ ٱلْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا ٱضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ ٱلْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ. وَاحِدٌ لاَ بِعَدَدٍ، وَدَائِمٌ لاَ بِأَمَدٍ(١٠)، وَقَائِمٌ لاَ بِعَمَدٍ. تَتَلَقَّاهُ ٱلأَذْهَانُ لاَ بِمُشَاعَرَةٍ(١١) وَتَشْهَدُ لَهُ ٱلْمَرَائِي(١٢) لاَ بِمُحَاضَرَةٍ. لَمْ تُحِطْ بِهِ ٱلأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّى(١٣) لَهَا بِهَا، وَبِهَا ٱمْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا. لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ ٱمْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلاَ بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ ٱلْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً؛ بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وَعَظُمَ سُلْطَاناً.

الرسول الأعظم

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ، صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ ٱلْحُجَجِ(١٤)، وَظُهُورِ ٱلْفَلَجِ(١٥)، وَإِيضَاحِ ٱلْمَنْهَجِ(١٦)، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً(١٧) بِهَا، وَحَمَلَ عَلَى ٱلْمَحَجَّةِ(١٨) دَالاًّ

عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلاَمَ ٱلِاهْتِدَاءِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ[١٨] ٱلإِسْلاَمِ مَتِينَةً[٢٠]، وَعُرَا[٢١] ٱلإِيمَانِ وَثِيقَةً[٢٢].

منها في صفة خلق أصناف من الحيوان

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ ٱلْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ، وَلكِنِ ٱلْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ[٢٣]، وَٱلْبَصَائِرُ[٢٤] مَدْخُولَةٌ[٢٥]! أَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ[٢٦] خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ[٢٧] لَهُ السَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ[٢٨] ٱلْعَظْمَ وَٱلْبَشَرَ[٢٩]! ٱنْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا[٣٠]، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ ٱلْبَصَرِ، وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ ٱلْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ[٣١] عَلَى أَرْضِهَا، وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ ٱلْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا[٣٢]، وَتُعِدُّهَا[٣٣] فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا[٣٤] لِصَدَرِهَا[٣٥]؛ مَكْفُولٌ[٣٦] بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا[٣٧]؛ لاَ يُغْفِلُهَا ٱلْمَنَّانُ[٣٨]، وَلاَ يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ[٣٩]، وَلَوْ فِي الصَّفَا[٤٠] ٱلْيَابِسِ، وَٱلْحَجَرِ ٱلْجَامِسِ[٤١]! وَلَوْ فَكَّرتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي ٱلْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ[٤٢] بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ[٤٣] مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً! فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا[٤٤]، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يَعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ[٤٥] فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ ٱلدَّلاَلَةُ[٤٦] إِلاَّ عَلَى أَنَّ فَاطِرَ[٤٧] النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ[٤٨]، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ[٤٩] ٱخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ. وَمَا ٱلْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَٱلْخَفِيفُ، وَٱلْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلاَّ سَوَاءٌ.

خلقة السماء والكون

وَكَذلِكَ السَّمَاءُ وَٱلْهَوَاءُ، وَالرِّيَاحُ وَٱلْمَاءُ. فَٱنْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وٱلْمَاءِ وَٱلْحَجَرِ، وَٱخْتِلاَفِ هذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ(٥٠) هذِهِ ٱلْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هذِهِ ٱلْجِبَالِ، وَطُولِ هذِهِ ٱلْقِلاَلِ(٥١) وَتَفَرُّقِ هذِهِ اللُّغَاتِ، وَٱلأَلْسُنِ ٱلْمُخْتَلِفَاتِ. فَٱلوَيْلُ(٥٢) لِمَنْ أَنْكَرَ ٱلْمُقَدِّرَ، وَجَحَدَ(٥٣) ٱلْمُدَبِّرَ(٥٤)! زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلاَ لاِخْتِلاَفِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ؛ وَلَمْ يَلجَؤُوا(٥٥) إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلاَ تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا(٥٦)، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ(٥٧) مِنْ غَيْرِ جَانٍ!.

خلقة الجرادة

وَإِنَّ شِئْتَ قُلْتَ فِي ٱلْجَرَادَةِ(٥٨)، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ(٥٩) قَمْرَاوَايْنِ(٦٠)، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ ٱلْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا ٱلْفَمَ السَّوِيَّ(٦١)، وَجَعَلَ لَهَا ٱلْحِسَّ ٱلْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ(٦٢) بِهِمَا تَقْرِضُ(٦٣)، وَمِنْجَلَيْنِ(٦٤) بِهِمَا تَقْبِضُ. يَرْهَبُهَا(٦٥) الزُّرَّاعُ(٦٦) فِي زَرْعِهِمْ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا(٦٧)، وَلَوْ أَجْلَبُوا(٦٨) بِجمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ ٱلْحَرْثَ(٦٩) فِي نَزَوَاتِهَا(٧٠)، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا. وَخَلْقُهَا(٧١) كُلُّهُ لاَ يُكَوِّنُ إِصْبَعاً(٧٢) مُسْتَدِقَّةً(٧٣).

فَتَبَارَكَ ٱللهَ الَّذِي ﴿يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ طَوْعَاً وَكَرْهاً﴾، وَيَعْفِرُ(٧٤) لَهُ خَداً وَوَجْهاً، وَيُلْقِي إِلَيهِ بِالطَّاعَةِ سِلْماً(٧٥) وَضَعْفاً(٧٦)، وَيُعْطِي لَهُ ٱلْقِيَادِ رَهْبَةً وَخَوْفاً! فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لأَمْرِهِ، ؛ أَحْصَى(٧٧) عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفَسَ، وَأَرْسَى(٧٨) قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى(٧٩) وَٱلْيَبَسِ(٨٠)؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهذَا غُرَابٌ وَهذَا عُقَابٌ.

وَهذَا حَمَامٌ وَهذَا نَعَامٌ. دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِٱسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ. وَأَنْشَأَ ﴿السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ فَأَهْطَلَ[٨١] دِيمَهَا[٨٢]، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا. فَبَلَّ ٱلأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا[٨٣]، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا[٨٤].

اللغة

١ ـ الشواهد : الحواس.
٢ ـ المشاهد : المحاضر والمجالس.
٣ ـ النواظر : العيون.
٤ ـ السواتر : الأغطية وستر الشيء إذا غطاه.
٥ ـ الدال : المرشد ودله على الشي هداه إليه وأرشده.
٦ ـ القدم : السابقة في الأمر.
٧ ـ الميعاد : وقت الوعد أو مكانه.
٨ ـ القسط : العدل.
٩ ـ وسمها : من الوسم وهو العلامة.
١٠ ـ الأمد : الغاية.
١١ ـ المشاعرة : شعور إحدى الحواس وإحساسها بما يعرض من الشيء عليها.
١٢ ـ المرائي : المرئيات والمنظورات.
١٣ ـ تجلى : ظهر وبان
١٤ ـ الحجج : البراهين.
١٥ ـ الفلج : الظفر.
١٦ ـ المنهج : الطريق الواضح.
١٧ ـ صادعاً : جاهراً مبلغاً.
١٨ ـ المحجة : وسط الطريق.
١٩ ـ الأمراس : جمع مرس بالتحريك وهو جمع مرسة بالتحريك وهو الحبل.
٢٠ ـ المتينة : الصلبة الشديدة القوية.
٢١ ـ العرى : جمع عروة مقبض الشي...
٢٢ ـ الوثيقة : ما يعتمد به، الأحكام في الأمر.
٢٣ ـ عليلة : مريضة.
٢٤ ـ البصائر : جمع بصيرة العقل، الفطنة.
٢٥ ـ مدخولة : معيوبة من الدخل.

٢٦ ـ أحكم الشيء : أتقنه .
٢٧ ـ فلق : شق .
٢٨ ـ سوّى له : صنع له وعمل وسّوى الشيء جعله سوياً أي مستقيماً .
٢٩ ـ البشر : ظاهر الجلد .
٣٠ ـ جثتها : جسمها وبدنها .
٣١ ـ دبّت : تحركت .
٣٢ ـ الجحر : بالضم بيوت النمل والهوام .
٣٣ ـ تعدها : تهيئوها .
٣٤ ـ الورود : الإشراف على الماء .
٣٥ ـ الصدور : الرجوع .
٣٦ ـ مكفولة : مضمونة .
٣٧ ـ بوفقها : بكسر الواو من يوافقها من الرزق ويلائم طبعها .
٣٨ ـ المنان : من المن وهو العطاء .
٣٩ ـ الديان : الحاكم والقاضي وقيل القهار وقيل السائس .
٤٠ ـ الصفا : الحجر الأملس .
٤١ ـ الجامس : الجامد .
٤٢ ـ الشراشيف : أطراف الأضلاع التي تشرف على البطن .
٤٣ ـ قضيت : حكمت .
٤٤ ـ القوائم : للدابة أرجلها أو أيديها .
٤٥ ـ ضربت : في الأرض سرت فيها وأسرعت .
٤٦ ـ الدلالة : بالكسر والفتح إسم من دله على الشيء وإليه أرشده وسدده .
٤٧ ـ فاطر : خالق ومبدع .
٤٨ ـ النخلة : شجرة تحمل التمر .
٤٩ ـ الغامض : المبهم وغير الواضح .
٥٠ ـ تفّجر : الماء جرى وخرج .
٥١ ـ القلال : جمع قلة بضم القاف الجبل أو أعلاه .
٥٢ ـ الويل : الهلاك ، قيل وادٍ في جهنم .
٥٣ ـ جحد : كفر ، وجحده حقه أنكره مع علمه به .
٥٤ ـ المدّبر : الخالق ، ودبر الأمر تفكر فيه ونظر في عاقبته .
٥٥ ـ يلجؤوا : يستندوا ويعتمدوا .
٥٦ ـ أوعوا : من أوعاه بمعنى حفظه .
٥٧ ـ الجناية : الذنب ، وجنى عليه إذا قتله أو ضربه .

٥٨ ـ **الجرادة** : دويبة من مستقيمات الأجنحة أنواعها عديدة.
٥٩ ـ **الحدقة** : سواد العين.
٦٠ ـ **قمراوين** : جمع قمر أي مضيئتين كالقمر.
٦١ ـ **السوي** : الكامل الذي لا عيب فيه.
٦٢ ـ **النابين** : مفرده ناب وهو من الأسنان خلف الرباعية.
٦٣ ـ **تقرض** : من قرض. إذا قطع وقرض الفأر الثوب إذا أكله.
٦٤ ـ **منجلين** : مفرده منجل حديدة ملتوية محددة يجتث بها الزرع.
٦٥ ـ **يرهبها** : يخافها.
٦٦ ـ **الزراعّ** : الفلاحون.
٦٧ ـ **الذب** : الدفع.
٦٨ ـ **أجلبوا** : أجمعوا.
٦٩ ـ **الحرث** : الأرض التي تستنبت بالبذر والنوى والغرس/ المال.
٧٠ ـ **النزوات** : مفردها نزا أي وثب.
٧١ ـ **خلقها** : ابدعها وكونها.
٧٢ ـ **الأصبع** : عضو مستطيل يتشعب من طرف الكف والقدم.
٧٣ ـ **المستدقة** : مادق، واسترق ضد غلظ.
٧٤ ـ **يعفّر** : يمرّغ من العفر بالتحريك وقد يسكن وهو وجه الأرض أو ترابها.
٧٥ ـ **السلم** : بالكسر الصلح والمسالمة وبالتحريك الإستسلام والانقياد.
٧٦ ـ **الضعف** : ضد القوة.
٧٧ ـ **أحصى** : الشيء عدّه وضبطه.
٧٨ ـ **أرسى** : أثبت وأرسى الشيء ثبُت.
٧٩ ـ **الندى** : بالتحريك مقابل اليبس.
٨٠ ـ **اليبس** : ضد الرطوبة.
٨١ ـ **الهطل** : بالفتح تتابع المطر والدمع.
٨٢ ـ **الديم** : كالهمم جمع ديمة مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق.
٨٣ ـ **الجفاف** : اليباس والجاف هو اليابس.
٨٤ ـ **الجدوب** : المحل.

الشرح

(الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ولا تراه النواظر ولا تحجبه السواتر) هذه الخطبة المباركة تتضمن حمد الله والثناء على رسوله وفيها صفات بعض

المخلوقات من الحيوانات والكون تدليلاً على عظمة الله سبحانه وافتتحها بحمد الله بهذه الاعتبارات التي ذكرها . . .

الحمد الله الذي لا تدركه الشواهد: وهي الحواس فإنه لو كان مدركاً بها لكان محسوساً إذا لا تقع إلا على ذلك والله ينزه عن ذلك فإنه ليس بجسم . . .

ولا تحويه المشاهد: فلا يقع في الأمكنة لأنها لو حوته لأخذ حجمها وعندها يتحول إلى جسم ليشار إليه وله طول وعرض وعمق وهو سبحانه يجل عن ذلك . . .

ولا تراه النواظر: لعجزها عن رؤيته فإنها لا ترى إلا الأجسام وهو جل سبحانه فوق ذلك . . .

ولا تحجبه السواتر: لأن المحجوب محدود أيضاً فيكون أيضاً جسماً والله منزه عن ذلك . . .

(الدال على قدمه بحدوث خلقه وبحدوث خلقه على وجوده) فإن الخلق الموجود من سماء وكواكب وأرض وما عليها كلها أمور حادثة لم تكن ثم وجدت وهذه لا بد من محدث لها يفارقها ويفترق عنها ، لا بد أن يكون غنياً بذاته واجباً لذاته ليس بحادث وإلا لكان مثلها محتاجاً فقيراً فدلت بحاجتها وحدوثها على غنى محدثها وقدمه وأن لا مؤثر فيه ولا محدث له وهو القديم الذي لا يحد له قدم.

كما أن بحدوثها بعد العدم وبوجودها بعد أن لم تكن دلت على أنه لا بد من محدث لها وهو الله الذي أوجدها وكونها فدلت بهذا الحدوث على وجوده المحدث لها . . .

(وباشتباههم على أن لا شبه له) بحدوث هذه المخلوقات ووحدة شبهها في هذا الأمر نعرف أن مبدعها غيرها لأنه لو كان مثلها لاشترك في الحدوث واحتاج إلى علة محدثة له وهو سبحانه ليس كذلك.

(الذي صدق في ميعادة) فهو فيما وعد فيه صادق سواء كان على مستوى الدنيا أم على مستوى الآخرة لقبح الكذب ولأن المرء لا يكذب إلا لنقص فيه والله سبحانه منزه عن ذلك قال تعالى: **﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾**.

(وارتفع عن ظلم عباده وقام بالقسط في خلقه وعدل عليهم في حكمه) والله سبحانه لا يظلم أحداً قال تعالى: **﴿ وما ربك بظلّام للعبيد﴾** لأن الظلم قبيح بحكم العقل والشرع بل سبحانه قام بالعدل بين خلقه حيث خلقهم وفق المصلحة لهم وأجرى عليهم التكاليف

وألزمهم القيام بهـا ورتب على ذلك أن من أطاع الله دخل الجنة ومن عصاه دخل النار.

(مستشهد بحدوث الأشياء على أزليته) فوجود الأشياء بعد عدمها دلت على أزلية الله وإنه لا يحتاج إلى علة تحدثه وتخرجه إلى الوجود، ففقر الممكنات دلّت على وجوب وجود الله وغناه عن كل علة فإن العقل يحكم بأن كل حادث يحتاج إلى موجد وإنه لا بد أن تنتهي سلسلة الاحتياج إلى من لا يحتاج إلى موجد فيحكم بأن علة العلل لا بد وأن يكون أزلياً.

(وبما وسمها به من العجز على قدرته) من عجز الممكنات الذي يعنى أمكانها وحاجتها إلى مسبب يخلقها بل إلى ما يقيم حياتها ويديم استمرارها يدل ذلك على أن الله هو القادر المطلق الذي لا يشاركها في العجز ولا يشترك معها في الفقر فيكون هو القوي القدير...

(وبما اضطرها إليه من الفناء على دوامه) لأن المحدث يفنى ويزول وعرفنا أن المفني هو المحدث ولما كانت هذه الأشياء محدثة والله لا يشترك معها في ذلك بل هو واجب الوجود المستغني عن كل موجود كان ذلك دليلاً على دوامه وبقائه بعد فناء خلقه قال تعالى: ﴿**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام..**﴾.

(واحد لا بعدد ودائم لا بأمد وقائم لا بعمد) فهو لا يدخل تحت العدد ليكون له ثاني وإنما هو واحد في ذاته وصفاته ليس كمثله شيء.

كما إنه دائم ليس له وقت ينتهى عنده أو يتوقف وجوده في حدوده فهو خالق الزمان والمكان والوجود وكل موجود وهو أيضاً قائم بدون سبب يقيمه أي ليس بحاجة إلى شيء يعتمد عليه في بقائه واستمراريته كما كان ليس بحاجة إلى الشيء أبداً فيما مضى لأنه واجب الوجود المستغني عن كل موجود...

(تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة وتشهد له المرائي لا بمحاضرة) فالأذهان والأفكار تتقبل فكرة الله وتؤمن بها تؤمن بوجوده وبصفاته ولكن ليس عن طريق الإحساس المباشر الذي يجسد الله عندها ويحوله إلى جسم...

كما أن المرئيات كلها وهي ما يراه المرء من موجودات تشهد بوجود الله ولكن ليس شهادتها لأنه حاضر عندها حال فيها بل لأن من وجودها الحادث يستفيد العقل وجود الله الخالق لها والمبدع لوجودها...

(لم تحط به الأوهام بل تجلى لها بها وبها امتنع منها وإليها حاكمها) لأن كل ما

توهمته العقول فهو نتيجة لأمر حسي فيكون محدوداً والله منزه عن ذلك نعم ظهر لها بآثاره ومن جملة آثاره هي نفسها فكانت هي نتيجة تجلياته كما أنه بحكم العقول امتنع أن تدركه العقول فالعقل يحكم على أنه لا يستطيع القدرة على إدراك كنه الله. . .

وإلى العقول السليمة حاكم العقول السقيمة فحكمت باستحالة إدارك ذات الله. . .

(ليس بذي كبر امتدت به النهايات فكبرته تجسيماً ولا بذي عظم تناهت به الغايات فعظمته تجسيداً بل كبر شأناً وعظم سلطاناً) نفى أن يكون كبره بما نراه من عظيم الجسم طولاً وعرضاً وارتفاعاً حتى يصير كبيراً وإنما كبره باعتبار شأنه وجلاله وكذلك عظمته وإطلاق العظيم عليه ليس الكبير في الحجم بل العظيم في القدرة والسلطان والقوة.

(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصفي وأمينه الرضي ﷺ أرسله بوجوب الحجج وظهور الفلج وإيضاح المهج) بعد أن حمد الله بالاعتبارات المتقدمة أردف ذلك بالشهادة لرسول الله ووصفه بالعبودية لأنها تعنى أعلى درجات الطاعة لله والالتزام بأحكامه وبالتالي تعني كمال التحرر من كل سلطان غير سلطان الله.

كما وصفه بأنه الصفي المصطفى المصفى من كل عيب المنزه عن كل شائبة الأمين على وحيه وما أنزل عليه الرضي المرتضى على تبليغ وحيه. . .

ثم بينّ وجوه ما أرسل به فقد أرسل بوجوب الحجج: أي الحجج الثابته والبراهين القاطعة من معجزات وأدلة تبين الحق وتلزم الناس باتباعه والعمل بما جاء به حتى تنقطع اعذار الناس ويرتفع قولهم **﴿لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك﴾** فالرسول جاء ومعه الحجج والبينات.

وظهور الفلح: أي ظهور النصر له ولدينه على جميع الأديان قال سبحانه: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾**.

وأيضاح المنهج: أرسله الله ليبين للناس عن طريقه الطريق الواضح الموصل إلى رضى الله المؤدي إلى النجاة والفوز بدرجات النعيم. . .

(فبلّغ الرسالة صادعاً بها وحمل على المحجة دالاً عليها وأقام أعلام الأهتداء ومنار الضياء وجعل أمراس الإسلام متينة وعرا الإيمان وثيقة) وهذه بركات رسول الله وأفعاله الكريمة.

١ ـ بلغ الرسالة صادعاً بها: أدى ما كلفّه الله به من الأحكام للناس مجاهراً بها مؤدياً لها أمتثالاً لأمر الله **﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾** بعد. أن أمره بالتبليغ

بقوله: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك. . .﴾**

٢ ـ وحمل على المحجة دالاً عليها: ألزم الناس بما يملك من أدلة على اقتفاء الشريعة وما جاء به من الأحكام دالاً لهم عليها مبيناً لها. . .

٣ ـ أقام أعلام الأهتداء ومنار الضياء: أي نصب رايات الهدى والمنارات التي تهدي الضالين وتردهم إلى السبيل وإن الحجج والبينات وما جاء به من بيان وحكمة كلها تهدي الناس وتكشف الظلمات. . .

٤ ـ وجعل أمراس الإسلام متينة وعرا الإيمان وثيقة: أي وتدّ حبال الإسلام التي هي أصوله فبلغها للناس وفهمها لهم كما أن وثائق الإيمان وأسبابه التي هي أخص من الإسلام قد جعلها وثيقة محكمة من عمل بها دخل الجنة. . وبعبارة أخرى أصول الإسلام جعلها قوية لا تنقطع وأصول الإيمان محكمة لا تنفصم. . .

(ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة) في هذا الفصل يذكر بعض مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ويبتدأ بقوله: لو فكر الناس في عظيم قدرة الله حيث خلق السماوات والأرض وما فيهما وكذلك لو نظروا إلى نعم الله الجسيمة حيث سخر ما في السماوات والأرض لصالح هذا الإنسان فإنهم لو فكروا في ذلك لعادوا إلى طريق الإسلام والإيمان والتزموا بقواعد العدل والحق وما بلغه الرسل وجاء به الأنبياء ولخافوا عذاب الحريق والذي لا يطيقه أحد ثم استدرك إنهم لم يفكروا في ذلك لأن قلوبهم مريضة سقيمة فيها الأهواء وتحكمها العصبيات ودين الآباء والأجداد والبصائر التي تستطيع اكتشاف الحق معيبة لا تستطيع الوصول إلى الحقائق أو ادراك الصواب. . .

(ألا ينظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه واتقن تركيبه وفلق له السمع والبصر وسوى له العظم والبشر، انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على أرضها وصبت على رزقها تنقل الحبة إلى جحرها وتعدها في مستقرها تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها مكفول برزقها مرزوقه بوفقها لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس) بعد أن بين عظيم قدرته ذكر لطيف صنعه في صغير ما خلق وإن أصغر مخلوقاته جاءت في أحكم ما يكون وأشد إتقاناً مما يكون، إنه تركيب متقن كل شيء في موضعه فقد فتح له السمع والبصر يرى مواقع حركاته ويسمع الأصوات ورتب له العظم والجلد بحيث يتناسب وتركيبه. . .

ثم ذكر النملة على صغر جثتها وأمر أن ينظر الناس إليها بدقة ويفكروا في عظيم تكوينها وتركيبها ابتداء من صغر حجمها ولطافة هيئتها وكيف لا تنال بلحظ البصر بحيث يعجز الإنسان عن وصف دقائقها وإدراك حقائقها. . .

ثم ذكر من عجائبها كيف تتحرك على الأرض بدقة وكيف تستغرق في طلب رزقها لا تكل ولا تمل بل هي مستمرة جادة في طلبها أنّي وجد ولو في رؤوس الجبال أو في قعر الوديان تنقل الحبة إلى جحرها وتعدها في مستقرها تنقلها إلى بيتها حيث محل إقامتها واستقرارها تسعى في أيام الصيف حيث الخيرات متوفرة إلى أيام الشتاء حيث البرد وتعذر الخروج من جحرها تجمع في أيام حركتها ونشاطها لأيام عجزها وفقدان قدرتها فهي تتحرك في الصيف لرفع الموانع أمامها وتنزوي في بيوتها في الشتاء للعوائق التي تمنعها من الحركة. . .

ثم ذكر أنها متكفلة برزقها تطلبه وتتعب في تحصيله كما يوافقها ويلائم طبيعتها فهي تختار ما تنتفع به وتستفيد منه فسبحان الله الكثير العطاء الذي لا ينسى النملة أو يغفل عنها فإنه خلقها ورزقها وسبحانه الذي لا يحرمها حقها في الرزق والعيش فإنه سبحانه المجازي كل نفس بما عملت والمعطي لها ما تستحق من الجزاء.

وكيف كان أراد بيان إنه يرزقها ولا يمنعها حقها لو كانت في الحجر الأملس الذي لا ينبت عليه عشب ولا يستقر عليه ماء فإنه سبحانه يرزقها وإن كانت فيه وكذلك لو كانت في الحجر الجامد فإنه يوصل رزقها إليها ويتكفل لها به.

(ولو فكّرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً ولقيت من وصفها تعباً، فتعالى الذي أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه على خلقها قادر) نبّه عليه السلام على مجال آخر للاعتبار والتفكر في النملة وإنه لو فكرت ونظرت إلى أمعائها التي يجري فيها الطعام كم هي دقيقة ورقيقة بحيث إذا كانت هي نفسها لا ترى فكيف بجزء منها وكذلك إذا نظرت إلى علوها الذي هو الرأس وما فيه من عينين وأذنين، أين هما وكيف تبصر بهما أو تسمع وأنظر إلى سفلها وما فيه من بطنها وأمعائها والأضلاع وأطراف الأضلاع التي تبلغ في الدقة مبلغاً متناهياً لا يقدر المرء على رؤيتها لو فكرت في كل ذلك لحكمت بعجيب خلقها وإنها من مخلوقات الله العجيبة وإذا أردت وصفها لقيت تعباً فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها الرفيعة وجعلها تتحرك وتمشي طلباً لرزقها وبناءها على دعائمها أي على أعضائها التي يقوم عليها بدنها محل الأعصاب والعظام. . .

إنه سبحانه خلقها وحده ولم يشركه في خلقها أحد ولم يعنه على خلقها قادر لأنه القدير المطلق الذي خلقها وخلق غيرها.

(ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كل حي، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلاّ سواء) لو حركت فكرك وأشغلته فيما عندك من معلومات وما تملكه من فلسفة ونظريات حتى تأتي إلى نهاية النهاية وغاية الغاية فيما عندك لن ترجع بعد كل ذلك ولن تدلك الدلالات إلا على شيء واحد وهو أن خالق النملة بجثتها الصغيرة هو خالق النخلة بطولها وضخامتها ذلك لأن أجزاء كل شيء ودقتها في الصنع والتقدير ووضع كل عضو موضعه مع اختلاف الأشكال والألوان وغموض الأسباب الموجبة لذلك كل هذا يدل على أنه لا بدّ لها من مدبر حكيم وضع كل شيء موضعه ويتساوى عنده خلق الكبير والصغير والثقيل والخفيف والقوي والضعيف لأنها كلها لا تحتاج إلا إلى إرادته وكلمة «كن» المعبرة عن المشيئة فتتحقق بأكملها كما يريد وبعبارة أخرى قدرته تعالى واحدة لا تختلف بإختلاف العناصر والجزئيات من المجرة إلى الذرة هي هي...

(وكذلك السماء والهواء والرياح والماء فانظر إلى الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار وتفجر هذه البحار وكثرة هذه الجبال وطول هذه القلال وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفات..) ضرب هذه الأشياء للناس كي يعرفوا إنها كلها في ميزان الله وهي كلها تستوي وتتساوى لديه وتحت قدرته، فقدرته عليها واحدة فالسماء وما فيها والهواء وما يحمل والرياح وفوائدها والماء ورقته...

وكذلك الشمس وحرارتها ومنافعها والقمر ونوره وما فيه من فوائد والنبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار فالأول أعمى والثاني مبصر وتفجر هذه البحار وكثرة هذه الجبال وطول هذه القمم المرتفعة وتعدد هذه اللغات والألسن المختلفة كلها تدل على أنه واحد وإنه الموجد لها والمبدع وأنها كلها إليه تنتهي وهي عنده واحدة تستوي في الخلق والإيجاد وبكلمة كن يتحقق كل ذلك...

(فالويل لمن أنكر المقدر وجحد المدبر زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع ولا لأختلاف صورهم صانع ولم يلجؤوا إلى حجة فيما إدعوا ولا تحقيق لما أوعوا وهل يكون بناء من غير بان أو جناية من غير جان).

الله هو الخالق.

هذا دعاء بالهلاك على أولئك الذين أنكروا وجود الله الخالق وجحدوا مدّبر الكون وما فيه فزعموا أنهم كالنبات الخارج في الصحراء أو في رؤوس الجبال لم يزرعه زارع فهو يخرج بنفسه ثم يتلف ويموت فهم مثل ذلك يأتون الحياة ثم يغادرونها فلم يخلقهم خالق ولم يصنعهم صانع وقد قصّ الله خبر بعضهم ـ وهم الدهريون ـ قال تعالى حكاية عنهم: ﴿**وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت**[1] **ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر..**﴾.

فزعموا أنهم بدون خالق ولا لإختلاف صورهم من أبيض إلى أسود إلى أسمر إلى أصفر فهذه كلها لم تكشف لهم عن وجود صانع خالق فلهم الويل مما زعموا ولهم الويل مما ادعوا ثم بيّنّ إنهم ينساقون وراء ما ورثوه عن الآباء والأجداد وأخذوا عقائدهم دون فكر أو نظر لأنهم لم يقدموا على ما أدعوا دليلاً أو برهاناً يثبت ذلك ولم يبحثوا أو يدققوا فيما ذهبوا إليه وقالوا به فتكون مجرد دعوة باطلة...

ثم رد عليهم وبيّن لهم خطأ ما يزعمون وقدّم الدليل على أنهم عبيد مخلوقون لله وذلك بدليل العلة والمعلول وإن الأثر يكشف عن المؤثر فإذا وجدت خطاً دل ذلك على وجود خطاط قام بذلك وإذا وجدت بناء وعمارة دل ذلك على وجود بناء وعمار وإذا وجدت القتيل لا بد وإن تكشف إن هناك قاتلاً قد ارتكب الجريمة وهذا القانون، قانون العلة والمعلول فطري تدركه العقول وتؤمن به، فمن سمع صوتاً علم أن هناك من يصّوت ومن علم باثر دله ذلك على وجود مؤثر وقد استدل البدوي ببساطته على هذا القانون عندما قال: «البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا يدلان على اللطيف الخبير..» وقد استطاع هذا البدوي أن يتحدى بعقله الفطري الصافي أعظم الفلاسفة الذين انكروا مبدأ العلية أو شككوا فيه...

(**وإن شئت قلت في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين وأسرج لها حدقتين قمراوين وجعل لها السمع الخفي وفتح لها الفم السوي وجعل لها الحس القوي ونابين بهما تقرض ومنجلين بهما تقبض**) وهذا أمر آخر يذكره الإمام يدلل فيه على وجود الصانع الحكيم وهي الجرادة ويقول إن شئت أن تقول فيها ما قلت في النملة من عجيب الصنع ودقته وإنها تدل على موجدها وخالقها تستطيع ذلك ثم نبهّ على بعض تركيبها وخصوصياتها: فقد خلق لها العينين الحمراوين مع كون حدقتهما قمراوين وجعل لها

---

(١) سورة الجاثية، آية/ ٤٥.

السمع الخفي الذي لا تراه العيون أو الذي يسمع خفي الأصوات وفتح لها الفم السوي أي المستوي الذي يناسبها لمعاشها.

وجعل لها الحس القوي: فهي تملك حساً تدرك به موارد العطب والخطر نظراً قوياً وسمعاً قوياً أو إنها تملك حذقاً قوياً في تحصيل معاشها وقوتها... وإنه سبحانه جعل لها نابين بهما تقرض الزرع والخضرة ومنجلين بهما تقبص وهما الرجلان فإنهما كالمنجلين تقبضان على الشيء حتى تستمسك به جيداً...

(يرهبها الزرّاع في زرعهم ولا يستطيعون ذّبها ولو أجلبوا بجمعهم حتى ترد الحرث في نزواتها وتقضي منه شهواتها وخلقها كله لا يكون إصبعاً مستدقة) هذه الجرادة الصغيرة على صغرها يخاف منها المزارعون ويحسبون لها ألف حساب ولا يقدرون على دفعها عن زرعهم وغلاتهم لو اجتمعوا كلهم واتفقت كلمتهم على القضاء عليها، إنها تحط قهراً عنهم في زرعهم وتبقى تقفز من هناك إلى هناك ومن عرق أخضر إلى آخر تأكل وتفسد حتى تنهي الزرع إنها لا تبلغ مقدار أصبع صغيرة دقيقة ومع ذلك لها هذا الفعل الكبير...

(فتبارك الله الذي يسجد له من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ويعفر له خداً ووجهاً ويلقى إليه بالطاعة سلماً وضعفاً ويعطي له القياد رهبة وخوفاً) بعد أن ذكر الجرادة وأثرها وفعلها العظيم الذي منه يخاف الزراع وأشار إلى أنها تبلغ الأصبع في الحجم استحق ذلك تعظيم الله وتنزيهه أو التعجب من هذا المخلوق الصغير ثم وصف الله بأنه يسجد له من في السماوات والأرض من مخلوقات وكائنات اختياراً من العارفين واضطراراً من الجاهلين وبمعنى اخر يسجد له تكويناً لوقوع الجميع في ذل الحاجة والأمكان قال تعالى: ﴿**ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً**..﴾.

وله تـذّل الوجوه والنفوس وقد عبّر عنه بتعفير الخد والوجه بالتراب أي تمريغها فيه كناية عن خضوعها وذلها لله وكذا من في السماء والأرض يكون تحت قدرة الله مستسلماً ضعيفاً ويعطيه القياد ويسلمه زمام أمره خوفاً منه وفزعاً من سلطانه...

(فالطير مسخرة لأمره أحصى عدد الريش منها والنفس وأرسى قوائمها على الندى واليبس وقدّر أقواتها وأحصى اجناسها فهذا غراب وهذا عقاب وهذا حمام وهذا نعام دعا كل طائر بإسمه وكفل له برزقه وأنشأ السحاب الثقال فأهطل ديمها وعدّد قسمها فبل الأرض بعد جفوفها وأخرج نبتها بعد جدوبها) وباعتبار إنه في مقام ذكر مخلوقات الله فذكر الطير على اختلاف أصنافه وقال إنها مسخرة لأمره كما قال تعالى: ﴿**ألم يروا إلى**

الطير[١] مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم مؤمنون. .﴾.

نهى تحت قدرة الله موجّهة بوجهتها التي سخرها من أجلها. . ثم بين إحاطة علمه بدقائقها وجزئياتها وكل مفرداتها وتركيبها فهو يعلم عدد ريشها كل ريشة ريشة ويعلم مواصفاتها ومكان انباتها وطولها ولونها وجميع خصوصياتها وأنفاسها وكم تتنفس ومتى فإنه مبدعها وفاطر وجودها. . .

وهو لحكمته وعظمته وعلو قدرته جعل بعضها يقف على الماء كطير البحر وبعضها على الأرض كغيره من الطيور ثم أنه سبحانه جعل لكلٍ منها قدراً من القوت يكفيها وأحصى أجناسها المختلفة وأشكالها المتنوعة. . ثم عدد بعض تلك الطيور فقال: هذا غراب وله مواصفات وميزات وهذا عقاب جارح وهذا حمام أليف وادع وهذا نعام ذو منظر عجيب دعا كل طائر بإسمه وضمه إلى جنسه وكفل له برزقه الذي تكفل لكل نفس قوتها ورزقها. . .

ثم أشار إلى كمال قدرته في خلق السحاب فإنه سبحانه أنشأها مثقلة بالماء مملؤة به قال تعالى: **﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال. .﴾** ثم إنه سبحانه أنزل مطر هذا السحاب ووزعها على الأمكنة والناس كل له جزء مقسوم احصاه وعدّه وبهذا الماء المنبعث من السحاب تبتل الأرض بعد جفافها ويباسها وتنتقل فتصبح ندية وبعد أن تكون الأرض جرداء قاحلة إذ بها تكتسي حلة خضراء فتخرج ثمارها وتعشوشب أرضها وتلبس ثوباً جديداً فتبارك الله أحسن الخالقين القائل وقوله الحق والصدق **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي. .﴾**. . .

(١) سورة النحل، آية/ ٧٦.

١٨٦ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في التوحيد، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلاَ حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلاَ إِيَّاهُ عَنَى(١) مَنْ شَبَّهَهُ، وَلاَ صَمَدَهُ(٢) مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ. فَاعِلٌ لاَ بِٱضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لاَ بِجَوْلِ(٣) فِكْرَةٍ، غَنِيٌّ لاَ بِٱسْتِفَادَةٍ. لاَ تَصْحَبُهُ ٱلأَوْقَاتُ، وَلاَ تَرْفِدُهُ(٤) ٱلأَدَوَاتُ، سَبَقَ ٱلأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَٱلْعَدَمَ وَجُودُهُ، وَٱلابْتِدَاءَ أَزَلُهُ. بِتَشْعِيرِهِ ٱلْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لاَ مَشْعَرَ(٥) لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ ٱلأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لاَ ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ ٱلأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لاَ قَرِينَ(٦) لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَٱلْوُضُوحَ(٧) بِٱلْبُهْمَةِ(٨)، وَٱلْجُمُودَ(٩) بِٱلْبَلَلِ(١٠)، وَٱلْحَرُورَ(١١) بِالصَّرَدِ(١٢). مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا(١٣)، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا. لاَ يُشْمَلُ(١٤) بِحَدٍّ، وَلاَ يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ ٱلأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ ٱلآلاَتُ إِلَى نَظَائِرِهَا(١٥). مَنَعَتْهَا «مُنْذُ» ٱلْقِدْمَةَ، وَحَمَتْهَا «قَدُ» ٱلأَزَلِيَّةَ، وَجَنَّبَتْهَا «لَوْلاَ» التَّكْمِلَةَ! بِهَا تَجَلَّى(١٦) صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا ٱمْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ ٱلْعُيُونِ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَٱلْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ! إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلامْتَنَعَ مِنَ ٱلأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلالْتَمَسَ(١٧) التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ ٱلنُّقْصَانُ. وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ ٱلْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ

مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ ٱلامْتِنَاعِ[١٨] مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ. الَّذِي لَا يَحُولُ[١٩] وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ ٱلأُفُولُ[٢٠]. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ ٱتِّخَاذِ ٱلأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلامَسَةِ النِّسَاءِ. لَا تَنَالُهُ ٱلأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ ٱلفِطَنُ[٢١] فَتُصَوِّرَهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ ٱلْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلَا تَلْمِسُهُ ٱلأَيْدِي فَتَمَسَّهُ. وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي ٱلأَحْوَالِ. وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَٱلأَيَّامُ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَٱلظَّلَامُ. وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلأَجْزَاءِ، وَلَا بِٱلْجَوَارِحِ وَٱلأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ ٱلأَعْرَاضِ، وَلَا بِٱلْغَيْرِيَّةِ وَٱلأَبْعَاضِ. وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا ٱنْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ ٱلأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ[٢٢] أَوْ تُهْوِيَهُ[٢٣]، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ[٢٤]. لَيْسَ فِي ٱلأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ[٢٥]، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ[٢٦]، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ[٢٧] وَأَدَوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ. يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ. يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: «كُنْ فَيَكُونُ»، لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ؛ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلٰهاً ثَانِياً.

لَا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ ٱلْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَٱلْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ[٢٨] ٱلْمُبْتَدَعُ وَٱلْبَدِيعُ. خَلَقَ ٱلْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا[٢٩] مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. وَأَنْشَأَ ٱلأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ ٱشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا[٣٠] عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ[٣١]، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وَحَصَّنَهَا مِنَ ٱلأَوَدِ[٣٢] وَٱلاعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ[٣٣]

وَٱلانفِرَاجِ(٣٤). أَرْسَى أَوْتَادَهَا(٣٥) وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا(٣٦)، وَٱسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ(٣٧) أَوْدِيَتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ(٣٨) مَا بَنَاهُ، وَلاَ ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ. هُوَ الظَّاهِرُ(٣٩) عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ ٱلْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَٱلْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلاَلِهِ وَعِزَّتِهِ. لاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلاَ يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ. خَضَعَتِ ٱلأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لاَ تَسْتَطِيعُ ٱلْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ(٤٠)، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ. هُوَ ٱلْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا.

وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ٱبْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَٱخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوِ ٱجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا(٤١) وَسَائِمِهَا(٤٢)، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا(٤٣) وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ(٤٤) أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا(٤٥)، عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلاَ عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذٰلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً(٤٦) حَسِيرَةً(٤٧)، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ(٤٨)، مُقِرَّةً بِٱلْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً(٤٩) بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا!

وَإِنَّ ٱللهَ، سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لاَ شَيْءَ مَعَهُ. كَمَا كَانَ قَبْلَ ٱبْتِدَائِهَا، كَذٰلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلاَ وَقْتٍ وَلاَ مَكَانٍ، وَلاَ حِينٍ وَلاَ زَمَانٍ. عُدِمَتْ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلآجَالُ(٥٠) وَٱلأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السِّنُونَ وَالسَّاعَاتُ. فَلاَ شَيْءَ إِلاَّ ٱللهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٱلَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ ٱلأُمُورِ. بِلاَ قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ٱبْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ ٱمْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى ٱلامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا. لَمْ يَتَكَاءَدْهُ(٥١) صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَؤُدْهُ(٥٢) مِنْهَا

خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ(٥٣)، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاَ لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلاَ لِلاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ(٥٤) مُكَاثِرٍ(٥٥)، وَلاَ لِلاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ(٥٦)، وَلاَ لِلازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلاَ لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ، وَلاَ لِوَحْشَةٍ(٥٧) كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا.

ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لاَ لِسَأَمٍ(٥٨) دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلاَ لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلاَ لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لاَ يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، وَلكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ ٱلْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلاَ ٱسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلاَ لانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ ٱسْتِئْنَاسٍ، وَلاَ مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمًى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَٱلْتِمَاسٍ، وَلاَ مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنًى وَكَثْرَةٍ، وَلاَ مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

اللغة

١ ـ عَنَى	:	قصد وأراد.
٢ ـ صمده	:	قصده.
٣ ـ الجول	:	الحركة.
٤ ـ ترفده	:	تعينه.
٥ ـ المشعر	:	محل الشعور أي الإحساس.
٦ ـ القرين	:	الصاحب.
٧ ـ الوضوح	:	الانكشاف والجلاء، البياض.
٨ ـ البهمة	:	العتمة، الاشتباه والالتباس في الأمر.
٩ ـ الجمود	:	اليباس.
١٠ ـ البلل	:	الرطب وبلّ الثوب إذا ندّاه.
١١ ـ الحرور	:	الريح الحارة.
١٢ ـ الصرد	:	محركاً البرد أصلها فارسية.

١٣ ـ المتعاديات : المتضادات.
١٤ ـ يشمل : يعم ويحيط.
١٥ ـ النظائر : الاشباه والأمثال.
١٦ ـ تجلى : ظهر وبان.
١٧ ـ التمس : طلب.
١٨ ـ الامتناع : من المنعة وهي العزة.
١٩ ـ يحول : يتغيّر ويتبدل.
٢٠ ـ الأفول : من أفل إذا غاب.
٢١ ـ الفطن : جودة الفكر ودقته.
٢٢ ـ تقله : تحمله.
٢٣ ـ تهويه : تسقطه.
٢٤ ـ يعدّله : يقوّمه.
٢٥ ـ الولوج : الدخول.
٢٦ ـ اللهوات : جمع لهاة اللحمة في أقصى سقف الحلق.
٢٧ ـ الخروق : الشقوق والمقصود الآذان.
٢٨ ـ يتكافأ : يتساوى.
٢٩ ـ خلا : مضى وسبق.
٣٠ ـ أرساها : أثبتها.
٣١ ـ القوائم : جمع قائمة رجل الحيوان أو يده.
٣٢ ـ الأود : الاعوجاج.
٣٣ ـ التهافت : التساقط.
٣٤ ـ الانفراج : الانفتاح.
٣٥ ـ الأوتاد : جمع وتد يراد هنا الجبال.
٣٦ ـ الأسداد : جمع سد وهو المانع.
٣٧ ـ خدّ : شق.
٣٨ ـ وهن : ضعف.
٣٩ ـ الظاهر : الغالب.
٤٠ ـ الكفء : المثل والنظير.
٤١ ـ المراح : بضم الميم مأوى الحيوانات.
٤٢ ـ سائمها : راعيها.
٤٣ ـ اسناخها : أصنافها وطبائعها، أصولها.
٤٤ ـ المتبلدة : الغبيّة.

٤٥ ـ أكياس : جمع كَيّس بالتشديد العاقل الحاذق.
٤٦ ـ الخاسئة : الذليلة.
٤٧ ـ الحسير : الكَال، المعيّي.
٤٨ ـ مقهورة : مغلوبة.
٤٩ ـ مذعنة : معترفة.
٥٠ ـ الآجال : الأوقات والأزمان.
٥١ ـ تكاءده : الأمر شق عليه.
٥٢ ـ لا يؤده : لا يعجزه ولا يثقل عليه.
٥٣ ـ برأه : خلقه.
٥٤ ـ الند : المثل.
٥٥ ـ المكاثرة : المغالبة بالكثرة.
٥٦ ـ المثاور : المواثب المهاجم.
٥٧ ـ الوحشة : ضد الأنس.
٥٨ ـ السأم : الملل.

الشرح

(ما وحدّه من كيّفه ولا حقيقته أصاب من مثلّه ولا إياه عنى من شبهه ولا صمده من أشار إليه وتوهمه) هذه الخطبة الشريفة تتضمن أرفع أدلة التوحيد وأعظمها وقد ابتدأ بنفي هذه الأمور عن الله لأنها تتنافى وتوحيده.

١ ـ ما وحدّه من كيّفه: فمن قال: كيف هو؟ فمعنى ذلك أنه سأل عن متغيّر فيكون مركباً ومعنى ذلك أنه متعدد لتركبه من الموصوف مع الصفة فيتعدد والله سبحانه واحد أحد.

٢ ـ ولا حقيقته أصاب من مثلّه: مَنْ مثل الله بغيره لم يهتد إلى حقيقته ولم يعرف ربه على الوجه الصحيح لأنه لا مثيل له ﴿**ليس كمثله شيء وهو اللطيف الخبير**﴾.

٣ ـ ولا إياه عنى من شبهه: من شبّه الله بأحد من خلقه فلم يقصده ولم يهتد إليه لأن المشابهة من كل الجهات تعني الاتحاد ونفي الأثنينية وإلا لزم تعدد واجب الوجود وهو محال...

بالإشارة الحسية أو الوهمية لأن كل ذلك يشير إلى محسوس والمحسوس جسم والله منزه عن كل ذلك. . .

(كل معروف بنفسه مصنوع وكل قائم في سواه معلول) لأن من عرفت حقيقته يكون مركباً من أجزاء ومن كان له أجزاء كان لا بد له من صانع يصنع هذه الأجزاء ويركبها وكل من كان قائماً في سواه احتاج إليه والمحتاج ممكن مفتقر والله غني عن الإمكان والحاجة لأنه واجب الوجود المستغني عن كل موجود. . .

(فاعل لا باضطراب آلة مقدّر لا بجول فكرة غني لا باستفادة) إنه سبحانه خالق الكون وما فيه بدون حاجة إلى وسيلة يستعين بها على ذلك لأن من كان بحاجة إلى وسيلة كان فقيراً والله غني مطلق وقادر مطلق إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. . .

وهو سبحانه مقدّر للأشياء حاجتها كماً وكيفاً بحسب استعدادها بدون حركة عقلية كما هو ديدن البشر عندما يقدرون أمراً أو يريدونه لا بد لهم من دراسته والنظر بما فيه وما فيه وملاحظة جميع جوانبه الداعية إلى إيجاده وتقديره وبعدها يصدر الحكم بالوجود. . .

وكذلك هو غني بذاته وليس بما يستفيده من معلومات أو قضايا أو مخلوقات وكائنات لأنه واجب الوجود المستغني عن كل موجود.

(لا تصحبه الأوقات ولا ترفده الأدوات سبق الأوقات كونه والعدم وجوده والابتداء أزله) لا تصحبه الأوقات: لأنه كان ولم يكن زمان لأن الزمان وليد حركة الفلك ولم يكن ثم كان ولا يبقى إلى الأبد بل لا بد من فنائه ويبقى سبحانه حي بدون زمان. . .

ولا تعينه الآلات لأنه غني عنها والمحتاج إلى الآلات فقير والله غني منزه عن الحاجة لأنه واجب الوجود المستغني عن كل موجود.

سبق الأوقات كونه، فكان ولم يكن وقت ولا زمان لأنها حادثة وهو قديم كما أن وجوده سبق العدم بل لم يمر عليه العدم أصلاً ولن يطرأ عليه العدم أصلاً كما أن أزليته تنفي أن يكون له أولية وابتداء. . .

(بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له) أي بخلقه المشاعر والحواس عرف أن لا إحساس له ولا مشاعر متعارفة عند البشر لأنه غير مخلوقاته ولا يحكمه ما يحكمهم ولأن المشاعر للناس إنما كانت لأجل حاجتهم لها والله غني عنها بذاته لا يحتاج إلى شيء. . .

(وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له) معروف أن الأضداد تزاحم بعضها

البعض وتعارض بعضها بعضاً فكل ضد يدفع ضده ليحل محله جاء النهار دفع الليل وحلّ محله ومن هنا نعرف أن الله لا ضد له يزيله أو يحل محله لأنه الغني المطلق القادر المطلق.

(**وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له**) لأنه لو كان له قرين لما امتاز عن قرينه فيكون مثله ممكناً عاجزاً عن التغلب عليه وحاشا لله أن يوصف بعجز أو إمكان بل هو الواجب الوجود القوي المطلق...

(**ضاد النور بالظلمة**) فإننا بهذه المضادة نعرف قيمة كل منهما ودوره في حياة الإنسان وفوائده.

(**والوضوح بالبهمة**) أي الظهور مضاد للخفاء والظهور انكشاف والخفاء استتار وبينهما بون واسع وقيل: إن الوضوح هو البياض والبهمة السواد...

(**والجمود بالبلل**) اليبوسة بالرطوبة.

(**والحرور بالصرد**) الحرارة بالبرودة أو حرارة الهواء بالبرودة.

(**مؤلف بين متعادياتها مقارن بين متبايناتها مقرب بين متباعداتها مفرق بين متدانياتها**) فهو القادر على تأليف وتركيب المتعاديات لشدة قوته وسيطرته على الوجود كما أنه يقارن بين المتباينات التي لا تلتقي في أمر بطبعها ولا تجتمع في محل وهو سبحانه المقرّب بين المتباعدات بعداً زمانياً أو مكانياً أو ذاتياً فهو سبحانه الذي لا يعجزه أمر ولا يحول دون إرادته قهر يقرّب المتباعدات ويبعّد المتقاربات... يقرّب بين الروح والجسد مع بعد كل منهما عن الآخر ثم يفرق بينهما بعد التآلف...

(**لا يشمل بحد ولا يحسب بعد وإنما تحد الأدوات أنفسها وتشير الآلات إلى نظائرها**) لا تستطيع أن ترسم الله بتعريف يبيّن تركيبه لأن من يحدّ هو المركب من جنس وفصل والله منزه عن التركيب لأن كل مركب مفتقر إلى أجزائه والله غني كبير، كما لا تستطيع أن تحده بمعنى تؤطره وترسم له نهاية وحدود لأن ذلك يجسده ويجسمه ويشار عندها إليه والله منزه عن كل ذلك...

كما أنه سبحانه لا يلحقه العد والحساب ليدخل في جملة المعدودات من الأشياء لأن العد من لواحق الكم والكم عرض والله ينزه عن العرض وقال بعضهم: إنه لا تحسب أزليته بعدّ أي لا يقال له: منذ كم وجد.

وأشار إلى أن الأدوات وهي الحواس والقوى المادية إنما تحد أنفسها وتشير إلى

أمثالها من الماديات والله منزه عن ذلك.

(منعتها «منذ» القدمة وحمتها «قد» الأزلية وجنبتها «لولا» التكملة) «منذ» و «قد» و «لولا» إنما تستعمل في الأدوات والآلات وأصحابها لنقصها وحدوثها وإمكانها، فيقال قد وجدت بعد أن لم تكن ووجد منذ كذا ويقال لولا فناؤه ما أحسنه فمنذ تمنع كون هذه الآلات قديمة لأنه يسأل بها عن الابتداء وفي أي زمان وجدت «وقد» تمنع من أزليته لأنها تفيد تقريب الماضي من الحال فقولنا قد كان كذا في وقت كذا أي قريب منه والقريب من الحاضر ليس بأزلي.

ولفظة «لولا» تمنع كمالها فيقال: لولا موته لكان عظيماً فامتنعت عظمته بالموت فلم يكمل فكان ناقصاً.

وأشار بهذا إلى نقصان الآلات وحدوثها ليدلل على عدم كونها تحد الله أو تشير إليه لأنه الكامل المطلق لا يحده المحدود الناقص...

(بها تجلى صانعها للعقول وبها امتنع عن نظر العيون) فإن هذه الأدوات والآلات دلت على وجود الله لأنها حادثة لا بد لها من محدث، والمحدث هو الله رب العالمين فمنها حكم العقل بوجود الله وظهر جل اسمه للعيون...

كما أنها لرؤيتها بالعيون من حيث كونها ممكنة محسوسة دلت على أن النظر إليه ممتنع لأنه غيرها ولأن كل منظور مجسم وتصح الإشارة إليه والله منزه عن ذلك لأنه ليس بجسم ممكن فقير محتاج...

(ولا يجري عليه السكون والحركة) لأنهما من صفات الأجسام والله منزه عن الجسمية وعلل عدم جريان الحركة والسكون عليه بوجوه وهي:

١ - **(وكيف يجري عليه ما هو أجراه ويعود فيه ما هو أبداه ويحدث فيه ما هو أحدثه)** استفهام استنكاري أن تجري عليه هذه الأمور إبطالاً لها وأنها لا تجري عليه أو تلحق به.

فهو سبحانه خالق الحركة والسكون وهما متأخران عنه فلا يتصف بهما لأن اتصافه بهما دليل حاجته إليهما والله غني عن ذلك.

وكذلك إذا عاد إليه ما أظهره وأبداه من الحركة والسكون فإنه لا يعود إليه إلا لحاجته إليه وهو غني عن ذلك وكذا لو حدث فيه ما أحدثه هو فإنه يكون محلاً للحوادث وهو منزه عن ذلك....

٢ ـ **(إذاً لتفاوتت ذاته)** أي تغيرت ذاته لو كان تارة متحركاً وأخرى ساكناً والله لا يقع تحت التغيرات والتأثيرات.

٣ ـ **(ولتجزأ كنهه)** لأن ما يحتاج إلى الحركة والسكون هو الجسم والجسم يتجزأ وينفصل ويتفكك تركيبه والله منزه عن ذلك إذ ليس بجسم وليس له أجزاء...

٤ ـ **(ولامتنع من الأزل معناه)** لأن الحركة والسكون إنما يعرضان على الجسم، والجسم حادث والحادث تمتنع أزليته...

٥ ـ **(ولكان له وراء إذ وجد له أمام)** لو كانت تجري عليه الحركة لكان جسماً فإذا تحرك إلى الأمام كان له خلف ووراء فيكون محدوداً ويصح قسمته وتحديده والله منزه عن أن يوصف بالوراء أو الأمام أو يحد بحدود...

٦ ـ **(ولالتمس التمام إذ لزمه النقصان)** لأنه عندما يسكن ينقص لأن السكون عدم فيحتاج إلى الحركة ليرفع النقص ويكمل التمام فيكون محتاجاً إلى الحركة والله غني كامل...

٧ ـ **(وإذاً لقامت آية المصنوع فيه)** فلو كانت تجري عليه الحركة والسكون لقامت فيه علامة المصنوع لكون الحركة والسكون من خصوصيات المخلوق فيتحول الصانع عندما يتصف بهما إلا مصنوع لاحتياجه إليهما وفقره إليهما وهو سبحانه الغني الكامل...

٨ ـ **(ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه)** لأن الأجسام بما أنها تنتقل من الحركة إلى السكون عرفنا أن لها صانعاً حركها فإذا اشترك معها في الحركة والسكون انتقل إلى كونه دليلاً على أن له صانعاً وعندها يشترك مع غيره في كون الجميع بحاجة إلى مؤثر وأصبح دليلاً على أن له خالقاً مبدعاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً...

(وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره) فهو ممتنع ذاتاً عن الانفعال والتأثر وبهذا الامتناع كان واجباً للوجود وخرج عن أن يؤثر فيه الزمان والمكان والحوادث وغيرها من العوامل التي تؤثر في غيره من الممكنات لأنه غيرها ذاتاً وصفاتاً بل هي مخلوقاته وهو خالقها... وقوله: وخرج معطوف على قوله امتنع أي بها امتنع عن نظر العيون وخرج عن أن يؤثر... وقال بعضهم أنه معطوف على قوله: تجلّى...

٩ ـ **(الذي لا يحول ولا يزول)** أي لا يتحوّل من مكان إلى آخر لأنه في كل مكان ولا يخلو منه مكان كما أنه لا يزول عن مكانه أو يطرأ عليه الفناء لأن ذلك صفة الممكنات الفقيرة...

١٠ ـ (**ولا يجوز عليه الأفول**) أي لا يجوز أن يغيب عن ساحة الوجود بعد الحضور لأن الأفول دليل الحدوث والحدوث إنما يكون في الممكنات والله غني بذاته.

١١ ـ (**لم يلد فيكون مولوداً ولم يولد فيصير محدوداً جل عن اتخاذ الأبناء وطهر عن ملامسة النساء**) لأن العادة جرت أن من ولد يكون مولوداً أو لأن من ولد لا بد وأن يكون جسماً مشابهاً لمن ولده لمشابهته في النطفة فيتحد الأصل والفرع في مادة الوجود والله سبحانه جل عن ذلك: ﴿**قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد**﴾.

وكل مولود لا بد وأن يكون محدوداً بحدود الزمان الذي ولد فيه والمكان الذي ولد فيه والله سبحانه لا يحويه مكان ولا يحده زمان جل عن اتخاذ الأبناء لأنه الغني بالذات فليس بحاجة إليهم من وجه من الوجوه وكذلك جل عن ملامسة النساء لأن ملامستهن وقضاء الوطر منهن إنما هو لقضاء الشهوة والله تعالى لا ينفعل أو يتأثر وليس بحاجة إلى ذلك.. وقيل: إن طهره عن ملامسة النساء لما يستلزم ذلك من الجسمية والتركيب الذي تنزه عن ذلك...

(**لا تناله الأوهام فتقدره**) فالأوهام تقدر حسب ما تقع عليه الحواس مع زيادات ومبالغات وهذه الأوهام لا تنال الباري فبالتالي لا تقدره لأنها لو قدرت على ذلك وقدّرته لحددته بحدود والمحدود مركب ومحتاج والله ينزه عن ذلك فهو الغني الكبير...

(**ولا تتوهمه الفطن فتصوره**) مهما كانت العقول حاذقة نشيطة فإنها لا تقدر على أن ترسم لله صورة معينة لأن قوة الوهم عندها خاضعة لقدرتها وطاقتها وهي محدودة بحدود معينة لا يمكنها أن تتخطاها وباعتبار أن العقول تدرك الصورة الوهمية أو التقريبية ولكنها مع ذلك لن تقدر على تصور الله لأنه فوق التصور ولو تصورته لكان ذلك صورة خيالية والله منزه عن ذلك...

(**ولا تدركه الحواس فتحسه**) لأن الحواس إنما تدرك الأجسام وتحس بها والله منزه عن ذلك لأن الجسم مركب والمركب مفتقر إلى أجزائه والله غني بقول مطلق...

(**ولا تلمسه الأيدي فتمسه**) لأنه ليس بجسم فلا تلمسه الأيدي ولا تمسه وتحس به.

(**ولا يتغيّر بحال ولا يتبدل في الأحوال**) فهو لا يتغير من حال إلى حال تبعاً للظروف أبداً لأن الذي يتغير هو الجسم وكذلك لا يتبدل في الأحوال كلها بل هو الله الواحد الأحد في الذات والصفات...

(ولا تبليه الليالي والأيام) فإن مرور الأيام والليالي تشيب الصغير وتميت الكبير والله سبحانه لا يفنى ولا يبلى لأن الليل والنهار نتيجة حركة الفلك وهو سبحانه الخالق له ولما ينتج عنه فلا يتأثر بهما وهذا منه عليه السلام نفي لما يمر على الناس والأشياء ويحكمهم من الفناء. . .

(ولا يغيّره الضياء والظلام) لا يتأثر بالضياء فيرى فيه بينما في الظلام لا يرى وذلك لأن الأمور عنده تتساوى جميعها ولا يتغير بشيء أبداً.

(ولا يوصف بشيء من الأجزاء ولا بالجوارح والأعضاء) لأن الجزء غير الكل وبدون أشكال أن الكل بحاجة إلى الجزء والمحتاج ممكن فقير وكذلك ليس له جوارح أو أعضاء لأنه يكون مركباً والمركب هو الجسم والله منزه عن الجسمية لما فيها من الحاجة والافتقار. . .

(ولا بعرض من الأعراض ولا بالغيرية والأبعاض) الأعراض تسعة وليس الله بمتصف بأحدها ولا يعرض عليه شيء منها فلا يقال: كيف هو؟ أو متى وجد؟ أو أين وجد أو من أوجده؟ وهكذا ولا يقال: إنه ذو أجزاء كما لا يقال: إن جزءه هذا يغاير جزءه ذاك إذ لا أجزاء له حتى يقال إنها متغايرة. . .

(ولا يقال: له حد ولا نهاية ولا انقطاع ولا غاية) لا يقال له حد يبتدأ منه ولا نهاية ينتهي عندها لأن ذلك من صفات الأجسام والله ليس بجسم لغناه وسلطانه كما أنه لا انقطاع لبقائه ولا غاية ينتهي إليها ويتوقف وجوده عندها بل هو أزلي أبدي.

(ولا أن الأشياء تحويه فتقله أو تهويه) أي ليس محمولاً في شيء ليتحرك بحركته علواً ونزولاً صعوداً وهبوطاً.

(أو أنّ شيئاً يحمله فيميله أو يعدّله) كذلك ليس هو محمول على شيء حتى يميل من جانب إلى آخر أو يعتدل ويستوي فلا يميل فهو ليس في شيء ولا على شيء.

(ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج) لا يدخل الأشياء لأن من يدخلها يكون جسماً مهما دق ولطف وليس بخارج عنها حتى يكون بعيداً ولا علاقة له بها بل هو بعيد بذاته وصفاته عنها قريب منها بعلمه وتدبيره ودرايته لها. . .

(يخبر لا بلسان ولهوات) هذا نفي لما هو موجود عند الناس فإنهم إذا أرادوا نقل خبر احتاجوا إلى اللسان وإلى اللهوات التي تنظم الكلام وتخرجه من مخارجه وهي لحيمة صغيرة متدلية في أقصى الحلق فهو سبحانه إذا أراد الأخبار يحدث ذلك بدون حاجة إلى هذه الحاسة.

(ويسمع لا بخروق وأدوات) فلا يحتاج لكي يسمع شكوى المظلومين ودعاءهم أو كلام الداعين والمتهجدين أو ما يجري في العالمين لا يحتاج إلى ثقوب الآذان وأدواتها من السدان والمطرقة وغيرها من رفع الموانع بل هو يسمع السر وأخفى. . .

(يقول ولا يلفظ) فهو يخلق الصوت في الشجرة فتتكلم ولا يلفظ بلسان كما هو المتعارف عند الناس.

(ويحفظ ولا يتحفظ) يعلم الأشياء ولا يحتاج بقاء علمه لها إلى أن يتحفظ عليها ويبقى يستذكرها لأن ذلك يحتاج إلى آلة وهو منزه عن ذلك. . . وقيل: إن معناه يحفظ عباده من المهالك ولا يتحفظ منهم لأنه لا يتأثر بهم. . .

(ويريد ولا يضمر) إذا أراد شيئاً تحقق مباشرة بدون حاجة إلى أن يضمر وجوده ويحفظه في نفسه وينوي إيجاده لأن ذلك دليل عجز وهو فعل الممكن الذي يعجز أو يحتاج إلى تصور للشيء وعزم عليه. . .

(يحب ويرضى من غير رقة) نفي لما هو عند البشر من حيث إنه إذا أحب إنسان إنساناً ورضي عنه رقّ له وعطف عليه ومال إليه بل إن حبه ورضاه على إنسان إنما يكون بمعنى إثابته وإنعامه عليه.

(ويبغض ويغضب من غير مشقة) يبغض العبد لعصيانه ويغضب عليه لتمرده ولكن بغضه يعني عذابه وعدم ثوابه له وغضبه عليه يعني عقابه وليس ما تعارف عند الناس وطبعوا عليه من أنهم إذا أبغضوا إنساناً ثارت قواهم الغضبية وأحبوا الانتقام منه. . .

(يقول لمن أراد كونه: «كن فيكون» لا بصوت يقرع ولا بنداء يسمع وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثله، لم يكن من قبل ذلك كائناً ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً) هذا من قول الله تعالى: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾**.

قالوا: والتقدير بأن يكوّنه فيكون فعبر عن هذا المعنى بكن لأنه أبلغ فيما يراد وليس هنا قول وإنما هو إخبار بحدوث ما يريده فإنه سبحانه إذا أراد شيئاً تحقق وجوده بدون أن يلاحظ منافعه وفوائده وضرورة وجوده وغيرها من المقدمات التي تتحرك في ذهن البشر ليحصل المطلوب. . .

ولكون المراد يتحقق بنفس الإرادة نفي أن يكون قوله: **﴿كن﴾** نتيجة صوت يقرع الآذان أو نداء يُسمع المراد، فكنّ لا تعني لفظاً ولا حرفاً يلفظ أو يقال. . .

وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثله فهو فعل من أفعاله التي خلقها في غيره أو

ألقاها إليه أو نقشها في صدره.

وكلامه سبحانه حادث لم يكن من قبل ثم حدث وهذا رد على بعض الأفكار التي كانت تتصور أن كلام الله قديم... ردّ عليه السلام عليهم بأنه لو كان كلامه قديماً لكان إلهاً ثانياً بعد الله والله سبحانه وحده لا شريك له فلا يكون كلامه قديماً...

(لا يقال كان بعد أن لم يكن فتجري عليه الصفات المحدثات ولا يكون بينها وبينه فصل ولا له عليها فضل فيستوي الصانع والمصنوع ويتكافأ المبتدع والبديع) نفى عنه الحدوث حيث نفى عنه أن يقال له: كان بعد أن لم يكن؛ لأن معنى ذلك أنه حادث قد وجد بعد العدم، وإذا وجد بعد العدم وكان محدثاً أخذ الصفات التي تتصف بها المحدثات وتتحد معه في الصفات ولا يكون بينه وبينها فصل يميزه عنها أو يفرده ولا له عليها فضل وبماذا يفضلها وهو مثلها في الصفات وإذا أخذ صفاتها وتقمص مميزاتها يتساوى عندها الصانع والمصنوع والخالق والمخلوق ويكون المبتدع والبديع على حد سواء وفي مستوى واحد ولكن باعتبار أنه أزلي ولا يصدق عليه الحدوث بعد العدم فلا تلحقه الصفات المحدثة وينتفي كل ما يترتب عليها من عدم الفصل بينه وبينها أو فضل أو مساواة بينه وبينها أو غير ذلك...

(خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه) لم يخلق الخلق على شبه مضى من خلق غيره بل ابتدعه ابتداء وفطره دون اقتداء بأحد ودون استعانة بأحد من خلقه لأن الاستعانة تكون للضعيف الذي لا يقدر على القيام بالأمر بمفرده أما الله فهو سبحانه القوي القدير الذي لا يعجزه شيء في الأرض والسماء...

(وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال وأرساها على غير قرار وأقامها بغير قوائم ورفعها بغير دعائم وحصنها من الأود والاعوجاج) ذكر الأرض وتكوينه لها والدال على عظمته وقدرته وحكمته فقد أنشأ الأرض وخلقها وحفظها ضمن قوانين الكون العامة فجعل لها الجاذبية التي تحفظها ولم يشغله ذلك عن غيرها من الأمور الأخرى فأثبتها بدون شيء تعتمد عليه أو يوضع تحتها فيسندها ككل شيء يراد له أن يستقر بل جعلها معلقة بالفضاء كما نرى تسبح بقوانين ربانية أرادها لهذه الكائنات إنه سبحانه أقامها بدون ركائز تعتمد عليها أو عمد تعتمد عليها وجعلها حصينة منيعة فلا تميل أو تميد أو تضطرب أو تتزلزل...

(ومنعها من التهافت والانفراج) حفظها من التساقط كما أنه لم يجعل بين أجزائها شقوق تضر بوضعها وتكوينها.

(أرسى أوتادها وضرب أسدادها واستفاض عيونها) ثبّت جبالها كما قال تعالى: **﴿ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً﴾** وجعل بين بقاعها سدوداً لها وفواصل بينها لحكمة يعلمها ثم ذكر أنه أفاض عيونها جعلها فائضة تخرج إلى الخارج.

(وخد أوديتها) حفر الأودية وشقها وأجرى فيها الماء وجعل فيها المنافع والخيرات...

(فلم يهن ما بناه ولا ضعف ما قوّاه) هذا دليل على عظمة الله وقدرته وقوته بأنّ ما بناه لم يضعف أو يتأثر على طول الزمن ومر الأيام والليالي...

(هو الظاهر عليها بسلطانه وعظمته وهو الباطن لها بعلمه ومعرفته والعالي على كل شيء منها بجلاله وعزته) فهو المستولي عليها وعلى ما فيها بقوته وقدرته وهو سبحانه يعرفها ويعرف دخائلها وخصوصات تركيبها وهو لكماله عزيز لا يضام قاهر لعباده ومسيطر عليهم.

(لا يعجزه شيء منها طلبه) فما يريده يتحقق ولا يعجزه شيء قال تعالى: **﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾**.

(ولا يمتنع عليه فيغلبه) لا يقوى شيء على الله فيغلبه ويمتنع من الوقوع تحت يديه قال تعالى: **﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾**.

(ولا يفوته السريع منها فيسبقه) أي لا يهرب من قبضته أو يسبقه فلا يقدر عليه من كان سريعاً في حركته قال تعالى: **﴿وما نحن بمسبوقين﴾**.

(ولا يحتاج إلى ذي مال فيرزقه) لا يحتاج إلى غني حتى يعطيه ويرزقه بل هو الغني الحميد المعطي الرزاق.

(خضعت الأشياء له وذلت مستكينة لعظمته) كل مخلوقات الله خاضعة لله ذليلة بين يديه خضوعاً تكوينياً لحاجتها وفقرها وإمكانها فهي في أصل وجودها مفتقرة إلى الله وفي إكمال حياتها واستمراريتها تحتاج إلى كرم الله...

(لا تستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فتمتنع من نفعه وضره) كل الأشياء في قبضة الله وتحت قدرته لا تستطيع أن تهرب من حكمه وما يريد منها من نفع أو ضر إلى غيره حيث لا شيء غيره تعتمد عليه في دفع الضر عنها أو جلب المنفعة لها...

(ولا كفء له فيكافئه ولا نظير له فيساويه) الله واجب الوجود ولا كفء له يعادله أو

يماثله ولا نظير له في الخلق أو في أصل الوجود حتى يساويه. . .

(هو المفني لها بعد وجودها حتى يصير موجودها كمفقودها) فالله يعدم الدنيا ويزيلها بعد أن وجدت حتى يعود ما هو موجود الآن بحكم العدم بل يرجع معدوماً لا عين منه ولا أثر.

(وليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها) وكأن هناك من يستبعد قدرة الله على إفناء الدنيا وزوالها فأجابهم عليه السلام أن ابتداع الدنيا وخلقها من لا شيء أعجب وأشد غرابة من إعدامها بل إيجادها وإعدامها وكل ما يجري عليها أو فيها كل ذلك تحت قدرة الله في مستوى واحد لا يعجزه شيء.

(وكيف ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها وما كان من مراحها وسائمها وأصناف أسناخها وأجناسها ومتبلدة أممها وأكياسها على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها) استفهم متعجباً ومقرراً أن خلق الأشياء أعظم من إفنائها وإعدامها ودليل ذلك أنه لو اجتمع جميع مخلوقات الله من الحيوان والطير والبهائم وما كان مستقراً أو راحلاً والبليد والذكي وما كان من جنسها وأصلها وعقلائها لو اجتمعوا جميعاً على خلق بعوضة ما قدروا ولا استطاعوا فإن أصل الوجود من الله نعم تقدر على التلاعب بالنطفة ولكن لا تقدر على صنع أصل النطفة قال تعالى: **﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له. . . ﴾**.

(ولتحيرت عقولها في علم ذلك وتاهت وعجزت قواها وتناهت ورجعت خاسئة حسيرة عارفة بأنها مقهورة مقرة بالعجز عن إنشائها مذعنة بالضعف عن إفنائها) فإن العقول تتحير في صنع البعوضة على صغرها إذ تأخذ شكل الفيل بزيادة الجناحين والعقول عجزت عن إدراك سر ذلك وعظمته، فهذه العقول بعمقها وحصافتها ودقتها ورقتها لم تصل إلى عمق هذا المخلوق وأسرار تكوينه فعادت مقرة بالعجر معترفة بالفشل لا تقدر على الخلق كما لا تقدر على الإفناء فسبحان من بيده الأمور وهو على كل شيء قدير. . .

(وإن الله سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان عدمت عند ذلك الآجال والأوقات وزالت السنون والساعات فلا شيء إلا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور) كان الله ولم يكن معه شيء متفرد واحد أحد وكذلك يكون بعد فناء الدنيا وزوالها كما كان قبل ابتدائها ترتفع الأوقات لأنها نتيجة دور الفلك وتفنى الأفلاك ولا يعود هناك زمان أو

وقت أو مكان. . . عدمت السنون والساعات لانعدام منشئها وأصلها وهو الفلك، فلا شيء على الإطلاق إلا الله الواحد القهار إليه ترجع الأمور كلها قال تعالى: **﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾** فلا يملك ذلك غيره. . .

(بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها وبغير امتناع منها كان فناؤها ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها) فهي عاجزة عن خلق نفسها كما أنها عاجزة عن فنائها كان خلقها بإرادة الله بدون قدرة منها ولم تمتنع عن الفناء بل استجابت قهراً عنها لإرادة الله. . .

ثم بيّن أنها لو استطاعت التمرد وقدرت على قهر الموت والفناء لدام بقاؤها واستمر ولكنها عاجزة عن ذلك مقهورة له لأن الله يفنيها فلا بقاء لها. . .

(لم يتكاءده صنع شيء منها إذ صنعه ولم يؤده منها خلق ما خلقه وبرأه) فما خلقه من الدنيا وما فيها لم يشق عليه ذلك ولم يتعبه بل بكلمة كن كانت وإنما يتعب أو يكلّ ويعجز من يستعمل آلاته وأدواته كاليدين والرجلين وغيرها لتحقيق مراده أما من خلق الشيء ويوجده بمجرد إرادته له فلا يطرأ عليه تعب أو مشقة أو إعياء. . .

(ولم يكوّنها لتشديد سلطان ولا لخوف من زوال ونقصان) لم يخلق الدنيا لتقوية حكمه وتعزيز قدرته كملوك الدنيا الذين كلما اتسعت رقعة حكمهم قوي سلطانهم واشتدت قوتهم وكذلك لم يخلقها خوفاً من الزوال والنقصان له فتحميه وتدفع عنه.

(ولا للاستعانة بها على ند مكاثر) لم يخلقها ليستعين بها على نظير له كثير الجند والعدة والعدد.

(ولا للاحتراز بها من ضد مثاور) لا يريد من خلقه لها أن يدفع بها عدواً له مهاجم.

(ولا للازدياد بها في ملكه) لم يخلقها ليزيد ملكه بل كل ما في الكون ملك يمينه وفي قبضته لا يخرج عن حكمه وإرادته وهو المالك المطلق له ولكل ما فيه. . .

(ولا لمكاثرة شريك في شركه).

لم يخلق الدنيا حتى يغلب شريكه فيما يملك فيظهر عليه بذلك بل هو الله الواحد الأحد بلا شريك. . .

(ولا لوحشة كانت منه فأراد أن يستأنس إليها) . لم يخلقها لأنه كان مستوحشاً بوحدته فأراد أن يستأنس فخلقها.

(ثم هو يفنيها بعد تكوينها لا لسأم دخل عليه في تصريفها وتدبيرها ولا لراحة

واصلة إليه ولا لثقل شيء منها عليه ولا يملّه طول بقائها فيدعوه إلى سرعة إفنائها) فكما أن خلقه للدنيا لم يكن لا ستيحاش منه فأراد أن يستأنس بها فخلقها كما أنه لم يكن خلقه لها لذلك كذلك هو يفنيها بعد تكوينها ولم يكن إفناؤه لها لملل وضجر دخل عليه وحل به من جراء تدبيرها وتنظيمها والقيام بشؤونها ولا لأنه تعب منها فأراد الراحة فأفناها ولا لأن شيئاً ثقيلاً منها عليه فأحب أن يخفف عنه من حملها. . . ولم يُصب بملل من طول بقائها فأراد إفنائها ليرفع الملل الذي أصابه. . .

(ولكنه سبحانه دبّرها بلطفه وأمسكها بأمره وأتقنها بقدرته) إنه سبحانه رتّب أمرها ونظّمها بحكمته وعلمه وحفظها من السقوط والهبوط أو الاضطراب والفوضى بأمره وأحسن صنعها ونظمّها بأبدع ما يكون بقدرته التي لا تحد ولا تقدّر.

(ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها ولا استعانة بشيء منها عليها) إنه سبحانه يعيدها بعد الفناء لا لحاجة منه إليها لأنه الغني المطلق ولا ليستعين بشيء منها عليها لأنه كله قدرة وقدرته لا تحد ولا يحتاج معها إلى مساعد يساعده لإتمام بعض الأمور. . .

(ولا لانصراف من حال وحشة إلى حال استئناس ولا من حال جهل وعمى إلى حال علم والتماس، ولا من فقر وحاجة إلى غنى وكثرة ولا من ذل وضعة إلى عز وقدرة) لا يريد أن يتصرف ويعود من حال الوحشة إلى الأنس ولا من الجهل وعدم المعرفة إلى حال العلم والمعرفة ومن فقر وحاجة إليها إلى غنى وكثرة بها ومن ذل وضعة إلى عز ورفعة وقدرة وبعبارة أخرى إنه لا يريد من خلقه إياها فائدة تعود عليه لأنه الغني عن كل الأشياء وعوارضها بدون استثناء. . .

١٨٧ ـ ومن خطبة له عليه السلام

وهي في ذكر الملاحم

أَلاَ بِأَبِي وَأُمِّي، هُمْ مِنْ عِدَّةٍ[١] أَسْمَاؤُهُمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي ٱلأَرْضِ مَجْهُولَةٌ. أَلاَ فَتَوَقَّعُوا[٢] مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ[٣] أُمُورِكُمْ، وَٱنْقِطَاعِ وُصَلِكُمْ[٤]، وَٱسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ. ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ[٦]. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْراً[٧] مِنَ ٱلْمُعْطِي. ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ ٱضْطِرَارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ[٨]. ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمُ ٱلْبَلاَءُ[٩] كَمَا يَعَضُّ ٱلْقَتَبُ[١٠] غَارِبَ[١١] ٱلْبَعِيرِ[١٢]. مَا أَطْوَلَ هٰذَا ٱلْعَنَاءَ[١٣]، وَأَبْعَدَ هٰذَا الرَّجَاءَ!.

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هٰذِهِ ٱلأَزِمَّةَ[١٤] الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا ٱلأَثْقَالَ[١٥] مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلاَ تَصَدَّعُوا[١٦] عَلَى سُلْطَانِكُمْ[١٧] فَتَذُمُّوا غِبَّ[١٨] فِعَالِكُمْ. وَلاَ تَقْتَحِمُوا[١٩] مَا ٱسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ[٢٠] ٱلْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا[٢١] عَنْ سَنَنِهَا[٢٢]، وَخَلُّوا[٢٣] قَصْدَ السَّبِيلِ[٢٤] لَهَا: فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا ٱلْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ ٱلْمُسْلِمِ.

إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا[٢٥]. فَٱسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا[٢٦]، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

اللغة

١ ـ العدة : بكسر العين الجماعة وبضمها الاستعداد.
٢ ـ توقعوا : انتظروا وتوقع الأمر إذا انتظره.
٣ ـ أدبر : ولّى وانقضى.
٤ ـ انقطع الوصل : انقطع الاتصال واللقاء.
٥ ـ أهون : أخف وأسهل.
٦ ـ حله : الحلال.
٧ ـ أجراً : ثواباً.
٨ ـ الإحراج : التضييق وأحرجه أوقعه في الحرج.
٩ ـ عضكم البلاء : اشتدت عليكم المحن.
١٠ ـ القتب : الرحل.
١١ ـ الغارب : ما بين العنق والسنام.
١٢ ـ البعير : جمعه بعران وأبعرة وجمع الجمع أباعر وأباعير الجمل البازل للذكر والأنثى.
١٣ ـ العناء : التعب.
١٤ ـ الأزمة : جمع زمام المقود.
١٥ ـ الأثقال : متاع المسافر، الحمل الثقيل.
١٦ ـ الصدع : الشق.
١٧ ـ السلطان : الحاكم.
١٨ ـ الغب : بكسر الغين العاقبة.
١٩ ـ الاقتحام : الدخول في الشيء من غير رويّة أو بشدة.
٢٠ ـ فور النار : ارتفاع لهبها.
٢١ ـ أميطوا : تنحوا وأماط اللثام نحاه وكشفه.
٢٢ ـ السنن : الطريق أو القصد منه.
٢٣ ـ خلوا : اتركوا.
٢٤ ـ قصد السبيل : الطريق المستقيمة.
٢٥ ـ ولجها : دخلها.
٢٦ ـ وعوا : الحديث احفظوه وتدبروه والأمر للمفرد من وعوا «عِ».

الشرح

(ألا بأبي وأمي هم من عدةٍ أسماؤهم في السماء معروفة وفي الأرض مجهولة) هذه الخطبة كما يذكر السيد الشريف واردة في الملاحم وفيها ذكر ما يجري بعده على المؤمنين من أصحابه وما يحمله الزمن من الظلم والجور.

«بأبي وأمي» كلمة لا تستعمل إلا في الأمر المهم العزيز لأن تفدية الأب والأم كبيرة لا تصلح إلا لأمر عظيم فدّاهم بأبيه وأمه لجلال شأنهم وعلو قدرهم وقد اختُلف في المقصود بذلك فقال بعضهم: أراد الأولياء الأتقياء من أصحابه. وقال بعضهم: أراد بهم الأئمة من أولاده واللفظ وإن كان يصدق على الفريقين ولكن انطباقه على الأئمة أظهر وأقوى لصدق العدة عليهم من جهة ولمعروفية أسماءهم في السماء أكثر من الأرض والأئمة معروفون في السماء لطيب طينتهم وكرامتهم على الله وقربهم منه بينما في الأرض مجهولون لكثرة الضلال وغلبة الجهّال وظهور الفساد.

(ألا فتوقعوا ما يكون من إدبار أموركم وانقطاع وصلكم واستعمال صغاركم) هذا الخطاب لأصحابه يخبرهم بما يؤول إليه أمرهم وماذا يجري عليهم انتظروا ما سيحدث وما يحمل به الزمن.

أولاً: إن ما أنتم فيه من نعيم وسلطان ودولة وسطوة سيزول عنكم ويتحول إلى غيركم.

ثانياً: إن ما أنتم فيه من اتفاق واجتماع ووحدة ولقاء سيحل معه الفرقة والشتات وانقطاع الوصل.

ثالثاً: ستبتلون بحكم الصغار الذين يتولون أموركم بدون دراية أو حكمة أو معرفة بسياسة العباد وإدارة البلاد. . .

(ذاك حيث تكون ضربة السيف على المؤمن أهون من الدرهم من حله ذاك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي، ذاك حيث تسكرون من غير شراب بل من النعمة والنعيم، وتحلفون من غير اضطرار وتكذبون من غير احراج ذاك إذا عضكم البلاء كما يعض القتب غارب البعير ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرجاء) أشار إلى أوقات وقوع ما يجري عليهم مما مرّ، إنها أحداث ستجري فصولها عندما تحصل هذه المقدمات وتقع الأمة في هذه الأفعال القبيحة الشاذة وقد ذكر عدة علامات وهي:

١ ـ ذاك حيث تكون ضربة السيف على المؤمن أهون من الدرهم من حله: وهذه إخبار منه عليه السلام عما يلاقيه المؤمن من أجل تحصيل معيشته حيث يرفضه الظالمون ولا يستعملونه فيما هو مباح بل يحاربونه في قوته فتضييق عليه أبواب الرزق ويكون ضربه بالسيف أهون عليه وأيسر من تحصيل قوته... أو يكون المراد أن تحصيل درهم الحلال أصعب من السيف لأن المكاسب قد اختلطت وغلب الحرام عليها فاكتساب درهم الحلال صعب جداً...

٢ ـ ذاك حيث يكون المعطى أعظم أجراً من المعطي: لأن الآخذ للصدقة ومتقبلها ألجأته الحاجة إلى بذل ماء وجهه ولكونه مستحقاً لها فيأخذها وقلبه كسير جريح أما المعطي والدافع فقد يكون قد أخذها من غير حلها أو دفعها مع المن والأذى أو أراد بها المباهاة والمفاخرة والعلو في الأرض أو أراد بها غير وجه الله فيسقط أجره ويخسر نصيبه من الثواب فالآخذ يؤجر ويثاب والمعطي يأثم ويعاقب...

٣ ـ ذاك حيث تسكرون من غير شراب بل من النعمة والنعيم: وهذه من العلامات التي تقتل روح المجتمع وتفقده التفكير ذاك عندما تقذف الدنيا بخيراتها في أحضانكم وتدفع إليكم بنعمها ونعيمها فتنسون الله وتهملون الواجبات وتفقدون التفكير في الشكر لله... إنهم باعتبار غفلتهم عن الله واشتغالهم بملذاتهم فكأنهم سكارى...

٤ ـ وتحلفون من غير اضطرار: بدون اضطرار إلى اليمين يحلفونها فإن الله على طرف لسانهم يحلفون به لتروج بضاعتهم.. ويحصلون على زيادة أرباحهم، يحولون الله إلى سلعة تضاف مع كل سلعة يريدون تسويقها أو تصريفها بدون حاجة ولا اضطرار...

٥ ـ وتكذبون من غير احراج: ربما كان للكذب وجه إذا كان لإنجاء مؤمن أو لإصلاح بين متنازعين أما أن يتحول الكذب إلى عادة دائمة لا ينفك عنها الإنسان فهذه هي المصيبة التي تقتل المجتمع، أن يتحول الكذب كما يقولون: «الكذب ملح الرجال وعيب على الصادق» فهنا يكمن الخطر ويدب الفساد ويكون الزمن عاطلاً قبيحاً...

٦ ـ ذاك إذا عضكم البلاء كما يعض القتب غارب البعير: وهذا من العلامات أن يقع شيعة أهل البيت في أعظم بلاء وتقع عليهم الشدة العظيمة وقد شبّه شدة ألمهم وما يصيبهم من الشدة بما يصيب غارب البعير من القتب فإذا كان الرحل ـ الجُلّ ـ ضيقاً أو غير منسجم مع الغارب فإنه يؤذي البعير وربما يجرحه وفي ذلك ألم شديد وعندها تقولون: ما أطول هذا العناء والتعب أما آن له أن ينتهي وأبعد هذا الرجاء الذي به نخلص من عرى الذل وربقة الهوان والبلاء...

وقالوا: إن قوله: «ما أطول هذا العناء وأبعد هذا الرجاء» هو من إخبار الإمام بطول التعب ومشقة انتظار الفرج وقالوا: إن هذا من باب التوبيخ لهم لإعراضهم عنه وأقبالهم على الدنيا وإتعابهم أنفسهم في طلبها والتنفير لهم عنها بذكر طول العناء في طلبها وبعد الرجاء لما يرجى منها وترتب على ذلك أن يكون هذا كلاماً منفصلاً مستقلاً عما سبق. . .

(أيها الناس ألقوا هذه الأزمة التي تحمل ظهورها الأثقال من أيديكم ولا تصدّعوا على سلطانكم فتذموا غبّ فعالكم) أمرهم أن يتخلوا عن الآراء الفاسدة التي تسبب الأوزار والآثام ولا يخوضوا فيها لأن تبعاتها ذنوب ومعاصي قادتهم إلى حمل أثقال الخطايا.

ثم أردف ذلك بالنهي لهم عن التفرّق عنه وعبّر عن نفسه بسلطانكم لأنه الحاكم باسمهم ترغيباً لهم.

وبعد هذا نفّرهم عن التفرق عنه بذكر ما يعقبه من الأمور المذمومة بأن نتيجة هذه الفرقة والاختلاف يصيبهم الذل والخوف بعد أن كانوا أعزاء أقوياء وينتقل عنهم الحكم بعد أن كانوا حكاماً وهكذا ينتقلون من كل حالة كريمة إلى حالة ذليلة وهذه نتيجة تفرقهم عن قيادتهم وعدم التزام أمرها ونهيها. . .

(ولا تقتحموا ما استقبلتم من فور نار الفتنة) إذا شبت الفتن واستعر نارها فلا تدخلوا فيها ولا تخوضوا غمارها فإنها تضل فيها عقول الرجال.

(وأميطوا عن سننها وخلوا قصد السبيل لها فقد لعمري يهلك في لهبها المؤمن ويسلم فيها غير المسلم) أمرهم أن يتنحوا عن طرق الفتنة التي تتحرك فيها وعن المراكز التي تعشعش في أرجائها وليتركوها في طريقها التي تعيش فيها وتتحرك في زواياها وقطعاً هذا إذا لم يقدروا على دفعها أو يستطيعوا وقف زحفها وإلا فعلى المسلم أن يقبر الفتنة ويقضي عليها إن استطاع. . .

ثم أقسم أنه إذا وقف المؤمن في طريقها أكلته وقضت عليه بينما غير المسلم يسلم من أذاها وشرها لأن المؤمن لا يرضى بها بل يحاربها ويحارب أهلها بينما الآخر يسالمها ويمشي في ركاب أهلها فيسلم الكافر ويهلك المؤمن ومن هنا نهى الإمام المؤمن أن يقف في وجهها لشدتها وقوتها. . .

(إنما مثلي بينكم كمثل السراج في الظلمة يستضيء به من ولجها فاسمعوا أيها

الناس وعوا واحضروا آذان قلوبكم تفهموا) السراج يبدّد الظلام ويحوّل الليل إلى نهار وكذلك الإمام فإنه سراج الهدى وعلم التقى وهو مع الحق والحق معه من أراد الهداية فعن يديه تكون ومن أراد الخير فعنده يوجد ومن أراد أن يصل إلى الله فعن طريقه.

الإمام هو الذي يعلّم الأمة وسائل نجاحها وطرق فوزها وانتصارها، بعلمه يرفع الجهل عنها ويكشف الظلمات عن عينيها ومن أمامها.

وبعد أن يُبين أهمية الإمام ودوره يدعوهم إلى أن يسمعوا ما قال ويستوعبوا ما تكلم به وأن يحضروا آذانهم وقلوبهم ويفهموا كلامه ويعملوا به حتى ينتصروا ويفوزوا وتبقى شوكتهم قوية ورأيهم نافذ صائب.

١٨٨ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في الوصية بأمور

التقوى

أُوصِيكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَى اللهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلائِهِ[(١)] إِلَيْكُمْ، وَنَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلاَئِهِ[(٢)] لَدَيْكُمْ. فَكَمْ خَصَّكُمْ[(٣)] بِنِعْمَةٍ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ[(٤)]! أَعْوَرْتُمْ[(٥)] لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وَتَعَرَّضْتُمْ[(٦)] لأَخْذِهِ[(٧)] فَأَمْهَلَكُمْ!.

الموت

وَأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ وَإِقْلاَلِ ٱلْغَفْلَةِ عَنْهُ. وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ[(٨)]، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ! فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ[(٩)]، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وَكَأَنَّ ٱلآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً. أَوْحَشُوا[(١٠)] مَا كَانُوا يُوطِنُونَ[(١١)]، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَٱشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ ٱنْتَقَلُوا، لاَ عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ ٱنْتِقَالاً، وَلاَ فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ٱزْدِيَاداً. أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ[(١٢)].

سرعة النفاد

فَسَابِقُوا ـ رَحِمَكُمُ ٱللهُ ـ إِلَى مَنَازِلِكُمْ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا. وَٱسْتَتِمُّوا نِعَمَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ،

وَٱلْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي ٱلْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ ٱلأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي ٱلْعُمُرِ!.

اللغة

١ ـ آلائه : نعمه.
٢ ـ بلائه : إحسانه.
٣ ـ خصّه بالشيء : فضله به وأفرده.
٤ ـ تداركه الله برحمته : لحقه بها.
٥ ـ أعورتم له : أظهرتم عوراتكم وعيوبكم له.
٦ ـ تعرض للأمر : تصدى له وطلبه.
٧ ـ أخذه : أي أخذه بالعقاب أي معاقبتكم.
٨ ـ يغفلكم : ينساكم ويترككم.
٩ ـ عاينتموهم : رأيتموهم.
١٠ ـ أوحشه : هجره.
١١ ـ أوطن المكان : اتخذه وطناً.
١٢ ـ صرعتهم : أهلكتهم.

الشرح

(أوصيكم أيها الناس بتقوى الله وكثرة حمده على آلائه إليكم ونعمائه عليكم وبلائه لديكم فكم خصكم بنعمة وتداركم برحمة، أعورتم له فستركم وتعرضتم لأخذه فأمهلكم) تتضمن هذه الخطبة الموعظة بتقوى الله وذكر الموت والاستعداد له...

أوصيكم أيها الناس بتقوى الله فإنها أعز وصية وأغلاها لأن بها الفوز والنجاة.

وأوصى بكثرة حمد الله على نعمة وإحسانه فإن كثرة حمد الله على النعمة تديمها وتزيدها وليس شكرها إلا وضعها موضعها المعدّ لها فالصحة نعمة تستحق الشكر وشكرها أن تؤدي فرائض الله وتجتنب معاصيه والمال نعمة وشكره أن تؤدي الحق المفروض فيه ولا تصرفه إلا في طاعة الله وما ينفع عباده وهكذا دواليك كل نعمة يجب

أن تقابل بالشكر وكل إحسان يجب أن يقابل بالشكر وهذا مبدأ أخلاقي: إن المحسن يجب شكره ولا يعصى بما أنعم. . .

ثم ذكر أن نعمه الكثيرة قد خصهم بها ورحمته قد لحقتهم في كل حين وبعد ذلك ذكر بعض نعمه ورحمته فمنها أنهم أبدوا عوراتهم له فسترها عليهم أي ارتكبوا المعاصي والآثام وعصوه وهو سبحانه يستر عليهم لعلهم إليه يعودون وإلى رحابه يرجعون. . .

وكذلك من نعمه أنهم ارتكبوا من المعاصي ما يوجب عذابهم واستئصال شأفتهم ولكنه سبحانه أمهلهم وأخرهم رحمة منه بهم لعلهم يتوبون ويرجعون. . .

(وأوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم وطمعكم فيمن ليس يمهلكم) الوصية بذكر الموت. . . أن يعيش الإنسان هذه الحالة فإنه لا بد له وأن يعدّ العدة ويبقى على أهبة الاستعداد ومن عاش هذا الحدث كف عن المحرمات وعمل الواجبات وسعى لما وراء الموت من خير أو شر ينتظره وكذلك يجب أن يكون المؤمن فلا يغفل عنه أو ينساه لأنه يبطر ويظلم وينحرف. . .

ثم استفهم منهم متعجباً: كيف يغفل الإنسان عن أمر يطلبه وكيف يطمع الإنسان بمن لا يؤخره أو يؤجله، والموت معنا لا يغفل عن طلبنا إن غفلنا ولا يتركنا إن طمعنا بالبقاء والخلود في الدنيا بل قوانينه ستطالنا وجنده سيغزونا ولن يكون لنا من بين يديه فوت أو هروب. . .

(فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم حملوا إلى قبورهم غير راكبين وأنزلوا فيها غير نازلين فكأنهم لم يكونوا للدنيا عماراً وكأن الآخرة لم تزل لهم دارا) هذه أعظم موعظة يراها الإنسان. . يرى الموتى أمامه ففي كل يوم يشيّع حبيباً أو صديقاً أو قريباً. . . إننا نراهم قد حُملوا على الأكتاف قهراً عنهم إلى قبورهم ولم يركبوا باختيارهم وحريتهم وأنزلوا فيها قهراً عنهم ولم ينزلوا طوعاً منهم وباختيارهم. . . إنهم رحلوا عن الدنيا فكأنهم لم يبنوا فيها ولم يكونوا من عمارها وبُناتها فقد أتى عليهم الموت فذهب بهم وقضى عليهم وكأنهم بانتقالهم إلى الآخرة واستقرارهم فيها كأنهم لم يزالوا فيها لم يفارقوها لأنهم من الآن فصاعداً لن يفارقوها لأنها منازلهم الأبدية. . .

(أوحشوا ما كانوا يوطنون وأوطنوا ما كانوا يوحشون) فإن مساكنهم التي كانوا بها يوطنون ويسكنون قد أصبحت موحشة بفقدهم وهذه القبور التي كانت موحشة وكانوا يستوحشون منها قد سكنوا فيها واتخذوها وطناً لهم. . .

(واشتغلوا بما فارقوا وأضاعوا ما إليه انتقلوا) عملوا في الدنيا بما لا يبقى لهم ولا

يدوم بل بما سيفارقونه ويتخلون عنه. . بنوا القصور وهي لا تبقى لهم. . . جمعوا المال وهو سيبقى للورثة ولن يبقى لهم ولن يأخذوا منه فلساً واحداً. . . اشتغلوا بشراء العقار وهم سيفارقونه ويتخلون عنه. . .

أما ما سينتقلون إليه من الجنة فلم يعملوا له لم يقدّموا لأنفسهم من عمل خير لم يتصدقوا. . . لم يعينوا الفقراء. . . لم يخدموا الضعفاء. . . لم يعملوا عملاً يقدمون به على دخول الجنة. . . وبعبارة موجزة يضيّعون الآخرة وسوف ينتقلون إليها ويعملون للدنيا وسوف ينتقلون عنها. . .

(لا عن قبيح يستطيعون انتقالاً ولا في حسن يستطيعون ازدياداً أنسوا بالدنيا فغرتهم ووثقوا بها فصرعتهم) بعد الموت توقف العمل فما عملوه من قبيح لازمهم إثمه وعليهم عقابه ولا يمكنهم محوه أو الانتقال منه إلى غيره كما أنهم لا يستطيعون زيادة في عملٍ حسن عملوه بل أعمالهم القبيحة والحسنة هي هي فلا زيادة ولا نقصان. . .

ثم ذكر أنهم أنسوا بالدنيا واستطيبوا ما فيها فغرتهم ودفعتهم إلى المعاصي والانحراف ووثقوا بها واطمأنوا إليها فراحوا في ملذاتهم يسرحون ولكنها أخذتهم وأهلكتهم وقضت عليهم. . .

(فسابقوا ـ رحمكم الله ـ إلى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها والتي رغبتم فيها ودعيتم إليها) فالسعيد من أسرع في العمل إلى الآخرة التي دعينا إليها والتي هي المنزل النهائي لهذا الإنسان وقد دعانا الله إليها وأمرنا أن نعمرها بما نقدمه في دار الدنيا من الطاعات والالتزام بأمر الله وقد رغبنا فيها بما أعد للمطيعين من حور وقصور وولدان وعسل مصفى وعين سلسبيل وغيرها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. . .

(واستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته) اجعلوا نعم الله عليكم تامة وتماميتها إنما يكون إذا حصل الإنسان على نعيم الآخرة وما فيها وهذا لا يكون إلا إذا أقام الطاعات واجتنب المعاصي والآثام. . .

(فإن غداً من اليوم قريب، ما أسرع الساعات في اليوم وأسرع الأيام في الشهر وأسرع الشهور في السنة وأسرع السنين في العمر) بعد أن أمر بالاستباق إلى الآخرة علّل ذلك بقصر المدة في دار الدنيا وقال: إن غداً وهو يوم القيامة قريب من اليوم، من الدنيا وبيّن قربه بسرعة الساعة التي تطويها الأيام وسرعة الأيام التي تطويها الشهور وسرعة الشهور التي تطويها السنة وسرعة السنين التي يطويها العمر فإذا انتهى العمر وصل

الإنسان إلى الآخرة وانتهت مدته من الدنيا وإنني أكتب هذه الكلمات في بيروت في ليلة الرابع من شهر شعبان سنة ١٤١٢ هجرية وقد بلغت السابعة والأربعين من العمر أتذكر كيف انطوت هذه الأيام الماضية والشهور الخالية والسنون الماضية وأقرأ قول الإمام فأعيد لنفسي عهوداً قد مضت وأتذكر أيام الطفولة ثم الشباب وسرعة انقضائهما ثم ما أنا فيه الآن من ضعف البدن وكثرة العلل يجعلني أختصر الحياة في كلمة الإمام وهي «الدنيا ساعة فاجعلها طاعة».

١٨٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

في الإيمان ووجوب الهجرة

أقسام الإيمان

فَمِنَ ٱلإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرًّا فِي ٱلْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيَ[١] بَيْنَ ٱلْقُلُوبِ وَٱلصُّدُورِ، «إِلَى أَجَلٍ[٢] مَعْلُومٍ». فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ[٤] حَتَّى يَحْضُرَهُ ٱلْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقَعُ حَدُّ ٱلْبَرَاءَةِ.

وجوب الهجرة

وَٱلْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا ٱلأَوَّلِ. مَا كَانَ للهِ فِي أَهْلِ ٱلأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ[٥] ٱلإِمَّةِ[٦] وَمُعْلِنِهَا. لاَ يَقَعُ ٱسْمُ ٱلْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ بِمَعْرِفَةِ ٱلْحُجَّةِ فِي ٱلأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ. وَلاَ يَقَعُ ٱسْمُ ٱلاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ ٱلْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاهَا قَلْبُهُ.

صعوبة الإيمان

إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لاَ يَحْمِلُهُ إِلاَّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ ٱمْتَحَنَ ٱللهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَلاَ يَعِي حَدِيثَنَا إِلاَّ صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَحْلاَمٌ[٧] رَزِينَةٌ[٨].

علم الوصي

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاء أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ ٱلأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ[٩] بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ[١٠] فِي خِطَامِهَا[١١]، وَتَذْهَبُ بِأَحْلاَمِ قَوْمِهَا.

اللغة

١ ـ عواري : بالتشديد جمع عارية وهي الإعارة أي ما تعطيه غيرك شرط أن يرده لك.
٢ ـ الأجل : الوقت.
٣ ـ البراءة : التبري.
٤ ـ فقفوه : أوقفوا الحكم عليه.
٥ ـ المستسر : من استسر الأمر إذا كتمه.
٦ ـ الإمة : بكسر الهمزة الحالة.
٧ ـ الأحلام : يقصد بها هنا العقول.
٨ ـ الرزينة : الوقرة، والرزين أصيل الرأي.
٩ ـ شغر برجله : رفعها.
١٠ ـ تطأ : تدوس.
١١ ـ الخطام : ما يوضع في أنف البعير ليقاد به.

الشرح

(فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتى يحضره الموت فعند ذلك يقع حد البراءة) يتعرض الإمام في هذه الخطبة إلى الإيمان وأقسامه والهجرة وحدّها وصعوبة أمر أهل البيت وأخيراً يبيّن سعة علمه عليه السلام. . . .

ابتدأ بذكر الإيمان وقسمه إلى قسمين:

١ ـ ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب وهو الذي أخذه أصحابه عن الأدلة المقنعة التي يؤمن بها العقل وتتفاعل معها النفس وهذا لا يكون إلا في المؤمنين العقائديين الذين لا يتنازلون عن إيمانهم تحت أقسى الظروف وأشد الأحوال بل كلما تعرضوا للمحن من أجل عقيدتهم شدوا عليها بالنواجذ وازدادوا تمسكاً بها وإيماناً بمضمونها فهذا الإيمان ثابت مستقر لا يزول ولا يحول ولا يتغير ولا يتبدل.

٢ ـ ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتى يحضر الموت فعند ذلك يقع حد البراءة.

وهذا هو القسم الثاني من الإيمان وهو ما يكون مستعاراً. . . وعبّر عن عدم استقراره في القلب بتردده بين القلوب والصدور.

وهذا الإيمان عبر عنه بالعارية لأنه ليس مستقراً في قلب صاحبه ولا مملوكاً له وشأن العارية أن تخرج عن يد المستعير وكذلك الإيمان غير المستقر.

وهذا الإيمان يتمتع به بعض الناس ويعيشون في ظله إلى وقت معلوم ثم يزول ونحن نجد بعض هذه النماذج في مجتمعنا تتعايش مع الإيمان لفترة ثم عندما تمتحن في بعض قضاياها تتنازل عنه وتتخلى عن مضمونه. . .

ثم إن الإمام أراد أن يصحّح سلوكاً مفاده أن بعض الناس عندما يجدون أمراً يخل بالإيمان من بعض سلوكيات أحد يتبرؤون منه ويكفرونه ويخرجونه عن الإيمان والإمام يقول لهم: لا تحكموا على الرجل بالكفر ولا تتبرؤوا منه بمجرد ارتكابه بعض المحظورات إذ لعله يتوب ويرجع أو يكفّر عن خطاياه وقبائح سيئاته فتداركه رحمة الله ويدخل في عفوه ورضوانه وإذا أردتم البراءة الصحيحة منه فترقبوا وقت وفاته، إنها اللحظات الأخيرة التي يتخلى الإنسان فيها عن كل شيء ولم يعد له في الدنيا مطمع أو مرغّب عندها إذا أصر على الانحراف والكفر لا بأس بالبراءة منه. . .

(والهجرة قائمة على حدها الأول ما كان لله في أهل الأرض حاجة من مستسر الإمة ومعلنها) الهجرة كما كانت في زمن رسول الله هي مطلوبة اليوم، لم يسقطها الزمن لم ترفع حكمها الأيام فقد كانت واجبة من أجل إقامة الدين وتحقيق الشرع المبين، كانت لرفع الظلم والاضطهاد وكانت لأجل أن يتعلم الإنسان أحكامه ويأتي بها على وجهها الصحيح ولم تكن أبداً لحاجة راجعة إلى الله يظهرها الناس أو يخفوها فالله هو الغني ليس بحاجة إلى هجرة أحد وقال بعضهم: إن الهجرة باقية ما دام التكليف باقياً. . .

(لا يقع اسم الهجرة على أحد إلا بمعرفة الحجة في الأرض فمن عرفها وأقر بها فهو مهاجر) هذا نفي لكون كل هجرة أن تكون هجرة فليس كل من ترك وطنه وهاجر عنه يصدق عليه أنه مهاجر لأن الهجرة إنما تقصد من خلال أهدافها وهدف الهجرة لا يتحقق إلا إذا عرف المهاجر الحجة وهو النبي صلى الله عليه وآله في حياته والأئمة والصالحين بعده فمن عرفهم وأقرّ بهم والتزم أوامرهم وهاجر إليهم صدق عليه أنه مهاجر. . .

(ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه) لأن المستضعف هو الإنسان القاصر الذي لا يدرك الحقائق ولا يصل بفكره إلى أنوار الدين والحقيقة وهذا يرتفع كله إذا وصلته أخبار الحجة بظهور النبي صلى الله عليه وآله أو

وجود الإمام لأنه يعرف عندها وجوب الهجرة إليهم والاستفادة من علومهم والجهاد بين أيديهم. . .

(إن أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة وأحلام رزينة) أمر أهل البيت بمكان من الصعوبة وهو مستصعب القبول إذ كيف خلقهم الله وحصرهم في عدد معين لا يتجاوزونه مع ما أعطاهم من علم وكشف أمامهم من أمور الغيب وما تمتعوا به من قوة نافذة تكويناً وتشريعاً وغير ذلك من الأمور التي تفوق طاقة البشر وقدرتهم فإن كل ذلك جعل أمرهم صعباً لا يتحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان أي صدق في إيمانه بالله ورسوله وما جاء بحق أهل البيت وما أعطاهم الله من الفضل. . .

ثم بيّن أن حديثهم لا يفهمه إلا القلوب الأمينة على الحقائق والعقول الرصينة التي تعرف أنهم أئمة اختارهم الله وجعلهم خلفاء على خلقه ورضيهم ساسة لعباده ولبلاده وأنهم المعصومون المسددون الذين لا ينقلون إلا مرادات الله وما أحب. . .

وقد قيل: إن أمر أهل البيت هو الإسلام وأن يقام هذا الدين بحذافيره ويطبق في جيمع شؤون الحياة وهذا أمر صعب لا يتحمّل إقامته وتطويع النفس من أجله إلا عبد صادق في إيمانه ولا يعي هذا الحديث إلا أصحاب الصدور السليمة العامرة بالإيمان وأصحاب العقول الواعية التي اعتقدت بالإسلام وآمنت بأنه الحاكم في جميع البلاد وعلى جميع العباد. . .

(أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها وتذهب بأحلام قومها) توجه إلى الناس أن يسألوه قبل أن يفقدوه أن يسألوه عن كل أمر يهمهم. . . عن الحاضر بما فيه وعن المستقبل بما يحمل وعن الماضي بما مرّ. . . أن يسألوه عن الكليات وعن الجزئيات. . . أن يسألوه عن الدنيا وعن الدين. . . أن يسألوه عن كل أمر يريدونه ويريدون معرفته. . . «سلوني» كلمة قالها علي عليه السلام وهو صادق فيها ولن يقولها أحد بعده إلا وهو ظالم كاذب. . .

قالها علي عليه السلام لأنه باب مدينة علم الرسول ولأن رسول الله علّمه ألف باب من العلم ينفتح له من كل باب ألف باب. . . ومن أنّى يكون لعلي نظير في الوجود. . . قالها علي ولكن الناس في زمانه أغبياء جهلاء أغمضوا عيونهم وسدّوا آذانهم وراحوا يستهزؤون بهذا الكلام. . . قالها علي عليه السلام ولم يجد الأذن السامعة والقلب

المتعلم الواعي فسقط الطلب في تلك الجلسة وبقي ذكرى يرددها عشاق العلم الذين يرون في علي استاذ البشرية قاطبة... خسرت هذه الأمة إذ لم تسأل الإمام عن شؤونها وشؤون الحياة التي تربح بها عزها في الدنيا وسعادتها في الآخرة...

علي يطرق الأسماع بقوله: «سلوني قبل أن تفقدوني» فيجدها موصدة منغلقة... يقول للحاضرين: أنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض فاسألوا عن السماء وما فيها وإذا كنت أعلم بطرق السماء مني بطرق الأرض فأنا أعلم أيضاً بطرق الأرض وما يجري فيها... سلوني قبل أن تفقدوني وقبل أن تستفحل الفتنة بعدي فتقوى شوكتها وتأخذ في طريقها الصالحين... إن الرؤى الصالحة تضيع فيها... إنها تدوس كل شيء وتقضي على كل القيم وعندها تتحير عقول العقلاء وآراء المصلحين وإرشاد المرشدين لأنها أقوى من كل ذلك لكثرة أهلها وضلالهم...

١٩٠ - ومن خطبة له عليه السلام

يحمد الله ويثني على نبيه ويعظ بالتقوى

حمد الله

أَحْمَدُهُ شُكْراً لإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ[١] حُقُوقِهِ، عَزِيزَ ٱلْجُنْدِ، عَظِيمَ ٱلْمجْدِ.

الثناء علي النبي

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ[٢] أَعْدَاءَهُ جِهَاداً عَنْ دِينِهِ، لاَ يَثْنِيهِ[٣] عَنْ ذلِكَ ٱجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَٱلْتِمَاسٌ لإِطْفَاءِ نُورِهِ.

العظة بالتقوى

فَٱعْتَصِمُوا[٤] بِتَقْوى ٱللهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً[٥] عُرْوَتُهُ[٦]، وَمَعْقِلاً[٧] مَنِيعاً[٨] ذِرْوَتُهُ[٩]. وَبَادِرُوا[١٠] ٱلْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ[١١]، وَٱمْهَدُوا[١٢] لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا[١٣] لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ: فَإِنَّ ٱلْغَايَةَ ٱلْقِيَامَةُ؛ وَكَفَى بِذلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ! وَقَبْلَ بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ ٱلأَرْمَاسِ[١٤]، وَشِدَّةِ ٱلإِبْلاَسِ[١٥]، وَهَوْلِ[١٦] ٱلْمُطَّلَعِ[١٧]، وَرَوْعَاتِ[١٨] ٱلْفَزَعِ، وَٱخْتِلاَفِ ٱلأَضْلاَعِ[١٩]، وَٱسْتِكَاكِ ٱلأَسْمَاعِ[٢٠]، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ[٢١]، وَخِيفَةِ ٱلْوَعْدِ، وَغَمِّ[٢٢] ٱلضَّرِيحِ، وَرَدْمِ[٢٣] ٱلصَّفِيحِ[٢٤].

فَاللهَ ٱللهَ عِبَادَ ٱللهِ! فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنٍ[٢٥]، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ

فِي قَرَنٍ(٢٦). وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا(٢٧)، وَأَزِفَتْ(٢٨) بِأَفْرَاطِهَا(٢٩)، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا(٣٠). وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَازِلِهَا، وَأَنَاخَتْ(٣١) بِكَلَاكِلِهَا(٣٢)، وَٱنْصَرَمَتِ(٣٣) الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا(٣٤)، فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَى، أَوْ شَهْرٍ ٱنْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثًّا(٣٥)، وَسَمِينُهَا(٣٦) غَثًّا(٣٧). فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ(٣٨) ٱلْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ(٣٩)، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا(٤٠)، عَالٍ لَجَبُهَا(٤١)، سَاطِعٍ(٤٢) لَهَبُهَا(٤٣)، مُتَغَيِّظٍ(٤٤) زَفِيرُهَا(٤٥)، مُتَأَجِّجٍ(٤٦) سَعِيرُهَا(٤٧)، بَعِيدٍ خُمُودُهَا(٤٨)، ذَاكٍ(٤٩) وُقُودُهَا، مَخُوفٍ وَعِيدُهَا، عَمٍ قَرَارُهَا(٥٠)، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا(٥١)، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا(٥٢)، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا(٥٣). ﴿وسِيقَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً﴾(٥٤). قَدْ أُمِنَ ٱلْعَذَابُ، وَٱنْقَطَعَ ٱلْعِتَابُ، وَزُحْزِحُوا(٥٥) عَنِ النَّارِ، وَٱطْمَأَنَّتْ(٥٦) بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا ٱلْمَثْوَى(٥٧) وَٱلْقَرَارَ. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً، تَخَشُّعاً وَٱسْتِغْفَاراً؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلاً، تَوَحُّشاً(٥٧) وَٱنْقِطَاعاً. فَجَعَلَ ٱللهُ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ مَآباً(٥٩)، وَٱلْجَزَاءَ ثَوَاباً، «وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا» فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ.

فَٱرْعَوْا(٦٠) عِبَادَ ٱللهِ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ. وَبَادِرُوا(٦١) آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ(٦٢)، وَمَدِينُونَ(٦٣) بِمَا قَدَّمْتُمْ. وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ ٱلْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَةَ تَنَالُونَ، وَلَا عَثْرَةً(٦٤) تُقَالُونَ(٦٥). ٱسْتَعْمَلَنَا ٱللهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ.

ٱلْزَمُوا ٱلأَرْضَ، وَٱصْبِرُوا عَلَى ٱلْبَلَاءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ ٱللهُ لَكُمْ. فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ

عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللهِ، وَٱسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلاَتِهِ(٦٦) لِسَيْفِهِ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً.

اللغة

١ ـ الوظائف	:	جمع وظيفة ما يقدّر للإنسان من عمل ورزق وطعام في كل يوم.
٢ ـ قاهر	:	من قهره إذا غلبه.
٣ ـ لا يثنيه	:	لا يصرفه ولا يرده.
٤ ـ اعتصموا	:	امتنعوا وتحصنوا.
٥ ـ الوثيق	:	الثابت القوي المحكم.
٦ ـ العروة	:	من الابريق مقبضه أي أذنه.
٧ ـ المعقل	:	الملجأ.
٨ ـ المنيع	:	العزيز الشديد الذي لا يُقدر عليه.
٩ ـ الذروة	:	أعلى كل شيء.
١٠ ـ بادروا	:	اسرعوا.
١١ ـ الغمرات	:	الشدائد.
١٢ ـ مهد	:	الأرض بسطها وهيأها والمهد للصبي هو السرير الذي هيىء له.
١٣ ـ أعدوا	:	هيئوا.
١٤ ـ الارماس	:	جمع رمس وهو القبر.
١٥ ـ الإبلاس	:	الحزن والسكوت عن غمّ.
١٦ ـ الهول	:	المخافة من الأمر.
١٧ ـ المطّلع	:	بضم فتشديد مع فتح في أصله موضع الإطلاع والإشراف من ارتفاع إلى انحدار والمقصود هنا المنزلة التي منها يشرف الإنسان على أمور الآخرة.
١٨ ـ الروعات	:	الافزاع.
١٩ ـ اختلاف الأضلاع	:	تداخلها.
٢٠ ـ استكاك الأسماع	:	صممها.
٢١ ـ اللحد	:	الضريح أو الشق في وسط القبر.
٢٢ ـ الغم	:	الغطاء ومنه قيل للحزن غم لأنه يغطي السرور.

٢٣ ـ الردم : السد.
٢٤ ـ الصفيح : الحجر العريض.
٢٥ ـ السنن : الطريق.
٢٦ ـ القرن : بالفتح الحبل الذي يشد به البعير.
٢٧ ـ الأشراط : العلامات.
٢٨ ـ ازفت : قرُبت.
٢٩ ـ الإفراط : المتقدم من القوم لطلب الماء وهنا يقصد بالإفراط المقدمات.
٣٠ ـ الصراط : الطريق المستقيم.
٣١ ـ أناخت : بركت يقال: أنخت البعير فبرك.
٣٢ ـ الكلاكل : الصدور.
٣٣ ـ انصرمت : تقطعت أو انقضت.
٣٤ ـ الحضن : بكسر الحاء ما دون الأبط إلى الكشح أو الصدر والعضدان وما بينهما.
٣٥ ـ الرث : البالي.
٣٦ ـ السمين : ضد الهزيل ما كثر شحمه ودسمه.
٣٧ ـ الغث : المهزول.
٣٨ ـ الضنك : الضيق.
٣٩ ـ عظام : جمع عظيم صعب الأمر عليه وشق.
٤٠ ـ الكلب : محركاً الأكل بدون شبع.
٤١ ـ اللجب : الصياح.
٤٢ ـ ساطع : مرتفع.
٤٣ ـ لهبها : سعيرها.
٤٤ ـ التغيظ : الهيجان.
٤٥ ـ الزفير : صوت توقد النار.
٤٦ ـ متأجج : ملتهب من أجج النار ألهبها.
٤٧ ـ السعير : لهب النار.
٤٨ ـ الخمود : للنار إذا سكن لهبها ولم يطفأ جمرها.
٤٩ ـ ذاك : من ذكت النار إذا اشتد لهبها.
٥٠ ـ عم قرارها : لا يرى عمقها.
٥١ ـ اقطارها : جوانبها.
٥٢ ـ القدور : مفردها قدر إناء يطبخ فيه...
٥٣ ـ فظيعة أمورها : شديدة متجاوزة للمقدار الطبيعي.

٥٤ ـ الزمر	:	جمع زمرة الجماعة.
٥٥ ـ زحزحوا	:	من زحزحه عن مكانه إذا حركه عنه وزحزحوا، أبعدوا.
٥٦ ـ أطمأنت	:	سكنت.
٥٧ ـ المثوى	:	المنزل.
٥٨ ـ التوحش	:	عدم الاستيناس.
٥٩ ـ المآب	:	المرجع.
٦٠ ـ ارعوا	:	احفظوا.
٦١ ـ بادروا	:	اسرعوا.
٦٢ ـ اسلفتم	:	قدمتم.
٦٣ ـ مدينون	:	مجزيون.
٦٤ ـ العثرة	:	زلة القدم.
٦٥ ـ تقالون	:	تدركون.
٦٦ ـ إصلات السيف	:	سله وتجريده من غمده للضرب.

الشرح

(أحمده شكراً لأنعامه وأستعينه على وظائف حقوقه عزيز الجند عظيم المجد) هذه الخطبة فيها حث على تقوى الله وعظة بذكر الدار الآخرة وحال الأتقياء فيها كما أن فيها بيان الأجر والثواب لمن التزم بأحكام الله وإنه يفوز بالشهادة ولو كان على فراشه إذا كان ذلك التزاماً بأمر الله.

وابتدأ بحمد الله الذي يستحق الشكر على نعمه التي أفاضها على بريته فإنها نعم يجب أن يُشكر المنعم بها علينا كما طلب من الله الإستعانة أن يوفقه لإداء ما أوجبه عليه من الحقوق والواجبات والمستحبات فإن هذه التكاليف تحتاج إلى إعانة الله وتسديده وتوفيقه ليؤديها المكلف.

وقد كان شكره والاستعانة به بأعتباره عزيز الجند عظيم المجد أي قوي السلطان لا يقهر ولا يُغلب.

(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله دعا إلى طاعته وقاهر أعداءه جهاداً عن دينه لا يثنيه عن ذلك اجتماع على تكذيبه والتماس لإطفاء نوره) بعد أن حمد الله أردف ذلك بالشهادة لرسول الله وإنه عبد الله الخالص ورسوله الذي أرسله للناس وقد رغبهم بما قام به النبي ﷺ بذكر بعض أفعاله الكريمة حيث دعا إلى طاعة الله والتزام أمره وقد أتعب نفسه

في سبيل تبليغ الرسالة وإيصالها إلى الناس وقد جاهد اعداءه في سبيل الدين فحارب الأقربين والأبعدين من أجل إعزاز الدين ورفع رايته لم يؤثر عليه اجتماعهم على تكذيبه وقيامهم بإطفاء نور هدايته، فقد اجتمعت قريش والتقت كلها على كلمة واحدة أرادت من خلالها التخلص من رسول الله والقضاء على دينه وما جاء به من أحكام وقضايا ولكن رسول الله بقي على إصراره ومسيرته يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو تنفرد سالفتي» ولذا نجح النبي ﷺ بتصميمه وتسديد الله له واستطاع إن يقضي على الشرك والوثنية في فترة وجيزة من عمر الزمن. . .

(فاعتصموا بتقوى الله فإن لها حبلاً وثيقاً عروته ومعقلاً منيعاً ذروته) أمرهم أن يلتزموا تقوى الله ويتحصنوا بها فإنها تحفظهم من السقوط في مهاوي الرذيلة: وتقوى الله لها حبل قوي متين وملجأ حريز لا يصل إلى أعلاه أحد وهذا يراد به الإسلام فإن من تمسك به نجا وفاز ولم يتعرض لعطب أو ردى. . .

(وبادروا الموت وغمراته وأمهدوا له قبل حلوله وأعدوا له قبل نزوله فإن الغاية القيامة وكفى بذلك واعظاً لمن عقل ومعتبراً لمن جهل) استعدوا للموت بتهيئة أجوائه وما يريحكم اثناءه وما بعده وإنما يكون ذلك بالأعمال الصالحة والقيام بالواجبات وترك المحرمات فإن شدائد الموت لا يخففها أو يزيلها إلّا صالح الأعمال من احترام الناس وكف الأذى عنهم وإعانتهم وصلة الرحم والعطف على الفقراء والمساكين وهكذا ولذا قال عليه السلام: «وأمهدوا له قبل حلوله سهلوا له الأمر ووطئوا الأكناف بعمل الصالحات وأعدوا له قبل نزوله وأنتم في دار الدنيا أقوياء أصحاء تملكون الحركة والقدرة ثم فرّع على ذلك بأن غاية الموت ونهايته هي القيامة ويوم الحساب فإن بعد الموت وقفة أمام الله للحساب وفي ذلك كفاية لمن كان له عقل واعتبار أن يهيىء الزاد ليوم المعاد ويستعد للرحيل فإنه لن يعود إلى الدنيا أبداً. . .

(وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الأرماس وشدة الإبلاس وهول المطلع وروعات الفزع واختلاف الأضلاع واستكاك الأسماع وظلمة اللحد وخيفة الوعد وغم الضريح وردم الصفيح) ذكر أن قبل يوم القيامة أهوال وفجائع وأمور عظيمة. . إنّ بعد الموت إلى قيام الساعة فترة صعبه يذكر بعض ما يتخللها وما يمر على هذا الميت المسكين منها وهي:

١ ـ ضيق الأرماس أي ضيق القبور فإن هذا الإنسان الذي كانت لا تسعه الدنيا مع سعتها يتحول إلى قبر ضيق لا يتجاوز قامته إلا قليلاً فأين القصور وأين الدور وأين الدنيا

بسعتها إنها كله لم تسعه ووسعه قبره الضيق.. إنه قبر يبقى فيه الإنسان إلى قيام الساعة...

٢ ـ شدة الإبلاس: فإن الحزن هناك شديد لفراق الأهل والوطن والمال وكل عزيز.

٣ ـ وهول المطلع: وهو رؤية عالم الآخرة وما أعده الله للعاصين من عذاب وعقاب فإنه يدخله من ذلك أمر عظيم.

٤ ـ وروعات الفزع: الخوف الشديد الذي يتنوع بتنوع ما يرى من العذابات...

٥ ـ واختلاف الأضلاع: أي اشتباكها وتداخلها ببعضها من ضغطة القبر.

٦ ـ واستكاك الأسماع: أي ذهابها وتوقف عملها نتيجة الأصوات الهائلة.

٧ ـ وظلمة اللحد: وما أشد الظلمة في كل شيء وظلمة القبر ما أوحشها وأشد رعبها فإن أحدنا يحس بالضيق والضجر إذا اطفئت الأنوار ويستوحش من ذلك فكيف إذا اجتمعت على الميت الغربة والوحدة وضيق القبر وظلمته...

٨ ـ وخيفة الوعد: الخوف مما وعد الله المذنبين من العذاب فإن الموت يقرّب هذا الوعد فيعيش الإنسان عذاب الأنتظار لذلك العذاب...

٩ ـ وغم الضريح وردم الصفيح: إن للقبر شدة عظيمة وله همّ وغم لا يقارن بهموم الدنيا وغمومها واعتبر بتلك الصخرات العريضة التي تسد القبر من فوق ويأتي الردم ليسد جميع المنافذ وكم هي ساعة صعبة عندما توضع هذه الصخرات على فوهة القبر وتسد بأحكام حتى لا يبقى منها منفذ...

(فالله الله عباد الله فإن الدنيا ماضية بكم على سنن وأنتم والساعة في قرن) ناشدهم الله أن يحسبوا له حسابه ويطيعوه ويعملوا بأوامره ويجتنبوا معاصيه فإن الدنيا سبيلها وسلوكها معكم كما سلكت مع الذين من قبلكم من الأمم والشعوب والأجداد والآباء والناس أجمعين، فإن الموت قد أتاهم وأناخ بركابهم فلم يبق منهم أحد وأنتم على نفس الطريق لا تحيدون عنه وأنتم ويوم القيامة مقترنان لأن يوم القيامة حق واقع لا ريب فيه فكأنه والإنسان مقرونان...

(وكأنها قد جاءت بأشراطها وأزفت بأفراطها ووقفت بكم على صراطها) فكأنها قد جاءت مستكملة شروطها وعلاماتها وفي حديث سلمان ذكر النبي ﷺ كثيراً من تلك العلامات منها أن الله يرفع العلم ويظهر الجهل، يشرب الخمر ـ يفشو الزنا ـ تقل الرجال

ـ تكثر النساء ـ اضاعة الصلوات اتباع الشهوات. تعظيم أصحاب المال، بيع الدين بالدنيا، تكون الإمارة للنساء، يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء، تشبه النساء بالرجال والرجال بالنساء، يركبن ذوات الفروج السروج. . .إلى آخر الأشراط المذكورة.

وكأنها قد اقتربت بمقدماتها وأوقفتكم على طريقها المؤدي بكم إلى الآخرة.

(وكأنها قد أشرفت بزلازلها وأناخت بكلاكلها وانصرمت الدنيا بأهلها وأخرجتهم من حصنها فكانت كيوم مضى أو شهر انقضى وصار جديدها رثاً وسميناً غثاً) وكأن يوم القيامة قد جاء بما يحمل من زلازل مرعبة مخوفة كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**﴾.

وكأنها قد حطت عليكم بأهوالها ومصائبها وما فيها من شدائد وأتعاب.

وأما الدنيا فقد انقضت وانتهت ولم يعد من أهلها أحد أخرجتهم من بحبوحة عيشها ورغد ما فيها إلى مصائب الآخرة ومشاكلها وكأن هذه الدنيا بطولها وكل عمر الإنسان فيها كأنها يوم مضى أو شهر انقضى وما أقصر هذه المسافة الزمنية وقلتها لقد تحول ما كان جديداً منها وما كنا نتباهى به ونفخر تحول بالياً ممزقاً وما كان قوياً سميناً أصبح ضعيفاً هزيلاً، . . لقد انقلبت الأمور عما كانت عليه وتحولت الأيام الطويلة والعمر المديد إلى شيء تافه قصير. . .

(في موقف ضنك المقام وأمور مشتبهة عظام) إنه موقف مزدحم بالخلائق حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب قال تعالى: ﴿**قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم. . .**﴾ وأمور وهي أهوال يوم القيامة العظيمة التي تدع الإنسان متحيراً مضطرباً لا يعرف ماذا يعمل وكيف يتحرك وبأي وسيلة تكون النجاة. . .

(ونار شديد كلبها) وذكر النار التي يأوي إليها العصاة والمردة الذين خرجوا عن سلطان الله ولم يطيعوه في أمره وقد ذكر بعض صفاتها المرعبة المخيفة إنها:

١ ـ نار شديد كلبها: فشرّها وشدائدها ومصائبها كثيرة إنها تأكل ولا تشبع كما قال تعالى: ﴿**يوم نقول لجهنم هل امتلأتي وتقول هل من مزيد**﴾.

٢ ـ **(عالٍ لجبها ساطع لهبها متغيظ زفيرها)** لشدتها يعلو صوتها ويرتفع صخبها كما قال تعالى: ﴿**إذا القوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ. .**﴾.

٣ ـ (**متأجج سعيرها**) نارها ملتهبة إلى أقصى الحدود.

٤ ـ (**بعيد خمودها ذاكٍ وقودها**) فهي لا تنطفىء أو تتوقف عن الاشتعال بل باستمرار يلقى فيها من الناس العصاة ما يزيدها ضراماً والتهاباً . . .

٥ ـ (**مخوف وعيدها**) من كان حظه فيها لسوء عمله أخافته وأرعبته ولو كان ذاك بُعد لم يأت.

٦ـ (**عم قرارها مظلمة اقطارها**) عمقها مجهول لا يرى وهي مظلمة الجوانب والحدود.

٧ ـ (**حامية قدورها فظيعة أمورها**) فالأماكن التي يقع فيها الناس للعذاب شديدة الحرارة وأمورها غريبة فكل دركة من دركاتها فيها عذاب ولها رجال من العصاة. . .

(**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً**) بعد أن ذكر النار للعصاة وذكر بعض أوصافها الرهيبة ذكر الجنة وإن الله قد أعدها للأتقياء فإنهم يساقون إليها جماعات جماعات وبعدها ذكر أحوالهم وما يمر عليهم من النعيم والخير.

(**قد أمن العذاب وانقطع العتاب**) اطمأنوا أن العذاب لا يطالهم أو ينالهم فقد أمنوه لإيمانهم وصدق أعمالهم كما أنهم لا يعاتبون على شيء أو يسألون عن شيء. . .

(**وزحزحوا عن النار وأطمأنت بهم الدار ورضوا المثوى والقرار**) أبعدوا عن النار ﴿**فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز**﴾ وسكنت بهم الجنة وارتاحت لدخولهم فيها واستقرارهم في نعيمها ورضوا هذا المقام والاستقرار لأنفسهم.

(**الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية وأعينهم باكية**) وهذه من صفات المتقين إنهم كانت أعمالهم في الدنيا صالحة خالصة من الرياء والسمعة لم يعملوا إلا لله ورجاء ثوابه وقد كانت أعينهم باكية من خشيته خوفاً من عقابه وشوقاً إلى ثوابه. . .

(**وكان ليلهم في دنياهم نهاراً تخشعاً واستغفاراً وكان نهارهم ليلاً توحشاً وانقطاعاً**) لقد تحولوا إلى رهبان الليل بل حولوا ليلهم نهاراً فسهروا في الخشوع لله والخضوع له والدعاء والذكر والتسبيح. . إنها ساعات الليل التي يحولها المؤمنون المتقون إلى ساحات مناجاة لله وتضرع له واستغفار ساعات الليل البهيم حيث يهجع الناس في مضاجعهم يخرج المؤمنون عندها للقاء الله يبثونه شكواهم وآلامهم ويطلبون فكاك رقابهم من النار.

وأما نهارهم فيتحول إلى ليل لأنهم يستوحشون من الدنيا وأهلها وينقطعون عما في أيدي الناس وعما يزاولون من أعمال لا ترضي الله. . .

(**فجعل الله لهم الجنة مآبا والجزاء ثواباً وكانوا أحق بها وأهلها في ملك دائم ونعيم قائم**) بعد أن وصف حال المتقين وسلوكهم عقبه بذكر ما أعطاهم من الفضل جزاء لعملهم.

إنه جعل لهم الجنة مركزاً يعودون إليه ويستقرون فيه وجعل لهم الجزاء الجميل ثواباً كما قال تعالى: ﴿**إن للمتقين مفازاً، حدائق وأعناباً وكواعب أتراباً وكأساً دهاقاً، لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً جزاء من ربك عطاء حساباً**﴾.

وقد كانوا أهلها وأحق بها من غيرهم من الناس في ملك دائم لا يزول ونعيم قائم لا يتحول أو يتبدل.

(**فارعوا عباد الله ما برعايته يفوز فائزكم وبإطاعته يخسر مبطلكم**) احفظوا الأمور التي إذا أديتموها وحفظتموها يفوز الإنسان منكم وينجح وهذه الأمور هي الواجبات ورعاية الحقوق وإدائها كما إن من إضاعها ولم يقم بها ويؤديها على وجهها يخسر المخسر منكم وأي خسارة هي أنها خسارة الدين التي تؤدي إلى الجحيم. . .

(**وبادروا آجالكم بأعمالكم فإنكم مرتهنون بما أسلفتم ومدينون بما قدمتم**) اسرعوا إلى عمل الخير والقيام بالواجبات قبل أن يأتيكم الموت فتنقطع هذه الأعمال ثم بين أن كل واحد مأخوذ بما قدم من خير أو شر وإن هذه النفوس مرهونة بما قدمت من عمل سيء فإنها لا تستطيع إفتكاكها إلا بعمل صالح من توبة وإعادة حق لأصحابه وقيام الواجبات كما إنهم مدينون بما قدموا ولا يصح الوفاء إلا بالقيام بالواجبات فإن بها الوفاء. . .

(**وكأن قد نزل بكم المخوف فلا رجعة تنالون ولا عثرة تقالون**) كأن الموت قد حلّ بكم ونزل بساحتكم فلا يمكنكم الرجوع إلى الدنيا ولا يمكن أن تصلحوا خللاً وقع منكم فإذا قرع الموت باب أحدنا فلا رجعة له ولا عمل بعده. . .

(**استعملنا الله وإياكم بطاعته وطاعة رسوله وعفا عنا وعنكم بفضل رحمته**) دعا لنفسه ولهم أن يكونوا في طاعة الله وطاعة رسوله بأن يكونوا من الملتزمين بكل أمر إلهي ونبوي كما سأله العفو عنه وعنهم فإنه ذو الفضل والرحمة بفضله يعفو ويرحم. . .

(**الزموا الأرض واصبروا على البلاء ولا تحركوا بأيديكم وسيوفكم في هوى**

ألسنتكم ولا تستعجلوا بما لم يعجله الله لكم) كفوا أيديكم عن القتال ومحاربة من معكم ممن لم يوافقكم في عقائدكم فقد كان هناك في صفوف جند الإمام الخوارج وعملاء معاوية فحفاظاً على وحدة الصف أمرهم أن لا يحاربوا هؤلاء حتى لا يتفكك العسكر وينقطع نظمه وأمرهم بالصبر والتروي على الإمتحان مهما كان صعباً وأن لا يشهروا السيوف فيما أحبوا وأرادوا واشتهوا لأن ذلك قد يكون مضراً بالمصلحة العامة ونهاهم عن استعجال أمر لم يأت وقته ولم تتوفر ظروفه لأن المصلحة أن لا يقدم الإنسان على أمر إذا لم ينضج بعد. . .

(فإنه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حق ربه وحق رسوله وأهل بيته مات شهيداً ووقع أجره على الله واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله وقامت النية مقام إصلاته لسيفه فإن لكل شيء مدة وأجلاً) بعد أن أمرهم بالصبر على البلاء ونهاهم عن قتال من معهم طيّب خواطرهم بأن أعطاهم أجر الجهاد والشهادة إذا ماتوا ولو بدون قتال بل موتة طبيعية يؤجرون عليها ويرجون الشهادة شرط أن يكونوا على معرفة بحق الله وحق رسوله وحق أهل البيت من الأئمة ويقع أجرهم على الله، فإن النية تقوم مقام العمل فمن نوى الجهاد في سبيل الله وكان على معرفة تامة بحق الله وحق رسوله والأئمة فإنه يكسب أجر ما نوى من الجهاد وهكذا يتفضل الله عليه بأن يكتب له أجر ما نوى وهذا مفاد الحديث: إنما الأعمال بالنيات ولكل أمرءٍ ما نوى ثم بين أن لكل شيء مدة ينتهي عندها فلا ينبغي للإنسان أن يستعجل تلك المدة أو يستبطئها. . .

١٩١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يحمد الله ويثني على نبيه ويوصي بالزهد والتقوى

ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلْفَاشِي[١] فِي ٱلْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَٱلْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَٱلْمُتَعَالِي جَدُّهُ[٢]. أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التُّؤَامِ[٣]، وَآلاَئِهِ[٤] ٱلْعِظَامِ. الَّذي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى[٥]، وَعَلِمَ مَا يَمْضِي وَمَا مَضَى، مُبْتَدِعِ[٦] ٱلْخَلاَئِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلاَ ٱقْتِدَاءٍ وَلاَ تَعْلِيمٍ، وَلاَ ٱحْتِذَاءٍ[٧] لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ، وَلاَ إِصَابَةِ خَطَأٍ، وَلاَ حَضْرَةِ مَلأٍ.

الرسول الأعظم

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ٱبْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ[٨] فِي غَمْرَةٍ[٩]، وَيَمُوجُونَ[١٠] فِي حَيْرَةٍ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ[١١] ٱلْحَيْنِ[١٢]، وَٱسْتَغْلَقَتْ[١٣] عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ[١٤] الرَّيْنِ[١٥].

الوصية بالزهد والتقوى

عِبَادَ ٱللهِ! أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى ٱللهِ فَإِنَّهَا حَقُّ ٱللهِ عَلَيْكُمْ، وَٱلْمُوجِبَةُ عَلَى ٱللهِ حَقَّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى ٱللهِ: فَإِنَّ التَّقْوَى فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْحِرْزُ[١٦] وَٱلْجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى ٱلْجَنَّةِ. مَسْلَكُهَا[١٨] وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ[١٩] عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى ٱلأُمَمِ ٱلْمَاضِينَ مِنْكُمْ وَٱلْغَابِرِينَ[٢٠]، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً، إِذَا أَعَادَ ٱللهُ مَا أَبْدَى، وَأَخَذَ مَا أَعْطَى، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى[٢١]. فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ

حَمْلِهَا! أُولئِكَ ٱلأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. فَأَهْطِعُوا(٢٢) بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَأَلِظُّوا(٢٣) بِجِدِّكُمْ(٢٤) عَلَيْهَا، وَٱعْتَاضُوهَا(٢٥) مِنْ كُلِّ سَلَفٍ(٢٦) خَلَفاً، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقاً. أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، وَٱقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَٱرْحَضُوا(٢٧) بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا(٢٨) بِهَا ٱلأَسْقَامَ(٢٩)، وَبَادِرُوا بِهَا ٱلْحِمَامَ(٣٠)، وَٱعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلاَ يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلاَ فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا(٣١) بِهَا، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً(٣٢)، وَإِلَى ٱلآخِرَةِ وُلاَّهاً(٣٣). وَلاَ تَضَعُوا(٣٤) مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلاَ تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا. وَلاَ تَشِيمُوا(٣٥) بَارِقَهَا(٣٦)، وَلاَ تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلاَ تُجِيبُوا نَاعِقَهَا(٣٧)، وَلاَ تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلاَ تُفْتَنُوا بِأَعْلاَقِهَا(٣٨)، فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ(٣٩)، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ(٤٠)، وَأَعْلاَقَهَا مَسْلُوبَةٌ. أَلاَ وَهِيَ ٱلْمُتَصَدِّيَةُ(٤١) ٱلْعَنُونُ(٤٢)، وَٱلْجَامِحَةُ(٤٣) ٱلْحَرُونُ(٤٤)، وَٱلْمَائِنَةُ(٤٥) ٱلْخَؤُونُ(٤٦)، وَٱلْجَحُودُ(٤٧) ٱلْكَنُودُ(٤٨)، وَٱلْعَنُودُ(٤٩) الصَّدُودُ(٥٠)، وَٱلْحَيُودُ(٥١) ٱلْمَيُودُ(٥٢). حَالُهَا ٱنْتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلْوُهَا سُفْلٌ. دَارُ حَرَبٍ(٥٣) وَسَلَبٍ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ(٥٤). أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ(٥٥) وَسِيَاقٍ(٥٦)، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ. قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا(٥٧)، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا(٥٨)، وَخَابَتْ(٥٩) مَطَالِبُهَا؛ فَأَسْلَمَتْهُمُ ٱلْمَعَاقِلُ(٦٠)، وَلَفَظَتْهُمُ(٦١) ٱلْمَنَازِلُ، وَأَعْيَتْهُمُ(٦٢) ٱلْمَحَاوِلُ(٦٣): فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ(٦٤)، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ(٦٥)، وَشِلْوٍ(٦٦) مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ(٦٧)، وَعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٍ(٦٨) بِكَفَّيْهِ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ(٦٩)، وَزَارٍ(٧٠) عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ(٧١)، وَقَدْ أَدْبَرَتِ(٧٢) ٱلْحِيلَةُ، وَأَقْبَلَتِ ٱلْغِيلَةُ(٧٣)، «وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ(٧٤)». هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ،

وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا(٧٥)، «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ(٧٦)».

اللغة

١ ـ الفاشي : المنتشر.
٢ ـ الجد : بالفتح العظمة.
٣ ـ التؤام : جمع توأم وهو المولود مع غيره في حمل واحد.
٤ ـ الآلاء : النعم.
٥ ـ قضى : فصل وحكم.
٦ ـ المبتدع : الخالق على غير مثال سابق.
٧ ـ الاحتذاء : الاقتداء يقال احتذى مثال فلان اقتدى وتشبه به.
٨ ـ يضربون : من الضرب وهو السير.
٩ ـ الغمرة : الماء الكثير، الشدة، ما يغمر العقل من الجهل.
١٠ ـ يموجون : من ماج البحر إذا ارتفع وهاج واضطربت أمواجه والقوم يموجون إذا اختلفت أمورهم واضطربت.
١١ ـ الأزمة : جمع زمام ما تقاد به الدابة.
١٢ ـ الحين : بفتح الحاء الهلاك.
١٣ ـ استغلقت : استحكمت يقال: استغلق عليّ بيعته أي لم يجعل لي خياراً في رده.
١٤ ـ أقفال : جمع قفل بضم القاف حديد تغلق بها الأبواب.
١٥ ـ الرين : بفتح الراء التغطية والحجاب.
١٦ ـ الحرز : ما تحفظ به الأشياء من صندوق وغيره، الموضع الحصين.
١٧ ـ الجنة : بضم الجيم ما يستتر به.
١٨ ـ مسلكها : طريقها.
١٩ ـ لم تبرح : من برح المكان أي زال عنه ما برح أي ما زال.
٢٠ ـ الغابرين : من الأضداد يستعمل في الماضين وفي الباقين.
٢١ ـ أسدى : أعطى وأنعم.
٢٢ ـ أهطعوا : أسرعوا.
٢٣ ـ ألظوا : ألحّوا والإلظاظ الإلحاح في الأمر.
٢٤ ـ جدكم : بكسر الجيم الاجتهاد في الشيء والمبالغة فيه.
٢٥ ـ اعتاضوها : أخذوا عوضها.

٢٦ ـ السلف : المتقدمون من الأجداد والآباء وغيرهما.
٢٧ ـ أرحضوا : اغسلوا من رحض الثوب إذا غسله.
٢٨ ـ داووا : عالجوا بالدواء.
٢٩ ـ الأسقام : الأمراض.
٣٠ ـ الحمام : الموت.
٣١ ـ تصونوا : تحفظوا وامتنعوا.
٣٢ ـ نزّاهاً : جمع نازه وهو المباعد عما يوجب الذم.
٣٣ ـ ولاهاً : جمع واله وهو المتحيّر من شدة الوجد.
٣٤ ـ لا تضعوا : لا تسقطوا و تذلوا.
٣٥ ـ لا تشيموا : من الشيم وهو النظر للبرق انتظاراً للمطر.
٣٦ ـ البارق : السحاب.
٣٧ ـ الناعق : الصائح.
٣٨ ـ الأعلاق : النفايس جمع علق وهو الشيء النفيس.
٣٩ ـ خالب : خادع وبرّق خالب وخلّب لا مطر فيه.
٤٠ ـ المحروبة : المسلوبة.
٤١ ـ المتصدية : المتعرضة وتصدت المرأة إذا تعرضت للرجال.
٤٢ ـ العنون : من عنّ لي كذا إذا عرض.
٤٣ ـ الجامحة : الدابة الصعبة على راكبها المستعصية عليه.
٤٤ ـ الحرون : الممتنعة عن السير.
٤٥ ـ المائنة : الكاذبة.
٤٦ ـ الخؤون : المبالغة في الخيانة.
٤٧ ـ الجحود : إنكار الشيء مع علمه به.
٤٨ ـ الكنود : الجحود، المنكر للنعمة.
٤٩ ـ العنود : شديدة العناد.
٥٠ ـ الصدود : كثيرة الصد والهجر.
٥١ ـ الحيود : المائلة عن الاعتدال.
٥٢ ـ الميود : المتمايلة من ماد إذا تحرك واضطرب.
٥٣ ـ الحرب : بفتح الحاء السلب، ما يسلب في الحرب من درع وغيرها.
٥٤ ـ العطب : الهلاك.
٥٥ ـ الساق : الشدة، والساق ما بين الكعب والركبة.
٥٦ ـ السياق : الاحتضار ووقت نزع الروح.
٥٧ ـ مذاهبها : طرقها، آرائها المختلفة.

٥٨ ـ المهارب : جمع مهرب مكان الهروب.
٥٩ ـ خابت : يقال: خاب سعيه أي لم ينجح وخاب لم يظفر بما طلب.
٦٠ ـ المعاقل : الحصون وما يلجأ إليه.
٦١ ـ لفظتهم : ألقتهم ودفعتهم.
٦٢ ـ أعيتهم : أعجزتهم.
٦٣ ـ المحاول : جمع محالة بمعنى الحذق وجودة النظر.
٦٤ ـ المعقور : المجروح.
٦٥ ـ المجزور : المقتول أو المسلوخ أخذ عنه جلده، المقطوع.
٦٦ ـ شلو : بكسر الشين البدن وفي الأصل العضو من اللحم بعد الذبح.
٦٧ ـ مسفوح : مسفوك.
٦٨ ـ صافق : ضرب يداً بيد أخرى.
٦٩ ـ مرتفق بخديه : من ارتفق إذا اتكأ على مرفق يده أو على المخدة.
٧٠ ـ زارٍ : لائم.
٧١ ـ العزم : الثبات والشدة فيما يعزم عليه الإنسان.
٧٢ ـ أدبرت : ولّت ومضت.
٧٣ ـ الغيلة : الشر، والخديعة، الأخذ على غرة.
٧٤ ـ المناص : الفرار والمراوغة، الهروب.
٧٥ ـ بالها : من البال ويطلق على القلب وعلى الحال والشأن والأمر.
٧٦ ـ منظرين : مؤخرين من أنظره إذا أخره وأمهله.

الشرح

(الحمد لله الفاشي في الخلق حمده والغالب جنده والمتعالي جده) تتضمن هذه الخطبة الترغيب بالتقوى والتزهيد في الدنيا والحث على الآخرة.

ابتدأها كما هي العادة في كثير من خطبه الشريفة بذكر الله وحمده والثناء على رسوله وقد حمد الله باعتبارات:

١ ـ الحمد لله الفاشي في الخلق حمده: حمد الله باعتبار انتشار حمده بين مخلوقاته وجميع المخلوقات تسبح الله وتحمده بلسان حالها لأمكانها وقصورها أو بلسان مقالها كما هي حال الإنسان فإنه يجمع بين الحمد بلسان الحال ولسان المقال.

٢ ـ والغالب جنده: وجند الله هم كل من حمل دينه ودافع عنه وعمل من أجل

إرساء قواعده وهؤلاء هم الغالبون ونهاية الشوط لصالحهم وصالح دينهم مهما امتدّ وقت الظلم والجور قال تعالى: ﴿**وإن جندنا لهم الغالبون**﴾.

٣ ـ والمتعالي جده: تعالى جلال الله وعظمته عن كل ما يلحق بالبشر لأنه سبحانه واجب الوجود المستغني عن كل موجود.

(**أحمده على نعمه التؤام وآلائه العظام**) هذا بيان لسبب الحمد إنه من أجل نعمه المتوالية المترادفة التي لم تنقطع في وقت ولا حين وأن أهم نعم الله وآلائه هدايته لدينه والتوفيق لما دعا إليه من سبيله...

(**الذي عظم حلمه فعفا وعدل في كل ما قضى وعلم ما يمضي وما مضى**) حلم الله عدم أخذه للمجرمين والعصاة مباشرة بل إنه تطوّل عليهم فأمهلهم لعلهم يرجعون وإلى رحابه يعودون بل دعا العصاة إلى العودة وأمرهم بالتوبة وأخذ على نفسه أن يقبلهم في صفوف عباده المطيعين فهو سبحانه عظيم الحلم عفو عن المذنبين.

وفي حكمه حَكَمُ عدل فلم يأخذ أحداً بجريرة أحد ولم يحاسب أحداً على حساب أحد، أو أن في كل أمر شرّعه كان عادلاً فيه من أجل المصلحة العامة وإكمال النظام...

وأما علمه فإنه يعلم ما مضى وما يأتي يعلم بكل حركة وسكون، يعلم بالكليات ويعلم بالجزئيات وعلمه فيما مضى كعلمه فيما هو قائم الآن وما يأتي، تتساوى بالنسبة إلى علمه الأشياء كلها...

(**مبتدع الخلائق بعلمه ومنشئهم بحكمه بلا اقتداء ولا تعليم ولا احتذاء لمثال صانع حكيم ولا إصابة خطأ ولا حضرة ملأ**) لعلمه بالمصلحة العامة خلق الخلق بأبدع ما يكون وأتقن ما يكون وأنشأهم من زاوية العدم بأمره النافذ أو بحكمته التي تضع الأمور موضعها بدون أن يقتدي بغيره أو يتعلم منه لأنه كان ولم يكن معه أحد وهو الله الغني الحميد...

كما أن خلقه الخلق لم يكن اقتداء بأحد من الصّناع الحكماء فهم عملوا وهو تابعهم على ذلك فأخذ منهم واقتدى بهم...

كما أنه لم يكن خلقه للخلائق بإدراكه الخطأ الذي وقع فيه بعد خلقه لهم فأصلحه كما أنه لم يكن أحد حاضراً عند خلقه الخلق كما قال تعالى: ﴿**ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم..**﴾.

(**وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ابتعثه والناس يضربون في غمرة ويموجون في حيرة**) ذكر حال الناس يوم بعث الله نبيه أنهم كانوا يسيرون في شدة فأمور معاشهم صعبة

شديدة وكذلك أفكارهم في حيرة واضطراب لم يهتدوا إلى الحق ولم يدركوا الطريق إلى الله فهم في معاشهم ومعادهم في شك واضطراب وصعوبة . . .

(قد قادتهم أزمة الحين واستغلقت على أفئدتهم أقفال الرين) لقد كانت تجرّهم أزمّة الهلاك من المعاصي والآثام إلى الموت أو ما كان يجري بينهم من المنازعات والغارات فكانت هذه تدفعهم إلى الهلاك . . .

كما أن كثرة المعاصي والانحرافات غطّت قلوبهم واستحكمت عليها بدقة فلم تجد للهداية من سبيل فكان العقلاء يحذرونهم وهم يتمادون في غيّهم وانحرافهم فكأن قلوبهم مقفلة على الباطل والتجاوز على الحق والانحراف . . .

(عباد الله أوصيكم بتقوى الله فإنها حق الله عليكم والموجبة على الله حقكم وأن تستعينوا عليها بالله وتستعينوا بها على الله) هذه هي الوصية الغالية عند الإمام ولذا يوصي بها على الدوام أوصيكم بتقوى الله فإنها حق الله عليكم فإن حق الله أن يطاع فلا يعصى . . . أن يقوم العبد بكل تكاليفه دون نقص أو إهمال أو تسويف ويكون له على الله الأجر والثواب بحكم ما قطعه سبحانه على نفسه من إثابة المطيع . . .

ثم أمرهم أن يستعينوا بالله لتحصيل التقوى بأن يتوجهوا إليه ويطلبوا منه الإعانة أن يوفقهم لها ويقوّي دواعيها ودوافعها فيهم ويسهّل مواردها وما يحققها بعد حصولها، اسألوه أن تكون المعينة لكم على القرب منه والوصول إلى رضوانه وجنانه، فاستعينوه لتحقيقها كي تدفعوا بها غضبه ومعاصيه . . .

(فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة وفي غد الطريق إلى الجنة مسلكها واضح وسالكها رابح ومستودعها حافظ) التقوى هي الحرز الذي يحصّن الإنسان عن الموبقات والآثام في الدنيا كما أن بها تكون الحماية عن الذل والهوان ويجعل الله للمتقين فرجاً ومخرجاً من كل أمر صعب ولا يضرهم كيد الأعداء وحيلهم وأما في الآخرة فهي الطريق التي تأخذ بيد صاحبها إلى الجنة ونعيمها .

ثم بيّن أن طريقها واضح ظاهر بيّن وهو الالتزام بأوامر الشارع وتطبيقها والانتهاء عن نواهيه ومن سلك طريق التقوى ومشى فيه فإنه الرابح في الدنيا والآخرة والله سبحانه الذي عنده التقوى هو الذي يحفظ العامل بها ويحفظ كل ما يصدر عن المتقين قال تعالى: ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً . . .﴾ .

(لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين منكم والغابرين لحاجتهم إليها غداً إذا أعاد الله ما أبدى وأخذ ما أعطى وسأل عما أسدى فما أقل من قبلها وحملها حق حملها

أولئك الأقلون عدداً وهم أهل صفة الله سبحانه إذ يقول: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾) ولكون التقوى حاجة عامة لكل الناس قال: إنها لم تزل تعرض نفسها على الأمم الماضين منكم فحتى أهل الجاهلية يرشدهم عقلهم إلى الله وإلى حفظ الدم وقبح الظلم وحسن العدل وإلى أوليات الإنسانية والاتصال بالله وهي حاجة ملحة للماضين والحاضرين لأنهم بحاجة إليها غداً يوم الحساب إذا أعاد الله هذا الإنسان للوقوف بين يديه ومحاسبته عن الانحرافات والآثام فلو كان هناك تقوى لنفعتهم... إنهم بحاجة إليها يوم يعيد الله هذا الإنسان للحساب ويأخذ منه ما أعطاه من مال وأولاد وسأل الخلق عما أحسن إليهم من العطاء فإن التقوى هي التي تدفع العذاب وترفع العقاب...

ثم تعجب من قلة من قبلها وأنهم قليلون... وما أقلهم في زماننا... الإمام يقول: إنهم قليلون وحقاً إنهم قليلون... إن من يقبل التقوى ويعمل بها قليلون جداً... ومن يحملها حق حملها فهذا ممن وصفهم الله بقوله: **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾**.

(فأهطعوا بأسماعكم إليها وألظوا بجدكم عليها واعتاضوها من كل سلفٍ خلفاً ومن كل مخالف موافقاً) بعد أن أمرهم بالتقوى كأصل يجب العمل به والحفاظ عليه والقيام به أمرهم فيها لعدة وجوه فيها مصالحهم ومنافعهم.

١ ـ أهطعوا بأسماعكم إليها: أسرعوا إلى سماع حقيقة التقوى والاطلاع على ثمراتها وفوائدها حتى تكونوا من أهلها وتعملوا بمضمونها...

٢ ـ ألظوا بجدكم عليها: تمسكوا بها وألحّوا في الحصول عليها.

٣ ـ واعتاضوها من كل سلف خلفاً: عوّضوا بها عن الذنوب التي تقدمت منكم واجعلوا الطاعات اللاحقة عوضاً وخلفاً عن المعاصي المتقدمة التي سلفت...

٤ ـ ومن كل مخالف موافقاً: واجعل بدل كل مخالف لك في التقوى وغير العامل بها موافقاً لك بها وعاملاً بها، فاجعل الموافق للتقوى بدل المخالف.

٥ ـ **(أيقظوا بها نومكم)** تهجدوا بهذه التقوى في الليل واستيقظوا من نومكم من أجل ما يؤدي إليها من صلاة ودعاء ومناجاة.

٦ ـ **(واقطعوا بها يومكم)** اجعلوا يومكم مملوءاً بالتقوى أي بأسبابها وما يؤدي إليها وليس في المعاصي والمنكرات وبالقيل والقال.

٧ ـ **(وأشعروها قلوبكم)** اجعلوها في قلوبكم ملاصقة لها قوية الصلة بها فإن من

استشعر تقوى الله لم يطب له إلا العيش مع الله في تكاليفه وما أوجبه على خلقه. . .

٨ ـ **(وارحضوا بها ذنوبكم)** أي اغسلوا ذنوبكم وامحوها من سجلكم بتقوى الله فإن الله يحب المتقين ومن أحبه الله أسقط عنه ذنوبه وأبدلها حسنات. . .

٩ ـ **(وداووا بها الأسقام)** أي اجعلوها الدواء والشفاء من الأمراض التي هي الذنوب والمعاصي فإن الأمراض شفاءها.

١٠ ـ **(وبادروا بها الحمام)** سارعوا بها قبل الموت فعندها لا يفيد عمل ولا قول.

١١ ـ **(واعتبروا بمن أضاعها ولا يعتبرن بكم من أطاعها)** خذوا العبرة بمن أضاعها حيث تمنى الرجوع إلى الدنيا فلم تتحقق أمنيته بل أجيب «بكلا» فإنه خسر بإضاعة التقوى وأي خسارة أعظم من خسران الآخرة ولا تكونوا أنتم محط التجربة فيعتبر بكم الآخرون فتكون الخسارة عليكم والربح لغيركم.

١٢ ـ **(ألا فصونوها وتصوّنوا بها)** احفظوا التقوى واجعلوها حصنكم المانع لكم من كل معصية أو رذيلة وإياكم أن تخترقها الذنوب فتفسدكم. . .

١٣ ـ **(وكونوا عن الدنيا نزاهاً وإلى الآخرة ولاهاً)** أمر أن يترفعوا عن الدنيا وحطامها وما فيها لقلته وقلة ما يستصحب منه وقابله أن يكون هناك شوق إلى الآخرة وحب وحنين لما فيها فإن من آمن بالآخرة اشتد شوقه إليها وتنزه عن الدنيا وما فيها.

١٤ ـ **(ولا تضعوا من رفعته التقوى ولا ترفعوا من رفعته الدنيا)** وهذا من باب التقوى أن لا يضع المؤمن من رفعته التقوى من أهل الإيمان فالتقوى إذا رفعت أنساناً يجب أن نرفعه كما حصل ذلك لأهل البيت عليهم السلام وللمراجع العظام الذين اتقوا الله فرفعهم الله ورفعهم المؤمنون.

كما أن من رفعته الدنيا يجب في المنظور الإسلامي أن لا يرفعه المؤمنون بل يجب أن يضعوه وينزلوه عن مقامه ومما يؤسفنا أن نجد تعامل أهل العلم وبعض من مشى في ركاب الدول الظالمة منهم نجدهم يستخفون بأهل التقوى بينما يكبرون أهل الدنيا إذا جاءهم وزير في الدولة الظالمة هشوا له وبشوا وأثنوا عليه ومدحوه ودعّموا مركزه وقووه وعلى العكس من ذلك إذا جاءهم رجل من أهل التقوى يستخفون فيه ويقللّون من قيمته ويحطّون من شأنه.

١٥ ـ **(ولا تشيموا بارقها)** أي لا تنظروا إلى الدنيا وما يظهر منها إنه سعادة أو فيه السرور ولا تنتظروا منها الفرح والسرور.

١٦ ـ **(ولا تسمعوا ناطقها ولا تجيبوا ناعقها)** لا تسمعوا إلى أبناء الدنيا الذين ينطقون بفضلها ويزينونها للناس ولا تستجيبوا إلى من يدعوكم إليها وإلى ما فيها.

١٧ ـ **(ولا تستضيئوا بإشراقها ولا تفتنوا بأعلاقها)** لا تنشرحوا وتفرحوا بزينة الدنيا وزخارفها ولا تفتنوا عن الآخرة وتبتعدوا عن الله بنفايسها التي تتراىء لكم وتعجبكم.

(فإن برقها خالب ونطقها كاذب وأموالها محروبة وأعلاقها مسلوبة) علّل نهيه عن شيم بارقها وما بعده.

فإن الإنسان يظن أن زينتها تنفع وتفيد ولكن كل ما فيها سراب لا يبقى ولا يدوم ولا يستقر على حال.

وكذلك دعاة الدنيا والداعين إليها فإنهم يكذبون في الدعوة إليها لأنهم يصورونها على خلاف حقيقتها ويرغبون فيها وهي باطلة تغرهم لتوقعهم في أشراكها...

وكذلك أموالها وما كان يتقاتل عليه الناس كلها سوف تسلب من ملاّكها إما بالحوادث أو الموت...

وأما نفائسها وما كان يبحث عنه أصحاب المال فإنه سيسلب لا محالة ويتحول ميراثاً لغير مالكه...

(ألا وهي المتصدية العنون والجامحة الحرون) وهذه من قبائح الدنيا وسيئات صفاتها إنها تتعرض للناس تدعوهم إلى نفسها كما تدعو المومس الزبائن تريد أن توقعهم في الخطيئة والمعصية.

كما أن من طلبها وأرادها لا تنقاد له ولا تطيعه ولا تسلس قيادها لراكبها وهي إذا أرادت أن تقف في قضية أو تتمنّع في أمر لا يستطيع أحد مغالبتها فهي كالدابة الحرون المستعصية...

(والمائنة الخؤون والجحود الكنود) لا يزال يذكر صفات الدنيا القبيحة لينفّر الناس عنها فهي كثيرة الكذب على الناس حيث تعطيهم من حلاوتها حتى إذا ذاقوا ذلك واطمأنوا به خانتهم وقلبت لهم ظهر المجن كما أنها تجحد ما يعمله الإنسان فيها من بناء وعمارة وحضارة وتكافؤه بالمنع من مواصلة حياته وتعدل عنه إلى غيره...

(والعنود الصدود والحيود الميود) شبهها بالناقة التي تنفرد عن مرعى الإبل إلى غيره فالدنيا تعدل عن طالبيها وتمنعهم عن مقاربتها وكذلك تصدهم عنها كما أنها تحيد عن درب العاشقين لها وتميل عنهم.

(حالها انتقال ووطأتها زلزال) لا تستقر الدنيا على حال ولا تعطي زمامها لأحد باستمرار بل هي تنتقل من واحد لآخر فبينما تكون اليوم مع فلان إذ بها تنتقل إلى آخر وهكذا. . . ودوامها متزلزل لا يستقر فكيف بالمتزلزل منها. . .

(وعزها ذل) لأن الدنيا هي المال والجاه والسلطان وكلها تتحولّ إلى أداة يحاسب عليها الإنسان فإذا قصر بشيء منها تحول إلى إنسان ذليل في الآخرة وتحول الملك والسلطان إلى وسيلة خزي وعار. . .

(وجدها هزل) فإن ما يتراءى لنا من جدها حيث تغدق على بعضهم بعض ما عندها فيظن أنها جادة معه ولكن سرعان ما تسلبه اليوم ما أعطته بالأمس ويتبيّن لدى الحقيقة أنها تضحك عليه في العطاء. . .

(وعلوها سفل) من ترفعه الدنيا من أبنائها يسقط في الآخرة ففي الدنيا قد يكون ملكاً ومن أعلى الدرجات ولكنه في الآخرة في أسفل سافلين وفي الدركات العظمى من النار. . .

(دار حرب وسلب ونهب وعطب) إنها دار تجمع على الإنسان هذه المصائب كلها دار حرب أو سلب ودار سلب للأموال والأولاد والأهل ودار نهب للأموال والمقتنيات ودار هلاك ودمار.

(أهلها على ساق وسياق ولحاق وفراق) أهلها واقفون على ساقهم مستعدون للرحيل أوانهم في شدة وضيق سائرون نحو الموت يلحق بعضهم بعضاً ويفارق بعضهم البعض فلا يبقى الشمل مجتمع ولا اللقاء دائم.

(قد تحيّرت مذاهبها وأعجزت مهاربها) أي تحيّر أهلها في مسالكها وطرقها كي يدفعوا شرها ويجلبوا نفعها.

وكذلك غلبت الإنسان أن يهرب منها أو يخلص من شرها. . .

(وخابت مطالبها) فمن طلب منها أمراً خيبته ولم تمكّنه من إدراكه. . .

(فأسلمتهم المعاقل ولفظتهم المنازل وأعيتهم المحاول) فالحصون التي كانوا يحتمون بها ويتحصنون داخلها قد أسلمتهم ولم تقدر على حمايتهم وحفظهم والمنازل التي كانوا يسكنونها قد دفعتهم ولم تحمهم وكل المحاولات التي أرادوا من خلالها نجاحهم وفوزهم قد أعجزتهم وأعيتهم.

(فمن ناجٍ معقور ولحم مجزور وشلو مذبوح) هذا بيان لما يلحق الناس من الدنيا وآذاها وكيف لَمْ ينجُ منها أحد.

فالناجي مجروح لم يكتب له السلامة كلها بل وصل مع الشدائد والأذى وآخر منهم صار ذبيحاً مبضعاً ومنهم من صار أشلاء ممزقة.

(ودم مسفوح وعاض على يديه وصافق بكفيه ومرتفق بخدّيه وزارٍ على رأيه وراجع عن عزمه) وبين ذي دم مصبوب مراق وبين من هو عاضٍ على يديه ندماً وحسرة وبين ضارب بيديه على بعضها حزناً وكمداً وبين واضع مرفقيه على خديه حزناً وبين مُعيب لرأيه قد أدرك سؤه وبين راجع عن عزمه الفاسد الذي كان قد عقد عزمه في دار الدنيا لتحصيلها والتمتع بها وكأنه خالد فيها... فهذه جملة حالات تمر على أصناف الناس...

(وقد أدبرت الحيلة وأقبلت الغيلة ولات حين مناص) قد ولّت الحيل ولم يعد لها دور أو محال وأقبل الموت والهلاك وهو واقع لا محالة فلا مهرب منه ولا خروج عن إشراكه ..

(هيهات هيهات قد فات ما فات وذهب ما ذهب ومضت الدنيا لحال بالها فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) هيهات هيهات لقد بعُدت الأماني وخابت الآمال فلا رجوع ولا عودة فلا يعود الماضي ولا يرجع الغائب ومضت الدنيا وولت بخيرها وشرها فلا عودة لها فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

ثم ذكر أنهم ماتوا وقضوا «فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين» أي لم يستحقوا أن يبكي عليهم أحد استصغاراً وازدراء لهم واحتفاراً لتصرفاتهم...

١٩٢ ـ ومن خطبة له عليه السلام

تسمى القاصعة

وهي تتضمن ذم إبليس لعنه الله، على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام، وأنه أول من أظهر العصبية وتبع الحمية، وتحذير الناس من سلوك طريقته.

اَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ اَلْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاَخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمًى[١] وَحَرَماً[٢] عَلَى غَيْرِهِ، وَاَصْطَفَاهُمَا[٣] لِجَلاَلِهِ.

رأس العصيان

وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ[٤] فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ. ثُمَّ اَخْتَبَرَ[٥] بِذَلِكَ مَلاَئِكَتَهُ اَلْمُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ[٦] اَلْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ اَلْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ اَلْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ اَلْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ اَلْغُيُوبِ: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ اَلْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ**﴾ اَعْتَرَضَتْهُ[٧] اَلْحَمِيَّةُ[٨] فَاَفْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لأَصْلِهِ. فَعَدُوُّ اَللهِ إِمَامُ اَلْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ[٩] اَلْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ اَلْعَصَبِيَّةِ[١٠]، وَنَازَعَ اَللهَ رِدَاءَ[١١] اَلْجَبْرِيَّةِ[١٢]، وَاَدَّرَعَ[١٣] لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ[١٤] التَّذَلُّلِ.

أَلاَ تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اَللهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً[١٥]، وَأَعَدَّ لَهُ فِي اَلآخِرَةِ سَعِيراً[١٦]؟!.

ابتلاء الله لخلقه

وَلَوْ أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطِفُ(١٧) ٱلأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ(١٨) ٱلْعُقُولَ رُوَاؤُهُ(١٩)، وَطِيبٍ(٢٠) يَأْخُذُ ٱلأَنْفَاسَ عَرْفُهُ(٢١)، لَفَعَلَ. وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ ٱلأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ ٱلْبَلْوَى(٢٢) فِيهِ عَلَى ٱلْمَلائِكَةِ. وَلكِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالاِخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفْياً لِلاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلاَءِ(٢٣) مِنْهُمْ.

طلب العبرة

فَٱعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ ٱللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ(٢٤) عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ(٢٥) ٱلْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ ٱللهَ سِتَّةَ آلافِ سَنَةٍ، لاَ يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي ٱلآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى ٱللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلاَّ، مَا كَانَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً. إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ ٱلأَرْضِ لَوَاحِدٌ. وَمَا بَيْنَ ٱللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ(٢٦) فِي إِبَاحَةِ حِمًى حَرَّمَهُ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ.

اللغة

١ ـ حمى الشيء : منعه والحمى ما حميته عن وصول الناس إليه والتصرف فيه.

٢ ـ الحرم : بفتح الحاء والراء ما يحميه الإنسان ويدافع عنه.

٣ ـ اصطفاهما : اختارهما.

٤ ـ نازعه : خاصمه.

٥ ـ اختبر : امتحن.

٦ ـ ليميز : من ماز الشيء فرزه عن غيره.

٧ ـ اعترضته : منعته.

٨ ـ الحمية : الإنفة.

٩ ـ السلف : المتقدم.

١٠ ـ العصبية : الاعتزاز بالعصبة وهي قوم الرجل يدافعون عنه في الباطل.
١١ ـ الرداء : ما يلبس فوق الثياب كالعباءة والجبة.
١٢ ـ الجبرية : العلو والعظمة.
١٣ ـ أدرع : لبس الدرع.
١٤ ـ القناع : ما تغطي به المرأة رأسها.
١٥ ـ المدحور : المطرود، المبعد.
١٦ ـ السعير : لهب النار وسعّر النار أشعلها وتسعرت اتقدت.
١٧ ـ يخطف : من خطف الشيء استلبه بسرعة وخطف البصر ذهب به.
١٨ ـ يبهر : القمر الكواكب إذا غلب ضوؤه ضوءها وبهره غلبه وفضله.
١٩ ـ الرواء : المنظر الحسن.
٢٠ ـ الطيب : كل ذي رائحة عطرة، الأفضل من كل شيء.
٢١ ـ العرف : بفتح الراء الرائحة الطيبة.
٢٢ ـ البلوى : المصيبة، الاختبار.
٢٣ ـ الخيلاء : الكبر.
٢٤ ـ أحبط : أبطل.
٢٥ ـ الجهد : بفتح الجيم الاجتهاد.
٢٦ ـ الهوادة : اللين والرخصة، الصلح.

الشرح

(الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه وجعلهما حمى وحرماً على غيره واصطفاهما لجلاله) هذه الخطبة أطول خطبة في نهج البلاغة وقد قالوا في الأسباب الداعية إليها: إن أهل الكوفة في آخر خلافته عليه السلام قد فسدوا وكانوا قبايل متعددة فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى فيصيبه أدنى مكروه فينادي باسم قبيلته قاصداً الشر فيجتمع عليه أهل القبيلة الأخرى فيضربونه فيخرج إلى قبيلته فتنتصر له وتدور الفتنة وتسل السيوف ولا يكون لذلك أصل إلا تعرض الفتيان بعضهم لبعض وكثر ذلك فخرج عليه السلام على ناقته فخطبهم بهذه الخطبة . . .

١ ـ الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء: العزيز هو المنيع الذي لا يغلب أو الذي لا يعادله شيء أو الذي لا يقهر والكبرياء العلو المطلق ومن كل الجهات وهذان الوصفان لله على نحو الحقيقة لأنه العزيز الذي لا يقهر وله الكبرياء في الأرض وفي السماء وقد عبر عنهما بالنسبة إلى الله كاللباس له.

٢ ـ اختارهما لنفسه دون خلقه: فهما من صفات الذات ولا يجوز لأحد من خلقه أن يكونا فيه لعدم العز المطلق والكبرياء المطلق لغير الله. . .

٣ ـ وجعلهما حمى وحرماً على غيره واصطفاهما لجلاله: لقد منع غيره أن يقترب منهما كما أنه حرمهما على أحد من الناس إنه سبحانه اصطفاهما واختارهما لعظمته وعلو مقامه.

(وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده) بعد أن جعل العز والكبرياء لله خاصة وسلبهما عن خلقه وحرمهما عليهم جعل لكل من أراد أن يتصف بهما اللعنة والطرد من الرحمة الإلهية لأن من أرادهما فكأنما يشارك الله صفاته والله لا يقبل الافتراء عليه ومشاركته في شيء من مختصات ذاته. . .

(ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس﴾ اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه وتعصب عليه لأصله) امتحن الله الملائكة بالسجود لآدم وامتحانه لهم لم يكن لعدم علمه بما يصدر عنهم ولكن لتكون الحجة القاطعة على من عصى وتكون الحجة القاطعة لمن أطاع حتى يميز المطيع من العاصي والمتواضع من المتكبر. . . وحتى تنكشف الأوراق أمام الناس والخلائق فمن ناله العذاب فبسوء اختياره وتمرده ومن أُدخل رحمة الله فبإطاعته والتزامه. . .

ومن هنا امتحن الله الملائكة بالسجود لآدم وهو العالم بهم وبأفعالهم، امتحنهم فسجدوا كلهم إلا إبليس فإنه أخذته الأنفة والكبرياء وتعصب لأصله فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين بهذا المنطق الشيطاني احتج لنفسه وبرّر تمرده دون أن ينظر إلى أمر الله وأنه قد تكلف من قبله بالسجود لآدم. . .

(فعدو الله إمام المتعصبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية ونازع الله رداء الجبرية وأدرع لباس التعزز وخلع قناع التذلل) لقد سقط في الامتحان الإلهي وتمرد على أمر الله فهو عدو الله الذي رفض إطاعته. . . فعدو الله لتمرده إمام المتعصبين هو الذي شق الطريق وعلم الناس كيف يتعصبون لأهلهم وعشائرهم وذواتهم. . . إبليس هو إمام كل متعصب لأصله والمتقدم على كل مستكبر فهو السلف ومن بعده من المستكبرين الخلف وبئس الخلف والسلف وهو معلّم العصبية واستاذها وواضع أسسها لأنه هو أول من تعصب وعلى أثره سار المتعصبون وأهل العصبيات.

لقد نازع الله رداء العظمة والعلو وأراد أن يكون عزيزاً بدون أن يعزه الله ولم يتواضع لأمر الله وكما أراد وهذه جرائم تستحق الطرد واللعنة. . . إن إبليس أراد أن يشارك الله العزة ويلبس ثوب العلو والكبرياء ويترك التذلل والخضوع لله فأذله الله وصغّره. . .

(ألا ترون كيف صغّره الله بتكبره ووضعه بترفعه فجعله في الدنيا مدحوراً وأعد له في الآخرة سعيرا) بيّن كيف أذله الله وصغره بتكبّره. . إنه أراد العزة لنفسه والكبرياء عن غير طريق الله فأذله الله ووضعه فجعله في الدنيا مخذولاً مهزوماً حيث قال له الله: **﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾** وقوله: **﴿أخرج منها مذؤوماً مدحوراً﴾** كما أعد له في الآخرة عذاباً أليماً إنه عذاب السعير كما قال تعالى: **﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾**.

(ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه ويبهر العقول رواؤه وطيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة ولخفت البلوى فيه على الملائكة ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون تمييزاً بالاختبار لهم ونفياً للاستكبار عنهم وإبعاداً للخيلاء منهم) باعتبار أن الخبيث احتج بأصله الناري وقال: «أنا خير منه ـ من آدم ـ خلقتني من نار وخلقته من طين» أراد الإمام أن يقول: لو أن الله أراد أن يجعل آدم من أطيب عنصر وأحسن شكل وأطيب ريح لفعل وهو القادر المطلق ولو فعل لأذعنت الكائنات له وخضعت الملائكة لصورته وتكوينه وخف الامتحان على الملائكة لأن النفوس إذا رغبت أمراً وأحبته سهل عليها ذلك فتقبلت ما يصدر منه ولأجله، وتكون الطاعة ملائمة للنفس لا تجد ثقلاً في القيام بها. . .

ولكن الله أراد أن يحجب عن عباده بعض الأسرار ويمتحنهم بأوامر لا يعرفون خلفياتها وما وراءها يمتحنهم ليراهم هل ينفذوا ما أراد ويمتثلوا ما أمر. . . هل يكون الأمر الإلهي هو الداعي إلى القيام بالواجب أم هوى النفس ورغباتها وما تشتهي؛ ولا شك أن العلة إذا كانت محجوبة وكان الأمر بخلاف هوى النفس كان الامتثال خالصاً لوجه الله وتجسدت العبودية من الإنسان لله بكل أبعادها وأصولها وحقيقتها فإن من يعلم علة كل نهي وعلة كل أمر يصبح عبد العلل وعبد نفسه وأما من يطيع الله ويلتزم أمره فقط لأنه صاحب الأمر والنهي فهذا هو العبد الصادق في عبوديته.

(فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة عن كبر ساعة واحدة) إبليس نموذج للعصيان والتمرد يجب أن ينظر إليه أصحاب العقول ويأخذوا فعله

وما جرى عليه من الطرد والإبعاد درساً لهم وعبرة. . . إنه أسقط كل عمل عمله وأبطل كل عبادة قام بها، فهذا العمل الممتد في عمق الزمن. . إنه عمل وجهد شديد كان يقوم به حتى عبد الله ستة آلاف سنة لا يدرى هل هي من سني الدنيا أم من سني الآخرة فهذه العبادة الضخمة أبطلها بتمرده على الله في ساعة واحدة رفض خلالها امتثال أمره والعمل بمقتضى حكمه، . . . ستة آلاف سنة ضاعت عندما تمرد على الله. . . بأمر الهي واحد رفضه إبليس كشف حقيقة عبادته الكاذبة. . . لقد تبيّن من خلال هذا التمرد أنه لم يكن يعبد الله وإنما كان يعبد نفسه وهواه ويرتاح للعمل الذي يقوم به. . . وإلا لو كان يعبد الله حقاً لأطاعه فيما أمر ولم يرفض الأمر. . .

(فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟ كلا ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملكاً) وهذا استفهام استنكاري على الذي يفعل فعل إبليس ثم تراوده نفسه بأن لا تلحقه اللعنة ولا يحبط عمله كما حبط عمل إبليس كلا وألف كلا فإذا تساوت المعصية والجرم تساوى العقاب وما كان لله سبحانه أبداً أن يدخل الجنة إنساناً يرتكب نفس المعصية التي أخرجت ملكاً من الجنة واستحق بها الطرد. . .

إن الله لم يكن ليخرج إبليس لأنه تمرد على الله ويدخل شخصاً آخر تمرد على الله بنفس التمرد الإبليسي. . .

(إن حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد) إذا تساوى الجرم تساوى العقاب سواء كان الجرم من أهل السماء أم من أهل الأرض لأن الكل مخلوق لله وعبد له فيجب أن يكون حكمه في الجميع واحد.

(وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرّمه على العالمين) الله رب الجميع. . . كل من في السموات والأرض عبيد لله وليس بين أحد من الناس وبين الله قرابة كما أنه لم يأخذ أحد من الله عهداً أنه يتساهل معه ويلين له، بل كل من هتك ما حرمه الله وتعدّى على ما هو ممنوع ومحرّم كان لله أن يأخذه واستحقت عليه اللعنة وسوء العذاب. . .

التحذير من الشيطان

فَٱحْذَرُوا عِبَادَ ٱللهِ عَدُوَّ ٱللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ[١] بِدَائِهِ[٢]، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ[٣] بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِبَ[٤] عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ[٥]. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ[٦] لَكُمْ سَهْمَ ٱلْوَعِيدِ[٧]، وَأَغْرَقَ[٨] إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ[٩] الشَّدِيدَ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قَذْفاً[١٠] بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْماً[١١] بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ ٱلْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ ٱلْكِبْرِ[١٢] وَٱلْجَاهِلِيَّةِ. حَتَّى إِذَا ٱنْقَادَتْ لَهُ ٱلْجَامِحَةُ[١٣] مِنْكُمْ، وَٱسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ[١٤] مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ[١٥] ٱلْحَالُ مِنَ السِّرِّ ٱلْخَفِيِّ إِلَى ٱلْأَمْرِ ٱلْجَلِيِّ[١٦]، ٱسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ[١٧] بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ[١٨] وَلَجَاتِ[١٩] الذُّلِّ، وَأَحَلُّوكُمْ[٢٠] وَرَطَاتِ[٢١] ٱلْقَتْلِ، وَأَوْطَؤُوكُمْ[٢٢] إِثْخَانَ[٢٣] ٱلْجِرَاحَةِ، طَعْناً[٢٤] فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزّاً[٢٥] فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقّاً[٢٦] لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ[٢٧] ٱلْقَهْرِ إِلَى النَّارِ ٱلْمُعَدَّةِ لَكُمْ. فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجاً، وَأَوْرَى[٢٨] فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً[٢٩]، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ[٣٠]، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ[٣١]. فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ[٣٢]، وَلَهُ جِدَّكُمْ[٣٣]، فَلَعَمْرُ ٱللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ[٣٤]، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ[٣٥]، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ[٣٦] بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَقْتَنِصُونَكُمْ[٣٧] بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ[٣٨]. لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ[٣٩]، فِي حَوْمَةِ[٤٠] ذُلٍّ، وَحَلْقَةِ ضِيقٍ، وَعَرْصَةِ مَوْتٍ[٤١]، وَجَوْلَةِ بَلَاءٍ[٤٢]. فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ[٤٣] فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَحْقَادِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ ٱلْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ[٤٤]، وَنَزَعَاتِهِ[٤٥] وَنَفَثَاتِهِ[٤٦]. وَٱعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى

رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ؛ وَٱتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً(٤٧) بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجِلاً وَفُرْسَاناً، وَلاَ تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ٱبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ ٱللهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ ٱلْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ ٱلْحَسَدِ، وَقَدَحَتِ ٱلْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ ٱلْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ ٱلْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ ٱللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ ٱلْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ.

اللغة

١ ـ يعديكم : ينقل إليكم مرضه، والعدوى الفساد انتقال المرض من مريض إلى سليم.

٢ ـ الداء : المرض.

٣ ـ يستفزكم : يستحضكم ويستنهضكم لما يريد.

٤ ـ يجلب : يجمع وأصل الجلب الأصوات في الحرب والغارة.

٥ ـ ورجله : الرجل بكسر الراء مفرده راجل، الماشي، ضد الراكب.

٦ ـ فوّق : السهم جعل له فوقاً، والفوق موضع الوتر من السهم.

٧ ـ الوعيد : الوعد بالشر وضده الوعد.

٨ ـ أغرق : إذا استوفى الشيء وأغرق في الأمر بالغ فيه.

٩ ـ النزع : في القوس مدها ونزع بالسهم رمى به.

١٠ ـ القذف : الرمي.

١١ ـ رجماً : من الرجم وفي الأصل الرمي بالحجارة ويقال: رجم بالغيب أي بما لا يعلم والرجم أن يتكلم بالظن.

١٢ ـ الكبر : التكبر وهو الاستعلاء.

١٣ ـ الجامحة : المستعصية.

١٤ ـ الطماعية : الطمع، وهو الحرص.

١٥ ـ نجمت : ظهرت.

١٦ ـ الجلي : الواضح، الظاهر.

١٧ ـ دلف : مشى ودنا.

١٨ ـ أقحموكم : أدخلوكم قهراً أو بغتة.
١٩ ـ الولجات : جمع ولجة بالتحريك كهف يستتر فيه المارة من مطر ونحوه.
٢٠ ـ أحلوكم : أنزلوكم.
٢١ ـ الورطات : جمع ورطة الهلاك أو الشدة وتطلق على الأرض المطمئنة التي لا طريق لها.
٢٢ ـ أوطأه : أركبه.
٢٣ ـ إثخان الجراحة : المبالغة فيها من جهة الكثرة.
٢٤ ـ الطعن بالرمح : ضربه ووخزه به.
٢٥ ـ الحزّ : القطع.
٢٦ ـ الدقّ : الكسر.
٢٧ ـ الخزائم : جمع خزامة حلقة توضع في أنف البعير.
٢٨ ـ أورى : أكثر إخراجاً للنار.
٢٩ ـ القدح : بالفتح إخراج النار من الزند، وقدح فيه أي طعن.
٣٠ ـ مناصبين : مجاهرين لهم بالعداوة.
٣١ ـ متألبين : مجتمعين.
٣٢ ـ حدكم : غضبكم وحدتكم، بأسكم.
٣٣ ـ جدكم : بفتح الجيم. أي قطعكم يريد قطع الوصل بينكم.
٣٤ ـ الأصل : أسفل الشيء، الأصل يقابل الفرع.
٣٥ ـ الحسب : ما يعده الرجل من مفاخر آبائه.
٣٦ ـ أجلب : صاح.
٣٧ ـ يقتنصونكم : يصطادونكم.
٣٨ ـ البنان : الأصابع.
٣٩ ـ العزيمة : الإرادة المؤكدة والعزم الشدة فيما يعزم عليه الإنسان، الثبات.
٤٠ ـ حومة الشيء : معظمه وأشد موضع فيه.
٤١ ـ عرصة الموت : أي معرض له وبصدده.
٤٢ ـ البلاء : المصيبة.
٤٣ ـ كمن : استتر.
٤٤ ـ النخوة : الكبر والتعاظم.
٤٥ ـ النزغ : الإفساد.
٤٦ ـ النفث : النفخ وهو أقل من التفل.
٤٧ ـ المسلحة : بفتح الميم قوم معهم خيل معدون للدفاع عن الثغور وقد يطلق على نفس المكان.

الشرح

(فاحذروا عباد الله عدو الله أن يعديكم بدائه وأن يستفزكم بندائه وأن يجلب عليكم بخيله ورجله) بعد أن ذكر إبليس ومرض التكبر الذي وقع فيه وكان بسببه طرده ولعنه حذّرنا ونبهنا بصيغة الأمر أن نجتنب هذا العدو الذي لم يطع أمر الله ولم ينفذ مراده، أن نتنبّه فلا يسري مرضه الذي هو الكبر إلينا فيغوينا ويضلنا ونكون وإياه في جملة من غضب الله عليهم.

وكذلك حذّرنا من الاستجابة لوسوسته وإغرائه وكثرة أعوانه الذين استنفرهم وصاح بهم وجمعهم ما بين راكب وماشٍ في سبيل إضلالنا والانحراف بنا.

(فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد وأغرق إليكم بالنزع الشديد ورماكم من مكان قريب فقال: ﴿رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾ قذفاً بغيب بعيد ورجماً بظن غير مصيب) أقسم أنه قد هيأ نفسه واستعد لإغوائكم وجعل الوعيد الذي قال: رب بما أغويتني لأزينن لهم... كالسهم القاتل الذي إذا أصاب قتل وكذلك وسوسته وإغواؤه.

كما أنه أغرق إليكم بالنزع الشديد أي استوفى مد القوس وبالغ في ذلك ليكون مرماه أبعد ووقع سهامه أشد فهو قد استفرغ جهده ولم يترك حيلة مبرمجة وبأحسن إخراج إلا وقد أخرجها للناس...

وبعد كل هذا الاستعداد والإعداد والتهيؤ كان الرمي لهذا الإنسان من مكان قريب حتى تتحقق الإصابة ولذا قال النبي: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق...».

ثم استشهد بما ينقله الله حكاية عن الشيطان أنه قال: **﴿رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾** فلأنه ضل أراد أن يكون الناس كلهم معه في الضلال ولذا يسعى بكل ما يملك من وسائل من أجل أن يصل إلى هذا الهدف...

إنه قال هذا القول دون مستند له أو تحقيق أو يكون على قواعد الكلام وشرعته بل من باب رمي الكلام المحبوب لصاحبه ولكنه رمي أصاب به الواقع فأضل كثيراً من الناس...

(صدّقه به إبناء الحمية وأخوان العصبية وفرسان الكبر والجاهلية) الشيطان رمى الكلام الذي يتمناه وقال: **﴿رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾** وهذا الكلام منه نجح في بعض مصاديقه حيث تبادر أبناء الحمية وأخوان العصبية

وفرسان الكبر والجاهلية اجتمع هؤلاء وصدقوه فتابعوه في الانحراف.

فالأنفة والحمية التي لا تستمد جذورها وحقيقتها من دين الله فهي حمية جاهلية وأما التعصب والميل مع الأهل والعشيرة فقد حاربها الإسلام وقال: «لا عصبية في الإسلام».

(حتى إذا انقادت له الجامحة منكم واستحكمت الطماعية منه فيكم فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر الجلي) بقي الشيطان مسدداً سهامه معرقاً إليهم في النزع الشديد... إلى أن ذلت له وأطاعته الفئة التي كانت مستعصية عليه وعندها استقر الطمع واستحكم في نفسه لأنها تحققت أمنيته فظهر الحال من السر إلى العلن ومن القوة إلى الفعل لقد انكشفت الأمور وظهرت على حقيقتها فخالفتم أمر الله واتبعتم الشيطان...

(استفحل سلطانه عليكم ودلف بجنوده نحوكم فأقحموكم ولجات الذل واحلوكم ورطات القتل وأوطؤوكم إثخان الجراحة) بعد هذا الإغواء منه والاستجابة منكم له قوي جداً ونفذت قوته فيكم وتحققت إرادته في كل أمر يريده ولذا استنفر جنوده وتوجّه نحوكم وجنوده الشهوات والأهواء والعصبيات فأدخلوكم بقوة مداخل الذل من معصية الله والابتعاد عن دينه وأنزلوكم منازل القتل وجعلوكم محل الجراحات الكثيرة ومركزاً لها...

(طعناً في عيونكم وحزاً في حلوقكم ودقاً لمناخركم وقصداً لمقاتلكم وسوقاً بخزائم القهر إلى النار المعدة لكم) هذا تفصيل للجراحات التي أجملها قبل ذلك وقد جعل كل فعل يناسب موقعه جعل الطعن في العيون لقساوته وصعوبته وأن الشيطان حيث ألزم الفاسدين بالنظر إلى المحرمات فكأن ذلك طعناً في العيون.

وكذلك حيث وسوس لهم أكل الحرام فكأن الجرعة من الخمر والمسكر والنجس تقطع الحلق لحرمتها ومعصية الله فيها وكذلك جعل الدق للمناخير حيث أذلهم في كل ما هو عزيز عندهم ونفيس ولقد قصد مقاتلهم بحيث لا ينجو من شره ومقتلته أحد وكذلك هو يجرهم بخزائمهم بالقوة والقهر والصغار إلى النار المهيأة لإقامتهم فيها...

وقد يكون هذا من باب الحقيقة حيث جرهم إبليس إلى الفرقة والوهن والضعف فانتصر عليهم الأعداء معاوية وجماعته وكانت النتيجة ما ذكره عليه السلام من الطعن في العيون وحز الحلوق ودق المناخر وغيرها فإن معاوية عندما تسلم الأمر فعل كل ذلك...

(فأصبح أعظم في دينكم حرجاً وأورى في دنياكم قدحاً من الذين أصبحتم لهم مناصبين وعليهم متألبين) أصبح الشيطان ـ بأفعاله المتقدمة ـ أضر عليكم في دنياكم

ودينكم بما يزيّنه لكم من الشهوات والأهواء والملذات المحرمة أصبح أضر عليكم من أخوانكم المعادين لكم والمجتمعين على قتالكم لأنهم يقاتلونكم لأجل الدنيا بينما هو يقاتلكم لأجل الدين. . .

(فاجعلوا عليه حدكم وله جدكم فلعمر الله لقد فخر على أصلكم ووقع في حسبكم ودفع في نسبكم وأجلب بخيله عليكم وقصد برجله سبيلكم يقتنصونكم بكل مكان ويضربون منكم كل بنان) بعد أن كان الشيطان عدواً للناس وهو يمارس معهم كل وسائل الأعداء وكانت أعماله ما تقدمت أمر الإمام أن يقابلوه بالمثل وبردة الفعل التي تناسب الفعل أمرهم أن يحولّوا بأسهم وسطوتهم نحوه ويحاولوا دفعه بكل ما أوتوا من قوة.

ثم أعاد الحديث إلى إغرائهم بعداوته بذكر أسباب العدواة المنفرة.

وأهمها أنه لعنه الله قد فخر على أصلكم أي افتخر على أبيكم آدم الذي هو أصلكم حينما قال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ وإذا كان لكم حق الدفاع في موقف فلكم في هذا الموقف كل حق.

وأيضاً وقع في حسبكم أي عابكم به ودفع في نسبكم حيث قال: ﴿أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ فقد عاب على الطين تكوينه. . .

ثم ذكر مكره وغدره وأنه استنفر جنده من كانوا فرساناً على خيولهم حيث دعاهم إليه وصاح بهم وجمعهم وكذلك مشاته ومن لم يكن لهم ظهر يركب عليه لقد قصدكم بما عنده من مشاة وركبان، قصدوا طريقكم الذي تسلكون وأخذوا يصطادونكم بكل مكان يجدونكم فيه يصطادونكم بالشهوات والميول والعصبيات وغيرها إنهم يتربصون بكم حتى إذا تمكنوا منكم اصطادوكم كما تصاد الطريدة وقتلوكم واستأصلوا وجودكم.

(لا تمتنعون بحيلة ولا تدفعون بعزيمة في حومة ذل وحلقة ضيق وعرصة موت وجولة بلاء) بيّن حقيقة أمرهم وأنهم بعد أن استولى عليهم الشيطان وتمكّن منهم لا يستطيعون التخلص منه بأي حيلة عندهم أو وسيلة ولا يدفعونه بما عندهم من ثبات وقوة وعزيمة وخصوصاً أنهم في وسط الذل والهوان ويعيشون في معترك الشهوات والمغريات التي تضيق بهم وكذلك أنتم في طريق الموت الذي قد يأتيكم فجأة وأنتم أيضاً في جولة امتحان واختبار والأمر فيها صعب، والعظيم من تخطى ذلك كله ونجح.

وعبر «بالحومة والحلقة والعرصة والجولة» عن الدنيا لوقوع كل ذلك فيها وعلى أرضها. . .

(فاطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية وأحقاد الجاهلية فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزغاته ونفثاته) فإذا كان عدو الله إبليس قدم عليكم بنفسه وبكل ما يملك من جنود فيجب أن تصفّوا نفوسكم وتطهّروها مما اختفى فيها من نار العصبية التي تشدكم إلى الانتصار لقبائلكم ورجالكم وليس لدينكم وكذلك تطهروا أنفسكم من أحقاد الجاهلية التي كانت مبنية على حب الأهل والعشيرة وإن لم يكونوا على حق وصواب. . .

ثم بيّن أن المسلم قد يتعرض لمثل هذه الأنفة فتأخذه إلى مفاسدها ولكن يجب أن يتنبه بسرعة إلى أن هذه الحمية وليدة الشيطان ووسوسته وإغرائه وعلى المسلم المحارب للشيطان أن يحاربها فيقتلعها من صدره ونفسه. . .

(واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم وإلقاء التعزز تحت أقدامكم وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده فإن له من كل أمة جنوداً وأعواناً ورجلاً وفرساناً) بعد أن أشار إلى إبليس وأن علته الأساسية هي استكباره وتكبره على الله وعلى آدم أراد الإمام أن ينزع من نفوسهم هذه العلة القاتلة ويأخذوا بضدها فأمرهم أن يقدّروا التواضع ويحترموه في نفوسهم ويوقروه كفكرة عملية يمارسونها على الأرض فإن اعتمادهم للتواضع ووضعهم له على رؤوسهم كناية عن العمل به واحترامه ثم أمرهم أن يضعوا التذلل ويرموه تحت أقدامهم كناية عن إهانته والتخلي عنه بل محاربته وأمرهم أن يتخلوا عن التكبر ويخلعوه من أعناقهم وهذا يدل على أنهم يعيشون التكبر ويعملون به. . .

ثم إنه بعد أمره لهم بترك التكبر والعمل بالتواضع أرشدهم إلى سد الثغور التي منها يدخل الشيطان إلى الوسوسة وإضلال الناس فقال لهم: اجعلوا التواضع الذي تمارسونه وتقومون به هو الجند والسلاح الذي تواجهون به الشيطان وتقطعون عليه الطريق إلى إضلالكم وتمنعونه من إغوائكم فإن التواضع يقرّب العبد من الله في كل المجالات وينتصر بذلك على الشيطان وخططه. . .

ولما أمرهم باتخاذ هذا السلاح لردع إبليس وحجزه عن الدخول إليهم وغزوهم وإضلالهم علّله بأن له في كل أمة أعوان وأنصار وجنود منهم الركبان والآخرون المشاة وكلهم موكلون في إضلال الناس والانحراف بهم عن خط الله وعلى هذا يجب أن يكون المسلم مرابطاً باستمرار يدفع كيد الشيطان وكيد جنده من الجن والأنس. . .

(ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضل جعله الله فيه سوى ما ألحقت

العظمة بنفسه من عداوة الحسد وقدحت الحمية في قلبه من نار الغضب ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه الله به الندامة وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة) أشار بهذا الكلام إلى قصة قابيل حين قتل أخاه هابيل وأن لا يكونوا متكبرين على بعضهم وهم أبناء آدم وحواء وأن أول جريمة قتل في الدنيا كانت من قابيل المجرم الذي دعاه الحسد حيث كان يرى أنه أحق من أخيه فيما تفضل الله به على أخيه فحسده على ذلك وثارت الأنفة والكبرياء في قلبه فتحركت نيران الغضب وزين له الشيطان الجريمة ووسوس إليه بما يملك من قدرة الوسوسة والإغراء وبذلك نفّذ الجريمة وندم بعد ذلك ولكن الله ألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة دون أن ينقص من إثم القاتلين شيئاً لأنه هو الذي سنّ سنة القتل ومن سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. . .

التحذير من الكبر

أَلاَ وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ(١) فِي ٱلْبَغْيِ(٢)، وَأَفْسَدْتُمْ فِي ٱلأَرْضِ، مُصَارَحَةً(٣) للهِ بِٱلْمُنَاصَبَةِ(٤)، وَمُبَارَزَةً(٥) لِلْمُؤْمِنِينَ بِالمُحَارَبَةِ. فَاللهَ ٱللهَ فِي كِبْرِ ٱلْحَمِيَّةِ وَفَخْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلاَقِحُ(٦) الشَّنَآنِ(٧)، وَمَنَافِخُ(٨) الشَّيْطَانِ، الَّتِي خَدَعَ بِهَا ٱلأُمَمَ ٱلْمَاضِيَةَ، وَٱلْقُرُونَ ٱلْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْنَقُوا(٨) فِي حَنَادِسِ(١٠) جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي(١١) ضَلاَلَتِهِ، ذُلُلاً(١٢) عَنْ سِيَاقِهِ(١٣)، سُلُساً(١٤) فِي قِيَادِهِ. أَمْراً تَشَابَهَتِ ٱلْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتِ ٱلْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ.

التحذير من طاعة الكبرياء

أَلاَ فَٱلْحَذَرَ ٱلْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقَوُا ٱلْهَجِينَةَ(١٥) عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا(١٦) ٱللهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لآلائِهِ(١٧). فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ(١٨) أَرْكَانِ ٱلْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ ٱعْتِزَاءِ(١٩) ٱلْجَاهِلِيَّةِ.

فَٱتَّقُوا ٱللهَ وَلاَ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَلاَ لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً. وَلاَ تُطِيعُوا ٱلأَدْعِيَاءَ[٢٠] ٱلَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ[٢١] كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ أَسَاسُ[٢٣] ٱلْفُسُوقِ، وَأَحْلاَسُ[٢٤] ٱلْعُقُوقِ[٢٥]. ٱتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا[٢٦] ضَلاَلٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى ٱلنَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، ٱسْتِرَاقاً[٢٧] لِعُقُولِكُمْ وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً[٢٨] فِي أَسْمَاعِكُمْ. فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ[٣٠]، وَمَوْطِىءَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

العبرة بالماضين

فَٱعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ ٱلأُمَمَ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ ٱللهِ وَصَوْلاَتِهِ[٣١]، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلاَتِهِ[٣٢]، وَٱتَّعِظُوا بِمَثَاوِي[٣٣]، خُدُودِهِمْ وَمَصَارِعِ[٣٤] جُنُوبِهِمْ[٣٥]، واستعيذوا[٣٦]، بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ ٱلْكِبْرِ[٣٧]، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ[٣٨]. فَلَوْ رَخَّصَ[٣٩] ٱللهُ فِي ٱلْكِبْرِ لأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَلكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ[٤٠]، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا[٤١] بِٱلأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا[٤٢] فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وَخَفَضُوا[٤٣] أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ. قَدِ ٱخْتَبَرَهُمُ ٱللهُ بِٱلْمَخْمَصَةِ[٤٤]، وَٱبْتَلاَهُمْ بِٱلْمَجْهَدَةِ[٤٥]، وَٱمْتَحَنَهُمْ بِٱلْمَخَاوِفِ[٤٦]، وَمَخَضَهُمْ[٤٧] بِٱلْمَكَارِهِ. فَلاَ تَعْتَبِرُوا الرِّضَى وَٱلسُّخْطَ[٤٨] بِالمَالِ وَٱلْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ ٱلْفِتْنَةِ، وَٱلاخْتِيَارِ فِي مَوْضِعِ ٱلْغِنَى وَٱلاقْتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ؟ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾** فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ.

اللغة

١ ـ أمعنتم : بالغتم من أمعن إذا بالغ وجد في الأمر.
٢ ـ البغي : الظلم.
٣ ـ المصارحة : المكاشفة والإبداء.
٤ ـ المناصبة : العداوة.
٥ ـ المبارزة : الخروج للمقاتلة.
٦ ـ الملاقح : الفحول التي تلقح الإناث وتستولد الأولاد.
٧ ـ الشنآن : البغض.
٨ ـ المنافخ : جمع منفخ نفث الشيطان ووسوسته، الفخر والكبر، المتطاول على ما ليس له.
٩ ـ أعنقوا : غابوا واختفوا.
١٠ ـ الحنادس : جمع حندس بكسر الحاء والدال الظلام الشديد.
١١ ـ المهاوي : جمع مهواة وهي الوهدة المنخفضة من الأرض يتردى الصيد فيها.
١٢ ـ الذلل : جمع ذلول المنقاد.
١٣ ـ السياق : السوق.
١٤ ـ السلس : بضمتين السهل اللين.
١٥ ـ الهجينة : الخصلة القبيحة.
١٦ ـ جاحدوا : كذّبوا، أنكروا مع علمهم بالشيء.
١٧ ـ الآلاء : النعم.
١٨ ـ الدعائم : جمع الدعامة عماد البيت ودعم الشيء أسنده لئلا يميل.
١٩ ـ الاعتزاء : الإدعاء، الشعار في الحرب.
٢٠ ـ الأدعياء : جمع دعي من انتسب إلى غير أبيه أو عشيرته.
٢١ ـ الصفو : والصافي النقي ضد الكدر.
٢٢ ـ الكدر : نقيض الصافي.
٢٣ ـ آساس : بالمد جمع أساس دعامة الشيء.
٢٤ ـ الأحلاس : جمع حلس بالكسر كساء رقيق يكون ملازماً لظهر البعير.
٢٥ ـ العقوق : العصيان.
٢٦ ـ المطايا : جمع المطية الدابة التي تركب.
٢٧ ـ يصول : يسطو ويقهر.
٢٨ ـ الاستراق : يقال: استرق السمع إذا استمعه مختفياً واسترق الشيء وتسرقه سرقه شيئاً فشيئاً.

٢٩ ـ النفث	:	النفخ وهو دون التفل.
٣٠ ـ النبل	:	السهام.
٣١ ـ الصولات	:	جمع صولة صال عليه وثب سطا عليه وقهره.
٣٢ ـ المثلات	:	العقوبات.
٣٣ ـ المثاوي	:	جمع مثوى، المنزل.
٣٤ ـ مصارع	:	جمع مصرع مكان أو زمان الصرع وهو الطرح على الأرض.
٣٥ ـ جنوبهم	:	جمع جنْب شقِ الإنسان وغيره.
٣٦ ـ استعيذوا	:	من عاذ إذا لجأ واعتصم.
٣٧ ـ الكبر	:	التكبر.
٣٨ ـ طوارق الدهر	:	دواهيه ونكباته.
٣٩ ـ رخّص	:	له في كذا أذن له فيه والرخصة التخفيف والتسهيل.
٤٠ ـ التكابر	:	التعاظم.
٤١ ـ لصق	:	لزق وألصق الشيء بالشيء ألزقه به.
٤٢ ـ عفّر	:	وجهه ألصقه بالعفر وهو التراب.
٤٣ ـ خفض	:	صوته غضّه وأخفاه وخفض جناحه للمؤمنين أي تواضع لهم وذل.
٤٤ ـ المخمصة	:	الجوع.
٤٥ ـ المجهدة	:	المشقة.
٤٦ ـ المخاوف	:	الأمور المفزعة وطريق مخوف أي فيه مخاوف.
٤٧ ـ مخضهم	:	حرّكهم وزلزلهم.
٤٨ ـ السخط	:	الغضب، ضد الرضى.

الشرح

(ألا وقد أمعنتم في البغي وأفسدتم في الأرض مصارحة لله بالمناصبة ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة) لقد دخلتم مدخلاً عميقاً في الظلم والفساد والخروج عن حدود الله وسعيتم في الأرض الفساد بما ارتكبتم مما حرم الله عليكم ومن ذلك أنكم انكشفتم في العداء لله وخرجتم إليه ظاهرين مجاهرين في عداوتكم ومنها خروجكم لقتال المؤمنين وأردتم حربهم وهذا دليل على أنكم بالغتم في الظلم والفساد...

(فالله الله في كبر الحميّة وفخر الجاهلية فإنه ملاقح الشنآن ومنافخ الشيطان التي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية) ناشدهم الله وحذّرهم التكبر الناشىء عن الأنفة والاستكبار بدون حق وكذلك حذّرهم فخر الجاهلية حيث كانوا يفخرون بعظام آبائهم

وأجدادهم الذين ظلموا وكانوا يفخرون بظلمهم وإجرامهم وانحرافهم فإن الكبر يتولد منه البغض لأن المتكبر لا يحب إلا نفسه ولا يرى غيرها تستحق الاحترام والتبجيل وكذلك هذا الكبر هو من نفخات الشيطان حيث يرغبهم في العلو والاستكبار وبذلك خدع الأمم الماضية والقرون الخالية فقد جاءتهم الرسل فرفضوا الاستماع لهم وقبول قولهم لأنهم تكبروا عليهم وتجبروا وقال فرعون: أليس لي ملك مصر . . . وهكذا غيره من الطغاة.

(حتى أعنقوا في حنادس جهالته ومهاوي ضلالته ذللاً عن سياقه سلساً في قياده، أمراً تشابهت القلوب فيه وتتابعت القرون عليه وكبراً تضايقت الصدور به) زين الشيطان لهم الكبر فأسرعوا إلى ظلمات جهالته التي لا يخرجون منها ومهاوي ضلالته التي لا ينهضون منها لقد دخلوا في نفق الظلمات فلا هداية لهم وسقطوا في عمق الضلالة فلا يخرجون منها إنهم أذلاء عندما يسوقهم منقادين ويقودهم بدون معاندة فيستجيبون له ويتحركون معه.

ثم أشار إلى أن هذا التكبر كان هو الجامع المشترك بين جميع القلوب لقد تشابهت قلوبهم في هذه الصفة الذميمة ومشت القرون الماضية عليها واستسلمت لها وتتابعت على اعتمادها والعمل بها.

ولكثرة هذا التكبر وزيادته ضاقت الصدور عن تحمله ولم تستطع كتمه أو ستره . . .

(ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم وترفعوا فوق نسبهم وألقوا الهجينة على ربهم وجاحدوا الله على ما صنع بهم مكابرة لقضائه ومغالبة لآلائه فإنهم قواعد آساس العصبية ودعائم أركان الفتنة وسيوف اعتزاء الجاهلية) لما وجد أن أساس البلاء هم سادتهم وكبرائهم وأنهم هم المحرضون لهم على الانحراف والمضرمون لنار الفتنة حذرهم منهم وبيّن دورهم المجرم في إضلالهم ألا فالحذر الحذر من ساداتكم وكبرائكم لئلا تأخذكم الندامة يوم القيامة وتقولون: **﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا﴾** ثم بيّن مفاسد هؤلاء السادات والكبراء بأنهم قد جهلوا أنفسهم ولم يعرفوها ونسوا خلقهم من ماء مهين.

ومن قبائح أفعالهم أن كل خصلة قبيحة ينسبونها إلى الله فيقولون: إن الله خلق هذا عربي وذاك أعجمي أو أنه خلقهم طبقة ممتازة لها الصدارة والزعامة بينما جعل غيرهم من الرعية والاتباع . . .

ومن قبائح أفعالهم أنهم أنكروا فضل الله ونعمه عليهم وما صنعه بهم من حسن التقويم وانزال الرزق والخيرات فبدلاً من شكر هذه النعم إذ بهم يبدلون الشكر بالكفران والإقرار بالنكران تكبراً واستعلاء وضلالاً وانحرافاً.

ثم علل ما ذكر من الأوصاف التي وصف الكبراء والسادات بقوله: فإنهم آساس العصبية يعني هم الذين أسسوا العصبيات التي ينادى بها من أجل المحافظة على امتيازاتهم وعلوهم واستبدادهم ومن أجل مناصبهم وخصائصهم التي ينسجونها لأنفسهم. . .

كما أنهم دعائم أركان الفتنة فهم الذين يثيرون الفتن ويشعلون نارها ثم يذكونها بما عندهم من نفاق وغدر ولو أرادوا وأد الفتنة والقضاء عليها لاستطاعوا ذلك لأنهم يملكون وسائل إخمادها والقضاء عليها وقد مرّ علينا في الحرب اللبنانية التي دارت رحاها سنة ١٩٧٥ واستمرت ستة عشر سنة كيف أن الزعماء ـ زعماء الأحزاب ـ والساسة يديرون لعبة الموت بدقة ولباقة وكيف يشعلونها متى شاؤوا وكيف يوقفونها متى شاؤوا، ولماذا يكون الهدوء لا يُعرف ولم يكون القصف لا يدرى. . . لماذا يفتح هذا المعبر أو يغلق ذاك لا يدرى. . . لماذا يجتمع الأقطاب؟ لا يدرى. . . ولماذا لا يجتمعون لا يدرى. . . إنهم السادة الكبراء الذين يديرون الحرب ويكون وقودها هذا الشعب الأعزل الذي يمشي خلف هذا الزعيم وخلف ذاك الزعيم. . .

كما أنهم هم الذين يشكلون «سيوف اعتزاء الجاهلية» فهم كانوا يرفعون شعارات الجاهلية وينادون يا للثأر ويا للشرف الجريح والكرامة المهدورة، يا للعشيرة والحرم. . . يرفعون ذلك من أجل إثارة الفتنة والقضاء على الوحدة وقد شاهدنا الشعارات التي رفعتها الأحزاب والمنظمات كيف قضى تحتها ومن أجلها آلاف الناس البسطاء وبقي الزعيم على كرسيه في صموده وخلوده. . .

(فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً ولا لفضله عندكم حساداً) عاد إلى الأمر بتقوى الله بالقيام بالواجبات واجتناب المحرمات ولا يكونون لنعم الله عليهم أضداداً فبدلاً من أن يعملوا بما تقتضيه النعمة من وضعها موضعها وشكر المنعم بها فيحولونها إلى خلاف ذلك يحولونها إلى معصية الله، فبدلاً من أن يصرف المال في طرق الحلال من إعانة الفقراء وسد عوزهم إذ به يصرف في محاربة أولياء الله ونشر الفساد والضلال.

وكذلك نهاهم أن يحوّلوا فضله عليهم فيكونون حساداً أي يحولوا فضل الله

وعطاياه إلى أن يحسدوا عباده على ما أعطاهم. . .

(ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم وخلطتم بصحتكم مرضهم وأدخلتم في حقكم باطلهم) نهاهم عن طاعة أدعياء الإيمان المبطنين للكفر وهم المنافقون الذين يحوّلون صفاء الناس وطهرهم وإيمانهم إلى الكدر وهو النفاق والريب والشك والتردد فلا يستبدل المسلمون هذا الصفاء بذلك الكدر.

وعبّر بقوله: «وخلطتم بصحتكم مرضهم» وأراد أن قلوبكم كانت طاهرة لا يشوبها شائبة شك أو نفاق فهي صحيحة سليمة بينما كانت نفوس أولئك الأدعياء مريضة بمرض النفاق وحب التعالي والكبر فأنتم تخلطون صحتكم بمرضهم بمتابعتكم لهم. . .

وعبر بقوله: «وأدخلتم في حقكم باطلهم» فإنكم أصحاب إيمان وعمل وهم ـ الأدعياء ـ أصحاب هوى ومناصب فحسب فأدخلتم ما عندكم من حق بباطلهم.

أو أنكم أصحاب حق في الخلافة والإمارة وأولئك ليس لهم حق فادخل الحق بغير الحق عندما تمشون خلفهم أو تسمعون لهم.

(وهم أساس الفسوق وأحلاس العقوق) وهؤلاء الأدعياء المنافقون هم أساس الانحراف وأصله وهم الذين يزرعون الشك في قلوب المؤمنين ويخرجون عن إرادة الله ورسوله وأوليائه ولولاهم لم يجرأ أحد على الطعن والغمز واللمز في حكم إسلامي أو موقف وقفه النبي وخلفاؤه الصالحون.

وهم باستمرار ملازمون للعصيان متمردون على إرادة الله ورسوله يريدون الأمور لصالحهم وليس لصالح الإسلام.

(اتخذهم إبليس مطايا ضلال وجنداً بهم يصول على الناس وتراجمة ينطق على ألسنتهم استراقاً لعقولكم ودخولاً في عيونكم ونفثاً في أسماعكم فجعلكم مرمى نبله وموطىء قدمه ومأخذ يده) فهؤلاء الأدعياء ـ المنافقون ـ قد جعلهم الشيطان مطايا يركبها وهم أذلاء تحت أمره ونهيه لا يعصونه فيما يريد كما جعلهم من جنده بهم يصرف الناس عن التوجه لله والاخلاص له وقد تحول هؤلاء الأدعياء بألسنتهم إلى آلة لإبليس تفرغ هي ما يريده الشيطان وما يأمر به وبعبارة أخرى تحولوا إلى أذلاء يركب عليهم وإلى جند يدفعون عنه ويدافعون كما جعلهم ألسنة له يدعون بشعاره وإلى ما يريد. . .

ثم علل ذلك بأنه قد سلب عقولهم فأبطل تفكيرها في غير طاعته والتزام أمره وإذا تعطل العقل وتحول إلى مصلحة الشيطان كانت المأساة تتبع المأساة والانحراف يتبع الانحراف.

كما أنه دخل في عيونهم فأصبحوا لا يبصرون إلا ما يزينه لهم وما يرغبهم فيه من الحرام.

وكذلك وسوس لهم في أسماعهم عن الدنيا وزينتها ورغبهم فيها فانصرفوا إليها معرضين عن الآخرة.

وقد كانت نتيجتهم أن تحولوا إلى هدف يرميه بشتى الانحرافات والميول والأهواء يزرع فيهم سهام الحقد والحسد والغل.

كما جعلهم موطىء قدمه فأذلّهم أشد الإذلال وأهانهم أعظم الإهانة وهل هناك أشد إذلالاً ممن تدوسه الأقدام.

كما جعلهم أسراء تحت يده يتصرف بهم لصالحه كيف يشاء يحولهم إلى أداة شيطانية مسخرة لمصالحه الخبيثة...

(فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته واتعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم) خذوا العظة والعبرة بما أصاب الأمم السابقة المستكبرة والعاقل من اعتبر بغيره وأخذ الدرس ممن ابتلى وأنتم خذوا العبرة ممن كانوا قبلكم من فرعون وقومه ونمرود وقوم عاد وثمود فإنهم استكبروا على الله وتمردوا على إرادته ورفضوا أوامره فأخذهم أخذ عزيز مقتدر أخذهم بالعذاب الشديد وأنزل بهم العقوبات فمنهم من أرسل عليه السيل ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم خسف به الأرض وهكذا دواليك ثم أمرهم أن ينظروا إلى مصيرهم من الأرض ويأخذوا العظة من ذلك الموقع الرهيب... ينظروا كيف أضحت تلك الخدود الناعمة التي كانت لا تنام إلا على الحرير كيف أضحت تنام على التراب ممرغة بالرغام وانظروا إلى أماكن تواجد هذه الجثث كيف يفزع الحي من تصور نفسه فيها فليستعد المسلم لمثل ما أصابهم إن هو عصى الله وتمرد على حكمه...

(واستعيذوا بالله من لواقح الكبر كما تستعيذونه من طوارق الدهر) أمرهم أن يستعينوا بالله ويلتجئوا إليه أن ينجيهم من آثار التكبر ومخلفاته وما يتركه في النفوس ويولده في القلوب وهو لشدة خطره يجب أن يستعيذوا منه كما يستعيذوا من حوادث الدهر وفجائعه ومصائبه.

(فلو رخّص الله في الكبر لأحد من عباده لرخّص فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه ولكنه سبحانه كرّه إليهم التكابر ورضي لهم التواضع) فالتكبر باعتباره صفة ذميمة وعادة قبيحة لم يرخص فيها الله لأحد من عباده بل منعهم عن ارتكابها ولو كان يسمح لأحد من خلقه

بها لسمح لأنبيائه والمقرّبين من عباده ولكنه سبحانه جعلها مكروهة لهم بل أمرهم بالتواضع وقال لنبيه: ﴿**واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾.

(**فألصقوا بالأرض خدودهم وعفروا في التراب وجوههم وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين وكانوا قوماً مستضعفين قد اختبرهم الله بالمخمصة وابتلاهم بالمجهدة وامتحنهم بالمخاوف ومخضهم بالمكاره**) لقد سار الأنبياء كما أمر الله وكانوا أكثر الناس تواضعاً وقد عبر الإمام بأنهم ألصقوا بالأرض خدودهم وعفروا في التراب وجوههم كناية عن تواضعهم وعدم تكبرهم.

وكذلك خفضوا أجنحتهم امتثالاً لقول الله مخاطباً نبيه: ﴿**واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾ ثم وصفهم بما هم فيه:

لقد كانوا قوماً مستضعفين لم يتمتعوا بالدنيا وزينتها ولم يستعلوا على الناس لقد كانوا من الطبقة التي تعاني ظلم الراعي وجوره ولكنها فكرت في طريق الخلاص فكانت العناية الإلهية التي سددتهم في طريق الرسالة فأنقذوا بأمر الله شعوبهم وأممهم.

واختبرهم الله بالجوع فموسى يدعو ربه بقوله: ﴿**رب إنّي لما أنزلت إلي من خير فقير**﴾ والنبي محمد قد شد حجر المجاعة على بطنه وهكذا نرى من سار على طريقهم يعيش باستمرار في حاجة وقد ورد عن أئمة أهل البيت قولهم: «من أحبنا أهل البيت فليلبس للفقر جلباباً...».

وابتلاهم أيضاً بالمجهدة أي بالإتعاب والعذاب حيث يؤدون رسالتهم فكان الجفاة الغلاظ أصحاب الامتيازات وأهل السلطة والزعامة يواجهونهم بشتى أساليب التعذيب وفنونه ونظرة واحدة إلى سيرة رسول الله وما لاقاه من العنت من كفار قريش يكفي لصدق ذلك.

وامتحنهم بالمخاوف فلذا هجروا الأوطان وتركوا الديار فموسى ترك مصر هارباً والنبي هاجر إلى المدينة والحسين ترك مكة وهكذا تكون تغيير المواقع من أجل المصلحة...

وهكذا وقعوا في شدائد كثيرة زلزلتهم وهجرتهم وطهرتهم.

(**فلا تعتبروا الرضى والسخط بالمال والولد جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الغنى والاقتدار فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات؟ بل لا يشعرون﴾ فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم**

بأوليائه المستضعفين في أعينهم) هذا رفض لما عليه الأغبياء من الناس حيث يذهبون إلى أن الميزان في رضى الله عن شخص وغضبه على آخر هو كثرة الأموال والأولاد للأول وحرمانهما بالنسبة إلى الآخر جهلاً منهم بما امتحن الله به عباده فإن الثروة والمال للاختبار والامتحان حتى تظهر معادن الرجال وتنكشف الأمور مَنْ الذي يعصي الله في المال ممن يطيعه؟ ومن ينساق وراء أولاده فيقدمهم على الله والدين ومن الذي يقدم الدين عليهم؟ من الذي يربي أولاده تربية صالحة ومن الذي يهمل ذلك ففي كل ذلك حساب وعقاب أو أجر وثواب وتصديق ذلك من كتاب الله حيث يقول: **﴿أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات؟﴾** فليس الأمر كذلك بل هم في امتحان لهم وابتلاء **﴿ولكنهم لا يشعرون﴾** بذلك إستدراج حتى يطغوا ويبغوا فيظنوا أنهم لقربهم من الله أعطاهم ذلك. . .

ثم أشار إلى أن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم فإن المستكبرين في الأرض لعلوهم وتجبرهم يحاولون بسط نفوذهم وسيطرتهم على الناس فيروحون يغيّرون السنن والشرائع والأحكام لما يخدم مصالحهم ويكرسون أنفسهم أرباباً من دون الله فيرسل الله لهم الأنبياء وهم ضعفاء لا يملكون السلطة ولا المال فيبتليهم بهم لعلهم يرجعون إلى أنفسهم ويعودون إلى حجمهم الطبيعي فتأخذهم العزة بالإثم وتبتدأ المعركة بين الحق والباطل. . .

تواضع الأنبياء

وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ ـ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ ـ عَلَى فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ[١] الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا ٱلْعِصِيُّ[٢]، فَشَرَطَا لَهُ ـ إِنْ أَسْلَمَ ـ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ؛ فَقَالَ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ ٱلْعِزِّ، وَبَقَاءَ ٱلْمُلْكِ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ ٱلْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ[٣] مِنْ ذَهَبٍ؟» إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَٱحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ! وَلَوْ أَرَادَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ[٤]

ٱلذِّهْبَانِ(٥)، وَمَعَادِنَ ٱلْعِقْيَانِ(٦)، وَمَغَارِسَ(٧) ٱلْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ(٨) ٱلأَرَضِينَ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ ٱلْبَلاَءُ(٩)، وَبَطَلَ ٱلْجَزَاءُ، وَٱضْمَحَلَّتِ(١٠) ٱلأَنْبَاءُ(١١)، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ ٱلْمُبْتَلِينَ، وَلاَ ٱسْتَحَقَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ ٱلْمُحْسِنِينَ، وَلاَ لَزِمَتِ ٱلأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا. وَلكِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ(١٢) فِي عَزَائِمِهِمْ(١٣)، وَضَعَفَةً(١٤) فِيمَا تَرَى ٱلأَعْيُنُ مِنْ حَالاَتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلأُ ٱلْقُلُوبَ وَٱلْعُيُونَ غِنًى، وَخَصَاصَةٍ(١٥) تَمْلأُ ٱلأَبْصَارَ وَٱلأَسْمَاعَ أَذًى.

وَلَوْ كَانَتِ ٱلأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لاَ تُرَامُ(١٦)، وَعِزَّةٍ لاَ تُضَامُ(١٧)، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ ٱلرِّحَالِ، لَكَانَ ذلِكَ أَهْوَنَ عَلَى ٱلْخَلْقِ فِي ٱلاعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي ٱلاسْتِكْبَارِ، وَلآمَنُوا(١٨) عَنْ رَهْبَةٍ(١٩) قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ(٢٠) بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَٱلْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً. وَلكِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ ٱلاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَٱلتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَٱلْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، وَٱلاسْتِكَانَةُ لأَمْرِهِ، وَٱلاسْتِسْلاَمُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً، لاَ تَشُوبُهَا(٢١) مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ. وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْبَلْوَى وَٱلاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ ٱلْمَثُوبَةُ وَٱلْجَزَاءُ أَجْزَلَ(٢٢).

اللغة

١ ـ المدارع : جمع مدرعة بكسر الميم وهي ثوب واسع كالكساء.

٢ ـ العصي : جمع العصا.

٣ ـ الأساورة : جمع الجمع لسوار وهو حلية كالطوق تلبسه المرأة في زندها أو معصمها.

٤ ـ الكنوز : مفرده الكنز كل مجموع مدخرّ يتنافس فيه، المال المدفون في الأرض.

٥ ـ الذهبان : بكسر الذال جمع ذهب وهو المادة الغالية في المعادن.
٦ ـ العقيان : نوع من الذهب ينمو في معدنه وهو أجوده.
٧ ـ المغارس : موضع الغرس والغرس ما يغرس في الأرض من شجر ونحوه.
٨ ـ الوحوش : جمع الوحش حيوان البر.
٩ ـ البلاء : الامتحان والاختبار.
١٠ ـ إضمحلت : فنيت وتلاشت.
١١ ـ الأنباء : الأخبار.
١٢ ـ أولي قوة : أصحاب قوة.
١٣ ـ عزائمهم : جمع عزيمة الإرادة المؤكدة.
١٤ ـ الضعفة : جمع الضعيف.
١٥ ـ الخصاصة : الفقر.
١٦ ـ لا ترام : من رام الشيء إذا طلبه وأراده.
١٧ ـ لا تضام : من الضيم وهو الظلم.
١٨ ـ أمنوا : اطمأنوا.
١٩ ـ الرهبة : الخوف.
٢٠ ـ مائلة : من مال إلى الشيء إذا رغب فيه وأحبه.
٢١ ـ الشوب : الخلط.
٢٢ ـ أجزل : العطاء لفلان أوسعه وأكثره والجزيل الكثير من الشيء.

الشرح

(ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي فشرطا له ـ إن أسلم ـ بقاء ملكه ودوام عزه فقال: «ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل فهلّا ألقي عليهما أساورة من ذهب؟» إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه) بعد أن ذكر أن المستكبرين ابتلاهم الله بعباده المستضعفين ذكر قصة موسى بن عمران مع فرعون وهي قصة الطواغيت والظالمين في أشخاصهم وأدوارهم وفي منطقهم ونظرتهم إلى الأمور.

لقد دخل موسى وأخوه هارون على فرعون في مهمة تبليغ الرسالة وإرشاده إلى الله ورده إلى الحق جل ذكره ولكن دخولهما عليه لم يكن بثياب الملوك والطبقات المخملية

في المجتمع التي تتزين بالحرير والذهب بل دخلا عليه في ثياب الناس العادیين... في ثياب الصوف وبأيديهما العصي - إنها صورة الأنبياء الرساليين الذين يعيشون التواضع والصدق وعندما دخلا عليه وتكلما معه شرطا عليه إن أسلم أن يبقى ملكه ويدوم في عزه ومن هنا لم تأت الأديان للقضاء على الزعماء وأصحاب الوجاهة إذا انضموا إلى قافلة الإيمان وأعلنوا الإسلام... ولكن فرعون الذي قال: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ ويعيش حالة نفسية مريضة ولا ينظر إلاّ إلى الذهب والفضة ومشتقاتهما لم يعجبه هذا الحديث بل أخذ في عملية استهزاء وسخرية وهو يقول لحاشيته ومن يعيش معه ويدور في فلكه ألا تعجبون من موسى وهارون يشرطان لي بقاء ملكي ودوام عزي وهما على ما هما عليه من الفقر والذل فهلاّ ألقي عليهما أساورة من ذهب...

بهذا المنطق المادي كان الجواب... وبهذا الأسلوب المزري يقابل الطغاة الدعاة إلى الله. إنه لم ينظر إلى دعوة موسى وما وراءها وهل تحمل الصدق والحق؟... لم يتعامل مع الآخرين بمنطق العقلاء وأهل الفكر بل يبادر ألا تعجبون... إنه الذهب الذي أعمى بصر فرعون فلا يفكر إلا فيه ويتصور أن ميزان العز والحق هو هذا الصنم المادي من الذهب وفي المقابل احتقر الصوف ومن يلبسه.

(ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحلت الأنباء ولما وجب للقابلين أجور المبتلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين ولا لزمت الأسماء معانيها... ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى) هذا رد من الإمام على فرعون ومن يتبنى رأيه ويقول بمقالته يعلل فيه بعث الرسل في حالتهم الشعبية من الفقر والمسكنة والفاقة دون الغنى والزهو والعلو يقول: لو أن الله أراد لأنبيائه عندما بعثهم أن يعطيهم كل خيرات الدنيا فيفتح لهم خزائن الذهب ومعادنه الجيدة وكل بساتين الدنيا ويسخّر معهم طيور السماء ووحوش الأرض تأتمر بأمرهم وتلتزم قولهم لو أراد ذلك وهي ممكنة وهو قادر عليها لفعل ذلك ولكن ذلك يؤدي إلى أمور لا تصح ولا يمكن القبول بها وهي:

١ - إنه لو أعطاهم كل ذلك لسقط البلاء، أي لسقط امتحان المستكبرين بالمستضعفين وسقط امتحان المستضعفين وامتحانهم في صبرهم وجهادهم لأنهم لو أعطوا هذه الأشياء لتبعهم الناس لها رغبة فيها أو رهبة منها ولم يعد ثمة من امتحان.

٢ ـ إنه يسقط الجزاء على الطاعات لأنها تكون وليدة الرغبة أو الرهبة لما في يد الأنبياء ولم تتمحض في الطاعة لله وامتثال أمره.

٣ ـ إنها تعطل أخبار الأنبياء لو أعطاهم ذلك لأن مهمة الأنبياء أن يزهدوا الناس في الدنيا ويرغبوهم في الآخرة فإذا جاؤوا بالدنيا بما فيها لم تنفع عندئذٍ كل مواعظهم وتوجيهاتهم.

٤ ـ وكذلك لو أعطاهم الله ذلك لم يكن لأهل البلاء والامتحان ميزة على من آمن بدون ذلك لسقوط التكليف حيث لا اختبار ولا امتحان.

٥ ـ وكذلك لم يستحق المؤمنون عن هذا الطريق ثواب المحسنين المجاهدين بأنفسهم لأن إيمان الفئة الأولى لرغبة بينما الفريق الآخر كان عن صبر وجهاد للنفس.

٦ ـ إن الأسماء لا تستحق معانيها لأن لكل كلمة معنى ومعنى المؤمن هو الذي يصبر على البلاء والامتحان ويتخطى العقبات ويصر على الإيمان وليس الإيمان هو مجرد الاسم الذي يكسبه الإنسان من خلال رغباته وتحقيق متطلباته في الدنيا فإن من آمن بالأنبياء مع ما في أيديهم من الكنوز والذهب والطيور والوحوش وغيرها لم يكن اسم الإيمان لينطبق عليهم على الحقيقة لأن الإيمان يجب أن يتجرد عن المغانم والمنافع بل الإيمان لحسن العقيدة وصحتها فحسب...

ثم بعد أن ذكر أن الله لو أراد أن يفعل ذلك لفعله ولكنه لم يفعله لِمَ يترتب عليه من المفاسد قال: إن الله لم يعطهم ذلك لمفاسده ولكنه أعطاهم العزيمة القوية فهم أقوياء في نفوسهم... أقوياء في طموحاتهم... أقوياء في صمودهم... إنهم أعطوا عزيمة تنال السماء وتسقط الزعماء فهم أسود في نفوسهم وإن كانوا ضعفاء في ملابسهم ضعفاء فيما تقع عليه العيون من حالاتهم في ملبسهم... ومأكلهم... وتواضعهم... إنهم فقراء ولكن لقناعتهم وتعففهم فهم من أغنى الناس... هم أغنياء بما عندهم من علم لدني وزهد وتقوى. وتوجه نحو الله بحيث تمتلىء القلوب إكباراً وإجلالاً لمقامهم وكذلك هم جياع إلى مستوى أذية الآذان والأبصار وجوعهم كما قيل: من أجل أن تصفو نفوسهم وترق أرواحهم وتشف عن حالة الطهارة والنزاهة لتتلقى بها الوحي وتستمع لصوت الحق...

(ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام وملك تمد نحوه أعناق الرجال وتشد إليه عقد الرحال لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار وأبعد لهم في الاستكبار

ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم أو رغبة مائلة بهم فكانت النيات مشتركة والحسنات مقتسمة) وكذلك نبّه إلى أنه سبحانه لو أعطى أنبياءه ما أعطى من القوة القوية التي لا يبلغها أحد وعزة لا ذل فيها ولا ظلم وملك واسع تسعى إليه الرجال وتطلبه الزعماء لو أعطاهم ذلك لترتب عليه أن كل الناس أسرعت مستجيبة لهم لأن أمنياتهم تتحقق في ظل الأنبياء وعندهم ولم يستكبر عن الاستجابة لهم أحد ولآمنوا أيضاً بما جاء به الأنبياء إما رغبة بما عندهم من الدنيا أو رهبة وخوفاً من سطوتهم وقوتهم وعندئذٍ تفسد النيات وتشوبها الشائبات، تصبح النيات مشتركة نية من آمن عن رغبة أو رهبة ونية من آمن بحق وعن صدق لأن الحق مع الأنبياء.

وكذلك أصبحت الحسنات مقتسمة أي الإيمان مقتسم بين الله وبين المنافع والفوائد...

(ولكنّ الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله والتصديق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته أموراً له خاصة، لا تشوبها من غيرها شائبة وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل) وإن الله لم يعطِ الأنبياء القوة والسلطان والعزة والملك إلا لأجل أهداف سامية يريدها من هذا الإنسان إنه لم يعطها إلا ليكون الاتباع لرسله والإيمان بهم من حيث إنهم سفراء من عند الله؛ والتصديق بكتبه المنزلة عليهم لأنها كتب الوحي والهداية والإرشاد وأن يكون الخشوع لوجهه وحده دون غيره والاستكانة لأمره أي الاطمئنان والثقة بأمر الله وحده، وأن يكون الاستسلام لطاعته دون قيود أو شروط أو منافع وفوائد وأموال وثمرات، أرادها سبحانه كلها أموراً خالصة له خاصة به لا يشركه أحد من خلقه بها ولا تختلط بها شائبة رهبة أو رغبة ثم بيّن أنه كلما كان الاختبار أعظم وأكبر كانت المثوبة والأجر أعظم وأكثر لأن من امتحنه أكثر كان إيمانه أقوى وصاحب الإيمان الأقوى له الأجر الأكثر...

الكعبة المقدسة

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ ٱللهَ، سُبْحَانَهُ، ٱخْتَبَرَ[١] ٱلأَوَّلِينَ مِنَ لَدُنْ[٢] آدمَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ، إِلَى ٱلآخِرِينَ مِنْ هذَا ٱلعَالَمِ، بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا

تسْمَعْ، فَجعَلَهَا بَيْتَهُ ٱلْحَرَامَ «الَّذِي جعَلَهُ لِلنَّاسِ قِياماً». ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ(٣) بِقَاعِ(٤) ٱلأَرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ(٥) الدُّنْيَا مَدَراً(٦)، وَأَضْيَقِ بُطُونِ ٱلأَوْدِيَةِ قُطْراً(٧). بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ(٨)، وَعُيُونٍ(٩) وَشِلَةٍ(١٠)، وَقُرًى مُنْقَطِعَةٍ، لاَ يَزْكُو(١١) بِهَا خُفٌّ(١٢)، وَلاَ حَافِرٌ(١٣) وَلاَ ظِلْفٌ(١٤). ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ(١٥) نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً(١٦) لِمُنْتَجَعِ(١٧) أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى(١٨) رِحَالِهِمْ(١٩). تَهْوِي(٢٠) إِلَيْهِ ثِمَارُ ٱلأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ(٢١) قِفَارٍ(٢٢) سَحِيقَةٍ(٢٣) وَمَهَاوِي(٢٤) فِجَاجٍ(٢٥) عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ(٢٦) ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ(٢٧) للهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ(٢٨) عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً(٢٩) غُبْراً(٣٠) لَهُ. قَدْ نَبَذُوا(٣١) السَّرَابِيلَ(٣٢) وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا(٣٣) بِإِعْفَاءِ ٱلشُّعُورِ(٣٤) مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ٱبْتِلاَءً عَظِيماً، وَٱمْتِحَاناً شَدِيداً، وَٱخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً(٣٥) بَلِيغاً، جَعَلَهُ ٱللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ. وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ ٱلْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ(٣٦) ٱلْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ(٣٧)، جَمَّ(٣٨) ٱلأَشْجَارِ دَانِي(٣٩) الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ ٱلْبُنَى(٤٠). مُتَّصِلَ ٱلْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ(٤١) سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ(٤٢) خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ(٤٣) مُحْدِقَةٍ(٤٤)، وَعِرَاصٍ(٤٥) مُغْدِقَةٍ(٤٦)، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ(٤٧)، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ ٱلْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ ٱلْبَلاَءِ. وَلَوْ كَانَ ٱلإِسَاسُ(٤٨) ٱلْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَٱلأَحْجَارُ ٱلْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ(٤٩) خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ(٥٠) حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ ٱلْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ(٥١) الرَّيْبِ(٥٢) مِنَ النَّاسِ، وَلكِنَّ ٱللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ ٱلْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ ٱلْمَكَارِهِ،

إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلْ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً(٥٣) إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً(٥٤) لِعَفْوِهِ.

اللغة

١ ـ اختبر : امتحن.
٢ ـ لدن : ظرف زماني أو مكان بمعنى عند إلا أنه أقرب مكاناً وأخصّ.
٣ ـ الوعر : من الأرض ضد السهل.
٤ ـ البقاع : جمع بقعة وهي القطعة من الأرض.
٥ ـ النتائق : جمع نتيقة البقاع المرتفعة.
٦ ـ المدر : قطع الطين اليابسة.
٧ ـ القطر : الجانب.
٨ ـ الدمثة : السهلة اللينة.
٩ ـ العيون : جمع عين ينبوع الماء.
١٠ ـ الوشلة : قليلة الماء.
١١ ـ يزكو : ينمو.
١٢ ـ الخف : قائمة الإبل.
١٣ ـ الحافر : قوائم الخيل والحمير.
١٤ ـ الظلف : قوائم الشاة.
١٥ ـ ثنى عطفه إليه : مال وتوجه إليه.
١٦ ـ المثابة : المرجع.
١٧ ـ المنتجع : موضع الماء والكلأ أو المكان يقصده الناس للمنفعة.
١٨ ـ ملقى : مصدر ميمي ألقى.
١٩ ـ الرحال : ما يجعل على ظهر البعير كالسرج.
٢٠ ـ تهوي : تسرع إليه واصل الهوي السقوط.
٢١ ـ المفاوز : جمع مفازة الصحراء.
٢٢ ـ القفار : جمع قفر وهي الصحراء التي لا نبت فيها ولا ماء.
٢٣ ـ السحيقة : البعيدة.
٢٤ ـ المهاوي : المنخفضات من الأرض.
٢٥ ـ الفجاج : الطرق الواسعة بين الجبال.
٢٦ ـ مناكبهم : رؤوس اكتافهم.

٢٧ ـ يهللون : من التهليل يرفعون أصواتهم بالتلبيه والإهلال رفع الصوت.
٢٨ ـ الرمل : الهرولة ويرملون يهرولون.
٢٩ ـ الأشعث : المنتشر الشعر مع تلبد فيه.
٣٠ ـ الأغبر : من علا بدنه الغبار.
٣١ ـ نبذوا : القوا.
٣٢ ـ السرابيل : الثياب.
٣٣ ـ شوّهوا : يقال شوه وجهه إذا قبحه والمشوه قبيح الشكل.
٣٤ ـ اعفاء الشعور : ترك الشعور ـ مفردها الشعر ـ بلا حلق ولا قص.
٣٥ ـ التمحيص : التطهير.
٣٦ ـ المشاعر : المناسك.
٣٧ ـ القرار : المطمئن من الأرض أي المستقر.
٣٨ ـ الجمّ : الكثير.
٣٩ ـ داني : قريب.
٤٠ ـ البُنى : جمع بنية بضم الباء وكسرها ما ابتنيته وقمت بعمارته وملتف البنى مشتبك العمارة.
٤١ ـ البرة : بالضم الحنطة والسمراء أجودها.
٤٢ ـ الروضة : أرض مخضرة بأنواع النبات.
٤٣ ـ الأرياف : جمع ريف بالكسر الأراضي الخصبة.
٤٤ ـ المحدقة : المحيطة.
٤٥ ـ العراص : جمع عرصة وهي البقعة الواسعة التي ليس بها بناء.
٤٦ ـ المغدقة : الأرض ذات الماء الكثير والخصب.
٤٧ ـ ناضرة : حسنة جميلة.
٤٨ ـ الأساس : بكسر الهمزة جمع أس وأساس أصل البناء.
٤٩ ـ الزمردة : حجر كريم شفاف شديد الخضرة واشده خضرة أجوده وأصفاه جوهرا (وهي فارسيه).
٥٠ ـ ياقوتة : حجر كريم صلب تختلف ألوانه(يونانية).
٥١ ـ معتلج : مصدر ميمي من الاعتلاج الالتطام والاختلاط.
٥٢ ـ الريب : الشك.
٥٣ ـ الفتح : بضمتين الواسع المفتوح.
٥٤ ـ الذلل : بضمتين جمع ذلول بالفتح ضد الصعوبة...

الشرح

(ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام ﴿الذي جعله للناس قياماً﴾) لما كان التكليف كله من أجل تكامل هذا الإنسان وسموه كان لا بد فيه من علل وحكم مستوره على الإنسان يجهلها ولا يعرفها حتى تكون الطاعة خالصة لوجه الله وقد ننظر في بعض التكاليف فنجهل وجه الحكمة فيها وأعني بوجه الحكمة فيها أي ما تدل عليه بشخصها من حكمة وإن كانت القاعدة العامة تنطبق عليها وهي: أن كل تكليف وارءه حكمة يعلمها الله ترجع بالفائدة على هذا الإنسان والحج بجملته مهما تفلسف المتفلسفون وأبرزوا من علل وحكم فإنها تقصر عن إعطاء شيء يريح القلب والضمير نعم انطلاقاً من القاعدة العامة وإن الله هو الذي يعلم الحكمة في التشريع ولا يشرّع إلا لمصلحة هذا الإنسان نعرف أن الحج تكليف إلهي تعود منفعته لهذا الإنسان والإمام يؤشر إلى ذلك بقوله:

«ألا ترون أن الله سبحانه وتعالى امتحن هذا الإنسان من آدم وإلى آخر يوم في الدنيا بأحجار لا تضر ولا تنفع لأنه النافع والضار هو الله ولا تبصر ولا تسمع حتى إذا قصدها الإنسان رأته وسمعت دعاءه هذه الأحجار الجماد جعلها الله بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً أي يقيمهم ويقويهم ويدعمهم في جميع أحوالهم المادية والمعنوية، الدنيوية والأخروية، فقيامهم الصحيح ونهضتهم الكبرى وارتفاع نجمهم وعلو شأنهم إنما يكون بهذا البيت المكون من هذه الأحجار. . .

(ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً وأقل نتائق الدنيا مدراً وأضيق بطون الأودية قطراً. بين جبال خشنة ورمال دمثة وعيون وشلة وقرى منقطعة لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف) وهذا وصف لمكان البيت ومحله وإن الله وضع بيته الحرام المقدس المطهر بأوعر بقاع الأرض حجراً أي أصعب الحجارة وأغلظها في الأرض وأقل بلدان العالم تراباً ومدراً وأضيق الأودية حيث أن بيت الله في وادي مكة الضيق جداً. . .

بين جبال غليظة ورمال طرية لا تصلح لزرع وتتعب السائرين عليها وأما الماء فهو قليل جداً وقرى تلك البلاد بعيدة لا تتصل ببعضها لبعدها ومشقة السفر إليها ثم أشار إلى أنه لا يسمن فيها بعير ولا فرس ولا شاة لأنه لا زرع فيها قال تعالى عن إبراهيم: **﴿رب إني اسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع﴾** فهي قاحلة لا ينمو فيها شيء ولا يسمن فيها حيوان. . .

فهذا البيت الحرام المبني من الأحجار في هذا المكان القفر الصعب جعله الله قبلة للأنام وفرض على الناس الحج إليه . . .

(ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لملقى رحالهم تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة) بعد أن بنى الله البيت الحرام في تلك البقعة من الأرض بالأوصاف المتقدمة أمر آدم ومن بعده أولاده أن يتوجهوا نحوه ويقصدوه فصار بعد ذلك الأمر الإلهي محلاً طيباً يجدون في ربوعه ما يتمنونه ويطلبونه في عودتهم من سفرهم كما أنه ملتقى يجتمعون فيه ويلتقون كما قال تعالى: **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾**.

كما أنه سبحانه جعل القلوب تحّن إليه وتتشوق للنزول به كما قال تعالى في دعاء إبراهيم عليه السلام: **﴿واجعل أفئدة من الناس تهوي إليه﴾**.

فإن القلوب تحن إلى بيت الله الحرام من أقصى بلاد الله من الصحراء البعيدة القاحلة من صحراء الربع الخالي ومن صحراء العالم ترى الشوق إلى البيت الحرام.

كما ترى الشوق من كل فج عميق ومن الجزر البعيدة المنقطعة عن العالم ترى كل أولئك الناس يحملون للكعبة شوقاً ومحبة ورغبة في التبرك بتلك الأحجار المقدسة التي باركها الله . . .

(حتى يهزوا مناكبهم ذللاً يهللون لله حوله ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له. قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم وشوهوا بأعفاء الشعور محاسن خلقهم ابتلاء عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنته) فإن من يهوى بيت الله الحرام ويحبه ويتشوق لأخذ البركة منه يجب أن يتحرك من مكانه وينطلق متوجهاً نحوه وهذا يستدعي تحريك المناكب أو يقصد به الطواف بالبيت الحرام متواضعين منقادين لما أمر.

وذكر أنهم في طوافهم حوله يهللون الله ويلبون ويهرولون على أقدامهم مسرعين إلى مغفرة الله في حالة البؤساء حيث الشعور متفرقة قد تلبدت واغبرت من التراب، إنهم قد خلعوا الثياب الجميلة التي كانوا يرتدونها وتركوا شعورهم مسترسلة قد غطت وجوههم وشوهت مناظرهم . . .

إنه امتحان لهذا الإنسان عظيم حيث يعرف المطيع من العاصي . . إنه اختبار لهذا الإنسان واضح كبير وتمحيص بليغ وهذا كله ليجعله سبباً لرحمته وطريقاً إلى جنته فهو

السبب لنزول الرحمة والوصول إلى الجنة فإن من قصد تلك الديار وحلّ في تلك الآثار نال المغفرة ودخل الجنة. . .

(ولو أراد الله سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار جم الأشجار داني الثمار ملتف البُنى متصل القرى بين برة سمراء وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراص مغدقة ورياض ناضرة وطرق عامره لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء) هذه صورة زيتية لأبدع رسام عبقري تسقط عندها ريشة كل الفنانين في العالم. . ريشة الإمام علي الذي يرسم بيت الله الحرام في هذه الأجواء العظيمة لو أراد الله أن يجعله كذلك.

يرسمه مع تلك المناسك التي يؤدي الحاج فيها واجباته يرسمه بين بساتين تحوي كل ثمار الدنيا وأنهار تجري من تحتها وحولها. . .

في سهل واسع ممتد مدّ البصر كثير الأشجار قريب الثمار ومن حوله العمارات والبنايات تتصل به القرى من كل جانب وحوله القمح الجيد اللذيذ والبساتين الخضراء وأيضاً تحيط به الأرياف والأراضي المتدفقة بالماء والبساتين الجميلة والطرق إليه عامرة مشقوقة ومطروقة.

لو كان الله قد فعل ذلك لقل الأجر والثواب لخفّ البلاء والامتحان فإن من يرى بيت الله بهذه المواصفاة يتشوق لرؤيته والتمتع بالنزهة في ربوعه ولم يعُد في البين مشقة أو تعب بل قد تنتفي نية القربة.

(ولو كان الأساس المحمول عليها والأحجار المرفوع بها بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب ولنفى معتلج الريب من الناس) كان الوصف في السابق لموقع البيت وما حوله وهنا يصف نفس البيت الحرام وأن الله لو أراد أن يبني بيته فيجعل أساسه من أغلى الأحجار وأفضلها من الزمرد الأخضر والياقوت الأحمر ويجعله منيراً مضيئاً لو أراد ذلك لفعل ولو فعل ذلك لخفف عن الناس الشك في الأنبياء وفي نفس البيت فإن الإنسان إذا وجد بيت الله قد بُني بالزمرد والياقوت وغيره لأسرع لتصديق ذلك وقال أن ذلك يناسب الله وأما إذا وجده كما هو بني بالأحجار الطبيعية فإن الشك يدخل إلى قلبه هذا أولاً.

وأيضاً فإن إبليس ترتفع وساوسه وشكوكه التي يدخل من خلالها إلى نفس الإنسان فيما لو بُني بما ذكر لأن النفوس تتقبل ذلك وترضاه بعكس ما لو كان بالأحجار فإنه يقول

تطوفون بأحجار طبيعية كما هي في بيوتكم فتسري وساوس الشيطان إلى النفوس. . .

(ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم وأسكاناً للتذلل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فتحاً إلى فضله وأسباباً ذللاً لعفوه) هذا بيان لعدم جعل الله بيته الحرام من أحجار كريمة زمرد وياقوت ونور وضياء بأن الله يريد أن يمتحن عباده بأنواع الأمتحانات الصعبة والمكاره القوية التي تنفر منها النفوس أو لا تقبلها بحسب تركيبها كما هو الحال في بيت الله حيث جعل من الأحجار الطبيعية فإن هذا يخرج التكبر من القلوب من حيث يخضع الإنسان لأمر الله ويستجيب له وإن لم يكن المأمور به مرغوب للنفس مطلوب لها ليكون الإنسان مطيعاً مستجيباً لأمر الله وهذا القبول والرضا بما يرضى الله ويشرعه يفتح أوسع أبواب الرحمة ويكون سبباً سهلاً لعفو الله. . .

فإن الله يريد من خلال الأمر بما لا يتوافق ومشتهيات النفس أن يروض الإنسان نفسه على قبول الأمر الإلهي وتقبله لترتفع درجاته وينال فضل الله ورحمته وعفوه. . .

عود إلى التحذير

فَاللهَ ٱللهِ فِي عَاجِلِ ٱلْبَغْيِ(١)، وَآجِلِ وَخَامَةِ(٢) الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبَةِ ٱلْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ(٣) إِبْلِيسَ ٱلْعُظْمَى، وَمَكِيدَتُهُ(٤) ٱلْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ(٥) قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ ٱلسُّمُومِ(٦) ٱلْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي(٧) أَبَداً، وَلاَ تُشْوِي(٨) أَحَداً، لاَ عالِماً لِعِلْمِهِ، وَلاَ مُقِلاًّ(٩) فِي طِمْرِهِ(١٠). وَعَنْ ذلِكَ مَاحَرَسَ ٱللهُ عِبَادَهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ، وَمُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي ٱلأَيَّامِ ٱلْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِيناً لأَطْرَافِهِمْ(١١)، وَتَخْشِيعاً(١٢) لأَبْصَارِهِمْ، وَتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَاباً لِلْخُيَلاَءِ(١٣) عَنْهُمْ، وَلِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ(١٤) عِتَاقِ(١٥) ٱلْوُجُوهِ بالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، وَٱلْتِصَاقِ كَرَائِمِ(١٦) ٱلْجَوَارِحِ بِٱلأَرْضِ تَصَاغُراً(١٧)، وَلُحُوقِ ٱلْبُطُونِ بِٱلْمُتُونِ(١٨) مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلاً، مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ ٱلأَرْضِ وَغَيْرِ ذلِكَ إِلَى أَهْلِ ٱلْمَسْكَنَةِ(١٩) وَٱلْفَقْرِ.

فضائل الفرائض

ٱنْظُرُوا إِلَى مَا فِي هٰذِهِ ٱلأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ[٢٠] نَوَاجِمِ[٢١] ٱلْفَخْرِ، وَقَدْعِ[٢٢] طَوَالِعِ ٱلْكِبْرِ! وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ إِلاَّ عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ[٢٣] ٱلْجُهَلاَءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ[٢٤] بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلاَ عِلَّةٌ. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ.

اللغة

١ ـ البغي	:	الظلم، العدول عن الحق.
٢ ـ الوخيم	:	الردي.
٣ ـ المصيدة	:	آلة الصيد من الشبكة ونحوها.
٤ ـ المكيدة	:	الخديعة، الخبث والمكر.
٥ ـ تساور القلوب	:	تواثبها وتقاتلها.
٦ ـ السموم	:	مواد قاتلة مميتة.
٧ ـ أكدى الحافر	:	إذا عجز عن التأثير في الأرض.
٨ ـ أشوت الضربة	:	أخطأت المقتل.
٩ ـ المقل	:	الفقير.
١٠ ـ الطمر	:	بالكسر الثوب الخلق أو الكساء البالي من غير الصوف.
١١ ـ الأطراف	:	الأيدي والأرجل.
١٢ ـ الخشوع	:	الذل والخضوع.
١٣ ـ الخيلاء	:	الكبرياء.
١٤ ـ التعفير	:	التمريغ بالتراب.
١٥ ـ العتاق	:	من الخيل النجائب وكرايم الوجوه وحسانها.
١٦ ـ كرائم	:	جمع كريمة، النفيس الغالي.
١٧ ـ التصاغر	:	التحاقر والصغار الذل والمهانة.
١٨ ـ المتون	:	الظهور.

١٩ ـ **المسكنة** : الفقر والذل والضعف.
٢٠ ـ **القمع** : الرد، القهر.
٢١ ـ **النواجم** : جمع ناجمة ما برز وظهر وطلع.
٢٢ ـ **القدع** : المنع والكفّ.
٢٣ ـ **التمويه** : التدليس.
٢٤ ـ **تليط** : تلتصق وتختلط.

الشرح

(فالله الله في عاجل البغي وآجل وخامة الظلم وسوء عاقبة الكبر) حذرهم الإمام من الثالوث القاتل البغي والظلم والكبر هذا إذا قلنا أن البغي والظلم مختلفان بأن فسرنا البغي الفساد وتجاوز الحد وأما إذا قلنا أن المعنى فيهما واحد فيكون ثنائي مجرم الظلم والكبر وحذرهم من عاجل الظلم حيث يدمر صاحبه ويقضي عليه في الدنيا وأما في الآخرة فهو ظلمات وكذلك الكبر عاقبته ونهايته أسوأ ما يكون عذاب وعقاب...

(فإنها مصيدة إبليس العظمى ومكيدته الكبرى التى تساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة فما تكدي أبداً ولا تشوي أحداً، لا عالماً لعلمه ولا مقلاً في طمره) وعلى كل حال فإن هذه الأمور هي شراك إبليس التي يصطاد بها الرجال ووسائل خداعه العظمى التي لا تقاربها مكيدة لأن الكبر يدخل إلى العلماء والجهلاء والأغنياء والفقراء يأتي إلى كل من جهته وناحيته المبتلى بها فيحرفه عن الاستقامة وعن الصراط المستقيم ثم شبهة بالسموم فإن السم يسري في بدن الإنسان فلا يدري صاحبه إلا وهو فريسة الموت والكبر يدخل إلى الروح فيفسدها ويخربها من الداخل وكما لا يمنع السم مانع من سريانه ولا يخطىء المقاتل كذلك الكبر إذا استحكم من الإنسان فإنه يسري إلى المقاتل ولا يمكن دفعه وكما قلنا لا يخطىء العالم ولا يرحم الفقير يشمل الجميع ويعم الكل...

(وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات تسكيناً لأطرافهم وتخشيعاً لأبصارهم وتذليلاً لنفوسهم وتخفيضاً لقلوبهم وإذهاباً للخيلاء عنهم ولما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللاً مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر) ذكر عليه السلام

ثلاثة أمور بها حرس الله هذا الإنسان من الكبر والاستعلاء ذكر الصلاة والصيام والزكاة وبين أن بها يحصّن الإنسان نفسه من الكبر ويحفظها من هذه الآفه السيئة.

وقد ذكر جملة فوائدها وثمراتها.

فقال: إن هذه الواجبات فرضها تسكيناً لأطراف المؤمنين وإذا سكنت أطراف المؤمنين سكنت قلوبهم وذلّت وابتعدت عن الكبر سواء كان ذلك في الصلاة ولعله أكثر انطباقاً عليها من غيرها كما في الحديث المروي عن النبي حيث قال عندما رأى رجلاً يصلي وهو يعبث بلحيته فقال ﷺ: «أما أنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه». . .

«وتخشيعاً لأبصارهم» والأبصار إذا خشعت غضت عن الحرام ولم تعد تنظر إليه.

«وتذليلاً لنفوسهم» فإن هذه الواجبات تذلل النفوس وتروضها على الخير وينفي بها الكبر.

«وتخفيضاً لقلوبهم» فإن من صلى أو صام أو أدى زكاة ماله شعر بعظمة الله وصغر نفسه.

«وإذهاباً للخيلاء عنهم» فإن من سجد لله انتفى الكبر عنه ومن صام وجاع لله كان كذلك وهكذا من أدى قسماً من ماله زكاة لوجه الله. . .

ثم ذكر ثمرات كل من الثلاثة في نفي الكبر. . .

أما بالنسبة إلى الصلاة فإنها بما تحوي من خضوع وخشوع وما فيها من سجود وتعفير للوجوه الكريمة بالتراب تواضعاً لله فإن هذه الجبهة التي هي أشرف محل في وجه الإنسان يضعها الإنسان على الأرض في سجوده تذللاً لله وخضوعاً له وتلك الجوارح وهي المساجد السبعة يلصقها بالأرض تذللاً وخشوعاً وهذا من أهم ما يدل على التواضع بل هو التواضع في أعلى درجاته ومراتبه. . .

وأما الصوم فهل هناك أشد من أن يجوع الإنسان لله ويصوم حتى يشعر بحاجة الفقير. . يجوع لتزول شهواته المادية فيخضع لله ويذل له. . .

وأما الزكاة فإن إخراج المقدار المعين منها قربة إلى الله وإعطائه إلى الفقراء يدل على تواضعه لله وللمستحقين لهذه الزكاة وفي ذلك من التواضع ما لا يخفى حيث يشعر الفقير أن معه يداً تمتد إليه لتعينه على ضراء الحياة وبأسائها. . .

(انظروا إلى ما في الأفعال من قمع نواجم الفخر وقدع طوالع الكبر) نبههم ولفت

انظارهم إلى أن ينظروا إلى هذه الأفعال الصلاة والصيام والزكاة فإنها تقضي على ما ربما يظهر من الفخر والاعتزاز وتكف ما يطلع ويظهر في بعض الأحيان من الكبر. . ، فالإنسان المصلي الصائم المزكي بمجرد أن تتحرك في نفسه بوادر الكبر تأتي هذه الأفعال فتقضي عليها وتخنقها في مهدها فلا تظهر إلى الوجود بل تعدمها من قرارة النفوس. . .

(ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة) أراد عليه السلام في هذا المقطع أن يبين أن كل متعصب لا بد له من ذريعة يبرر بها تعصبه وهو أحد أمرين إما أن يكون هناك تلبيس وتدليس في أمر من الأمور لغرض من الأغراض الشخصية وإما لشبهة حصلت عند بعض العقول كما في شبهة الخوارج فتلتصق هذه الشبهة في أذهان العوام من الناس ويروحون وراءها يندفعون ومن أجلها يتقاتلون ولا يخلو التعصب من أحد هذين الأمرين إلا أهل العراق فإنهم يتعصبون دون مبرر مقبول وبدون علة ولا سبب معروف يمكن أن يبرر تعصبكم. . .

(أما إبليس فتعصب على آدم لأصله وطعن عليه في خلقته فقال «أنا ناري وأنت طيني) بيّن عليه السلام أحد أفراد المتعصبين وسبب تعصبهم ليرتدع الناس عن العصبية ذكر إبليس الذي تعصّب لنفسه وافتخر بأصله وقال لربه يعلل تعصبه وتكبره على آدم: «خلقتني من نار وخلقته من طين» فافتخر بالنار وذم الطين وتكبر عليه وهكذا أغلب الناس يتعصب لعشيرته ولقومه لأنه يراهم أفضل من غيرهم من الناس. . .

عصبية المال

وَأَمَا ٱلْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ[1] ٱلْأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا: «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ». فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ ٱلْخِصَالِ[2]، وَمَحَامِدِ ٱلْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ ٱلْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا ٱلْمُجَدَاءُ[3] وَالنُّجَدَاءُ[4] مِنْ بُيُوتَاتِ[5] ٱلْعَرَبِ وَيَعَاسِيبِ[6] ٱلْقَبَائِلِ؛ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّغِيبَةِ[7]، وَٱلْأَحْلَامِ[8] ٱلْعَظِيمَةِ، وَٱلْأَخْطَارِ[9] ٱلْجَلِيلَةِ،

وَٱلآثَارِ ٱلْمَحْمُودَةِ. فَتعصَّبُوا لِخِلاَلِ ٱلْحَمْدِ مِنَ ٱلْحِفْظِ لِلْجِوارِ[١٠]، وَٱلْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ[١١]، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ[١٢]، وَٱلْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَٱلأَخْذِ بِٱلْفَضْلِ[١٣]، وَٱلْكَفِّ عَنِ ٱلْبَغْيِ، وَٱلإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَٱلإِنْصَافِ[١٤] لِلْخَلْقِ، وَٱلْكَظْمِ لِلْغَيْظِ[١٥]، وَٱجْتِنَابِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلأَرْضِ. وَٱحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ ٱلْمَثُلاَتِ[١٦] بِسُوءِ ٱلأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ[١٧] ٱلأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي ٱلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ.

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ[١٨] حَالَيْهِمْ، فَٱلْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ ٱلْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَزَاحَتِ[١٩] ٱلأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ[٢٠] ٱلْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَٱنْقَادَتِ[٢١] النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ ٱلْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ ٱلاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلأُلْفَةِ[٢٢]، وَالتَّحَاضِّ[٢٣] عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا، وَٱجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ[٢٤]، وَأَوْهَنَ[٢٥] مُنَّتَهُمْ[٢٦]؛ مِنْ تَضَاغُنِ[٢٧] ٱلْقُلُوبِ، وَتَشَاحُنِ[٢٨] الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ[٢٩] النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ[٣٠] ٱلأَيْدِي. وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ[٣١] وَٱلْبَلاَءِ. أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ ٱلْخَلاَئِقِ أَعْبَاءً[٣٢]، وَأَجْهَدَ[٣٣] ٱلْعِبَادِ بَلاَءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً. ٱتَّخَذَتْهُمُ ٱلْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ[٣٤] سُوءَ ٱلْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ[٣٥] ٱلْمُرَارَ[٣٦]، فَلَمْ تَبْرَحِ ٱلْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ ٱلْهَلَكَةِ وَقَهْرِ ٱلْغَلَبَةِ، لاَ يَجِدُونَ حِيلَةً فِي ٱمْتِنَاعٍ، وَلاَ سَبِيلاً إِلَى دِفَاعٍ. حَتَّى إِذَا رَأَى ٱللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ[٣٧] الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى ٱلأَذَى[٣٨] فِي مَحَبَّتِهِ، وَٱلاحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ[٣٩] ٱلْبَلاَءِ فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ ٱلْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَٱلأَمْنَ مَكَانَ ٱلْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً، وَأَئِمَّةً أَعْلاَماً، وَقَدْ بَلَغَتِ ٱلْكَرَامَةُ مِنَ ٱللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ ٱلآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ ٱلأَمْلاَءُ(٤٠) مُجْتَمِعَةً، وَٱلأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً(٤١)، وَٱلْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَٱلأَيْدِي مُتَرَادِفَةً(٤٢)، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَٱلْبَصَائِرُ(٤٣) نَافِذَةً(٤٤)، وَٱلْعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً(٤٥) فِي أَقْطَارِ ٱلأَرَضِينَ، وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ ٱلْعَالَمِينَ! فَٱنْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ ٱلْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتَتِ ٱلأُلْفَةُ، وَٱخْتَلَفَتِ ٱلْكَلِمَةُ وَٱلأَفْئِدَةُ، وَتَشَعَّبُوا(٤٦) مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ ٱللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ(٤٧)، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ.

اللغة

١ ـ المترف : المتنعّم، الموسع له في النعم يتمتع بما يشاء من الملذات وأترفه المال أفسده.

٢ ـ الخصال : جمع خصلة الخلة فضيلة كانت أم رذيلة.

٣ ـ المجداء : جمع مجيد هو الرفيع العالي والكريم الشريف الفعال.

٤ ـ النجداء : جمع نجيد الشجاع الماضي فيما يعجز غيره.

٥ ـ البيوتات : جمع الجمع لبيوت وهو جمع بيت، المسكن.

٦ ـ يعاسيب : جمع يعسوب وهو في الأصل ذكر النحل وأميرها وهنا يراد بهم الرؤوساء.

٧ ـ الرغيبة : المرغوبة المرضية.

٨ ـ الأحلام : العقول.

٩ ـ الأخطار : جمع خطر بالتحريك المنزلة والقدر.

١٠ ـ الجوار : بكسر الجيم المجاورة أن تعطي الرجل ذمة فيكون بها جارك فتجيره فلا يظلم.

١١ ـ الذمام : العهد.

١٢ ـ البر : العطية، والصدق، الصلاح.

١٣ ـ الفضل : الإحسان أو الابتداء به بلا علة له.

١٤ ـ الإنصاف : العدل.

١٥ ـ كظم الغيظ : حبس الغضب ورده.

١٦ ـ المثلات : العقوبات.
١٧ ـ الذميم : ضد الممدوح.
١٨ ـ تفاوت : اختلاف.
١٩ ـ زاحت : بعدت.
٢٠ ـ مدت : انبسطت.
٢١ ـ انقادت : أطاعت.
٢٢ ـ الإلفة : الصداقة والمؤانسة.
٢٣ ـ حضّه : حثه والتحاض التحاث، الحث من الطرفين.
٢٤ ـ الفقرة : بكسر الفاء الواحدة من خرزات الظهر.
٢٥ ـ أوهن : أضعف.
٢٦ ـ المنة : بالضم القوة.
٢٧ ـ الضغن : الحقد والتضاغن التحاقد.
٢٨ ـ التشاحن : التعادي.
٢٩ ـ التدابر : التقاطع.
٣٠ ـ التخاذل : عدم التناصر.
٣١ ـ التمحيص : الابتلاء والاختبار.
٣٢ ـ الأعباء : الأثقال.
٣٣ ـ أجهد : أشق.
٣٤ ـ ساموهم : كلّفوهم.
٣٥ ـ جرعوهم : من جرع الماء إذا ابتلعه مرّة تجرع الماء شربه شيئاً فشيء
٣٦ ـ المرار : بالضم شجر مرّ إذا أكلت منه الإبل قلصت مشافرها.
٣٧ ـ الجد : بالكسر، الاجتهاد، ضد الهزل.
٣٨ ـ الأذى : الضرر وقيل اليسير منه.
٣٩ ـ المضايق : جمع مضيق ما ضاق من الأماكن والأمور أي لم يتسع.
٤٠ ـ الإملاء : جمع ملأ الجماعة والقوم.
٤١ ـ مؤتلفة : متفقة.
٤٢ ـ مترادفة : متعاونة.
٤٣ ـ البصائر : جمع بصيرة العقل، الفطنة.
٤٤ ـ نافذة : ماضية وقاضية.
٤٥ ـ أرباباً : سادات.
٤٦ ـ تشعبوا : تفرّقوا.
٤٧ ـ غضارة النعمة : سعتها وطيبها.

الشرح

(وأما الأغنياء من مترفة الأمم فتعصبوا لآثار مواقع النعم فقالوا: «نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين») المترفون قوم أعطاهم الله من فضله فبدل أن يشكروا النعمة كفروها وأفسدوها وخرجوا عن حدود الله، ولم نجد مترفاً يلتفت إلى الله إلا بمقدار ما يخدمه ويوفر له من منافع، فهؤلاء نظروا إلى المال والأولاد وهي مواقع النعم فتركت هذه في نفوسهم آثاراً سيئة قبيحة وهي البطر والغنى والخروج عن المرسوم فراحوا يتعالون على الناس ويقولون: «نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين» نحن أكثر أموالاً وأولاداً لكرامتنا عند الله وقربنا منه وهو لن يعذبنا أبداً... لقد راحوا يرسمون لأنفسهم بأنفسهم طرق النجاة ويذهبون إلى أن مجرد وجود الأموال بأيديهم أو الأولاد عندهم هو كرامة لهم ولم ينظروا إلى أن الكرامة هي أن تقع الأموال موقعها... والأولاد أن تربيهم وتؤدبهم وتهذبهم وتحملهم على طاعة الله... إنهم أغبياء في دعواهم... وأغبياء فيما يكون خلفها وما تتركه عليهم من آثار سيئة...

(فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل بالأخلاق الرغيبة والأحلام العظيمة والأخطار الجليلة والآثار المحمودة) بعد أن نهاهم عن العصبية البغيضة المحرمة التي لا مبرر لها كاللون والجنس أراد أن يفتح لهم باباً يتعصبون له وهو محمود مقبول بل مطلوب فأشار عليهم أنهم إذا أرادوا أن يتعصبوا فليتعصبوا لمكارم الأخلاق كالوفاء بالعهد وحسن الجوار ولمحامد الأفعال كالكرم والإحسان والبر ومحاسن الأمور كالعدل ورفع الضيم والإيمان فإن هذه الأمور هي التي كان يتنافس فيها أهل المجد والشرف وأهل الفروسية والشجاعة من البيوت العريقة والرؤوساء الذين تولوا أمور الرعية وقادوها إلى الخير.

إنهم كانوا يتسابقون في الأخلاق الطيبة المرغوبة كالإباء والشمم والعفو والصفح والكرم والعقول الراجحة التي كانوا يسيّرون بها رعيتهم فكان الرئيس هو العقل المدبر لمصالح قبيلته، كما كانت لهم أقدار جليلة يحفظونها أي مقامات عالية وكذلك كانت لهم آثار محمودة خلدتهم كالوفاء للسموؤل والكرم لحاتم والبيان لسحبان وهكذا دواليك فإذا كان لا بد من تعصب لشيء فليتعصب الإنسان لهذه الخصال الكريمة...

(فتعصبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبر والمعصية للكبر والأخذ بالفضل والكف عن البغي والإعظام للقتل والإنصاف للخلق والكظم للغيظ

واجتناب الفساد في الأرض) بعد أن أعطاهم القاعدة الكلية للعصبية المطلوبة والمرغوبة أخذ في سرد بعض تلك المفردات المحببة وأن من أراد التعصب فليتعصب لهذه المصاديق وهي:

١ ـ حفظ الجوار: بأن يكون الجار حافظاً لجاره يأبى ويرفض أذيته أو إلحاق الضرر به، ومن أراد به سوءاً دفعه عنه وقاتل معه. . .

٢ ـ الوفاء بالذمام: إذا أعطى عهداً قام به ووفى بمضمونه مهما كانت الصعوبات بل من أجله يبذل كل عزيز وقد كان السمؤول مضرب المثل في هذا المضمار.

٣ ـ الطاعة للبر: أن يكون متعصباً لأعمال الخير والصلاح ويخدم كل من يفعل شيئاً منه ويدافع عنه. . .

٤ ـ المعصية للكبر: أن يتعصب ضد التكبر فيحارب المتكبرين كما يحارب الكبر في قلبه.

٥ ـ الأخذ بالفضل: أن يتعصب الإنسان للخير ابتداء بأن يكون كريماً عن سجية.

٦ ـ الكف عن البغي: أن يكون محافظاً على رفع الظلم وإقامة العدل ومن تعصب لذلك كان محموداً.

٧ ـ الإعظام للقتل: أن يرى القتل أمراً عظيماً لا يجيزه ولا يسمح به بل يحارب القتلة والمجرمين ومن تعصب لذلك كان تعصبه محموداً وعليه مشكوراً.

٨ ـ الإنصاف للخلق: أن يعدل معهم وينصف بينهم وبين نفسه وفيما بين بعضهم البعض كما قال النبي (ص): «سيد الأعمال إنصاف الناس من نفسك ومواساة الأخ في الله وذكر الله على كل حال».

٩ ـ الكظم للغيظ: بأن يتعصب لهذه الخلة الكريمة التي ترادف الحلم والصبر على الأذى.

فقد قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من عبد كظم الغيظ إلا زاده الله عز وجل عزاً في الدنيا والآخرة.

١٠ ـ اجتناب الفساد في الأرض: أن يبتعد عما يضر بالمجتمع على كل المستويات فالفساد في الأرض كالتجسس وإشاعة الفوضى وسلب الأموال والاعتداء على الأعراض وهكذا فإن من اجتنب ذلك كان من أهل الجنة كما قال تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة

نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين. . . ﴾.

(واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال فتذكروا في الخير والشر أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم) لما أمرهم بالأخذ بمكارم الخصال حذّرهم قبائح الأفعال والخلال ونفرّهم عنها بذكر مَنْ عَمِلَ بها من الأمم السابقة فأنزل الله بهم العقوبات لقبائح هذه الأفعال ومعايب هذه الأعمال. . .

ثم أمرهم أن ينظروا كلتا حالتيهم في الخير والشر ويتذكروهما معاً ليعتبروا ويتعظوا وحذرهم أن يكونوا مثلهم من حيث أخذوا حالة الشر فأخذهم الله بذنوبهم فأبادهم وقضى عليهم. . .

(فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم وزاحت الأعداء له عنهم ومدت العافية به عليهم وانقادت النعمة له معهم ووصلت الكرامة عليه حبلهم من الاجتناب للفرقة واللزوم للألفة والتحاض عليها والتواصي بها) إذا نظرتم وبحثتم في حالتي من تقدمكم: في حالة الخير وحالة الشر وكيف أنهم في حالة الخير استطاعوا تحقيق عزتهم وكرامتهم وكيف أنهم في حالة الشر سقطوا وفقدوا وجودهم، إذا رأيتم الحالتين ووجدتم التفاوت والاختلاف بينهما فانظروا إلى كل أمر أوجب عزتهم ومنعتهم وقوتهم فالزموه واقبلوا به واعملوا بمضمونه وعضوا عليه بالنواجذ. . . انظروا إلى كل أمر انهزمت أعداؤهم منهم به فأقبلوا عليه. . .

وانظروا إلى كل أمر دفعوا به الأعداء وكفوا الأذى عنهم فاعملوا به وكذلك كل أمر ينزل عليهم نعم الله فاقبلوه واعملوا به. . .

انظروا إلى كل أمر جعل الله لهم فيه كرامتهم واجتماع شملهم ووحدة كلمتهم فاعملوا به. . .

ثم بعد ذكر هذه الأمور ذكر الأمور التي بها عزهم وسؤددهم ورفاهيتهم وسلطتهم.

إنه الاجتناب للفرقة: أن يتركوا الفرقة فيما بينهم ويهجروها فإنها أقوى الأسلحة وأمضاها وأعظمها وأشدها فما اجتمعت أمة إلا وحققت لنفسها النصر والعزة قال تعالى: **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا. . . ﴾** دعوة إلهية للوحدة ونبذ الفرقة.

كما أمرهم أن يحضّ بعضهم بعضاً على الألفة ويدفع بعضهم بعضاً للتواصي بها بأن يوصي بعضهم بعضاً بالألفة والاجتماع وعدم الفرقة. . .

(واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم وأوهن منتهم من تضاغن القلوب وتشاحن الصدور

وتدابر النفوس وتخاذل الأيدي) بعد أن أمرهم بالألفة أراد أن ينهاهم عن الفرقة وعواملها وما يسببها فقال لهم: اجتنبوا وابتعدوا عن كل أمر يهزمكم ويكسر وجودكم ويقضي عليكم. . . كل أمر يوهنكم ويحطمكم فاجتنبوا عنه وذكر بعض المفردات الموجبة لذلك وأهمها الأحقاد التي تعيش في الصدور والقلوب فإنها تُشتت الجمع وتوزع الأهل فمن عاش الحقد عاش الشر وسار في طريق الفرقة.

وكذلك من يقف من أخيه موقف العداء فإن هذه النفوس إذا تعادت افترقت وتمزقت.

وكذلك عدم تكاتف الأيدي بل إذا تخاذلت الأيدي عن نصرة بعضها البعض سقطت وماتت وسهل القضاء عليها وأي مجتمع يعيش التفكك والانحلال لا يكتب له النجاح ولا النصر. . .

(وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء. ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء وأجهد العباد بلاء وأضيق أهل الدنيا حالاً) انظروا في أحوال من مضى من المؤمنين قبلكم وكيف كانت أحوالهم مع طغاة عصرهم وفراعنة مصرهم، لقد كانوا في أصعب حالات الابتلاء والاختبار وأشدها عسراً وصعوبة.

ألم يكونوا يحملون أثقل الأحمال وهو حمل مناصرة الحق والدفاع عنه وعن الأنبياء وهو حمل ثقيل يواجهون به الطواغيت والحكام الظلمة وكانوا مع ذلك ضعفاء لا يملكون قوة ولا سلطاناً وكانوا في شدة شديدة وبلاء. . .

(اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب وجرعوهم المرار فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع) وهذه واحدة من شدة الابتلاء وسوء الحال حيث اتخذتهم الفراعنة وهم الحكام والطغاة عبيداً لهم يمارسون عليهم سوء العذاب ويسقونهم المرارات وهي أنواع البلاء وأصنافه وفنونه كما قال تعالى في مقام المنة عليهم: **﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم. . .﴾**.

وهكذا استمرت حالهم في ذل وقهر وغلبة يحاولون في كل مرة أن يتخلصوا ولكنهم يعجزون وكلما أرادوا الدفاع عن أنفسهم والخروج من الضيق والعذاب الذي يعيشونه فلا يستطيعون ولا يقدرون ولكنهم كانوا يحاولون التخلص ويعملون له وبقوا على ذلك إلى أن جاءهم نصر من الله. . .

(حتى إذا رأى الله سبحانه جد الصبر منهم على الأذى في محبته والاحتمال للمكروه

من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً فأبدلهم العز مكان الذل والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكاً حكاماً وأئمة أعلاماً وقد بلغت الكرامة من الله لهم ما لم تذهب الآمال إليه بهم) بقي المستضعفون تحت حكم الجبابرة والطواغيت ولكنهم كانوا يتمردون على حكمهم ويثورون في وجوههم وبقوا كذلك حتى علم الله صدق إيمانهم وصبرهم على الأذى في جنبه ومن أجله وفي محبته ووقف سبحانه على أنهم يتحملون مكروه الدنيا خوفاً من مكروه الآخرة فجعل لهم من هذه الأزمات والمضايق فرجاً فتدخل سبحانه لإنقاذهم وإخراجهم من أيدي الظالمين فتبدلت أحوالهم وتغير شأنهم فأبدلهم الله العز مكان الذل القديم والأمن والاطمئنان مكان الخوف القديم فصاروا ملوكاً حكاماً بعد كونهم عبيداً مملوكين وجعلهم الله أيضاً أئمة يقتدي بهم الناس لعظمتهم بعد أن كانوا تابعين، فآمالهم التي كانوا يأملونها لم تبلغ بهم الحقيقة التي وصلوا إليها الآن، بل الحقيقة أكبر مما كانوا يأملون وكذلك قال تعالى: ﴿**ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكّن لهم في الأرض**. . .﴾.

(فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة والأهواء مؤتلفة والقلوب معتدلة والأيدي مترادفة والسيوف متناصرة والبصائر نافذة والعزائم واحدة) لفت أنظار المخاطبين وحثهم أن ينظروا كيف حقق الضعفاء أعلى المنازل وأسمى المراتب؟ كيف حطموا القيود وفتحوا السدود. . . كيف صاروا حكاماً وقادة؟ لقد حققوا كل ذلك عندما كان الزعماء والوجهاء وأهل الحل والعقد على اتفاق كلمة ووحدة هدف. . . عندما كانت أهواء الجميع متفقة مؤتلفة كلها تريد الله وترغب فيما عنده وتريد تحطيم الطاغوت ورفع مظالمه. . .

عندما كانت القلوب معتدلة في طريق الخير تتوجه إلى الله بدون ظلم والأيدي كلها متعاونة يسند بعضها البعض ويعين بعضها البعض.

عندما كانت السيوف متناصرة تُشهر كلها نحو رفع الظلم والاضطهاد.

عندما كانت العقول والفطن واعية تعرف كيف تتحرك ومن أجل أي هدف تتحرك.

عندما كانت أحوالهم بهذا الشكل المتقدم كان النصر لهم وتولوا إسقاط الطواغيت وجلسوا على كراسي الحكم وبلغوا درجة الإمامة ومرتبة القيادة. . .

(ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين) إنهم بذلك الجهاد وباجتماعهم ووحدة كلمتهم تربعوا على كراسي الحكم وحكموا العباد والبلاد.

(فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة وتشتتت الألفة

واختلفت الكلمة والأفئدة وتشعبوا مختلفين وتفرقوا متحاربين قد خلع الله عنهم لباس كرامته وسلبهم غضارة نعمته وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين) أراد أن ينبههم عليه السلام إلى خطر الفرقة وتشتت الكلمة فضرب لهم مثلاً أولئك الذين تقدموا كيف انتصروا بوحدة كلمتهم واجتماعهم وتعاونهم حتى بلغوا مرتبة القيادة وأصبحوا حكاماً وكيف أنهم بعد تلك المرتبة العالية تهاووا وسقطوا وزال الملك عنهم وعادوا سوقة بل مضطهدين مشتتين موزعين. . .

إنهم في آخر أمورهم بلغوا الحضيض وتجرعوا الذل. . . إنهم افترقوا وتمزقوا واختلفت كلمتهم وقلوبهم وراح كل فريق يتناحر مع الفريق الآخر بل سُلت السيوف فيما بينهم ووقعت الحرب على رؤوسهم وعندها نزع الله عنهم ما كان ألبسهم إياه من الحكم والقيادة والعزة والمنعة وسلبهم تلك النعمة العظيمة الكريمة وأبدلهم بها خشونة العيش وقساوته ولم يبق منهم إلا قصصهم تروى لكم للعبرة والعظة حتى تجتنبوا موارد الفرقة وعوامل الفساد التي حلت بهم. . . إنهم عبرة ودرس يستفيد منها العاقل اللبيب. . .

الاعتبار بالأمم

فَٱعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. فَمَا أَشَدَّ ٱعْتِدَالَ(١) ٱلأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَ ٱشْتِبَاهَ(٢) ٱلأَمْثَالِ!.

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِيَ كَانَتِ الأَكَاسِرَةُ(٣) وَٱلْقَيَاصِرَةُ(٤) أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ(٥) عَنْ رِيفِ(٦) ٱلآفَاقِ(٧)، وَبَحْرِ ٱلْعِرَاقِ(٨)، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ(٩)، وَمَهَافِي(١٠) الرِّيحِ، وَنَكَدِ(١١) ٱلْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً(١٢) مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ(١٣) وَوَبَرٍ(١٤)، أَذَلَّ ٱلأُمَمِ دَاراً، وَأَجْدَبَهُمْ(١٥) قَرَاراً، لَا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا. فَٱلأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَٱلأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ،

وَٱلْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلاَءِ أَزْلٍ[١٦]، وَأَطْبَاقِ[١٧] جَهْلٍ! مِنْ بَنَاتٍ مَوْؤُودَةٍ[١٨]، وَأَصْنَامٍ[١٩] مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ[٢٠].

النعمة برسول الله

فَٱنْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ ٱللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ[٢١] طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ: كَيْفَ نَشَرَتِ[٢٢] النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ[٢٣] نَعِيمِهَا، وَٱلْتَفَّتِ ٱلْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ[٢٤] بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ[٢٥]، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ[٢٦]. قَدْ تَرَبَّعَتِ[٢٧] ٱلأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ، وَآوَتْهُمُ[٢٨] ٱلْحَالُ إِلَى كَنَفِ[٢٩] عِزٍّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ[٣٠] ٱلأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى[٣١] مُلْكٍ ثَابِتٍ، فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ ٱلأَرَضِينَ، يَمْلِكُونَ ٱلأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ ٱلأَحْكَامَ[٣٢] فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ! لاَ تُغْمَزُ[٣٣] لَهُمْ قَنَاةٌ[٣٤]، وَلاَ تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ[٣٥]!.

اللغة

١ ـ الاعتدال : التناسب.
٢ ـ الاشتباه : التشابه.
٣ ـ الأكاسرة : جمع كسرى لقب ملك الفرس.
٤ ـ القياصرة : جمع قيصر لقب ملك الروم.
٥ ـ يحتازونهم : يقبضونهم.
٦ ـ الريف : بكسر الراء أرض فيها زرع وخصب وماء.
٧ ـ الآفاق : جمع أفق الناحية.
٨ ـ بحر العراق : دجلة والفرات.
٩ ـ الشيح : بالكسر نوع من النبات معروف.
١٠ ـ مهافي : الريح المواضع التي تهب فيها.

١١ ـ نكد المعاش : ضيقه وقلته.
١٢ ـ عالة : جمع عائل وهو ذو العيلة أي الفقر.
١٣ ـ الدبر : بفتح الباء الجرح في ظهر البعير.
١٤ ـ الوبر : شعر الجمال.
١٥ ـ أجدبهم : من الجدب وهو القحط.
١٦ ـ الأزل : الشدة والضيق.
١٧ ـ أطباق : مفرده طبق، الغطاء والدهر أطباق أي أحوال تختلف..
١٨ ـ الموؤودة : البنت تدفن في التراب وهي حيّة.
١٩ ـ أصنام : جمع صنم ما يعبده الوثنيون من صوره أو تمثال/ كل ما عبد من دون الله.
٢٠ ـ شنّ الغارات : فرقها ووجهها من كل جانب.
٢١ ـ الملة : الشريعة، الدين، الطريقة.
٢٢ ـ نشرت : بسطت ونشر الخبر أذاعه والشيء فرّقه.
٢٣ ـ جداول : مفردها جدول. نهر صغير.
٢٤ ـ العوائد : ما يعود على الناس بالخيرات والنعم.
٢٥ ـ غرق : في الماء غار فيه ورسب.
٢٦ ـ فكهين : راضين.
٢٧ ـ تربّعت : أقامت.
٢٨ ـ آوتهم : من آوى إلى البيت إذا نزل فيه.
٢٩ ـ الكنف : الجانب وكنف الإنسان حضنه.
٣٠ ـ تعطفّت : عليه إذا أشفق عليه والتفت إليه بإحسانه.
٣١ ـ الذرى : جمع ذروة وهو أعلى كل شيء.
٣٢ ـ أمضى الحكم : أنفذه، أجازه.
٣٣ ـ الغمز : العصر والكبس باليد.
٣٤ ـ القناة : الرمح.
٣٥ ـ الصفاة : الحجر الأملس الصلد وقرعها هو صدمها لتكسر.

الشرح

(فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السلام فما أشد اعتدال الأحوال وأقرب اشتباه الأمثال) خذوا العظة والعبرة والدروس المفيدة النافعة من

ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل أولاد الخليل إبراهيم فإن أحوالكم تعادل أحوالهم وأنتم أقرب إليهم شبهاً ومثلاً فإنهم كانوا مجتمعين متفقين في أول أمرهم ثم أصابهم التشتت والتفرق وأشار إلى وجه العبرة بقوله عليه السلام:

(تأملوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرقهم ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا إلى منابت الشيح ومهافي الريح ونكد المعاش) انظروا في أمرهم وما صاروا إليه عندما توزعوا وتفرقوا ولم تجتمع كلمتهم أو تتوحد صفوفهم، لقد صارت أكاسرة الفرس وقياصرة الروم هي المالكة لأمورهم والمتصرفة في شوؤنهم يمارسون عليهم الحرمان ويمنعونهم حقوقهم (إنهم) يدفعونهم عن منافعهم وما يوفر لهم طيب العيش ورغد الحياة.. ويمنعونهم عن خصب الأرض وخضرتها وعن الاستفادة من ماء العراق الذي يحوياه دجلة والفرات وعن لذة الدنيا وطيباتها.. إنهم أضحوا يدفعونهم إلى الصحراء القاحلة التي ليس فيها إلا الشيح الذي لا تأكله إلا الحيوانات وحيث الريح التي تهب فتلفح الوجوه بقساوتها.. إنها الصحراء بضيقها وبخلها وقلة عطائها قد قذفوهم إليها...

(فتركوهم عالة مساكين إخوان دبر ووبر أذل الأمم داراً وأجدبهم قراراً لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها) تركوهم دراويش مساكين لا يملكون شيئاً من الدنيا.. إنهم في ضيق عيش شديد ليس لهم إلا جمال مقروحة مهزولة يتعيشون بها وبوبرها وهي حالة البائسين الذين لا يملكون النعم السمينة...

ووصف دارهم بأنها أذل دار الأمم حيث كانت تتناوشهم الأمم المجاورة لهم وتقصد غزوهم وتشن عليهم الحروب.

كما أن هذه الدار جرداء قاحلة جدباء ليس فيها إلا بعض الأعشاب التي تجود بها هذه الصحراء إن جاءت عليها السماء بقطرها ومطرها.

ثم بيّن أنهم ليس لهم دعوة إذا دعوا بها اعتزوا وانتصروا وقدروا بها على الامتناع من الشر والإثم كما أنهم لا يملكون الوحدة الجامعة التي يعتمدون عليها في مواجهة الغزاة والمحتلين ومن يقصدهم بشر؛ ليس لهم هذه الوحدة التي يعتزون بها ويستريحون إلى ظلها.

(فالأحوال مضطربة والأيدي مختلفة والكثرة متفرقة في بلاء أزل وأطباق جهل من بنات موؤودة وأصنام معبودة وأرحام مقطوعة وغارات مشنونة) هذا بيان لحالهم يومذاك وكونهم على غير نظام فشوؤنهم مضطربة لا استقرار فيها ولا ثبات لم يجتمعوا على رأي

واحد ولم يتفقوا على قضية وهم بعد ذلك على كثرتهم متفرقون متشتتون في بلاء شديد وضيق مع جهل متراكم مركب عميق أو جهل عام في كل الجهات وعلى كل المستويات. . .

ثم فصّل بعض ذلك فأشار إلى عادات قبيحة سيئة أولها: بنات موؤودة: حيث كان العرب ـ أو بعضهم على الأقل ـ يدفنون بناتهم وهن أحياء خوف العار قال تعالى ذاماً لهم: **﴿وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنبٍ قتلت﴾** فهي تقتل بدون ذنب وكانوا يفتخرون ويقولون «نعم الصهر القبر». . .

وثانيها: وأصنام معبودة: فقد كان العرب عموماً يعبدون الأصنام ومن أصنامهم اللات والعزة ومناة وغيرها. . .

وثالثها: وأرحام مقطوعة: فلا صلة بين القرابة. . انقطعت صلة الأخ باخيه والأب بابنه وهكذا. . .

ورابعها: وغارات مشنونة: أي غارات مصبوبة موزعة من كل الجهات وقد كانت الغارات تشن للسلب والنهب والقتل، وقد كان العرب يشنونها ليثبتوا قوتهم ويجعلوا في قلوب الآخرين هيبة لهم وخوفاً منهم.

(فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاً فعقد بملته طاعتهم وجمع على دعوته الفتهم: كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها وأسالت لهم جداول نعيمها والتفّت الملة بهم في عوائد بركتها فاصبحوا في نعمتها غرقين وفي خضرة عيشها فكهين) بعد أن ذكر سابقاً سوء أحوالهم وما كانوا فيه من ضيق وبلاء وجهل وعناء ذكر هنا نعمة الإسلام وكيف تغيرت الأحوال ببركة النبي وبعثته. . .

فانظروا بقلوبكم وفكروا بعقولكم إلى ما كنتم عليه من حيث كل أمرء منكم كان يعبد هواه ويتبع مشتهاه في فرقة واختلاف لا يجمعه مع أخيه الإنسان جامع ولا يوحده موحّد فأنعم الله عليكم ببعثة رسول الله فجعلكم في طاعة الدين والشريعة يداً واحدة وألفّ بينكم بدعوته المباركة فاصبحتم بنعمته إخواناً لقد وحدّ الإسلام ما كان متفرقاً وجمع ما كان متشتتاً وهذه أعظم النعم التي أنعم الله بها على هذا الإنسان. . .

ثم أشار إلى تفصيل تلك النعم في ذكر بعض مصاديقها فأولها: أن النعمة نشرت عليهم جناح كرامتها وأسالت لكم جداول نعيمها. . .

الإسلام أعظم نعمة أنعم الله بها على المسلمين وقد نشر الإسلام ظله على رؤوس

المسلمين وانتشر في قلوبهم فجعلهم أعزة أقوياء **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾** ببركة الإسلام فُتحت الدنيا على المسلم وقد تحول هذا الإنسان إلى مسلم له كرامته وعزته وانفتحت له بلاد الله الواسعة بلاد فارس وبلاد الروم وجاءت الدنيا تحمل إليه كل خيراتها وعطائها وما فيها. . إنها بركة الإسلام والإيمان. . .

ثانيها: التفت الملة بهم في عوائد بركتها فاصبحوا في نعمتها غرقين وفي خضرة عيشها فكهين.

فهذا الدين ببركاته وخيراته ومنافعه قد جمعهم ووحدهم والتف بكل ذلك حولهم وشملهم من جميع جوانبهم فأصبحوا بعد الحرمان والشدة وضيق الحال في بحبوحة من العيش ورغد وكرامة قد أحاطت بهم النعمة وشملتهم في سائر أمورهم المادية والمعنوية في نشوة من ذلك النعيم مسرورين فرحين. . .

(**قد تربعت الأمور بهم في ظل سلطان قاهر**) استقرت أمورهم فلا فوضى ولا اضطراب ولا خلل في أمر من أمور معاشهم أو معادهم في ظل السلطة الإسلامية القوية التي تردع العدو وترد الضال وتهدي التائه. . فالأمور كلها مستقيمة معتدلة بهم في ظل الإسلام وحكمه.

(**وآوتهم الحال إلى كنف عز غالب**) أدخلتهم استقامة حالهم وانضباطهم والتزامهم الصحيح إلى حجر العز الذي لا يضام بل الغالب الذي لا يقهر ولا يرام. . .

(**وتعطفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت فهم حكام على العالمين وملوك في أطراف الأرضين يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم لا تغمز لهم قناة ولا تقرع لهم صفاة**) أقبلت الدنيا عليهم من كل جانب وجاءت إليهم حتى ألقت بزمامها بين أيديهم فجعلتهم ملوكاً وحكاماً ملكهم ثابت مستقر لا يضطرب ولا يتزلزل. .

فهم حكام على جميع الناس وملوك في كل الأرض، فهم حكام البلاد والعباد قد حطموا عروش الفرس والروم ودخلوا أرض الدولتين ونفذوا الأحكام الإسلامية على أهلهما بعد أن كان كل منهما ينفذ حكمه عليهم. . .

إنهم بعد أن كانوا سوقة تجري عليهم أحكام غيرهم وأعرافهم أصبحوا ملوكاً يجرون أحكام الإسلام على غيرهم. . .

ثم أشار إلى عزتهم وقوتهم. . فهم أعزاء لا يقترب من ساحتهم أحد ولا يطمع في

جانبهم قوي وقالوا: أن قوله عليه السلام: لا تغمز لهم قناة كناية عن العزيز الذي لا يضام وقوله: لا تقرع لهم صفاة مثل يضرب لمن لا يطمع في جانبه لعزته وقوته...

لوم العصاة

أَلاَ وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ(١) أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَثَلَمْتُمْ(٢) حِصْنَ(٣) ٱللهِ ٱلْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ. فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ ٱمْتَنَ(٤) عَلَى جَمَاعَةِ هذِهِ ٱلْأُمَّةِ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هذِهِ ٱلْأُلْفَةِ ٱلَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ(٥) إِلَى كَنَفِهَا(٦)، بِنِعْمَةٍ لاَ يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً، لأَنَّهَا أَرْجَحُ(٧) مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ(٨) مِنْ كُلِّ خَطَرٍ(٩).

وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ ٱلْهِجْرَةِ أَعْرَاباً(١٠)، وَبَعْدَ ٱلْمُوَالاَةِ(١١) أَحْزَاباً. مَا تَتَعَلَّقُونَ(١٢) مِنَ ٱلإِسْلاَمِ إِلاَّ بِٱسْمِهِ، وَلاَ تَعْرِفُونَ مِنَ ٱلإِيمَانِ إِلاَّ رَسْمَهُ.

تَقُولُونَ: النَّارَ وَلاَ ٱلْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا(١٣) ٱلإِسْلاَمَ عَلَى وَجْهِهِ ٱنْتِهَاكاً(١٤) لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضاً(١٥) لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ ٱللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ، وَأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ. وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ(١٦) إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ ٱلْكُفْرِ، ثُمَّ لاَ جَبْرَائِيلُ وَلاَ مِيكَائِيلُ وَلاَ مُهَاجِرُونَ وَلاَ أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ إِلاَّ ٱلْمُقَارَعَةَ(١٧) بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ ٱللهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْدَكُمُ ٱلأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ ٱللهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ(١٨)، فَلاَ تَسْتَبْطِئُوا(١٩) وَعِيدَهُ(٢٠) جَهْلاً بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُناً(٢١) بِبَطْشِهِ(٢٢)، وَيَأْساً(٢٣) مِنْ

بَأْسِهِ. فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ ٱلْقَرْنَ ٱلْمَاضِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلاَّ لِتَرْكِهِمُ ٱلأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ ٱللهُ ٱلسُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ ٱلْمَعَاصِي وَٱلْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ ٱلتَّنَاهِي!.

أَلاَ وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ ٱلإِسْلاَمِ، وَعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ. أَلاَ وَقَدْ أَمَرَنِي ٱللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ(٢٤) وَٱلنَّكْثِ(٢٥) وَٱلْفَسَادِ فِي ٱلأَرْضِ، فَأَمَّا ٱلنَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ(٢٦) فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا ٱلْمَارِقَةُ(٢٧) فَقَدْ دَوَّخْتُ(٢٨)، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ(٢٩) فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ(٣٠) سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ(٣١) قَلْبِهِ وَرَجَّةُ(٣٢) صَدْرِهِ، وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ. وَلَئِنْ أَذِنَ ٱللهُ فِي ٱلْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلاَّ مَا يَتَشَذَّرُ(٣٣) فِي أَطْرَافِ ٱلْبِلاَدِ تَشَذُّراً!.

اللغة

١ ـ نفض يده من الأمر : تركه وهجره.
٢ ـ ثلمتم : خرقتم.
٣ ـ الحصن : المكان المحمي المنيع.
٤ ـ إمتن عليه بكذا : أنعم عليه به.
٥ ـ يأوون : يلجؤون.
٦ ـ الكنف : الجانب والناحية.
٧ ـ أرجح : من رجح الميزان إذا مال والرأي غلب على غيره.
٨ ـ أجل : أعظم.
٩ ـ الخطر : المنزلة والقدر، الشيء الذي يتراهن عليه.
١٠ ـ الأعراب : سكان البادية،الذين لم يتفقهوا ولم يتعلموا.
١١ ـ الموالاة : المحبة.
١٢ ـ تعلّق بالشيء : تمسك به.
١٣ ـ أكفأت الإناء وكفأته قلبته لوجهه، كببته.
١٤ ـ انتهاك الحرمة : أخذها بما لا يحلّ.
١٥ ـ نقض : البناء هدمه والحبل حله والعهد أو الأمر أفسده بعد إحكامه.

١٦ ـ لجأ : إلى الحصن لاذ إليه واعتصم به.
١٧ ـ المقارعة : المضاربة.
١٨ ـ الوقائع : النوازل ووقائع العرب أيام حروبهم.
١٩ ـ تستبطئوا : تستأخروا.
٢٠ ـ الوعيد : الوعد بالشر.
٢١ ـ التهاون : الاستخفاف، الاستهزاء والاستحقار.
٢٢ ـ البطش : الأخذ بالعنف والقوة.
٢٣ ـ البأس : الشدة.
٢٤ ـ البغي : الظلم.
٢٥ ـ النكث : نقض العهد والناكثون هم الذين بايعوا الإمام ثم نقضوا البيعة.
٢٦ ـ القاسطون : الجائرون عن الحق.
٢٧ ـ المارقة : الذين مرقوا من الدين أي خرجوا منه.
٢٨ ـ دوّخهم : ذلّلهم وأضعفهم.
٢٩ ـ الردهة : بالفتح الحفرة في الجبل يجتمع فيها الماء.
٣٠ ـ صعق صعقاً : غشي عليه.
٣١ ـ الوجبة : وزان تمرة اضطراب القلب.
٣٢ ـ الرجة : الحركة والزلزلة.
٣٣ ـ تشذّر : تبدّد وتفرّق.

الشرح

(ألا وإنكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة وثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية فإن الله سبحانه قد امتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الإلفة التي ينتقلون في ظلها ويأوون إلى كنفها بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة لأنها أرجح من كل ثمن وأجل من كل خطر) هذا توبيخ لهم لقلة طاعتهم وأنهم قد طرحوا حبل الطاعة الذي كان يوصلهم بالله فإن العبد يتصل بالله عن طريق التزامه بخطه وطاعته لأمره فإذا لم يفعل ذلك وعصاه فقد قطع هذا الحبل وبتر هذا الوصل وقد عبّر بالنفض دون الترك لما في النفض من معنى الشدة في الطرح والإعراض وكذلك خرقوا السور المضروب عليهم والحافظ لوجودهم وهو الإسلام فإنهم قد خرقوا أحكامه وأبطلوها ولم يعملوا بها واستبدلوها بأحكام الجاهلية وعاداتها...

ثم بعد أن وبّخهم على الفرقة والتمرد والعصيان رغّبهم في الألفة وذكّرهم بهذه

النعمة فإنه سبحانه قد امتن على هذه الأمة الإسلامية بهذه الألفة التي هي رابطة الوصل وحبل الجمع وقد جمع الإسلام المسلمين ووحد كلمتهم على طاعته فهم في بحره يسبحون وتحت لوائه يجتمعون إنه سبحانه وتعالى قد امتن عليهم بقوله تعالى: **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألف بينهم﴾** وقوله تعالى: **﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾** فإن هذه الألفة أرجح من كل شيء يبذل في مقابلها وأجلّ من كل شيء رفيع وشريف لأن بهذه الألفة يتحقق كل عز وشرف ومقام رفيع. . .

(واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً وبعد الموالاة أحزاباً ما تتعلقون من الإسلام إلا باسمه ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه) وهذا توبيخ لهم ولما صاروا إليه. . . إنه ذم وإهانة أن يعودوا بعد الهجرة إلى رسول الله والتفقه على يديه وأخذ معالم الدين عنه أن يعودوا بعد هذه الهجرة أعراباً من أجلاف البادية وقساتها لا يتمسكون بدين ولا يتفقهون بأحكام سيد المرسلين وقد ذم الله الأعراب بقوله: **﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله. . .﴾**.

وكذلك يعودون بعد الاتفاق فيما بينهم والتناصر والمحبة والألفة يعودون فرقاً وأشتاتاً ما بين ناكث وقاسط ومارق ومنافق. . . إنهم أحزاب وتجمعات **﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾** لا يعرفون من الإسلام إلا الاسم فهو عندهم شعار يرفعونه وأنشودة يرددونها دون أن يعرفوا المضمون. . . إنهم يكتفون من الإيمان بهذه اللفظة وينسبونها لأنفسهم دون أن يكون لهم من مضمونها وحقيقتها أقل شيء. . .

(تقولون: النار ولا العار كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه انتهاكاً لحريمه ونقضاً لميثاقه الذي وضعه الله لكم حرماً في أرضه وأمناً بين خلقه) وهذه من جملة ما وبخهم به شعارهم «النار ولا العار» شعار جاهلي يقوله أهل الحمية والأنفة الذين يريدون إثارة شعور قبائلهم واستنهاضهم على القتال وقد شبههم في حالهم وقولهم ذلك بمن يقصد أن يقلب الإسلام على وجهه ويبطل أحكامه فهم في فعلهم يتحدّون مع الكفار الذين يريدون أن يبطلوا أحكام الإسلام ويفسدوه ويصبح كالإناء الذي إذا انقلب فسد ما فيه وبطل الانتفاع فيه. إنه تجاوز للمرسوم وتعدٍ على ما لا يجوز التعدي عليه. . . إنه خروج عن العهود التي أعطيتموها لله ولرسوله في حفظ الإسلام الذي وضعه الله لكم يحفظ وجودكم ولا يتعدى أحد على أحد من الناس فهو الأمان وبه الأمان من كل ظلم وعدوان. . .

(وإنكم إن لجأتم إلى غيره حاربكم أهل الكفر ثم لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا

مهاجرون ولا أنصار ينصرونكم إلا المقارعة بالسيف حتى يحكم الله بينكم) وهذا تحذير وتخويف لهم أنهم إن تركوا الإسلام وعادوا إلى غيره من عادات الجاهلية وتقاليدها كالحمية الجاهلية والعصبية العشائرية عندها يحاربكم أهل البغي والانحراف ويطمعون فيكم لانحرافكم وليس عندكم أحد يعينكم كما كان يعين الأولين من آبائكم حيث كان يعينهم جبرئيل وميكائيل وكان ينصرهم المهاجرون والأنصار أصحاب النخوة والدين وليس لكم أي مدد أو معين إلا أن تتجالدوا معهم وتتضاربوا بالسيوف والله يحكم بينهم وبينكم والنصر يدور عندها بينكما ولا يعرف لمن وذلك لتساويهما في البعد عن الله فإذا تساويا بالنسبة إلى الله كان النصر مع الفئة المستكملة لعوامل النصر وعناصره وإن لم تكن مؤمنة. . .

(وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه وأيامه ووقائعه فلا تستبطئوا وعيده جهلاً بأخذه وتهاوناً ببطشه ويأساً من بأسه) هذا تذكير لهم بما أصاب الأمم السابقة وكيف أخذهم الله عندما تمردوا على إرادته وعصوه في أوامره. . .

إنّ لكم فيما مضى من الأمم التي عصت عبرة وعظة فهؤلاء قوم عاد وثمود وقوم فرعون وغيرهم انظروا كيف نزل بهم عذاب الله قال تعالى: **﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾**.

ووقايع الله نوازله الشديدة وعقوباته الكبيرة. . .

ثم نهاهم أن يكون استبطاء أخذه لهم وتأخير عقوبتهم أن يكون ذلك موجباً لجهلهم بأخذه وأنه لا يأخذهم أو موجباً لتهاونهم بقوته وإهلاكه لهم أو يأساً من بأسه وشدته فالتأخير منه تبارك اسمه ليزدادوا إثماً وهو الله الذي يمهل ولا يهمل. . .

(فإن الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لترك التناهي) لم يطرد الله من رحمته من مضى وتقدم إلا لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: **﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾**. . .

وبعد أن ذكر لعن الله للذين تقدموا في القرون الماضية توجه هو بالدعاء على السفهاء الذين لم يرعوا حق الله واعتدوا على المحرمات وارتكبوا المعاصي كما أنه لعن الحلماء الذين لم يرتكبوا المعصية وإنما تركوا النهي عنها ولم يقوموا بواجب زجر المعتدين الذين يقومون بفعل المحرمات ومن هنا نعرف أن الجريمة ليست مختصة بمن

يرتكبها بل تشمل من يسمع بها ثم لا يأخذ على يد فاعلها ويمنعه عن ممارستها. . .

(ألا وقد قطعتم قيد الإسلام وعطلتم حدوده وأمتم أحكامه، ألا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الأرض) هذا بيان لارتكابهم المعصية وتجاوزهم الحق إلى الضلال، إنهم قد قطعوا قيد الألفة والمحبة التي تربط الجميع وتوحد فيما بينهم كما أنهم عطّلوا حدود الإسلام ولم ينفّذوها وأماتوا أحكامه عندما لم يعملوا بها ويقوموا بتطبيقها وتنفيذ ما أمر وليس موت حكم إلا عدم العمل به وتنفيذه.

ثم بين حقيقة ما أخبره النبي وهو أنه قد أمره الله على لسان نبيه أنه سيقاتل أهل البغي الذين يخرجون على جماعة المسلمين ويريدون قتالهم وكذلك قتال أهل النكث الذين بايعوا ثم نقضوا بيعتهم له وخرجوا لمحاربته وثالثاً أهل الفساد في الأرض. . . إنهم الذين ورد الخبر بقتالهم عندما قال له النبي صلى الله عليه وآله: «يا علي ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين».

(فأما الناكثون فقد قاتلت، وأما القاسطون فقد جاهدت وأما المارقة فقد دوخت وأما شيطان الردهة فقد كفيته بصعقة سمعت لها وجبة قلبه ورجة صدره وبقيت بقية من أهل البغي ولئن أذن الله في الكرة عليهم لأديلن منهم إلا ما يتشذر في أطراف البلاد تشذّراً) هذا تفصيل لما أجمله سابقاً وأنه قد قاتل الناكثين الذين هم أصحاب الجمل وعلى رأسهم طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة فقد بايعوه ثم نقضوا بيعته ونكثوا بها وخرجوا لمحاربته فخرج إليهم في موقعة الجمل على أرض البصرة وقد انتصر عليهم وفرق شملهم وشتت جمعهم. . .

وأما القاسطون وهم العادلون عن الحق الرافضون لأمر الله وحكمه وهم معاوية وأصحابه فقد جاهدهم الإمام في موقعة صفين وكاد أن ينتصر عليهم لولا أن ابن النابغة بحيلته قد أوقف الحرب ومنع هزيمة معاوية وقد مر في طيات الشرح ذكر وقعة صفين وما جرى فيها. . .

وأما المارقة فهم الخوارج الذين كانوا في صفوف جيشه ثم دخلت عليهم شبهة فخرجوا عليه وكفّروه وحاربوه فقتلهم وأذلهم. . .

وأما شيطان الردهة فقد قالوا: إن المراد به «ذو الثدية» رئيس الخوارج وإنما سمي بذلك لأنه ضال مضل وإضافته إلى الردهة لأن الإمام عندما انجلت المعركة بينه وبين الخوارج في النهروان أمر أتباعه بطلبه بين القتلى فوجدوه في حفرة صغيرة قد سقط فيها ميتاً وأما الصعقة التي كفت الإمام شر هذا الخبيث فقد قيل: إن الإمام لما قابل الخوارج

صاح بهم فكان ذو الثدية ممن هرب من صيحته حتى وجد قتيلاً في الحفرة وقيل: إن الله رماه بصاعقة من السماء فهلك وقيل: إن الإمام لما ضربه بالسيف غشي عليه فمات وبيّن عليه السلام أثر تلك الصعقة كيف أنها سمعت منها خفقة قلب هذا الشيطان وحركة صدره من الخوف والفزع... ثم بيّن أنه بقيت حثالة قليلة وهم أهل الشام وكان الإمام يعدّ العدة لهم ويحث الناس للتهيّؤ لقتالهم فقال: لئن أذن الله بقتالهم وسمحت الظروف بذلك بأن طال العمر وتحققت الأسباب لتكوننّ الدولة لي عليهم والنصر لي على جحافلهم فأقضي عليهم وأنتهي منهم إلا ما يتفرق منهم في البلاد ويهرب في أطراف الأرض ولا يستقر في مكان بحيث تتعطل حركتهم ويبطل شرهم...

وقتال الخوارج وأهل الجمل وصفين قد ورد الحديث عنهم على لسان رسول الله وأن الإمام سيقاتلهم.

ففي الحديث كما في مستدرك الصحيحين عن أبي أيوب الأنصاري قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين.

فضل الوحي

أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلاَكِلِ[١] ٱلْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ[٢] قُرُونِ رَبِيعَةَ[٣] وَمُضَرَ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بِٱلْقَرَابَةِ ٱلْقَرِيبَةِ، وَٱلْمَنْزِلَةِ ٱلْخَصِيصَةِ[٤]. وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ[٥] وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي[٦] فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ[٧]. وَكَانَ يَمْضَغُ[٨] الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ[٩]، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً[١٠] فِي فِعْلٍ. وَلَقَدْ قَرَنَ ٱللهُ بِهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً[١١] أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ ٱلْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ ٱلْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ ٱتِّبَاعَ ٱلْفَصِيلِ[١٢] أَثَرَ[١٣] أُمِّهِ،

يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِٱلاقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحراءَ[١٤] فَأَرَاهُ، وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَى نُورَ ٱلْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ[١٥] الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ ٱلْوَحْيُ عَلَيْهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ مَا هذِهِ الرَّنَّةُ فَقَالَ: «هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ[١٦] مِنْ عِبَادَتِهِ. إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ». وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ لَمَّا أَتَاهُ ٱلْمَلأُ[١٧] مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدِ ٱدَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلاَ أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «وَمَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ، فَقَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ ٱللهُ لَكُمْ ذلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِٱلْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لاَ تَفِيئُونَ[١٨] إِلَى خَيْرٍ، وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي ٱلْقَلِيبِ[١٩]، وَمَنْ يُحَزِّبُ ٱلأَحْزَابَ». ثُمَّ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ ٱللهِ، فَٱنْقَلِعِي[٢٠] بِعُرُوقِكِ[٢١] حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ ٱللهِ». فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِٱلْحَقِّ لاَنْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ[٢٢] شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ[٢٣] كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ ٱلطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرَفْرِفَةً[٢٤]، وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا ٱلأَعْلَى عَلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ

وَآلِهِ، وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي[٢٥]، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ ٱلْقَوْمُ إِلَى ذلِكَ قَالُوا ـ عُلُوًّا وَٱسْتِكْبَاراً ـ: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقَالُوا ـ كُفْراً وَعُتُوًّا ـ: فَمُرْ هذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لاَ إِلهَ إِلاَّ ٱللهُ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ ٱللهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ، وَإِجْلاَلاً لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ ٱلْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلاَّ مِثْلُ هذَا! (يَعْنُونَنِي) وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لاَ تَأْخُذُهُمْ فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ، سِيمَاهُمْ[٢٦] سِيمَا الصِّدِّيقِينَ، وَكَلاَمُهُمْ كَلاَمُ ٱلأَبْرَارِ، عُمَّارُ ٱللَّيْلِ وَمَنَارُ[٢٧] ٱلنَّهَارِ. مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ ٱلْقُرْآنِ؛ يُحْيُونَ سُنَنَ ٱللهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ؛ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ وَلاَ يَعْلُونَ، وَلاَ يَغُلُّونَ[٢٨] وَلاَ يُفْسِدُونَ. قُلُوبُهُمْ فِي ٱلْجِنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي ٱلْعَمَلِ!.

اللغة

١ ـ الكلاكل : جمع كلكل وهو الصدر.
٢ ـ النواجم : جمع ناجمة من نجم الشيء إذا ظهر وطلع.
٣ ـ ربيعة ومضر : قبيلتان عربيتان معروفتان.
٤ ـ الخصيصة : الخلة ينفرد بها الإنسان ويفضّل بها على غيره.
٥ ـ الحجر : الحضن يقال: نشأ فلان في حجر فلان أي في كنفه ومنعته.
٦ ـ يكنفني في فراشه : يجعلني فيه ويحفظني.
٧ ـ العرف : الرائحة الطيبة.
٨ ـ مضغ الطعام : إذا لاكه بلسانه بعد طحنه.
٩ ـ ألقمه : الطعام أطعمه إياه سريعاً والتقم الطعام ابتلعه سريعاً.

١٠ ـ الخطلة	:	واحدة الخطل وهو الخطأ ينشأ من عدم الروية.
١١ ـ الفطيم	:	المفطوم والفطام فصل الولد عن الرضاع.
١٢ ـ الفصيل	:	ولد الناقة.
١٣ ـ الأثر	:	ما بقي من رسم الشيء ويقال: خرج في أثر الشيء وعلى أثره أي بعده.
١٤ ـ حراء	:	بكسر الحاء جبل على القرب من مكة.
١٥ ـ الرنّة	:	الصوت ورن رنيناً صاح.
١٦ ـ أيس	:	قنط.
١٧ ـ الملأ	:	أشراف القوم والمتقدمون منهم.
١٨ ـ لا تفيئون	:	لا ترجعون.
١٩ ـ القليب	:	البئر يذكّر ويؤنث وقيل: هي خصوص القديمة منها.
٢٠ ـ قلع الشيء	:	انتزعه من أصوله.
٢١ ـ العروق	:	أصول كل شيء.
٢٢ ـ الدويّ	:	الصوت وقد خصّ به بعضهم صوت الرعد.
٢٣ ـ القصف	:	الصوت الشديد.
٢٤ ـ رفرف الطائر	:	بسط جناحيه وحركهما.
٢٥ ـ المنكب	:	جمعه مناكب مجتمع رأس الكتف والعضد وهما منكبان لأنهما في الجانبين.
٢٦ ـ سيماهم	:	علاماتهم من السيما بالقصر والمد وهي العلامة.
٢٧ ـ المنار	:	الأعلام.
٢٨ ـ غل	:	خان ويغلّون يخونون.

الشرح

(أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر وقد علمتم موضعي من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة) ذكر عليه السلام شجاعته وما قدمه في سبيل الدعوة تقوية لقلوب أصحابه وشداً لعزائمهم. . .

فهو الذي أذلّ العرب وحطم كبريائها وأنزلها من عليائها ومرّغ أنوف قادتها وقتل شجعانها وفرسانها. هو الذي قضى على فرسان ربيعة ومضر وعلى زهوهما وقوتهما عندما أرادتا أن تواجها الدعوة وتقفا في وجه الحق والعدل. . .

ثم ذكر موضعه من رسول الله ومكانته منه فقد كان وزيراً له وأميناً وكان ابن عمه نسباً وصاحب سره والمنزلة الخاصة لديه. . .

ونظرة سريعة إلى تاريخ الإسلام وما كان فيه من وقائع وأحداث يكشف بوضوح مدى الجهاد العلوي وكيف لم تخل غزوة إلا وكان علي عليه السلام هو حامل راية رسول الله وفاتح الحصون والقاضي على الخصوم. . . أعد نظراً في بدر وأحد والأحزاب وخيبر وغيرها تجد علياً هو القائد المظفر والذي على يديه يكون النصر وبسيفه يكون الحسم. . .

(وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إلى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل) بيّن عليه السلام عناية النبي به ومدى تفرغه له بحيث إنه أخذه من أبي طالب ورباه على يديه فكان فراشهما واحد ينامان معاً يشم ريحة رسول الله الطيبة ويمسه جسده الطاهر ويحتضنه بعطف وحنان وكان من شدة عطفه عليه أنه كان يمضغ الطعام القاسي ثم يدفعه إليه وقصة الإمام مع النبي من القصص العجيبة والتوفيقات الغريبة فإن أهل السير يذكرون أن قريشاً أصابتها أزمة شديدة وضيق فقال رسول الله لعمه العباس وكان أيسر بني هاشم: يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه لنخفّف عنه من عياله فآخذ واحداً من بنيه وتأخذ واحداً فنكفيهم عنه فانطلقا إليه وقالا له: فقال: إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وأخذ العباس جعفراً ومن هنا ابتدأت العلاقة بين الإمام ورسول الله فتتلمذ الإمام على يدي رسول الله وتربى كما أراد فجاء نسخة عن النبي طبق الأصل في الأخلاق والآداب والسلوك وفي جميع الشؤون. . .

ولذا لم يجد النبي من الإمام كذبة في قول أو خطأ في فعل وكيف يقع في الخطأ مَنْ هو مسدد من قبل السماء معصوم بنص الذكر الحكيم. . .

(ولقد قرن الله به ـ صلى الله عليه وآله ـ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره) وهذه عناية إلهية برسول الله إنه منذ صغره وعندما فطم عن الرضاع قرن الله به ملكاً من ملائكته يسدّده ويعلمه ويأخذ بيده إلى طريق المكارم ومحاسن الأخلاق لا يفارقه في ليل ولا نهار، كان ملازماً له يرشده إلى طريق الخير ويهديه سبيل الإحسان وفضلاً عن هذا النص فهناك نصوص وأحاديث عن الأئمة تحكي عن هذا المعنى وتشير إليه ففي قوله تعالى: **﴿أولئك**

كتب في قلوبهم الإيمان﴾ هم الأئمة **﴿وأيدهم بروح منه﴾** قال: ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل وكان مع رسول الله وهو مع الأئمة.

(ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة) وهذه من خصوصيات الإمام ومن جملة اختصاصه بالنبي أنه كان ملازماً له لا يفارقه كالفصيل الذي لا يفارق أمه بل يلحقها حيث توجهت وكان صلوات الله عليه يرفع له النبي في كل يوم عنواناً من عناوين الأخلاق العامة ويأمره بالاقتداء به فكان معلم الصدق والأمانة والإخلاص وكل الفضائل وكان يأمر الإمام بها ويحثه على الاقتداء به في هذه الفضائل والأخلاق.

ثم ذكر خصوصية أخرى وهي أن النبي كان يجاور في غار حراء ويعتزل الناس ويتفكّر في مخلوقات الكون ولم يكن يراه غير الإمام فهو الوحيد الذي يقصده ويراه...

وكذلك عندما نزل الوحي على الرسول وبعثه الله نبياً فلم يكن هناك بيت في الدنيا يجمع من المسلمين ما يجمعه بيت رسول الله فقد كان الإمام ثالث ثلاثة كان هو وخديجة ورسول الله يجمعهم بيت واحد.

ثم بين مدى ما وصل إليه من القرب المعنوي والفكري والسمو الروحي إنه كان يرى نور الوحي والرسالة ويشم ريح النبوة وهذا منتهى الوصول إلى هذه الدرجات التي يمكن أن يصل إليها غير الأنبياء فقد أدرك أسرار الوحي والرسالة وخصائص الدين والإيمان.

(ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ـ صلى الله عليه وآله ـ فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي ولكنك لوزير وإنك لعلى خير) وهذا إخبار من الإمام عما وقع له وسمعه من صوت الشيطان لما بعث الله نبينا صلوات الله عليه فإن الشيطان صاح بجنوده يستعلم ما الخبر فقالوا له: إن الله بعث محمداً فيئس من أن يُعبد ثم أشار إلى أن الإمام يسمع كما يسمع النبي ويرى مثلما يرى ولما كان يخشى أن يظن أحد بتساويهما نفى عنه النبوة وأثبت له الوزارة وأنه لعلى خير...

وهناك من الأخبار ما يشير ويصرح بوزارة الإمام للنبي ففي الحديث عن أبي نعيم الحافظ عن ابن عباس قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد علي بن أبي طالب

وبيدي ونحن بمكة وصلى أربع ركعات ثم مد يديه إلى السماء وقال: إن نبيك موسى بن عمران سألك فقال: ﴿رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ الآية وأنا محمد نبيك أسألك: رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري. . .

قال ابن عباس: فسمعت منادياً ينادي: قد أوتيت ما سألت. . .

(ولقد كنت معه ـ صلى الله عليه وآله ـ لما أتاه الملأ من قريش فقالوا له: يا محمد إنك قد ادعيت عظيماً لم يدعه آباؤك ولا أحد من بيتك ونحن نسألك أمراً إن أنت أجبتنا إليه وأريتناه علمنا أنك نبي ورسول وإن لم تفعل علمنا أنك ساحر كذاب فقال صلى الله عليه وآله: وما تسألون؟.

قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك فقال صلى الله عليه وآله: «إن الله على كل شيء قدير فإن فعل الله لكم ذلك أتؤمنون وتشهدون بالحق؟ قالوا: نعم قال: فإني سأريكم ما تطلبون وإني لأعلم إنكم لا تفيئون إلى خير وإن فيكم من يطرح في القليب ومن يحزب الأحزاب» ثم قال صلى الله عليه وآله: «يا أيتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يدي بإذن الله» فوالذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها وجاءت ولها دوي شديد وقصف كقصف أجنحة الطير حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله مرفرفة وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وببعض أغصانها على منكبي وكنت عن يمينه صلى الله عليه وآله فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا ـ علواً واستكباراً ـ: فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها فأمرها بذلك فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشده دوياً فكادت تلتف برسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا ـ كفراً وعتواً ـ: فمر هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان فأمره صلى الله عليه وآله فرجع فقلت أنا: لا إله إلا الله إني أول مؤمن بك يا رسول الله وأول من أقرّ بأن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوتك وإجلالاً لكلمتك فقال القوم كلهم: بل ساحر كذاب، عجيب السحر خفيف فيه، وهل يصدقك في أمرك إلا مثل هذا (يعنونني) وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم سيماهم سيما الصديقين وكلامهم كلام الأبرار عمار الليل ومنار النهار متمسكون بحبل القرآن، يحيون سنن الله وسنن رسوله لا يستكبرون ولا يعلون ولا يغلون ولا يفسدون قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل) وهذه حادثة وقعت مع النبي وجرت فصولها عندما أعلن رسول الله أنه نبي من عند الله فقد جاء أشراف قريش وساداتها والمتقدمون فيها يريدون تعجيز رسول الله ورد دعوته فاقترحوا عليه أن يدعو الشجرة إليه فأخذ عليهم

إن فعل أن يستجيبوا ويؤمنوا له وهو يعرف أنهم لن يؤمنوا فدعاها فانقلعت بجذورها ثم ما كان منهم إلا أن اقترحوا عليه أن يفصل نصفها ويدعوه إليه فكان لهم ما أرادوا فارتفع عندها صوت الإمام بالتوحيد والإيمان برسول الله بحيث يسمعه الملأ من قريش ولم يؤمن أحد منهم بل رموه بالكذب والسحر على عادتهم عندما يعجزون عن مواجهة الحقيقة. . .

ثم بين الإمام في نهاية الخطبة أنه من قوم ـ وهم أهل البيت ـ الذين يقولون كلمتهم العادلة دون أن ينظروا إلى أقوال الناس فيها ورضاهم أو غضبهم عليها.

وبين أنه من قوم علاماتهم علامات الصديقين في وجوههم وحديثهم ومنطقهم مهللون مكبرون يعمرون الليل بالتهجد والعبادة ويقضون نهارهم في الوعظ والإرشاد وهداية الخلق. . . قوم متمسكون بالقرآن يحيون ما أراد الله من أحكام وسنن لا يستكبرون في الأرض على أحد ولا يظلمون ولا يفسدون قلوبهم في الجنان من شدة شوقهم إليها وأجسادهم في الدنيا عاملة مشتغلة ناصبة من أجل تلك الغاية. . .

١٩٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

يصف فيها المتقين

روي أن صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همام كان رجلاً عابداً، فقال له: يا أمير المؤمنين، صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم. فتثاقل[١] عليه السلام عن جوابه ثم قال: يا همام، إتق الله وأحسن: فـ ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾. فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه[٢]، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ثم قال عليه السلام:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ خَلَقَ ٱلْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ[٣]، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ. فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ ٱلْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ[٤]، وَمَلْبَسُهُمُ ٱلاقْتِصَادُ[٥]، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ[٦] عَمَّا حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى ٱلعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي ٱلْبَلاَءِ[٧] كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ[٨]. وَلَوْلاَ ٱلأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إِلَى ٱلثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ ٱلْعِقَابِ. عَظُمَ ٱلْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ[١٠] مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَٱلْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ[١١]، وَشُرُورُهُمْ[١٢] مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ[١٣]، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ[١٤] يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمُ ٱلدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا[١٥] أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا. أَمَّا ٱللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لأَجْزَاءِ

ٱلْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً(١٦). يَحْزَنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ(١٧) بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ. فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا(١٨) إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ(١٩) نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ(٢٠). وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا(٢١) إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ(٢٢) جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا(٢٣) فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ(٢٤) عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ(٢٥) وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ(٢٦)، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ(٢٧). وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ ٱلْخَوْفُ بَرْيَ(٢٨) ٱلْقِدَاحِ(٢٩) يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ ٱلنَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِٱلْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا(٣٠)!.

وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ ٱلْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ ٱلْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ(٣١)، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ(٣٢) إِذَا زُكِّيَ(٣٣) أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي! ٱللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي(٣٤) بِمَا يَقُولُونَ، وَٱجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَٱغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً(٣٥) فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً(٣٦) فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنًى، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً(٣٧) فِي فَاقَةٍ(٣٨)، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى، وَتَحَرُّجاً(٣٩) عَنْ طَمَعٍ. يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ(٤٠). يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيتُ(٤١) حَذِراً(٤٢) وَيُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ ٱلْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ ٱلْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنِ ٱسْتَصْعَبَتْ(٤٣) عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا(٤٤)

فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ(٤٥) فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ(٤٦) ٱلْحِلْمَ بِٱلْعِلْمِ، وَٱلْقَوْلَ بِٱلْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ(٤٧)، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً(٤٨) أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً(٤٩) دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً(٥٠) غَيْظُهُ. ٱلْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ. إِنْ كَانَ فِي ٱلْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ(٥١)، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلاَزِلِ(٥٢) وَقُورٌ، وَفِي ٱلْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ(٥٤) شَكُورٌ. لاَ يَحِيفُ(٥٥) عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِٱلْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ. لاَ يُضِيعُ مَا ٱسْتُحْفِظَ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ(٥٦) بِٱلأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بِٱلْجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بِٱلْمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي ٱلْبَاطِلِ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ ٱلْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ(٥٧) صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ ٱللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ(٥٨). نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ(٥٩)، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ.

قال: فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: أَهَكَذَا تَصْنَعُ ٱلْمَوَاعِظُ ٱلْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا؟.

فقال له قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين؟.

فقال عليه السلام: وَيْحَكَ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لاَ يَعْدُوهُ(٦٠)، وَسَبَباً لاَ يَتَجَاوَزُهُ. فَمَهْلاً، لاَ تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ(٦١) الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!.

اللغة

١ ـ تثاقل	أبطأ وتراخى.
٢ ـ عزم عليه	عزم على الرجل أقسم عليه، أصّر عليه.
٣ ـ المعايش	مفرده المعاش ما تعيش به من المطعم والمشرب، ما تكون به الحياة.
٤ ـ الصواب	ضد الخطأ، الحق.
٥ ـ الاقتصاد	الاعتدال والوسط فلا الغالي ولا المبتذل.
٦ ـ غضوا أبصارهم	خفضوها وغمضوها.
٧ ـ البلاء	الاختبار، الغم.
٨ ـ الرخاء	سعة العيش وهناءته.
٩ ـ الأجل	وقت الموت، غاية الوقت.
١٠ ـ صغر	حقر وانحط قدره.
١١ ـ محزونة	كئيبة.
١٢ ـ الشرور	جمع شر وهو نقيض الخير، إسم جامع للرذائل والخطايا.
١٣ ـ النحيف	الهزيل، كان قليل اللحم.
١٤ ـ مربحة	مفيدة ربحاً.
١٥ ـ الفدية	ما يعطي عوض المفدي.
١٦ ـ الترتيل	التبيين والايضاح.
١٧ ـ يستثيرون	يحركون ويوجدون الإثارة.
١٨ ـ ركنوا	اطمأنوا.
١٩ ـ تطلّعت	استشرفت.
٢٠ ـ نصب اعينهم	أمامهم.
٢١ ـ أصغوا	من أصغى إلى الكلام مال إليه بسمعه.
٢٢ ـ الزفير	للنار صوتها.
٢٣ ـ الشهيق	أن يأخذ الهواء إلى الداخل وهو مع الزفير من حالات التنفس.
٢٤ ـ حانون	من حنيت العود إذا عطفته ولويته.
٢٥ ـ افترشوا جباههم	بسطوها على الأرض، أي جعلوها من كثرة سجودهم كأنها فراش.
٢٦ ـ الرُكب	جمع الركبة بضم الراء الموصل ما بين الفخدين والساق.
٢٧ ـ فكاك الرقاب	خلاصها وتحريرها.
٢٨ ـ برى	السهم والعود والقلم إذا نحتها.
٢٩ ـ القداح	جمع القدح بالكسر فيهما وهو السهم قبل أن يراش وينصل.

٣٠ ـ خولطوا	:	في عقولهم أي فسدت عقولهم واختلت.
٣١ ـ إتهمه	:	بكذا أدخل عليه التهمة وظنه به، شك في صدقه.
٣٢ ـ مشفقون	:	خائفون.
٣٣ ـ زكي أحدهم	:	مدح.
٣٤ ـ لا تؤاخذني	:	من آخذه مؤاخذة لامه وعابه وعلى ذنبه وبذنبه عاقبه عليه.
٣٥ ـ الحزم	:	ضبط الأمر والأخذ بالحكمة فيه والثقة.
٣٦ ـ الحرص	:	على الشيء اشتداد الشره إليه والتمسك به.
٣٧ ـ تجمّل	:	تزين وتكلف الجميل.
٣٨ ـ الفاقة	:	الحاجة.
٣٩ ـ التحرج	:	عدّ الشيء حرجاً أي إثماً.
٤٠ ـ الوجل	:	الخوف والفزع.
٤١ ـ يبيت	:	من بات في المكان إذا أقام فيه ليلاً.
٤٢ ـ الحذر	:	التحرز منه وحذره خوفه.
٤٣ ـ استصعبت	:	صارت صعبة غير منقادة.
٤٤ ـ السؤل	:	ما يُسأل.
٤٥ ـ قرة عينه	:	ما تقربه عينه وتسر.
٤٦ ـ يمزج	:	يخلط.
٤٧ ـ الزلل	:	الانحراف والخطأ، زلق وسقط.
٤٨ ـ منزوراً	:	قليلاً من النزر وهو القلة.
٤٩ ـ حريزاً	:	حصيناً.
٥٠ ـ المكظوم	:	المكروب، وكظم غيظه إذا حبسه وأمسك على ما في نفسه منه.
٥١ ـ الفحش	:	القبيح من القول.
٥٢ ـ الزلازل	:	الشدائد والأهوال، الاضطراب.
٥٣ ـ الوقور	:	الذي لا يضطرب.
٥٤ ـ الرخاء	:	سعة العيش.
٥٥ ـ لا يحيف	:	لا يظلم.
٥٦ ـ لا ينابز بالالقاب	:	لا يتبادل الألفاظ البذيئة.
٥٧ ـ يغّمه	:	يحزنه.
٥٨ ـ ينتقم	:	يعاقب.
٥٩ ـ العناء	:	التعب.
٦٠ ـ لا يعدوه	:	لا يتجاوزه.
٦١ ـ نفث	:	نفخ.

الشرح

هذه الخطبة المباركة من أروع خطب النهج وأرقها تتضمن صفة المتقين بأبدع بيان وأقوى لسان صوّر الإمام حالهم حتى عادوا وكأنهم أمامنا وسببها كما رواه الرضي: (روي أن صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همام كان رجلاً عابداً فقال له: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم فتثاقل عليه السلام عن جوابه ثم قال: يا همام إتقِ الله وأحسن فـ ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال عليه السلام:

(أما بعد فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه) هذا الرجل ـ همام ـ سأل الإمام أن يصف له المتقين حتى كأنه ينظر إليهم فيتأثر بهم ويسلك سلوكهم ويقتدي بهم فتثاقل الإمام ولم يبادر بل تأخر قليلاً تشويقاً للرجل وترغيباً له في المعرفة ثم قال له: إتق الله وأحسن **﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾** فأجابه بهذا الجواب العام المجمل ولم يدخل في التفاصيل فلم يقتنع همام بهذا الجواب ولم يشف غليله الإجمال فأصّر على الإمام وأقسم عليه أن يوضح له الأمر أكثر من ذلك فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله ثم ابتدأ عليه السلام:

أما بعد حمد الله فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق من إنس وجان حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم ثم علل ذلك لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه لأن الذي يتأثر ويخضع للنفع والضرر يكون محتاجاً والمحتاج فقير والله هو الغني المطلق فمن أطاع الله نفع نفسه لأنه سبحانه لا يأمر إلا بمصلحة تعود على هذا الإنسان بالنفع كما أن من تمرد على الله وعلى أمره لا يضره وإنما يضر نفسه لأنه لا ينهى إلا عن مفسدة مضرة بهذا الإنسان فمن ارتكب الحرام أضرّ بنفسه وسبّب لها الانحطاط والتأخر وأما الله فلا يتأثر بشيء من ذلك. . .

(فقسم بينهم معايشهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم) فهو سبحانه الذي أعطى كل فرد حق الحياة أعطاه أيضاً ما يعيش به ويكمل شوط الحياة بحيث لا يموت من الجوع وقول الإمام هذا مأخوذ من قول الله: **﴿نحن قسمنا[1] بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾**.

---

(١) سورة الزخرف، آية/ ٣٢.

وكذلك فإنه سبحانه وتعالى رتب أمر الناس بحسب ما يراه من المصلحة فهذا غني والآخر فقير، وهذا رفيع وذاك وضيع وهذا حاكم وذاك محكوم وهكذا وهذا أيضاً من قوله تعالى: ﴿ورفعنا[1] بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾.

(فالمتقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع) بعد ذكره أن الله قد رتب أمور الناس كل واحد في موضعه أخذ في ذكر المتقين وأنهم قوم اختصهم الله بمزية مكارم الأخلاق والفضائل فكانوا مجمعاً لها وملتقى الصفات الحميدة...

المتقون في الدنيا هم أهل الفضائل في التصور والمفاهيم والنظرات والعمل والسلوك...

ثم فصّل تلك الفضائل وذكرها ضمن أمور.

١ ـ منطقهم الصواب: فلا يكذبون ولا يسبون ولا يشتمون ولا ينّمون ولا يغتابون بل قولهم الحق والعدل وما فيه نفع وخير...

٢ ـ ملبسهم الاقتصاد: أي ملابسهم معتدلة كأواسط الناس فليست مبتذلة بالية ولا هي من أجود القماش وأفضله.

٣ ـ ومشيهم التواضع: يمشون بتواضع بدون تكبر ولا استعلاء لا تظهر عليهم الخيلاء ولا الزهو لأن ذلك مكروه لله مبغوض له...

٤ ـ **(غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم)** فبينهم وبين ما حرّم الله النظر إليه حاجز من تقوى الله فلا تمتد أعينهم إلى ما حرم عليهم بل تراهم يغضون أبصارهم عنه ويكسرونها حتى لا يرون حراماً.

٥ ـ **(ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم)** فهم يلتقطون ما ينفع في المعاش والمعاد دون ما سواه مما يضر ويؤذي فلا يستمعون إلى غيبة ولا نميمة ولا فحش ولا غناء وما أجمل تعبير «وقفوا» التي تتجمد عندها الأسماع لتصغى لما ينفع فحسب...

٦ ـ **(نزّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء)** تساوت عندهم المنحة والمحنة، السراء والضراء النعمة والبلاء فأنفسهم راضية في المصائب والبلايا كرضاها في أيام السعة والرخاء.. لأنها تعلم أنها كلها من عند الله وإن البلاء عليه أجر وثواب ولا بد

---

(١) سورة الزخرف، آية/ ٣٢.

من زواله وانقضائه فتهون عليهم المصائب وتسهل الويلات. . .

٧ ـ**(ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب)** فلولا أن الله ضرب لهم وقتاً معيناً يموتون عنده لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى ثواب الله وخوفاً من عقابه، فهم لشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار تكاد تخرج أرواحهم لولا أجلهم الذي وقته الله لهم. . .

٨ ـ**(عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم)** هذه هي المعادلة الصحيحة والنظرة السليمة فكلما تعمق الإيمان وتجذر في النفوس خفت في مقابله الدنيا وما فيها وكلما كبر الله وتجسدت عظمته في القلوب كلما صغر ما دونه من طواغيت وجبابرة وفراعنة وهكذا تتضاءل الأمور حتى تصبح في مقابل الله لا شيء، هباء منثوراً. . .

كل طواغيت الأرض وما يسمى عظماء فيها يتحولون جميعهم إلى أقزام صغار لا يحسب لهم في نفس المؤمن حساب. . .

٩ ـ**(فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون وهم والنار كما قد رآها فهم فيها معذبون)** من شدة تصديقهم لوعد الله ووعيده فكأنهم يعيشون تلك الحالات حية قائمة ماثلة أمامهم. . إنهم ينظرون إلى الجنة كما وصفت لهم ويتصورون نعيمها فيعيشون لذة روحية وكأنهم في الجنة ويتصورون النار وما وصفها الله بها فيتحولون إلى أناس كأنهم يعيشون ألمها وعذابها. . .

١٠ ـ**(قلوبهم محزونة)** قلوبهم في حزن خوفاً من التقصير والتفريط.

١١ ـ**(وشرورهم مأمونة)** فلا شرور فيهم لأن التقوى طهرت تلك القلوب فعادت كما ولدت طاهرة مطهرة لا تؤذي.

١٢ ـ**(وأجسادهم نحيفة)** لكثرة صيامهم وكثرة تهجدهم بالليل وكذلك لقلة شبعهم إذ هم زاهدون في الطيبات لا يفكرون فيها ولا يتناولون منها إلا ما يسد رمقهم ويحفظ عليهم حياتهم.

١٣ ـ **(وحاجاتهم خفيفة)** لأنهم يقتصرون على ضروريات الحياة دون توسعة إنها قليلة: ثوب وقرص شعير وعلى الدنيا السلام. . .

١٤ ـ**(وأنفسهم عفيفة)** لا يدنسون أنفسهم بشيء من الرذائل والمعاصي بل اكتفوا بما أحله الله لهم فأنفسهم تأبى كل ما يشين أو يهين. . .

١٥ ـ**(صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة تجارة مربحة يسرها لهم ربهم)** الأيام القصيرة هي مدة بقائهم في الدنيا وما أقصرها من أيام فقد صبر هؤلاء الأتقياء على بلائها وظلمها وحرمانها وصبروا على ما نالهم من أذى أهلها ولكن بعد صبرهم هذه الأيام القليلة كانت الراحة الطويلة في الدار الآخرة حيث كانت عاقبتهم الجنة وما فيها من نعيم. . .

ثم استعار لفظ التجارة لأعمالهم الصالحة وتطبيق أوامر الله ووصفها بأنها تجارة رابحة مفيدة لأنها قليلة في ذاتها وفي مدتها بينما عوضها الجنة وهي الكثير وهي أيضاً دائمة لا تفنى. . .

إنها تجارة مربحة يسرها لهم ربهم وفقهم الله وسدّدهم وحببّ إليهم سلوك هذا الطريق الموصل إلى هذه التجارة المربحة وهذه من العنايات الإلهية التي تدفع بهذا الإنسان ليسلك مسلك الخير والهدى. . .

١٦ ـ**(أرادتهم الدنيا فلم يريدوها)** إرادتها لهم من حيث إنها كانت تتزين لهم وتبسط كل وسائل الأغراء من مال ومناصب وجاه أمامهم فكانوا يرفضونها بكل زينتها وما فيها. . يرفضون الاقتراب منها والخوض في غمارها.

١٧ ـ**(وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها)** فإنهم كانوا مشتغلين فيها منهمكين بملذاتها فاستفاقوا من غفوتهم واستيقظوا من نومتهم فتركوا ما كانوا فيه وهجروا كل متع الدنيا وملذاتها وهذا هو فداء لهم من النار ونجاة لهم من عذابها. . أو إنها أشرفت على أسرهم بمتعها فهجروا المتع وفدوا أنفسهم بتركها. . .

١٨ ـ**(أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم)** هذه صورتهم أثناء العبادة. . إنهم رهبان الليل يصفون أقدامهم في الصلاة. . في صلاة الليل عندما تنام العيون ويسدل الليل ظلامه عندها يقف الأتقياء وعباد الرحمن في خشوع وخضوع ينفردون مع الله في مناجاة تخرج من القلب وتحكي عما في الضمير فيها لذة ومتعة تفوق لذات الحياة جميعها. . .

إنهم يصفون أقدامهم للتهجد والعبادة في جنح الليل يتلون أجزاء القرآن بخشوع وخضوع وبروّية وهدوء يدخلون على أنفسهم الحزن بقراءته عندما يتلون آيات العقاب وما ينال العصاة وأهل المحرمات.

إنهم بقراءة القرآن يدركون الدواء لدائهم لأنهم عندما يقرؤن القرآن يفكرون في الأعمال الصالحة التي تنجيهم من العذاب ويفكرون في الذنوب وعواقبها وما يلحق

المجرمين فيجتنب القارىء كل معصية وكل ذنب.

(فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً وظنوا أنها نصب أعينهم) إذا مروا بآية كقوله تعالى: **﴿مثل الجنة[1] التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم..﴾**.

فإنهم إذا مروا بمثل هذه الآية التي فيها تشويق إلى الجنة سكنوا وهدأوا وطمعوا أن يكونوا من أهلها ومن مصاديقها واستشرفت نفوسهم إليها حباً وفرحاً وانتظاراً لها وظنوا أي تيقنوا إنها قريبة منهم وفي متناول أيديهم فيخفوا للعمل من أجلها...

(وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم) فإذا كانوا في آية الرحمة والجنة يتشوقون ويندفعون بسرور وفرح وإذا مروا بآية فيها تخويف كقوله تعالى: **﴿يا أيها الناس أتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾** إذا قرؤوا هذه الآية انشدت اسماعهم إليها وأخذوا يرددونها مرة أثر أخرى فترتجف قلوبهم وتضطرب أعصابهم وراحوا في حالة نفسية عظيمة ذهبوا معها إلى مستوى كأنهم يسمعون زفير جهنم وشهيقها، صوتها واضطرامها ولهبها في أسماعهم.. فكأنهم يسمعون صوت جهنم فيأخذهم الخوف والفزع ويبادرون إلى ما يجنبهم دخولها وما يبعدهم عنها...

(فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم) بيّن وضعهم في حال صلاتهم إنهم راكعون في حال صلاتهم يحنون وسطهم وقد جعلوا مساجدهم السبعة ـ الجبهة والكفين والركبتين وطرفي الإبهامين من الرجلين ـ فهذه أصبحت لهم فراشاً بدل فراشهم الذي يأوون إليه ويستريحون فيه.. إنهم يطلبون من الله تعالى أن يعتق رقابهم من النار ويحررها من حرّ جهنم وعذابها فلا تمسهم بلهبها هكذا يكون ليل الأتقياء تسبيح فريد، وصورة يتيمة لم تشفع بمثيل...

(وأما النهار فحلماء علماء، ابرار أتقياء قد براهم الخوف برى القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ويقول لقد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم)

---

(١) سورة محمد، آية/ ١٥.

وأما مسيرة هؤلاء الأتقياء في النهار فإنها أيضاً فريدة تختلف عن مسيرة الناس وحركاتهم وما يجري لهم. . إنهم حلماء لا يجهلون على أحد ولا يغضبون من أحد أو لأحد إلا إذا كان لله وفي سبيل الله.

إنهم علماء في تعليم الناس وهدايتهم وإرشاهم، في رزانتهم ورصانتهم وغيرتهم على الدين. . .

إنهم أبرار أتقياء، مخلصون أوفياء أمناء أولياء إنهم من خوفهم من النار وعذابها وسوء مصير المذنبين وعاقبة المتمردين والعصاة قد براهم الخوف بري القداح أي نحت السهام في نحافتها ودقتها فإن المهموم الخائف الذي استولى الهم على قلبه وعقله وملك عليه شؤونه وكل توجهه فإنه يعزف عن الغذاء والطعام وعن الملذات والمسرات ولا يعود يشغل باله شيء فيضعف ويرق ويخف. . .

ينظر إليهم من لا يعرفهم وهم بهذه الصورة فيذهب به الظن لعدم معرفته بهم على وجه الحقيقة إلى أنهم مرضى قد أضناهم المرض واستولى عليهم الداء ولكن في الحقيقة والواقع لا مرض ولا داء وإنما همّ الآخرة أضمرهم وأنحل أجسادهم.

وكذلك من سمع حديثهم الإلهي وتعلقهم بالله وما هم فيه من ذكر وتسبيح وما يذهبون إليه من شوق إلى الجنة وخوف من النار يقول أنهم مجانين أصيبوا بعقولهم ولكن الحقيقة لم يصابوا بالجنون وإنما اصيبوا بصحة التوجه نحو الآخرة فهي التي شغلت عقولهم وأخذت عليهم كل توجهاتهم وإننا قد رأينا بعض هؤلاء وسمعنا من بعض الناس في حقهم مثل هذه المقالة، والناس هم الناس قديماً وحديثاً، فيهم الأتقياء وفيهم الأشقياء. . .

(لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير) إذا قلّت أعمالهم الصالحة لا يرتضون بها ويرون أنفسهم مقصّرين وإذا أكثروا من الأعمال الصالحة لا يرونها كثيرة فيزهدوا عندها ويتوقفوا عن العمل بل تبقى حركتهم في زيادة ونمو كلما ازدادت الحسنات ازداد الجد والعمل والمثابرة وهذا دأب الأتقياء لمعرفتهم بأجر الأعمال الصالحة والثواب عليها. . .

(فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون) مهما عملوا من الأعمال الصالحة ومهما أكثروا منها ومن الخيرات والأفعال الطيبة فإنهم ينسبون إلى أنفسهم التقصير.

وكذلك مهما عملوا فإنهم يخافون أن لا تقبل أعمالهم فتراهم في خوف من هذه الجهة. . .

(إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له. فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري وربي أعلم بي مني بنفسي اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل مما يظنون وأغفر لي ما لا يعلمون) هذه عادة الأتقياء لا ينتفخون أمام المدح والاطراء ولا يزهون أو يتكبرون إذا سمعوا بحقهم وصفاً طيباً. . إذا زكي أحد منهم بأن قيل فيه: إنه تقي ورع عابد زاهد لا ينتفخ ويكبر بل يخاف من هذا القول يخاف على نفسه أن يغلبها الاطراء فتكبر وتتعاظم وتعلو ولذا يبادر إلى القول فوراً أنا أعلم بنفسي من غيري أعلم ممن أطراني ومدحني فإنه لم ير إلا الظاهر وأنا أعلم بداخل نفسي، إنني مقصر مذنب مسوف مهمل أنا أعلم بهفوات نفسي وقبائحها من هذا المادح.

ويقول أيضاً وربي أعلم بي مني بنفسي فهو سبحانه يعلم النوايا السيئة والأعمال الشائنة والتصرفات القبيحة . . . هو سبحانه يعلم ما كان مني خالصاً لوجهه وما كان مشوباً بالرياء. . . إنه أعلم بنفسي مني.

ربي لا تؤاخذني بما يقولون لا تحاسبني على إطرائهم الموجب للكبر والعجب في نفسي واجعلني أفضل مما يظنون فيّ من الورع والتقى والزهد والعمل واغفر لي من الذنوب ما لا يعلمون ولا يدرون. . دعاء عملي من أجل إصلاح النفس في وقت الاطراء لها حتى تبقى تحت السير في الاتجاه السليم. . .

(فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين) هذا شروع في علامات المتقين الصادقين وهي أخص من الأولى وأظهر وأصدق؛ وبها جملة يعرف الأتقياء وهي.

١ ـ**(إنك ترى له قوه في دين)** صاحب دين قوي لا يتنازل عنه تحت أقسى الظروف وأشد الحالات ولا يعطي بالاً للمشككين وأصحاب الأهواء.

٢ ـ**(وحزماً في لين)** فهو في حال حزمه يملك اللين ليس بالغليظ القاسي ولا الجلف الجافي، فهو على موقفه الثابت ومع ذلك لين طري. . .

٣ ـ**(وإيماناً في يقين)** فإيمانه عميق إلى حد اليقين الموجب للأطمئنان واستقرار النفس لما آمن به.

٤ ـ**(وحرصاً في علم)** يبحث عن أبواب العلم فيطرقها ليزداد من علم الفقه والدين والأخلاق والآداب.

٥ ـ**(وعلماً في حلم)** يمزج العلم بالحلم ففي نفس الوقت الذي هو فيه عالم هو حليم فلا يغضب لسؤال ولا يغضب لمسألة مهما كانت قليلة الفائدة وإذا جهل عليه يصبر ويحتمل.

٦ ـ(**وقصداً في غنى**) فهو مع غناه وسعة ذات يده وكثرة أمواله يقتصد في مصاريفه لا يعطي نفسه ما تشتهيه ولا يتركها تسترسل في أخذ ما تحب. . .

٧ ـ (**وخشوعاً في عبادة**) وهذا روح العبادة وقلبها فإنه في عبادته يخشع لله ينكسر قلبه منه رهبة وخوفاً. . .

٨ ـ(**وتجملاً في فاقة**) فمع فقره وحاجته يظهر أمام الناس بمظهر الأغنياء كما قال القرآن حاكياً ذلك بقوله: ﴿**تحسبهم أغنياء من التعفف**. .﴾ فإنه يترك الشكوى إلى الناس والطلب منهم ويظهر الغنى. . .

٩ ـ(**وصبراً في شدة**) فهو في الشدائد صبور لا يتزلزل ولا يضطرب بل يصبر ويحتسب.

١٠ ـ(**وطلباً في حلال**) فهو يطلب الرزق من أبوابه المشروعة المحللة ويكتسب قوته بعرق جبينه وكد يمينه لا تمتد يده إلى الحرام ولا ينال من الحرام مكسباً أو مغنماً.

١١ ـ(**ونشاطاً في هدى**) التقي نشيط مجتهد فيما فيه هدى وخير كتعليم الناس وهدايتهم لا يفتر ولا يتوانى أو يتكاسل.

١٢ ـ(**وتحرجاً عن طمع**) يبتعد ويتجنب كل موارد الطمع لأن الطمع ذل مؤبد وفي الحديث عن علي بن الحسين يقول: رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع مما في أيدي الناس.

١٣ ـ(**يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل**) يقوم بالأعمال الصالحة من حج وصيام وصلاة وغيرها ولكنه يخاف ويخشى أن تكون غير مقبوله لعدم استكمالها لشرائط القبول أو لبعض الموانع من قبولها. . .

١٤ ـ(**يمسي وهمه الشكر ويصبح وهمه الذكر**) المتقي يفتح عينيه على ذكر الله ويغمضهما على ذكر الله. . . يبتدأ بذكر الله ويختم بذكر الله وما بينهما يشتغل بذكر الله، فذكر الله يستوعب عليه يومه. . .

١٥ ـ(**يبيت حذراً ويصبح فرحاً حذراً لما حذّر من الغفلة وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة**) يحذر ويخاف أن يغفل عن تأديب نفسه وعن عبادة ربه وما يرضيه ويفرح إذا توفق للعمل الصالح وقام بما وجب عليه من تنفيذ أمر الله وما يحب. . .

١٦ ـ(**إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب**) فهو يأخذ نفسه بالرياضة الصعبة ويعاندها فيما تحب إذ عاندته فيما يكره فإذا كرهت النوافل ولم

تطاوعه للإتيان بها لم يستجب لها فيما إذا أحبت أمراً كالنزهة أو تناول طعام تشتهيه وبعبارة أخرى هذا قهر لنفسه الأمارة بالسوء عند استصعابها عليه وعدم مطاوعتها له. . .

١٧ ـ(**قرة عينه فيما لا يزول وزهادته فيما لا يبقى**) سروره وفرحه في الباقيات الصالحات التي لا تزول بالموت بل يدوم أجرها وثوابها وزهده فيما لا يبقى من الأعمال التي تموت بموت صاحبها كأكل الطيبات والملذات التي تفنى ولا تبقى. . .

١٨ ـ(**يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل**) فحلمه نتيجة علمه ومعرفته بما للحلماء من الأجر والفضل ويقرن القول بالعمل فإذا قال تصدقوا على الفقراء بادر إلى ذلك وإذا قال صلاة الليل مستحبة ينبغي للمؤمن أن يفعلها قام هو بإدائها وهكذا. . . فلا يفصل بين القول والعمل بل إذا قال عمل بما قال. . .

١٩ ـ(**تراه قريباً أمله**) وهذا تعبير آخر عن قصر أمله وإنه لا أمل له في الأمور البعيدة التي تشغله عن ذكر الله. . .

٢٠ ـ(**قليلاً زلله**) فأخطاؤه قليلة لعدم توجهه نحو الدنيا ولما يملكه من ملكة قوية تمنعه عن الوقوع في الخطأ. . .

٢١ ـ(**خاشعاً قلبه**) قلبه خاضع ذليل خاشع لمعرفته بالله وعظمته.

٢٢ ـ(**قانعة نفسه**) نفسه راضية بما قسمه الله له لعلمه بحكمته وقسمته. . .

٢٣ ـ(**منزوراً أكله**) أكله قليل لعلمه بمضار الأكل الكثير من حيث أنّه يفقد الفطنة ويحرم الإنسان لذة المناجاة.

٢٤ ـ(**سهلاً أمره**) خفيف الحاجات فلا يكلف أحداً أمراً ولا يتكلف لأحد. . .

٢٥ ـ(**حريزاً دينه**) دينه محصّن باليقين والعقيدة الراسخة الثابته لا يستطيع أحد أن يطعن فيه أو يوسوس إليه في أمر يشككه من خلاله به أو يما يحمل من العقيدة. . .

٢٦ ـ (**ميتة شهوته**) شهوته خامدة عن كل حرام بل عن الحلال لأنه في شغل آخر من عبادة ربه والتوجه إليه. . .

٢٧ ـ(**مكظوماً غيظه**) أي يحبس نفسه عن الغضب رجاء لثواب الله وما أعده للكاظمين الغيظ. . .

٢٨ ـ(**الخير منه مأمول والشر منه مأمون**) يقصده الناس لأملهم بأنه يقضي حاجاتهم

ولا شر عنده أو رذيلة فهو مأمون الجانب من هذه الجهة لمعرفتهم بعدم إقترافه للشر أو ارتكابه للباطل . . .

٢٩ ـ(**إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين**) فهو وإن خالط الغافلين بجسده لكنه مع الذاكرين بقلبه، فهو معهم إذن حكماً وفعلاً، وإن كان مع الذاكرين فهو واحد منهم يقول بقولهم ويعمل عملهم ويتوجه إلى الله بتوجههم . . .

٣٠ ـ(**يعفو عمن ظلمه**) من مارس الظلم عليه واعتدى على حقه ثم قدر عليه وتمكن من ظلمه فإنه يعفو عنه ولا يقاصه أو يجازيه على ظلمه بظلم مثله بل يعفو عنه ويصفح وهذه مرتبة جليلة تحتاج إلى مجاهدة للنفس قوية . . .

٣١ ـ(**ويعطي من حرمه**) من حرمه ولم يعطه يبادر هو إلى اعطائه ولا يبخل عليه بما في يده وهذه مرتبة عليا سامقة أن تتحول إلى من حرمك في أيام غناه لتعطيه أنت في أيام غناك . . .

٣٢ ـ(**ويصل من قطعه**) من يقطعه فلا يصله بالحضور عنده بالزيارة أو يقطعه فلا يصله بمال يسد حاجته أو غير ذلك يبادر هو ليصله ويتصل به وخصوصاً إذا كان رحماً قاطعاً فإن الأخبار تؤكد صلته . . .

٣٣ ـ(**بعيداً فحشه**) لا يفحش أبداً لأن التقوى تمنعه من كل قول قبيح سخيف وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه أن يكون فحاشاً لا يبالي بما قال ولا بما قيل له . . .

٣٤ ـ(**ليناً قوله**) يتكلم برفق ولطف ورقة وحنان دون غلظة ولا خشونه ولا جفاء.

٣٥ ـ(**غائباً منكره**) لا منكر ولا رذيلة لأنه لا يرتكب حراماً ولا باطلاً.

٣٦ ـ(**حاضراً معروفه**) متى قصدته في أمر معروف من إصلاح وعمل خير وجدته حاضراً مستعداً يلبي دعوة الداعي إلى كل خير ومعروف . . .

٣٧ ـ(**مقبلاً خيره مدبراً شره**) خيره مستمر لمن يعرفه ولمن لا يعرفه ولمن يستحقه ولمن لا يستحقه وشره مدبر أي لا شر فيه بل ذهب الشر عندما جاءت التقوى واستقر الإيمان . . .

٣٨ ـ(**في الزلازل وقور**) في مواطن الشدة والاضطراب حينما تتزلزل عقول الرجال

وتنهار أعصابهم عندها ترى المتقي متماسك الخطى رزين التفكير سليم التوجه والتصرف يملك أعصابه ويبقى على رزانته ورصانته . . .

٣٩ ـ(**وفي المكاره صبور**) إذا وقع في شدة أو ضيق أو تكاثرت عليه المصائب لا يضجر ولا يسأم ولا يقع فريسة هذه الشدائد بل يفكر بصبر وأناة في الوسائل الكفيلة بخروجه من هذه المآزق الصعبة . . .

٤٠ ـ(**وفي الرخاء شكور**) إذا أعطاه الله وأمده بما عنده ووسع عليه من عطائه فإنه يزداد شكراً على هذه النعمة . . .

٤١ ـ(**لا يحيف على من يبغض ولا يأثم فيمن يحب**) إذا أبغض إنساناً لا يظلمه بل يعطيه حقه وما يستحقه التزاماً بقوله تعالى: ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾.

ومن يحبه فلا يدخله حبه في معصية، فإذا أحب إنساناً لا يعطيه ما لا يستحقه فيرتكب الحرام كما هو المعروف من الولاة حيث أنهم إذا أحبوا إنساناً أعطوه من مال الأمة ما لا يستحق وارتكبوا بذلك الإثم والحرام . . .

٤٢ ـ(**يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه**) إذا كان عليه الحق إعترف به لصاحبه ولم يتوقف حتى يشهد عليه الشهود ويثبتوا عليه هذا الحق لأن ذلك يحط من شأنه ويرميه بالكذب وهو شريف تقي لا يرضى ذل نفسه وإهانتها . . .

٤٣ ـ(**لا يضيع ما استحفظ**) فكل شيء عهد إليه في حفظه يحفظ عنده ولا يضيع سواء كان صلاة أم صوماً أم أمانة ماليه أو معنوية من سر وجوار أو غير ذلك . . .

٤٤ ـ(**ولا ينسى ما ذكر**) ما ذكره الله به من جنة ونار وحساب وعقاب ووعد ووعيد لا ينساه لأنه يداوم عليه ويحفظه ويعمل به . . .

٤٥ ـ(**ولا ينابز بالالقاب**) لا يرمي غيره بالالقاب القبيحة السيئة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**ولا تنابزوا[١] بالالقاب**﴾ لأنها تورث الحقد والبغضاء . . .

٤٦ ـ(**ولا يضار بالجار**) فلا يضر جاره ولا يؤذيه وقد قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه» وقال في حديث آخر: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت إنه سيورثه» . . .

---

(١) سورة الحجرات، آية/ ١١.

٤٧ ـ(**ولا يشمت بالمصائب**) أي لا يفرح بما يصيب الغير من المصائب والنكبات لأن ذلك ينم عن سوء السريرة والطّوية والإنسان المسلم يفرح لفرح المسلم ويحزن لحزنه وينشد له الخير ولكل الناس. . .

٤٨ ـ(**ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق**) إنه دائماً في خط الله لا يخرج عنه ولا يدخل في باطل والباطل هو كل أمر لا يأخذ شرعيته من الله أو لم يأذن به أو لم يدخل تحت عمومٍ أباحه الله. . .

٤٩ ـ(**إن صمت لم يغمّه صمته وإن ضحك لم يعل صوته**) إن سكت ولم يتكلم لم يحزن لذلك لأنه يضع الأمور موضعها فلم يسكت لعجز وإنما سكت لأنه يرى حسن السكوت وهو بعد ذلك كله يذكر الله أوقات صمته. .

وأما إذا ضحك فلا يرتفع صوته أو يقهقه بل يتبسم وهذا هو المعهود من ضحك رسول الله. . .

٥٠ ـ(**وإن بُغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له**) إن اعتدي عليه بضرب أو إهانة أو سلب مال أو متاع صبر واحتسب ـ هذا إذا لم يقدر على رد الاعتداء بأن يكون المعتدي جباراً شقياً ـ أما إذا أمكن تأديب المعتدي ورد ما جاء به فهناك إذا تاب وأناب حسن العفو والصفح وأما إذا بقي على تمرده وعصيانه فالاقتصاص منه وتأديبه من الأمور المطلوبة المرغوبة. . .

٥١ ـ(**نفسه منه في عناء والناس منه في راحة**) نفسه منه في تعب حيث يحملها على القيام بالواجبات والمستحبات ويمنعها عن الشهوات والملذات وأما الناس فإنهم منه في راحة لأنه لا يؤذي أحداً ولا يعتدي على أحد ولا يضر أحداً أو يغضبه. . .

٥٢ ـ(**أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه**) أتعب نفسه في دار الدنيا حيث حملها على القيام بالواجبات وعلى ترك الشهوات من أجل الآخرة وسعادتها والوصول إلى درجات النعيم وكأن هذا تعليل لكون نفسه منه في عناء وكأن قوله أراح الناس من نفسه إيضاح وبيان لراحة الناس منه. . .

٥٣ ـ(**بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ليس تباعده بكبر وعظمة ولا دنوه بمكر وخديعة**) عندما يبتعد عن أهل الدنيا يبتعد عنهم خوفاً من شرورهم وزهداً فيما بين أيديهم وإذا دنا من أحد يدنو منه بعطف وحب ولين ثم أراد أن ينفي محذوراً يتعامل به غير المؤمنين في القرب من الناس والبعد عنهم فإنه لا يتباعد إذا تباعد عن علو وعظمة وتكبر ولا يدنو منهم من أجل قضاء حاجة أو تمرير أمر أو من أجل

أن يخدعهم في أمر يريد الحصول عليه أو الوصول إليه.

ولم يكد الإمام يصل إلى هذا المقام من الكلام حتى صعق همام صعقة كانت نفسه فيها أي وقع على الأرض مغشياً عليه قد فقد الحياة وفارقها.

ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام عندما رأى سقوط الرجل ميتاً.

(أما والله لقد كنت أخافها عليه ثم قال: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها) حلف الإمام إنه كان يخشى على همام مثل هذه الصعقة التي تخرج معها نفسه حيث قرأ في وجهه الزهد والتقوى والعشق لله ورأى أن نفسه شفافة لا تطيق مثل هذا الوصف الدقيق الذي يخرج من قلب الإمام ونفسه...

ثم إنه عليه السلام قال: هكذا تصنع وتؤثر المواعظ البالغة حد النهاية بأهلها الذين يملكون طهارة النفوس ونزاهتها وشفافية الأرواح وعفتها...

ولم يكد ينتهي الإمام من هذا حتى قال له قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين؟.

أي إذا كنت قلت: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها كما فعلت بهمام فلماذا لم تصب منها أنت كما أصيب همام...

فأجابه الإمام عليه السلام:.

(ويحك إن لكل أجل وقتاً لا يعدوه وسبباً لا يتجاوزه. فمهلاً. لا تعد لمثلها فإنما نفث الشيطان على لسانك) هذا تعجب من الإمام أو ذم لهذا الشخص ثم قال له انسيت أن لكل أجل مدة معينة عندما تنتهي يموت ولكل إنسان وقت معين في دار الدنيا فعندما ينتهي هذا الأجل تأتي الأسباب المختلفة لأختراقه فيموت الإنسان، فمنهم من يموت حريقاً ومنهم غريقاً ومنهم بالهدم والآخر بالردم وهكذا ومن الأسباب التي مات بها همام هذه الموعظة البليغة المؤثرة التي دخلت إلى عمق نفسه فانفعل بها وتأثر بمضمونها فصعق منها وقضت عليه...

وأشار الإمام إلى أن هذا الإشكال من هذا الشخص إنما كانت وسوسة شيطانية ألقاها الشيطان على لسانه ليضل بها بعض البسطاء ثم نهاه أن يعود لمثلها...

وقد يقال: إن الإمام باعتبار ما يحمله من نفس ملكوتية رفيعة عظيمة لم تتأثر بها نفسه وإن أمكن أن تتأثر بأبلغ من هذه بينما نفس همام لضعفها وتأثيرها الشديد تأثرت بهذه الموعظة...

ترجمة همام بن شريح.

وردت ترجمة همام مختصرة جداً.

ففي شرح النهج لابن أبي الحديد ترجمه بقوله: هو همام بن شريح بن يزيد بن مرة بن عمرو بن جابر بن يحيي بن الأصهب بن كعب بن الحارث بن سعد بن عمرو بن ذهل بن مرآن بن صيفي بن سعد العشيرة.

وكان همام هذا من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه وكان ناسكاً عابداً قال له: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين حتى أصير بوصفك إياهم كالناظر إليهم وساق خبر الخطبة...

وفي كنز الكراجكي مسنداً عن يحيى ابن أم الطويل قال: عرضت لي حاجة إلى أمير المؤمنين فاستتبعت إليه جندب بن زهير والربيع بن خيثم وابن أخيه همام بن عبادة ابن خيثم وكان من أصحاب البرانس قال: فأقبلنا معتمدين لقاء أمير المؤمنين فألفيناه حين خرج يؤم الناس فأفضى ونحن معه إلى نفر إلى أن قال نوف: فأقبل جندب والربيع فقالا: ما سمة شيعتكم يا أمير المؤمنين؟ فتثاقل عن جوابهما فقام همام بن عبادة فقال: (وذكر الخبر المعروف بطوله) وفي آخر فصاح همام بن عبادة صيحة عظيمة ووقع مغشياً عليه فحركوه فإذا هو قد فارق الحياة رحمة الله عليه فاستعبر الربيع[1] باكياً وقال: ما أسرع ما أودت موعظتك يا أمير المؤمنين بابن أخي ولوددت لو أني بمكانه.. إلى أن قال: فصلى عليه أمير المؤمنين عليه السلام عشية ذلك اليوم وشهد جنازته ونحن معه...

(١) أعيان الشيعة ج ٥١ ص ٧٧.

١٩٤ ـ ومن خطبه له عليه السلام

يصف فيها المنافقين

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ[١] عَنْهُ مِنَ ٱلْمَعْصِيَةِ، وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ[٢] تَمَاماً، وَبِحَبْلِهِ ٱعْتِصَاماً. وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ[٣] إِلَى رِضْوَانِ ٱللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ[٤]، وَتَجَرَّعَ[٥] فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ[٦]. وَقَدْ تَلَوَّنَ[٧] لَهُ ٱلأَدْنَوْنَ[٨]، وَتَأَلَّبَ[٩] عَلَيْهِ ٱلأَقْصَوْنَ[١٠]، وَخَلَعَتْ[١١] إِلَيْهِ ٱلْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا[١٢]، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا[١٣]، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ[١٤] ٱلْمَزَارِ[١٥].

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ ٱللهِ، بِتَقْوَى ٱللهِ، وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ ٱلْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُّونَ[١٦] ٱلْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ[١٧] ٱفْتِنَاناً، وَيَعْمِدُونَكُمْ[١٨] بِكُلِّ عِمَادٍ[١٩] وَيَرْصُدُونَكُمْ[٢٠] بِكُلِّ مِرْصَادٍ. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ[٢١]، وَصِفَاحُهُمْ[٢٢] نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ ٱلْخَفَاءَ[٢٣]، وَيَدِبُّونَ[٢٤] الضَّرَاءَ[٢٥]. وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ ٱلْعَيَاءُ[٢٦]. حَسَدَةُ[٢٧] الرَّخَاءِ[٢٨]، وَمُؤَكِّدُو ٱلْبَلَاءِ[٢٩]، وَمُقْنِطُو[٣٠] الرَّجَاءِ. لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ[٣١]، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ[٣٢] دُمُوعٌ. يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ[٣٣]، وَيَتَرَاقَبُونَ ٱلْجَزَاءَ[٣٤]: إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا[٣٥]، وَإِنْ عَذَلُوا[٣٦] كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا. قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً. يَتَوَصَّلُونَ إِلَى

الطَّمَع بِٱلْيَأْس لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، وَيُنْفِقُوا[٣٧] بِهِ أَعْلَاقَهُمْ[٣٨]. يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ[٣٩]. قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضْلَعُوا[٤٠] ٱلْمَضِيقَ[٤١]، فَهُمْ لُمَةُ[٤٢] الشَّيْطَانِ، وَحُمَةُ[٤٣] النِّيرَانِ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾.

اللغة

١ ـ ذاد عنه : حمى عنه وطرد والذود الطرد والدفع.
٢ ـ المنة : النعمة.
٣ ـ خاض : دخل وأصل الخوض دخول القدم فيما كان مايعاً كالماء والطين.
٤ ـ الغمرة : ما ازدحم وكثر من الماء، الشدة وغمرات الموت شدائده.
٥ ـ تجرع : الماء شربه شيئاً فشيئاً.
٦ ـ الغصّة : الشجا والجمع الغصص.
٧ ـ تلوّن : تنكر، تغير عليه وتقلب ولم يثبت معه.
٨ ـ الأدنون : الأقربون.
٩ ـ تألبوا عليه : تجمعوا عليه.
١٠ ـ الأقصون : الأبعدون.
١١ ـ خلعت : نزعت.
١٢ ـ الأعنة : جمع عنان وهو حبل اللجام.
١٣ ـ الرواحل : الإبل القوية الصالحة للأحمال والأسفار.
١٤ ـ أسحق : أبعد والسحيق البعيد.
١٥ ـ المزار : المكان الذي يزار منه أو فيه.
١٦ ـ الزالون : من زل أي أخطأ.
١٧ ـ يفتنون : يتشعبون فنوناً أي ضروباً متعددة.
١٨ ـ يعمدونكم : يفدحونكم وعمده المرض أي هدّه.
١٩ ـ العماد : ما يقام عليه البناء، الأمر الفادح.
٢٠ ـ يرصدونكم : يقعدون لكم في كل طريق.
٢١ ـ دويّة : مريضة من الدوى بالقصر وهو المرض.
٢٢ ـ الصفاح : جمع صفحة الوجه وهو ظاهره.
٢٣ ـ الخفاء : من خفي الشيء إذا استتر.

٢٤ ـ يدبون : من دبّ النحل إذا مشى مشياً بطيئاً.
٢٥ ـ الضراء : ضد السراء.
٢٦ ـ الداء العياء : الذي يعيي الأطباء.
٢٧ ـ حسدة : جمع حاسد.
٢٨ ـ الرخاء : سعة العيش.
٢٩ ـ البلاء : المصائب.
٣٠ ـ مقنطو : من قنط إذا يئس.
٣١ ـ الصريع : المطروح على الأرض.
٣٢ ـ الشجو : الحزن.
٣٣ ـ يتقارضون الثناء : مأخوذ من القرض لأن كل واحد يثني على الآخر حتى الآخر يثني عليه.
٣٤ ـ يتراقبون الجزاء : يرتقب كل واحد منهم على ثنائه ومدحه لصاحبه جزاء منه.
٣٥ ـ ألحفوا : بالغوا في السؤال وألحوا.
٣٦ ـ عذلوا : لاموا.
٣٧ ـ ينفقون : من نفق البيع راج ونفقت السلعة ضد كسدت.
٣٨ ـ الأعلاق : جمع علق السلعة الثمينة.
٣٩ ـ يموهون : يزينون وموه الشيء طلاه بغير جنسه كطلاء الفضة بالذهب.
٤٠ ـ أضلعوا : من أضلع الشيء أماله وجعله معوجاً.
٤١ ـ المضيق : المسلك الضيّق.
٤٢ ـ اللّمة : بضم ففتح الجماعة.
٤٣ ـ الحمة : بالتخفيف الإبرة تلسع بها العقرب ونحوها.

الشرح

(نحمده على ما وفق له من الطاعة وذاد عنه من المعصية ونسأله لمنته تماماً وبحبله اعتصاماً) هذه الخطبة الشريفة يذكر فيها الإمام المنافقين وأوصافهم وما عملوه من أعمال قبيحة مشينة ذكرها الرضي بعد ذكر المتقين لبيان الفارق الكبير بينهما...

ابتدأ عليه السلام بحمد الله باعتبارين.

الأول: حمد الله على توفيقه على الطاعة فإن من أطاع الله فقد توفق وهذا يحتاج إلى حمد الله لأن ذلك بما جعله الله له من أسباب التوفيق...

الثاني: إن من امتنع عن المعصية ودُفع عنها يحتاج إلى حمد من وفقه لذلك وهو الله والمعنى فيهما يكون بمستوى قولنا: الحمد لله على توفيق الطاعة والبعد عن المعصية، نحمده للأمور التي وفق إليها في الطاعة كما نحمده على الأمور القبيحة التي دفعنا عنها ومنعنا عن ارتكابها.

ثم سأل الله أن تكون نعمه التي منَّ بها علينا أن يتمها ويكملها في الدين والدنيا أو يجعلها متصلة في الدنيا والآخرة كما سأله أن يجعله بدينه وشريعته وقرآنه متمسكاً حتى لا يضل أو ينحرف.

(ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خاض إلى رضوان الله كل غمرة وتجرع فيه كل غصة) بعد حمد اللهشهد للنبي بالعبودية لله كما شهد له بالرسالة له عند البعثة فإنه تعرض لأعظم الأخطار وأفدحها في سبيل رضا الله، وتحمَّل كل مكروه ولم تصفُ له الحياة لحظة في هذا الطريق.

(وقد تلوّن له الأدنون وتألب عليه الأقصون وخلعت إليه العرب أعنتها وضربت إلى محاربته بطون رواحلها حتى أنزلت بساحته عداوتها من أبعد الدار وأسحق المزار) هذه هي حالة أصحاب الرسالات على امتداد التاريخ، إنهم يواجهون العالم برسالتهم وأفكارهم ومفاهيمهم وعقائدهم وبكل ما جاؤوا به وهنا يتوقف الزمن وتعاد دورة الحياة من جديد... هنا في وقت البعثة يتخلى عنه أقرب الناس إليه، إنهم لا يجتمعون معه على رأي واحد... لا يتوحدون تحت فكر النبي القائد بل هذا تشده العصبية لآلهته القديمة... وهذا تشده عادات قومه وتقاليدهم... وهذا يخاف المحاربة والجوع ولذا تشعبت آراء قريش وتعددت في نبوة رسول الله وأما البعيدون عنه الغرباء فإنهم اجتمعوا واتفقوا على محاربته والقضاء على دعوته.

ثم ذكر كيف أعلنت العرب الحرب على رسول الله لقد أسرعوا بكل ما أوتوا من قوة لقتاله وقد عبّر عن هذا المعنى بأنهم قد نزعوا كل الضوابط التي كانت تحكمهم في إعلان الحرب.

لقد ضربوا بطون دوابهم لقتاله، لقد جاؤوا ركباناً وفرساناً حتى خاضوا معه غمار الحرب من أبعد الأماكن وأعمق المحلات... جاؤوا إليه من كل فج عميق يريدون القضاء عليه وعلى رسالته ونظرة واحدة إلى زمن بعثة رسول الله وإلى سيرته في مكة وهجرته إلى المدينة ثم إلى حروبه يكشف كل ذلك بوضوح كيف اجتمع العرب والتقوا من كل أطراف الجزيرة لقتال النبي واستئصال شأفته...

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحذركم أهل النفاق فإنهم الضالون المضلون والزالون المزلون يتلونون ألواناً ويفتنون افتناناً ويعمدونكم بكل عماد ويرصدونكم بكل مرصاد) ابتدأ عليه السلام بأعظم الوصايا التي بقي يوصي بها باستمرار وهي الوصية بالتقوى التي تعنى الالتزام بخط الله وعدم الإنحراف عنه.

ثم حذرهم من أهل النفاق... أن يفتنوهم عن دينهم ويضلوهم السبيل وذكر أوصاف أهل النفاق.

ـ فإنهم ضالون في أنفسهم منحرفون في سلوكهم وأيضاً مضلّون لغيرهم، يسعون في سبيل إضلال الناس والإنحراف بهم ليكونوا معهم في الدرك الأسفل من النار...

ـ إنهم المخطئون في فكرهم وعملهم الذين يسعون في زلل الناس وسقوطهم في مستنقعات الشك والتردد.

ـ إنهم يتلونون ألواناً لا يثبتون على رأي واحد ولا يقابلون الناس بوجه واحد بل يلبسون الأقنعة المتعددة بحسب الظروف والأوقات والأمكنة والأشخاص وإننا نرى بعض هذه النماذج تتحرك في وسطنا الاجتماعي والحياتي ويكاد النص ينطبق عليها بدقة...

ـ إنهم يفتّنون افتناناً: يتشعّبون في أقوالهم وأفعالهم ويتفنون في مكرهم وخداعهم...

ـ إنهم يعمدونكم بكل عماد ويرصدونكم بكل مرصاد: إنهم ينزلون بكم كل أمر عظيم وخطب فظيع ورزية كبرى ومصيبة عظمى إنهم يقصدونكم بأعظم الفوادح وأثقل المصيبات إنهم يراقبونكم بدقة ويقطعون عليكم كل الطرق بالمراقبة لكم ومتابعتكم في كل حركاتكم كي ينحرفوا بكم عن سواء السبيل. وبعبارة أخرى إن المنافقين يعيشون في حالة رقابة عليكم ليجدوا نقاط الضعف التي منها يستطيعون إضلالكم والإنحراف بكم...

(قلوبهم دوية وصفاحهم نقية) إنهم يحملون قلوباً مريضة فاسدة قد خرجت عن حد الاعتدال إلى النفاق والشك والتردد وعدم الإيمان وأما لو نظرت إلى وجوههم وسمعت كلامهم لغرك ذلك منهم وأعجبك ما تسمع وما ترى ورحت تحسن الظن بهم غافلاً عما يحمله القلب من البغض والشحناء...

(يمشون الخفاء ويدبون الضراء) فهم يمشون في الخفاء يكيدون للناس ويسعون

في إيذائهم والإضرار بهم لا يستطيعون مواجهتهم بالحقيقة ولا إظهار ما في أنفسهم من الإلتواء والاعوجاج.

وقوله: «يدبون الضراء» مثل يضرب لمن يختل صاحبه.

(وصفهم دواء وقولهم شفاء وفعلهم الداء العياء) إذا قالوا نطقوا بما ينطق به المؤمنون وإذا استشارهم أحد في حالة وصفوا له الدواء الناجع فهم خبراء في رص الكلام وتنميقه وحسن إخراجه، إنهم عندما يتحدثون أمامك تراهم خبراء في وصفات الشفاء للنفوس ولكن إذا جئت لفعلهم فهو الداء الذي لا يمكن معالجته وشفاؤه إنه يعجز أحذق الأطباء وأشدهم خبرة... وقد رأينا بعض المنافقين علماء في الدين وفي المجتمع إذا حدث في الصلاة أو الصوم أو غيرهما تراه يحلق ويبدع ويرغب ويرهب ولكنه لا يصلى ولا يصوم ولا يتعبد لله بشيء يقربه منه لأنه يعيش النفاق في أبشع صوره...

(حسدة الرخاء ومؤكدو البلاء ومقنطو الرجاء) إن وجدوا فرداً في حالة من السعة والرخاء والعيش الرغيد حسدوه وأخذوا يعملون الحيل من أجل إزالة هذه النعم عنه وتحويلها عن داره.

وإذا وقع أحد في مصيبة أو بلية وفّروا له وسائل بقائها وساعدوا على دوامها وازديادها وأكدوا له أن لا نجاة له منها.

وإذا لاح للإنسان أمل في أمر يحبه وكان له رجاء في شفاء من علة فإنهم يدخلون إلى قلبه اليأس من ذلك الأمر وأنه لا شفاء له ولا دواء، إنهم وجوه مشؤومة لا تنذر إلا بالخراب والدمار وسؤ الحال...

(لهم بكل طريق صريع وإلى كل قلب شفيع ولكل شجو دموع).

لا يخلو طريق من شرورهم وأذاهم فإنهم يعيشون الكيد والمكر والخديعة في كل الأماكن وأينما وُجدوا وجد أذاهم للناس واحتيالهم عليهم ومكرهم بهم.

ومع هذا فإنهم يملكون ألسنة طيبة سلسة رطبة استطاعوا بها أن يدخلوا إلى قلوب الناس ويكوّنوا لهم رصيداً من الحب على أساسه توادهم الناس وتقبل منهم... إنهم يعدون في كل مأتم حزن دموعاً غزيرة يذرفونها توصلاً إلى مشاركتهم في الظاهر من أجل أغراضهم الدنيئة.

إنها دموع التماسيح يذرفونها في الظاهر ويريدون منها اقتناص فريستهم وقد ورد

حديث يقول: إذا تم نفاق المرء ملك دموعه (أو عينيه).

(يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء) وهذه طريقة أهل النفاق إنهم يثنون على بعضهم فهذا يثني على ذاك وذاك يثني على هذا وهكذا مأخوذ من القرض لأن هذا يثني رجاء أن يثني عليه الآخر وهكذا.

وكل منهم ينتظر الجزاء، جزاء مديحه وثنائه إما بمديح مثله أو بأمر مادي مالي...

(إن سألوا ألحفوا) وهذه عادة أهل النفاق إن أرادوا أمراً ألحوا وشدّدوا الطلب خوفاً من فوت ما يسألون وهذا أمر مذموم قال تعالى: **﴿لا يسألون[1] الناس إلحافاً﴾**.

(وإن عذلوا كشفوا) إذا لاموا أحداً ببعض الأمور المعيبة كشفوا ذلك أمام الناس وفضحوه بما يعلمون من عيوبه وأخطائه...

(وإن حكموا أسرفوا) إن تولوا سلطة أو ولاية أو كان لهم يد على الناس قوية تجاوزوا المرسوم ودخلوا في الحرام والفساد والضلال وأكلوا أكثر من حقهم ومالهم...

(قد أعدوا لكل حق باطلاً ولكل قائم مائلاً) طريقة أهل النفاق أنهم لا ينامون على ما يجري في ساحتهم بل يعدّون لكل أمر لا يريدونه أمراً يبطله ويفسده.

فقد أعدّوا وهيئوا لكل حق باطلاً يطفئونه، أثاروا الشبهات ليطمسوا الحق ويموهوه على الناس.

وكذلك كل أمر مستقيم صحيح سليم وفروا في مقابله أمراً معوجاً ينحرف بهذه الإستقامة...

(ولكل حي قاتلاً) أي لكل حي من الأحياء أو لكل حق من الحقوق أو حكم من الأحكام ما يبطله ويفسده ويقضي عليه فلا يعود للعمل به كما هي حالة المنافقين الذين قتلوا أحكام الشريعة وعطلوا العمل بها واستبدلوا ذلك بالأحكام الوضعية المستوردة من بلاد الكفر والضلال...

(ولكل باب مفتاحاً) فكل باب موصد في وجوههم لا يفتح لهم جعلوا له مفتاحاً

---

(١) سورة البقرة، آية/ ٢٧٣.

من ريائهم ومكرهم وتملقهم. . .

(ولكل ليل صباحاً) في كل شدة مدلهمة أوجدوا حيلة بها يستطيعون الخروج من ذلك النفق المظلم القاتم. . .

(يتوصلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم وينفقوا به أعلاقهم) إنهم يظهرون اليأس بما في أيدي الناس ليستجلبوا قلوبهم إليهم ويميلوا بها نحوهم توصلاً إلى تحقيق أطماعهم وما يرغبون فيه من ازدهار أسواقهم وتصريف نفائس ما عندهم ـ في نظرهم ـ وهو النفاق والرياء والخداع والضلال. . .

(يقولون فيشبهون ويصفون فيموهون) إذا قالوا جاؤوا بالألفاظ التي تحتمل عدة وجوه فيشتبه الأمر على الناس وينحرفون بهم عن الاستقامة، أو يقولون قولاً يشبه الحق فيضلون الناس وكذلك يصفون الباطل بصفات الحق فيغرّون به البسطاء ليقبلوه. . .

(قد هونوا الطريق وأضلعوا المضيق) قد سهلوا طريق الباطل على الناس ورغبوهم فيه بما عندهم من مكر وحيل ولم يجعلوه واضحاً بل له تعاريج وانحرافات حتى يمر على الناس ويتقبلوه بدون أن يكتشفوا حقيقته.

(فهم لمة الشيطان وحمة النيران ﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾) إنهم جماعة الشيطان الذين يسيرون معه ويمشون في ركابه وقد وصفهم بحمة النيران أي توْقّد النار وشدة لهبها شبههم بذلك لكثرة شرورهم وآذاهم. ثم ختم الخطبة بأن هؤلاء المنافقين بأوصافهم المتقدمة هم حزب الشيطان ـ أتباعه وأنصاره والسائرون على خطاه ـ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ـ وهل هناك أكبر خسارة من حزب الشيطان حيث النار مأواهم وبئس المصير. . .

١٩٥ - ومن خطبة له عليه السلام

يحمد الله ويثني على نبيه ويعظ

حمد الله

ٱلْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلاَلِ كِبْرِيَائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَ[١] ٱلْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ[٢] خَطَرَاتِ[٣] هَمَاهِمِ[٤] النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ[٥] كُنْهِ[٦] صِفَتِهِ.

الشهادتان

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ ٱللهُ، شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ[٧]، وَإِخْلاَصٍ وَإِذْعَانٍ[٨]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلاَمُ[٩] ٱلْهُدَى دَارِسَةٌ، وَمَنَاهِجُ[١٠] الدِّينِ طَامِسَةٌ[١١]، فَصَدَعَ[١٢] بِٱلْحَقِّ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِٱلْقَصْدِ[١٣]، صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

العظة

وَٱعْلَمُوا، عِبَادَ ٱللهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقَكُمْ عَبَثاً[١٤]، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً[١٥]، عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَٱسْتَفْتِحُوهُ[١٦]، وَٱسْتَنْجِحُوهُ[١٧]، وَٱطْلُبُوا إِلَيْهِ وَٱسْتَمْنِحُوهُ[١٨]، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ. وَلاَ أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ، وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ؛ لاَ يَثْلِمُهُ[١٩] ٱلْعَطَاءُ، وَلاَ يَنْقُصُهُ ٱلْحِبَاءُ[٢٠]، وَلاَ يَسْتَنْفِدُهُ[٢١]

سَائِلٌ، وَلاَ يَسْتَقْصِيهِ(٢٢) نَائِلٌ(٢٣)، وَلاَ يَلْوِيهِ(٢٤) شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلاَ يُلْهِيهِ(٢٥) صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلاَ تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، وَلاَ يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رحْمَةٍ، وَلاَ تُولِهُهُ(٢٦) رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلاَ يُجِنُّهُ(٢٧) ٱلْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلاَ يَقْطَعُهُ(٢٨) الظُّهُورُ عَنِ ٱلْبُطُونِ. قَرُبَ فَنَأَى(٢٩)، وَعَلاَ فَدَنَا(٣٠)، وَظَهَرَ فَبَطَنَ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ(٣١) وَلَمْ يُدَنْ. لَمْ يَذْرَإِ(٣٢) ٱلْخَلْقَ بِٱحْتِيَالٍ، وَلاَ ٱسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلاَلٍ(٣٣).

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ ٱللهِ، بِتَقْوَى ٱللهِ، فَإِنَّهَا الزِّمَامُ(٣٤) وَٱلْقِوَامُ(٣٥)، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا(٣٦)، وَٱعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا(٣٧)، تَؤُلْ(٣٨) بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ(٣٩) الدَّعَةِ(٤٠) وَأَوْطَانِ السَّعِةِ(٤١)، وَمَعَاقِلِ(٤٢) ٱلْحِرْزِ(٤٣) وَمَنَازِلِ ٱلْعِزِّ، فِي «يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلأَبْصَارُ(٤٤)»، وَتُظْلِمُ لَهُ ٱلأَقْطَارُ(٤٥). وَتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ(٤٦) ٱلْعِشَارِ(٤٧)، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ(٤٨)، فَتَزْهَقُ(٤٩) كُلُّ مُهْجَةٍ(٥٠)، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ(٥٢)، وَتَذِلُّ الشُّمُّ(٥٣) الشَّوَامِخُ(٥٤)، والصُّمُّ(٥٥) الرَّوَاسِخُ(٥٦)، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا(٥٧) سَرَاباً(٥٨) رَقْرَقاً(٥٩)، وَمَعْهَدُهَا(٦٠) قَاعاً(٦١) سَمْلَقاً(٦٢)، فَلاَ شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَلاَ حَمِيمٌ يَنْفَعُ، وَلاَ مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ.

اللغة

١ ـ المقل : جمع مقلة كغرفة وغرف وهي شحمة العين التي تجمع السواد والبياض.

٢ ـ ردع : زجر ودفع.

٣ ـ خطرات : من خطر الشيء في ذهنه إذا لاح في فكره ومرّ.

٤ ـ هماهم : من الهمهمة وهو حديث النفس مع صوت خفي لا يفهم.

٥ ـ العرفان : المعرفة.

٦ ـ كنه الشيء : حقيقته ونهايته وأقصاه.

٧ ـ الإيقان : العلم القطعي.

٨ ـ الإذعان : الانقياد.
٩ ـ الاعلام : المنار والجبال يستدل بها في الطرقات.
١٠ ـ المناهج : السبل الواضحة.
١١ ـ الطامسة : الدارسة وطمس الشيء محاه ودرسه.
١٢ ـ صدع : أصله الشق يظهر ما تحته وهو هنا بمعنى كشف وبين.
١٣ ـ القصد : العدل.
١٤ ـ العبث : ما لا غرض فيه.
١٥ ـ الهمل : الإبل بدون راعٍ.
١٦ ـ استفتحوه : أسألوه الفتح.
١٧ ـ استنجحوه : اطلبوا منه النجاح.
١٨ ـ استمنحوه : اطلبوا منه المنحة وهي العطية.
١٩ ـ الثلمة : الخلل والنقص وثلم السيف كسر جانبه.
٢٠ ـ الحباء : النوال والعطية بدون مكافأه.
٢١ ـ لا يستنفده : لا يفنيه والنفاد الفناء.
٢٢ ـ الاستقصاء : تتبع الأمر وأحصاؤه إلى آخره.
٢٣ ـ النائل والنوال : العطاء.
٢٤ ـ لا يلويه : لا يميله ولوى الرجل وجهه إذا أعرض وانحرف.
٢٥ ـ الهاه كذا : شغله.
٢٦ ـ تولهه : تذهله من الوله وهو التحير والتردد.
٢٧ ـ لا يجنه : لا يستره.
٢٨ ـ لا يقطعه : لا يفصله.
٢٩ ـ نأى : بعد.
٣٠ ـ دنا : قرب.
٣١ ـ دان : غلب وقهر، أو جازى وحاسب.
٣٢ ـ ذرأ : خلق.
٣٣ ـ الكلال : العجز والاعياء.
٣٤ ـ الزمام : المقود.
٣٥ ـ القوام : بالفتح ـ أي عيش يحيا به الأبرار.
٣٦ ـ الوثائق : جمع وثيقة وهي ما يوثق به.
٣٧ ـ الحقائق : جمع الحقيقة وهي الراية.
٣٨ ـ تؤل : ترجع.
٣٩ ـ الاكنان : جمع كن مايستر.

٤٠ ـ الدعة : الراحة.
٤١ ـ السعة : الجدة.
٤٢ ـ المعاقل : جمع معقل وهو الملجأ.
٤٣ ـ الحرز : الحفظ.
٤٤ ـ شخوص الابصار : بقاؤها مفتوحة دون أن تطرف.
٤٥ ـ الاقطار : الجوانب.
٤٦ ـ الصروم : صرم وصرمة بالكسر القطعة من الإبل نحو الثلاثين.
٤٧ ـ العشار : النوق التي مضى على طرق الفحل لها عشرة أشهر فلها هذه المدة حامل.
٤٨ ـ الصور : القرن ينفخ فيه، البوق.
٤٩ ـ تزهق : تهلك.
٥٠ ـ المهجة : الروح.
٥١ ـ تبكم : تخرس والأبكم هو الأخرس.
٥٢ ـ اللهجة : اللسان ولغة الإنسان الذي طبع عليها.
٥٣ ـ الشم : جمع أشم وهو العالي المرتفع.
٥٤ ـ الشوامخ : المرتفعات والأعالي.
٥٥ ـ الصُّم : جمع أصم وهو الصلب.
٥٦ ـ الرواسخ : جمع الراسخ وهو الثابت.
٥٧ ـ الصلد : الصلب الشديد الصلابة.
٥٨ ـ السراب : ما يترائى في النهار فيظن أنه ماء وهو لا شيء.
٥٩ ـ الرقراق : المضطرب.
٦٠ ـ معهدها : المحل الذي كان يعهد وجودها فيه.
٦١ ـ القاع : الأرض الخالية السهلة التي انفرجت عنها الجبال.
٦٢ ـ السملق : المستوى والمتساوي الذي لا إرتفاع في أحد جوانبه...

الشرح

(الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حير مقل العقول من عجائب قدرته وردع خطرات هماهم النفوس عن عرفان كنه صفته) هذه الخطبة ابتدأت بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي وآله وتضمنت موعظة للمؤمنين أن يعتبروا ويتقوا الله.

ابتدأ بحمد الله الذي أظهر وأبان من بدائع الصنع والتكوين في السماوات والأرض والأنفس والآفاق ما جعل البصائر حائرة لا تصل إلى أسرار ذلك ولا تدرك غوره ومنع ودفع ما تتحدث به النفوس من احتمال وصولها إلى معرفة حقيقة صفته بأي طريقة كانت وكيف تمت. . .

ومختصر المراد: أن العقول والأفكار تعجز عن ادراك عظمة الله والوصول إلى حقيقة صفته وقدرته لأنها محدودة والله لا حدود له ولا يقع تحت قدرة الفكر وسلطته. . .

(وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة إيمان وإيقان وإخلاص وإذعان) بعد حمد الله ثنى بالشهادة لله بالواحدانية ووصفها بأنها شهادة إيمان يطابق القلب اللسان صادرة عن علم ويقين بأن يكون الاعتقاد بها عن نظر وفكر وتصديق بدون شك فيه ولا ارتياب مع الإخلاص فيها بدون رياء ومع الانقياد لمتطلباتها وما وراءها من الآثار والالتزامات. . .

(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله وأعلام الهدى دارسة ومناهج الدين طامسة) هذه هي الشهادة الثانية التي هي من متممات الشهادة الأولى والمتفرعة عنها؛ الشهادة للنبي بالعبودية لله وإنه رسول الله.

ثم وصف ما كان عليه العالم حينما بعث الله محمداً رسولاً فقد أرسله وآثار الأنبياء، وتعاليمهم قد محيت وعفيت آثارها فقد جاءت الجاهلية فمحت كل تراث الأنبياء ولم يعد لهم من وجود يذكر كما أن شرائع الدين وتعاليم الأنبياء قد انطمست واندرست.

(فصدع بالحق ونصح للخلق وهدى إلى الرشد وأمر بالقصد صلى الله عليه وآله وسلم) جاء النبي ﷺ فظهر بالحق الذي عنده امتثالاً لقوله تعالى: **﴿فاصدع بما تؤمر﴾** فقد أبان ما عنده من عقائد وأحكام وتشريع.

ونصح للناس حينما بين لهم طريق الخير وأمرهم بالتزامه وبين لهم طريق الشر ونهاهم عنه وعن سلوكه.

وهدى إلى الرشد ودل الناس وقادهم إلى الصواب والسداد وما فيه خير.

وأمر بالقصد وهو الإعتدال في الأمور والاستقامة فيها بأن لا يأخذ جانب الإفراط في الأمور ولا التفريط ويسلك مستقيم السبيل لأنه الموصل إلى مرضاة الله.

(وأعلموا عباد الله أنه لم يخلقكم عبثاً ولم يرسلكم هملاً علم مبلغ نعمه عليكم

وأحصى إحسانه إليكم) وهذه صيحة علوية بالناس أن يتنبهوا ويستيقظوا فإنه سبحانه لم يخلقنا عبثاً بدون غاية أو قصد وبعد خلقنا لم يتركنا وشأننا كالسوائم تسرح على وجهها بدون سؤال بل خلقنا لحكمة وبعدها هناك حساب يسألنا عن كل صغيرة وكبيرة. . .

ثم بين أن الله عالم بمفردات إحسانه إلينا فهو يحصيها ويعدها ويعرف مبلغها وتفصيلات تلك النعم وقد أراد من خلال ذلك أن يدفعنا للشكر عليها من جهة وأنه يحاسبنا عليها من جهة أخرى إذا أهملنا شكرها. . .

(فاستفتحوه واستنجحوه واطلبوا إليه واستمنحوه) اطلبوا منه أن يفتح أبواب رحمته كي تؤدوا شكرها واطلبوا منه النجاح والتوفيق في إداء ما عليكم واطلبوا منه ماتريدون واطلبوا منه منحه وعطاياه وما ترغبون به وتحبونه. . .

(فما قطعكم عنه حجاب ولا أغلق عنكم دونه باب وإنه لبكل مكان وفي كل حين وأوان ومع كل إنسان وجان) ليس بينكم وبينه حجاب يفصلكم عنه أو يمنعكم من الاتصال به ولم يرتج أبوابه دونكم ويمنعكم من الدخول عليه بل أبوابه مفتحات للسائلين وليس في مكان دون مكان بل في أي أرض دعوتموه فيها كان حاضراً وفي كل وقت وزمان هو حاضر موجود فالله قريب منكم على اتصال بكم لا يحجبه عنكم حجاب الزمان ولا المكان ولا المادة العمياء وهو أقرب إلينا من حبل الوريد ومعنا أينما كنا وحيثما وجدنا إنه مع كل بشر وجان. . .

(لا يثلمه العطاء ولا ينقصه الحباء ولا يستنفده سائل ولا يستقصيه نائل) فمهما أعطى لا يؤثر فيما عنده العطاء ، وكذلك لا ينقص عطاؤه شيئاً من خزائنه ومهما سأل السائلون وأعطوا ما سألوا لا تنتهي عطاياه ولا يأتي على آخرها كل الطالبين لأن هذه الحالات إنما تطرأ على الممكن المحتاج فتؤثر فيه وفي ملكه أما الواجب الوجود فهو الغني المطلق الذي لا يتأثر بكل ذلك وهو الغني عن الإمكان والحاجة. . .

(ولا يلوية شخص عن شخص ولا يلهيه صوت عن صوت) وهذه من صفات الله ومن قدرته العظيمة التي ترتفع به عن الحالات البشرية فإذا كان الواحد منا مشغول بأحد الناس أعرض عن الآخر وإذا التفت نحو صوت اشتغل به عن غيره للقدرة المحدودة عند الإنسان والعجز المستحكم فيه أما الله فإنه يستوعب الجميع ولا يشغله إنسان عن إنسان ولا صوت عن صوت بل يسمع جميع الأصوات ولا يشغله شأن عن شأن. . .

(ولا تحجزه هبة عن سلب ولا يشغله غضب عن رحمة) فهو في نفس الوقت الذي يعطي بعض الناس يسلب آخرين ما أعطاهم وإذا غضب على قوم فعاقبهم لا يمنعه ذلك

عن رحمة آخرين وإكرامهم وهذا عكس الإنسان الذي لا يقدر على استيعاب هذه المعاني المختلفة. . .

(ولا تولهة رحمة عن عقاب ولا يجنه البطون عن الظهور ولا يقطعه الظهور عن البطون) لا تتركه الرحمة متردداً مضطرباً عن العقاب لأن الواحد منا إذا كثرت رحمته صعب عليه العقاب وتردد في ذلك نتيجة الحالة النفسية التي أعتادها من الرحمة أما الله فإنه يرحم ويعاقب في وقت واحد وهو قادر على جمع الأمرين معاً.

وكذلك لا يستره الخفاء الذي هو فيه عن الظهور للعيان ببصائر القلوب فهو في نفس الوقت الذي فيه باطن هو ظاهر، باطن بالذات ظاهر لدى العقل والإيمان. . .

(قرب فنأى وعلا فدنا) قرب إلينا حتى كان أقرب إلينا من حبل الوريد وبعد حتى كان أبعد ما يكون بحيث لا تراه العيون. . وقيل قرب فعلاً ونأى ذاتاً وهو عين المعنى الأول.

وعلا بحوله وطوله وقوته ودنا بإحسانه وفضله ومننه. . .

(وظهر فبطن وبطن فعلن) وهذا تأكيد للسابق فإنه ظهر بأفعاله وخفي بذاته واختفى بذاته فظهر بأفعاله أوان من ظهوره وشدته خفي ومن شدة خفائه ظهر. . .

(ودان ولم يدن) قهر عباده بالموت والفناء وفي كل أمر ولم يقهره عباده بشيء أبداً. . . أو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. . أو تسلط على كل أحد ولم يتسلط عليه أحد. . .

(لم يذرأ الخلق باحتيال ولا استعان بهم لكلال) لم يستعن على خلقه الخلق بواسطة أحد أو معونته بل خلقهم بحكمته وعلمه دون واسطة كما أنه لم يستعن بهم من أجل نصرته لأنه عاجز عن قهر الأعداء بل خلقهم من أجل أن يتكاملوا ومن أجل سعادتهم. . . وقيل أنه لم يخلقهم بمهارة ودقة كما هي الحال عند الناس فإنهم يفكرون ويجيلون النظر ثم يعملون والله سبحانه يقول للشيء كن فيكون ولا يحتاج إلى أكثر من ذلك.

كما أنه لم يخلق الخلق من أجل اعانته إذا أصابه أعياء أو تعب بل خلقهم وهو غني عنهم، خلقهم ليتكاملوا ويعلوا. . .

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنها الزمام والقوام) عاد عليه السلام يوصي بتقوى الله وقد بين أنها المقود الذي يمنع الإنسان من التردي في الضلال والوقوع في

الهلاك وإنها القوام التي بها تقوم الطاعات ويصبح لها عند الله أجراً وثواباً . . .

(فتمسكوا بوثائقها واعتصموا بحقائقها تؤل بكم إلى أكنان الدعة وأوطان السعة ومعاقل الحرز ومنازل العز) تمسكوا بالأمور الشرعية الثابتة الموثوق بها مصدراً وتشريعاً وما يوثق به من الطاعات والقربات وسائر الأعمال المحببة لله وتمسكوا بالأمور الثابتة منها دون ما كان يدور حوله شك أو تردد أو فيه ارتياب وشبهة أو احتمال عدم المشروعية، فإنكم إن تمسكتم بها تعود بكم إلى الجنة التي هي في هذه المواصفات الرفيعة العظيمة . . .

ـ تعود بكم إلى أكنان الدعة: وهي مواطن الراحة التي لا نصب فيها ولا تعب.

ـ وأوطان السعة: وهي الأوطان الغنية بالخيرات وهي غرفات الجنة ومنازلها وهي واسعة لا تحد ولا تعد.

ـ وهي أيضاً معامل الحرز: أي الملاجىء التي من دخلها يأمن من النار ويحفظ من ألمها وعذابها.

ـ وهي أيضاً منازل العز التي لا ذل فيها ولا هوان لأنها منازل الأنبياء والمقربين من رب العالمين، منازل القرب من الله وجار الله عزيز . . .

(في «يوم تشخص فيه الأبصار» وتظلم له الأقطار وتعطل فيه صروم العشار) ذكر التقوى وأمر بالاعتصام بها لأنها تعود بهذه الثمرات الطيبة ـ من أكنان الدعة وأوطان السعة ومعاقل الحرز ومنازل العز ـ تعود بهذه في يوم صعب إنه يوم القيامة ثم أخذ في وصفه بعدة أوصاف مرعبة ورد أكثرها في كتاب الله.

١ ـ يوم تشخص فيه الأبصار قال تعالى: **﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . . ﴾**.

فهي لا تغمض لهول ما ترى في ذلك اليوم ولا تطرف . . .

٢ ـ وتظلم له الأقطار: يتحول ذلك اليوم إلى يوم مظلم في كل جوانبه ونواحيه بحيث لا يرى الإنسان فيه نفسه قال تعالى: **﴿إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت﴾** فتكوير الشمس ذهاب نورها.

٣ ـ تعطل فيه صروم العشار: تهمل فيه قوافل النوق فلا يلتفت إليها أصحابها لشغلهم بأنفسهم وقد كانوا في دار الدنيا يحفظونها ويرعون شؤونها ويقومون بخدمتها بل كانت أعز ما لديهم . . ، لقد شغلتهم أنفسهم عن الاشتغال بغيرهم . . قال تعالى: **﴿وإذا**

العشار عطلت﴾ أي تركت هملاً بدون راعٍ.

٤ ـ**(وينفخ في الصور)** قال تعالى **﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض﴾** أي وقع صريعاً ميتاً وتندك عندها الجبال.

وفي ذلك اليوم بعد النفخ في الصور.

أ ـ**(فتزهق كل مهجة)** كل روح تموت.

ب ـ**(وتبكم كل لهجة)** تخرس الألسن.

ج ـ**(وتذل الشم الشوامخ والصم الرواسخ)** تندك الجبال العالية الشامخة.

قال تعالى: **﴿يسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً..﴾**.

وكذلك الجبال الثابته الصلدة الصلبة القوية فإنها تندك وتنسف من جذورها...

(فيصير صلدها سراباً رقرقاً ومعهدها قاعاً سملقاً) فهذه الجبال القوية الصلبة تتفتت حتى تصير كالسراب لا وجود لها وما كان عامراً بأهله يضحى قفراً خالياً وأرضاً مستوية لا عمارة فيها ولا بناء عليها ولا سكن ولا سكان على ترابها.

(فلا شفيع يشفع ولا حميم ينفع ولا معذرة تدفع) انقطعت العلاقات التي كانت قائمة في الدنيا بين الأصدقاء والأصحاب وتعطلت الشفاعات والوساطات فلا شفيع له يد ولا زعيم يشفع في مذنب ويأخذ بيده ليدفع عنه شر ذلك اليوم ولا صديق إن وجد ينفع لأنه مشغول بنفسه وليس هناك اعتذار يعتذر به عن تقصير حصل أو جرم وقع...

قال تعالى حكاية عن الغاوين: **﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم..﴾**.

١٩٦ ـ ومن خطبة له عليه السلام

بعثة النبي

بَعَثَهُ حِينَ لاَ عَلَمٌ[١] قَائِمٌ، وَلاَ مَنَارٌ[٢] سَاطِعٌ[٣]، وَلاَ مَنْهَجٌ[٤] وَاضِحٌ.

العظة بالزهد

أُوصِيكُمْ، عِبَادَ ٱللهِ، بِتَقْوَى ٱللهِ، وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ[٥]، وَمَحَلَّةُ[٦] تَنْغِيصٍ[٧]، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ[٨]، وَقَاطِنُهَا[٩] بَائِنٌ[١٠]، تَمِيدُ[١١] بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا[١٢] ٱلْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ[١٣] ٱلْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ ٱلْغَرِقُ ٱلْوَبِقُ[١٤]، وَمِنْهُمُ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ ٱلأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ[١٥] الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا[١٦]، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا[١٧]، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلَكٍ!.

عِبَادَ ٱللهِ، ٱلآنَ فَٱعْلَمُوا، وَٱلأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَٱلأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَٱلأَعْضَاءُ[١٨] لَدْنَةٌ[١٩]، وَٱلْمُنْقَلَبُ[٢٠] فَسِيحٌ[٢١]، وَٱلْمَجَالُ[٢٢] عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهَاقِ[٢٣] ٱلْفَوْتِ[٢٤]، وَحُلُولِ ٱلْمَوْتِ. فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلاَ تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ.

اللغة

١ ـ العلم : محركة ما ينصب في الطريق ليهتدى به.

٢ ـ المنار : موضع النور، العلم يجعل في الطريق ليهتدى به.

٣ ـ الساطع : المرتفع.

٤ ـ المنهج : الطريق الواضح.
٥ ـ الشخوص : الذهاب والانتقال إلى بعيد وشخص عن البلد إذا رحل عنه.
٦ ـ المحلة : منزل الحلول.
٧ ـ نغّص عيشه : كدّره.
٨ ـ الظاعن : المسافر، الراحل.
٩ ـ القاطن : المقيم.
١٠ ـ البائن : البعيد.
١١ ـ تميد : تضطرب.
١٢ ـ تقصفها : تكسرها.
١٣ ـ اللجج : جمع لجة وهي معظم البحر.
١٤ ـ الوبق : بكسر الباء الهالك.
١٥ ـ تحفزه : تدفعه.
١٦ ـ الأذيال : آخر الشيء.
١٧ ـ الأهوال : المخاوف، الأمور المفزعة.
١٨ ـ الأعضاء : الأجزاء وتطلق على اليدين والرجلين.
١٩ ـ اللدن : بالفتح اللّين.
٢٠ ـ المنقلب : بفتح اللام مكان الانقلاب والمرجع.
٢١ ـ الفسيح : الواسع.
٢٢ ـ المجال : محل الجولان والجولان هو الدواران والطواف.
٢٣ ـ أرهقه الشيء : أعجله فلم يتمكن من فعله، والإرهاق أن يحمل الإنسان على ما لا يطيقه.
٢٤ ـ الفوت : ذهاب الفرصة.

الشرح

(بعثه حين لا علم قائم ولا منار ساطع ولا منهج واضح) هذه الخطبة تتضمن الوصية بالتقوى والتنفير من الدنيا بذكر معايبها كما فيها دعوة إلى الاستعداد للموت ابتدأها بذكر بعثة رسول الله لأنها أعظم النعم وبها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. . .

بعث الله نبيه في وقت قد اندرست فيه تعاليم الأنبياء وتعطلت فيه أحكام الشريعة والدين فقد بعثه بعد فترة من الرسل حيث لا أنبياء ولا رسل ينقلون مرادات الله ويحملون إلى الناس تعاليمه فقد غابت الأنبياء والرسل ولا وحي من الله على أحد كما أن المناهج

والشرائع المتقدمة لم تبق على طهرها بل تلوثت وتحرّفت ودخلت فيها الخرافات والأساطير.

(أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحذركم الدنيا فإنها دار شخوص ومحلة تنغيص ساكنها ظاعن وقاطنها بائن) هذه هي الوصية الغالية لدى الإمام ولذا يكررها باستمرار... الوصية بتقوى الله لأنها الحصن الحصين عن كل رذيلة والحرز عن المهالك وبها يطيع الإنسان ربه ويدخل جنته.

ثم حذرهم من الدنيا وذكر بعض عيوبها فقال: إنها دار لا استقرار فيها بل هي دار ارتحال سوف يرحل عنها الإنسان ويتركها إلى غيره وهكذا غيره سيتركها أيضاً حتى تنتهي الدنيا.

وكذلك هي دار تعب ونصب لا تصفو لأحد، طبعت على كدر ولا ينال الإنسان لذة ـ إن كان هناك لذة ـ إلى بفوات أخرى بل كل ما فيها دفع للآفات ولا منافع فيها أصلاً.

ثم وصف الساكن فيها بأنه ليس بساكن فيها على وجه الحقيقة لأنه مرتحل عنها لا محالة وكذلك المقيم فيها فإنه مفارق لها وإن ظن أنه مقيم بل في عالم الحقيقة كلما مرّت عليه لحظة فإنه يفارق الدنيا فيها فإنه مقيم شكلاً لكنه مفارق لها واقعاً...

(تميد بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف في لجج البحار فمنهم الغرق الوبق ومنهم الناجي على بطون الأمواج تحفزه الرياح بأذيالها وتحمله على أهوالها فما غرق منها فليس بمستدرك وما نجا منها فإلى مهلك) شبّه حوادث الدنيا وطوارقها وما يمر على هذا الإنسان من فجائع ومصائب بسفينة لعبت فيها الرياح فقصفتها العواصف الهوجاء في عمق البحار وأوساطها فخربتها وكسرتها ومزقتها ووقع ركابها في تلك المصيبة العظيمة فمنهم من غرق وهلك وانتهت حياته من أول لحظات سقوطه في البحر لأنه لا يعرف السباحة ولم يتوفق بمنقذ يخلّصه.

ومنهم من ساعدته قدرته فعرف السباحة وتعلّم فنّها أو تمسك بخشبة من خشباتها المكسورة فأخذت تدفعه الأمواج وتقذف به في كل ناحية حيث هبت الريح يندفع ويميل يرى المصائب والمخاوف وهكذا بقي حتى وصل إلى البر وتخلص من البحر...

وعلى كل حال فمن غرق منها ومات لا يمكن تداركه وإعادة الحياة إليه ومن نجا منها وتخلّص من الموت فإلى الموت، سينتهي أمره لا محالة ولا بد له من شرب هذه الكأس مهما امتد به الأجل وطالت به الأيام...

(عباد الله الآن فاعملوا والألسن مطلقة والأبدان صحيحة والأعضاء لدنة والمنقلب فسيح والمجال عريض) دعاهم للعمل في وقت يمكن العمل فيه قبل أن يعجز الإنسان فاعملوا الآن. . . اعملوا بما يرضي الله. . . اعملوا الطاعات وقوموا بالخيرات والألسن مطلقة تملك حرية الحركة والكلام تستطيع أن تؤدي حقها من الذكر والتسبيح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

اعملوا والأبدان صحيحة تقوم بخدمة الله وتنفيذ أوامره وخدمة عباده وعمارة بلاده. . . اعملوا في صحة الأبدان حيث تتحركون في كل اتجاه بدون مرض يؤلمكم ولا هرم يقعدكم.

اعملوا والأعضاء لدنة فجوارح الشباب لينة طرية ليست كجوارح الكبار في السن حيث تدقّ وتنحل ولا تكاد تخضع لإرادة صاحبها أو تلبي حاجاته لعجزها وهرمها. . .

اعملوا والمنقلب فسيح أي أيام الشباب طويلة يستطيع الإنسان أن يعمل خلالها ويصل إلى مرضاة الله وما يحقق له دخول الجنة.

اعملوا والمجال عريض مجال العمل واسع فمحله الدنيا بسعتها لست مقيداً بشبر من الأرض ولا بمكان بل الأرض كلها لله قد فتحها لك ففي أي مكان تستطيع أن تقيم شعائرك تستطيع أن تسكن وفي أي مكان تحرم من حريتك وتصادر عباداتك فارفضه واتركه مهاجراً إلى غيره، فالشباب وقت العمل وكل أرض محله. . .

(قبل إرهاق الفوت وحلول الموت فحققوا عليكم نزوله ولا تنتظروا قدومه).

اعملوا قبل أن تفوتكم هذه الفرصة الثمينة وهذه الأوقات الكريمة وهذه الحالات السعيدة.

اعملوا قبل نزول الموت بكم فإنه إذا نزل لا يمكن التخلص منه أو الهروب من حكمه. . .

ثم أمرهم أن يعملوا عمل من يشاهد الموت حقيقة لا عمل من ينتظره فإن الانتظار داعية للتسويف والتقصير. . .

١٩٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

ينبه فيه على فضيلته لقبول قوله وأمره ونهيه

وَلَقَدْ عَلِمَ ٱلْمُسْتَحْفَظُونَ(١) مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ(٢) عَلَى ٱللهِ وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ(٣) بِنَفْسِي فِي ٱلْمَوَاطِنِ(٤) الَّتِي تَنْكُصُ(٥) فِيهَا ٱلأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا ٱلأَقْدَامُ، نَجْدَةً(٦) أَكْرَمَنِي ٱللهُ بِهَا.

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَالَتْ(٧) نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ(٨) غُسْلَهُ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وَٱلْمَلاَئِكَةُ أَعْوَانِي(٩)، فَضَجَّتِ(١٠) الدَّارُ وَٱلأَفْنِيَةُ(١١): مَلأٌ يَهْبِطُ(١٣)، وَمَلأٌ يَعْرُجُ(١٤)، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ(١٥) مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ(١٦). فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَمَيِّتاً؟ فَٱنْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ(١٧)، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِي لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ(١٨) ٱلْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ(١٩) ٱلْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ ٱللهَ لِي وَلَكُمْ!.

اللغة

١ ـ المستحفظون : بفتح الفاء اسم مفعول أي الذين أودعهم النبي أمانة سره وطالبهم بحفظها.

٢ ـ رد عليه : لم يقبل قوله، خطّأه.

٣ ـ واسيته : من المواساة وهي الإشراك في الشيء.
٤ ـ المواطن : الأماكن من الوطن وهو محل إقامة الإنسان أو مكان ولادته.
٥ ـ تنكص : تتراجع.
٦ ـ النجدة : بالفتح الشجاعة.
٧ ـ سالت : جرت.
٨ ـ ولّيت : قمت به وتقلدته.
٩ ـ أعواني : مساعدي والعون المساعدة واستعان طلب العون والمساعدة.
١٠ ـ ضجت : من الضجيج الصياح عند المكروه والجزع.
١١ ـ الأفنية : مفردها الفناء وهو للدار ما اتسع أمامها أو امتد من جوانبها.
١٢ ـ الملأ : الجماعة.
١٣ ـ يهبط : ينزل.
١٤ ـ يعرج : يصعد.
١٥ ـ الهينمة : الصوت الخفي.
١٦ ـ الضريح : القبر أو الشق وسطه.
١٧ ـ البصائر : جمع البصيرة وهي للقلب كالبصر، ضياء القلب.
١٨ ـ الجادة : معظم الطريق ووسطه.
١٩ ـ المزلة : مكان الزلل الموجب للسقوط في الهلكة.

الشرح

(ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ أني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر فيها الأقدام نجدة أكرمني الله بها) في هذه الخطبة ذكر لبعض مناقبه الشريفة تأكيداً لها أمام الناس وجذباً لهم لقبول قوله وامتثال أمره.

بيّن عليه السلام طاعته لله ولرسول الله وقد أحال ذلك إلى العلماء الأمناء من أصحاب رسول الله الذين استحفظهم النبي على أمانات الإسلام وهي حقائقه الموصلة إلى الجنة، لقد علم هؤلاء المستودعون أسرار الشريعة والدين ووقفوا بأنفسهم على مدى طاعتي لله ورسوله والتزامي بأوامرهما وأني لم أواجههما برفض أو تشكيك في وقت من الأوقات بل كان التنفيذ أمضى من حد السيف دون لف ولا دوران ولا أخذ ولا رد وهكذا كان الإمام أمضى من الحديدة المحماة، وقد قال بعضهم هذا من الإمام تعريض بعمر

الذي كانت له المواقف المخزية كما في صلح الحديبية وقصته يومها مشهورة مشهودة معروفة يذكرها كل من تعرض لذلك وملخصها أن رسول الله كان قد وعد المسلمين بأنهم سيدخلون المسجد الحرام وعندما قصد النبي دخول مكة ومنعته قريش ووقّعت معه صلحاً أن يرجع عامه ذاك أنكر عمر ما كان وقال: يا رسول الله، ألسنا بالمسلمين، قال: بلى قال: أوليسوا الكافرين؟ قال: بلى، قال: فكيف نعطي الدنية في ديننا فقال النبي (ص): أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني فكان عمر ـ كما في تاريخ الطبري ـ يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً.

ثم ذكر مواساته لرسول الله في كل المواقع والمعارك وفي كل المواطن التي تجبن فيها الرجال وتفر منها الفرسان شجاعة اختصه الله بأعلى درجاتها وإن نظرة واحدة إلى حروب الإسلام يكشف بصدق مدى جهاد الإمام ومدى شجاعته حتى غلبت عليه هذه الصفة وأضحى يضرب المثل بشجاعته وإن كان في كل صفة قائدها وسيدها فهو العظيم في الزهد وهو العظيم في العبادة وهكذا...

أما شجاعته فانظر إلى واقعة بدر فسيفه حصد نصف قتلى المشركين وانظر إلى واقعة الأحزاب واحد وإلى واقعة خيبر فقد كان على يديه الفتح وبسيفه النصر...

(ولقد قبض رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ وإن رأسه لعلى صدري ولقد سالت نفسه في كفي فأمررتها على وجهي ولقد وليت غسله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ والملائكة أعواني) قال الشرّاح: أراد بقوله سالت نفسه في كفي أن رسول الله قاء وقت موته دماً يسيراً وأن علياً تلقاه بيده ومسح به وجهه.

ويمكن أن يكون ذلك إشارة رمزية إلى مدى قربه من رسول الله وحبه له حيث جرت العادة أن المجتمعين عند المحتضر إنما يكونون أهله وأقرب الناس إليه...

ثم أشار إلى أنه قد تولى غسله وتكفينه ودفنه وهذا المعنى قد وردت به الأخبار بل هو الثابت من جميع الطرق يُعينه الفضل بن العباس في صب الماء عليه وهو معصوب العينين وقد أعانته الملائكة في تقليب رسول الله فقد ورد عن الإمام قوله: ما قلبت منه عضواً إلا وانقلب لا أجد له ثقلاً كأن معي من يساعدني وما ذلك إلا الملائكة...

(فضجّت الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلون عليه حتى واريناه في ضريحه) صرخت الملائكة في الديار وفي الساحات حزينة باكية لفقد رسول الله جماعة تنزل إلى الأرض لتودع الحبيب وتصلى عليه وتقوم بواجب

التعزية وجماعة تصعد إلى السماء قد أدت واجبها نحو النبي الكريم.

ثم بيّن أنه يسمع حديث الملائكة وأنه لم تغب أصواتهم عنه ولا صلواتهم على الرسول حتى دفنوا الجسد الشريف في القبر. . .

وقد وردت الأحاديث في صلاة الملائكة على رسول الله بل يقول الله: **﴿إن الله وملائكته يصلّون على النبي. . .﴾** وفي الحديث كما في الكافي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما قبض النبي (ص) صلت عليه الملائكة والمهاجرون والأنصار فوجاً فوجاً. . .

(فمن ذا أحق به مني حياً وميتاً) استفهام على سبيل الإنكار يريد به أنه لا يوجد إنسان أحق برسول الله (ص) حال حياته وحال وفاته منه ففي حياته بالأخوة والوزارة وبعد موته بالوصية والخلافة.

ومن هذا البيان أراد أن يرتب أمراً مضمونه أن المخالفين له هم أتباع الشيطان وجنوده وأنه على طريق رسول الله ومنهاجه.

وكذلك فيه إبطال لمن يدعي أنه أولى بمقام رسول الله منه كما وقع للخلفاء الذين تقدموا عليه. . .

(فانفذوا على بصائركم ولتصدق نياتكم في جهاد عدوكم) تحركوا مسرعين بما تملكون من دوافع عقائدية سليمة أنتم عليها ولا تتركوا للشك مجالاً في قلوبكم ولا للتردد أي حركة.

ولتكن نياتكم صادقة في قتال عدوكم فلا تتزلزل هذه العقيدة بدعوى أن أعداءكم مثلكم في الإسلام فإنهم ببغيهم قد خرجوا ووجب قتالهم بنص الذكر الحكيم الذي يقول: **﴿فإن بغت إحداهما فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. . .﴾**.

فإذا كان الإنسان يملك الحق ويدافع عنه بنية صادقة لا بد وأن ينصره الله على أعدائه إذا وفّر العدّة المطلوبة له. . .

(فوالذي لا إله إلا هو إني لعلى جادة الحق وإنهم لعلى مزلة الباطل أقول ما تسمعون واستغفر الله لي ولكم) أكّد ما تقدم من أنه على الحق بالقسم الصريح بلا إله إلا الله أنه على طريق الحق الواضح الجلي وأنهم على منزلق الباطل الذي يهوي بهم في دركات الجحيم. . .

أقول ما تسمعون من الحق واستغفر الله لي ولكم. . .

١٩٨ ـ ومن خطبة له عليه السلام

ينبه على إحاطة علم الله بالجزئيات، ثم يحث على التقوى، ويبين فضل الإسلام والقرآن

يَعْلَمُ عَجِيجَ[١] ٱلْوُحُوشِ[٢] فِي ٱلْفَلَوَاتِ[٣]، وَمَعَاصِيَ ٱلْعِبَادِ فِي ٱلْخَلَوَاتِ[٤]، وَٱخْتِلَافَ النِّينَانِ[٥] فِي ٱلْبِحَارِ ٱلْغَامِرَاتِ[٦]، وَتَلَاطُمَ ٱلْمَاءِ بِالرِّيَاحِ ٱلْعَاصِفَاتِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ[٧] ٱللهِ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ.

الوصية بالتقوى

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى ٱللهِ ٱلَّذِي ٱبْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ[٨]، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ[٩]. فَإِنَّ تَقْوَى ٱللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطُهُورُ دَنَسِ[١٠] أَنْفُسِكُمْ، وَجِلَاءُ عَشَا[١١] أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ[١٢]، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَٱجْعَلُوا طَاعَةَ ٱللهِ شِعَاراً[١٣] دُونَ دِثَارِكُمْ[١٤]، وَدَخِيلاً[١٥] دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ، وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلاً[١٦] لِحِينِ وُرُودِكُمْ[١٧]، وَشَفِيعاً لِدَرَكِ[١٨] طَلِبَتِكُمْ[١٩]، وَجُنَّةً[٢٠] لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ[٢١]، وَنَفَساً[٢٢] لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ. فَإِنَّ طَاعَةَ ٱللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ[٢٣] مُكْتَنِفَةٍ[٢٤]،

وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأُوَارِ[٢٥] نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ[٢٦]. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ[٢٧] عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَٱحْلَوْلَتْ[٢٨] لَهُ ٱلأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَٱنْفَرَجَتْ[٢٩] عَنْهُ ٱلأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا[٣٠]، وَهَطَلَتْ[٣١] عَلَيْهِ ٱلْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا[٣٢]، وَتَحَدَّبَتْ[٣٣] عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا[٣٤]، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا[٣٥]، وَوَبَلَتْ[٣٦] عَلَيْهِ ٱلْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا[٣٧].

فَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَٱمْتَنَّ[٣٨] عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ. فَعَبِّدُوا[١٩] أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَٱخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ.

فضل الإسلام

ثُمَّ إِنَّ هذَا ٱلإِسْلاَمَ دِينُ ٱللهِ ٱلَّذِي ٱصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَٱصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ[٤٠] خِيَرَةَ[٤١] خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ[٤٢] عَلَى مَحَبَّتِهِ. أَذَلَّ ٱلأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ ٱلْمِلَلَ[٤٣] بِرَفْعِهِ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَخَذَلَ[٤٤] مُحَادِّيهِ[٤٥] بِنَصْرِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلاَلَةِ بِرُكْنِهِ[٤٦]. وَسَقَى مِنْ عَطَشٍ مِنْ حِيَاضِهِ[٤٧]، وَأَتْأَقَ[٤٨] ٱلْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ[٤٩]. ثُمَّ جَعَلَهُ لاَ ٱنْفِصَامَ[٥٠] لِعُرْوَتِهِ[٥١]، وَلاَ فَكَّ[٥٢] لِحَلْقَتِهِ، وَلاَ ٱنْهِدَامَ[٥٣] لأَسَاسِهِ، وَلاَ زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلاَ ٱنْقِلاَعَ[٥٤] لِشَجَرَتِهِ، وَلاَ ٱنْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلاَ عَفَاءَ[٥٥] لِشَرَائِعِهِ، وَلاَ جَذَّ[٥٦] لِفُرُوعِهِ، وَلاَ ضَنْكَ[٥٧] لِطُرُقِهِ، وَلاَ وُعُوثَةَ[٥٨] لِسُهُولَتِهِ، وَلاَ سَوَادَ لِوَضَحِهِ[٥٩]، وَلاَ عِوَجَ[٦٠] لاِنْتِصَابِهِ، وَلاَ عَصَلَ[٦١] فِي عُودِهِ، وَلاَ وَعَثَ[٦٢] لِفَجِّهِ[٦٣]، وَلاَ ٱنْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلاَ مَرَارَةَ لِحَلاَوَتِهِ. فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ[٦٤] فِي ٱلْحَقِّ أَسْنَاخَهَا[٦٥]، وَثَبَّتَ لَهَا آسَاسَهَا، وَيَنَابِيعُ غَزُرَتْ[٦٦] عُيُونُهَا[٦٧]، وَمَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا[٦٨]، وَمَنَارٌ[٦٩] ٱقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا[٧٠]،

وَأَعْلَامُ(٧١) قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَمَنَاهِلُ رَوِيَ(٧٢) بِهَا وِرَّادُهَا(٧٣). جَعَلَ ٱللهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذِرْوَةَ(٧٤) دَعَائِمِهِ، وَسَنَامَ(٧٥) طَاعَتِهِ؛ فَهُوَ عِنْدَ ٱللهِ وَثِيقُ ٱلأَرْكَانِ، رَفِيعُ ٱلْبُنْيَانِ، مُنِيرُ ٱلْبُرْهَانِ، مُضِيءُ النِّيرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ ٱلْمَنَارِ(٧٦)، مُعْوِذُ(٧٧) ٱلْمَثَارِ(٧٨). فَشَرِّفُوهُ وَٱتَّبِعُوهُ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

الرسول الأعظم

ثُمَّ إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ بِٱلْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا ٱلانْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ ٱلآخِرَةِ ٱلاطِّلَاعُ(٧٩)، وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا(٨٠) بَعْدَ إِشْرَاقٍ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ(٨١)، وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ(٨٢)، وَأَزِفَ(٨٣) مِنْهَا قِيَادٌ(٨٤)، فِي ٱنْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا، وَٱقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا(٨٥)، وَتَصَرُّمٍ(٨٦) مِنْ أَهْلِهَا، وَٱنْفِصَامٍ(٨٧) مِنْ حَلْقَتِهَا، وَٱنْتِشَارٍ(٨٨) مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاءٍ(٨٩) مِنْ أَعْلَامِهَا، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا(٩٠)، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا.

جَعَلَهُ ٱللهُ بَلَاغاً لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لأُمَّتِهِ، وَرَبِيعاً لأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرِفْعَةً لأَعْوَانِهِ، وَشَرَفاً لأَنْصَارِهِ.

القرآن الكريم

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ٱلْكِتَابَ نُوراً لَا تُطْفَأُ(٩١) مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجاً لَا يَخْبُو(٩٢) تَوَقُّدُهُ(٩٣)، وَبَحْراً لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ(٩٤)، وَمِنْهَاجاً(٩٥) لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ(٩٦)، وَشُعَاعاً لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَاناً(٩٧) لَا يُخْمَدُ(٩٨) بُرْهَانُهُ، وَتِبْيَاناً(٩٩) لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ(١٠٠)، وَعِزًّا لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ(١٠١). فَهُوَ مَعْدِنُ ٱلإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ(١٠٢)، وَيَنَابِيعُ ٱلْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ(١٠٣) ٱلْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ(١٠٤)، وَأَثَافِيُّ(١٠٥) ٱلإِسْلَامِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ

ٱلْحَقِّ وَغِيظَانُهُ(١٠٦). وَبَحْرٌ لَا يَنْزِفُهُ(١٠٧) ٱلْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لَا يُنْضِبُهَا(١٠٨) ٱلْمَاتِحُونَ(١٠٩)، وَمَنَاهِلُ(١١٠) لَا يَغِيضُهَا(١١١) ٱلْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لَا يَضِلُّ نَهْجَهَا ٱلْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلَامٌ لَا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ(١١٢) لَا يَجُوزُ عَنْهَا(١١٣) ٱلْقَاصِدُونَ. جَعَلَهُ ٱللهُ رِيًّا(١١٤) لِعَطَشِ ٱلْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ ٱلْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجَّ(١١٥) لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً(١١٦) مَنِيعاً(١١٧) ذِرْوَتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدًى لِمَنِ ٱئْتَمَّ بِهِ، وَعُذْراً لِمَنِ ٱنْتَحَلَهُ(١١٨)، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ(١١٩) بِهِ، وَفَلْجاً(١٢٠) لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً(١٢١) لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ(١٢٢)، وَجُنَّةً(١٢٣) لِمَنِ ٱسْتَلْأَمَ(١٢٤)، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى(١٢٥)، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى(١٢٦).

اللغة

١ ـ **العجيج** : رفع الصوت.

٢ ـ **الوحوش** : جمع وحش وهو حيوان البر.

٣ ـ **الفلوات** : جمع فلاة الصحراء الواسعة.

٤ ـ **الخلوات** : جمع خلوة مكان الاختلاء الذي ليس فيه أحد.

٥ ـ **النينان** : جمع نون وهو الحوت.

٦ ـ **الغامرات** : جمع غامر أي كثير الماء يغمر من يدخله أي يغطيه ويستره.

٧ ـ **النجيب** : المختار.

٨ ـ **الطلبة** : ما طلبته.

٩ ـ **المفزع** : الملجأ.

١٠ ـ **الدنس** : الوسخ ومعنوياً المعاصي والآثام.

١١ ـ **العشى** : سوء البصر.

١٢ ـ **الجأش** : القلب ورابط الجأش شجاع وجأش قلبه إذا اضطرب من فرح أو حزن.

١٣ ـ الشعار : الثوب الملاصق للبدن مباشرة.
١٤ ـ الدثار : الثوب الذي فوق الشعار.
١٥ ـ الدخيل : ما خالط باطن الجسد.
١٦ ـ المنهل : الماء يرده الشاربون.
١٧ ـ الورود : ضد الصدور من ورد الماء صار إليه داناه وبلغه.
١٨ ـ الدرك : بالتحريك اللحاق.
١٩ ـ الطلبة : بفتح الطاء وكسر اللام المطلوب.
٢٠ ـ الجنة : بالضم الوقاية.
٢١ ـ الوحشة : ضد الأنس.
٢٢ ـ النفس : محركة من نفس تنفيساً أي فرّج تفريجاً وهي السعة والروْح.
٢٣ ـ المتالف : مكان التلف وهو الهلاك.
٢٤ ـ المكتنفة : المحيطة.
٢٥ ـ الأوار : حر النار.
٢٦ ـ موقدة : مشتعلة.
٢٧ ـ عزبت : بعُدت.
٢٨ ـ احلولت : صارت حلوة.
٢٩ ـ انفرجت : انفتحت وما بين الشيئين إتسع، انكشفت.
٣٠ ـ الأنصاب : الأتعاب.
٣١ ـ هطلت : سالت.
٣٢ ـ القحوط : من القحط وهو الجدب.
٣٣ ـ تحدبت : عليه عطفت وحنّت.
٣٤ ـ النفور : من نفر إذا شرد وتباعد.
٣٥ ـ النضوب : الانقطاع ونضب الماء إذا جف وذهب.
٣٦ ـ وبلت السماء : أمطرت مطراً شديداً.
٣٧ ـ الرذاذ : خفيف المطر الحبات الصغيرة المتفرقة منه.
٣٨ ـ أمتن عليه بما صنع: ذكر وعدد له ما فعله معه من الخير.
٣٩ ـ عبّدوا : ذلّلوا.
٤٠ ـ أصفاه : خيرة خلقه آثر به خير خلقه.
٤١ ـ الخيرة : بفتح الياء إذا فضّلته على غيره.
٤٢ ـ الدعائم : جمع الدعامة بكسر الدال عماد البيت الذي يحمل السقف.
٤٣ ـ الملل : الأديان والشرائع.
٤٤ ـ خذل زيداً : أي ترك نصرته.

٤٥ ـ المحاد : المشاق ومحاديه مخالفيه.
٤٦ ـ الركن : العز والمنعة.
٤٧ ـ الحياض : جمع حوض مجتمع الماء.
٤٨ ـ أتأق الحياض : ملأها.
٤٩ ـ المواتح : جمع الماتح وهو الذي يستقي بالدلو من المتح وهو الاستقاء.
٥٠ ـ الانفصام : الإنكسار.
٥١ ـ العروة : للكوز مقبضه.
٥٢ ـ فك الشيء : أبان بعضه عن بعض والعقدة حلّها.
٥٣ ـ انهدم : انتقض وهدم البناء نقضه وأسقطه.
٥٤ ـ انقلع : من قلع الشيء إذا انتزعه من أصله.
٥٥ ـ العفاء : الدروس.
٥٦ ـ الجذّ : القطع.
٥٧ ـ الضنك : الضيق.
٥٨ ـ الوعوثة : في الطريق المشقة.
٥٩ ـ الوضح : البياض.
٦٠ ـ العوج : بفتح العين فيما ينتصب كالنخلة والرمح والعوج بالكسر فيما لا ينتصب كالرأي والدين والأرض.
٦١ ـ العصل : الاعوجاج الذي يصعب تقويمه.
٦٢ ـ الوعث : رمل دقيق تغيب فيه الأقدام فهو شاق ثم استعير لكل أمر شاق.
٦٣ ـ الفج : الطريق الواسع بين جبلين.
٦٤ ـ أساخ : من ساخ إذا غاص وساخت أقدامه أي غابت.
٦٥ ـ الأسناخ : جمع سنخ وهو الأصل.
٦٦ ـ غزرت : كثرت.
٦٧ ـ العيون : جمع عين ينبوع الماء.
٦٨ ـ شبت النيران : أوقدها.
٦٩ ـ المنار : ما يهتدى به من نار أو علم.
٧٠ ـ السفار : المسافرون.
٧١ ـ أعلام : ما يوضع في الطريق ليهتدى به.
٧٢ ـ روي : شرب وشبع.
٧٣ ـ الورّاد : جمع وارد وهو ضد الصادر وأما الرواد جمع رائد وهو الذي يسبق القوم فيرتاد لهم الكلأ والماء.
٧٤ ـ الذروة : رأس كل شيء وأعلاه.

٧٥ ـ السنام : أعلى الشيء ومنه سنام البعير.
٧٦ ـ مشرف المنار : مرتفعه.
٧٧ ـ المعوذ : من أعوذ بمعنى ألجأ.
٧٨ ـ المثار : من ثار الغبار إذا هاج.
٧٩ ـ الاطلاع : الإتيان، الإشراف من موضع عال.
٨٠ ـ البهجة : الحُسن والنضارة، الفرح.
٨١ ـ الساق : الشدة.
٨٢ ـ المهاد : الفراش.
٨٣ ـ أزف : قرب.
٨٤ ـ القياد : من قاد الدابة نقيض ساقها وهو أن يأخذ مقود الدابة ويمشي أمامها.
٨٥ ـ أشراط الساعة : علاماتها.
٨٦ ـ التصرم : التقطع.
٨٧ ـ الإنفصام : الانقطاع.
٨٨ ـ انتشار الأسباب : تبددها حتى لا تضبط.
٨٩ ـ العفاء : الاندراس، ذهاب الأثر واندراس الشيء.
٩٠ ـ العورات : جمع عورة السؤة، كل شيء يستحى منه.
٩١ ـ أطفأ المصباح : خمد ضوؤه.
٩٢ ـ لا يخبو : لا ينطفىء.
٩٣ ـ التوقد : التلألؤ والاشتعال.
٩٤ ـ القعر : نهاية الشيء وعمقه.
٩٥ ـ المنهاج : الطريق الواسع.
٩٦ ـ النهج : السلوك.
٩٧ ـ الفرقان : ما يفرق به بين الحق والباطل.
٩٨ ـ لا يخمد : لا ينطفىء.
٩٩ ـ تبياناً : بياناً وإيضاحاً.
١٠٠ ـ الأسقام : الأمراض.
١٠١ ـ الأعوان : المساعدون.
١٠٢ ـ بحبوحة الدار : وسطها.
١٠٣ ـ الرياض : أرض مخضرة بأنواع النبات.
١٠٤ ـ الغدران : جمع غدير قطعة من الماء يتركها السيل.
١٠٥ ـ الأثافي : جمع أثفية وهي الأحجار يوضع عليها القدر بشكل مثلث.
١٠٦ ـ الغيطان : جمع غائط وهو المطمئن من الأرض.

١٠٧ ـ لا ينزفه : لا ينضبه ولا يفنيه.
١٠٨ ـ نضب الماء : فني وجف وذهب من الأرض.
١٠٩ ـ الماتحون : النازحون للماء.
١١٠ ـ المناهل : جمع منهل موضع الشرب.
١١١ ـ لا يغيضها : من غاض الماء إذا نضب وقلّ.
١١٢ ـ الآكام : جمع أكمة التل، المرتفع من الأرض.
١١٣ ـ لا يجوز عنها : لا يتخطاها أو يقطعها.
١١٤ ـ الري : الشبع من الماء.
١١٥ ـ المحاج : جمع محجة وهي جادة الطريق.
١١٦ ـ المعقل : الملجأ.
١١٧ ـ المنيع : العزيز الشديد الذي لا يقدر عليه وحصن منيع يتعذر الوصول إليه.
١١٨ ـ انتحله : دان به جعله نحلته.
١١٩ ـ خاصم به : حاج به.
١٢٠ ـ الفلج : الظفر والفوز.
١٢١ ـ المطية : الدابة التي تركب.
١٢٢ ـ التوسم : التفرس وهو الذي يعرف الباطن من النظر في الظاهر.
١٢٣ ـ الجنة : بالضم، الستر والوقاية، ما يحتمى خلفه.
١٢٤ ـ استلأم : لبس لامة الحرب وهي الدرع.
١٢٥ ـ وعى الحديث : حفظه وجمعه وتدبره.
١٢٦ ـ قضى : حكم وفصل.

الشرح

(يعلم عجيج الوحوش في الفلوات ومعاصي العباد في الخلوات واختلاف النينان في البحار الغامرات وتلاطم الماء بالرياح العاصفات، وأشهد أن محمداً نجيب الله وسفير وحيه ورسول رحمته) أهم ما في هذه الخطبة الشريفة الوصية بالتقوى وبيان فضل رسول الله وفيها فضائل القرآن...

ابتدأ عليه السلام بذكر علم الله ومداه وسعته ليحذر المسلم من رؤية الله له فيجتنب المعاصي والسيئات.

ومن عقائدنا أن الله كما يعلم الكليات يعلم الجزئيات... يعلم كل حركة صغيرة أو كبيرة وكل أمر يحدث في الوجود **﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في**

الأرض﴾[١] وما ذكره الإمام جزئيات من ذلك الأمر الكلي. . .

يعلم عجيج الوحوش في الفلوات: يعلم أصوات الحيوانات في الصحاري والقفار الشاسعة، يعلمها الله ويحصيها يعلم تلك الاستغاثات وما فيها من الشدائد ويستجيب لها.

يعلم معاصي العباد في الخلوات: عندما يقفل الإنسان الأبواب ويسد النوافذ وتغمض عيون الناس ولم يعد عليه من رقيب أو حسيب فالله يعلم كل معصية يرتكبها الإنسان في خلوته وعلى انفراده. . . ليس هناك إله يراك أمام الناس ولا يراك وحدك وفي خلواتك بل الله ينظر إليك وهو رقيب عليك في كل مكان وزمان. . .

يعلم اختلاف النينان في البحار الغامرات: إنه يعلم تردد الحيتان في البحار وذهابها ومجيئها فيها، يعلم حركتها وفي أي اتجاه وما يصيبها ويحل فيها. . .

يعلم تلاطم الماء بالرياح العاصفات: يعلم الرياح التي تضطرب وتثور فتصطدم بالمياه فتحدث الأمواج الهائلة.

ثم بعد ذكره لعلم الله بهذه العينات الجزئية عقّبه بذكر الشهادة للنبي بالرسالة. وأشهد أن محمداً نجيب الله الذي استخلصه الله من خلقه وأكرمه بأشرف حسب ونسب وأفضل الصفات.

ثم وصفه بأنه سفير الله أرسله الله إلى خلقه ينقل إليهم مراداته وأحكامه ويبلغهم شرائعه ودينه ووصفه برسول الرحمة كما قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** ينقذ الخلق من الضلال الفكري والعقيدي ومن ضلال العادات والتقاليد إلى نور الإسلام والحق والعدل. . .

(أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله الذي ابتدأ خلقكم وإليه يكون معادكم وبه نجاح طلبتكم وإليه منتهى رغبتكم ونحوه قصد سبيلكم وإليه مرامي مفزعكم) أوصى بتقوى الله وقرنها بصفات توجب تعظيم الله فهو سبحانه الذي خلق الإنسان ابتدأ بقوله: كن فيكون وتلك نعمة تستحق تقوى الله وعدم معصيته.

كما أنه سبحانه إليه تعود الناس وترجع يوم القيامة للحساب وإذا كان إليه المرجع والمآب وجب على الإنسان أن يتقي الله.

---

(١) سورة سبأ، آية/ ٣.

وكذلك بالله وكرمه وجوده وعطاياه يظفر الإنسان بحاجاته وما يريد فلولا توفيق الله وتسديده لم يهتد أحد إلى معاشه وإلى لقمة طعامه.

وهو سبحانه المقصود في كل رغبة يحبها الإنسان ويرغب فيها لأنه وحده سبحانه الذي يوفي الجزاء ويكمله.

وإليه سبحانه يتجه العاملون ويقصده السالكون **﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾**.

كما أن الإنسان إذا أصابه فزع أو خوف فإلى الله يقصد ونحو قدسه يتوجه فهو الذي يجيب دعوة المضطرين ويكشف السوء عنهم.

(فإن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم وطهور دنس أنفسكم وجلاء عشا أبصاركم وأمن فزع جأشكم وضياء سواد ظلمتكم) هذا حث على التقوى بذكر بعض آثارها ومنافعها فذكر:

- تقوى الله دواء داء قلوبكم: فتقوى الله دواء يرفع الأمراض من حسد وبغض ونميمة وغيبة وبهتان وهكذا لأن من شرب تقوى الله لم يمرض بمثل هذه الأمراض...

- وبصر عمى أفئدتكم: فإن الأفئدة وهي القلوب تعمى فلا تعود تدرك الحقائق بل يطمس عليها فتنغلق عن المعرفة وإدراك الصواب فتأتي التقوى لترفع هذا العمى وتكشف من أمام القلب الرؤية السليمة فيهتدي بنور التقوى إلى الرشد والصواب كما أن الأعمى إذا رُدت إليه عيناه يرى المحسوسات ويكشف الأمور المادية على واقعها...

- وشفاء مرض أجسادكم: وهذا غالباً ما يكون لأن من صحّت نفسه صح بدنه لتأثير الرذائل النفسية على الصحة البدنية فالحسود المريض القلب ينعكس هذا على جسده وفكره...

- وصلاح فساد صدوركم: فتقوى الله وطاعته تصلح الصدور فلا تحمل غلاً ولا حسداً.

- وطهور دنس أنفسكم: فإن الرذائل والمعاصي تدنس النفس وتحطها عن مقامها وتسقطها من محلها فإذا جاءت التقوى تطهرت القلوب من ذلك الدنس المشين.

- وجلاء عشا أبصاركم: فإن الرؤيا الصحيحة للأمور تتم عندما يمتلك الإنسان الميزان الصحيح والسليم وأشرف ميزان وأعدله ذلك الذي يضعه الله أمامك والتقوى هي عنوان ذلك الميزان وحقيقته وبها يجلى البصر ويشفى...

ـ وأمن فزع جأشكم: فالمؤمن المتقي ساكن القلب مطمئن الفؤاد قد سلم بقضاء الله وقدره فلا يفزع ولا يخاف من أمور الدنيا ومشاكلها ولا من الآخرة وأهوالها لأنه قد صفى حسابه مع الله واتقاه ولم يخالفه في أمر قال تعالى: **﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. . .﴾**.

ـ وضياء سواد ظلمتكم: فإن الذنوب والمعاصي تجعل القلوب سوداء مظلمة ولا يجليها إلا تقوى الله التي تعني هجر تلك الرذائل والتوبة منها. . .

(فاجعلوا طاعة الله شعاراً دون دثاركم ودخيلاً دون شعاركم) بعد أن ذكر التقوى وثمراتها أراد أن يذكر ما يحصّلها ويوصل إليها فذكر الطاعات وأنها الطريق المؤدي إلى التقوى فلذا أوصى بها وحضّ عليها ووضعها في موضعها.

اجعلوا طاعة الله المتمثلة بأوامره ونواهيه ملازمة لكم متصلة بكم كما هو حال الشعار بالنسبة لأبدانكم فإنه ملاصق لها ملازم لها دون الدثار الذي هو فوقه. . .

بل اجعلوا طاعة الله تحت الشعار الملاصق للبدن أي اجعلوا طاعة الله في القلوب خشوعاً وخضوعاً ولا تكتفوا بحركات البدن من قيام وركوع وسجود. . .

(ولطيفاً بين أضلاعكم) اجعلوا الطاعة في عمق القلوب بحيث تدخل لتمتزج في النفس والروح وهذا معناه أشد مماسة بالإنسان من الدخيل. . .

(وأميراً فوق أموركم) اجعلوا الطاعة لله هي الآمرة لكم والموجهة لكل أموركم فأين تكون طاعة الله تكون أموركم وتكون هي الحاكمة والآمرة كما يحكم الأمير في رعيته. . .

(ومنهلاً لحين ورودكم) اجعلوا طاعة الله هي المشرب العذب يوم ورودكم على ربكم يوم القيامة.

(وشفيعاً لدرك طلبتكم) إنكم تطلبون الجنة وتنشدون نعيمها فاجعلوا طاعة الله شفيعاً وواسطة لنيلها وإدراكها والحصول عليها. . .

(وجنة ليوم فزعكم) فإن يوم القيامة هو يوم الفزع الأكبر وطاعة الله هي التي تحصّن الإنسان من هذا الفزع وترفع الخوف من القلوب. . .

(ومصابيح لبطون قبوركم) فإن القبور مظلمة والطاعات مصابيح تنيرها.

(وسكناً لطول وحشتكم) فإن للقبر وحشة طويلة تمتد من الموت إلى يوم القيامة

وهذه الوحشة لا يرفعها إلا الطاعة لله والعمل الصالح فإن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران والطاعات لله هي التي تحوله إلى روضة من رياض الجنة كما أن السيئات هي التي تحوله إلى حفرة من حفر النيران.

(ونفساً لكرب مواطنكم) فإن طاعة الله ترفع أهوال يوم القيامة وصعوبات ما يجري في تلك المواطن الشديدة.

(فإن طاعة الله حرز من متالف مكتنفة ومخاوف متوقعة وأوار نيران موقدة) طاعة الله حرز منيع وحصن حصين يدفع ما أحاط بالإنسان من المهالك التي هي نتيجة الذنوب ومن مخاوف متوقعة يوم القيامة ونيران مشتعلة شديدة الحرارة في جهنم.

تقوى الله هي التي تدفع كل ذلك وتمنعه عن الإنسان.

(فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها) عاد عليه السلام ليؤكد أهمية التقوى وفوائدها ليجذب إليها الناس فمن اتقى الله بعدت عنه الشدائد والصعوبات بعد أن كانت قريبة منه متصلة به لأن من اتقى الله وانفتح على رحابه جعل الله له مخرجاً من كل عسر وشدة قال تعالى: **﴿ومن يتقى الله يجعل له مخرجاً﴾**(١).

(واحلولت له الأمور بعد مرارتها) بعد المرارات تصبح الأمور له حلوة بل إن التقوى تحول العذاب إلى لذة وسرور وما أجمل العذاب في سبيل الله وما أطيب وقعه على قلب المؤمن حيث يجد لذة عظيمة تفوق لذاذات الدنيا لأن ذلك العذاب بعين الله ومن أجله...

(وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها) إذا تراكمت الهموم على إنسان وتزاحمت عليه فإن التقوى تكشفها وتزيلها وترفعها عنه لأن الأتقياء يرون الدنيا كلها سراب وضباب لا يتأثرون بها ولا يغتمون لها...

(وأسهلت له الصعاب بعد إنصابها) فكل الأمور الصعبة التي لم يجد لها حلاً والتي يعيش الإنسان أتعابها ومشاكلها كلها تتذلل وتهون وتسهل وذلك لأن المتقي يدرك ثمرة الصبر وعاقبته فتسهل عليه الأمور...

(وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها) نزلت الكرامة على الأتقياء كما ينزل المطر بعد الجدب فإن الله جعل للأتقياء كرامة عند أهل الدنيا يوقرونهم ويحترمونهم وجعل لهم

(١) سورة الطلاق، آية/

في الآخرة دار الكرامة التي هي الجنة.

(وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها) فإن رحمة الله تنعطف وتميل نحو الأتقياء بعد أن كانت شاردة عنهم ونافرة منهم ورحمته قد تفسر بألطافه الإلهية التي ينكشف من خلالها لهم ملكوت السماوات والأرض وحقائق الأمور ودقائقها.

(وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها) فإن نفس التقي لصفائها واستعدادها يمدّها الله بأنواع النعم وأهمها العلم والمعرفة وإدراك سر الأشياء قال تعالى: ﴿**ومن يتقي الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب...**﴾.

(ووبلت عليه البركة بعد ارذاذها) بعد أن كانت البركة قليلة كقطرات المطر القليلة الصغيرة أضحت بالتقوى كالمطر الشديد الغزير.

(فاتقوا الله الذي نفعكم بموعظته ووعظكم برسالته وأمتن عليكم بنعمته) أمر بالتقوى من جديد، فاتقوا الله الذي أفادكم فيما وعظكم به في كتابه وعلى ألسنة رسله عندما ذكر الأمم السابقة وما فعلوا وكيف أخذهم؟ وكيف ذكر الرموز الضالة فأهملها؟ وكيف أنعم على الأنبياء والأتقياء فاصطفاهم وصفاهم وهكذا.

وكذلك وعظنا الله برسالته الإسلامية الإلهية التي أنقذنا بها من الظلمات إلى النور وكذلك أمتن علينا بنعمته حيث قال تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾.

(فعبّدوا أنفسكم لعبادته وأخرجوا إليه من حق طاعته) ذللوا أنفسكم لطاعة الله وطلب رضاه والعمل بما أمر أي قوموا بها برغبة وشوق دون تكبر وأدوا إليه حقوقه الواجبة عليكم بكمالها وتمامها ولا تتركوا له حجة عليكم في تقصيركم وإهمالكم نحوه...

(ثم إن هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه واصطنعه على عينه وأصفاه خيرة خلقه وأقام دعائمه على محبته) بعد أن ذكر التقوى والطاعة ورغب فيهما كما مرّ ذكر الإسلام وهو أيضاً من الطاعات بل الاسم الجامع لها لأنه القواعد الفكرية والعملية والعقيدية للإنسان المسلم وقد وصفه بجملة أوصاف.

١ ـ **(الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه)** فهو الدين الوحيد الذي استخلصه الله وشرعه ليكون طريقاً إلى معرفته وسبيلاً إلى طاعته قال تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾.

٢ ـ **(واصطنعه على عينه)** فهو الذي تولى إخراجه بنفسه لشدة اهتمامه به ولكمال

صنعه واتقانه وكلمة اصطنعه على عينه كلمة تقال لما يشتد الاهتمام به.

٣ ـ **(وأصفاه خير خلقه)** آثر به خير خلقه محمد فكان أعظم دين يبعث به خير الرسل.

٤ ـ **(وأقام دعائمه على محبته)** وأقام دعائم الإسلام على حب الله وطاعته فمن أحب الله أقامها ونفذّها.

٥ ـ **(أذل الأديان بعزته)** فإن الله قد أعز الإسلام بكثرة أتباعه وأنصاره وقد انتشروا في أقطار الأرض رغم محاربته كدين ورغم محاربة أتباعه كمسلمين، وقد تكون عزته على الأديان باعتبار قوة حججه وبراهينه وضعفها عند غيره من الأديان فإن حجة التوحيد واضحة جلية قوية بينما التثليث مسألة يصعب الإيمان بها والاعتقاد بمضمونها بل لا يقبلها عقل متحرر...

٦ ـ **(ووضع الملل برفعه)** فإن علو الإسلام وارتفاعه يقابله وضع الأديان الأخرى وانحسارها وانكسارها وهذا من باب قوله تعالى: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾**.

٧ ـ **(وأهان أعداءه بكرامته)** وأعداء الإسلام هم المشركون واليهود والنصارى وغيرهم من أهل الأديان الباطلة وقد أهانهم الإسلام عندما أكرمه الله وفرض تطبيقه في المجتمع فإنه أوجب على الوثنيين الإسلام أو السيف وأوجب على أهل الكتاب إما الإسلام أو الالتزام بأحكام الذمة ودفع الجزية وفيها ما فيها من الذل عليهم...

٨ ـ **(وخذل محاديه بنصره)** فعندما نصر الله الإسلام وأهله انهزم أعداؤه ومحاربيه الذين سعوا في إطفاء نوره...

٩ ـ **(وهدم أركان الضلالة بركنه)** بعقائد الإسلام وأصوله هدم الله عقائد الضلالة وأصولهم أو قضى على رؤساء الضلال...

١٠ ـ **(وسقى من عطش من حياضه)** من أراد أن يرتوي بالعلم والمعرفة والثقافة والأخلاق فإن الإسلام يسقيه من علوم العلماء الذين هم الأئمة أوعية العلم وخزنته.

١١ ـ **(وأتأق الحياض بمواتحه)** ملأ قلوب العلماء وطلاب المعرفة بعلوم الدين ومعارفه عن أيدي الرسل والأنبياء والأئمة وقال بعضهم: إنه عليه السلام استعار لفظ المواتح إما للأئمة الآخذين للإسلام من الرسول الذي هو الينبوع أو لأفكار العلماء وسؤالاتهم وبحثهم عن الدين وأحكامه واستفادتهم بها.

١٢ ـ **(ثم جعله لا انفصام لعروته)** من تمسك بالإسلام نجا من العذاب والهوان ولا يتعرض لذل أو خزي لأن من تمسك بالإسلام تمسك بعروة وثيقة لا تنفصم أو تنقطع. . . .

١٣ ـ **(ولافك لحلقته)** فتشريعه محكم لا تستطيع أن تستشكل في صغيرة من أحكامه لتدخل إليه بالنقد وقيل: إن معناه كناية عن عدم انقهار أهله وجماعته.

١٤ ـ **(ولا انهدام لأساسه)** وأساس الإسلام إما يراد بها أصول الدين وهي قوية لا تسقطها حجة ولا يقوم على بطلانها برهان وإما يراد بالأساس الذي لا ينهدم هما الكتاب والسنة فإن الزمن لا يسقطهما ولا تضمحل أحكامهما. . .

١٥ ـ **(ولا زوال لدعائمه)** دعائم الإسلام هي ما يقوم عليها سواء كان الكتاب والسنة أم العلماء والفقهاء أم الأئمة فإن كل هذه الأمور مما لا تزول أو تفنى بل تبقى ببقاء الدنيا.

١٦ ـ **(ولا انقلاع لشجرته)** والإسلام لا يمكن زواله أو القضاء عليه لأنه شجرة أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء.

١٧ ـ **(ولا انقطاع لمدته)** ليس الإسلام وصفة مؤقتة ثم ترتفع أو يتعطّل مفعولها بل هو الوصفة الختامية التي ستستقر إلى آخر الدنيا وفناء مَنْ عليها. . .

١٨ ـ **(ولا عفاء لشرائعه)** فأحكامه لا تندرس أو تزول أو يأتي عليها الزمن بالإهمال والنسيان لأنها الأحكام التي شرعها الله لمصلحة هذا الإنسان ومنافعه وقد تبين أن الإسلام أصلح نظام يمكن أن يوفر للإنسان السعادة والخير. . .

١٩ ـ **(ولا جذّ لفروعه)** لا يجوز تعطيل فروع الإسلام وإلغائها أو يراد أن كل مسألة مستحدثة لها حكم في الإسلام يستطيع المجتهدون أن يجدوا لها أصلاً ومدركاً ويردوها إلى مصادرها ويدخلوها تحت العمومات المناسبة لها.

٢٠ ـ **(ولا ضنك لطرقه)** فكل فروع الإسلام سهلة لا حرج فيها ولا عسر، لا تتعب العامل بها أو تضنيه فإن الإسلام شريعة سمحة فيها الرحمة. . .

٢١ ـ **(ولا وعوثة لسهولته)** فليس سهولة الإسلام إلى درجة يزهد فيها الإنسان أو أن سهولته لا توجب إسقاط التكليف أو إثارة الإهمال والفوضى وكأن لا تكليف في المقام بل هو تكليف ملتزم بحدود طاقة الإنسان وقدرته ضمن ضوابط معينة. . .

٢٢ ـ (**ولا سواد لوضحه**) تشريعه وأحكامه واضحة صافية لا خلل فيها ولا باطل يعتريها. . .

٢٣ ـ (**ولا عوج لانتصابه**) فهو باستمرار شامخ الهام قوي الحجة والبرهان لا ينحني ولا ينهار أمام الشبهات والبدع الضالة.

٢٤ ـ (**ولا عصل في عوده**) لا ضلال في أحكامه ولا انحراف في تشريعه بل أصوله ثابتة قوية تستطيع أن تتحدى كل فكر وكل زمان. . .

٢٥ ـ (**ولا وعث لفجه**) فطرقه التي هي أحكامه لا صعوبة فيها ولا يضل العامل بها.

٢٦ ـ (**ولا انطفاء لمصابيحه**) فإننا نرى مع تقدم العلوم وكثرة الاكتشافات والاختراعات نرى كيف أن كل ذلك لم يبطل حكماً من أحكام الإسلام أو يلغيه أو نجد فيه خلاف ما أتي به؛ إنا لم نر حكماً من أحكامه قد بطل مفعوله وألغي دوره. . .

٢٧ ـ (**ولا مرارة لحلاوته**) فهو لذة كاملة خالية من الشقاء وحلاوته تامة كاملة لا مرارة فيها فإن أحكامه العبادية والمعاملاتية مع أنها تكاليف على المكلف فإنه لا يجد ثقلاً فيها أو تعباً منها.

(**فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها وثبّت لها أساسها**) عرّف الإسلام بالدعائم وهي الأركان التي يقوم عليها البناء فهو بأركانه من صلاة وصيام وحج وولاية وقد وصف تلك الدعائم بأنها داخلة في أصول الحق وجذوره لا يعرف أسرارها إلا بعض الخواصّ من الناس.

وهذه الدعائم ركز وثبّت أساسها بحيث لا تتزلزل أو تضطرب ولا تتعطل أو ترتفع.

(**وينابيع غزرت عيونها**) الإسلام ينابيع متدفقة تندفع منها الخيرات وهذا إشارة إلى أن مصدر التشريع لا يجف ولا يخف بل يبقى في العطاء باستمرار ونحن نجد كيف تطور الفقه وكيف مشى مع الزمن ووجد علماء الإسلام لكل حدث مستجد حكماً من أحكام الله استنبطوه من كتاب الله وسنة المعصومين. . .

(**ومصابيح شبت نيرانها**) فهذه التكاليف الشرعية آثارها كآثار المصابيح التي تضيء الدرب أمام السالكين وهذه العبادات تضيء آفاق النفس وترفع ظلماتها.

(**ومنار اقتدى بها سفارها وأعلام قصد بها فجاجها ومناهل روي بها ورادها**) من

يقصد الحق يهتدي إلى ضوء الإسلام ونوره لأنه ظاهر الحق واضح الدليل بيّن البرهان، إنه راية واضحة يهتدي إليها وبها كل سائر في طريق الحياة وكذلك من ورده وأتى إليه فإنه يرتوي من أحكامه وتشريعه ويُفاض عليه من خيراته. . .

(جعل الله فيه منتهى رضوانه وذروة دعائمه وسنام طاعته) غاية رضا الله تتجسد في الإسلام والقيام بأحكامه باعتباره الأطروحة الإلهية الأخيرة التي ارتضاها لتكون الشافية لهذا الإنسان قال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ وفي الإسلام وامتثال أحكامه تتحقق أعلى طاعات الله والقرب منه. . .

(فهو عند الله وثيق الأركان) أصول الإسلام عند الله قوية متينة لا تتزلزل أو تضطرب ولا تؤثر فيها الشكوك أو الشبهات.

(رفيع البنيان منير البرهان) الإسلام يعلو على كل الأديان ويسمو عليها كما أن كل عاقل مفكر لبيب يؤمن به إذا أصغى بعقله إلى أدلته وبراهينه. . .

(مضيء النيران عزيز السلطان) أحكامه متوقدة فيها الراحة والاطمئنان وسلامة الرؤية ففيها الدفء وفيها النور ترتاح إليها النفس وتنكشف أمامها الظلمات. . .

وكذلك دولته قوية عزيزة لا تضام أو يعتدى عليها فتنام.

(مشرف المنار معوذ المثار) أضواؤه مشرقة مرتفعة، قيل: كنى بها عن علو قدر علمائه وأئمته وانتشار فضلهم والهداية بهم. . .

وأما أسراره وما فيه من كنوز وعمق فيعجز الإنسان عن الوصول إليها أو إدراكها مهما حاول ذلك ودقق وبحث.

(فشرفوه واتبعوه وأدوا إليه حقه وضعوه مواضعه) اعتقدوا شرفه وأن من اتبعه يكون شريفاً كريماً واتبعوه حقيقة وفي العمق قولاً وعملاً وسلوكاً وأدوا إليه حقه بامتثال أوامره وترك نواهيه وضعوه مواضعه فلا تعملوا في تحريفه أو تزييفه أو تحليل حرامه أو تحريم حلاله.

(ثم إن الله سبحانه بعث محمداً ـ صلى الله عليه وآله ـ بالحق حين دنا من الدنيا الانقطاع وأقبل من الآخرة الاطلاع) بعد أن ذكر الإسلام وفضله وخصائصه ثنّى بذكر من أرسل به وهو النبي الكريم وزمن بعثته وما كان قبل ذلك من شقاء وتعاسة فأرسل الله محمداً صلى الله عليه وآله إلى الخلق بدين الحق كما قال تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق. . .**﴾ ثم لما كانت بعثة رسول الله هي آخر البعثات الإلهية إلى

هذا الإنسان بيّن أن بعثته كانت في أواخر الدنيا ونهايتها وقرب الآخرة وحلولها لأن ما مضى منها هو الكثير وما بقي منها هو القليل وفي الحديث ما يدل على هذا. ويمكن أن يريد قرب انقطاع دنيا كل أمة منهم وحضور آخرتهم بموتهم وانقراضهم. . .

(وأظلمت بهجتها بعد إشراق وقامت بأهلها على ساق) فبعد أن أشرقت أنوار النبوة ونعم الناس بخيرها وعطائها وأبواب هدايتها ولطفها فقد أظلمت هذه الأنوار وحل الظلم والخراب والبعد عن الله وتحولت حياتهم إلى حياة شديدة صعبة حيث الغارات والاعتداء وغزو بعضهم لبعض.

(وخشن منها مهاد وأزف منها قياد) صعب فيها الاستقرار وهدوء البال وفُقد فيها طيب العيش كما اقترب زوالها وفناؤها.

(في انقطاع من مدتها واقتراب من أشراطها وتصرم من أهلها) هكذا كانت الدنيا فقد انتهى وقتها المضروب لها والتي تنتهي عنده وتوفرت علامات زوالها التي هي علامات القيامة كما أن من علاماتها تنافر أهلها وتقاطعهم وعدم الوصل واللقاء فيها بينهم. . .

(وانفصام من حلقتها وانتشار من سببها وعفاء من أعلامها) لا يزال الحديث عن أحوال الناس يوم بعثة الرسول فذكر أن الناس لم تجمعهم الشريعة وقوانينها حيث تفرقوا وراء الأهواء والميول والرغبات وقد تفرقوا كل وراء ما يريد من مذاهب ومشارب كما أن العلماء والصلحاء يموتون وقد عبر عنهم بالأعلام لأن بهم يهتدي الضال وعن أيديهم يكون الخير والعطاء. . .

(وتكشف من عوراتها وقصر من طولها) تظهر مفاسد الدنيا وعيوبها ولم يعد هناك من قبيح مستور أو مكروه مقبور كما أن طولها قد تقصّر وتقلص الزمن الطويل من عمرها. . .

(جعله الله بلاغاً لرسالته وكرامة لأمته وربيعاً لأهل زمانه ورفعة لأعوانه وشرفاً لأنصاره) بعد أن ذكر الفترة المتقدمة على بعثة رسول الله وما جرى فيها من قبائح ومفاسد عاد إلى ذكر رسول الله ليدلل على مدى عظمته وكرامته وكيف يجب على الناس أن يقدروا جهوده ويحتفلوا بقدومه ويهتموا بدينه. . .

فقد جعل الله رسوله مبلغاً لرسالة الله مؤدياً لها إلى الناس كما جعله الله كرامة لأمته الإسلامية حيث جعله منها وإليها وجعلها أفضل أمة.

كما أن ببركة الرسول نزلت الخيرات وارتفعت الويلات وأخصبت البلاد فأعطى الناس الهدى والأخلاق والآداب وقدّم بنفسه كل ذلك ليكون قدوة لهم وأسوة حسنة لكل أتباعه.

كما أن بوجوده ارتفع أصحابه واعتزوا كما كان شرفاً لأنصاره الذين عاونوه ونصروه وأي شرف أعظم من أي يصبح الإنسان صحابياً عاش مع النبي...

(**ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه وسراجاً لا يخبو توقده**) بعد أن ذكر النبي ذكر أعظم معجزاته وهو القرآن وقد وصفه بما فيه من الصفات وما فيه من الآثار. وصفه:

«**نوراً لا تطفأ مصابيحه**» فهو نور تنكشف به ظلمات الجهل والضلال لا تطفأ مصابيحه أي لا تتعطل أحكامه وأدلته وما فيه من أحكام وتشريع وقد يكون المراد بالمصابيح العلماء وحملة الشريعة الدعاة إلى الله والأدلاء على مرضاته...

ووصفه بالسراج لأنه ينير الدرب ويكشف الظلمة وهذا السراج لا يخبو توقده أي دائماً يمد الناس بالهداية ويرشدهم إلى الحق والعدل...

(**وبحراً لا يدرك قعره**) علوم القرآن دقيقة وكثيرة وغزيرة وكلما تقدم العلم كلما اكتشف أسرار القرآن وأدرك عمقه وآمن بمن أنزله وإننا نجد العلماء في كل وقت منذ نزوله يدركون بعض معانيه ولا تزال خافية عليهم الكثير منها...

(**ومنهاجاً لا يضل نهجه**) إنه طريق واضح مستقيم لا يتيه أو ينحرف أو يضل السائر عليه والمتحرك في خطه.

(**وشعاعاً لا يظلم ضوؤه**) إنه نور متألق يهدي إليه الحائرين لا ينطفىء أو يختفي، إنه حق واضح لا ينطفىء أو يختفي...

(**وفرقاناً لا يخمد برهانه**) إنه الفاصل بين الحق والباطل وبراهينه لا يمكن إبطالها أو تعطيلها لأنها براهين يوافق عليها العقل...

(**وتبياناً لا تهدم أركانه**) إنه يبيّن الحق من الباطل كما لا يأتي على أركانه التي هي قواعده الأساسية هدم أو خراب أو دليل يبطلها ويبيّن عدم صحتها...

(**وشفاء لا تخشى أسقامه**) فمن شفي فيه من الشك والجهل والضلال لا يعود إلى هذا المرض أبداً ومن آمن لا يرتد، وكذلك يدلّ هذا الكلام على أنه يستشفى بالقرآن من بعض الأمراض البدنية...

(**وعزاً لا تهزم أنصاره وحقاً لا تخذل أعوانه**) ففيه العز وما التجأ أحد إلى الإسلام وطبّق تعاليمه بدقة إلا وكان النصر له ويوم كان المسلمون يتبعون الإسلام ويطبقونه كان النصر حليفهم وقد استطاعوا في أقل من ربع قرن أن يحطموا أعظم دولتين وينتصروا عليهما ولكن عندما تخلى المسلمون عن إسلامهم ولم يعملوا به عقيدة وشريعة عبادة ومعاملة جهاداً وحدوداً أذلتهم أذل الأمم وأحقرها واستعمرتهم الدول واستبدت بهم تسومهم الهوان والذل . . .

وكذلك الإسلام حق من تمسك به وعمل بمضمونه لا يخذل مساعديه بل النصر لهم ومعهم كيف يتوجهون ومساعدوه لا يخذلون في رأي أو موقف . . .

(**فهو معدن الإيمان وبحبوحته**) فهو مصدر الإيمان الذي يعتمد عليه حيث يدفع بالأدلة والبراهين التي تثبّت العقيدة وترسّخها وأما كونه وبحبوحته لأنه المركز الذي يتحرك في دائرته الإيمان فإن القرآن قلب الإيمان ونقطة الإنطلاق في إثارة الفكر وتوجيهه الوجهة السليمة . . .

(**وينابيع العلم وبحوره**) القرآن مصدر العلوم على اختلافها وتنوعها وهو لعمقه وشموله كالبحر لا يدرك قعره ولا يمكن حصره .

(**ورياض العدل وغدرانه**) فالعدل الصحيح من القرآن يؤخذ وفيه تشريع متكامل عن العدل والعدالة سواء كانت اجتماعية أم سياسية أم تشريعية أم غير ذلك . . .

(**وأثافي الإسلام وبنيانه**) فقد كان القرآن وما زال وسيبقى هو الركيزة الأساسية للإسلام والسند المعتمد في كل المجالات فإنه الوثيقة الصادقة التي لا يطرأ عليها شك أو يلفها ضباب . . . عليه يقوم الإسلام بناء وتشريعاً عقيدة وسلوكاً .

(**وأودية الحق وغيطانه**) قالوا : اللفظان مستعاران باعتبار كونه معدناً للحق ومظنة له كما أن الأودية والغيطان مظان الكلأ والماء .

(**وبحر لا ينزفه المستنزفون وعيون لا ينضبها الماتحون**) القرآن كالبحر مهما أخذ منه العلماء والأدباء وأهل الاختصاصات حظوظهم يبقى لأهل كل زمان حظهم ودورهم ونصيبهم منه ولا يستطيع جيل أن يستوعب ما جاء فيه ويدرك كل أسراره وأعجازه .

كما أن القرآن عيون متفجرة بالمعرفة لا يجففها الآخذون منها أو يعكرون صفوها . . .

(**ومناهل لا يغيضها الواردون**) القرآن مشارب عذبة لا ينقص ماءها كثرة الواردين

عليها فكلما أخذ الإنسان من القرآن أمراً بدت لغيره أمور وهكذا يبقى العطاء ويستمر . . .

(**ومنازل لا يضل نهجها المسافرون**) من قصد القرآن وتطلع نحوه وتتبع علومه وصل إلى مراده بدون أن ينحرف أو يضل.

(**وأعلام لا يعمى عنها السائرون**) القرآن منارات لا تخفى على المسافر القاصد إلى الله المتوجه إليه لأنها منيرة مشعة. . .

(**وآكام لا يجوز عنها القاصدون**) إلى القرآن تنتهي الأمور وعنده يتوقف القاصدون ما ينفعهم، لا يستطيعون الخروج عنه أو تخطيه إلى غيره من الآراء والنظريات لأنه الحق وغيره الباطل. . .

(**جعله الله ريّا لعطش العلماء**) كل عالم ظامىء إلى العلوم والمعارف يرتوي من علوم القرآن ويبّرد غليله منه ويرفع جهله به.

(**وربيعاً لقلوب الفقهاء**) فإن القرآن حقل خصب تزدهر علوم الفقهاء منه وتجود قرائحهم بأجود الاستنباطات والتشريعات. . .

(**ومحاجّ لطرق الصلحاء**) فهو الطريق الواضح الظاهر المستقيم للصالحين إن أرادوا سلوكه ومن هنا يجب أن يكون كل صالح يعتمد في سلوكه إلى الله على هذا القرآن فيستفتيه ويعمل به. . .

(**ودواء ليس بعده داء**) إنه الدواء الشافي من كل داء ومن شُفي به لا يقع فريسة مرض على الإطلاق من آمن عن طريق القرآن واهتدى به لا يضل أو يرتد أبداً. . .

(**ونوراً ليس معه ظلمة**) فالقرآن نور يكشف الظلمات ولا يبقى لها وجود.

(**وحبلاً وثيقاً عروته**) القرآن حبل متين العروة قويها لا تنفصم ولا يضل من تمسك به أو اعتمد عليه. . .

(**ومعقلاً منيعاً ذروته**) القرآن حصن منيع لا يقدر أحد على اقتحام أهله والمتحصنين به وإن من عاد إلى القرآن فإن الشكوك لا تأتيه كما أن من اعتمد عليه في احتجاجاته لا يقهر أو يغلب.

(**وعزاً لمن تولاه**) من تولى القرآن والتزم أمره وعمل بمضمونه فقد نال العزة في الدارين وقد برهنت الأمة عندما تتوجه إلى الله وتعمل بكتابه تنال العز والرفعة والعلو وعلى العكس من ذلك عندما تتخلى عن الله ولا تعمل بكتابه. . .

(وسلماً لمن دخله) من دخل عملاً وسلوكاً في القرآن وتدبر مقاصده وأحكامه فإنه يسلم من الشكوك والشبهات كما يسلم من العاهات والآفات. . .

(وهدى لمن ائتم به) فمن اقتدى بالقرآن وعمل بمضمونه قاده ذلك إلى الهدى قال تعالى: ﴿**ذلك القرآن لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾.

(وعذراً لمن انتحله) من اعتمد على القرآن في عمله ومنطقه وسلوكه كان ذلك عذراً له عند الله وعند العقلاء. . .

(وبرهاناً لمن تكلم به) من جعل القرآن حجته فيما يذهب إليه أو يقوله فقد جعل لدعواه حجة قوية نافذة لا تغلب أو تهزم.

(وشاهداً لمن خاصم به) فالقرآن شاهد صدق يثبت به الحق لمن استشهد فيه.

(وفلجاً لمن حاج به) من خاصم به فإن الظفر حليفه والنصر معه.

(وحاملاً لمن حمله) من حمل القرآن في الدنيا وعمل به يحمله هذا القرآن إلى الجنة ويكون سبباً في نجاته وفوزه. . .

(ومطية لمن أعمله) من نفّذ أحكام القرآن وعمل بها وقام بمضمونها فإنها توصله إلى غايته التي هي الجنة واستعار له لفظ المطية باعتبار أن به النجاة. . .

(وآية لمن توسّم) والقرآن آية وعلامة يستدل من خلالها على حقائق الأمور الخفية التي لم يظهر منها إلا بعض العلامات وقد كان أهل المعرفة وفي زماننا هذا قد رأينا بعضهم وأذكر أنني استخرت مرة فقرأ الآية القرآنية وحكى لي ما سوف يجري وما نويت وأنطوى عليه قلبي. . .

وحكي لي أن أحدهم استخار عند بعض هؤلاء الأبدال في موضوع الزواج من بعضهن ولم يعلمه بشيء أبداً وإنما طلب منه استخارة فخرج قوله تعالى: ﴿**جنات تجري من تحتها الأنهار. . .**﴾ فقال له: إن الفتاة جميلة جداً ومناسبة لكنها تبول تحتها في فراشها فما كان من الرجل إلا أن استخبر بدقة عن وضعها فكانت كما قال هذا العارف. . .

(وجنة لمن استلأم) من أدرع بالقرآن واحتمى به فإنه لا يصاب بأذى في الآخرة لأن العامل به من أهل الجنة وأما في الدنيا فلأن العامل به قد حقق شرط النجاح والفوز. . .

(وعلماً لمن وعى) من تعلم القرآن وحفظه فقد أدرك علماً صحيحاً نافعاً وهذا ينفي

عمن يقرأه بلسانه فحسب إنه قد تعلمه بل العلم مع المعرفة والفهم والعمل. . .

(**وحديثاً لمن روى**) سماه الله حديثاً بقوله تعالى: ﴿**الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين**. . .﴾ وسماه حديثاً باعتبار ما فيه من قصص وأخبار وفيه الكفاية لمن أراد أن يحدث وفيه الغنى عن غيره إذا تُكلم فيه.

(**وحكماً لمن قضى**) من أراد أن يقضي بالحق والعدل فإن القرآن حاكم بالحق عادل في القضايا لا يحيف ولا يظلم وعنده وفيه كل ما يحتاجه القضاء. . .

١٩٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

كان يوصي به أصحابه

تَعَاهَدُوا[١] أَمْرَ الصَّلاَةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَٱسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا «كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً[٢] مَوْقُوتاً[٣]». أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: «مَا سَلَكَكُمْ[٤] فِي سَقَرَ[٥]؟ قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ». وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ[٦] ٱلْوَرَقِ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ[٧]، وَشَبَّهَهَا رَسُولُ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ بِٱلْحَمَّةِ[٨] تَكُونُ عَلَى بَابِ الرجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي ٱلْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ[٩]؟ وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ لاَ تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ[١٠]، وَلاَ قُرَّةُ عَيْنٍ[١١] مِنْ وَلَدٍ وَلاَ مَالٍ. يَقُولُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ: **﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ[١٢] تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾**. وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ نَصِباً[١٣] بِالصَّلاَةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِٱلْجَنَّةِ، لِقَوْلِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ: **﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَٱصْطَبِرْ[١٤] عَلَيْهَا﴾**، فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ[١٥] عَلَيْهَانَفْسَهُ[١٦].

الزكاة

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاَةِ قُرْبَاناً[١٧] لأَهْلِ ٱلإِسْلاَمِ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازاً وَوِقَايَةً. فَلاَ يُتْبِعَنَّهَا[١٨] أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلاَ يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ[١٩]، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ

النَّفْس بِهَا، يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَغْبُونُ[٢٠] ٱلأَجْرِ، ضَالُّ ٱلْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ.

الأمانة

ثُمَّ أَدَاءَ[٢١] ٱلأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ[٢٢] مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا. إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ ٱلْمَبْنِيَّةِ، وَٱلأَرَضِينَ ٱلْمَدْحُوَّةِ[٢٣]، وَٱلْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ ٱلْمَنْصُوبَةِ، فَلاَ أَطْوَلَ وَلاَ أَعْرَضَ، وَلاَ أَعْلَى وَلاَ أَعْظَمَ مِنْهَا. وَلَو ٱمْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَو عِزٍّ لأَمْتَنَعْنَ، وَلكِنْ أَشْفَقْنَ[٢٤] مِنَ ٱلْعُقُوبَةِ، وَعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ، وَهُوَ ٱلإِنْسَانُ، «إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً».

علم الله تعالى

إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا ٱلْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ[٢٥] فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. لَطُفَ[٢٦] بِهِ خُبْراً[٢٧]، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْماً. أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ[٢٨].

اللغة

١ ـ تعهدوا وتعاهدوا	:	اصله تجديد العهد بالشيء والمراد المحافظة عليه والتردد عليه وتفقده.
٢ ـ كتاباً	:	فرضاً واجباً.
٣ ـ الموقوت	:	المقدر المحدود.
٤ ـ سلكه	:	دخله ما سلككم ما أدخلكم.
٥ ـ سقر	:	علم لجهنم وقيل إسم وادٍ فيها..
٦ ـ الحت	:	نثر الورق من الغصن وانحات تناثر.
٧ ـ الربق	:	بكسر الراء جمع ربقة على وزن عنب وهي العروة ـ الحلقة ـ في الحبل.
٨ ـ الحمة	:	بفتح الحاء كل عين ينبع منها الماء الحار ويستشفى بها من العلل.

٩ ـ الدرن	:	محركة الوسخ.
١٠ ـ المتاع	:	جمعه امتعة كل ما ينتفع به من عروض الدنيا سوى الفضة والذهب.
١١ ـ قرة العين	:	ما تقربه العين وتُسر.
١٢ ـ تلهيهم	:	تشغلهم لا تلهيهم لا تشغلهم.
١٣ ـ نصباً	:	تعباً من النصب وهو التعب.
١٤ ـ اصطبر	:	صبر.
١٥ ـ يصبّر نفسه	:	أي يأمرها به ويحملها عليه.
١٦ ـ ويصبر نفسه	:	بالتخفيف أي يحبس نفسه عليها.
١٧ ـ القربان	:	ما يتقرب به إلى الله من أعمال البر.
١٨ ـ فلا يتبعنها	:	بنون التوكيد المثقلة من اتبعت فلاناً إذا لحقته.
١٩ ـ اللهف	:	الحسرة.
٢٠ ـ مغبون الأجر	:	منقوصه.
٢١ ـ الإداء	:	إيصال الشيء إلى المرسل إليه.
٢٢ ـ خاب	:	لم يظفر وخاب سعيه لم ينجح.
٢٣ ـ المدحوة	:	المبسوطة.
٢٤ ـ اشفقن	:	من اشفق إذا خاف.
٢٥ ـ مقترفون	:	مكتسبون.
٢٦ ـ لطف	:	دق وصغر.
٢٧ ـ الخبر	:	العلم.
٢٨ ـ العيان	:	بالكسر المعاينة والمشاهدة.

الشرح

(تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها واستكثروا منها وتقربوا بها فإنها ﴿كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾) يتعرض الإمام في هذه الخطبة إلى أمور ثلاثة، الصلاة والزكاة وإداء الأمانة وابتدأ بالصلاة فأمر بها في أوامر.

١ ـ تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها: لتكن الصلاة في عهدتكم وعلى ذمتكم تتعلمونها وتعلّمونها وتحفظون أصولها وأركانها وحافظوا عليها فأدوها في أوقاتها مع شرائطها وأجزائها وأركانها قال تعالى: **﴿حافظوا على الصلوت والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين..﴾**.

٢ ـ واستكثروا منها: اكثروا الصلاة فإنها كما في الحديث: خير موضوع فمن شاء أقل ومن شاء أكثر.

٣ ـ وتقربوا بها: اجعلوها خالصة لوجه الله خالصة من الرياء والعجب وما يفسد العبادات، والتقرب بها إلى الله أن تقع خالصة لوجهه مع شرائطها وجميع أجزائها...

ثم أشار إلى فضلها ووجه وجوبها بقوله: **﴿فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾**: أي كانت في تشريعها واجباً محدداً في وقت معين.

(ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا ﴿ما سلككم في سقر؟﴾ قالوا: ﴿لم نك من المصلين..﴾.

استفهام توبيخي يراد منه التنبيه إلى أن ترك الصلاة يوجب دخول النار.

ألا تسمعون ومفهومه اسمعوا إلى جواب أهل النار كيف أجابوا عن قول من سألهم: **﴿ما سلككم في سقر؟﴾** ما هي الأسباب التي أدخلتكم النار فأجابوا: **﴿لم نكن من المصلين﴾**، لم يؤدوا الصلاة ولم يقيموها فكانت عاقبتهم أن يصلوا إلى النار ويدخلوا هذا المكان المعدّ لعذاب الأشرار...

(وإنها لتحت الذنوب حتّ الورق وتطلقها إطلاق الربق وشبهها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بالحمة تكون على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرات فما عسى أن يبقى عليه من الدرن) هذه إحدى أهم ثمرات الصلاة إنها تسقط الذنوب عن الإنسان كما تسقط الأوراق عن أغصان الشجر وكذلك تحلها من الأعناق كما تحُل عقد الحبال المربوطة بها أعناق الأغنام.

إن الصلاة تسقط الذنوب وفي بعض الأخبار بمجرد أن يقوم الإنسان إلى الوضوء ويبتدأ به تتناثر عنه الذنوب وتتساقط ثم أيد كلامه عليه السلام بما ورد عن النبي ﷺ حيث شبّه الصلاة بعين ماء حارة على باب دار الرجل فيغتسل منها خمس مرات في اليوم والليلة فكما أن هذا المغتسل بهذا الماء لا يبقى على بدنه وسخ بل يتنظف ويتطهر كذلك حال من صلى في اليوم والليلة خمس مرات فإنه لا يبقى عليه من الذنوب أثر...

والسر في ذلك أن المصلي يلتفت إلى نفسه وإلى ربه فيبادر مع كل صلاة إلى إصلاح نفسه وإلى البُعْد عن الفحشاء والمنكر والرذائل وبذلك الباب ـ الصلاة ـ يدخل لتطهير نفسه وتنقيتها وتصفيتها من كل فساد...

(وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع ولا قرة عين

من ولد ولا مال يقول الله سبحانه: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾) هذا ترغيب في الصلاة بضرب المثل بهؤلاء الرجال الذين عرفوا الصلاة وحقيقتها ووقفوا على ثمراتها وفوائدها. . .

لقد عرفها رجال من المؤمنين. . عرفوا عظمة الوقوف بين يدي الله. . عرفوا لذة مناجاته وطيب خطابه. . . عرفوا أن الانحناء له يمنع الانحناء لأي طاغوت في الأرض. . . وعرفوا السجود له يمنع السجود لكل من إدعى الألوهية وقال بربوبية نفسه أو ربوبية غير الله.

لقد عرفها رجال من المؤمنين الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع من متاع الدنيا ولا قرة عين من ولد ولا مال، لقد نظروا إلى أنها رأس القائمة في الباقيات الصالحات فبادروا إليها دون أن يشغلهم غيرها من أمور الدنيا مهما كانت عزيزة أو غالية. . .

ثم استشهد بالآية الكريمة: **﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها إسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾**.

فهؤلاء الرجال النموذج والعينات الطاهرة هم أهل البيت الذين ما ذكر يا أيها الذين آمنوا. . . إلا كانوا قادتهم وسادتهم وروادهم باستمرار. . .

(وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنة لقول الله سبحانه: ﴿وأمر أهلك واصطبر عليها﴾ فكان يأمر بها أهله ويصبر عليها نفسه) وهذاأيضاً من باب الترغيب بضرب المثل بسيد المرسلين الذي أتعب نفسه كثيراً في الوقوف بين يدي الله في الصلاة عندما بشره الله بالجنة وأمره أن يأمر أهله بالصلاة ويصبر عليها فكان يقف بين يدي الله وقفة العز والشموخ، كان يقف حتى تتورم قدماه فينزل الله قرآناً بحقه يقول له: **﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾** أي لتتعب فكان يقول: **﴿أفلا أكون عبداً شكوراً. .﴾**.

فإذا كان رسول الله ﷺ يقف في الصلاة حتى يتعب مع إنه قد بشّره الله بالجنة فكيف بحالنا نحن؟! وهل نقف في صلاتنا بعض ما وقف رسول الله؟! وهل نحفظها كما حفظها ونؤديها كما أداها. . ؟ عفى الله عنا ورحمنا من سوء عملنا وقلة توجهنا إلى الله. . .

(ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام فمن أعطاها طيب النفس بها فإنها تجعل له كفارة ومن النار حجازاً ووقاية فلا يتبعنها أحد نفسه ولا يكثرن عليها لهفه)

والزكاة أخت الصلاة وقرينتها قال تعالى: ﴿**أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة..**﴾ فهي شعيرة إسلامية يتقرب بها إلى الله كما يقول الفقهاء، هي من الأمور العبادية على مستوى الصلاة يشترط فيها نية القربى بمعنى أن تقع لوجه الله خالصة له لا يشركه فيها أحد.

ومن هنا قال لإمام فمن أعطاها طيب النفس بها أي برضاً منه وحب لامتثال أمر الله خالصة لوجهه الكريم فإن آثارها تترتب عليها عندئذٍ وتكون كفارة له من الذنوب تسترها وتمحوها وتكون له من النار وقاية وستراً لا يمسه عذابها ولا يناله لهبها...

ثم استدرك ببيان التحذير من أن يتبع الإنسان زكاته بحيث يدفعها وقلبه معها أي لم تخرج من القلب خالصة لوجه الله بل كانت لبعض الدواعي الحقيرة من توقع ربح أو مدح أو غير ذلك مما ينشده أبناء الدنيا ومحبوها...

كما نهاه أن يكثر تلهّفه عليها أي يتحسر ويتأسف على إخراجها لأن ذلك يحكي عن سوء نيته وإنها لم تخرج من قلبه كما هو حقها...

(فإن من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها فهو جاهل بالسنة مغبون الأجر ضال العمل طويل الندم) ذكر بعض آثار عدم الإخلاص في دفع الزكاة فإن من أعطاها غير طيب النفس بها بدون إخلاص لله بل دفعها يرجو بها ما هو أفضل منها بنظره كالمدح أو الربح فهو رجل جاهل بالسنة لأن من السنة أن يعطيها بنفس طيبة راغبة بما عند الله من الثواب راهبة بما عنده من العذاب.

وكذلك هو مغبون الأجر أي لا أجر له أو ناقص الأجر لأن كل أجر دون رضى الله فهو لا شيء أو حقير...

وأيضاً فهو ضال العمل، عمله باطل لأنه لم يأت به على وجهه المطلوب منه كما أنه في يوم القيامة سيندم طويلاً على سوء فعله وإقاعه للزكاة على غير وجهها ولكن لن ينفعه الندم...

(ثم إداء الأمانة، فقد خاب من ليس من أهلها.. إنها عرضت على السماوات المبنية والأرضين المدحوة والجبال ذات الطول والعرض المنصوبة فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لامتنعن ولكن اشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان ﴿لأنه كان ظلوماً جهولاً﴾) هذه ثالثة ما يذكر الإمام في هذه الخطبة وهي إداء الأمانة فمن إئتمنك بمال أو على شيء وجب عليك أن ترده عليه وتوصله إليه...

والأمانة ثقيلة وقد خسر من ليس من أهلها وضل عن الطريق وشقى بهذا الانحراف.

وما ذكره الإمام من تعظيم لها مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ **إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً..** ﴾.

فإن هذه السماوات المبنية بهذه الدقة وهذه الأرض المبسوطة كما ترى وهذه الجبال ذات الطول والعرض التي ليس هناك أعظم منها كلها قد أمتنعت عن حمل الأمانة وخافت من التقصير في حملها لأن عقوبتها عظيمة.. إنها عرفت مدى الخطورة في حملها ولكن هذا الإنسان لجهله وغبائه حملها ووقع فيما اشفقت منه السماوات والأرض والجبال إنه كثير الظلم جهول بما يحمل لا يعرف خطره ولا أثره...

وقد وردت الأحاديث الكثيرة في إداء الأمانة ووجوب الوفاء بها ويكفي ما ورد عن النبي ﷺ من قوله: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحج والمعروف وطنطنتهم بالليل ولكن انظروا إلى صدق الحديث وإداء الأمانة».

وفي الحديث عن الصادق يقول: اتقوا الله وعليكم بإداء الأمانة إلى من إئتمنكم، فلوا إن قاتل أمير المؤمنين إئتمنني على أمانة لأديتها إليه...

وقد دار الحديث طويلاً في هذه الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال كما دار الجدل في إبائها عن تحملها واشفاقها من ذلك.

والظاهر أن الأمانة هي أمانة التكليف والمسؤولية وإباء السماوات والأرض والجبال هو عجزها التكويني والإباء كان بلسان الحال...

وغرض الإمام هو أن يذكر هذا الأنسان بأهمية الأمانة وإن هذه المخلوقات على عظمتها وضخامتها وقوتها ومتانتها أبت تحمل الأمانة خوفاً من التقصير والعجز المؤدي إلى عقاب الله فكيف يحملها هذا الجرم الصغير ـ وهو الإنسان ـ وطالما أنه تحملها فعليه أن يؤديها كما تحملها...

(إن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه ما العباد مقترفون في ليلهم ونهارهم لطف به خبراً وأحاط به علماً أعضاؤكم شهوده وجوارحكم جنوده وضمائركم عيونه وخلواتكم عيانه) أشار إلى عموم علم الله وإنه لا يخفى عليه ما يعمله هذا الإنسان في ليل أو نهار من خير أو شر وهو الخبير فيما دقّ من الأمور وخفي وعلمه محيط بكل صغائر الأمور

وكبيرها من الذرة الصغيرة إلى المجرة الكبيرة. . .

ثم بين دقة الحكمة الإلهية وشدة الرقابة على هذا الإنسان بحيث تحولت شهوده عليه من ذاته فلا يحتاج إلى غيرها وهي بينات فيها الكفاية على إدانته أو براءته.

أعضاؤكم شهوده: فالأعضاء تشهد على هذا الإنسان بما اقترف واكتسب، الرجل تشهد إلى أين تحركت في طريق الخير أم في طريق الشر. . واليد تشهد إنها بطشت في سبيل الله أو اعتداء على عباد الله. . والعين تشهد إنها نظرت إلى أمر محرم أو إلى ما ينفع وهكذا تتحول كل جارحة في هذا الإنسان إلى شاهد عليه أو شاهد له قال تعالى: **﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾**.

وجوارحكم جنوده: فإن الجوارح باعتبار إنهم يشهدون على أصحابهم فهم كالجنود يعاونون الملك في نصرته وقهر اعدائه وهؤلاء عندما يشهدون على اصحابهم ينتصرون لله ويهزمون أصحابهم. . .

وضمائركم عيونه: أي إن ما تخفي الضمائر سوف تبرزه أمام الله وتكشفه له دون ستر أو حجاب فتصبح الضمائر أضواء كاشفة نافذة قال تعالى: **﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾**.

وخلواتكم عيانة: ما تفعلونه في الخلوت وعلى انفراد لم يطلع عليه أحد فهو بعين الله يراه كما هو على حقيقته فالخلوة عنده جلوة والسر علن والخفاء ظهور. . .

وأراد من وراء ذلك أن الله يعلم كل شيء ولا يخفى عليه شيء فيجب أن يكون الإنسان باستمرار على طاعته وفي خطه لا يرتكب معصية ولا يقترف إثماً. . .

٢٠٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

في معاوية

وَٱللهَ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى(١) مِنِّي، وَلكِنَّهُ يَغْدِرُ(٢) وَيَفْجُرُ(٣)، وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ ٱلْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَة كُفَرَةٌ «وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ(٤) يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ».

وَٱللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِٱلْمَكِيدَةِ(٥)، وَلاَ أُسْتَغْمَزُ(٦) بِالشَّدِيدَةِ.

اللغة

١ ـ الدهاء : جودة الرأي والحذق والدهاء المكر والاحتيال، استكمال شتى السبل للوصول إلى الهدف.

٢ ـ الغدر : نقض العهد، عدم الوفاء.

٣ ـ يفجر : من الفجور وهو مقابل العفة.

٤ ـ اللواء : العلم دون الراية.

٥ ـ المكيدة : الحيلة.

٦ ـ استغمز : من الغمز وهو العصر باليد والغمز بالتحريك الرجل الضعيف.

الشرح

(والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس) في هذاالكلام يدفع الإمام عن نفسه إدعاء من قال: إن معاوية أدهى منه وأشد خبرة بما ينفع في الحرب فأقسم عليه السلام أن معاوية لم يكن بأدهى منه أي بأشد إدراكاً لموارد النجاح والوصول إلى الغاية التي يريدها فإن الإمام كان على علم بكل الطرق

الموصلة إلى السلطة والاستبداد بها والاستيلاء عليها كان يعلم كل الحيل والخداع والمكر الذي يقدر من خلاله على ضبط أمور الحكم والسلطة ولكنه لا يستعمل إلا الوسيلة الشريفة النظيفة التي لا تعكر طهر الهدف ونقاؤه يجب أن تبقى الوسيلة مشروعة مباحة قد أذن الله بها. . .

ولكن معاوية يغدر فلا وفاء له مع الله فيما أخذه عليه أن يكون في خطه وفي دينه وتحت أمره. . إنه يغدر بعهده مع الله ومن يغدر يفجر أي ينحرف ويضل ويفسق ثم بين السبب في عدم استعماله للدهاء «ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهي الناس» لولا حرمة الغدر وإن الله حرمه على الناس فضلاً عن المؤمنين لكنت من أدهى الناس وليس أدهى من معاوية فحسب فإنه عليه السلام يعرف مفاتيح النصر ويستطيع أن يستعمل ذلك شرط أن يتخلى عن شخصيته العلوية الإيمانية وهذا لن يكون على الإطلاق. . . لأنه يخرج عن كونه علياً وهو يأبى إلا أن يكون هو. . .

ثم بين نتيجة الغدر فقال:

(ولكن كل غدرة فجرة وكل فجرة كفرة «ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة») وهذا هو التسلسل الطبيعي للغادر فهو فاجر وكل فاجر فهو كافر أما كفر نعمة لأنه بمعصيته يستر نعم الله ويكفرها وأما كفر جحود باعتبار أن معاوية يعلم حرمة الغدر ثم يرتكبه فيعود إلى جحود تشريعه المؤدي إلى تكذيب الرسل وانكار ما جاء به وهو الكفر بعينه. . .

ثم نفّر من ذلك بمشهد رهيب يخاف منه المؤمنون ويتبعه معاوية ومن يمشي على طريقته وسيرته ففي يوم القيامة لكل غادر لواء ظاهر ينكشف أمام أهل المحشر يعرف به يقال لأهله إنهم أهد الغدر وما اسوأه من لواء ينضوى تحته الغدارون المكارون الفجرة. . . لواء أسود يقطر خزياً وعاراً وعذاباً وناراً. . .

(والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة) ثم أقسم إنه على علم بمكائد معاوية ليس بغافل عنها ومن كان عالماً بها وبطرقها استطاع أن يجد لك مكيدة مخرجاً ثم بين شدة عزيمته وقوته وإنه لا يضعف أو ينسحب إذا حلّت نكبة شديدة أو نزلت نازلة عظمى. . .

علي ومعاوية.

علي ومعاوية قطبان متنافران لا يلتقيان أبداً فهذا يسير نحو المشرق وذاك نحو

المغرب. . . هذا يسير نحو الله والآخر يسير نحو الشيطان، هذا يسير نحو الدين وذاك يسير نحو الدنيا هذا يسير نحو المبادىء والقيم وذاك يسير نحو المنافع والفوائد. . علي رجل الله ومعاوية رجل الشيطان. . . علي رجل الإسلام ومعاوية رجل الجاهلية. . . علي مع الحق ومعاوية مع الباطل. . علي يؤثر الصدق حيث يضر ومعاوية يختار الكذب حيث ينفع. . علي مجموعة قيم الإسلام وتعاليمه ومعاوية مجموعة سقطات الجاهلية ورذائلها. . .

علي أحب الإسلام وآمن به واتبعه وضحى من أجله ولن يتنازل عن حكم من أحكامه وإن كان فيه منفعة له وثمره تعود إليه ومعاوية لم يؤمن بالإسلام ولم يتبعه إلا لمصلحته فلذا يستخدمه في سبيل تحقيق أغراضه ولا يقف حكم محرم أمامه ولا يعجز عن إلغائه إن أخره عن هدفه فكيف إذا منعه عنه. . .

ومن هنا كانت الأبواب مفتوحة أمام معاوية. . كل الأبواب بدون استثناء فليس في قائمته شيء محرم أو غير جائز أو ممنوع بينما الإمام في قائمته بل على رأسها حكم الله وتحريمه وما يجوز وما لا يجوز. . .

بين علي ومعاوية تنافر. . . علي يرى بالزام الشرع له وأن يكون دائماً عند قواعد الحلال والحرام ومعاوية اسقط كل المحرمات من قاموسه وسياسته وحركته. . . ولكن سياسة معاوية تبين عقمها اليوم لقد فشلت سياسته على كل المستويات فلا الحكم ولا الرشاوي ولا المناصب ولا المال ولا غيرها استطاع أن يضعه في صف الإمام وفي مرتبته. .، لقد حكم العقلاء بحياة علي في سياسته وأصحاب كل المبادىء والقيم يترسمون علياً فيها بينما مات معاوية في مكره وغدره وأضحى عنواناً لكل الانتهازيين الساقطين. .، عليّ في ضمير الأحرار وعلى ألسنة الثوار ومعاوية وصمة ذل وعار. . .

٢٠١ ـ ومن كلام له عليه السلام

يعظ بسلوك الطريق الواضح

أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَسْتَوْحِشُوا(١) فِي طَرِيقِ ٱلْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ ٱجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ(٢) شِبَعُهَا(٣) قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَى والسُّخْطُ(٤). وَإِنَّمَا عَقَرَ(٥) نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ(٦) ٱللهُ بِٱلْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾، فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ خَارَتْ(٧) أَرْضُهُمْ بِٱلْخَسْفَةِ(٨) خُوَارَ(٩) السِّكَّةِ(١٠) ٱلْمُحْمَاةِ(١١) فِي ٱلأَرْضِ ٱلْخَوَّارَةِ(١٢).

أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ سَلَكَ(١٣) الطَّرِيقَ ٱلْوَاضِحَ وَرَدَ ٱلْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ(١٤).

اللغة

١ ـ **الاستيحاش** : من الوحشة التي هي ضد الأنس.
٢ ـ **المائدة** : الطعام.
٣ ـ **الشبع** : ما يشبع.
٤ ـ **السخط** : الغضب.
٥ ـ **العقر** : قطع عرقوب الناقة ثم جعل النحر عقراً لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره.
٦ ـ **عمهم** : شملهم.
٧ ـ **خارت** : غارت.
٨ ـ **الخسفة** : من خسف المكان إذا غار في الأرض.

٩ ـ **الخوار** : صوت البقر والغنم.
١٠ ـ **السكة** : حديدة المحراث التي تشق الأرض.
١١ ـ **المحماة** : من حميت الحديدة فهي حامية إذا اشتد حرها بالنار.
١٢ ـ **الخوارة** : الضعيفة اللينة.
١٣ ـ **سلك** : الطريق سار فيه والمكان دخله.
١٤ ـ **التيه** : بكسر التاء المفازة ـ الصحراء ـ التي لا علامة فيها يهتدى بها.

الشرح

(أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله فإن الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل) أراد عليه السلام أن يرغّب أصحابه في الثبات على ما هم عليه من طريق الحق والهدى ولا يستوحشوا لقلتهم فيظنون أن هذه القلة دليل على أن الحق في خلافها فإن هذا الميزان لا يتفق والحقيقة من حيث إن الحق والهدى يخضع لميزان العدل الإلهي ولا يخضع لكثرة أو قلة...

ثم بيّن علة القلة في أهل الهدى وهو أن الناس التقوا واجتمعوا على الدنيا وشبهها بالمائدة وفيها ما طاب بحسب رغبة الإنسان ولكن نفّر عنها بأنها مائدة مدة شبعها قصير بعدد أعوامها ولكن ما بعده سيأتي جوع طويل وهو ما بعد الموت والحساب حيث يتمنى الإنسان عملاً صالحاً ينفعه لحياته الآخرة...

(أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط) ما هو الذي يجمع الناس في الحكم؟! وكيف نحكم على مجموعة بحكم وعلى أخرى بحكم آخر؟ وكيف نخرّج بعض المصاديق الموجودة جسداً مع هذه الجماعة عن حكم يلحقها وكيف ندخل مصداقاً آخر يكون بعيداً جداً في هذه الجماعة.

الإمام يعطي الميزان وأن الحكم بالعذاب يلحق كل من رضي بالمعصية وإن لم يمارسها بنفسه وأن الرحمة تلحق كل من يرضى بعمل الخير وإن لم يمارسه بنفسه، فالحكم يتبع الرضى ويتبع السخط وهذا المعنى موجود في أحاديث أهل البيت.

ففي الحديث عن محمد بن الأرقط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تنزل الكوفة؟.

قلت: نعم.

قال: ترون قتلة الحسين بين أظهركم.

قلت: ما بقي منهم أحد.

قال: فأنت إذاً لا ترى القاتل إلا من قتل أو من ولي القتل ألم تسمع إلى قول الله: **﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾** فأي رسول قتل الذين كان محمد صلى الله عليه وآله بين أظهرهم ولم يكن بينه وبين عيسى رسول وإنما رضوا قتل أولئك فسمّوا قاتلين...

والإمام استشهد بقصة ثمود فقال:

(وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عموه بالرضى فقال سبحانه: ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة) فإن ثمود رضوا بفعل واحدٍ منهم معصيته حيث أقدم على نحر الناقة فلما جمعهم الرضى بهذا الفعل جمعهم الله بالعقوبة وشملهم جميعاً بالعذاب فقال تعالى: **﴿فعقروها﴾** مع أن العاقر واحد ولكن نسب إليهم الفعل باعتبار رضاهم بفعله **﴿فأصبحوا نادمين﴾** عندما أخذتهم الرجفة فقد انخسفت أرضهم وغارت كما تجري سكة المحراث في الأرض الرخوة بيان لسرعة الخسف ونزول الأرض بهم...

(أيها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء ومن خالف وقع في التيه) عاد إلى التنبيه على لزوم الطريق المستقيم ووجوب السير عليه وأن لا يتركه الإنسان لأنه يضل وينحرف ومن يمشي مستقيماً إلى الماء فإنه يصل بدون شك أما إذا تحول إلى اليمين أو الشمالَ فإنه يقع في التيه فيضل وقد يموت من العطش... وأنتم على الحق أكملوا المسير حتى تصلوا إلى الجنة ولا تنحرفوا فتضلوا وتخسروا...

٢٠٢ ـ ومن كلام له عليه السلام

روي عنه أنه قاله عند دفن سيدة النساء فاطمة عليها السلام،
كالمناجي به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قبره

السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ عَنِّي، وَعَنِ ٱبْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَٱلسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ[١]! قَلَّ، يَا رَسُولَ ٱللهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ[٢] عَنْهَا تَجَلُّدِي[٣]، إِلاَّ أَنَّ فِي التَّأَسِّي[٤] لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ[٥]، وَفَادِحِ[٦] مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ[٧]، فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ[٨] فِي مَلْحُودَةِ[٩] قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ[١٠] بَيْنَ نَحْرِي[١١] وَصَدْرِي نَفْسُكَ، «فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». فَلَقَدِ ٱسْتُرْجِعَتِ ٱلْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ! أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ[١٢]، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ[١٣]، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ ٱللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَتُنَبِّئُكَ[١٤] ٱبْنَتُكَ بِتَضَافُرِ[١٥] أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا[١٦]، فَأَحْفِهَا[١٧] السُّؤَالَ، وَٱسْتَخْبِرْهَا ٱلْحَالَ؛ هذَا وَلَمْ يَطُلِ ٱلْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَٱلسَّلاَمُ عَلَيْكُمَا سَلاَمَ مُوَدِّعٍ، لاَ قَالٍ[١٨] وَلاَ سَئِمٍ[١٩]، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلاَ عَنْ مَلاَلَةٍ[٢٠]، وَإِنْ أُقِمْ فَلاَ عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ ٱللهُ الصَّابِرِينَ.

اللغة

١ ـ لحق به : أدركه.
٢ ـ رقّ : ضعف.
٣ ـ التجلد : التصبر.
٤ ـ التأسي : التعزية.

٥ ـ الفرقة : الافتراق.
٦ ـ الفادح : الصعب المثقل يقال: ركبه دين فادح أي مثقل والفادحة المصيبة الشديدة.
٧ ـ التعزي : التصبر.
٨ ـ وسدتك : من الوساد بتثليث الواو المخدة.
٩ ـ ملحودة القبر : الجهة المشقوقة منه واللحد الشق في جانب القبر.
١٠ ـ فاضت : جرت.
١١ ـ النحر : أعلى الصدر.
١٢ ـ السرمد : الدائم الذي لا أول له ولا آخر.
١٣ ـ المسهد : المؤرق.
١٤ ـ ستنبئك : ستخبرك.
١٥ ـ التضافر : التعاون وتضافروا على الأمر تعاونوا عليه.
١٦ ـ الهضم : الظلم وعدم إعطاء الحق.
١٧ ـ الإحفاء : في السؤال الاستقصاء فيه.
١٨ ـ القالي : المبغض.
١٩ ـ السئم : الضجر.
٢٠ ـ الملالة : من الشيء سئمه وضجر منه.

الشرح

(السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك) قال الشريف: إن هذا الكلام صدر من الإمام عند دفن سيدة النساء فاطمة عليها السلام كالمناجي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند قبره...

عندما دفن الإمام عزيزة رسول الله عزّ عليه المصاب وجل الخطب توجه إلى القبر الشريف... إلى حبيبه وخليله يبثه الشكوى الحزينة ويشرح له الألم الممض... لحن حزين يبثه الإمام من قلبه يشرح لرسول الله مصابه بعزيزته الزهراء... وقف على القبر الشريف وقفة المفجوع الحزين المصاب بأغلى ما عنده... السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك... السلام عليك عني بالأصالة وعن ابنتك بالنيابة... إنها نزلت في جوارك في مقام القدس... في الدار الآخرة ولقد كانت مسرعة في اللحاق بك مما زاد مصائبي وجعلها متواترة عليَّ...

(قل يا رسول الله عن صفيتك صبري ورق عنها تجلدي) بيان لشدة مصيبته وعظيم وقعها على قلبه وأن علياً ذلك الجبل الأشم الذي لا تحركه العواصف والنوائب يعترف بأن الصبر على حبيبة رسول الله قد قلّ وأن التصبر قد ضعف. . . فقد كانت الزهراء بقية رسول الله يرتاح الإمام إليها ويشعر أن يد النبوة لا تزال ترعاه. . . يشعر بوجود الزهراء أن جزءاً من رسول الله يعيش في الحياة معه يؤاسيه يمشي معه يحمل همومه ويتحرك من أجل قضاياه فعندما فقدها شعر بوحدته وغربته فكانت الصدمة قوية بحيث لم يقدر أن يحبس ما في نفسه فأبداه بهذه العبارات «قل ورق» الصبر والتجلد. . .

(إلا أن في التأسي لي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز) بعد أن ذكر مصيبته بالزهراء وشرح وقعها الأليم على قلبه استدرك بأن مصيبته برسول الله كانت هي الأعظم وأنه كما صبر في تلك المصيبة سيصبر على هذه فتكون تلك هي التي تخلق الصبر عن هذه. . .

(فلقد وسدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك «فإنا لله وإنا إليه راجعون») هذا شرح لتفاصيل مصيبته برسول الله وما مرّ عليه من أمور صعبة وأنه هو الذي وضعه في قبره وتولى بيده دفنه وكيف خرجت نفس رسول الله ورأسه بين صدر الإمام ونحره فهو أقرب الناس إليه عند وفاته وكان إلى جنبه في آخر لحظات حياته ثم استرجع متسلياً راجعاً إلى الله في طلب الأجر والصبر قائلاً: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فنحن ملك لله ونحن إليه راجعون. . .

(فلقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة) كلام حزين. . . قد عادت روح الزهراء إلى باريها. . . والإنسان في الدنيا وديعة لا بد وأن ترد إلى الله لتحاسب ووجه كون النفس وديعة أن النفس في هذا البدن كالوديعة فإذا أخذت فقد استرجعت.

وباعتبار أن الإنسان مرهون بأعماله فبهذا الاعتبار أضحى رهينة.

وفسر قوله: «استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة» بالنساء باعتبار أن المرأة وديعة عند الرجل وكأنها رهينة عنده يجب المحافظة عليها وردها إلى المودع والمرتهن. . .

(أما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم) بيان لحزنه وشدته وأنه سيبقى دائم الحزن والكآبة ومؤرق الليل لا ينام قد أسهره المصاب فسلب النوم من أجفانه وسيبقى هكذا إلى أن يستشهد ويذهب إلى جوار المصطفى حيث هو مقيم في أعلى عليين في جنة النعيم. . .

(وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فأحفها السؤال واستخبرها الحال هذا

ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر) بوفاة الصديقة استرجع الإمام شريط الأحداث الماضية. . . ما جرى عليه وعليها. . . وكيف مارست هذه الأمة بحق عزيزة المصطفى أبشع صور التعامل وأقبحه. . . استرجع وأظن أن هذه الحالة البشرية تعتري كل واحد منا عندما يموت له عزيز يسترجع الذكريات الحلوة والمرة ما مرّ عليه وما جرى له إنه يستحضر في ذهنه الماضي كله ويختصره في عبارات تؤدي المطلوب، والإمام في هذا الموقف الرهيب يستذكر ما جرى على الزهراء وكيف اجتمعت الأمة على ظلمها فسلبتها حقها وردت حجتها وما ادعته لنفسها ثم ظلمتها في قهرها وضربها وأهانتها ثم بعد ذلك في ممارسة الأمة من الظلم على زوجها وحرمانه من حقه في الخلافة. . .

إنها ذكريات مرّة لم يستطع الإمام أن يبثها إلا إلى حبيبه وهذا هو وقتها وقد دفن الزهراء ووقف على قبر رسول الله. . . إنها فرصة يستطيع الإمام أن يخفف فيها مما يعيشه من الأسرار والأحزان. . . يا رسول الله ستخبرك ابنتك الزهراء. . . بضعتك الطاهرة الحوراء ستخبرك بأول اجتماع بك وأول لقاء معك باجتماع الأمة على ظلمها وأخذ حقها ومصادرة ميراثها وأملاكها فأنت يا رسول الله شدّد الطلب واستقصي الخبر فستجد عظم المصاب وجلل الخطب وفداحته. . . استخبرها الحال الذي جرى عليها وعليّ وما يجري الآن. . . إنها أحداث رهيبة تنكّر القوم فيها لرسول الله وحاربوه في أهله وذريته وأقرب الناس إليه وأنني أعتقد لو كان في الأمة حب لرسول الله وولاء له لحفظوه في وحيدته الزهراء التي خلّفها بعده ولم يترك من أثره غيرها، وأعتقد أن الزهراء لو كانت في غير هذه الأمة لقدسوها لذاتها ولرسول الله ولكنها الأمة التي اجتمعت على نصب العداوة لمحمد ولم تقدر أن تقابله في حياته فواجهته في أهله فنحّت علياً عن الخلافة وظلمت الزهراء أبشع صور الظلم من الضرب والإهانة وسلب ميراثها وسمّت الحسن المجتبى وقتلت الحسين الشهيد وسيّرت أهل بيت رسول الله سبايا تجوب بهم البلاد. . . وهكذا. . . هذا وبعد لم يطل العهد بفراقك إذ لا زلت شاخصاً أمام أبصارهم تتراءى لهم في كل مكان ولم يخل منك الذكر إذ يعيشون ذكرك ويعيشون مقامك بينهم وحديثك لهم. . . .

فمع قرب عهدك بهم وذكرهم لك فعلوا ما فعلوا من الظلم والاعتداء وهضم الحق لأهلك وبالخصوص لابنتك وعزيزتك وبضعتك الزهراء. . .

(والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئم فإن انصرف فلا عن ملالة وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين) أراد أن يودعهما فختم بالسلام عليهما كما بدأ به. . . السلام عليكما سلام مودع وللوداع لوعة في القلب يعرفها المحبون عند الوداع. . . لوعة

الفراق. . . سلام مودع لا مبغض ولا ملول بل وداع حبيب لأحبته ثم اعتذر فإن انصرف عن قبريكما فلا عن ضجر وسأم من القيام عليهما وإن أقم فلا عن سوء ظن حيث تذهب المصيبة ببعض الناس إلى الجزع والهلع واليأس فيسيؤن الظن بالله الذي وعد الصابرين بأن يوفيهم أجرهم بغير حساب فليس الانصراف عن ملالة ولا القيام عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين من الأجر. . . .

ترجمة سيدة نساء العالمين فاطمة بنت محمد.

ـ فاطمة بنت محمد خاتم النبيين وإلى رسول الله ينتهي كل كمال وبه يفتخر كل إنسان.

ـ أمها خديجة بنت خويلد أول الناس إسلاماً وأكثرهم تضحية في سبيل الله والدعوة إلى الإسلام.

ـ أسماؤها: البتول، الحوراء، الصديقة الكبرى، الطاهرة، الزكية، أم أبيها، وأشهر من كل ذلك سميت الزهراء.

ولدت الزهراء في العشرين من جمادي الثانية بعد النبوة بخمس سنين وبعد الإسراء بثلاث سنين.

أقوال النبي فيها.

رسول الله لا ينطق عن الهوى ومن هنا يجب أن تكون كلماته في أعلى درجات الاعتبار فهو المعصوم المسدد وكلماته في الزهراء إنما كانت بياناً للحقيقة وكشفاً عن واقع تتمتع به بنت محمد.

قال صلى الله عليه وآله: فاطمة بضعة مني يؤذيني ما أذاها ويريبني ما رابها.

قال صلى الله عليه وآله وقد أخذ بيد الحسنين: من أحبني وهذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة.

وقال لها النبي صلى الله عليه وآله: يا بنية من صلى عليك غفر الله له وألحقه بي حيث كنت من الجنة.

زواجها المبارك.

رغب بعض الصحابة من الزواج بالزهراء ولكن النبي كان يردهم بأن أمر زواجها

بيد السماء حتى جاء الإمام علي فزوجها منه فأنجبت سيديّ شباب أهل الجنة وزينب بطلة كربلاء.

فدك.

بعد وفاة رسول الله كان من الطبيعي أن تعود أملاكه إلى ورثته وقد انحصر الوارث بالزهراء وهذا الأمر دعاها إلى المطالبة بفدك التي كانت ملكاً لرسول الله ولكن الخليفة منعها حقها بحديث انفرد فيه «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة...» فكانت هذه صدمة عنيفة أثرت على الزهراء فخطبت خطبتها المشهورة ومع ذلك استعانت بالأنصار والمسلمين ولكنهم رفضوا إعانتها... وبذلك سُلب حقها كما سلب حق زوجها في الخلافة من قبل...

وفاتها.

واختلف في تاريخ وفاتها على أقوال وما عليه العملِ أنها توفيت في الثالث من جمادى الثانية بعد أبيها بحوالي ثلاثة أشهر ودفنها الإمام ليلاً وعفّى قبرها بعد أن أوصته بذلك وبأن لا يحضر تشييعها أحد ممن ظلمها وسلبها حقها...

٢٠٣ ـ ومن كلام له عليه السلام

في التزهيد من الدنيا والترغيب في الآخرة

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ[١]، وَٱلآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ[٢]، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلاَ تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ[٣] عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا ٱخْتُبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ ٱلْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ[٤] قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ ٱلْمَلاَئِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ للهِ آبَاؤُكُمْ! فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً[٥]، وَلاَ تُخْلِفُوا[٦] كُلاًّ فَيَكُونَ فَرْضاً[٧] عَلَيْكُمْ.

اللغة

١ ـ مجاز : ممر وجاز المكان إذا سار فيه وعبره.
٢ ـ القرار : من قرّ إذا ثبت واستقر بالمكان.
٣ ـ هتك الستر : أزاله من مكانه بحيث بدا ما وراءه.
٤ ـ هلك : مات.
٥ ـ القرض : ما تعطيه لغيرك من المال شرط أن يرده أو مثله.
٦ ـ تخلفوا : مضارع خلّف الرجل الشيء بالتشديد تركه بعده.
٧ ـ فرضاً : واجباً.

الشرح

(أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار فخذوا من ممركم لمقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم) موعظة بالغة تتحرك لها النفس وتعيش أجواء

الآخرة وتسعى لها تاركة الدنيا وما فيها وطالما سمعتها كثيراً من الخطباء والوعاظ وأهل الدين وأهل الخير.

إنما الدنيا دار مجاز... دار لا استقرار فيها ولا دوام... دار يعبرها الإنسان إلى الآخرة... طريق يمر عليه ولا يستقر وأما الآخرة فهي دار القرار... الدار التي يحط الإنسان فيها رحله ويستقر فلا ظعن عنها ولا هجرة منها وإذا كان الأمر كذلك فالعاقل من يأخذ من ممره إلى مقره من دنياه إلى آخرته وكيف يأخذ وما يأخذ؟.

إنه يعمل الصالحات يقوم بالواجبات ويترك المحرمات فإذا به يأخذ أجرها وثوابها إلى الآخرة...

«فخذوا من ممركم لمقركم» خذوا الأجر والثواب المترتب على أعمالك في دار الدنيا إلى الآخرة التي هي مكان الاستقرار والدوام.

«ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم» لا تخلعوا الأستار التي تحجب معاصيكم وسيئاتكم عند الله الذي يعلم أسراركم وإذا كان يعلم الأسرار فهو يعلم الظواهر بطريق أولى فلا يخفى عليه خافية وهذا نهي عن ارتكاب المعصية بأي وجه من الوجوه.

(وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم) دعوة إلى الزهد في الدنيا والإعراض عنها بأن يعرض بقلبه عن زينتها وما فيها وهو في دار الدنيا قبل أن يخرج عنها بالموت.

وبيّن سبب ذلك بأننا خلقنا للاختبار والامتحان فيها فهي مدرسة يمتحن فيها الإنسان ثم يتركها إلى الدار الآخرة التي خلق لها ومن أجلها والعاقل من ينظر إلى الهدف فلا يشغله الطريق إليه عن الوصول إليه...

(إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ لله آباؤكم فقدموا بعضاً يكن لكم قرضاً ولا تخلفوا كلا فيكون فرضاً عليكم) منطق الناس أن الإنسان إذا مات قالوا ما ترك خلفه من أولاد من أموال... من ميراث بينما الملائكة تقول: ما قدم من صلاة وصوم وحج وزكاة وصدقات وأعمال بر وخير... منطقان مختلفان... منطق الناس منطق المادة والحسابات الدنيوية بينما منطق الملائكة منطق القيم والمثل والأجر والثواب ومنطق الآخرة... منطق الناس الذين نسمعهم بآذاننا ونراهم بأشخاصهم أمامنا يقولون ما ترك... ما ترك كلمة أهل الدنيا وحديثهم عندما يموت أحد الناس... بينما ما قدّم؟ كلمة الملائكة التي تشعر بعظيم ما يقدم عليه من الآخرة وأنه لا

تنفعه كل أمواله إذا خلفها لغيره ولم يقدّم منها لآخرته شيئاً. . . تعرف الملائكة أن الذي ينفعه هو ما يقدمه لحياته الآخرة. . .

ثم إن الإمام يقول لهم: ما أجدركم أن تقبلوا وصيتي وتعملوا بموعظتي وأنتم من أنتم من أعمال الخير فقال لهم: «لله آباؤكم» تعظيماً لهم بنسبة آبائهم إلى الله من حيث إنهم أطاعوه والتزموا أمره. . .

«لله آباؤكم» وأنتم أبناؤهم قدموا بعضاً مما تملكون وتعملون واصنعوا فيه ما ينفعكم في آخرتكم من أعمال البر والصدقات وإعانة المحتاج وإطعام الطعام وإغاثة الملهوف وتفريج كرب الناس فإن قدمتم ذلك تقدمونه كقرض تقدمونه في الدنيا وتأخذونه في الآخرة ليس مثلاً بمثل بل أضعافاً مضاعفة لا يعلم إلا الله كميتها وكيفيتها.

٢٠٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

كان كثيراً ما ينادي به أصحابه

تَجَهَّزُوا(١) رَحِمَكُمُ ٱللهُ! فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا ٱلْعُرْجَةَ(٢) عَلَى الدُّنْيَا، وَٱنْقَلِبُوا(٣) بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً(٤) كَؤُوداً(٥)، وَمَنَازِلَ(٦) مَخُوفَةً مَهُولَةً(٧)، لاَ بُدَّ مِنَ ٱلْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَٱلْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَلاَحِظَ(٨) ٱلْمَنِيَّةِ(٩) نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ(١٠)، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا(١١) وَقَدْ نَشِبَتْ(١٢) فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ(١٣) فِيهَا مُفْظِعَاتُ(١٤) ٱلأُمُورِ، وَمُعْضِلاَتُ(١٥) ٱلْمَحْذُورِ. فَقَطِّعُوا عَلاَئِقَ(١٦) الدُّنْيَا وَٱسْتَظْهِرُوا(١٨) بِزَادِ التَّقْوَى.

وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدم، بخلاف هذه الرواية.

اللغة

١ ـ جهاز المسافر : ما يحتاج إليه في قطع المسافة وجهاز العروس ما تحتاج إليه وتجهزوا لكذا تهيئوا له.

٢ ـ العرجة : بالضم الإقامة.

٣ ـ انقلبوا : انصرفوا.

٤ ـ العقبة : جمعها عقاب وعقبات المرقى الصعب من الجبال، والطريق في أعلى الجبل.

٥ ـ كؤود : شاقة، الصعبة.

٦ ـ منازل : أماكن ينزل فيها.

٧ ـ المهولة : المفزعة.

٨ ـ الملاحظ : جمع الملحظ وهو النظر بمؤخر العين.

٩ ـ المنية : الوفاة.
١٠ ـ دانية : قريبة.
١١ ـ المخالب للسباع : بمنزلة الظفر للإنسان.
١٢ ـ نشبت : علقت.
١٣ ـ دهمتكم : غشيتكم.
١٤ ـ مفظعات الأمور : عظائمها وشدائدها المتجاوزة للمعتاد.
١٥ ـ المعضلات : الشدائد.
١٦ ـ العلائق : جمع علاقة، التعلق والارتباط.
١٨ ـ استظهروا : استعينوا.

الشرح

(تجهزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل وأقلوا العرجة على الدنيا وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد فإن أمامكم عقبة كؤوداً ومنازل مخوفة مهولة لا بد من الورود عليها والوقوف عندها) هذه الخطبة صيحة مدويّة في آذان الناس وصرخة مرتفعة يسمعها من له أذن واعية، إنها أمر بأن يأخذ الإنسان من دنياه ما ينفعه في آخرته...

«تجهزوا» استعدوا وهيئوا ما تحتاج إليه سفرتكم من الدنيا إلى الآخرة... تجهزوا بكل ما تحتاجونه من أعمال البر والخير والعمل الصالح وتقوى الله وإعانة عباد الله... **«تجهزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل»** فهذه صيحات الأنبياء وبيناتهم تناديكم أن تستعدوا لهذا السفر الرهيب.

وهذه المنايا رسل متتالية إليكم تنذركم بهذا الرحيل.

«وأقلوا العرجة على الدنيا» لا تجعلوا الدنيا موطن إقامتكم وتعملوا لها ومن أجلها وتنسوا الآخرة....

وانصرفوا عن هذه الدنيا بما تعملون من الصالحات قدر استطاعتكم وما وسعت ذات يدكم... إن الأعمال الصالحة في متناول أيديكم وأنتم أصحاء قادرون على العمل فاغتنموا الفرصة وقوموا بالواجبات واعملوا السنن والمستحبات وانقلبوا عن هذه الدار بهذه الصالحات إلى الدار الآخرة...

ثم أشار إلى أن أمام الإنسان بعد هذه الحياة عقبة صعبة شاقة يتعب مجتازها ألا

وهي الموت وهناك بعد الموت أماكن مفزعة مرعبة هناك سكرات الموت وشدائده وعذاب القبر وحسابه وضيق اللحد ووحشته ولا بد من الوصول إلى ذلك وإدراكه وعلى العاقل أن يستعد ويهيىء من الزاد والمتاع ما يرفع هذه المشقة أو يدفعها . . .

(واعلموا أن ملاحظ المنية نحوكم دانية وكأنكم بمخالبها وقد نشبت فيكم وقد دهمتكم فيها مفظعات الأمور ومعضلات المحذور فقطعوا علائق الدنيا واستظهروا بزاد التقوى) واعلموا يرحمكم الله أن الموت ينظر إليكم بأطراف عينيه تارة بالألم البسيط وأخرى بالبلاء الشديد وثالثة بالأشد حتى يصل بكم إلى المميت فكلما كبرتم وتقدمتم بالسن كلما تقدمت المنية نحوكم وما هي إلا أعوام فإذا أنتم بين مخالب المنية قد استحكمت أسبابها فيكم من هرم وكبر ومرض، فالموت محيط بكم أينما كنتم وسوف يدرككم وأن رسله إليكم في كل ما ينغصّ عليكم حياتكم ويقلقكم في وجودكم واستقراركم.

ثم بين كيف يهجم الموت بعظائم الأمور وشدائدها حيث تسكن الأطراف وتخمد الأنفاس وينقطع الشخص عن الناس ويقف أمام عمله وما قدمه لآخرته، إن هناك الموت الذي لا يستطيع دفعه الإنسان أو رده أو تخفيف أهواله وما فيه من صعوبات . . . إن في تلك الحالة رهبة وخوف وفزع تصطك لها الركب وتتزلزل الأقدام . . .

ثم أمر بما يهون الموت وسكراته وذلك بأن يقطع الإنسان علاقته بالدنيا ويهجر ما فيها ولا يتعلق قلبه بشيء منها . . . لا تجعلوا أنفسكم عبيداً للدنيا بل تحرروا منها وما فيها وقدموها لآخرتكم وأهم ما في الدنيا مما تستطيعون أن تقدموه لتلك الدار هو التقوى فإنها أفضل الزاد من الدنيا إلى الآخرة . . .

٢٠٥ ـ ومن كلام له عليه السلام

كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا عليه من ترك مشورتهما، والاستعانة في الأمور بهما.

لَقَدَ نَقَمْتُمَا[١] يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا[٢] كَثِيراً. أَلاَ تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ[٣]؟ أَمْ أَيُّ قَسْمٍ[٤] ٱسْتَأْثَرْتُ[٥] عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!.

وَٱللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي ٱلْخِلاَفَةِ رَغْبَةٌ، وَلاَ فِي ٱلْوِلاَيَةِ إِرْبَةٌ[٦]، وَلٰكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي[٧] عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ[٨] إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ ٱللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِٱلْحُكْمِ بِهِ فَٱتَّبَعْتُهُ، وَمَا ٱسْتَنَّ النَّبِيُّ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ فَٱقْتَدَيْتُهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذٰلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا، وَلاَ رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلاَ وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ، فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ لَمْ أَرْغَبْ[٩] عَنْكُمَا، وَلاَ عَنْ غَيْرِكُمَا. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ ٱلأُسْوَةِ[١٠]، فَإِنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلاَ وَلِيتُهُ[١١] هَوًى مِنِّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَغَ ٱللهُ مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا، وَٱللهِ، عِنْدِي وَلاَ لِغَيْرِكُمَا فِي هٰذَا عُتْبَى[١٢]. أَخَذَ ٱللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى ٱلْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ.

ثم قال عليه السلام: رَحِمَ ٱللهُ رَجُلاً رَأَى حَقّاً فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْراً[١٣] فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْناً[١٤] بِٱلْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ.

اللغة

١ ـ نقمتما : غضبتما ونقم بغض وكره.
٢ ـ أرجأتما : أخرتما.
٣ ـ دفعه عنه : أبعده ونحاه عنه.
٤ ـ القسم : الحصة والنصيب.
٥ ـ استأثر بالشيء : استبد به، انفرد به من غير مشارك له فيه.
٦ ـ الإربة : الحاجة.
٧ ـ حمله على الشيء : رغّبه به وأغراه حتى أتاه.
٨ ـ أفضت : صارت أو وصلت.
٩ ـ رغب عنه : أعرض عنه وتركه.
١٠ ـ الأسوة : القدوة.
١١ ـ وليته : قمت به.
١٢ ـ العتبى : الرجوع عن الإساءة، الرضا.
١٣ ـ الجور : الظلم.
١٤ ـ العون : المساعد.

الشرح

(لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً) هذا الكلام موجه إلى طلحة والزبير وقد كانا أول من بايع الإمام وكانا أول من نكث بيعته وجهر بالعداء له وإعلان الحرب عليه... إنهما رفضا مصلحة الأمة من أجل مصالحهما وحطما عنفوانها وجرا البلاء والشقاء على المسلمين من أجل زعامتهما.

يقول الإمام: «لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً» نقمتما عدم استشارتي لكما وعدم إشراكي لكما في الحكم وهو أمر يسير صغير مقابل حقي وطاعتي ووجوب الالتزام بالبيعة التي بايعتماني...

وقيل: نقمتما من أحوالي اليسير وتركتما الكثير الذي ليس لكما ولا لغيركما فيه طعن فلم تذكراه...

وقيل: أبديتما اليسير مما في نفسيكما وأنطويتما على الكثير الذي لم تظهراه وتبدياه...

(ألا تخبراني أي شيء كان لكما فيه حق دفعتكما عنه؟ أم أي قسم استأثرت عليكما به؟ أم أي حق رفعه إليّ أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه) استفهم مستنكراً عليهما أن يكون ما نقما به صحيحاً فذكر ما يمكن أن تكون النقمة من أجله ثم بيّن أن لا شيء فيه يعاب عليه.

١ ـ أن يكون لهما في شيء حقاً ويمنعهما الإمام عنه وهذا لم يكن فإنه عليه السلام يحفظ حقوق جميع الناس بدون استثناء حتى من لم يبايعه ولو كان الإمام قد أخذ شيئاً مما لهما لكان لهما الحجة ولكانت الأمة كلها وقفت في وجهه إذاً فلما يدعيا هذا الأمر ولم ينقما عليه لهذا. . .

٢ ـ لم يميّز الإمام نفسه عنهما في العطاء فيأخذ أكثر مما يعطيهما وهذا معروف لم يغمز فيه أحد وقد كان يسوّي بينه وبين أضعف الناس فلم تكن النقمة عليه لهذا الأمر.

٣ ـ هل لأنه عليه السلام رفع إليه أمر فلم يقدر على أخذه من آخذه ورده إلى صاحبه أو رفع إليه أمر ولم يعرف حله ووجه الصحة فيه أم أنه حله ولم يدرك وجه الصواب فيه. . . إن كل ذلك لم يكن ولم تكن نقمتهما عليه من هذه الجهات نعم إنما نقما عليه من أجل أنه حرمهما الامتيازات الخاصة التي يريدانها ويطمحان إليها. . . إنهما نقما منه عدله بينهما وبين المسلمين ومساواتهما بجميع المسلمين. . . نقما منه إنه لم يوليهما الولايات ويعطيهما الأعطيات. . .

(والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها فلما أفضت إليّ نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني من المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما) قد يكون هذا الكلام منه هنا لنفي ما يتوهم أنه عليه السلام كان يرغب في الملك والسلطة ويحب الاستبداد بذلك بدونهما فأقسم أنه لم يكن له في الخلافة رغبة ولا في الولاية حب كما هي عادة أبناء الدنيا ومن يرغب في السيطرة على الناس والتحكم برقابهم وإن كان عليه السلام يريد الحكم لإحقاق الحق وإزهاق الباطل. . . وقد قبض يده بعد قتل عثمان وصاح في وجوه الناس دعوني وشأني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تثبت عليه العقول ولا تقوم له القلوب فكانوا يقولون للإمام: ننشدك الله ألا ترى الفتنة ألا تخاف الله في الإسلام وهكذا لا حقوه حتى بايعوه وحملوه على الخلافة. . .

وهنا عندما وصلت الخلافة إليه نظر في أدلة الشرع المبين في كتاب الله وسنة نبيه فعمل بكتاب الله في كل أوامره وانتهى عن كل ما نهى وعمد إلى سنة نبيه فاقتدى به وسار على نهجه وهذان الأمران هما مصدرا التشريع وبهما يكون الاحتجاج وإليهما ينتهي كل دليل وبرهان وأراد بهذا أن ينفي أن يكون بحاجة لرأييهما مهما كانا من أصحاب الرأي وكذلك رأي غيرهما أيضاً من المسلمين، إذاً الحكم عنده واضح من كتاب الله وسنة رسوله فلا حاجة لرأي أحد من الناس. . .

كما أنه لم يقع أمر لم يعرف حكمه حتى يرجع إليهما ويتعلم منهما ولو وقع شيء من ذلك أو كان لما ابتعد عن استشارتهما واستشارة عامة المسلمين للوصول إلى وجه الحق والصواب. . .

(وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى مني بل وجدت أنا أنما ما جاء به رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ قد فرغ منه فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قسمه وأمضى فيه حكمه فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر) هذا جواب عن سؤال واستفهام وإشكال إنه كيف سويت يا علي بين طلحة والزبير وغيرهما من الطبقة الممتازة وبين سائر المسلمين، لقد جعلت المجتمع بطبقاته الاجتماعية كلها في مستوى واحد دون تمايز أو اختلاف. . . كيف تجعل العطاء بالتساوي بين الجميع بدون تفاضل أو امتيازات؟.

وأجاب الإمام أن القضية ليست هي قضيتي وليس المساواة في العطاء رغبة مني في ذلك أو هوى يدفعني في هذا الإتجاه بل نحن جميعاً أنا وأنتما قد وجدنا رسول الله قد شرّع التساوي في العطاء ومارسه عملياً في سلوكه وأمضى حكمه على المسلمين الموجودين ومن يأتي إلى يوم الدين وإذا كان رسول الله قد أمضاه ومارسه والله سبحانه قد فرغ من هذه القسمة العادلة فليس لي إليكما حاجة في رأي أو تشريع يخالفه كما أنه ليس لكما ما يرضيكما لأنني لم أغضبكم حتى أحاول استرضائكما فلن أحاول استرضاء من يغضب بدون حق.

ثم دعا له ولهما أن يوجه الله قلوبهم جميعاً إلى الحق الذي عليه الرسول صلى الله عليه وآله عملاً وتشريعاً وقذف في قلوبنا جميعاً الصبر على ما نحب وعلى ما نكره حتى نحقق إرادة الله وإن كانت خلاف رغباتنا وخلاف هوانا. . .

(ثم قال عليه السلام: رحم الله رجلاً رأى حقاً فأعان عليه أو رأى جوراً فرده وكان عوناً بالحق على صاحبه) ثم دعا بالرحمة لمن رأى حقاً فأعان عليه قاصداً دفع الناس إلى ذلك أو رأى جوراً وظلماً فرده ومنعه ورفع يد صاحبه وكان عوناً بالحق على صاحبه أي كان مساعداً لصاحب الحق على صاحب الجور.

٢٠٦ ـ ومن كلام له عليه السلام

وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تكُونُوا سَبَّابِينَ(١)، وَلكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصْوَبَ فِي ٱلْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي ٱلْعُذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: ٱللَّهُمَّ ٱحْقِنْ(٢) دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا(٣) وَبَيْنِهِمْ، وَٱهْدِهِمْ مِنْ ضَلاَلَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ ٱلْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرْعَوِيَ(٤) عَنِ ٱلْغَيِّ(٥) وَٱلْعُدْوَانِ مِنْ لَهِجَ(٦) بِهِ.

اللغة

١ ـ السب : الشتم وسميت الأصبع التي تلي الإبهام سبابة لأنها يشار بها عند السب.

٢ ـ حقن الدم : منع من سفكه.

٣ ـ ذات البين : من الأضداد يطلق على الوصل وعلى الفرقة.

٤ ـ يرعوي : ينصرف ويرجع ويرتدع.

٥ ـ الغي : الضلال.

٦ ـ لهج بالشيء : أولع به.

الشرح

(إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن

الغي والعدوان من لهج به) الإمام معلم الأجيال ومربيها في أصعب الظروف وأشدها لا يغفل أن يوجه أصحابه إلى أفضل ما عند الله والأقرب إليه وهذه كلماته بعطرها وشذاها تفوح عندما يسمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين والحرب قائمة والدماء سائلة في تلك الأوقات الصعبة يسمع الإمام من يسبّ أهل الشام فيقوم بتوجيه أصحابه لأفضل من ذلك قائلاً: «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين» لأن السب لا ينفع الإنسان ولكنه يخلق العداوة من جهة ويطمس الحق من جهة أخرى. . .

ثم لما نهاهم عن السب فتح لهم باباً أفضل وأحسن وأنفع وأجدى فقال: ولكن لو وصفتم أعمالهم العدوانية وظلمهم وخروجهم على صاحب الحق. . . لو بينتم للناس تجاوزهم واعتدائهم وبغيهم ومقدار جنايتهم على الإسلام وعلى المسلمين من حيث فرقوا الكلمة ومزقوا الجماعة وزلزلوا وحدة المجتمع والأمة وذكرتم حالهم التي خرجوا عليها وما جنوا في طريقهم ومدى اعتدائهم على الناس كان أصوب في القول لأنه يشرح حالهم ويضعهم أمام الناس عراة على حقيقتهم التي هم عليها ولا يكون في ذلك ظلم أو جور لأنكم تشرحون ما وقع وتبيّنون ما صدر، وكان أبلغ في العذر لأنكم تبلّغون من في صفوفهم وجه الحرب وأسبابها ودواعيها التي من أجلها ثارت ودارت وتعتذرون بذلك لبعض من يجهل وجه الحرب من الناس الآخرين وقد قال بعضهم: إن هذا من الأسلوب الدعائي ضد العدو وهو من أحدث الأسلحة وأشدها فتكاً لأنه يشكل حرباً إعلامية تكون لصالح من يقوم بها.

ثم بعد أن أمرهم بوصف حالهم وذكر أفعالهم أرشدهم بقلبه الأبوي الكبير الذي وسع العالم كله بما فيهم أعداءه ومحاربوه قائلاً لأصحابه: «وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم» أي قلب رحيم هذا القلب الذي يشف بهذه الكلمات ذوات المعنى الرحيم. . . أي قلب في العالم يحمل الرحمة التي يحملها قلب الإمام. . . اللهم احقن دماءنا ودماءهم فليس الإمام سفاك دماء يريد أن يهدرها ليحقق مصالحه ومن أجل رغباته وشهواته. . . دعاء لحقن الدماء. . . لحفظها وصيانتها وعدم هدرها. . . حتى دماء أعدائه يبخل بها الإمام ويحافظ عليها وينشد بكل السبل منع إراقتها. . . «اللهم احقن دماءنا ودماءهم» نشيد ردده الإمام وعلمه أصحابه وعمل من أجله بكل السبل. . .

إنني أقرأ علياً من أوسع أبواب الرحمة بل لا أجد باباً للرحمة أوسع من باب الإمام ومحرابه، لقد عشقته حتى الصميم ودخل حبه في قلبي عندما كانت أمي ترغّبني في كل أمر طيب بأن علياً كان يحبه ويعمله وازداد هذا الحب وتعمق وتركز وقام على أسس

صحيحة وسليمة كلما قرأت علياً في كلماته وفي مواقفه وفي سلوكه. . . عشت مع الإمام بقلبي وروحي فكان لي المثل الأعلى بعد رسول الله إليه أتجه ومنه آخذ وفي رحابه أعيش وأردد كما في الدعاء اللهم أحيني على ما أحييت عليه علي بن أبي طالب وأمتني على ما مات عليه علي بن أبي طالب عليه السلام. . .

ثم أقرأ علياً في قوله: «وأصلح ذات بيننا وبينهم» أجمعنا يا رب جميعاً تحت راية الحق. . . أخرج من بيننا العداوة والافتراق. . . اجعلنا في وفاق وائتلاف حتى نلتقي على طاعتك ومحبتك وفي رحابك. . .

«واهدهم من ضلالتهم» يتوجه الإمام بالدعاء حتى لعدوه الذي شحذ سيفه وأراد طعنه به. . . يدعو له بالهداية والرجوع إلى الله. . .

ثم يبيّن الإمام سبب هذا الموقف منه وهذا النهج «حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي من لهج به».

حتى يقف على الحق من لم يعرفه ولم يضع يده عليه فإنه متى عرف الحق فاء إليه وعاد إلى رحابه ويرجع عن الظلم والضلال من تكلم به وأولع بأذياله. . .

٢٠٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

في بعض أيام صفين وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام يتسرع إلى الحرب.

اَمْلِكُوا(١) عَنِّي هذَا ٱلْغُلَامَ لَا يَهُدَّنِي(٢)، فَإِنَّنِي أَنْفَسُ(٣) بِهذَيْنِ ـ يَعْنِي ٱلْحَسَنَ وَٱلْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ـ عَلَى ٱلْمَوْتِ لِئَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ(٤) رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ.

قال السيد الشريف: وقوله عليه السلام: «أملكوا عني هذا الغلام» من أعلى الكلام وأفصحه.

اللغة

١ ـ أملكوا عني : خذوه بالشدة وأمسكوا به، شدوه واضبطوه.

٢ ـ يهدني : يهدمني ويكسرني.

٣ ـ أنفس : أبخل وأضن.

٤ ـ النسل : الذرية.

الشرح

(أملكوا عني هذا الغلام لا يهدني فإنني أنفس بهذين ـ يعني الحسن والحسين عليهما السلام ـ على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) أمر عليه السلام أصحابه أن يلزموا الإمام الحسن عليه السلام ويمنعوه من خوض المعركة واستعمل كلمة أملكوا عني أي امنعوه بكل الوسائل الممكنة التي لو كنت أنا متفرغاً له لمنعته بها وبيّن سبب ذلك بأمرين.

١ ـ لا يهدني أي يكسر قوتي ويخمد همتي لأن الولد العظيم الذي يجمع الخصال الكريمة ويكون الامتداد الطبيعي لشجرة الإمامة يجب أن يحفظ.

٢ ـ بين السبب في حفظه وحفظ الإمام الحسين بأنهما ابنا رسول الله كما في آية المباهلة التي تقول: ﴿**قل تعالوا ندعوا أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم...**﴾ وبالاتفاق أنه صلوات الله عليه وآله لم يدع إلا الحسن والحسين وهما طفلان.

وأيضاً الأحاديث المتواترة التي كان يطلق النبي عليهما فيها «ابناي» ففي بعضها: إن ابني هذين ريحانتي من الدنيا وفي بعضها الآخر: الولد ريحانة وريحانتاي الحسن والحسين وفيهما يستمر نسل رسول الله وذريته فالمحافظة عليهما محافظة على بركة رسول الله التي تعيش في ذريته وبهما تدوم شجرة رسول الله المباركة وهذا مطلب عظيم يجب على المسلمين قاطبة المحافظة عليه...

٢٠٨ ـ ومن كلام له عليه السلام

قاله لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ. حَتَّى نَهِكَتْكُمُ(١) ٱلْحَرْبُ، وَقَدْ، وٱللهِ، أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ.

لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ ٱلْيَوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ ٱلْيومَ مَنْهِيًّا، وَقَدْ أَجْبَبْتُمُ ٱلْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ!.

اللغة

١ ـ نهكتكم : بكسر الهاء اضنتكم واذابتكم.

الشرح

(أيها الناس إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب حتى نهكتكم الحرب وقد والله أخذت منكم وتركت وهي لعدوكم أنهك لقد كنت أمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت أمس ناهياً فأصبحت اليوم منهياً وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون).

علي كان أميراً فأصبح مأموراً. هذه الخطبة في شرح حاله مع أصحابه وكيف انتهت به الأمور معهم، حيث تبدلت الموازين وانعكست القضايا فأصبح وهو الخليفة ورأس الدولة الذي بيده أزمة الأمور ومقاليدها ومنه تصدر الأوامر وعنه تؤخذ كيف أصبح مأموراً لمن حقه أن يأتمر بأمره وعلى العكس من ذلك أصبحت الرعية التي حقها الطاعة وامتثال الأمر هي صاحبة الحق في إصدار الأمر والنهي. . .

يقول عليه السلام: إننا كنا على وفاق واتفاق معاً في الحرب فأنا وأنتم كنا على رأي واحد حسب ما أرغب وأحب من إكمال الحرب حتى نهايتها وتطهير الأرض من رجس الطغاة والظالمين وهكذا بقينا في ساحة المعركة حتى أخذت الحرب منكم مأخذها ونالت منكم نصيبها وسهمها ولكن والله إن أخذت منكم شهداء وأخذت أموالاً وأخذت الراحة ولكنها تركت لكم بعض ما ذكرت وتركت لكم كرامة ومجداً ولكن لأن أخذت منكم وتركت فقد أخذت من عدوكم أكثر ويقول أهل التاريخ إن القتلى في أهل الشام كانوا أكثر من قتلى العراق فلذا ليس لكم أن تتعللوا بالقتلى منكم ولا أن تحتجوا بهم للقعود عن الحرب وتركها. . .

ثم راح يتشكى منهم ويعاتبهم ويشرح ألم الواقع الذي يعيشه وكيف يتجرع غصصه. . .

لقد كنت أمس قبل إجباري على التحكيم وإلزامي به أميراً أصدر الأمر فتلبون وتستجيبون. . كنت أميراً أتحرى مواقع النفع والفائدة وما فيه عزكم ونصركم وأما اليوم وبعد التحكيم أصبحت مأموراً أنفذ ما تريدون دون رضى مني أو قبول. . . أصبحت مأموراً ليس لي خيار الرفض والرد. . . وكنت أمس ناهياً عن الاستسلام والخضوع والتردد فأصبحت اليوم منهياً عن متابعة الحرب وإكمالها حتى النهاية عكس المطلوب من القائد والأمير. . . .

وفي النهاية عرض بهم حيث قال «وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون» فأنتم أحببتم البقاء كيفما يكون ولو تحت الذل وفي الهوان. . . أحببتم البقاء وإن كان في تضييع الجهاد ومعصية الله وليس لي القدرة أن احملكم على ما تكرهون حيث لم يبق معارضاً إلا هو وأسرته وبعض الأصفياء من خواصه وهم قلة لا تقدر على مواجهة الجند المحدق به الذي اجتمع ضد رأيه وخلاف ما يذهب إليه من إكمال الحرب حتى النهاية. . .

٢٠٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

بالبصرة، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي ـ وهو من أصحابه ـ يعوده، فلما رأى سعة داره قال:

مَا كُنْتُ تَصْنَعُ بِسِعَةِ[١] هذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي ٱلآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ؟ وَبَلَى إنْ شِئْتَ بَلَغْتَ[٢] بِهَا ٱلآخِرَةَ: تَقْرِيَ[٣] فِيهَا الضَّيْفَ[٤]، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ[٥]، وَتُطْلِعُ[٦] مِنْهَا ٱلْحُقُوقَ[٧] مَطَالِعَهَا[٨]، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا ٱلآخِرَةَ.

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وما له؟ قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا. قال: عليَّ به. فلما جاء قال:

يَا عُدَيَّ[٩] نَفْسِهِ! لَقَدِ ٱسْتَهَامَ[١٠] بِكَ ٱلْخَبِيثُ! أَمَّا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ! أَتَرَى ٱللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ[١١] عَلَى اللهِ مِنْ ذلِكَ!.

قال: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة[١٢] ملبسك وجُشوبة[١٣] مأكلك!.

قال: وَيْحَكَ[١٤]، إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ، إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى فَرَضَ[١٥] عَلَى أَئِمَّةِ ٱلْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا[١٦] أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ[١٧]، كَيْلاَ يَتَبَيَّغَ[١٨] بِٱلْفَقِيرِ فَقْرُهُ!.

اللغة

١ ـ **السعة** : الإتساع وهو ضد الضيق.

٢ ـ **بلغت بها** : ادركت بها.

٣ ـ **تقري** : من القرى ما يقدّم للضيف.

٤ ـ **الضيف** : النزيل للمفرد والجمع.

٥ ـ **الرحم** : في الأصل مكان تكون الجنين استعمل في الأقارب.

٦ ـ **تطلع الحقوق** : يخرجها ويظهرها.

٧ ـ **الحقوق** : الأمور الواجبة في الشيء.

٨ ـ **مطالعها** : مواضعها.

٩ ـ **يا عدي** : تصغير عدو.

١٠ ـ **استهام بك** : جعلك هائماً ضالاً.

١١ ـ **أهون** : أحقر وأذل.

١٢ ـ **الخشونة** : خلاف الليونة والنعومة.

١٣ ـ **جشوبه مأكلك** : غلظته وقيل أنه الذي لا أدام فيه.

١٤ ـ **ويحك** : كلمة ترحم وتوجع وقد تأتي بمعنى المدح والتعجب.

١٥ ـ **فرض** : أوجب.

١٦ ـ **يقدروا انفسهم** : يشبهوا ويمثلوا.

١٧ ـ **ضعفة الناس** : جمع ضعيف وهو خلاف القوي.

١٨ ـ **يتبيّغ** : يهيج به الألم فيهلكه، والبيغ ثوران الدم.

الشرح

(ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج، وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة. . .) في هذا الكلام العلوي حث على الآخرة ودفع قوي لكي يجعل المسلم دنياه من أجل آخرته ويحولها كلها وبكل ما فيها من أجل ذلك.

والإمام يدخل بالبصرة على أحد أصحابه وإسمه العلاء بن زياد الحارثي يعوده فلما رأى سعة داره قال هذه الكلمات التي نحن بصددها. . . كلمات تحدّد الهدف من البناء الواسع الممتد الكبير. . . لماذا يبني الإنسان في الدنيا وهل ما عنده يستطيع أن ينفعه في آخرته؟. . . .

التفت الإمام فوجد سعة دار الرجل. . . وسعة الدار شيء جميل مرغوب حتى

على المستوى الإسلامي وفي بعض الأحاديث من سعادة المرء سعة داره ولكن الإمام يريد أن يوجه الإنسان نحو الأفضل والأنفع وما يدوم له خيره وينتفع به أكثر. . .

قال الإمام لصاحبه: أنت إلى دار تبنيها في الآخرة أوسع من هذه أحوج منك إلى هذه الدار وذلك لأن هذه الدار في الدنيا لن تبقى لك بل ستفارقها وتتخلى عنها وأما دار الآخرة فهي الدار التي ستلازمك وسيخلد مقامك فيها. . دار الدنيا مهما اتسعت فلن تغني عن دار الآخرة فلو بنيت في الدار الآخرة ووسعت فيها ماشئت لكان ذلك أفضل لك وأنفع. . . .

وبعد أن بين الإمام إنه لو كان يوسع هذا الشخص دار الآخرة لكان له أفضل وهو أحوج لذلك من توسيعه دار الدنيا أرشده إلى طريق يستطيع أن يشقه ليستفيد من داره هنا في توسعة دار الآخرة. . .

استدرك الإمام بكلمة: بلى: إن شئت بلغت بهذه الدار دار الآخرة. . . تستطيع أن تبلغ بدار الدنيا دار الآخرة ثم أرشده إلى ذلك.

تقري فيها الضيف: تستقبل الضيوف فيها وتكرمهم وتقوم بخدمتهم. . .

تصل فيها الرحم: فإذا كان أحد أرحامك بحاجة إلى مسكن لم تبخل عليه بما يقضي حاجته من خلالها.

تطلع منها الحقوق مطالعها: فما وجب فيها من حق شرعي أو أخلاقي أو أدبي توفره وتعطيه لأهله سواء كان حقاً شرعياً، أو إيواءً لغريب أو استقبالاً لمناسبة دينية أو اجتماعية.

هذه عينّات يحددها الأمام يستطيع بها الإنسان أن يدرك من خلال داره الواسعة في الدنيا دار الآخرة . . وجه عظيم من وجوه الإسلام، وبُعد مبارك من الإبعاد الإسلامية التي يجب التنبه إليها من قبل المسلمين وليعرفوا أن القصور يجب أن تفتح لكل طارق وأن يستفيد منها كل محتاج وبهذا تكون داراً للآخرة كما تكون داراً للدنيا أما وإنها لا تفتح أبداً أو تفتح في بعض المناسبات السنوية فحسب فهذا خلاف منطق الإسلام الصادر عن الإمام عليه السلام. . .

فقال له العلاء ـ عندما سمع ذلك من أمير المؤمنين ـ يا أمير المؤمنين اشكو إليك أخي عاصم بن زياد قال: وماله؟.

قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا.

قال: علي به، فلما جاء قال:

(يا عدي نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك! أترى الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها أنت أهون على الله من ذلك) ما أجمله من حوار تنكشف به الحقائق عن لسان أمير المؤمنين ماأجمله وأروعه من خطاب يصحح به الإمام أخطاء هذا الإنسان ويرده إلى الحق والعدل والاستقامة. . . .

شكوى من أخ لأخيه ـ وليس عليه ـ شكوى إلى حلّال المشكلات وكاشف المبهمات. . . شكوى من إنسان عن عمل انحرف فيه بعض الأحبة. . . .

اشكو إليك أخي عاصم الذي تخلى عن الدنيا وأتجه إلى العبادة تاركاً أهله وأولاده وراءه دون التفات إليهم أو اهتمام بهم. . .

ويستحضره الإمام فيحضر فيواجهه بقساوه مع بيان وجه الصواب.

«يا عدي نفسه» كلمة توبيخ له لانحرافه عن سنن الشريعة وقواعد الحق وما جاء به الإسلام. . . يا عدو نفسه الذي لا يدرك صوابها من خطئها وما ينفعها مما يضرها. . . .

وهل هناك أشد عداء لشخص من نفسه إذا لم تعرف ما ينفع مما يضر. . .

ثم بين له أن عمله هذا من استيلاء الشيطان عليه وتوجيهه نحو البعد عن الحقيقة لقد استهام بك الخبيث ـ الشيطان ـ فالشيطان هو الذي وسوس لك ورغبك في هذاالطريق وتركك هائماً على وجهك تاركاً أهلك وولدك ومهملاً واجباتك نحوهم. . . الشيطان هو الذي يريد أن يبعدك عن الحياة ويعزلك عنها منسحباً منها بهذه الصورة المزرية. . . .

الشيطان هو الذي يقول أن الصلاح في اعتزال الحياة وأهلها وكل ما فيها والخروج منها إلى الأنزواء في زاوية بعيدة يتعبد الإنسان فيها لربه.

الشيطان ـ والمستعمر من جنوده ـ يقول إن الدين هو عبادة الله منفرداً منزوياً بعيداً عن السياسة والحكم وإدارة البلاد ورفع الظلم ومقارعة الظالمين.

الشيطان هو الذي يقود الحملة ضد المتدينين ويوجههم لاعتزال الحياة كما فعل بعاصم بن زياد. . .

ولذا الإمام يكمل الحديث: أما رحمت أهلك وولدك فهؤلاء لهم حقوق عليك. . . أنت مدين لهؤلاء. . . فأهلك وأولادك يجب أن تعولهم وتهتم بأمورهم

وتربيهم وتعتني بهم. . . يجب عليك إعالتهم مادياً وترَبيتهم معنوياً فإذا أنزويت في زاوية واتخذتها مركزاً للعبادة فأين تصبح حقوق هؤلاء. . .

ثم إنك تترك الطيبات وتنهج هذا النهج في البعد عنها أترى أن الله أحلها لك وهو يكره أن تأخذها وتتناولها؟ وكيف يبيح الله أمراً ويحله ثم يكره كراهة تحريم من تناوله؟. . .

فهذا مفهوم خاطىء. . . فالله أباح الطيبات لكي يتناولها الناس. . . وأنت أهون على الله من ذلك فإنه سبحانه لا يستحي منك في التحليل والتحريم حتى يبيحها لك في الظاهر ثم يكرهها لك في الواقع. . .

بهذا البيان يكشف الإمام الحقيقة ويوضحها بجلاء أمام الانعزاليين والبعيدين عن الحياة الذين حصروا الدين في المساجد أو في الأمور الخاصة. . .

وأمام هذا البيان تتحرك في نفس عاصم مسألة الإمام وسلوكه وكيف إنه يشرح هذا المفهوم ويوضحه ويبين رأي الله في هذه المسألة ثم هو نفسه ينتهج خلافه وطريقة مغايره له. . .

تتحرك نفس عاصم بالاستفهام المشوب بكثير من التساؤل قائلاً:

يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك. . .

هذا أنت يا أمير المؤمنين الزاهدا العابد العازف عن الدنيا وملذاتها. . . أنت في خشونة ملبسك؟!. . . وأنت في جشوبة مأكلك؟! وأنت في سيرتك. . كيف تأمرنا بشيء وأنت لا تمارسه وتعمل به وأنت قدوتنا وقائد مسيرتنا. . .

وهنا أمام هذا الاشتباه وخلط الأوراق. . . أمام الرؤية التائهة القاصرة التي لا تستطيع مع اختلاف الموضوع أن يختلف حكمها، أمام ذلك.

قال الإمام: **(ويحك إني لست كأنت إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره)** ويحك. . . كلمة توجع عليه ورحمة وشفقة لما أصابه من سوء فهم.

إني لست كأنت. . . بل كل منا له تكليفه الخاص باعتبار موقعه الذي هو فيه. . فأنا باعتبار موقعي القيادي يتطلع نحوي جميع الناس وفيهم الغني القوي والفقير المدقع. . فيهم الثري وفيهم المسكين. . . المجتمع بجميع طبقاته ينظر نحوي ويدقق في كل تصرفاتي ويعرضها أمامه بدقة ومن هنا فرض الله على أئمة العدل الذين يسوسون

العباد ويرعون البلاد أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس أي ينزلوا أنفسهم منزلة الفقراء والضعفاء من الناس. . . يجب على الأمراء أن ينظروا إلى الفقراء الذين لا يملكون الثروة والغني ولا يستطيعون إدراك ما يشتهون يجب على الأمراء أن ينظروا إلى هؤلاء فيتشبهون بهم وينزلون إلى مستواهم ويعيشون معيشتهم كيلا يتبيّغ بالفقير فقره أي لا يتحرك فقر الفقراء فينتقموا من الحكم والبلاد وكذلك لتهون عليهم صعوبة الحياة ومشقاتها. . . لأنهم عندما يرون أعظم شخصية في الحكم ورأس الدولة وقيادتها والرجل الأول فيها، عندما يرون أن الحاكم والقيادة لا يميز نفسه عنهم ولا يتميز بشيء عما هم عليه تهون عليهم الدنيا فيصبروا ويرجعوا إلى الله.

أما إذا كان في المجتمع من هو غني مترف فلا يشكل بالنسبة إلى غيره من أفراد الناس مشكلة لأنه لا يعنيهم كثيراً ولا يدخل في قائمتهم إلا من وجه بسيط أما الحاكم فهو من أساس قائمتهم ويدخل في كل معادلاتهم فهذا الحاكم يجب أن يكون كأضعف رعيته حتى تدوم دولته ولا تفسد نفوس رعيته. . .

٢١٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

وقد سأله سائل عن أحاديث البدع، وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر، فقال عليه السلام:

إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلاً، وَصِدْقاً وَكَذِباً، وَنَاسِخاً[١] وَمَنْسُوخاً، وَعَامًّا[٢] وَخَاصًّا[٣]، ومُحْكَماً[٤] وَمُتَشَابِهاً[٥]، وَحِفْظاً وَوَهْماً[٦]، وَلَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ـ عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ[٧] مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِٱلْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

المنافقون

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ، مُتَصَنِّعٌ[٨] بِٱلإِسْلَامِ، لاَ يَتَأَثَّمُ[٩] وَلاَ يَتَحَرَّجُ[١٠]، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ رَآهُ وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ[١١] عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ ٱللهُ عَنِ ٱلْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلاَلَةِ، وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ[١٢] وَٱلْبُهْتَانِ[١٣]، فَوَلَّوْهُمُ ٱلأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَالدُّنْيَا، إِلاَّ مَنْ عَصَمَ ٱللهُ، فَهذَا أَحَدُ ٱلأَرْبَعَةِ

الخاطئون

وَرَجُلٌ سَمعَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهِمَ[١٤] فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ، فَلَوْ عَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذلِكَ لَرَفَضَهُ!.

أهل الشبهة

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمعَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، فَحَفِظَ ٱلْمَنْسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

الصادقون الحافظون

وَآخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى ٱللهِ، وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ ٱللهِ، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ وَلَمْ يَهِمْ[١٥]، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ ٱلْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ[١٦]، وَعَرَفَ ٱلْخَاصَّ وَٱلْعَامَّ، وَٱلْمُحْكَمَ وَٱلْمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ.

وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ ٱلْكَلاَمُ لَهُ وَجْهَانِ: فَكَلاَمٌ خَاصٌّ، وَكَلاَمٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ مَا عَنَى ٱللهُ، سُبْحَانَهُ، بِهِ، وَلاَ مَا عَنَى رَسُولُ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قُصِدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ،

وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ ٱللهِ ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم ـ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ ٱلأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِىءُ[١٧]، فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لاَ يَمُرُّ بِي مِنْ ذلِكَ شَيْءٌ إِلاَّ سَأَلْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ. فَهـذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْـهِ النَّـاسُ فِـي ٱخْتِـلاَفِهِـمْ، وَعِلَلِهِـمْ[١٨] فِـي رِوَايَاتِهِمْ.

اللغة

١ ـ الناسخ : من النسخ وهو الإزالة والنقل وعند الأصوليين رفع حكم بحكم آخر لمصلحة يعلمها الله.
٢ ـ العام : ما يشمل جميع الأفراد أما بالصيغة أو بألفاظ معينة ككل وجميع هذا في إصطلاح الأصوليين.
٣ ـ الخاص : خلاف العام.
٤ ـ المحكم : الواضح وفي اصطلاح الأصوليين ما لا يحتمل إلا معنى واحد.
٥ ـ المتشابه : المشكل.
٦ ـ الوهم : في المنطق مقابل الظن والوهم هو السهو والغلط.
٧ ـ تبوأ : المنزل نزله.
٨ ـ التصنع : تكلف حسن السمت والتزيّن.
٩ ـ التأثم : الكف عن موجب الإثم.
١٠ ـ يتحرج : يخشى الوقوع في الحرج وهو الجُرم.
١١ ـ لقف : أخذ وتناول بسرعة.
١٢ ـ الزور : الكذب، الباطل.
١٣ ـ البهتان : الكذب والافتراء.
١٤ ـ وهم : غلط وأخطأ.
١٥ ـ لم يهم : لم يخطىء ولم يظن خلاف الواقع.
١٦ ـ جنب عنه : تجنبه، تركه جانباً وأخذ الجانب الآخر.
١٧ ـ الطارىء : بالهمز الطالع عليهم، طرأ طلع.
١٨ ـ عللهم : أسبابهم.

الشرح

(إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً وعاماً وخاصاً ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً ووهماً) هذا الكلام الشريف من الإمام جواب عن سؤال سأله سليم بن قيس الهلالي وكان من أصحابه سأله عن الأحاديث الموجودة وما شابها من الأكاذيب وما اشتملت عليه من الاختلاف وعن تضاربها فأجابه الإمام وابتدأ بهذه المقدمة التي تدخل في صلب الإجابة. . .

ابتدأ بذكر ما في أيدي الناس فأعطاه كبرى كلية قائلاً: إن في أيدي الناس من الأخبار والآراء والمعتقدات والأحكام حقاً وباطلاً فمنها الصحيح المستقيم الذي أراده الله ومنها الباطل الساقط الذي لم يقبله الله. . . فيها الصدق الموافق للحق والكذب المخالف له. . . فيها الناسخ الذي يرفع المنسوخ ويلغيه وذلك باعتبار أن بعض الأحكام قد تكون مؤقتة إلى مدة معينة لمصلحة يعلمها الله فيظهر الحكم فيها وكأنه على الدوام بينما هي في علم الله إلى وقت محدود فعندما تنتهي مدتها ينزل فيها ما يرفع حكمها فالأول هو المنسوخ والثاني هو الناسخ وهذا الباب قد دخل فيه العلماء وحققوه بفروعه وكل شؤونه في علم أصول الفقه. . .

كما أن في أيدي الناس أحكاماً عامة وأحكاماً خاصة كما أن هناك أحكاماً محكمة لا تقبل إلا وجهاً واحداً كقوله تعالى: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ وفي مقابله متشابهاً يقبل أكثر من تفسير ويحمل أكثر من تفسير كقوله تعالى: ﴿**السارق والسارقة فاقطعوا أيديهم. . .**﴾ فإن اليد لها عدة معان فهي مشتركة بينها حيث تطلق إلى الأصابع كما تطلق إلى الزندين وإلى المرفقين. . .

كما أن في أيدي الناس حفظاً ووهماً فهناك أحاديث محفوظة مضبوطة قد جاءت كما هي عن النبي وبعضها مغلوطة وليس محفوظة دخلها ما ليس فيها من الزيادة أو أسقط منها ما فيها.

(ولقد كذب على رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ على عهده حتى قام خطيباً فقال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس) هذا بيان لجرأة المنافقين في عهد رسول الله وإنهم قد كذبوا عليه في حال حياته يريدون الطعن في الدين وتشويه ما جاء به النبي فأغضبه ذلك وأزعجه فوقف

خطيباً فيهم بيّن جزاء من يكذب عليه متعمداً فأنزله منزله من النار وهذا أمر لا يقدم عليه إلا مجرم محترف.

ثم بيّن أن آفة الأخبار رواتها وأن علة الأحاديث وأمراضها يكمن في أربعة رجال لا خامس لهم وقد فصّل ذلك وبينه بقوله.

(رجل منافق مظهر للإيمان، متصنع بالإسلام لا يتأثم ولا يتحرج يكذب على رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسلم ـ متعمداً فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه ولم يصدقوا قوله ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسلم ـ رآه وسمع منه ولقف عنه فيأخذون بقوله) هذا هو الرجل الأول إنه منافق يظهر الإسلام ويبطن الكفر يتكلف مظاهر الإسلام من صلاة وغيرها ولكنه لا يرتدع عن معصية ولا يخاف إثماً وليس عنده شيء ممنوع أو مرفوع فهذا قد استحل الكذب على رسول الله وجعل ذلك من معتقده يكذب متعمداً عالماً عارفاً يضع الحديث من نفسه وينسبه إلى الرسول زوراً وبهتاناً ولو علم الناس بنفاقه وكذبه لم يقبلوا قوله ولم يصدقوه فيما يروي بل كانوا يحاربونه ويدفعونه ويردون أحاديثه ولكنهم دفعهم حسن ظنهم به وأنه صاحب رسول الله الذي رآه وكحّل ناظريه برؤيته وتشرف بالسماع منه والأخذ عنه فلحسن ظنهم به أخذوا بقوله، فهو مجرم محترف استغل اسم الصحبة فأخذ ينسج الأحاديث من عنده ويخترعها بقصد التشويش والتشويه وإضلال الناس والانحراف بهم. . .

(وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به لك ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان فولوهم الأعمال وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس فأكلوا بهم الدنيا وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله فهذا أحد الأربعة) هذا يمكن أن يكون قراءة واضحة لزمن الإمام وتنبيه منه إلى خطر المنافقين وأنهم لا يزالون يعيشون بين أظهر المسلمين كما يصح أن يكون تنبيهاً للأمة التي جاءت من بعده فطوت بساط الصحابة ومنعت من نقدهم بأي شكل من أشكال النقد ورمت من يبحث عن عدالة صحابي إنه زنديق يريد أن يهدم الدين ويشوه سنة سيد المرسلين يمكن أن يقرأ الإمام هذه المعتقدات التي تعيش بيننا اليوم وتجري على ألسنتهم مثل هذه الأقوال. . .

فالإمام ينبه الناس ويلفت أنظارهم أن لا يأخذوا من كل صحابي كيف كان بل ليدرسوا حياته وسلوكه وسيرته ويتعرفوا عليه عن قرب وعلى وجه الحقيقة وقد لفت نظر الناس ونبههم إلى أن الله أخبر عن المنافقين بل أنزل فيهم سورة كاملة سميت باسمهم

ولاحقتهم في أسرارهم ومعتقداتهم وكل ما يتحرك في شعورهم... بيّنت أوصافهم وحكت حركاتهم وشرحت أحوالهم حتى فضحتهم وكشفت عوراتهم وقد وصفهم الله في كتابه بمواصفاتهم وأنزلهم في الدرك الأسفل من النار...

وبيّن عليه السلام أنهم لم يموتوا بموت رسول الله بل بقوا بعده وعاشوا مع أئمة الضلال وتقربوا إليهم وإلى الدعاة إلى النار بالكذب والدجل الذي يختلقونه ويبثونه بين الناس... إنهم تستروا وراء صحبتهم لرسول الله فدعموا أئمة الجور والظلم ونفذت كلمتهم عند أئمة الضلال وصار لهم حظوة عندهم وولوهم الولايات وجعلوهم من عمالهم على العباد والبلاد كما وقع لأبي هريرة ولسمرة بن جندب وأضرابهما مع معاوية فقد دعموه بالأحاديث الكاذبة ونسبوا إلى رسول الله بحقه وبحق الفجرة من الحكام الكثير منها مما يدعم ملكهم ويقويه... وإن في سيرة بعض الصحابة ما يترفع عنه أجلاف الجاهلية ورعاع الكفار وقد أتينا ببحث شامل عن الصحابة في كتابنا «شبهات حول الشيعة» نظن أنه يكشف الحقيقة في هذا المجال...

ثم إنه عليه السلام أعطى قاعدة عامة مفادها أن الناس بشكل عام مع الملوك ومع الدنيا إلا من عصم الله من هذا الانحراف وذلك لأن الناس يبحثون عن مصالحهم الدنيوية فأينما تكون يكونون... يتحركون مع الدنيا ومع الملوك لأنها معهم... وأصحاب المبادىء والرسالات قلة وهم الذين يرفضون الدنيا ولا يتأثرون بها وبمن هي معهم... وكما قال الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء: الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون... فهذا أحد الأربعة...

(ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يتعمد كذباً فهو في يديه ويرويه ويعمل به ويقول: أنا سمعته من رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسلم ـ فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه ولو علم هو أنه كذلك لرفضه) وهذا الثاني من الرجال الذين يحملون الحديث ويروونه... إنه رجل سمع من رسول الله شيئاً من الأحاديث ولكنه قاصر لم يحفظ ما سمع كما هو وكما نطق به النبي بل توهم أموراً فزاد فيه أو نقص منه ولم يضبط ذلك بدقة وكما هو فهو لم يتعمد الكذب على رسول الله ولم يقصد ذلك فهو نزيه المقصد شريف النية طيب القلب أخذ الحديث وتمسك به ويرويه إلى غيره ويعمل به لنفسه ويدين الله فيه لأنه يقول: أنا سمعته من رسول الله وهذا حق لقد سمعه ولكنه لم يضبطه على حقيقته ومثل هذا الرجل لو علم المسلمون بحاله وأنه غير ضابط للحديث أو أنه قد سهى فيه فزاد أو نقص لم يقبلوه منه ولم يرتضوه راوياً له بل لكانوا هجروه وتركوه لأنهم يريدون العمل برواية رسول الله

وليس بما يرويه هذا الرجل الواهم غير الضابط.

ثم إنه هو نفسه لو علم بحاله لم يستحل ما يرويه ولم يقبله بل لرفضه وامتنع عن روايته... ومثل هذا يصح أن يطلق عليه أنه مغفل في روايته ولأجله ولأجل غيره اشترط علماء الدراية في الراوي أن يكون ضابطاً لما يرويه أي حافظاً له فلا يغلط مأموناً من التصحيف والتحريف...

(ورجل ثالث سمع من رسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسلم ـ شيئاً يأمر به ثم إنه نهى عنه وهو لا يعلم أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ فلو علم أنه منسوخ لرفضه ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه) وهذا ثالث الأربعة ممن حمل الحديث ولم يستوعبه بجميع خصوصياته وشرائطه ومقدماته فهذا قد سمع شطراً مهماً ونسي الأهم... إنه سمع من رسول الله شيئاً يأمر به ولم يتابع النبي في حديثه وإذا بالنبي ينهى عما أمر به ولم يصل النهي إليه فيبقى على علمه السابق وروايته لها دون اللاحق.

أو بالعكس وصله النهي ولم يصله الأمر فهو على كل حال وصله المنسوخ ولم يصله الناسخ والعمل إنما يكون على الناسخ دون المنسوخ إنه لجهله بالناسخ بقي عليه وإلا لو علم به لعدل إليه ولم يبق على العمل بالمنسوخ فهو سليم النية صحيحها يريد الحق ولكنه لم يهتد إليه وكذلك حال المسلمين الذين سمعوا المنسوخ منه لو أنهم علموا بنسخه لتركوه ورفضوه ولكنهم لجهلهم قبلوه واستمروا على العمل به...

(وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله مبغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسلم ـ ولم يهم بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه فهو حفظ الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنّب عنه وعرف الخاص والعام والمحكم والمتشابه فوضع كل شيء موضعه) هذا رابع الأربعة من حملة الحديث إنه العارف الخبير المدرك الواعي البصير... إنه يروي عن النبي ولم يكذب على الله ولا على رسوله يكره الكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسلم ـ إنه المؤمن الذي ليس فيه صفات السابقين من الرواة... فهو لا يكذب على الله ولا على رسوله ضابط للحديث حافظ له يأتي به على وجهه دون زيادة أو نقيصة.

وأيضاً هو على علم بالناسخ والمنسوخ فلا يقع بما وقع فيه ثالث الرواة بل حفظ الناسخ وعرف المنسوخ وعليه رفع المنسوخ عن العمل كما أنه عرف الخاص الذي لا

يتناول جميع الأفراد وعرف العام الذي يتناولها... عرف المحكم فعمل به وعرف المتشابه فرده إلى أهله واستفهم منهم تفسيره ومدلوله... إنه بعبارة مختصرة وضع كل أمر في موضعه الذي يجب أن يكون فيه فكان حكيماً خبيراً مدركاً لبيباً...

(وقد كان يكون من رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسلم ـ الكلام له وجهان: فكلام خاص وكلام عام فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به ولا ما عنى رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسلم ـ فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله) هذا تأكيد لوجود بعض أصحاب النبي الذين لم يعرفوا القضايا من جميع جهاتها فربما حفظوا الخاص ونسوا العام وربما عكسوا الأمر وعلى هذا قد يضعون بعض الخطابات والأحاديث في غير موضعها وينقلونها عما هي فيه أو يحمّلونها من ليس له وما لم يقصده الله ولا رسول الله...

إنهم لقصورهم وعدم اطلاعهم كانت منهم هذه المعادلة الخاطئة...

(وليس كل أصحاب رسول الله ـ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وسلم ـ من كان يسأله ويستفهمه حتى إن كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطارىء فيسأله عليه السلام حتى يسمعوا وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألته عنه وحفظته فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم) هذا بيان يعلل فيه سبب وقوع بعض أصحاب رسول الله في الغلط من حيث وصل إليهم العام دون الخاص أو المنسوخ دون الناسخ وهو أنهم كانوا يجلّون رسول الله عن أن يسألوه ويستفهموا منه أو أنهم يخجلون من ذلك أو أنهم ليسوا أصحاب فكر بهذا المستوى المتفتح المتطلع.

نعم كانوا يحبّون أن يجيء الأعرابي أو الرجل المار بالمدينة ليسأل رسول الله حتى يسمعوا ما يلقيه النبي إليه فيأخذوه... فهم لا يستثيرون المسألة ولا يحركون الفكر أو القضايا وإنما ينتظرون ما يكون وهذا أمر يحمل نقصاً كبيراً إذ لا يفي بالأمور من جميع جوانبها...

ثم بيّن عليه السلام أنه غير جميع الصحابة فهو الذي كان يسأل رسول الله ويستفهم منه ولم يترك شاردة أو واردة إلا وعرف وجهها... عرف العام والخاص والناسخ والمنسوخ وكل الأسباب المتعلقة بهذا الأمر ثم حفظه على وجهه وكما هو دون زيادة أو نقيصة... هذه هي أسباب اختلاف الناس في الرواية وتضاربهم فيها...

ترجمة سليم بن قيس الهلالي العامري المتوفى حوالي سنة ٩٠.

سليم (بضم السين المهملة بصيغة التصغير) بن قيس الهلالي أبي صادق العامري

الكوفي التابعي أدرك أمير المؤمنين علياً والحسن والحسين وعلي بن الحسين والباقر عليهم السلام توفي في حياة علي بن الحسين مستتراً عن الحجاج أيام إمارته .

لسليم أصل من الأصول الأربعماية التي يعتمد عليها الشيعة .

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني في كتاب الغيبة : ليس بين جميع الشيعة ممن حمل العلم ورواه عن الأئمة عليهم السلام خلاف في أن كتاب سليم بن قيس الهلالي أصل من أكبر كتب الأصول التي رواها أهل العلم وحملة حديث أهل البيت عليهم السلام وأقدمها لأن جميع ما اشتمل عليه هذا الأصل إنما هو عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والمقداد وسلمان الفارسي وأبي ذر ومن جرى مجراهم ممن شهد رسول الله وأمير المؤمنين وسمع منهما وهو من الأصول التي ترجع إليها الشيعة وتعول عليها . . . انتهى .

أقول : ومع ذلك فهناك شك كبير عند بعض العلماء لوجود ما هو غير صحيح فيه وقد ذكر الخنساري في روضات الجنات عن ابن عقدة قوله : «والكتاب موضوع لا مرية فيه وعلى ذلك علامات تدل على ما ذكرناه منها ما ذكر أن محمد بن أبي بكر وعظ أباه عند الموت ومنها أن الأئمة ثلاثة عشر وغير ذلك وأسانيد هذا الكتاب تختلف إلى أن يقول : والوجه عندي الحكم بتعديل المشار إليه ـ سليم ـ والتوقف في الفاسد من كتابه .

٢١١ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في عجيب صنعة الكون

وَكَانَ مِنِ ٱقْتِدَارِ[١] جَبَرُوتِهِ[٢]، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ ٱلْبَحْرِ الزَّاخِرِ[٣] ٱلْمُتَرَاكِمِ[٤] ٱلْمُتَقَاصِفِ[٥]، يَبَساً[٦] جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ[٧] مِنْهُ أَطْبَاقاً[٨]، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ٱرْتِتَاقِهَا[٩]، فَٱسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ وَأَرْسَى أَرْضاً يَحْمِلُهَا ٱلأَخْضَرُ[١٠] ٱلْمُثْعَنْجِرُ[١١]، وَٱلْقَمْقَامُ[١٢] ٱلْمُسَخَّرُ[١٣]، قَدْ ذَلَّ لأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ[١٤] لِهَيْبَتِهِ[١٥]، وَوَقَفَ ٱلْجَارِي[١٦] مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ[١٧]. وَجَبَلَ[١٨] جَلاَمِيدَهَا[١٩]، وَنُشُوزَ[٢٠] مُتُونِهَا[٢١] وَأَطْوَادِهَا[٢٢]، فَأَرْسَاهَا[٢٣] فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا[٢٤]، فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي ٱلْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي ٱلْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا[٢٥] عَنْ سُهُولِهَا[٢٦]، وَأَسَاخَ[٢٧] قَوَاعِدَهَا[٢٨] فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا[٢٩] وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا[٣٠]، فَأَشْهَقَ[٣١] قِلاَلَهَا[٣٢]، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا[٣٣]، وَجَعَلَهَا لِلأَرْضِ عِمَاداً[٣٤]، وَأَرَّزَهَا[٣٥] فِيهَا أَوْتَاداً[٣٦]، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ[٣٧] بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ[٣٨] بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا[٣٩]. فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ[٤٠] مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا[٤١] بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا[٤٢]، فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً[٤٣]، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً! فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ[٤٤] رَاكِدٍ لاَ يَجْرِي، وَقَائِمٍ لاَ يَسْرِي، تُكَرْكِرُهُ[٤٥] الرِّيَاحُ ٱلْعَوَاصِفُ، وَتَمْخُضُهُ[٤٦] ٱلْغَمَامُ[٤٧] الذَّوَارِفُ[٤٨]؛ ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾.

اللغة

١ ـ الاقتدار	: القدرة على الشيء.
٢ ـ الجبروت	: من الجبر وهو القهر والغلبة.
٣ ـ الزاخر	: الملآن، الممتد جداً المرتفع.
٤ ـ المتراكم	: المجتمع بعضه فوق بعض.
٥ ـ المتقاصف	: الشديد الصوت وقصف الرعد إذا اشتد صوته.
٦ ـ اليبس	: اليابس وبالتحريك ما يكون رطباً ثم ييبس.
٧ ـ فطر	: خلق.
٨ ـ الأطباق	: جمع طبق وهو الغطاء.
٩ ـ الرتق	: ضد الفتق.
١٠ ـ الأخضر	: البحر.
١١ ـ المثعنجر	: بكسر الجيم أكثر أماكن البحر ماء، السائل.
١٢ ـ القمقام	: بفتح القاف وتضم هو البحر.
١٣ ـ المسخّر	: المقهور الذليل.
١٤ ـ أذعن	: انقاد وخضع.
١٥ ـ الهيبة	: المخافة.
١٦ ـ الجاري	: السايل، المتحرك.
١٧ ـ الخشية	: المخافة.
١٨ ـ جبل	: خلق.
١٩ ـ الجلاميد	: الصخور.
٢٠ ـ النشوز	: جمع نشز المكان المرتفع.
٢١ ـ المتون	: جمع متن ما صلب من الأرض وارتفع.
٢٢ ـ الأطواد	: جمع طود بالفتح الجبل أو العظيم منه.
٢٣ ـ رست	: ثبتت واستقرت.
٢٤ ـ قراراتها	: ما استقرت فيه.
٢٥ ـ أنهد جبالها	: جعلها عالية ونهد ثدي الفتاة إذا كعب وارتفع.
٢٦ ـ السهول	: جمع سهل ضد الجبال.
٢٧ ـ أساخ	: غيبها وأدخلها وساخت قوائم الفرس بالأرض إذا دخلت فيها وغابت.
٢٨ ـ القواعد	: الأساس.

٢٩ ـ **الأقطار** : الجوانب.
٣٠ ـ **الأنصاب** : جمع النصب وهو العلم المنصوب.
٣١ ـ **أشهق** : جعلها شاهقة أي عالية.
٣٢ ـ **القلال** : جمع القلة بالضم وهي رأس الجبل.
٣٣ ـ **الأنشاز** : جمع نشز المكان المرتفع.
٣٤ ـ **العماد** : ما يسند به.
٣٥ ـ **أرّزها** : أثبتها.
٣٦ ـ **الأوتاد** : جمع وتد ما رز في الحائط أو الأرض من خشب ونحوه.
٣٧ ـ **تميد** : تتحرك وتضطرب.
٣٨ ـ **تسيخ** : تنزل وتهوي.
٣٩ ـ **المواضع** : الأماكن.
٤٠ ـ **الموجان** : الاضطراب من الموج.
٤١ ـ **أجمدها** : جعلها جامدة.
٤٢ ـ **الأكناف** : الجوانب.
٤٣ ـ **المهاد** : الفراش.
٤٤ ـ **اللجة** : معظم البحر.
٤٥ ـ **تكركره** : تحركه وتردده والكركرة الدفع والرد.
٤٦ ـ **مخض اللبن** : حركه ليستخرج زبده.
٤٧ ـ **الغمام** : جمع الغمامة السحابة الممطرة.
٤٨ ـ **الذوارف** : جمع ذارفة من ذرف الدمع إذا سال دمعها وجرى.

الشرح

(وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً) في هذه الخطبة الشريفة تذكير لهذا الإنسان بعظمة الله وقدرته من خلال عظمة خلقه وبديع صنعه وهذه الخطبة وقفة مع الكون والبحار والسماوات والجبال وما فيها من دلالة على جبروت الله وقدرته...

وقد كان من قدرته القاهرة الغالبة ودقة صنعه التي ينفرد بها أنه سبحانه جعل من ماء البحر الممتلىء المتدافع المتضارب الذي يموج ويضطرب ويدفع بعضه بعضاً جعل من ذلك أرضاً يابسة جامدة تمتاز عنه وتختلف.

(ثم فطر منه أطباقاً ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها فاستمسكت بأمره وقامت على حده) بيان أنه سبحانه وتعالى خلق من ماء البحر طبقاً فوق طبق متصلة فيما بينها ملتحمة ببعضها ثم فصّلها عن بعضها وجعلها سبع سماوات منفصلة بعد الاتصال فاستمسكت فيما بينها بحسب القوانين الكونية من الجاذبية وغيرها فلم يصبها خلل بأمر الله وبقيت ثابتة كما أراد سبحانه لها لم تخرج عما رسمه لها وعما وضعها فيه.

وقيل: إن كلامه هذا فيه تلميح إلى قوله تعالى: **﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾**.

(وأرسى أرضاً يحملها الأخضر المثعنجر والقمقام المسخر قد ذل لأمره وأذعن لهيبته ووقف الجاري منه لخشيته) خلق الله الأرض على البحر ـ ووصفه بالخضرة كما هو في ظاهر البصر أو كما هي عادة العرب في تسمية البحر بالأخضر لأنه يعكس لون السماء ـ هذا البحر المملوء بالماء قد سخره الله لإرادته وقد ذل هو لأمر الله وأطاعه بلسان الحال من حيث الإمكان وأقرّ بعظمة الله وجلاله فكان واقفاً كما يرى خوفاً من الله وخشية منه...

(وجبل جلاميدها ونشوز متونها وأطوادها فأرساها في مراسيها وألزمها قراراتها فمضت رؤوسها في الهواء ورست أصولها في الماء فأنهد جبالها عن سهولها) خلق سبحانه صخور الأرض العظيمة ومرتفعات قممها وجبالها وثبّتها في أماكنها وجعلها مستقرة في محلها المعدّ لها وألزمها أماكنها مستقرة فيها فلا تضطرب أو تتزلزل وجعل أصولها في الماء ورؤوسها شامخة في الهواء وارتفع بذلك ما كان منها من الجبال وبقي ما كان سهلاً أي امتازت الجبال عن السهول من حيث ارتفعت الجبال وتسطحت السهول مميزة عنها مفترقة صورة وشكلاً وحقيقة...

(وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع أنصابها فأشهق قلالها وأطال انشازها وجعلها للأرض عماداً وأرزها فيها أوتاداً فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها) وهذه الجبال نزلت أصولها في داخل الأرض وجوانبها في المواضع الظاهرة منها فجعل رؤوس جبالها عالية شامخة ومرتفعاتها ممتدة طولاً وجعلها للأرض عماداً تستند إليها وتثبت بها وأوتاداً تمنعها عن الميدان والفوضى في الحركة فسكنت واستقرت من أن تتزلزل بأهلها أو تغور في الماء بما تحمل وما تحمل أو تختلّ حركتها أو يتغير موقعها وفي ذلك خطر كبير... وبعبارة مختصرة جعل الله سبحانه هذه الجبال لمصلحة هذه الأرض ومنافعها تمنعها من الاضطراب وهي أوتاد تثبتها فلا تتزلزل...

(فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهها وأجمدها بعد رطوبة أكنافها فجعلها لخلقه مهاداً وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لجي راكد لا يجري وقائم لا يسري تكركره الرياح العواصف وتمخضه الغمام الذوارف ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾) هذه رجعة إلى الله وعودة إلى رحابه وتسبيحة من القلب لهذه القدرة العظيمة الذي أمسك الأرض بقدرته فقد كانت على المياه ومع ذلك منعها الله بقدرته من الاضطراب والتموج والزلزلة وجعلها يابسة بعد أن كانت المياه تبل جوانبها وقد تكون كناية عن تكونها من الماء فجعلها لما خلق من خلقه مقراً طرياً ناعماً ممهداً كما قال تعالى: **﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون﴾**.

وجعلها أيضاً لخلقه فراشاً صالحاً للراحة كما قال تعالى: **﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء. . .﴾**.

ثم وصف البحر الذي يحمل الأرض بأنه عظيم راكد لا يتحرك من مكان إلى آخر مستقر في مقامه تحركه العواصف فتخرج أمواجه صارخة دالة على هيجانه وإذا تبخّر منه شيء عادت إليه الأمطار الشديدة من الغيوم فيتأثر البحر ويضطرب فسبحان الله الذي خلق كل شيء إن في ذلك لعبرة وعظة لمن يخاف الله ويحسب حسابه. . .

٢١٢ ـ ومن خطبة له عليه السلام

كان يستنهض بها أصحابه إلى جهاد أهل الشام في زمانه

ٱللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا(١) ٱلْعَادِلَةَ(٢) غَيْرَ ٱلْجَائِرَةِ وَٱلْمُصْلِحَةَ(٣) غَيْرَ ٱلْمُفْسِدَةِ، فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَأَبَى(٤) بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلاَّ النُّكُوصَ(٥) عَنْ نُصْرَتِكَ، وَٱلإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ ٱلْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ، وَٱلآخِذُ(٦) لَهُ بِذَنْبِهِ.

اللغة

١ ـ المقالة : القول.
٢ ـ العادلة : المستقيمة أو من العدل الذي هو ضد الظلم.
٣ ـ المصلحة : ضد المفسدة وهي التي فيها الصلاح والنفع.
٤ ـ أبى : رفض.
٥ ـ النكوص : الرجوع والتأخر.
٦ ـ الآخذ له : المعاقب له.

الشرح

(اللهم أيما عبد من عبادك سمع مقالتنا العادلة غير الجائرة والمصلحة غير المفسدة في الدين والدنيا فأبى بعد سمعه لها إلا النكوص عن نصرتك والإبطاء عن إعزاز دينك، فإنا نستشهدك عليه يا أكبر الشاهدين شهادة ونستشهد عليه جميع ما أسكنته أرضك وسماواتك ثم أنت بعد المغني عن نصره والآخذ له بذنبه) في هذه الخطبة شكوى إلى الله

من إبطاء أصحابه عن نصرته وقعودهم عن الجهاد معه وفيها إثارة لهم كي يتحركوا من مواقعهم وينهضوا معه لقتال عدوهم. . .

توجه الإمام إلى أصحابه يحثهم على القتال ورفع راية الإسلام وجعلها شعاره وأخذ يحارب من أجلها فقاتل البغاة الخارجين من صفوف المسلمين المفرقين لجماعتهم الممزقين لوحدتهم. . . أعلنها حرباً مقدسة لا ظلم فيها ولا جور وأسمعها كل المسلمين وصاح بهم أن معاوية من البغاة الخارجين على جماعة المسلمين ولذا يتوجه الإمام بقوله: اللهم أي عبد من عبادك سمع مقالتنا العادلة التي هي حرب معاوية ورد البغاة إلى الطريق المستقيم وأكّدها بأنها غير جائرة فلا ظلم فيها من حيث إنها تهدف إلى رد البغاة وجمع الكلمة وأنها المُصلحة للجمع من حيث الوحدة ولمّ الشمل وجمع الصف وهي أعظم المصالح في الدين والدنيا من حيث إطاعة الله الذي يقول: ﴿**واعتصموا بحل الله جميعاً ولا تفرقوا. . .**﴾ ولما فيه من القوة في الدنيا التي ترهب عدو الله وعدو المسلمين. . .

اللهم أي عبد سمع ذلك فرفض هذه المقالة وأبى إلا البُعد عن نصرتك ونصرة دينك وما دعوتَ إليه وتأخر عن تقوية دينك وشد أزره بمحاربة أعدائك فإنا نجعلك شاهداً على تمرده ورفضه لدعوتنا وأنت أكبر الشاهدين السامع لما نقول والمجازي على ذلك كما نطلب من جميع عبادك وسكان سماواتك وأرضك أن يشهدوا عليه عصيانه وعدم استجابته وتمرده. . .

وقد أراد بهذا أن يشعر المترددين والقاعدين بعظيم الجرم إذا تأخروا عن المبادرة إلى نصرته وقتال عدوه.

ثم التفت نحو الله وبكل اعتزاز وافتخار قال: ثم أنت يا رب بعد مقالتنا هذه وصيحتنا إذا تمردوا وعصوا فأنت الناصر والمغني لنا عن نصر هؤلاء. . . فنصرك هو الكافي عن نصرهم إذا تمردوا. . .

وهدّدهم إذا عصوا «والآخذ له بذنبه» أنت الذي تعاقب من يسمع مقالتنا العادلة ثم لا يعمل بها. . . فإن عذابك تصيب به من يسمعها ولا يعمل بها. . .

٢١٣ ـ ومن خطبة له عليه السلام

في تمجيد الله وتعظيمه

اَلْحَمْدُ للهِ اَلْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ(١) اَلْمَخْلُوقِينَ، اَلْغَالِبِ لِمَقَالِ(٢) اَلْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ(٣) بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ(٤) لِلنَّاظِرِينَ، وَاَلْبَاطِنِ بِجَلاَلِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ اَلْمُتَوَهِّمِينَ، اَلْعَالِمِ بِلاَ اَكْتِسَابٍ وَلاَ اَزْدِيَادٍ، وَلاَ عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، اَلْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ اَلأُمُورِ بِلاَ رَوِيَّةٍ(٥) وَلاَ ضَمِيرٍ، الَّذِي لاَ تَغْشَاهُ(٦) الظُّلَمُ(٧)، وَلاَ يَسْتَضِيءُ بِاَلأَنْوَارِ، وَلاَ يَرْهَقُهُ(٨) لَيْلٌ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ، لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِاَلإِبْصَارِ، وَلاَ عِلْمُهُ بِاَلإِخْبَارِ.

ومنها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِي اَلاصْطِفَاءِ(٩)، فَرَتَقَ(١٠) بِهِ اَلْمَفَاتِقَ(١١)، وَسَاوَرَ(١٢) بِهِ اَلْمُغَالِبَ، وَذَلَّلَ(١٣) بِهِ الصُّعُوبَةَ(١٤)، وَسَهَّلَ بِهِ اَلْحُزُونَةَ(١٥)، حَتَّى سَرَّحَ(١٦) الضَّلاَلَ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

اللغة

١ ـ الشبه : بالتحريك المثل والمشابه.

٢ ـ المقال : القول، الكلام.

٣ ـ الظاهر : البارز.

٤ ـ التدبير : النظر في الأمر والتفكر في عواقبه.

٥ ـ الرويّة : التفكر والنظر في الأمر.

٦ ـ لا تغشاه : لا تغطيه.

٧ ـ الظُلم : ذهاب النور.
٨ ـ لا يرهقه : لا يغشاه.
٩ ـ الاصطفاء : الاختيار.
١٠ ـ الرتق : ضد الفتق.
١١ ـ المفاتق : جمع مفتق موضع الفتق أي الشق وهو هنا المفاسد.
١٢ ـ ساور به المغالب : ساور زيداً أي واثبه والمغالب من أراد أن يقهر الحق ويغلبه.
١٣ ـ ذلل : سهّل.
١٤ ـ الصعوبة : ضد السهولة.
١٥ ـ الحزونة : ضد السهولة والحزن ما غلظ من الأرض.
١٦ ـ سرّح : طرد وأبعد.

الشرح

(الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين الغالب لمقال الواصفين، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين والباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين العالم بلا اكتساب ولا ازدياد ولا علم مستفاد المقدّر لجميع الأمور بلا روية ولا ضمير الذي لا تغشاه الظلم ولا يستضيء بالأنوار ولا يرهقه ليل ولا يجري عليه نهار ليس إدراكه بالإبصار ولا علمه بالإخبار) هذه الخطبة تتضمن حمد الله بعدة اعتبارات.

الأول: الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين: لا يشبهه من مخلوقاته أحد لأنه واجب الوجود بالذات وهي ممكنة وصفاته عين ذاته وصفاتها اكتسابية ضعيفة ممكنة وهو الخالق وهي المخلوقة فهو العالي عنها الذي لا يشبهها ذاتاً ولا صفاتاً. . .

الثاني: الغالب لمقال الواصفين: لا يمكن للوصف أن يحيط به لأن الوصف يخضع للتصور وتصور الإنسان قاصر عاجز عن إدراك حقيقة الله فيعجز بالتالي الوصف عن إدراك الحقيقة الإلهية. . .

الثالث: الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين: عرفته البصائر دون الأبصار. . . فهو ظاهر للقلوب والعقول ولكن ليس بذاته بل بما أبدعه من مخلوقاته من سماوات مرفوعة وأرض موضوعة وما فيهما من دقة الصنع وما فيهما من حكمة ونظام بحيث يدل ذلك كله ويشير إلى وجود الصانع الحكيم. . .

الرابع: الباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين: لا يدرك لعظمته بفكر ولو توهماً

وذلك أن الوهم يخضع لصورة محسوسة منها يأخذ عناصره والله لا يخضع لشيء من ذلك ولا يقع تحت أمر مشتق منه ولأنه فوق التصور فجلاله يعجز الإنسان عن إدراكه . . .

الخامس: العالم بلا اكتساب ولا ازدياد ولا علم مستفاد: هو العالم لكل شيء الخبير بكل شيء لأنه صانع كل شيء وعلمه بدون تعليم من أحد كما هي حال البشر بل علمه عين ذاته ولا يزداد هذا العلم عنده كما هو شأن الناس من حيث إنه كلما حصل على علم بالتدريج يزداد علمه أما الله فإن الأشياء عنده موجودة لديه بأعيانها وذواتها فلا يزداد علمه بها كما أن علمه لا يكون بما يستفيده من غيره شأن المخلوقين الذين يستفيدون من بعضهم وتزداد معلوماتهم من بعضهم . . .

السادس: المقدر لجميع الأمور بلا رويّة ولا ضمير: فهو الخالق لجميع الأشياء الأرض والسماء وما فيهما، خلقهم جميعاً بدون حاجة إلى إعمال فكر وتدبر للأمر وإعمال نظر وتصميم وتصور لأن كل ذلك من شأن المخلوق الممكن أما الله الواجب الوجود فبقوله: كن تكون الأشياء بدون نظر في فوائد الشيء ومضاره وثمراته ومنافعه . . .

السابع: الذي لا تغشاه الظلم ولا يستضيء بالأنوار: لا يغطيه ظلام دامس ولا يحتاج إلى نور باهر فلا يحتاج إلى نور حتى يرى الأمور التي يقضيها كما هي عادة البشر بل هو مبدع النور والغني عن كل نور ﴿**الله نور السماوات والأرض**﴾.

الثامن: ولا يرهقه ليل ولا يجري عليه نهار: لا يخضع الله لليل أو إلى نهار ولا يمر عليه شيء من الأوقات لأن هذه ناتجة عن دورة الفلك والله منزه عن أن يخضع لشيء من عوامل الكون وما يجري فيه من حوادث وقضايا . . .

التاسع: ليس إدراكه بالإبصار ولا علمه بالإخبار: فهو يرى الأمور بدون حاسة البصر كما هو شأن الناس لتنزهه عن صفات الأجسام الخاضعة للإمكان.

كما أنه سبحانه يعلم الأمور جملة وتفصيلاً ولكن ليس بما ينقل إليه من أخبار وما يأتيه من أنباء . . .

ومنها في ذكر النبي:

(أرسله بالضياء وقدمه في الاصطفاء فرتق به المفاتق وساور به المغالب وذلل به الصعوبة وسهل به الحزونة حتى سرّح الضلال عن يمين وشمال) وصف النبي بعدة أوصاف.

١ ـ أرسهل بالضياء وهو الإسلام الذي يكشف أمام الناس الحقيقة ويهديهم إلى سبل السلام.

٢ ـ قدّمه في الاصطفاء: فمن بين الأنبياء الذين اصطفاهم الله واختارهم اصطفى منهم النبي فكان صفوة الصفوة من الخلق. . .

٣ ـ رتق به المفاتق: فما كان من انحراف وفساد وشرور قد قضى عليها ببركة وجوده واستطاع أن يجمع الأمة ويوحد الناس فبعد التناحر حل الحب والألفة. . .

٤ ـ وساور به المغالب: به غلب الله كل مشاغب فسلطه الله على المشركين الذين كانوا غالبين فأصبحوا مغلوبين.

٥ ـ ذلل به الصعوبة وسهل به الحزونة حتى سرّح الضلال عن يمين وشمال: ببركة الرسول وحكمته وحسن دعوته ذلل ما كان صعباً عند الناس وسهل ما كان صعباً مستعصياً حتى فرّق الباطل والضلال ومزقهما فلا اجتماع لهما ببركة الرسول والرسالة. . . واليمين والشمال كناية عن تفريق الباطل وتمزيقه وأنه لا يجتمع ببركة الرسول ورسالته أبداً. . .

٢١٤ ـ ومن كلام له عليه السلام

يصف جوهر الرسول، ويصف العلماء، ويعظ بالتقوى

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ، وَحَكَمٌ[١] فَصَلَ[٢]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ[٣] ٱللهُ ٱلْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمْ[٤] فِيهِ عَاهِرٌ[٥]، وَلاَ ضَرَبَ[٦] فِيهِ فَاجِرٌ.

أَلاَ وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلاً، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ[٧]، وَلِلطَّاعَةِ عِصَماً[٨]. وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْناً مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَلَى ٱلأَلْسِنَةِ، وَيُثَبِّتُ[٩] ٱلأَفْئِدَةَ[١٠]. فِيهِ كِفَاءٌ[١١] لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ.

صفة العلماء

وَٱعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُسْتَحْفَظِينَ[١٢] عِلْمَهُ، يَصُونُونَ[١٣] مَصُونَهُ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ. يَتَوَاصَلُونَ بِٱلْوِلاَيَةِ[١٤]، وَيَتَلاَقَوْنَ بِٱلْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ[١٥] رَوِيَّةٍ[١٦]، وَيَصْدُرُونَ[١٧] بِرِيَّةٍ[١٨]، لاَ تَشُوبُهُمُ[١٩] الرِّيبَةُ[٢٠]، وَلاَ تُسْرِعُ فِيهِمُ ٱلْغِيبَةُ. عَلَى ذٰلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلاَقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ، فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ ٱلْبَذْرِ[٢١] يُنْتَقَى[٢٢]، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ[٢٣]، وَهَذَّبَهُ[٢٤] التَّمْحِيصُ[٢٥].

العظة بالتقوى

فَلْيَقْبَلِ ٱمْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً[٢٦] قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرِ ٱمْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ، فِي مَنْزِلٍ حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً، فَلْيَصْنَعْ

لِمُتَحَوَّلِه[٢٧]، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِه[٢٨]. فَطُوبَى[٢٩] لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ[٣٠]، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلاَمَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ[٣١]، وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ، وَبَادَرَ[٣٢] اَلْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقْطَعَ أَسْبَابُهُ، وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ[٣٣] اَلْحَوْبَةَ[٣٤]، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ.

اللغة

١ ـ الحكم	:	الحاكم، القاضي.
٢ ـ فصل الشيء	:	قطعه وأبانه وأفرزه ومنه فصل الخصومات وهو الحكم بقطعها.
٣ ـ النسخ	:	الإزالة، والنقل.
٤ ـ لم يسهم فيه عاهر	:	لم يضرب فيه عاهر بسهم أي بنصيب.
٥ ـ العاهر	:	الزاني، الفاجر.
٦ ـ ضرب في الشيء	:	صار له نصيب منه.
٧ ـ الدعائم	:	جمع دعامة بكسر الدال ما يسند به الحائط أو البيت لئلا يقع.
٨ ـ العصم	:	بكسر ففتح جمع عصمة وهي ما يعتصم به، الحصانة والوقاية.
٩ ـ يثبّت	:	يجعله ثابتاً وعلى الأمر داومه وواظبه.
١٠ ـ الأفئدة	:	جمع فؤاد القلب.
١١ ـ الكفاء	:	الكفاية.
١٢ ـ المستحفظين	:	الذين أودعوا الشيء ليحفظوه.
١٣ ـ يصون	:	يحفظ.
١٤ ـ الولاية	:	بفتح الواو المحبة والنصرة.
١٥ ـ الكأس	:	القدح المملوء وهي مؤنثة سماعية.
١٦ ـ الرويّة	:	فعيلة بمعنى فاعلة أي يشرب شاربها فيرتوي.
١٧ ـ يصدرون	:	يعودون.
١٨ ـ الرية	:	بكسر الراء الإرتواء وهو زوال العطش.
١٩ ـ لا تشوبهم	:	من شاب الشيء إذا خلطه.
٢٠ ـ الريبة	:	الشك، الغل.
٢١ ـ البذر	:	الحب.

٢٢ ـ ينتقي : يختار.

٢٣ ـ التخليص : التمييز، التصفية.

٢٤ ـ هذبه : نقاه.

٢٥ ـ التمحيص : الاختبار.

٢٦ ـ القارعة : الداهية، يوم القيامة.

٢٧ ـ المتحول : بفتح الواو مشددة ما يتحول إليه.

٢٨ ـ المنتقل : موضع الإنتقال.

٢٩ ـ طوبى : من الطيب، الخير.

٣٠ ـ يرديه : يوقعه في الردى وهو الهلاك.

٣١ ـ بصّره : دلّه على الخير وهداه.

٣٢ ـ بادر : أسرع.

٣٣ ـ أماط : أزال.

٢٤ ـ الحوبه : الإثم والمعصية.

الشرح

(وأشهد أنه عدل عدل وحكم فصل وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وسيد عباده)

تتضمن هذه الخطبة مدح الرسول الأعظم وبيان دور العلماء وفيها الوصية بالتقوى... افتتحها بالشهادة بعدل الله، أشهد أنه سبحانه عدل عادل في كل ما خلق وشرّع وأنزل وبيّن لأن الظلم وليد الضعف أو الجهل والله سبحانه منزه عن ذلك وهو الحاكم الفاصل فيما بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون يفصل بين الحق والباطل قال تعالى: **﴿إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** أي يقضي فيميز الحق من الباطل...

ثم ثنى بالشهادة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ووصفه بالعبودية له كما قال تعالى: **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى...﴾**.

كما جعله سيد عباده وهذا من عقائدنا ومبادئنا قال الشيخ الصدوق رضوان الله عليه: ويجب أن يعتقد أن الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقاً أفضل من محمد صلى الله عليه وآله ومن بعده الأئمة صلوات الله عليهم وأنهم أحب الخلق إلى الله عز وجل وأكرمهم عليه...

وقال ابن أبي الحديد في قول الإمام: «وسيد عباده» هذا كالمجمع عليه بين المسلمين وذكر حجة الجمهور بقوله صلى الله عليه وآله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

(كلما نسخ الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر) كلما قسم الله الخلق فرقتين وجعلهم قسمين كان رسول الله في خير الفرقتين وسمي ذلك نسخاً لزوال البطن الأول وحلول الفرقتين محله قال ابن أبي الحديد: وهذا المعنى قد ورد مرفوعاً في عدة أحاديث نحو قوله صلى الله عليه وآله: «ما افترقت فرقتان منذ نسل آدم وولده إلا كنت في خيرهما».

وفي آخر: «أنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً».

وقوله: «لم يسهم فيه عاهر ولا ضرب فيه فاجر» كناية عن طهارته وطهارة آبائه وأمهاته من لوثات الجاهلية وعهرها وقد ورد عنه صلوات الله عليه قوله: لم يزل ينقلني الله تعالى من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات.

فهو نقي طاهر الحسب والنسب ليس للفجور فيه نصيب أو له شركة...

(ألا وإن الله سبحانه قد جعل للخير أهلاً وللحق دعائم وللطاعة عصماً وإن لكم عند كل طاعة عوناً من الله سبحانه يقول على الألسنة ويثبت الأفئدة فيه كفاء لمكتفٍ وشفاء لمشتفٍ) هذا ترغيب لأصحابه ليكونوا من أهل الخير والحق فقد ذكر أن الله جعل للخير أهلاً تعرفونهم وتحترمون مقامهم... تعرفونهم بأعمالهم الطيبة الشريفة وبنواياهم الكريمة الخيرية وعلى رأسهم الأئمة الطاهرين...

كما أن للحق دعائم فهذا الحق له ما يستند إليه ويعتمد عليه لئلا يسقط أو ينهار وهم الأئمة والعلماء وكل حملة الرسالات كما أن للطاعة عصماً وهي الاجتناب عن المحرمات وترك المعصية والمحافظة على التقوى والقيام بالطاعات لأن بهذا يكون الإنسان معتصماً ممنوعاً عن النار ويكون من أهل الجنة فهي تعصمه عن الوقوع في النار.

ثم ذكر عليه السلام أن في كل طاعة صغيرة أم كبيرة عوناً من الله فهو الذي يعين على القيام بها بما وعد الله المطيعين من الأجر والثواب ودخول الجنة ورفع العقاب فتكون هذه عوناً إلهياً ورد على ألسنة الرسل كما أنه سبحانه يثبت الأفئدة أي يجعلها تطمئن إلى حكم الله وإرادته وما وعد به عباده فيثابر عليها ويصرّ على إكمالها ويؤكد على العمل بها فلا تزل أو تنحرف.

وفي ذلك العون الإلهي الكفاية والشفاء لمن طلبهما فمن استكفى بالله كفي ومن طلب منه الشفاء شفي ومن طلبهما من غيره لم يحصل على شيء منهما لأنه سبحانه مالك كل شيء وبيده كل شيء...

(واعلموا أن عباد الله المستحفظين علمه يصونون مصونه ويفجرون عيونه) هذا ترغيب لأصحابه أن ينضموا إلى عباد الله الصالحين الذين هم الأئمة والعلماء من بعدهم الحافظون لشرع الله، القائمون في تبليغ رسالة الله يحفظون من العلوم ما لا ينبغي إظهاره ويظهرون وينشرون ما يجب بيانه ونشره. . .

أو يريد يحفظون الدين من التحريف والتزييف وينشرونه بين الناس ببيان أحكامه وتشريعه وما فيه من آداب وأخلاق وسنن. . .

(يتواصلون بالولاية) فالمحبة تربطهم وتجمع قلوبهم. . . يلتقون بها وعليها لم يتواصلوا من أجل الدنيا وما فيها وإنما من أجل المحبة نفسها التي تربط القلوب ببعضها. . .

(ويتلاقون بالمحبة) فالحب في الله هو الذي جمعهم ووحدهم. . . وبهذه المحبة تلاقوا واجتمعوا وهي رابطة قوية لا تقطعها علائق الدنيا ومنافعها لأنها مبنية على الأساس الإلهي الجامع الموحد. . .

(ويتساقون بكأس روية ويصدرون بريّة) يسقي بعضهم بعضاً بكأس العلم والمعرفة التي يرتون منها ولا يحتاجون معها إلى غيرهم. . . فالمعرفة عندهم وفيها الكفاية لا يرجعون عنها إلا بالعلم والمعرفة لأنهم أوعية العلم وحفظته. . .

(لا تشوبهم الريبة) لا يشكّون ببعضهم ولا يظنون السوء فهم في طهر وصفاء نية.

(ولا تسرع فيهم الغيبة) أي لا مجال لها عندهم وفي مجالسهم فهم لطهارتهم لا ينساقون وراء رغبة النفس وتسرعها في الغيبة. . .

(على ذلك عقد خلقهم وأخلاقهم) على هذه الشيمة الكريمة عقد الله تكوينهم الخلقي والأخلاقي فطابت طينتهم التي عليها جُبلوا وأخلاقهم التي عليها تربوا. . .

(فعليه يتحابون وبه يتواصلون) أي بهذا العقد الإلهي الذي خلقهم الله عليه خلقاً وخُلقاً يُحب بعضهم البعض ويصل بعضهم البعض وهذا أمر لا ينفصم أو ينكسر أو يزول بل كتب له البقاء والدوام.

(فكانوا كتفاضل البذر ينتقى فيؤخذ منه ويلقى قد ميزه التخليص وهذبه التمحيص) هذا بيان لشأنهم وفضلهم وما هم فيه من الكرامة بحيث امتازوا عن الناس وفضلوهم كما يمتاز الحب المأخوذ للبذر والزرع عن غيره من حيث يُنتقى فيحفظ ويرمى بغيره جانباً

بدون اهتمام، ثم أشار إلى أن يد الخبير الماهر هي التي ميزت الجيد من الرديء والسليم من السقيم وتعاليم هذا الدين هي التي ميزت الصالحين عن الطالحين والمطيعين عن العاصين، وبهذا الاختبار تتبيّن جواهر الرجال فإن التكاليف امتحانات إلهية تتبين بها معادن الناس وتتميز القلوب الطيبة من الخبيثة. . .

(فليقبل امرؤ كرامة بقبولها وليحذر قارعة قبل حلولها) من أراد كرامة الله ونعيمه ورضوانه وجنته وأجره وثوابه فليقبل تلك الصفات ويتلبس بها ويعمل بمضمونها وليدفع مصيبة يمكن أن تحل به، يدفعها بقبول هذه الكرامة التي هي هذه الصفات. . .

(ولينظر امرؤ في قصير أيامه وقليل مقامه في منزل حتى يستبدل به منزلاً فليصنع لمتحوله ومعارف منتقله) دعوة إلى التفكر والنظر في أيام هذه الدنيا القليلة القصيرة. . . أيام الدنيا قصيرة ما أسرعها في عمر الزمن فلا يكاد الإنسان يحط أقدامه فيها حتى يرحل عنها حاملاً الهموم والمصائب والمشاكل ومخلفاً وراءه مشروع أموات يتناول كل أبنائه ومن تركهم خلفه. . . إنه في منزل الدنيا سيتحول منه إلى منزل الآخرة وهذا هو مصيره النهائي وخاتمة هذه الرحلة التي يعرفها كما يعرف نهايتها.

(فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه وتجنب من يرديه) الخير والنعيم لصاحب القلب السليم الذي لا يحوي غشاً ولا يحمل حسداً ولا يعيش ضلالاً وانحرافاً الذي أطاع من يهديه إلى طريق الخير والرشاد الذي يتجنب ويبتعد عمن يضله ويهلكه ويأخذ بيده إلى الجحيم. . .

(وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصره وطاعة هاد أمره) أدرك الصراط المستقيم الموصل إلى الحق واليقين بواسطة من يعلّمه ويكشف أمامه الطريق فإن من اقتدى بإمام هدى هداه إلى طريق السلامة وأمن العثار والردى ووصل إلى جنة المأوى ومن أطاع أمر الهادي اهتدى وأفلح وظفر. . .

(وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه وتقطع أسبابه) أسرع إلى الاستفادة من أرباب العلم والأدب وما ينفع أو يفيد قبل موتهم أو قبل موته لأنه بالموت تغلق الأبواب وتتقطع الأسباب لأن الموت يقفل باب الاستفادة ويرفع التكليف ويعطل أسباب الاستفادة. . .

(واستفتح التوبة وأماط الحوبة) جعل التوبة مفتاح عمله وباب هدايته فإنه إذا تاب وأناب وعاد إلى ربه كان ذلك أول خطوة على الطريق السليم في طاعة الله وخطه المستقيم.

ثم أزال الإثم والمعصية وابتدأ حياته من جديد.

(**فقد أقيم على الطريق وهدي نهج السبيل**) إن من يفعل ما تقدم فقد وضع نفسه على الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله وهُدي الطريق الواضح التي لا عوج فيها ولا انحراف.

٢١٥ - ومن دعاء له عليه السلام

كان يدعو به كثيراً

ٱلْحَمْدُ للهِ الَّذي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلاَ سَقِيماً(١)، وَلاَ مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِي(٢) بِسُوءٍ(٣)، وَلاَ مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي، وَلاَ مَقْطُوعاً دَابِرِي(٤)، وَلاَ مُرْتَدّاً(٥) عَنْ دِينِي، وَلاَ مُنْكِراً لِرَبِّي، وَلاَ مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي، وَلاَ مُلْتَبِساً(٦) عَقْلِي، وَلاَ مُعَذَّباً بِعَذَابِ ٱلأُمَمِ مِنْ قَبْلِي. أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِي، لَكَ ٱلْحُجَّةُ(٧) عَلَيَّ وَلاَ حُجَّةَ لِي. وَلاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلاَّ مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلاَ أَتَّقِيَ إِلاَّ مَا وَقَيْتَنِي.

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ(٨) بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ(٩) فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ(١٠) وَٱلأَمْرُ لَكَ!.

ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ(١١) تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي!.

ٱللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعَ(١٢) بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ ٱلْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!.

اللغة

١ - السقيم : المريض.
٢ - عروقي : أعضائي.
٣ - السوء : قالوا: إن العرب تكني عن البرص بالسوء.

٤ ـ الدابر	:	النسل والأولاد.
٥ ـ الإرتداد	:	الرجوع عن الإسلام والدابر في الأصل معناه التابع.
٦ ـ الإلتباس	:	الاختلاط.
٧ ـ الحجة	:	البرهان، ما يحتج به.
٨ ـ أعوذ	:	ألتجىء وأعتصم.
٩ ـ أضام	:	أظلم والضيم: الذل.
١٠ ـ الاضطهاد	:	الظلم والقهر.
١١ ـ الكريمة	:	كل جارحة شريفة كاليد والأذن ونحوها.
١٢ ـ التتابع	:	التهافت في الشر وإلقاء النفس فيه.

الشرح

(الحمد لله الذي لم يُصبح بي ميتاً ولا سقيماً ولا مضروباً على عروقي بسوء ولا مأخوذاً بأسوأ عملي ولا مقطوعاً دابري ولا مرتداً عن ديني ولا منكراً لربي ولا مستوحشاً من إيماني ولا ملتبساً عقلي ولا معذباً بعذاب الأمم من قبلي) الدعاء مخ العبادة ولقبوله شروط أهمها ترك الذنوب والعمل بالمأثور والإمام هنا بطهارة مواقفه ونزاهة مقاصده وعصمته وعظيم جهاده يتوجه إلى الله خاشعاً راهباً راغباً خائفاً... يتوجه إليه بالشكر على نعمه وكرمه وقد حمده بعدة ضروب من النعم.

الحمد لله الذي لم يصبح بي ميتاً: باعتبار أن الموت يعطل حركة الحياة ويمنع الإنسان عن الجهاد وزيادة الأجر والثواب فكان لا بد من حمد الله على عدمه...

ولا سقيماً: ولا مريضاً لأن المرض حالة يفقد الإنسان فيها توازنه ويقعده عن كثير من النشاطات والأعمال.

ولا مضروباً على عروقي بسوء: أي لم أصب بمرض يشوّه خلقي ويجعل الناس ينفرون مني ويشمئزون وبذلك يحدث في نفسي أذية أو حقد عليهم...

ولا مقطوعاً دابري: الحمد لله الذي لم أصب بكارثة تقطع نسلي وتقضي على أولادي ومن هم امتداد لي بعد وفاتي...

ولا مرتداً عن ديني ولا منكراً لربي: الحمد لله الذي أصبحت وأنا على عقيدتي بالله فلم أنكر وجوده كما هي حالة الكفار من عبدة الأصنام والأوثان وكذلك له الحمد الذي أصبحت على الإسلام أعتقد به ديناً إلهياً ورسالة سماوية ولم أخرج عنه إلى غيره.

ولا مستوحشاً من إيماني: الحمد لله الذي جعل نفسي مطمئنة بما أعتقد من عقيدة ولم أكن في شك أو تردد منها فأعيش الوحشة وتأخذني الشكوك في صحتها وبذلك يكون القلق وعدم الاستقرار.

ولا ملتبساً عقلي: الحمد لله الذي لم أصب بعقلي أي لم يعرض على عقلي أمر يوجب فساده فأفقد أعز ما أملك وأغلى ما عندي والعقل جوهرة بدونها يتحول الإنسان إلى لعبة يسخر منها الناس...

ولا معذباً بعذاب الأمم من قبلي: أي لم يغضب عليّ الله فيرميني بالخسف والهدم والطوفان والصواعق كما كان يأخذ الأمم العاصية المتمردة على حكمه وإرادته...

(أصبحت عبداً مملوكاً ظالماً لنفسي لك الحجة عليّ ولا حجة لي ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني) بعد شكر الله على ما ذكر من النعم ما أجمل هذه الوقفة بين يدي الله... ما أروع هذا الاعتراف والإقرار والتصاغر الذي كلما كان أكثر كلما كبر هذا الإنسان أكبر... الخضوع لله العبودية له... الذل بين يديه... الحاجة إليه... وهكذا فكل واحدة أمام الله تزيد هذا العبد عزاً وعلواً.

أصبحت عبداً مملوكاً لله لا يقدر على شيء وليس له حق التصرف في شيء... فالله هو المالك المطلق مالك الحياة... مالك أمر البقاء... مالك الوجود وكل موجود...

ظالماً لنفسي: بالتقصير في خدمة الله وإعانة عباده ومد يد العون إلى أصحاب الحاجة...

لك الحجة علي ولا حجة لي: فالله قد أرسل الرسل والأنبياء وبعث معهم الكتاب والميزان وزود الإنسان بالعقل فالحجة لله قائمة على كل فرد وليس لأحد حجة على الله وبماذا يحتج هذا الإنسان وقد وصلته الأنباء وبلغته الحجج وانقطعت معذرته وتعطّلت حجته...

وكذلك لا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني بمقدار عطائك تمتد يدي وتنال ولا تقدر على الأخذ أكثر من ذلك... تقدّر الأعمار بأوقات معينة فلا أقدر على التخطي عنها ولا ثانية واحدة.. تقدّر الأرزاق فلا أستطيع أن أزيد فيها ذرة واحدة... تقدّر الأولاد فلا أقدر أن أزيد روحاً واحدة... كما أنني لا أقدر على دفع ما قدرته لي من البلاء والمحن فإن نازلتك لا يدفعها إلا أنت وحدك...

(اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك أو أضل في هداك أو أضام في سلطانك أو

أضطهد والأمر لك) بعد أن تقدم منه ذلك الاعتراف والإقرار استجار بالله والتجأ إليه أن يصاب بواحدة من هذه وهو الله الذي بيده الأمور.

أعوذ بك أن أصاب بفقر أو حاجة وأنا أعيش في غناك الواسع... أنا أعيش في ظلال غناك فلا تجعلني بحاجة إلى أحد سواك.

وكذلك أستجير بك وأعوذ إليك أن لا أضل عن ديني أو أنحرف عنه وأنت بيدك الهداية وكل أبوابها وسبلها تقدر على هدايتي ومنعي من الضلال.

وأستجير بك أن يصيبني ذل أو يعرض عليّ هوان فأخنع أو أخضع لأحد غيرك وأنت العزيز الجبار.

وأستجير بك أن أظلم وأقهر وأنت بيدك الأمر وإليك المصير ولا يقف أمام إرادتك أحد...

(اللهم اجعل نفسي أول كريمة تنتزعها من كرائمي وأول وديعة ترتجعها من ودائع نعمك عندي) الإنسان كله وديعة في الدنيا ولا بد وأن يرتجع ويعود... وعلى ذلك فكل عضو من أعضائه أمانة أيضاً والإمام يسأل الله أن يجعل أول ما يريد استرداده من ودائعه وأول ما يسترجعه من أعضائه فليكن الروح التي هي قوام الحياة وبها الحركة... هذه الروح فلتسترجع أول واحدة ليموت الإنسان دون أي يصاب بعيب في أحد أعضائه فيوجب ذلك إهانته وثقله على الآخرين والحاجة إليهم... فمن أقعد احتاج إلى غيره وبتلك الحاجة يمكن أن يثقل عليهم... ويمكن أن يتعرض لإهانتهم... ويمكن أن يُذلّ لهم... وهكذا... وهذا تعبير آخر أن لا يصاب بشيء من أعضائه قبل موته بل يأتيه الموت ولم يصب بشيء منها...

(اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك) استجار بالله أن يترك قول الله الصادق ويذهب إلى غيره من أقوال البشر وقول الله هو كلامه وأصدقه وأثبته القرآن الكريم فنعوذ بالله أن نترك كلام الله في قرآنه ونذهب إلى غيره من آراء الناس ونظرياتهم... وهذه دعوة إلى الالتزام بقول الله والعمل بما أمر...

(أو أن نُفتن عن دينك) استجار أيضاً بالله أن لا يضل عن الدين أو ينحرف عنه والمسلم بحاجة دائمة إلى التوجه لله كي يثبّته على دينه ويمده بالوسائل التي تكفل له البقاء فيه وعليه...

(أو تتابع بنا أهواؤنا دون الهدى الذي جاء من عندك) نسألك أن لا تجرنا أهواؤنا وميولنا عن محكم آياتك وعن الهدى الذي جاء من عندك فنعدل عنها إلى غيرها فنضل ونخسر...

٢١٦ - ومن خطبة له عليه السلام

خطبها بصفين

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ ٱلْحَقِّ مِثْلُ ٱلَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَٱلْحَقُّ أَوْسَعُ ٱلأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ(١)، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ(٢)، لاَ يَجْرِي لأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ. وَلَوْ كَانَ لأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلاَ يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً للهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ(٣) قَضَائِهِ، وَلكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى ٱلْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ ٱلْمَزِيدِ أَهْلُهُ.

حق الوالي وحق الرعية

ثُمَّ جَعَلَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً ٱفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تتكَافأُ(٤) فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلاَ يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ. وَأَعْظَمُ مَا ٱفْتَرَضَ(٥) - سُبْحَانَهُ - مِنْ تِلْكَ ٱلْحُقُوقِ حَقُّ ٱلْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى ٱلْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ - سُبْحَانَهُ - لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لأُلْفَتِهِمْ(٦)، وَعِزاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِصَلاَحِ ٱلْوُلاَةِ، وَلاَ تَصْلُحُ ٱلْوُلاَةُ إِلاَّ بِٱسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتِ(٧) الرَّعِيَّةُ إِلَى ٱلْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى ٱلْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ ٱلْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَقَامَتْ مَنَاهِجُ(٨) الدِّينِ، وَٱعْتَدَلَتْ(٩) مَعَالِمُ(١٠) ٱلْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلاَلِهَا(١١) السُّنَنُ(١٢)، فَصَلَحَ بِذلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ ٱلأَعْدَاءِ. وَإِذَا

غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ(١٣) ٱلْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، ٱخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ ٱلْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ ٱلْجَوْرِ(١٤)، وَكَثُرَ ٱلإِدْغَالُ(١٥) فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ(١٦) السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِـٱلْهَوَى(١٧)، وَعُطِّلَتِ ٱلأَحْكَامُ(١٨)، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ(١٩)، فَلاَ يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلاَ لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ فَهُنَالِكَ تَذِلُّ ٱلأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ ٱلأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ(٢٠) اللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ ٱلْعِبَادِ. فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ ـ وَإِنِ ٱشْتَدَّ عَلَى رِضَى اللهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي ٱلْعَمَلِ ٱجْتِهَادُهُ ـ بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا للهِ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ. وَلكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ٱلنَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ(٢١)، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ ٱلْحَقِّ بَيْنَهُمْ. وَلَيْسَ ٱمْرُؤٌ ـ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي ٱلْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ ـ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ. وَلاَ ٱمْرُؤٌ ـ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ، وَٱقْتَحَمَتْهُ(٢٢) ٱلْعُيُونُ ـ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ.

فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل، يكثر فيه الثناء عليه، ويذكر سمعه وطاعته له، فقال له عليه السلام:

إِنَّ حَقَّ مَنْ عَظُمَ جَلاَلُ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ. أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ ـ لِعِظَمِ ذلِكَ ـ كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ ٱزْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً. وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ(٢٣) حَالاَتِ ٱلْوُلاَةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ ٱلْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى ٱلْكِبْرِ(٢٤)، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ ٱلإِطْرَاءَ(٢٥)، وَٱسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ، وَلَسْتُ ـ بِحَمْدِ اللهِ ـ كَذلِكَ، وَلَو كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذلِكَ لَتَرَكْتُهُ ٱنْحِطَاطاً للهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ ٱلْعَظَمَةِ وَٱلْكِبْرِيَاءِ، وَرُبَّمَا ٱسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ ٱلْبَلاَءِ(٢٦)،

فَلاَ تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ(٢٧) مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لاَ بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا(٢٨)، فَلاَ تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ ٱلْجَبَابِرَةُ(٢٩)، وَلاَ تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ(٣٠) بِهِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَادِرَةِ(٣١)، وَلاَ تُخَالِطُونِي بِٱلْمُصَانَعَةِ(٣٢)، وَلاَ تَظُنُّوا بِي ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلاَ ٱلْتِمَاسَ(٣٣) إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ ٱسْتَثْقَلَ ٱلْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ ٱلْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ ٱلْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِيءَ، وَلاَ آمَنُ ذلِكَ مَنْ فِعْلِي، إِلاَّ أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مَنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُون لِرَبٍّ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ، يَمْلِكُ مِنَّا مَا لاَ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلاَلَةِ بِٱلْهُدَى، وَأَعْطَانَا ٱلْبَصِيرَةَ بَعْدَ ٱلْعَمَى.

اللغة

١ ـ التواصف : تفاعل يكون بين اثنين فما فوق يصف كل منهم للأخر ما يريد.
٢ ـ التناصف : أن ينصف بعضهم بعضاً.
٣ ـ صروف الدهر : تقلباته وتغيراته.
٤ ـ تتكافأ : تتساوى.
٥ ـ أفترض : أوجب.
٦ ـ الألفة : الصدقة والمؤانسة، الوحدة والاتفاق.
٧ ـ أدت : أوصلت، وبلغت.
٨ ـ المناهج : جمع منهج الطريق الواضح.
٩ ـ اعتدلت : استقامت.
١٠ ـ المعالم : جمع معلم ما يستدل به على الطريق.
١١ ـ أذلال الطريق : جمع ذل بكسر الذال وسطها.
١٢ ـ السنن : جمع سنة ما ورد عن النبي ﷺ والأئمة.
١٣ ـ أجحف بالرعية : ظلمها.

١٤ ـ الجور : الظلم.
١٥ ـ الادغال : الافساد.
١٦ ـ المحاج : جمع محجة وهي الجادة.
١٧ ـ الهوى : ما ترغب فيه النفس وتشتهيه.
١٨ ـ عطلت الأحكام : أوقف العمل بها.
١٩ ـ علل النفوس : أي تعللها بالباطل.
٢٠ ـ التبعات : ما يلحق الشيء من الآثار، خلفياته الناتجة عنه.
٢١ ـ الجهد : الطاقة والقدرة.
٢٢ ـ اقتحمته العيون : احتقرته وأزدرته.
٢٣ ـ السخف : ضعف العقل.
٢٤ ـ الكبر : التكبر.
٢٥ ـ الاطراء : المدح أو ما تجاوز الحد منه.
٢٦ ـ البلاء : العمل الجيد الحسن، الاختبار.
٢٧ ـ فرغ من الشيء : انتهى منه.
٢٨ ـ امضى الشيء : أنفذه.
٢٩ ـ الجبابرة : جمع جبار المتكبر العاتي المتمرد المسلط القاهر ذم للعبد ومدح للرب.
٣٠ ـ تحفظ منه وعنه : احترز وتصّون.
٣١ ـ البادرة : الحدّة والغضب.
٣٢ ـ المصانعة : المداراة.
٣٣ ـ الالتماس : الطلب.

الشرح

(أما بعد فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقاً بولاية أمركم ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم) في هذه الخطبة بيان لحقه على الرعية وحق الرعية عليه وفيها حث لهم على التزام أمره ونهيه لما في متابعته من أعزاز للدين وللمؤمنين وابتدأ عليه السلام بذكر القاعدة الكلية من أن الحقوق متكافئة بين الراعي والرعية فله على الرعية حق الطاعة والتزام أمره وعدم عصيانه ولهم عليه العدل بينهم في قسمة فيئهم وتوفير الأمن لهم وتوفير الفرص لسعادتهم مادياً ومعنوياً وغير ذلك...

(فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف لا يجري لأحد إلا جرى

عليه ولا يجري عليه إلا جرى له) كأن هذا تعريض بهم وأنهم لا يعطون الحق من أنفسهم له فقال: إذا أراد الناس أن يوصفوا الحق لبعضهم أجادوا وأبدعوا وأتوا بما لا مزيد عليه ولكنهم إذا أرادوا ممارسته والعمل به عجزوا عن ذلك وتوقفوا ولم ينفذوا منه شيئاً فالوصف سهل يسير والعمل صعب عسير. . .

ثم عاد ليؤكد أن هذا الحق لا يكون لأحد إلا يكون عليه ولا يجري عليه إلا جرى له فكل واحد يجري عليه الحق ويجب أن يتقبله ويقبل به لأن المصلحة العامة تقتضي ذلك. . .

(ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه لقدرته علي عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله) بيان أن الحق يجري على كل أحد دون استثناء وذكر أنه لو كان الحق يجري لأحد ولا يجري عليه لكان ذلك يجب أن يكون لله وذكر لذلك سببين.

الأول: أنه القادر المطلق فلا يعجزه شيء يستطيع أن يقهر عباده على حقوقه ويحملهم عليها ولا يعطيهم شيئاً وأما غيره من الناس فلا يملك ذلك.

الثاني: إنه لو لم يجزهم بأعمالهم ومع ذلك كلفهم بها لكان عادلاً لأن له من النعم على العباد ما لو عبدوه مدى الدهر لم يوفوه حق نعمة واحدة منها فيكون إعطاؤه لهم الحقوق عليه تفضلاً منه ورحمة. . .

ثم بيّن أن الله الذي يجري في حقه أن يكون له الحق ولا يجري عليه الحق. . . الله الذي يستحق ذلك لم يعط لنفسه ذلك بل أجرى الحق له وأجراه عليه حيث جعل حقه على العباد أن يطيعوه فيما أمر ونهى ولا يخالفوه في حكمه وتشريعه وجعل لهم عليه الحق أن يضاعف لهم الثواب تفضلاً منه كما قال تعالى: **﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله. . ﴾**. فإن الله أهل التفضل والعطاء.

(ثم جعل ـ سبحانه ـ من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض فجعلها تتكافأ في وجوهها ويوجب بعضها بعضاً ولا يستوجب بعضها إلا ببعض) الحقوق بين الناس وعلى بعضهم البعض متفرعة عن حق الله باعتبار تشريعه لها وأمره بها فهي منه وبهذا الاعتبار ترجع إليه مثلاً طاعة الوالدين كانت واجبة باعتبار أمر الله بها فتكون إطاعتهما طاعة لله ويكون ذلك بالتالي متفرعاً على حق الله العام. . .

والله سبحانه جعل لبعض الناس حقوقاً على البعض الآخر وجعلها تتساوى فيما

بينها فمن له حق كان عليه في مقابله حق فإذا وجب على الزوج النفقة وجب على الزوجة الطاعة وعليها أن لا تعصيه كما أن بعضها يستوجب البعض الآخر فإذا لم يتوفر سقط ذلك الواجب فلا يكون الحق واجباً من طرف دون أن يجب من الطرف الآخر فلا يجب على الرعية الطاعة للوالي إلا إذا قام الوالي بالعدل والقسط من طرفه . . .

(وأعظم ما افترض ـ سبحانه ـ من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي فريضة فرضها الله ـ سبحانه ـ لكل على كل فجعلها نظاماً لألفتهم وعزاً لدينهم) بين أعظم الحقوق وأشدها فائدة باعتبار أن فيها الوحدة والألفة وفيها قوة الحق والنظام وعز الدين والجماعة . . . أعظم الحق ما افترضه الله بين الخلق هو حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي فريضة أوجبها الله وحكم بها لكل واحد منهما نحو الآخر وجعلها مجمعاً لوحدتهم وتماسكهم وتعاضدهم وعزاً لدينهم لأن اجتماع القيادة مع القاعدة في وحدة الطريق والهدف يجعل الدولة في أعظم مراتب القوة والمنعة فتهابها الدول وتخشاها الأمم ولا يجرأ عليها عدو أو يطمع فيها طامع . . .

(فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي إليها حقها عز الحق بينهم وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل وجرت على اذلالها السنن فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء . .) لتحقيق الصلاح العام يجب أن يكون هناك تعاون بين الراعي والرعية، يجب أن يكون هناك وفاق واتفاق يحكم الجميع ويمضون كلهم نحوه ولا يمكن أن تصلح الرعية إلا بصلاح الراعي لأن الناس كما قيل على دين ملوكهم فإذا فسدوا انتقل الفساد إلى الرعية بحكم أن الإمام قدوه وأسوه تسير الرعية خلفه فيما يقول ويعمل، وكذلك تنعكس القضية وتصدق وإنه لا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية لأن الرعية في بعض الأحيان ـ بل في أكثرها ـ تقهر الوالي على الالتزام بعاداتها وتقاليدها وما هي عليه وما تتبناه من رأي فاسد كما وقع ذلك لأمير المؤمنين في قضية التحكيم حيث أجبره جيشه ومن معه على قبوله . . . إذاً فالخلل في موقف أحد الفريقين يزلزل النجاح بل يزيله .

وأما إذا أدت الرعية إلى الوالي حقه المتمثل بطاعته ولزوم أمره وتنفيذ حكمه وأدى الوالي إلى الرعية حقها المتمثل بإقامة الحق فيهم وبسط العدل والانتصاف للمظلومين من الظالمين وتوزيع الثروة بينهم بالقسط عندها يتم ما يريد الله ويحب من عز الحق حيث يأخذ كل منهم يفتش عن الحق وينفذه بكل شوق ورغبة وعندها تقام مناهج الدين المتمثلة بتطبيق أحكام الشريعة وتنفيذ أوامرها وجريانها عملياً بين الناس ويتم تطبيقها

كما هي بدون انحراف فيها أو محاباة لأحد بل تنفذ على الجميع وتطبق عليهم بدون تفاوت.

فإذا جرى كل ذلك صلح الزمان كناية عن صلاح أهله وإنهم يعيشون برخاء وعدل فلا جور ولا ظلم ولا حيف على الشريعة ولا يأكل القوي الضعيف بل كل واحد يأخذ حقه ويعطي ما عليه من الحق.

وعندها يكتب للدولة أن تبقى ولا تتعرض للزوال والفناء فإن أهم أسباب بقاء الدول أن تقوم على العدل والحق وتنفي من ساحتها القهر والظلم...

وإذا تم ما تقدم فعزت الدولة وأصبحت قوية لإتفاق الحاكم والمحكوم واجتماع الجميع نحو تحقيق عزتهم وكرامتهم يئست الأعداء من الطمع فيها والنيل منها ولم يبق لها فيها رغبة لعدم قدرتها عليها وبذلك تنحو نحو السعادة والرفاهية وتبسط ظلها في ربوع الأمان الداخلي والأمان الخارجي وأي دولة تأم من هذين الجانبين تعيش أحلى حضارتها وأشدها أزدهاراً وعزة....

(وإذا غلبت الرعية واليها أو اجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور وكثر الادغال في الدين وتركت محاج السنن فعمل بالهوى وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس فلا يستوحش لعظيم حق عطل ولا لعظيم باطل فعل فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد).

الخلاف بين الراعي والرعية: هذه الصورة مرعبة مخوفة يعيشها أكثر دول العالم بما فيه عالمنا العربي المعاصر بل وعالمنا الإسلامي الحاضر صورة الخلاف بين الراعي والرعية بين الحاكم والمحكوم.. صورة الخلاف بين رأس الدولة وبين الشعب والإمام يقول: إذا غلبت الرعية واليها أي قهرته على ما تريد ولم تعطه أزمة الأمور ومقاليدها أو أجحف الوالي برعيته أي ظلمها وجار عليها وقهرها وأذلها ومارس عليها القهر والحرمان والعذاب هناك تختلف الكلمة بين الحاكم والمحكوم... نتيجة طبيعية يصل إليها هذا الخلاف بين الحاكم والشعب وإذا وصل إلى ذلك فلا بد من الفتنة ويأخذ الضعف يدب في جسد الدولة ويطمع فيها من لا عهد له بالطمع فيها...

إذا كان الأمر كذلك من اختلاف الكلمة وتشتت الوحدة ظهرت معالم الجور بدل معالم الحق... ظهر الظلم من الحاكم ومن المحكوم لأن كل واحد يريد تحقيق أغراضه والوصول إلى أهدافه، وباختلاف النفوس والآراء تختلف الأعمال والوسائل فيسود الظلم والجور.

وكثر الادغال في الدين فأفسدوه بادخال ما ليس فيه على أنه فيه وفشت البدع وكثرت الحيل وأخذ الناس ما ينفعهم وتركوا منه ما لا ينفعهم فعطلت محاج السنن كل الأحكام الواضحة التي شرعها الله تعطل إذا تعارضت مع مصالح أحد الفريقين وارتفعت الأحكام الشرعية عن العمل بها. . .

وكثرت علل النفوس أي امراضها من الحقد والحسد والبغض.

وإذا وصلت الأمور إلى هذا المستوى تعطلت في المسلم عقيدته وتغيرت نظرته ولم يعد يستوحش إذ تعطلت أحكام الشريعة ولم تقم لأن النفوس مردة على المعصية وألفتها وعاشت الرذيلة فهانت كبائر المعاصي في النظر فضلاً عن صغائرها.

ولم يعد المسلم يهمه ما يفعل من كبائر المنكرات والمعاصي وما أصدق كلام الإمام في يومنا روحاً وحقيقة فقد هان القتل وسهل الزنا والانحراف بل أباحت الدول فتح دور المومسات علناً بدون حياء وروّجت للمخدرات والمسكرات وكل ما يحرف المسلم عن دينه وعقيدته ونحن نمر عليها جميعها بأعيننا وبعضنا يغضّ الطرف عنها وبعضنا ينكرها بلسانه فحسب ويتعلّل بأن ذلك أضعف الإيمان ولم نجد من يخرج عليها شاهراً سيفه يريد اقتلاعها. . . إن ما وصلنا إليه من تأخر وتقهقر نتيجة هذا الخلاف المستحكم بين الحاكم والمحكوم فالحاكم الذي استولى على رقاب الناس بانقلاب عسكري دبرته له يد المخابرات الاستعمارية لن يرحم شعبه ولن يتفق معهم في وسيلة أو هدف. . .

إن الحاكم الذي تولى أمور الناس ولم يأت بارادتهم واختيارهم بل فُرض عليهم بالقوة، كيف يكون الانسجام والوفاق بينه وبين رعيته؟!. . .

إن أكبر اسباب تخلفنا حكامنا الذين تولوا إدارة البلاد بدون رضى من شعوبهم ولذا نرى التأخر والتقهقر والذل والخضوع وكيف طمع فينا أذل خلق الله، شذاذ الآفاق اليهود الذين اغتصبوا فلسطين وشردوا أهلها من ديارهم ويحاولون الآن بسط سلطانهم على أراضي المسلمين في لبنان وسورية والاردن. . .

وتصدق كلمة الإمام وتأتي كفلق الصبح تحكي واقعنا هنالك تذل الأبرار وتعز الاشرار وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد. . . تجد مطاردة الاحرار والشرفاء من الحكام الخونة. . . نجد السجون والمعتقلات مملوءة بالأبرار والنجباء وعلى العكس من ذلك نجد المقامات العالية في الدولة لاراذل الناس والسفهاء. . . نجد الاشرار وزراء نواباً ورؤساء وقضاة. . . نجد الاشرار يعيشون في القصور وحولهم الخدم والحشم

والحراسة والمرافقة . . . إنها دولة الاشرار ليس للأخيار منها نصيب والله سبحانه يأخذ هؤلاء الناس بأشد العذاب وأكبر العقاب . . . إنهم يعيشون الهزيمة في داخلهم . . . وعروشهم مهزورة مهددة في كل لحظة . . .

(فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه فليس أحد ـ وإن اشتد على رضى الله حرصه وطال في العمل اجتهاده ـ ببالغ حقيقة ما الله سبحانه أهله من الطاعة له ولكن من واجب حقوق الله على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم والتعاون على إقامة الحق بينهم) أوصاهم بأن ينصح كل واحد منهم الآخر في سلوك نهج الحق والعدل والطاعة للإمام وإن يحسن التعاون مع الآخرين في هذا المضمار . . .

ثم بيّن عجز المخلوق عن إداء حق الله مهما أطاعه وإنه وإن اشتد حرصه على ذلك وطال في العمل اجتهاده فلن يبلغ ما الله أهل له وما يستحقه ولكن مع ذلك على العباد أن ينصح بعضهم البعض قدر طاقتهم وقوتهم وأن يتعاونوا مع بعضهم لإقامة الحق بينهم بقدر إمكانهم.

(وليس امرؤ ـ وإن عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته ـ بفوق أن يعان على ما حمّله الله من حقه ولا امرؤ ـ وإن صغرته النفوس واقتحمته العيون ـ بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه) ليس في المجتمع أحد يستغني عن الآخرين بل كل واحد بحاجة إلى الناس فالحاكم بحاجة إلى من يعينه في إدارة البلاد وتنظيم الحياة فهناك جهاز لكل مؤسسة وهذا الجهاز مكون من الآخرين والحاكم بأشد الحاجة إليهم وهكذا دواليك . . .

لا بد لرجل الدين من رجال يحملون فكره وينفذون إرادته ويحملون الناس على الحق ويردعونهم عن الباطل . . .

لا بد له من معاونين له يحملون معه الأمانة ويبلغونها للناس والكبير صاحب المهمات الضخمة أحوج الناس إلى المعاونين . . .

ثم دفع توهماً مفاده: وما حاجة المجتمع أو الرجل الكبير أو الحاكم إلى الفرد الصغير المحتقر الضعيف وماذا ينفع هذا وما دوره يقول الإمام: حتى هذا الإنسان المحتقر في أعين الناس يسّد ثغرة قد لا يسدها غيره من الناس فهذا الرجل الصغير إذا تولى تنظيف الشوارع وإزالة الأوساخ وغيرها من الأمور يكون قد سد فراغاً كبيراً وخدم المجتمع أعظم خدمة ويكون الناس بحاجة إليه بل بأشد الحاجة إليه . . .

فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه

وطاعته له فقال عليه السلام: .

(إن من حق من عظم جلال الله سبحانه في نفسه وجل موضعه من قلبه أن يصغر عنده ـ لعظم ذلك ـ كل ما سواه وإن أحق من كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه ولطف إحسانه إليه فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد إلا إزداد حق الله عليه عظماً) هذا الكلام من الإمام مشابه لقوله في خطبة المتقين ـ التي تقدمت ـ عظم الخالق في انفسهم فصغر ما دونه في أعينهم فإن جلال الله وعظمته تمنع أن يكون لأحد من الناس في قلب المؤمن محل أو مكان. . . تصغر الأشياء، وتحتقر إلى درجة الاهمال واللا مبالاة أمام القلوب الطاهرة التي عاش الله فيها. . . كل ما سوى الله يصغر حتى يضمحل ويفنى في القلب الذي عاش الله فيه. . .

ذكر هذه المقدمة ليدخل منها إلى أحق الناس الذي يجب أن يعيش هذه الحالة من إجلال الله وتعظيمه وتصغير ما دونه إنه من ترادفت نعم الله عليه من مال وشرف وصحة وأمان وإيمان وعز وكرامة وسلطان وكذلك من لطف إحسانه إليه أي دق بحيث أعطاه الفكر والعقل على التحليل والأمور الدقيقة اللطيفة التي يعجز الإنسان عن تصورها. . . وكلما ازدادت نعم الله على العبد ازداد عليه تعظيم حق الله وهكذا يزداد الشكر والتعظيم بز يادتها. . .

(وإن من اسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر ويوضع أمرهم على الكبر وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الاطراء واستماع الثناء ولست بحمد الله كذلك ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء) من أسخف وأخف ما يعيشه الولاة في نظر الناس الصالحين الذين أدركوا الحقيقة أن يعيش هؤلاء الولاة حب الفخر والمباهاة ويعيشون التكبر والاستعلاء لأن ذلك ضعف في شخصيتهم ينعكس على الدولة وتوجهاتها فالحاكم الذي ينتفخ للمدح والثناء عليه ولانجازاته الكبيرة يعيش في حدود هذا المدح ولا يخرج عنه ويعيش الزهو في نفسه فيعطله ذلك عن العمل الجاد هذا من جهة ومن جهة أخرى إن تلك الحالة النفسية يجب أن يتنزه عنها المؤمنون لأنهم بها يدخلون في الذم الوارد للمتكبرين. . .

ثم أراد أن ينفي عن نفسه مثل تلك الصفات التي انكرها في حق الولاة فقال: إني أخاف أن تحدثكم نفوسكم وتقودكم ظنونكم إلى أنني أعيش هذه الحالات من حب المدح والاطراء والثناء فإنني لست كذلك ولا أحبه ولو فرضنا فرضاً أنني أحب أن يقال

في ذلك لتركته تواضعاً لله الذي هو أحق بذلك وأولى من كل أحد لعظمته وكبريائه وعلو مقامه.

(وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء فلا تثنوا علي بجميل ثناء لأخراجي نفسي إلى الله سبحانه وإليكم من التقية في حقوق لم أفرغ من إدائها وفرائض لا بد من امضائها) أراد أن يمهد ويعتذر لمن مدحه وأثنى عليه بأن الإنسان إذا قدم شيئاً من التضحيات وأنجز بعض المهمات استحسن الثناء وأحب المدح والاطراء جزاءً عما قدم إنه يحب كلمة شكر على عمله وما قام به. . .

ثم نهاهم أن يثنوا عليه ويمدحوه ويجلوه وعلل ذلك بأنه قد أخرج نفسه لله وأراد أن يؤدي حقه ويقوم بواجبه وواجب أمره ونهيه لأنه عندما يقوم بذلك يقوم بواجب النعمة ومن يقوم بذلك لا يطلب مدحاً ولا يريد اطراءاً وكذلك يريد أن يخرج نفسه من خدمتهم الواجبة عليه وما هو مطلوب منه من الحقوق نحوهم فهو في كلا الأمرين يقوم بما هو واجب عليه ولا شكر على واجب كما يقال. . .

(فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة ولا تخالطوني بالمصانعة ولا تظنوا بي استثقالاٍ في حق قيل لي ولا التماس اعظام لنفسي فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه) بعد أن قدّم أنه إنما يعمل لله ولهم ويقوم بواجبه نحو الله ونحوهم نهاهم عن أمور لا يريد أن يتعاملوا بها معه.

نهاهم أن يكلموه بما تكلم به الجبابرة: فإن الطغاة والظالمين والفراعنة قد عبدوا الناس لهم وجعلوا لأنفسهم ألقاباً وأسماء فيها التعظيم والرهبة. . . مالك رقاب الناس. . . سلطان السلاطين. . . خليفة الله. . . ملك الملوك. . . ظل الله في الأرض. . . مولاي السلطان. . . الحضرة الملوكية. . . إلى آخر الألقاب التي وضعها الجبابرة لأنفسهم. . .

ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة: أي لا تهابوني وتحترزوا مني فتمتنعوا من الحديث معي والبوح لي بما تريدون كما هي حالة الملوك الذين تعرفون من حيث يغضبون لأنفسهم بمجرد أن لا يعجبهم منطق إنسان أو لا يوافق مزاجهم فيبادرون مستعجلين إلى الانتقام منه لأنفسهم وغضباً لذاتهم. . .

لا تخالطوني بالمصانعة: إذا أردتم أن تكونوا معي في الحياة وتكون بيننا معاشرة ومخالطة ومصاحبة ولقاء فلا تتعاملوا معي بالمداراة والنفاق والخوف بل كونوا صريحين

واضحين تبدون آراءكم وتقولون كلمتكم وتناقشون فيما ترون. . .

ثم نفى عن نفسه كل مشقة أو ثقل أو كلفة إذا قالوا له الحق ونطقوا بالصواب كما نفى عن نفسه أن يرفض قولهم ولا يستمع لهم لأنه يطلب العظمة لنفسه وإنه فوق أن يقال له الحق وقد بين أن من يستثقل سماع الحق له أو العدل يعرض عليه يكون العمل بهما أثقل عليه لأنه إذا كان مجرد عرض الحق والحديث فيه ومجرد ذكر العدل وبيانه إذا كان مجرد ذلك ثقيل وصعب فالعمل به أشد وأصعب بل من يستثقل سماع الحق وبيان العدل يمتنع عليه القيام بهما وأداء حقهما. . .

(فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فإني لست في نفسي بفوق أن أخطىء ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره يملك منا ما لا نملك من أنفسنا وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى) دعاهم إلى قول الحق وابداء المشورة التي فيها عدل. . .

ثم تواضع لهم كي يسترسلوا معه ولا يتحفظوا أو يصانعوا فأشار إلى أنه ليس فوق أن يخطىء ولا يطمئن إلى أنه لا يقع فيه إلا بعون الله وتسديده الذي يملك من نفسه ما لا يملكه هو من نفسه.

ثم قال إنه وإياهم سواء بسواء عبيد لله مملوكون له لا رب غيره ولا معبود سواه يملك منا ما لا نملك من أنفسنا يملك حق حياتنا ومماتنا ومرضنا وشفائنا وغنانا وفقرنا ولا نملك من ذلك شيئاً فهو أملك منا بأنفسنا وهو الذي أخرجنا مما كنا فيه من ظلمات الجاهلية وعاداتها والبعد عن الله إلى ما نحن فيه من الصلاح في الدين والعقيدة والهدى فأبدلنا بعد الهلاك النجاة وبعد الضلال الهدى. . .

٢١٧ ـ ومن كلام له عليه السلام

في التظلم والتشكي من قريش

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ(١) عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا(٢) رَحِمِي وَأَكْفَؤُوا(٣) إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا(٤) عَلَى مُنَازَعَتِي(٥) حَقّاً كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي ٱلْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي ٱلْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَٱصْبِرْ مَغْمُوماً(٦)، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً(٧). فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ(٨) وَلَا ذَابٌّ(٩) وَلَا مُسَاعِدٌ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنَنْتُ(١٠) بِهِمْ عَنِ ٱلْمَنِيَّةِ(١١). فَأَغْضَيْتُ(١٢) عَلَى ٱلْقَذَى(١٣)، وَجَرِعْتُ(١٤) رِيقِي(١٥) عَلَى الشَّجَا(١٦)، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ(١٧) ٱلْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ ٱلْعَلْقَمِ(١٨)، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ(١٩) الشِّفَارِ(٢٠).

قال الشريف رضي الله عنه. وقد مضى هذا الكلام في أثناء خطبة متقدمة، إلا أني ذكرته ها هنا لاختلاف الروايتين.

اللغة

١ ـ **استعديك** : استعينك كي تنتقم لي.

٢ ـ **قطعوا رحمي** : قطعوا قرابتي.

٣ ـ **أكفؤوا إنائي** : قلبوه وكبوه.

٤ ـ **أجمعوا** : اتفقوا.

٥ ـ **المنازعة** : الخصومة.

٦ ـ **المغموم** : المحزون.

٧ ـ **المتأسف** : المتلهف، الحزين.

٨ ـ **الرافد** : المعين.

٩ ـ الذاب : المدافع والناصر.
١٠ ـ ضننت بهم : بخلت بهم.
١١ ـ المنية : الموت.
١٢ ـ اغضيت على كذا : صبرت وسكت.
١٣ ـ القذى : ما يسقط في العين فيؤذيها.
١٤ ـ جرعت : ابتلعت.
١٥ ـ الريق : لعاب الفم.
١٦ ـ الشجا : ما اعترض في الحلق.
١٧ ـ كظم غيظه : حبس غضبه.
١٨ ـ العلقم : شجر شديدالمرارة.
١٩ ـ الوخز : الطعن الخفيف.
٢٠ ـ الشفار : جمع شفرة وهي حد السيف أو السكين.

الشرح

(اللهم إني استعديك على قريش ومن اعانهم فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفؤوا إنائي وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري) هذا الكلام منه عليه السلام شكوى من قريش وما لاقاه منها... إنها صرخة المظلوم المهضوم إذا سلب الأقوياء حقه واجتمعت عصابة البغي على ظلمه...

اللهم إني أتوجه إليك أن تنتصر لي وتنتقم من قريش ومن اعانهم من الأحلاف والقبائل فإنهم قد قطعوا رحمي من رسول الله وفصلوني عنه كأني غريب بعيد لا يصلني به صلة دم أو قربى أو صلة كفاح وجهاد وإنهم قد اكفؤوا إنائي أي ضيعوا أتعابي وجهادي وما استحقه من الرياسة والخلافة... إنهم قد ضيّعوا حقه وأبطلوا دوره واتفقوا جميعاً على مخاصمته في حق هو أولى به من كل الناس... أولى به ممن تسلمه وأستولى عليه... أولى به من جميع الناس بالنص والكفاءة والقدرة على قيادة الأمة وتسلم زمام أمرها وهذا المعنى قد أشار إليه الإمام في الخطبة الشقشقية...

(وقالوا: ألا إن في الحق أن تأخذه وفي الحق أن تمنعه فأصبر مغموماً أو مت متأسفاً) هذه حكاية لقولهم بلسان الحال ـ ظلماً وعدواناً ـ إنك إن وليت الخلافة فهذا حق وإن تولاها غيرك فهو أيضاً حق فإن أعجبك ما نقول فهو وإلا إذا منعناك من الخلافة فاصبر محزوناً أو مت متأسفاً متحسراً ولن ينفعك ذلك وهكذا فعلت قريش وحلفاؤها

عندما نحتّ علياً عن الخلافة وجاءت بغيره ممن هو دونه. . . .

(فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية) بعد أن بيّن موقف قريش منه واجتماعها على منعه حقه وكيف تنظر إليه وتعامله قال: إني نظرت في أحوال هذه القضية وما جرى عليّ من الظلم وكنت لو استجمعت القوة والأنصار كنت أريد الوقوف في وجهها ومحاربتها وضرب وجوهها ولكن للأسف لم تكمل شروط النهضة والمواجهة إذ ليس لي معين يعينني ولا ناصر ينصرني ولا دافع يدفع عني أو يساعدني لتحقيق أهدافي وما أصبو إليه لأن الناس قد خافوا سطوة السلطان وسوطه وخصوصاً ما كان يطلقه عمر من التهديد والوعيد والانذار والتخويف فنظرت فلم أجد أحداً يقوم معي غير أهل بيتي وخاصتي فبخلت بهم على الموت الذي هو نصيبهم لو قمت بهم في وجه قريش لقلتهم وكثرتها وفي هذا البيان كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد من أن الإمام ما أقعده عن القيام في وجه الغاصبين لحقه إلا قلة الناصر والمعين ولو وجد أعواناً يقفون لم يتوان في مواجهة القوم وضرب وجوههم. . .

(فأغضيت على القذى وجرعت ريقي على الشجا وصبرت من كظم الغيظ على أمرَّ من العلقم وآلم للقلب من وخز الشفار) هذا شرح لمدى المعاناة التي يعيشها والألم الذي يكتوي به أغمضت عيني على كل ما يؤذي وابتلعت ريقي مع ما بي من الوجع والألم وصبرت حابساً غضبي على أمّر من طعم العلقم الذي هو في المرارة بمنتهاها فضرب به المثل وآلم للقلب من طعن السيوف والمدى.

كلمات تخرج من قلب الإمام فتجرح القلوب تحكي عن مدى الألم الذي يعيشه. . . يرى حقه يسلب وتراث الإسلام بيد عصبة لا تستحق أن تتولى إدارة بيت صغير فكيف تتولى إدارة الحكم في دولة الإسلام الناشئة. . .

كلمات مفعمة بالألم والحسرة لما يصيب الإسلام من جراء هذا الاعتداء على حقه. . . وحق لعلي أن يعيش هذا الألم فإنه كان ينظر إلى المستقبل فيرى معاوية والأسره الأموية تضع يدها على الإسلام وتتولى شوؤنه وما ذلك إلا نتيجة للانحراف الذي كان في الخطوات الأولى من عمر الخلافة يوم السقيفة وما بعده. . .

٢١٨ - ومن كلام له عليه السلام

في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام

فَقدِمُو عَلَى عُمَّالِي وَخُزَّانِ بَيْتِ ٱلْمُسْلِمِينَ الَّذي فِي يَدَيَّ، وَعَلى أَهْلِ مِصْرٍ[١]، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي، ؛ فَشَتَّتُوا[٢] كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ. وَوَثَبُوا[٣] عَلَى شِيعَتِي، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً[٤]؛ وَطَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ[٥]، فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا ٱللهَ صَادِقِينَ.

اللغة

١ ـ المصر : القطر.
٢ ـ شتتوا كلمتهم : فرقوها أي فرقوا جمعهم ووحدتهم.
٣ ـ وثبوا : نهضوا وقاموا، انقضوا.
٤ ـ الغدر : الخيانة ونقض العهد.
٥ ـ عضوا على اسيافهم: لزموها وهو كناية عن الصبر وعدم الاستسلام.

الشرح

(فقدموا على عمالي وخزان بيت مال المسلمين الذي في يدي وعلى أهل مصر كلهم في طاعتي وعلى بيعتي فشتتوا كلمتهم وأفسدوا علي جماعتهم ووثبوا على شيعتي فقتلوا طائفة منهم غدراً وطائفة عضوا على اسيافهم فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين) جريمة أصحاب الجمل مزدوجة لقيامهم في وجه السلطة الشرعية من جهة ولأنهم جرؤا معاوية على التمرد من جهة أخرى فقد سنّوا سنة سيئة تلاحقهم إلى الآخرة. . .

وعلى كل حال فإنهم بعد خروجهم من المدينة وقد فارقوا الإمام معلنين عليه

الحرب توجهوا إلى البصرة ثغر الإسلام الهادىء الآمن... طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ثالوث عصوا الله في خروجهم وتمردهم وليتهم اقتصروا في المعارضة على مجرد الخلاف السياسي بل قدموا البصرة الآمنة وعليها عمال أمير المؤمنين أميرها وخازن بيت مال المسلمين ومن يدور في فلكهما.. إنه قطر دخل في طاعة أمير المؤمنين يعيش الهدوء والاطمئنان دخل عليه الناكثون ففرقوا الكلمة ومزقوا الجماعة وشتتوا الوحدة... كانت البصرة وحدة مجتمعة وبدخول الناكثين تحولت إلى الفتنة الدامية حيث عمدوا إلى شيعة علي فقتلوا طائفة منهم غدراً بعد أن أعطوهم الأمان والسلام وأبت طائفة أخرى عهدهم وميثاقهم وبقوا شاهرين سيوفهم في وجه الناكثين يضربونها حتى قضوا شهداء ولقوا الله صادقين في ولائهم للحق والإيمان ولمن بايعوه وأعطوه الولاء...

٢١٩ ـ ومن كلام له عليه السلام

لما مر بطلحة بن عبد الله وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل:

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهذَا ٱلْمَكَانِ غَرِيباً! أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ ٱلْكَوَاكِبِ! أَدْرَكْتُ وَتْرِي(١) مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَتْنِي(٢) أَعْيَانُ بَنِي جُمَحَ، لَقَدْ أَتْلَعُوا(٣) أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا(٤) دُونَهُ.

اللغة

١ ـ **الوتر** : الثأر.

٢ ـ **أفلت الطائر** : اطلقته وخلصته.

٣ ـ **اتلعوا أعناقهم** : رفعوها ورجل أتلع أي طويل العنق.

٤ ـ **وقصت أعناقهم** : كسرت.

الشرح

(لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان غريباً، أما والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب أدركت وتري من بني عبد مناف وافلتتني أعيان بني جمح، لقد اتلعوا أعناقهم إلى أمر لم يكونوا أهله فوقصوا دونه) دارت معركة الجمل على الناكثين وذهب ضحيتها طلحة والزبير وغيرهما من الأعيان والاتباع وعندما انتهت المعركة وقف أمير المؤمنين على القتلى يتصفحهم ويستعرض الجثث فوقف على طلحة بن عبد الله فعز عليه أن تكون نهايته بهذه الصورة التعيسة التي أنزلته عن مقامه في الدنيا وفي الآخرة... عز على الإمام أن تتهاوى الصروح الكبيرة أمام الأطماع الصغيرة... طلحة يتصاغر

ويتقزم ويخرج لحرب الخليفة الذي بايعه بيده الشلاء بالأمس فنكث بيعته اليوم. . .

قال الإمام هذه الكلمات المعبرة لقد أصبح أو محمد بهذا المكان غريباً ليس هذا وطنه ولا دياره ولا القوم أهله فما أخرجه؟!. . أخرجته المطامع وحب الدنيا والتسلط والزعامة. . .

أما والله قسماً باراً لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب وفي الفلوت إنه يكره لقريش أن تموت في هذه الساحة الضالة مهمة قريش ودورها أن تموت في ساحة الجهاد ضد الكفر والنفاق فكيف أضحت تقاتل الإسلام والمسلمين إنه يكره لها هذا الدور الخسيس الذي يجب أن تترفع عنه. . ثم بين أنه قد أدرك ثأره لأصحابه الذين قتلهم طلحة بالأمس في البصرة عندما دخلها وقد أعطى بعضهم الأمان ثم قتلهم وقتل بعضهم الآخرين بعد معركة دامية لقد أدرك ثأره من بني عبد مناف الذين منهم طلحة وإنما كان منهم كما قيل من جهة أن أمه من بني عبد مناف ولكن فرّ أعيان بني جمح، قد هربوا من سيفه فلم يدركهم. . .

ثم أشار إلى أن قريش مدت أعناقها وتطاولت لتطال الخلافة وحاولت جهدها في سبيل ذلك ولكنها نالت نصيبها من القتل ولم تدرك ما أملّت. . . لقد راحت ضحية المطامع التي لم يتحقق لها منها أقلها وأدناها.

ترجمة طلحة بن عبد الله.

طلحة بن عثمان بن عمرو بن كعب بن[1] سعد بن تيم بن مرة يكني أبا محمد.

أمه: الصعبة بنت عبد الله بن عمار الحضرمي أسلم قديماً ويقال أن سبب إسلامه إنه كان في مدينة بصرى فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم أفيهم أحد من أهل الحرم؟.

قال طلحة: نعم أنا فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قال: قلت: ومن أحمد؟ قال ابن عبد الله بن عبد المطلب هذا شهره الذي يخرج فيه وهو آخر الأنبياء ومخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ فإياك أن تسبق إليه قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم محمد بن عبد الله الأمين تنبأ. . . فلما سمع راح إلى النبي وأسلم.

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢١٤.

هاجر طلحة إلى المدينة مع المهاجرين وحضر المشاهد كلها وشلت أصبعه يوم أحد من إصابة أصابته بها كان أحد الستة أصحاب الشورى العمرية التي انتخبت عثمان خليفة ثم كان من أشد الناس عليه حتى قتل وعندما بويع الإمام كانت يد طلحة الشلاء أول يد تبايعه ثم نكث البيعة وخرج مع الزبير وأم المؤمنين عائشة إلى البصرة يطلبون بدم عثمان وكانت موقعة الجمل فقتل فيها طلحة بسهم رماه به مروان بن الحكم كما ورد في الصحاح وكان طلحة من أثرياء الصحابة الذين جمعوا المال واكتنزوه نقل صاحب الطبقات الكبرى قتل طلحة بن عبد الله يرحمه الله وفي يد خازنه ألفا ألف درهم ومائتا ألف درهم وقومت أصوله وعقاره ثلاثين ألف ألف درهم قتل سنة ٣٦ في جمادي الأولى في معركة الجمل.

ترجمة عبد الرحمن بن عتاب بن اسيد.

عن ابن أبي الحديد ج ١١ ص ١٢٣.

عبد الرحمن بن عتاب بن اسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ليس بصحابي.

وأبوه عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أميه بن عبد شمس من مسلمة الفتح ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى حنين استعمله عليها فلم يزل أميرها حتى قبض رسول الله ﷺ وبقي على حاله في خلافة أبي بكر الصديق ومات هو وأبو بكر في يوم واحد ولم يعلم أحدهما بموت الآخر.

وعبد الرحمن هذا هو الذي قال أمير المؤمنين فيه وقد مرّ به قتيلاً يوم الجمل: لهفي عليك يعسوب قريش! هذا فتى الفتيان هذا اللباب المحض من بني عبد مناف شفيت نفسي وقتلت معشري إلى الله أشكو عجري وبجري.

فقال له قائل: لشدّ ما اطريت الفتى يا أمير المؤمنين منذ اليوم قال: إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك.

وعبد الرحمن هذا هو الذي احتملت العقاب كفه يوم الجمل وفيها خاتمه فالقتها باليمامة فعرفت بخاتمه وعلم أهل اليمامة بالوقعة..،

٢٢٠ ـ ومن كلام له عليه السلام

في وصف السالك الطريق إلى الله سبحانه

قَـدْ أَحْيَـا عَقْلَـهُ، وَأَمَـاتَ نَفْسَـهُ، حَتَّـى دَقَّ(١) جَلِيلُـهُ(٢) وَلَطُـفَ(٣) غَلِيظُهُ(٤)، وَبَرَقَ(٥) لَهُ لاَمِعٌ كَثِيرُ ٱلْبَرْقِ، فَأَبَانَ(٦) لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ ٱلأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلاَمَةِ، وَدَارِ ٱلإِقَامَةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلاَهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ ٱلأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا ٱسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ.

اللغة

١ ـ دق الشيء	:	لطف وصغر.
٢ ـ الجليل	:	العظيم.
٣ ـ لطف	:	صغر ودق.
٤ ـ الغليظ	:	خلاف الدقيق والرقيق واللين.
٥ ـ برق	:	ظهر ولمع والبرق نور يلمع في السماء على أثر انفجار كهربائي في السحاب.
٦ ـ أبان له الطريق	:	كشفه وأظهره.

الشرح

(قد أحيا عقله وأمات نفسه حتى دقّ جليله ولطف غليظه وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه) في هذا الكلام صورة مثلى للإنسان المسلم... ما يجب أن يكون عليه مواظباً وله طالباً وعنه باحثاً... صورة رمزية استند إليها أهل العرفان في طريقتهم وقالوا إنه عليه السلام يشير إليهم...

وقال المسلم المتفتح المتطلع إلى الله المتوجه إليه إنه عليه السلام أراده ورسم له صورته وما يجب أن يكون عليه. . .

وعلى كل حال هي صورة فريدة من نوعها يدفعنا الإمام إلى الوقوف أمامها قليلاً لعل أحدنا يستفيد منها في اكتساب موقف أو صفاء نفس أو يعيد النظر في سلوكه فيصحح مساره في اتجاهها. . .

صورة الإنسان الذي أحيا عقله وحياة العقل بالعلم والمعرفة، فكر في أمور الدنيا والآخرة ولم يقدم على عمل أو يحجم عنه إلا بعد أن يفكر في عواقبه ويعرف حله من حرامه ونفعه من ضرره فيستعمل عقله في كل حركاته وفي مقابل أحياء عقله أمات نفسه وهي النفس الأمارة بالسوء التي تطالبه باستمرار بالتمرد على الحق والخروج عن العدل. . . هذه النفس قضى عليها بحيث أضحت ميته لا تؤثر على قراره العادل ومنطقه الصادق. . .

وهكذا بقي مستمراً حتى دق جليله ولطف غليظه فترى بدنه قد خف ونحف كما قال أمير المؤمنين في خطبة المتقين في وصفهم «أجسامهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة» يعيشون في الدنيا من أجل أهدافهم لا من أجل أجسامهم. . .

وعندما أحيا عقله وأمات نفسه انكشفت له الأمور ووصل بهذه المجاهدة إلى الهدى وإلى اليقين وأدرك حقائق الأشياء وأسرارها كما قال تعالى: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**. .﴾.

فإن هذا العلم مع العمل به ينكشف أمام الإنسان من خلالهما طريق السعادة وطريق رضى الله وانفتحت له الأبواب متتابعة إلى أن يصل إلى باب الجنة من حيث إنه أحرز رضا الله ودخل دار الإقامة والسلامة التي هي الجنة وعندها استقر في دار الأمن والراحة التي لا فزع ولا تعب فيها وذلك كله لأنه كان يستعمل عقله ويرضي ربه فحوّل عقله إلى عقل رحماني يطلب به ومن خلاله مرضاة الله. . .

الفهـرس